الإبريز

من كلام سيدي عبد العزيز الدّباغ

تأليف

سيدي أحمد بن المبارك السّجلماسي المالكي

المتوفّى سنة ١١٥٦ هـ

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السّنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive Rights by
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Libanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الثالثة
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٧٨٥٤٢ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2205-3
9782745122056 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المصنف(*)

هو أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي الفقيه المالكي المدرّس بفاس. توفي سنة ١١٥٦ هـ.

له من التآليف:

- إنارة الأفهام بسماع ما قيل في دلالة العام. من كتب الزيتونة بتونس.
- تفسير آية قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾.
- ردّ التسديد في مسألة التقليد.
- شرح المحلّي على جمع الجوامع.
- طرر على شرح سعيد قدورة على السلم.
- كشف اللبس عن المسائل الخمس.
- الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز. وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

وهذا الكتاب ذكره إسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون (١/ ٥٤٤) باسم «الذهب الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز».

---

(١) انظر هدية العارفين (١/ ١٧٤).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فتح لأوليائه طريق الوسائل، وأجرى على أيديهم الكريمة أنواع الفضائل، فمن اقتدى بهم انتصر واهتدى، ومن حاد عن طريقهم انتكس وتردى، ومن تمسك بأذيالهم أفلح وأدرك، ومن قابلهم بالاعتراض انقطع وهلك.

أحمده حمد من علم أن لا ملجأ منه إلا إليه، وأشكره شكر من تحقق أن خيري الدنيا والآخرة بيديه، وأستعينه استعانة من لا يعول في الأمور إلا عليه، وأصلي على سيدنا محمد وعلى آله وأسلم عليه وعلى آله عدد خلق الله الكريم وأفضاله.

(أما بعد) فإنه لما منَّ الله علي وله الحمد والشكر بمعرفة الولي الكامل، الغوث الحافل، الصوفي الباهر، نجم العرفان الزاهر، صاحب الإشارات العلية، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والهمم العرشية، منشىء معالم الطريقة بعد خفاء آثارها، ومبدي علوم الحقائق بعد خبو أنوارها، الشريف الحسيب، الوجيه النسيب، ذي النسبتين الطاهرتين الجسمية والروحية، والسلالتين الطيبتين الشاهدية والغيبية، والولايتين الكريمتين الملكية والملكوتية، المحمدي العلوي الحسني، قطب السالكين، وحامل لواء العارفين، شيخنا وسيدنا ومولانا عبد العزيز ابن سيدنا ومولانا مسعود، ابن سيدنا ومولانا أحمد، ابن سيدنا ومولانا محمد، ابن سيدنا ومولانا محمد، ابن سيدنا ومولانا أحمد، ابن سيدنا ومولانا عبد الرحمٰن، ابن سيدنا ومولانا قاسم، ابن سيدنا ومولانا محمد، ابن سيدنا ومولانا أحمد، ابن سيدنا ومولانا قاسم، ابن سيدنا ومولانا محمد، ابن سيدنا ومولانا إبراهيم، ابن سيدنا ومولانا عمر، ابن سيدنا ومولانا عبد الرحيم، ابن سيدنا ومولانا عبد العزيز، ابن سيدنا ومولانا هارون، ابن سيدنا ومولانا قنون، ابن سيدنا ومولانا علوش، ابن سيدنا ومولانا منديل، ابن سيدنا ومولانا علي، ابن سيدنا ومولانا عبد الرحمٰن، ابن سيدنا ومولانا عيسى، ابن سيدنا ومولانا أحمد، ابن سيدنا ومولانا محمد، ابن سيدنا ومولانا عيسى، ابن سيدنا ومولانا إدريس، ابن سيدنا ومولانا إدريس، ابن سيدنا ومولانا عبد الله الكامل، ابن سيدنا ومولانا الحسن المثنى، ابن سيدنا ومولانا الحسن السبط، ابن سيدنا ومولانا علي رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا ببركاتهم آمين.

فشاهدت من علومه ومعارفه وشمائله ولطائفه ما غمرني وبهرني وقادني بكليتي وأسرني.

وسمعت منه في جانب سيد الوجود وعلم الشهود سيدنا ومولانا محمد ﷺ من المعرفة بقدره العظيم، وجاهه الكريم، ما لم يطرق سمعي منذ نشأت من إنسان ولا رأيته مسطوراً في ديوان، وسترى بعضه إن شاء الله تعالى أثناء الكتاب، وأعرف الناس به أولاهم به يوم الحساب، وكذا سمعت منه من المعرفة بالله تعالى وعليّ صفاته وعظيم أسمائه ما لا يكيف ولا يطاق، ولا يدرك إلا بعطية الملك الخلاق.

وكذا سمعت منه من المعرفة بأنبياء الله تعالى ورسله الكرام عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام ما تخصه به كأنه كان مع كل نبي في زمانه، ومن أهل عصره وأوانه؛ وكذا سمعت منه من المعرفة بالملائكة الكلام، واختلاف أجناسهم وتفاوت مراتبهم العظام ما كنت أحسب أن البشر لا يبلغون إلى علم ذلك، ولا يتخطون إلى ما هنالك.

وكذا سمعت منه من المعرفة بالكتب السماوية والشرائع النبوية السالفة الأعصار المتقادمة الليل والنهار ما تقطع وتجزم إذا سمعته بأنه سيد العارفين وإمام أولياء أهل زمانه أجمعين، وكذا سمعت منه من المعرفة باليوم الآخر وجميع ما فيه من حشر ونشر وصراط وميزان ونعيم باهر ما تعرف إذا سمعته أنه يتكلم عن شهود وعيان، ويخبر عن تحقيق وعرفان، فأيقنت حينئذ بولايته العظمى، وانتسبت لجنابه الأحمى، وقلت: الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله.

فإن كل مؤمن إنما تكون طلبته معرفة الأمور السابقة وبذلك تكون صفقته رابحة ونافقة، وقد سأل سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام سيدنا ومولانا محمداً ﷺ عن حقيقة الإيمان فقال:

«أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ الله».

فمن كان أعرف الناس بهذه الأمور كان أحسنهم إيماناً وأكملهم عرفاناً، فهذه - وفقك الله - هي المحجة البيضاء، والطريقة التي فجرها أضاء، وكان اجتماعي به - ولله الحمد - في رجب سنة خمس وعشرين ومائة وألف فبقيت في عشرته وتحت لواء محبته أسمع من معارفه التي لا تعد ولا تحصى، ولم يجر الله تعالى على يدي تقييد شيء من كلامه، بل كنت أسمعه وأعقله وأذكره لبعض أحبابي وخاصة أصحابي، فكل من سمعه يتعجب منه ويقول: ما سمعنا مثل هذه المعارف، ويزيدهم تعجباً كون صاحبها رضي الله عنه أمياً لم يتعاط العلم، ومن الذين أعرضوا عنه في الظاهر غاية الإعراض وكل من سمع منهم شيئاً يبقى متلذذاً به اليوم واليومين والجمعة والجمعتين، وإذا لقيتهم ولقوني سألوني هل سمعت شيئاً من تلك المعارف والفوائد اللطائف؟ فأذكر لهم ما تيسر فيزيدهم ذلك حباً وتعجباً، ولولا خشية الملل لسميت هؤلاء الذين كانوا يسمعون مني كلامه ويتلذذون به فإن من عرفهم بأسمائهم علم مكانة شيخنا رضي الله عنه لشهرتهم في الناس بالولاية والتعظيم

والتوقير إلى النهاية مع كثرة مخالطتهم للصالحين والأولياء العارفين وطول معاشرتهم لهم المعاشرة التامة بالقلب والحب واللب، حتى علموا بذلك أسرار الولاية وأوصاف المحبين وسمات العارفين، ومناقب الصادقين وأحوال الهادين المهتدين، هذا مع كونهم من أكابر العلماء وفحول الفقهاء، وحين سمعوا مني بعض كلام شيخنا رضي الله عنه أمروني بالدوام على محبته وقالوا هذا والله الولي الكامل والعارف الواصل.

وبالجملة فما سمع أحد كلامه إلا ويبادر إليه بالقبول التام وستقف على ذلك بما تراه أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه.

(ولما كان رجب) سنة تسع وعشرين ومائة وألف ألهمني تبارك وتعالى وله الحمد والشكر تقييد بعض فوائده لتعم به الفائدة وتتم به العائدة فجمعت بعض ما سمعته في شهر رجب وشعبان ورمضان وشوال وذي القعدة، وإذا هو يقرب من خمسة عشر كراساً فعلمت أني لو قيدت ما سمعت منه في السنين الأربع الماضية لكان أزيد من مائتي كراس وآفة العلم عدم التقييد.

واعلم وفقك الله أن جميع ما قيدت إنما هو قطرات من بحر زخار لا قعر له ولا ساحل، تلاطمت أمواجه فتطايرت علينا منها قطرات نفعنا الله بها، فتلك القطرات هي التي لو قيدتها لزادت على مائتي كراس.

وأما العلوم التي في صدر الشيخ رضي الله عنه فلا يحصيها إلا ربه تعالى الذي خصه بها، والله تعالى يوفقنا لما يحبه ويرضاه ويسعدنا بحسن قضاه.

فأقول وبالله تعالى أستعين وإياه أسأل، ومنه أستمد، وإليه أرغب، وبه أستكفي فهو حسبي ولا أزيد: إن هذا المجموع المبارك المقصود منه هو جمع بعض ما سمعناه من شيخنا رضي الله عنه؛ ولا بد أن نقدم على ذلك مقدمة تتعلق بشمائل هذا الشيخ الكريم وكيف كانت بداية أمره وكيف كان فتحه، ومن لقنه الذكر والشيوخ الذين لقيهم في الظاهر وفي الباطن وغير ذلك مما ينجر إليه الكلام وينحصر ذلك في ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في أولية أمره قبل ولادته

سمعته رضي الله عنه يقول: كان سيدي العربي الفشتالي ولياً من أولياء الله تعالى، أخذ عن الشيخ سيدي محمد بن ناصر صاحب وادي زرعة نفعنا الله به، وأخذ ثانياً عن سيدي مبارك بن علي، وكان سيدي مبارك المذكور يخدم الشطاطيب، فلقيه سيدي العربي بجامع القرويين من محروسة فاس، فتوسم سيدي العربي فيه الخير والصلاح وقال له يا سيدي علمني كيف يحصل السر لأربابه، فقال له سيدي مبارك: اعطس، فقال سيدي العربي ما جاءني عطاس في هذا الوقت، فقال سيدي مبارك وكذلك أنا ما جاءني كيف أعلمك ذلك؟ فالتزمه سيدي العربي ودام على محبته إلى أن نال منه ما نال.

قال رضي الله عنه: وكانت لسيدي العربي أخت، وكانت لهذه الأخت بنت، وأبو البنت علال القمارشي من ذوي السعة والغنى فمات علال القمارشي وتزوجها رجل من أهل مكناسة الزيتون بعد علال القمارشي، فبقيت البنت عند سيدي العربي فجعل يربيها ويحضنها ويحبها محبة شديدة وينفق عليها متاعه، وكان سيدي العربي مع كونه ولياً فقيهاً من الفقهاء ومقرئاً من جملة المقرئين فكان يدرس العلم لأهله ويصحح الطلبة عليه ألواحهم ويجودونها عليه، فكان أبو مسعود من جملة من يأخذ عنه العلم، فلما كان ذات يوم وقد تم المجلس ناداه سيدي العربي، وقال له: إني أريد أن أزوجك ابنة أختي وكان اسم أخته راضية واسم ابنتها فارحة فقال له أبو مسعود: إن أعطيتني فإني أقبل فقال: أنا أعطيتك فقال: أبو مسعود: وأنا قبلت، فقال له سيدي العربي: والصداق والجهاز كله على لا ينوبك أنت منه شيء، ففرح أبي غاية الفرح وكان سيدي العربي يتودد إليه قبل ذلك غاية الوداد، وكلما لقيه أعطاه ما تيسر وفرح به فلما تم العقد بينهما جهز سيدي العربي ابنة أخته وبعث بها إلى أبي، ثم لقيه بعد ذلك وقال له جئني إلى حانوتي وكان يشهد في سماط العدول، فكان أبي يجيئه كل يوم بعد صلاة العصر فيعطيه سيدي العربي موزونتين كل يوم.

وسمعت سيدي الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمٰن الفاسي يقول: كنت أسلك لوحي على سيدي العربي الفشتالي فيجيء أبوك مولاي مسعود الدباغ فيعطيه سيدي العربي كلما قبض في الحانوت، وكانت لابنة أخته أرض للحراثة كثيرة بزواغة الموضع المعروف ورثتها من أبيها علال القمارشي، فقال سيدي العربي لأبي مسعود. إن البنت التي عندك رشيدة فتوكلك على بيع البلاد التي لها بزواغة فاذهب وبعها ولا تترك منها شيئاً فذهب إلى زوجته فوكلته، وكانت لها أخت من أبيها فذهب إليها أبي لتوكله على بيع الجميع فأبت،

فباع نصيب أمي وبقيت أختها تستغل بلادها نحو الثلاثة الأعوام ثم جاءت الودية الطائفة المعروفة بالظلم فغصبوا بلاد الناس التي بزواغة فغصبت أرض أختها في جملة ما غصب، فمن ذلك اليوم ما انتفعت منها بشيء، فعلموا أن ذلك كشف من سيدي العربي. قال: ولم يزل سيدي العربي يتودد إلى أبي ويأتي له بالطعام العجيب حتى لقد سمعت أمي رحمها الله تعالى تقول: منذ مات سيدي العربي ما أكلنا الطنجية، كان رحمه الله يصنعها لنا كل يوم، فإذا صلى بالناس العشاء في مسجده دق علينا الباب فنخرج إليه فيمكنها لي، هذا شغله معنا كل يوم حتى توفي رحمه الله تعالى.

وكان يقول لنا إنه يتزايد عندكم ولد اسمه عبد العزيز له شأن عظيم في الولاية.

وسمعت أمي تقول: إن سيدي العربي الفشتالي قال: رأيت النبي ﷺ فقال لي إنه سيزيد ولي كبير عند ابنة أختك، فقلت يا رسول الله ﷺ ومن أبوه؟ فقال ﷺ: أبوه مسعود الدباغ، فهذا كان أعظم سبب في رغبة سيدي العربي في مصاهرة أبي مسعود، وكان سيدي العربي يتمنى أن يدرك ولادة مولاي عبد العزيز، فلما كان الوباء الذي جاء عام تسعين وألف مات سيدي العربي في ذلك الوباء، فلما حضرته الوفاة أرسل إلى أبي مسعود فجاءه فقال أين زوجتك، فأرسلوا إليها فلما حضرا معاً قال لهما سيدي العربي هذه أمانة الله عندكما حتى يزيد عندكما عبد العزيز فأعطوه هذه الأمانة، قال: وكانت الأمانة شاشية وسباطاً كتابياً أسود لأنه هو الملبوس في ذلك الوقت قال فأخذت أمي الأمانة وصانتها فزاد عندها في ذلك الحمل بنت ثم بقيت ما شاء الله ثم حملت بي فزدت عندهم وبقيت حتى بلغت وصمت رمضان، فألهم الله تعالى أمي إلى الأمانة فذهبت فجاءتني بها وقالت يا ولدي إن سيدي العربي الفشتالي أوصى إليك بهذه الأمانة، قال فأخذتها وجعلت الشاشية على رأسي ولبست السباط في رجلي فحصلت لي سخانة عظيمة حتى دمعت عيناي وعرفت ما قال لي سيدي العربي وفهمت إشارته والحمد لله رب العالمين.

وكان ذلك سنة تسع ومائة وألف، قلت هذا ما سمعت منه في شأن سيدي العربي ولم أدرك أنا سيدي العربي بل كنت في ذلك الوقت الذي مات فيه في المهد ابن ستة أشهر أو ما يقرب منها، غير أني سمعت الناس يثنون عليه بالخير ويذكرونه بالورع والزهد وقيام الليل.

وسمعت من الثقات أن سيدي أحمد بن عبد الله الولي الكبير، العارف الشهير، صاحب المخفية رضي الله عنه وكان يثني كثيراً على سيدي العربي الفشتالي ويقول: إن سيدي العربي كان من أكابر الأولياء العارفين، وقد علمت جلالة سيدي أحمد بن عبد الله المذكور وأمانته واتفاق الناس على ولايته وإجماعهم على سره وكشفه وسطوع نور بصيرته.

وقد سمعت العدل الأرضي الفقيه سيدي عبد القادر أحماموش هو من القاطنين بمدينة صفر، وكان من أصحاب سيدي أحمد بن عبد الله المذكور ومن المكثرين زيارته يقول:

لما مات سيدي العربي الفشتالي قال لنا سيدي أحمد بن عبد الله نفعنا الله به: إن سدي العربي الفشتالي كان من أكابر الأولياء، ولو لم يمت ما ذكرت لكم شيئاً من أموره. قال وكنت من طلبة سيدي العربي وممن يحضر درسه ويلازمه وما كنا قط نظنه ولياً لأنه كان يخفي أمره.

قال: وسمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: بينما أنا مع سيدي العربي الفشتالي بسايس الموضع المعروف إذ قال لي إنه حدث أمر، فقلت وما هو؟ قال مات سيدي محمد بن ناصر رحمه الله الآن، فقلت وما يدريك، فقال مات من غير شك، قال سيدي أحمد بن عبد الله فتعجب منه ثم قال لي انظر إلى هذا الذي أمامنا؛ فإذا هو خيال بعيد جداً، فقال إنه يأتينا بخبر سيدي محمد بن ناصَر، قال فجعلنا نسير حتى اجتمعنا مع ذلك الرجل، فقلنا له ما الخبر؟ فقال مات سيدي محمد بن ناصر.

قال: وسمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كنا في وقت الحصار بعد موت زيدان تضربنا الشبارات التي بالقصبة الجديدة، وكانوا ينصبون عليها الأنقاض حتى كانت كورتها تبلغ بقرب ديار سيدي أحمد بن عبد الله، قال سيدي أحمد فذهبت لأنظر مواضع الشبار فخرجت وما يعلم ما في قلبي أحد فلقيني سيدي العربي الفشتالي فقال لي إلى أين تريد؟ فقلت لأنظر إلى الشبارات، فقال لا تفعل، فقلت له لا بد أن أفعل، فقال إن كنت ولا بد ذاهباً فأنا أذهب معك، قال فذهب معي فجعلت كلما أردت أن أنظر شباراً يرغبني سيدي العربي وأساعفه حتى تغفلته مرة فنظرت إلى شبار في برج فسقط ذلك البرج بأهله.

قال: وسمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كنت ذات يوم بالقرويين فلقيني سيدي العربي ولا نية لي في زواج، فلما رآني قال لي المرأة مباركة فقلت أية امرأة؟ فقال لي المرأة التي تتزوجها، فقلت ما في خاطري شيء، فقال إنك تتزوجها، قال سيدي أحمد بن عبد الله فما بقيت إلا سبعة أيام وإذا بخاطري تحرك للزواج فتزوجت.

قلت: وسمعت أنا قريباً من هذه الحكاية من سيدي أحمد بن عبد الله وأبهم فيها من أخبره.

قال: وسمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كنت مع سيدي العربي الفشتالي فجعل يتكلم معي في شأن الأولياء، فجعلت أذكر له عدداً منهم، فقال لي إني أتكلم معك في الأكابر وأما الأصاغر فإني أعرف من هنا إلى بني بازغة وهي على مرحلة من فاس نحواً من أربعمائة ولي، قلت وسمعت أنا هذه الحكاية من سيدي أحمد بن عبد الله وأبهم أيضاً صاحب الحكاية.

قال: وسمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كان سيدي العربي الفشتالي يخفي أحواله ويكتم أسراره، ولقد تكلم ذات يوم بعض طلبته فقال: أتظنون أن الكشف شيء،

إنما هو شطارة وسرعة فهم، وإن شككتم في هذا فانظروا إليّ فإنكم تعرفوني وتعرفون أحوالي كلها، وتعرفون أني لست بولي،فقالوا له نعرفك ونعرف أنك لست بولي، فقال سيدي العربي الفشتالي لواحد منهم بعينه مكاشفاً: ألست أنك تريد تفعل كذا في وقت كذا، فقال الطالب نعم، فقال سيدي العربي هو ما قلت إن الكشف شطارة، فصدقوه وظنوا أن الكشف شطارة، قال وتلاهى سيدي العربي عنهم.

قال: وسمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: دخلت ذات يوم مسجد القرويين فوجدت فيه سيدي العربي الفشتالي وهو متغير الوجه أصفر اللون، فقال لي ما في هذه الساعة ما يتكلم به معك ولا مع غيرك؟ فقلت له ولم؟ فقال إني قرأت هذا البيت من تائية ابن الفارض وهو قوله:

فَلَوْ خَطَرَتْ لِي فِي سِوَاكَ إِرَادَةٌ عَلَى خَاطِرِي سَهْواً قَضَيْتُ بِرِدَّتِي

فوجدت إرادة خطرت لي في سواهم فقضيت بردتي، فما في خير ولا ما يخالط ولا يعرف وتغير كثيراً، قال سيدي أحمد بن عبد الله فقلت له إنما هذه حالة نزلت بابن الفارض ولم تدم عليه، فقال سيدي العربي جزاك الله خيراً لقد سرى عني من كلامك هذا. قال وكان مولاي العربي القادري ممن أدرك شيئاً من طريق القوم ولاحت عليه شواهد أنوارها، وكان ممن يعرف سيدي العربي الفشتالي وكان لا يظن فيه ولاية بل يعتقده من جملة العلماء لا غير.

قال: وكان سيدي العربي إذا لقيه يفرح به ويرحب به غاية الترحيب. قال: فلما كان ذات يوم وجد مولاي العربي سيدي العربي مع سيدي أحمد بن عبد الله فوجدهما يتكلمان في معارف وعلوم عالية، قال فسأل مولاي العربي القادري سيدي محمد دريج النطاوني وهو بضم الدال وتشديد الراء بعدها ياء وجيم في آخره، فقال له وهل يتكلم سيدي العربي مع سيدي أحمد بن عبد الله في هذه المعارف في غير هذا اليوم؟ أو ما تكلم معه فيها إلا في هذا اليوم؟ فقال له سيدي محمد دريج دائماً يتكلمان في هذه المعارف، قال صاحبنا سيدي عبد القادر المشد: فعلم مولاي العربي بولاية سيدي العربي الفشتالي وعلم سيدي العربي أن مولاي العربي علم بها، قال فمن ذلك اليوم ما لقيه إلا وتستر منه وانقطع ما كان من الفرح والترحيب إذا لقيه لكثرة ما كان يخفي أموره.

وسمعت صاحبنا المذكور يقول: كنت قاطناً بفاس في حصار زيدان فطال الأمر على أهل فاس ولحقهم من ذلك ضرر عظيم، قال فكان سيدي العربي الفشتالي يقول: ما لكم بد من مولاي إسماعيل طولتم أو قصرتم، فكان يذكر هذا الكلام دائماً حتى عرف به فصار الناس الذين لا يحبون السلطان يقولون: إن سيدي العربي الفشتالي إسماعيل، قال فما ذهب الليل والنهار حتى ظهر مصداق ما قال سيدي العربي وألقوا السلم وطلبوا الأمان من السلطان نصره الله، ووقع الصلح والحمد لله رب العالمين.

وسمعته يقول: سمعنا من جيران سيدي العربي الفشتالي يقولون: كان سيدي العربي الفشتالي يحيي عامة الليل بالقيام وتلاوة القرآن، فكانوا في أول الليل يسمعون قراءته ثم لا يزال كذلك حتى تنزل به أحوال وواردات إلٰهية فلا يسمعون في آخر الليل إلا حركة ذاته بالاضطراب والاهتزاز والدريج على الأرض رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

وسمعت الثقة الأرضي الفقيه سيدي المهدي بن يحيى يقول: إن سيدي أحمد بن عبد الله نفعنا الله به كان كثيراً ما يثنى على سيدي العربي الفشتالي ويصفه بالولاية التامة والكشف الكبير ويحكي عنه في ذلك حكايات كثيرة، قال: فمن ذلك أني سمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كنت مع سيدي العربي الفشتالي بسوق الخميس قال: والسلطان مولاي رشيد رحمه الله في ملكه والملك في استعلاء أمره ولم يبق منازع ولا معارض وطاب له الملك وجاءه الهناء، فبينما أنا مع سيدي العربي الفشتالي في سوق الخميس فقال: لي إني الآن أسمع النديب على مولاي رشيد يشير إلى موته وكان موته بمراكش، فقلت: كيف يكون هذا، والآن استفحل ملكه قال: فلم يكن إلا قليل حتى جاء الخبر بموت مولاي رشيد رحمه الله.

وسمعت سيدي المهدي المذكور يقول: سمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كان سيدي العربي الفشتالي من أهل الخير والصلاح والولاية الظاهرة وكان ممن يحافظ على ظاهر الشرع المحافظة التامة، فكنت معه ذات يوم بمسجد القرويين ونحن نتحدث فبينما نحن نتحدث إذ سمعنا المؤذن يؤذن قال: فخرج سيدي العربي من المسجد وغاب هنيهة ثم رجع، فقلت له ما فعلت في خروجك؟ فإنك لم تقض حاجة حتى تقول إنك خرجت إليها وليس وقت صلاة جماعة حتى تقول إنك خرجت إليها فأي شيء خرجت تصنع؟ فسكت عني فألححت عليه فقال إنك لسؤول خرجت لأخطو خطوات من جاء إلى مسجد ربه ليصلي فيه فإن الخطوات التي كانت قبل جلوسي معك إنما كانت لأجل الجلوس معك، فأعجبني ذلك من أمره غاية وعلمت أنه من المحافظين على آداب الشريعة.

وسمعته يقول: سمعت سيدي أحمد بن عبد الله يقول: كان سيدي العربي الفشتالي حسن الخلق كثير التحمل والصبر على إذاية الخلق وكان من جملة العدول، فشهد ذات يوم على رجل بشهادة حق فغضب الرجل فواجه سيدي العربي بالشتم والسب، فلما فرغ من شتمه لم يزد سيدي العربي على أن قال له إن الشهادة التي شهدت بها عليك وجهها في الشرع كذا وحكمها كذا ووجه صوابها كذا، فلم يزد على أن ذكر له وجه ما فعل وأعرض عن شتمه وسبه، قال: فتعجب شاتمه من حسن خلقه وندم على ما صدر منه وتاب.

وسمعت: سيدي المهدي المذكور يقول: ما زلنا نسمع من جيران سيدي العربي الفشتالي الثناء عليه ويذكرونه بالخيرحتى أنهم ذكروا عنه أنه كان إذا اشترى اللحم لداره *اشتراه لجيرانه ويقول* لا أطبخ اللحم وحدي وأترك جيراني بلا لحم.

وسمعت غير واحد من الثقات يقول: إن سيدي العربي قدم الزاوية المخفية قبل أن يكون بابها الكبير يعني باب المسجد الكبير، فنظر إلى موضع الباب الكبير اليوم وقال: لا بد أن يفتح في هذا الموضع باب يدخل الناس منه إلى المسجد وسمع منه هذا الكلام غير واحد، منهم سيدي المهدي الفاسي شارح دلائل الخيرات، فلم يذهب الليل والنهار حتى فتحوا الباب في الموضع المذكور وهو الباب المعروف الذي يسلك منه إلى دار الوضوء.

وسمعت العدل الأرضى الحاج محمد بن سودة يقول: سمعت فلاناً يقول دخلت على سيدي العربي الفشتالي في داره فوجدته يروح ويشطح فقلت له ما هذا؟ فقال:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وسمعت: العدل سيدي العالم الشامي يقول: كنت أتكلم مع سيدي العربي الفشتالي وأمدح له الوقت وحكامه وأذم الحكام السابقين مثل ابن صالح وأمثاله فذكر لي رضي الله عنه ما سيقع من حكام الزمان فعلمت أن ذلك من كشوفاته رضي الله عنه.

وسمعته يقول هو وغيره: إن سيدي العربي كان في العدول يشهد وكان يتورع كثيراً فلا يشهد إلا فيما هو مثل النهار، وإذا أعطى أجرة كثيرة ردها ولا يأخذ إلا ما قل، وإذا جاء من يشهد عنده وقبض منه ما يقبض ثم جاء آخر يشهد عنده يقول له اذهب إلى جاري فإنا قد استفتحنا.

وكراماته رضي الله عنه كثيرة ومناقبه في الناس شهيرة وكفاه فخرا وجلالة ذكر الربط الذي وقع بينه وبين شيخنا غوص الزمان وسيد العصر والأوان والله تعالى يجعلنا بمنه وفضله وكرمه من المحسوبين عليهم آمين آمين آمين بجاه سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

الفصل الثاني

في كيفية تدريجه إلى أن وقع له الفتح رضي الله عنه وذكر العارفين الذين ورثهم في الشهادة والغيب

سمعته رضي الله عنه يقول: منذ لبست الأمانة التي أوصى لي بها سيدي العربي الفشتالي وفهمت ما قال لي فيها ألقى الله في قلبي التشوف إلى العبودية الخالصة فجعلت أبحث عنها غاية البحث، فما سمعت بأحد يشيخه الناس ويشيرون إليه بالولاية إلا ذهبت إليه وشيخته، فإذا شيخته ودمت على أوراده مدة يضيق صدري ولا أرى زيادة فأتركه ثم أذهب إلى غيره فأشيخه فيقع لي معه مثل ما وقع من الأول، فأتركه ثم أذهب إلى غيرهما فوقع لي مثل ذلك فبقيت متحيراً في أمري من سنة تسع إلى سنة إحدى وعشرين وكنت أبيت كل ليلة جمعة في ضريح الولي الصالح سيدي علي بن حرزهم وكنت أقرأ البردة مع من يبيت به حتى ختمها كل ليلة جمعة، فلما كان ذات ليلة طلعت ليلة الجمعة كالعادة

فقرأنا البردة وختمناها ثم خرجت من الروضة فوجدت رجلاً جالساً تحت السدرة المحررة التي بقرب باب الروضة، فجعل يكلمني ويكاشفني بأمور في باطني فعلمت أنه من الأولياء العارفين بالله عز وجل، فقلت: يا سيدي أعطني الورد ولقني الذكر فجعل يتغافل عني في أمور أخر فجعلت ألح عليه في الطلب وهو يمتنع، ومقصوده أن يستخرج مني العزم الصحيح حتى لا أترك ما أسمع منه فلم أزل معه كذلك إلى أن طلع الفجر وظهر الغبار في الصومعة فقال: لا أعطيك الورد حتى تعطيني عهد الله أنك لا تتركه فأعطيته عهد الله وميثاقه أني لا أتركه، قال وكنت أظن أنه يعطيني مثل أوراد من شيخت قبله فإذا به يقول لي اذكر كل يوم سبعة آلاف: اللهم يا رب بجاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ اجمع بيني وبين سيدنا محمد بن عبد الله في الدنيا قبل الآخرة، قال ثم قمنا فخلط علينا سيدي عمر بن محمد الهواري قيم الروضة فقال له ذلك الرجل ثم أنشأ في هذا أوصيك به خيراً، فقال سيدي عمر هو سيدي يا سيدي، قال فقال لي سيدي عمر عند خروج روحه وانتقاله إلى الآخرة: أتدري من الرجل الذي لقنك الذكر عند السدرة المحررة؟ فقلت لا يا سيدي فقال هو سيدنا الخضر عليه السلام.

قال شيخنا رضي الله عنه: فلما فتح الله علي علمت ما قال لي سيدي عمر قال فبقيت على ذلك الذكر فثقل علي في اليوم الأول فما كملته حتى جاء الليل ثم جعل يخف علي شيئاً فشيئاً وذاتي تصطحب معه حتى كنت أكمله عند الزوال ثم جعل يخف علي حتى كنت أكمله عند الضحى ثم زاد في الخفة حتى صرت أكمله عند طلوع الشمس وبقيت مع سيدي عمر أحبه ويحبني في الله إلى أن كانت سنة خمس وعشرين فجاءته الوفاة وكنت جالساً معه، فقال: أتدري من شيخي فقلت لا يا سيدي، فقال هو سيدي العربي الفشتالي ولم يذكر لي أن شيخه سيدي العربي الفشتالي إلا وقت خروجه من الدنيا.

قال شيخنا رضي الله عنه: واحتويت والحمد لله على جميع ما عند سيدي العربي الفشتالي من الأسرار والخيرات بواسطة سيدي عمر عاينت ذلك بعد الفتح، ولم يكن سيدي عمر حاملاً لأسرار سيدي العربي بأسرها إنما كان عنده بعضها وتفضل الله تبارك وتعالى علي بجميعها وزادني عليها ما لا أقدر على شكره. وكان سيدي العربي من العارفين بالله عز وجل، وممن يحضر ديوان الصالحين في حياته فقلت وبعد مماته، فقال لا.

وسمعته يذكر مثل هذا عن سيدي منصور وكان من الأقطاب، فقال: إنه كان من أهل الديوان في حال حياته وأما بعد موته فإنه لا يحضره وذكر لذلك سبباً سيأتي إن شاء الله تعالى في أثناء الكتاب قاله شيخنا رضي الله عنه.

وبعد وفاة سيدي عمر بثلاثة أيام وقع لي والحمد لله الفتح وعرفنا الله بحقيقة نفوسنا فله الحمد وله الشكر وذلك يوم الخميس الثامن من رجب عام خمسة وعشرين ومائة وألف، فخرجت من دارنا فرزقني الله تعالى على يد بعض المتصدقين من عباده أربع

موزونات فاشتريت الحوت وقدمت به إلى دارنا فقالت لي المرأة اذهب إلى سيدي علي بن حرزهم واقدم لنا بالزيت لنقلي به هذا الحوت فذهبت فلما بلغت باب الفتوح دخلتني قشعريرة ثم رعدة كثيرة ثم جعل لحمي يتنمل كثيراً فجعلت أمشي وأنا على ذلك والحال يتزايد إلى أن بلغت إلى قبر سيدي يحيى بن علال نفعنا الله به وهو في طريق سيدي علي بن حرزهم فاشتد الحال وجعل صدري يضطرب اضطراباً عظيماً حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي، فقلت هذا هو الموت من غير شك، ثم خرج شيء من ذاتي كأنه بخار الكسكاس ثم جعلت ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل. ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي فرأيت جميع القرى والمدن والمداشر ورأيت كل ما في هذا البر ورأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأيت جميع البحور ورأيت الأرضين السبع وكل ما فيهن من دواب ومخلوقات، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنا أنظر ما فيها، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة فجاء ذلك النور من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي ومن أمامي وخلفي وأصابني منه برد عظيم حتى ظننت أني مت، فبادرت ورقدت على وجهي لئلا أنظر إلى ذلك النور فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيوناً العين تبصر، والرأس تبصر، والرجل تبصر، وجميع أعضائي تبصر، ونظرت إلى الثياب التي علي فوجدتها لا تحجب ذلك النظر الذي سرى في الذات، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حد سواء ثم استمر الأمر على ساعة وانقطع وصرت بمثابة الحالة الأولى التي كنت عليها أولاً فرجعت إلى المدينة ولم أقدر على الوصول إلى سيدي علي بن حرزهم وخفت على نفسي واشتغلت بالبكاء، ثم عاودني ذلك الحال ساعة ثم انقطع فجعل يأتيني ساعة وينقطع ساعة أخرى إلى أن اصطحب مع ذاتي، فصار يغيب ساعة في النهار وساعة في الليل ثم صار لا يغيب، ورحمني الله تعالى بأن جمعني مع بعض العارفين من أوليائه وذلك أني لما أصبحت من الليلة التي بعد يوم الفتح ذهبت لزيارة مولاي إدريس نفعنا الله به فلقيت في سماط العدول الفقيه سيدي الحاج أحمد الجرندي وهو إمام مولاي إدريس؛ فذكرت له ما رأيت وما وقع لي فقال انطلق معي إلى دارنا فذهبت معه إلى الدار التي بقرب السقاية التي بجوار الغسالين الذين هم في الصفارين، فدخل ودخلت معه وجلس على الدكان التي بداخلها وجلست معه فقال أعد علي ما رأيت فأعدت عليه فنظرت إليه وهو يبكي فقال لا إله إلا الله هذه أربعمائة عام ما سمعنا من يذكر مثل هذا قال وأعطاني دراهم كثيرة، ومرة قال أعطاني خمسة مثاقيل وقال لي خذها واقض بها حاجتك وإذا فنيت لا تقل لأحد يعطيك شيئاً وارجع إلي فأنا أعطيك كل ما يخصك، وأؤكد عليك أن تذهب إلى سيدي عبد الله التاودي فإنك ترى خيراً، قال فخرجت عنه وما رأيته من ذلك اليوم جاءه مرض موته فمات رحمه الله وعملت بوصيته، فذهبت نحو سيدي عبد الله التاودي فلما بلغت باب الجيسة فإذا برجل أسود خارج الباب فجعل يصوب نظره إلي فأقول في نفسي ما يريد هذا؟ أو كان واقفاً عند الصخرة الكبيرة التي يجلس بقربها

المحدي، فلما بلغت إليه أخذ بيدي وسلم علي وسلمت عليه، فقال لي: إني أريد منك أن ترجع معي إلى الجامع يعني جامع باب الجيسة فنجلس معك ساعة نتكلم ونتحدث، فقلت له حباً وكرامة، فرجعت معه وجلسنا في الجامع فجعل يكلمني ويقول إني مريض بكذا وكذا ورأيت كذا وكذا ووقع لي كذا وكذا ويذكر جميع ما وقع لي فطرح عني والله الحمل بكلامه ذلك وعلمت أنه من أولياء الله تعالى العارفين، وقال إن اسمه عبد الله البرناوي وأنه من برنو وأنه إنما جاء لفاس بقصدي ففرحت وعرفت بركة كلام الفقيه سيدي الحاج أحمد الجرندي رحمه الله تعالى فإنه كان من أهل الخير والصلاح قال: فبقي معي سيدي عبد الله البرناوي يرشدني ويسددني ويقويني ويمحو الخوف من قلبي فيما أشاهده بقية رجب وشعبان ورمضان وشوال وذي القعدة وعشر ذي الحجة.

فلما كان اليوم الثالث من يوم العيد رأيت سيد الوجود ﷺ، فقال: سيدي عبد الله البرناوي: يا سيدي عبد العزيز قبل اليوم كنت أخاف عليك واليوم حيث جمعك الله مع رحمته تعالى سيد الوجود ﷺ أمن قلبي واطمأن خاطري فاستودعك الله عز وجل، فذهب إلى بلاده وتركني وكانت إقامته معي بقصد أن يحفظني من دخول الظلام علي في الفتح الذي وقع لي إلى أن يقع لي الفتح في مشاهدة النبي ﷺ، لأنه لا يخاف على المفتوح حينئذ وإنما يخاف عليه قبل ذلك.

فقال: ووقعت لي معه حكايات، فمن أغربها أنه تصور لي ذات يوم على صورة امرأة وجعلت تراودني عن نفسها وألحت علي غاية الإلحاح، وذلك أني كنت في جزائر ابن عامر فلقيتني امرأة ملحفة ملثمة مطيبة بيضاء نقية من أحسن النساء، فقلت يا سيدي أني أريد أن أخلو بك وأتحدث معك فهربت مصاريني منها وأسرعت في الفرار عنها حتى قلت إني انجليت عنها في الناس، فبينما أنا في الرصيف فإذا هي واقعة معي تراودني ففررت منها مسرعاً حتى بلغت الشراطين وقلت ما بقي لها طمع فثقلت مشيتي، وإذا بها واقفة معي تراودني ففررت منها حتى بلغت الشماعين فإذا بها واقفة معي ففررت منها حتى بلغت شرقي مسجد القرويين فقلت نجوت منها وإذا بها واقفة معي، ففررت منها حتى بلغت الصفارين فقلت نجوت منها وإذا بها واقفة معي ففررت منها حتى بلغت الشماعين مرة أخرى فقلت نجوت فإذا بها واقفة معي ففررت منها حتى بلغت مسجد القرويين فدخلت إليه فقلت الآن نجوت، فلما وصلت الثريا الكبرى فإذا بها واقفة معي فغلبني الحال، وكدت أصيح حتى يجتمع الناس عليّ وعليها فإذا بها انقلبت ورجعت سيدي عبد الله البرناوي وقال: فعلت هذا بك وأردت أن أختبرك لما أعلم من كثرة ميل الشرفاء إلى النساء فوجدتك كما أحب والحمد لله وفرح بذلك غاية الفرح.

قلت: وسيأتي أثناء الكتاب بعض الفوائد من معارف سيدي عبد الله البرناوي *نفعنا الله به قال: وكانت وفاته سنة ست وعشرين.*

وسمعته يقول في المدة التي ذهب فيها سيدي عبد الله البرناوي إلى بلاده: كنت مع سيدي عبد الله اليوم وقال لي وقلت له وفعلنا كذا وكذا ونحو هذا وكنت في تلك المدة أخرج معه رضي الله عنه وأذهب وأجيء بحيث لا نتفارق إلا في أقل الأوقات، فكنت إذا سمعت هذا منه أقول له أليس أن سيدي عبد الله ذهب لبلاده، فقال لي رضي الله عنه ما بين الصالحين بعد وإن تباعدت أوطانهم، حتى أن صالحاً في المغرب يريد أن يتحدث مع آخر في السودان أو البصرة ونحو ذلك فتراه يكلمه وهو بمنزلة من يكلم رجلاً إلى جنبه وإذا أراد ثالث أن يتحدث معهما تحدث؛ وهكذا الرابع حتى ترى جماعة من الصالحين متفرقين كل واحد منهم من قطر وهم يتحدثون بمنزلة القوم المجتمعين في موضع واحد.

قال: ولما مات سيدي عبد الله البرناوي ورثت ما كان عنده من الأسرار والحمد لله.

قال رضي الله عنه: ومن جملة من لقيناه وكان من الأكابر وبلغ درجة القطبانية، فكان من جملة الأقطاب سيدي منصور بن أحمد وكان اجتماعي معه قبل كسوف الشمس بشهر. وسبب اجتماعي معه أنه كان رضي الله عنه يخدم الغزل نساجاً من جملة النساجين، فذهبنا بأخي علال لأنظر من يعلمه صنعة النسيج فدخلت إلى طراز فجعلت أنظر مع من يخدم، فوجدت رجلاً فاتفقت معه، فلما فرغنا وأردت أن أخرج صاح بي رجل لا أعرفه من هو؟ فقال لي إني أريد أن أتحدث معك فجئته فقال من أنت؟ فقلت شريف. فقال أخيار وأطهار وأبرار، ثم قال ما اسمك فقلت عبد العزيز. فقال حباً وكرامة، ثم قال: ألك أب وأم؟ فقلت ماتا، فقال إني أريد أن أعلم هل لك من زوجة وأولاد؟ فقلت نعم، فقال وهل لك من دنيا؟ فقلت لا، فقال خذ هذه الموزونات وإذا بها ثلاثون موزونة؛ قال رضي الله عنه: فهذا سبب معرفتي به، ووقعت لي معه حكايات وأمور عجيبة سيأتي بعضها أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى، قال فبقيت معه في محبة الله ورسوله إلى أن توفي سنة تسع وعشرين.

قلت: وكسوف الشمس كان في التاسع والعشرين من المحرم فاتح سنة ثمان عشرة ومائة وألف، فلهما في العشرة نحو من اثني عشر عاماً، وقلت لشيخنا رضي الله عنه، أيهما أكبر سيدي عبد الله البرناوي، أو سيدي منصور؟ فقال رضي الله عنه: سيدي عبد الله البرناوي وإن كان كل منهما قطباً. قال رضي الله عنه: ولما مات سيدي منصور ورثت ما عنده والحمد لله.

قال رضي الله عنه: ومن جملة من لقيته سيدي محمد اللهواج وبلاده بقرب تطاون، كما أن سيدي منصوراً من جبل حصب من الفحص قال: وكان سبب اجتماعي معه أنه لما مات أبونا ذهب عمنا بنا وبأخي العربي إلى طراز يخدمون فيه الشاشية، وكان بعض من يخدم هناك قريباً من سيدي محمد اللهواج، فكان سيدي محمد إذا جاء إلى الطراز لقريبه يقصدني ويجلس معي ويتحدث حتى وقعت بيني وبينه المعرفة التامة، ووقعت معه لي حكايات عجيبة وكرامات غريبة سيأتي بعضها أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى، وكان

اجتماعي معه قبل سيدي منصور اجتمعت معه في عام اثنى عشر ومائة وألف وكانت وفاته بعد سيدي منصور بأيام قليلة. ولما مات ورثته والحمد لله، فهؤلاء هم الذين اجتمع معهم الاجتماع المعروف: أولهم شيخ الشيوخ، وقطب العارفين وإمام الأولياء والصالحين سيدنا الخضر عليه السلام. وثانيهم سيدنا عمر بن محمد الهواري خديم روضة سيدي علي بن حرزهم نفعنا الله به، وكان ذلك بوصية سيدنا الخضر كما سبق. وثالثهم سيدي عبد الله البرناوي وكان اجتماعي معه ثاني يوم الفتح. ورابعهم سيدي منصور بن أحمد. وخامسهم سيدي محمد اللهواج.

قلت: وقد اجتمع اجتماعاً آخر مع جماعة من الأولياء وورثهم وسيأتي ذكرهم أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى، ومن جملتهم غوث زمانه وعارف وقته وأوانه، سيدي أحمد بن عبد الله المصري.

سمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: وفي اليوم الذي دخلت فيه إلى الديوان لم يتكلم سيدي أحمد بن عبد الله في ذلك اليوم وكذا غيره من أهل الديوان إلا بالوصية لي والتوكيد عليّ في كتمان السر، وأمر سيدي أحمد بن عبد الله كل من عنده حكاية في ذلك أن يحكيها. قال رضي الله عنه. فحكوا نحواً من مائتي حكاية، سمعت من شيخنا رضي الله عنه ثمانية منها.

الحكاية الأولى

حكاية سيدي أحمد بن عبد الله الغوث رضي الله عنه

قال رضي الله عنه: كان لي مريد وكنت أحبه حباً شديداً، فكنت ذات يوم أعظم له أمر سيد الوجود ﷺ، فقلت له يا ولدي، لولا نور سيدنا محمد ﷺ ما ظهر سر من أسرار الأرض، فلولا هو ما تفجرت عين من العيون ولا جرى نهر من الأنهار، وإن نوره ﷺ يا ولدي يفوح في شهر مارس ثلاث مرات على سائر الحبوب فيقع لها الإثمار ببركته ﷺ، ولولا نوره ﷺ ما أثمرت، يا ولدي إن أقل الناس إيماناً من يرى إيمانه على ذاته مثل الجبل وأعظم منه فأخرى غيره، وإن الذات تكلّ أحياناً عن حمل الإيمان فتريد أن ترميه فيفوح نور النبي ﷺ عليها فيكون معينا لها على حمل الإيمان فتستحليه وتستطيبه، فبينما أذكر له تعظيمه ﷺ وأعدد له الخيرات المكتسبة منه حتى غبت فيه ﷺ، فلما رآني حصل لي ما حصل. قال يا سيدي: قدمت عليك جاه هذا النبي الكريم إلا ما أعطيتني السر، فأردت أن أمتنع فرأيت الجاه العظيم فساعفته وأعطيته السر فلم يبق إلا مدة قليلة وشهدوا عليه وقتلوه، وذلك أنه كان من عرب خوز وكان قاطناً بناحية المحلة من أعمال مصر، فلما سمع مني السر ذهب وجمع عليه جماعة وجعل يذكر لهم السر فلم تطقه عقولهم فعملوا عليه البينة بما سمعوا منه وقتلوه.

الحكاية الثانية

قال بعضهم: كان لي مريد خدمني اثنى عشر عاماً، وكنت أحبه حباً شديداً حتى أني أردت أن أزوجه ابنتي، قال وكنت أغيب في كل جمعة ثلاث أيام أجلس بساحل البحر فصادف غيبتي في تلك المدة مجيء العيد وكان لي أولاد ستة وبنات ثلاث وخادم فجئت إلى الدار فوجدته كسا جميعهم واشترى لهم كل ما يخصهم ففرحت بذلك غاية الفرح، فلما لقيته رغبني وطلب مني أن أعطيه السر وألح عليّ في ذلك فأعطيته السر وأنا كاره، فلم يبق إلا أربعون يوماً وعملوا عليه بالبينة بما سمعوا منه من الأسرار التي لا تطيقها العقول وصلبوه.

الحكاية الثالثة

قال بعضهم: كان لي مريد خدمني تسع سنين وكنت أحبه حباً شديداً لخدمته وحسن معاشرته ولأنه كان من أهل حومتنا ومن جيراننا، وكانت لي امرأة يعتريها المرض كثيراً وكان للمريد امرأة جميلة فيأتي بها لدارنا فتباشر الخدمة التي لا تطيقها امرأتي، فكان هو وامرأته يخدمان وكنت أحبه لذلك حباً شديداً.

فبينما أنا ذات يوم واقف في موضع من المواضع إذا به أتى بصبية له صغيرة في يدها مصحف فلم أشعر إلا بالصبية سقطت بين رجلي وفي يديها المصحف، فقلت بعد أن تأخرت وتقهقرت ما تريد يا فلان؟ فهذا دخيل عظيم وعوريط كبير، فقال يا سيدي أريد أن تعطيني السر، فقلت له يا فلان إنك لا تطيقه وإن السر أمر عظيم وخطب جسيم لا يطيقه إلا من قواه الله عليه، وإن ثلثي البشر يقولان لحامله بخ بخ وفي بوجه هلاكه وحتفه، فقال يا سيدي أعطني السر فإني أطيقه قال فنظرت إلى خدمته وخدمة امرأته وإلى المعرفة التي كانت بيننا وإلى الدخيل الذي أتى به فقلت له نعم أنا أعطيك السر فأعطيته السر. قال شيخنا رضي الله عنه: فأخذ السر بلا ذات وكل من أخذه بلا ذات فإنه يهلكه، فقلت ما المراد بالذات؟ فقال ذات الشيخ وأسرارها، وهي لا تنتقل إلى المريد إلا بعد وفاة الشيخ، قال والولي يقدر على إعطاء السر ولا يقدر على إعطاء الذات إلا الله تعالى، فأخذ السر وانطلق وتغيب عن الشيخ ثلاثة أيام فلم يكملها حتى جعل يتكلم في شيخه، فجاء من أخبر الشيخ وقال إن فلاناً مريدك يتكلم فيك، قال فتعامى عنه الشيخ والبلاء ينزل عليه، فلم يزل أمره في العماية والظلام حتى جاءت قافلة فخرج معها وركب البحر فأسر ثم تنصر والعياذ بالله، وقد حصل له هذا الشقاء من استعجاله السر قبل أوانه، فعوقب بحرمان الإسلام، نسأل الله السلامة.

الحكاية الرابعة

قال بعضهم: كنت أنا ورجل آخر أخوين في الله عز وجل، فاتفقنا على أن نسيح في الأرض ونطلب ولياً من أولياء الله تعالى يأخذ بأيدينا ويجمعنا على الله سبحانه، فلم نزل

نسيح حتى جمعنا الله بولي من أوليائه فوجدناه يتعاطى صنعة الثريد، فجلس واحد منا يوقد النار والآخر يزن الثريد للناس والشيخ يصنعه فبقينا على ذلك مدة طويلة. ثم إن الشيخ قرب أجله فحصلت له مرة غيبة عن حسه، فجاءه أخي في الله فقال له: يا سيدي الشيخ إني أريد منك أن تعطيني السر، فقال: الشيخ رضي الله عنه إنك إلى الآن لم تطق، فقال له: لا بد أن تعطيه لي يا سيدي، قال: فالتفت إلى الشيخ وقال: أتسمح؟ فقلت يا سيدي إن كان بخاطرك فإني أسمح، فقال: اسمح والله تعالى يعاوض لك من عنده، قال: فسمحت وأخذ أخي في الله السر وبقي الشيخ يومين وتوفي وانصرف أخي إلى بلاده وبقيت في حانوت الشيخ أخدم فيها وكل ما زودته أصرفه على بيت الشيخ، وكانت له امرأة وثلاث بنات وذكر، فبقيت في الحانوت أخدمهم اثنى عشر عاماً وأنا على المحبة ما نقص منها شيء، فلما كملت المدة تزوجت بنات الشيخ وذهبت كل واحدة إلى دارها وسافر ولد الشيخ إلى ناحية المغرب وتزوج أخوه زوجته، فلم أجد على من أراد الألفة فضقت وعزمت على السفر إلى بلادي، فيسرت الزاد وبعت جميع ما عندي ولم يبق إلا زيارة قبر الشيخ رضي الله عنه، فلما ذهبت نحو قبره للزيارة وكان في موضع مخوف بعيد من العمارة، فلما زرته وأردت أن أنصرف قال: لي قلبي ويحك أتذهب ولا ترى قبر شيخك أبداً فأدركتني حنانة في الشيخ ووحشة عظيمة فرجعت وبقيت عنده ساعة، فأردت أن أنصرف، فأدركتني الوحشة ثانياً كما أدركتني أولاً فرجعت وبقيت عنده إلى الزوال فأردت أن أنصرف فعاودني الأمر فبقيت عنده إلى الليل وأنا أبكي من حب الشيخ ووحشته مع إرادتي فراقه، ثم بت على قبره والحال يتزايد إلى أن طلع الفجر، فجاءني سيدنا الخضر عليه السلام فلقنني الذكر وفتح الله عليّ فذهبت إلى بلادي كيف أحب، فمررت على بلاد أخي وكانت في الطريق فلما دخلتها وجدتهم يجمعون الحطب لرجل يريدون حرقه، فذهبت لأنظر الرجل من هو؟ فإذا هو أخي في الله عز وجل، فقلت للجماعة الذين يجمعون الحطب ما ذنب هذا الرجل؟ فقال: إنه يقول كذا وكذا لسر من أسرار الله تعالى أفشاه وسمعوه منه ولم تطقه عقولهم، فاستفتوا فيه العلماء فأفتوا بحرقه، فتقدمت إلى أخي فعرفته ولم يعرفني هو لشدة البلاء الذي نزل به، فقلت له: ولم أراد هؤلاء قتلك وحرقك؟ فقال: إنهم سمعوني أقول كذا وكذا وما قلت لهم فيه إلا الحق، فقلت له: وهل قلت غير هذا؟ فقال: ما قلت شيئاً غيره، قال: فالتفت إلى الجماعة وقلت لهم لا تحدثوا فيه شيئاً حتى أجيء من عند السلطان فإني ذاهب إليه وأكلمه وأقول له: إن هذا الرجل لا يلزمه قتل فعليكم بالصبر حتى أجيء من عند السلطان، ومن أحدث فيه شيئاً فإنه يخاف على نفسه فأني أرجو إذا كلمت السلطان في أمره أن يرجع، فقالت الجماعة إنا نصبر حتى ترجع، فانطلقت إلى السلطان فدخلت عليه فوجدت العلماء عنده يتحدثون في شأنه ويحرضونه على قتله، فقلت: أيها السلطان نصرك الله نصراً عزيزاً، وسددك ووفقك لما يحبه ويرضاه، إن ذات بني آدم عليها ثلثمائة وستة وستون ملكاً، وهذا العدد على كل ذات ذات، فمن قتل ذاتاً بغير حق فإن هذا العدد

من الملائكة الذين في الذات المقتولة إذا خرجوا منها بعد القتل لا يكون لهم شغل إلا الدعاء باللعنة على من قتل الذات وأخرجهم منها بغير حق ودعاء الملائكة مستجاب، فيخاف أيها الملك من هذا الدعاء وأيضاً فإن الذات عليها سبعة من الكرام الحفظة الكاتبين، فإذا قتلت الذات بغير حق فإنهم لا شغل لهم إلا نقل كل ما في صحيفة المقتول من سيئات فينقلونه من صحيفته ويجعلونه في صحيفة القاتل، وكل ما فعل القاتل من حسنة فإنهم ينقلونه منها ويجعلونه في صحيفة المقتول، وهذا شغلهم إلى أن يموت القاتل، ثم يصير هذا ذكراً لهم فيذكرون ما فعل القاتل من السيئات، وذكر الملائكة كالمطر فكل ذكر ينزل معه، فإن ذكروا أحداً بسوء نزل عليه السوء وإن ذكروه بخير نزل عليه الخير فلا يزالون يذكرون المقتول بخير والخير ينزل عليه، ولا يزالون يذكرون القاتل بشر والشر ينزل عليه، أما تخاف من هذا أيها الملك؟ فقال الملك: إن العلماء هم الذين أفتوا بقتله، فقلت لهم: عجلوا حيث أفتوا بقتله، وكان من حقهم أن ينظروا في لفظه وقصده؛ فإذا اقتضى لفظه قتله فيسأل عن قصده، فإن كان قصده صحيحاً فلا قتل عليه فابعثوا للرجل حتى يحضر واسألوه عن قصده، قال فقال العلماء رضي الله عنهم: هذا حق وصواب، يجب علينا أن نعمل به فبعثوا إلي الرجل فسألوه عن قصده فوجدوه صحيحاً لا يجب عليه به قتل فخلوا سبيله، قلت لشيخنا رضي الله عنه فما فعل بعد تخلية سبيله قال: سلبه أخوه الذي فكه وصيره من جملة العوام وأخذ جميع السر الذي كان الشيخ أعطاه له، فقلت: فما حال صاحب الحكاية الأولى والثانية بعد قتلهما فقال رضي الله عنه: ماتا على الولاية، وأما صاحب الحكاية الثالثة فإنه مات في كفر، نسأل الله السلامة.

الحكاية الخامسة

قال بعضهم: كان لي مريد يخدمني اثنتي عشرة سنة وكان مع المريد سخاء وكرم، فأفسد عليّ وعلى الفقراء إخوانه ما ينيف على قنطار، وكان لي أخ متصل بخدمة السلطان، قال: فغضب السلطان ذات يوم على أخي ورمى عليه مالاً كثيراً لا يطيقه وكنت معظماً عند الناس وفي قلوب العامة فلم يستطع المخزن أن يمسني بمكروه، قال: فاغتنمها المريد وقال: يا سيدي الشيخ لا بد أن تعطيني السر أو تعطيني جميع ما أفسدت عليك وعلى الفقراء من المال الكثير أو ندعوك للمخزن، فاختر لنفسك واحدة من هذه الخلال الثلاث، قال فقلت: يا ولدي اتق الله وسيعطيك سبحانه السر كيف تحب وفوق ما تظن، وإن شككت في كلامي هذا فإني أعطيك عهد الله وميثاقه عليه، فلم يزده كلامي إلا نفوراً وتحريضاً على إذايتي، فقال: والله لا أفارقك إلا إذا أعطيتني جميع ما أفسدت عليك من المال أو ندعوك للمخزن قال: ولو وجد المخزن إليّ سبيلاً ما أفلتني فأكثر عليّ من كلامه السابق وجعل يردده عليّ فأزلت على رأسي ودعوت له بالسر فأعطاه الله السر، فلم يبق إلا أياماً قليلة حتى رأى شيئاً حجب الله عقول عباده عنه لأنها لا تطيقه فجعل يذكره للناس،

فلما سمعوا ذلك منه جعلوا عليه البينة وقتلوه من ساعته، ولو أنه صبر حتى يأخذ سر الذات الذي يدوم به سر الولاية لوفقه الله تعالى ولم يذكر شيئاً من أسرار الولاية، لكن لما استعجل عاقبه الله تعالى، فقلت لشيخنا رضي الله عنه: فعلى أيّ شيء مات هذا فقال مات على الولاية، فحمدت الله تعالى له والأسرار الذي مات عليها هؤلاء سمعناها من شيخنا رضي الله عنه ولم نكتبها، لكونها من الأسرار التي لا تذكر، والله تعالى يوفقنا لما يحبه ويرضاه ببركة شيخنا وبنسبه الطاهر آمين. ولنقتصر على هذا القدر من الحكايات لئلا يقع الملل، والله الموفق.

الفصل الثالث

في ذكر بعض الكرامات التي ظهرت على يد الشيخ رضي الله عنه

اعلم أن شيخنا رضي الله عنه غريب وشأنه كله عجيب، ومثله لا يحتاج إلى كرامة لأنه كله كرامة، فإنه يخوض في العلوم التي تعجز عنها الفحول، ويأتي فيها بما يوافق المعقول والمنقول مع كونه أمياً لا يحفظ القرآن العزيز، فضلاً عن أن يسام بتعاطي شيء من العلوم، مع أنه قط لم ير في مجلس درس من صغره إلى كبره، ولنبدأ بالكرامة التي لا كرامة فوقها، وهي سلامة العقيدة واستقامتها.

ولما جمعني الله به سألته عن عقيدته في التوحيد فسرد عليّ عقيدة أهل السنة والجماعة، ولم يغادر منها شيئاً وقال لي مرة: إنه لا يفتح على العبد إلا إذا كان على عقيدة أهل السنة والجماعة وليس لله ولي على عقيدة غيرهم، ولو كان عليها قبل الفتح لوجب عليه أن يتوب بعد الفتح ويرجع إلى عقيدة أهل السنة. قلت وكذا ذكر بدر الدين الزركشي في شرح جمع الجوامع للسبكي، ولم أزل أسمعه رضي الله عنه يمدح أهل السنة ويثني عليهم كثيراً ويقول: إني أحبهم محبة عظيمة، ويطلب من الله تعالى أن يتوفاه على عقيدتهم، ثم جعلت ألقي عليه شيئاً من شبه أهل الأهواء فيفهم الشبهة غاية ويقررها أحسن تقرير ويجيب عنها بطريق الشهود والعيان فتسمع عنه في أمر الربوبية وسر الألوهية وهو يجيب بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر قط على عقولنا مع كثرة معاناتنا للمعقول والمنقول، حتى أن من وفقه الله تعالى وخالطه في هذا الباب وجال معه في أجوبة شبه أهل الأهواء، فإنه يكتسب منه قوة وتحصل له ملكة يقدر بها على حل شبه اثنين وسبعين فرقة.

وقال لي مرة رضي الله عنه مشيراً إلى الكشف والعيان الذي فتح الله عليه به. ما آمنا إلا بما رأينا، أيؤمن أحد بما لا يرى؟ فإن الوسواس لا ينقطع إلا بالرؤية.

ثم سألته عن أحاديث الصفات هل الواجب فيها التفويض الذي هو طريق السلف، أو التأويل الذي هو طريق الخلف؟

فقال رضي الله عنه: الواجب فيها التفويض وشأن الربوبية عظيم، ولا يقدر العباد قدرها ولا يطيقون الوصول إلى شيء من كنهها، قال: ولو أن أهل الدنيا أرادوا الوقوف على حقيقة ما سمعوا في نعيم أهل الجنة ما أمكنهم ذلك، فإن العنب ليس كالعنب، والتمر ليس كالتمر، والذهب ليس كالذهب، ولو فتح الله على عبد ونظر إلى ذهب أهل الجنة وذهب الدنيا وعنب الجنة وعنب الدنيا لوجد المعاني متباينة إلى الغاية ولم يجد بينهما اشتراكاً إلا في مجرد الأسامي، وكذا أهل الأرض الثانية بالنسبة إلى نعيم أهل الأرض الأولى، فإنه لو سمى لهم العسل والسمن واللبن والخبز ونحوها بأسماء بعض ما يأكلون، فإنهم لا يبلغون إلى معرفة العسل وما ذكر معه، وذلك أن هذه الأشياء مفقودة في الأرض الثانية، فإذا كان هذا في الحادث مع الحادث فكيف بالقديم سبحانه مع الحادث؟

فالواجب على العباد إذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات أن ينزهوه تعالى عن الظاهر المستحيل ويفوضوا معناه إلى الله عز وجل.

قلت: والتفويض هو قول مالك وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد وحماد بن سلمة، وشعبة وشريك، وأبي عوانة وربيعة والأوزاعي، وأبي حنيفة والشافعي، وأحمد بن حنبل، والوليد بن مسلم، والبخاري والترمذي، وابن المبارك، وابن أبي حاتم، ويونس بن عبد الأعلى. وهو قول أهل القرون الثلاثة الذين هم خير القرون، حتى قال محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير.

وقال إمام الحرمين في الرسالة النظامية: اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تفسيرها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن. وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وتفويض معانيها إلى الله عز وجل.

والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقيدة اتباع سلف الأئمة للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً لا شك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع اهـ.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تقدم النقل عن أهل العصر الثالث وهم فقهاء الأمصار كالثوري، والأوزاعي، ومالك والليث، ومن عاصرهم، وكذا من أخذ عنهم من الأئمة فكيف لا يوثق بمن اتفق عليه أهل القرون الثلاثة وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة اهـ.

ويشير بقوله وقد تقدم النقل إلى ما لخصناه من كلامه في تسمية من سبق ذكره،

فعقيدة شيخنا رضي الله عنه هي عقيدة أهل القرون الثلاثة، وهذه هي الكرامة التي لا كرامة فوقها. قال الحافظ ابن حجر: قال ناصر الدين بن المنير: الاستقامة يستحيل أن لا تكون كرامة بخلاف غيرها من الخوارق، فقد يكون رحمة، وقد يكون فتنة، وبعد سماعك هذا الكلام فاعلم أن ما شهدناه من كرامات الشيخ رضي الله عنه وكشوفاته شيء كثير لا يمكننا استقصاؤه فلنذكر بعضه.

فمن ذلك أنه مات لي ولد أول معرفتي به فحزنت عليه أمه وكان مات ولد آخر قبل ذلك، فجعلت أسليها وقلت لها سمعت سيدي أحمد بن عبد الله صاحب المخفية يقول: إني إذا نظرت إلى الصبيان ونظرت إلى الأمور المستقبلة النازلة رحمتهم ومن مات منهم سلم من ذلك، وقد مات ولدك ونحو هذا الكلام مما يسليها ويصبرها، فلقيت شيخنا رضي الله عنه عند الصبح فقال: إنكم قلتم البارحة لزوجتكم كذا وكذا وذكر الكلام الذي نقلته عن سيدي أحمد بن عبد الله، فعلمت أنه كاشفني بما وقع في الدار.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه كان يأكل القرنفل لضر بصدره فصار تشم منه رائحة طيبة وهي رائحة القرنفل، فكنت أشمها منه كثيراً إذا كنت معه بالنهار فإذا تنفس خرجت رائحة القرنفل مع نفسه الشريف، ثم صرت أشم تلك الرائحة بنفسها إذا كنت في داري ليلاً، وقد سدت الأبواب وهو بداره في رأس الجنان وأنا أسكن في بكر نقر، بقاف معقودة، فجعلت الرائحة تفوح علينا في البيت المرة بعد المرة، فانتبهت لذلك وأعلمت المرأة بذلك وكانت تحبه حباً شديداً، وكذلك هو رضي الله عنه يحبها حباً شديداً ثم طال أمر الرائحة علينا مدة كثيرة وأياماً عديدة فقلت له رضي الله عنه: إن رائحتك تكون عندنا ليلاً ونشمها كثيراً فهل تكون عندنا؟ فقال رضي الله عنه: نعم، فقلت له على سبيل الضحك، فإني يا سيدي أتيمم الرائحة حتى أقبضك بيدي. فقال رضي الله عنه ممازحاً، وأنا أتحول إلى زاوية أخرى من البيت ثم ذكرت له مرة أخرى أمر الرائحة فقال هذا الشم فأين الشوق؟

وقال لي رضي الله عنه مرة أخرى: إني لا أفارقك ليلاً ولا نهاراً، وقال لي مرة أخرى حاسبني بين يدي الله عز وجل إن كنت لا أنتبه لك في الساعة الواحدة خمسمائة مرة.

وقلت له مرة: يا سيدي رأيت في المنام ذاتي وذاتك في ثوب واحد، فقال هذه رؤيا حق، وأشار أنه لا يفارقني ليلاً ولا نهاراً، وقال لي مرة: أنا آتيك في هذه الليلة فرد بالك فلما كان السدس الأخير من الليل وأنا بين اليقظة والمنام أتاني رضي الله عنه فلما دنا مني أخذت بيده الشريفة فقبضتها فتبعته وأنا أريد أن أقبلها؛ فلما قبلتها وقبلت رأسه الكريم غاب عني.

ومن ذلك أن السلطان نصره الله كتب كتابه وأرسل معه اثنين من أصحابه إلي برسم *أن أذهب إلى مكناسة* لأصلي بالناس في جامع الرياض فنزل بي ما الله به علم، فلما سمع

بذلك قال لي لا تخف فإنك إن رحلت إلى مكناسة رحلنا معك، ولكن لا بأس عليك وما طلبوه منك لا يكون، فذهبت معهما إلى مكناسة وسلك الله الأمر على خير ولا كان إلا ما قال الشيخ رضي الله عنه، فرجعت إلى داري بفاس ولما سمع بذلك والد الزوجة الفقيه سيدي محمد بن عمر كتب إليّ يقول: إنك قدمت من مكناسة ولم تلتق مع السلطان نصره الله ولا فاصلت نفسك فلا تدري ما ينزل بعد قدومك، فالرأي أن ترجع إلى مكناسة وتلتقي مع السلطان نصره الله، وتظهر له الرضا بقبول الإمامة في المسجد المذكور وغير هذا لا تفعله فأتيت بمكتوبه إلى الشيخ رضي الله عنه فقال لي اقعد في دارك ولا تخش مكروهاً، فكان الأمر كما قال الشيخ رضي الله عنه، وهذه كرامة غريبة ولو شرحت أمر الحكاية لظهرت الغرابة التي أشرنا إليها، حتى كان بعض أصحابنا من المقربين بمكناسة يقول: ما رأينا أغرب مما فعلت بعث إليك السلطان نصره الله كتابه وأكد عليك فيه وأرسل اثنين من أصحابه وقدما بك إليه، ثم إنك امتنعت من اللقاء معه ورجعت إلى فاس ولم تبال إن هذا الشيء عجيب وكل ذلك من بركة الشيخ رضي الله عنه.

ومن ذلك أن المرأة حصل لها حمل فقال هو ذكر، ولما كان تاسعها وعادتها أن تضع في أوله جاءها وجع فما شككنا أنه وجع الولادة، فقال رضي الله عنه: إن الوجع الذي ترون عن ضر نزل، وأما الولادة فإنها بعيدة، فكان كما قال رضي الله عنه.

ومن ذلك أنني التقيت مع الفقيه سيدي محمد ميارة فأعطى للشيخ رضي الله عنه أربع موزونات، فقال لي الشيخ بعد ذلك: إن سيدي محمداً ميارة شيء كبير أدخل يده في جيبه فخرجت له موزونات لم يرضها فردها، ثم أخرج ما يرضى ودفعه لنا، فلقيت سيدي محمداً ميارة فذكرت له ما قال الشيخ، فقال قال الحق: خرجت موزونات رديئة فرددتها وأعطيت الجيد.

وكنت أتكلم مع الفقيه المذكور فجرى ذكر رجل يعتقد فيه الخير الفقيه المذكور فأشرت أنا إلى ما أعلم فيه، فقال الشيخ إنك لما ذكرت ما ذكرت في الرجل ارتعدت مصارينه في جوفه من قوة نيته الخير في الرجل، فلقيت الفقيه المذكور وذكرت له ما قال الشيخ رضي الله عنه، فقال صدق والله لقد كان الأمر كما قال.

ومن ذلك أن ولده سيدي إدريس أصلحه الله وأنبته نباتاً حسناً، مرض مرضاً مخوفاً وأحزن ذلك أمه كثيراً فدخلت ذات يوم بعد المغرب على الولد وإذا به لا يتكلم من قوة المرض وغلبته، فأحزنني أمره، فلما خرجنا قال لي الشيخ إنه لا يموت من هذا المرض وأنه سيعافى، فكان كما قال رضي الله عنه.

وكذا وقع لابنته السيدة فاطمة أصلحها الله نزل بها مرض وطال أمره، فقال لي إنها لا تموت منه وأنها ستعافى، فكان كما قال رضي الله عنه.

وكذا دخلت معه على ولد الفقيه سيدي محمد ميارة لنعوده وقد نزل به مرض عظيم، فقال الشيخ رضي الله عنه إنه لا يموت من هذا المرض وأنه سيعافى، فكان الأمر كما قال رضي الله عنه.

وكذا مرض ولد صاحبنا سيدي الحاج محمد بن علي بن عبد العزيز بن علي المرابطي السلجماسي، فقطع منه أبوه الإياس فيما أخبرني به، فذكرت أمره للشيخ رضي الله عنه وقد خرجنا من صلاة الجمعة بجامع الأندلس وتوجهنا نحو باب الفتوح، فقال رضي الله عنه ما عنده بأس وإن أمه لا تحب أن يموت، ولو مات لنزل بأمه ما لا تطيقه فهو لا يموت، فكان الأمر كما قال رضي الله عنه، وهؤلاء كلهم في قيد الحياة إلى وقتنا هذا، وهو الثاني والعشرون من ربيع الأول عام ثلاثين ومائة وألف.

ومن ذلك أنا ذهبنا لزيارة القطب مولاي عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به آمين وبلغنا إليه عند صلاة الظهر وكنا نظن أن يقيم بنا عنده، وإذا به رضي الله عنه يقول لا تحطوا عن الدواب حتى نرجع من زيارة الشيخ، فصعدت معه إلى قبر الشيخ عبد السلام وزرناه وقال لي كيف كانت زيارتك ودعواتك، قلت دعواتي في هذه الزيارة قصرتها عليك، فمنذ جلست للزيارة وأنا أدعو لك بخير ولم أدع لنفسي فضلاً عن غيري فقال رضي الله عنه: وكذلك أنا كانت زيارتي كلها لك ولم أدع لغيرك، ففرحت بذلك غاية الفرح ولله الحمد، ثم نزلنا من الجبل وأمرنا بالذهاب إلى مدينة تطاون، فقلت يا سيدي إن المدينة بعيدة ولا نقدر على وصولها في هذا اليوم وأمرك مطاع، فعزم علينا فعلمنا أنه لا يأمر إلا بصواب فركبنا على الدواب ولم نزل نسير إلى أن طلع الفجر، فدخلنا مدينة تطاون وبنفس دخولنا أرسلت السماء غرابيلها وجاءت الأمطار التي لا تطاق ودامت يومين، فأصعدني رضي الله عنه إلى سطح الدار التي نزلنا بها والأمطار تنزل، فقال أتنظر إلى هذه الأمطار الغزيرة؟ قلت نعم يا سيدي، فقال لأجلها سرت بكم ليلاً فإني لما بلغت إلى مولاي عبد السلام رأيتها فما تظن أن يكون لو صادفتنا هذه الأمطار في تلك السلاليم ولا عندنا ما نأكل ولا ما تأكل دوابنا ثم تدوم علينا قلت ما يبقى شيء من المشقة إلا نالنا أن نجونا من الموت، ثم قبلت يده الكريمة وقلت جزاكم الله عنا خيراً.

ولما خرجنا من تطاون بعد اليومين خرجنا والأمطار في أشد ما يكون، فقلنا يا سيدي هربنا من الأمطار وأردنا أن نرجع إليها فسكت عنا ثم خرجنا وأردنا أن نشتري شعيراً لعلف الدواب فأتى علينا فخرجنا والأمطار في أشد ما يكون، فلم نسر إلا ميلاً أو ميلين وانجابت السحاب وسكنت الرياح وظهرت الشمس وطاب الزمان واعتدل الحال فعجبنا من ذلك، ثم لما كان نصف العصر قلنا يا سيدي أين ما تأكله الدواب، فسأل الناس عن العمارة، فقالوا بعيدة لا تبلغونها حتى ينتصف الليل، فسكت وجعل يمشي بنا ونحن سامعون مطيعون، *فلما قرب المغرب قال* ميلوا ذات اليمين فخرجنا على الطريق وعدلنا إلى ذات اليمين فلم

نمش إلا قليلا ووجدنا أنداراً لم تدرس وعين ماء قريبة منها، فقال: انزلوا هنا فقد أتى الله للدواب بما تأكله فأمرنا بالأخذ من الأندر فأخذنا وأعطينا الدواب تأكل وبتنا بأحسن مبيت، ثم لما بلغت العشاء أو قريباً منه جاء رب الأندر ففرح بنا غاية الفرح وأعطاه الشيخ رضي الله عنه أكثر من قيمة ما أكلت الدواب، ففرح وسر بذلك وبات معنا وأكل من طعامنا وصار كأنه واحد منا.

وكذا وقع لنا مرة أخرى قبل أن نبلغ إلى الشيخ عبد السلام، فإنا لما قطعنا عقبة بني زكار وفات وقت العصر، ونزل من كان قطعها من الناس قبلنا قلنا له يا سيدي، قد نزل الناس الذين جاءوا قبلنا فقال: سيروا، قلنا يا سيدي كيف نسير ولا نعرف طريقاً وليس فينا من يعرفها، فقال: سيروا فسرنا فتركنا الناس ولا دليل معنا، فلم نزل نمشي والله سبحانه وتعالى يلهمنا الطريق حتى بلغنا إلى عين ماء وبقربها أندر قد درست، فلقينا ربها فدلنا على النزول وبتنا أحسن مبيت، وباتت الدواب تأكل التبن وباتت الدواب الذين نزلوا قبلنا على غير تبن، وسمعنا منه في هذه الزورة الكريمة علوماً من الحقائق والدقائق، وقد كتبنا الكثير منها في هذا الكتاب، وإذا كان يتكلم معك في الأماكن والمواضع تظن أن لم تكن تعرفه أنه سافر إلى الموضع الذي يخبر عنه، وأنه ممن عاينه ورآه وما هو إلا الكشف الصحيح، وكم مرة يسافر إلى المواضع البعيدة بلا دليل ثم يسلك في سفره ذلك طرقاً نافذة لا يعرفها أكثر الناس، وقد قال ذات يوم للفقيه سيدي علي بن عبد الله الصباغي رحمه الله وكان مسكنه بالصباغات على أربع مراحل من مدينة فاس، إني جئت مع جماعة راكبين على الخيل حتى بلغنا إلى موضع وصفه له وسماه، فتركت القوم هناك ودخلت لمرشدكم، ثم جعل يصفه له ويصف له داره وكأنها نصب عينيه، وذكر له ركوب الخيل ستراً للكشف، قال لنا سيدي علي رحمه الله: لقد وصف وصف المعاينة الذي لا يزيد ولا ينقص، ثم قال له: إن الموضع الذي تربطون فيه الخيل فيه قبر ولي من الأكابر فلا تعودوا لربط الخيل فيه، فبحثوا فوجدوا الأمر كما قال رضي الله عنه، فاتخذوا ذلك الموضع مزاراً.

وسمعت الشيخ رضي الله عنه يقول في ذلك الولي، إنه من آبائنا يعني أنه كان غوثاً، وصرح لي بذلك.

وكنت جالساً معه ذات يوم فجاءه رجل من أهل «زا» بزاي معجمة بعدها ألف ناحية معروفة، فقال: من أين أنتم؟ فقال له: من أهل «زا» فجعل رضي الله عنه يصف له البلد ويذكر له مواضع وعلامات والرجل يصدقه ويظن أنه ممن قدم إلى الموضع، ثم لما قام الرجل التفت إليّ وقال، إن الناس يحبون الكشف وفيه ضرر عظيم على الولي وعلى من يريد ذلك منه. أما ضرره على الولي فلأن فيه نزولاً عن مشاهدة الحق إلى مشاهدة الخلق، وذلك انحطاط عن الذروة العليا، وأما على الذي يقصده من الولي فلأنه لا يقصد من الولي

الكشف والكرامة إلا من كانت محبته على حرف، فإذا ساعفه الولي فقد أقره على حالته وأبقاه على عمايته وسيأتي إن شاء الله شرح هذين الأمرين في أثناء الكتاب.

ومن ذلك أن بعض الأشراف كان يقرأ عليّ شيئاً من العلوم الدقيقة فكنت أفسرها له بحسب ما عندي، فكان يعجبه ذلك ويقول: ما وجدنا في الفقهاء من يشرح لنا هذا الشرح الذي تشرحه أنت، فبينما أنا أشرح له ذلك الكتاب فإذا بصاحب الكتاب أشار إلى مسألة كبيرة فيها سر من أسرار الله تعالى، فقال لي الشريف: ما معنى هذا الكلام؟ فقلت: لا أدري، وخفت من إفشاء السر فلم يزل الشريف يرغب فقلت له: والله لا أفسرها لك إلا إذا أعطيتني العهود والمواثيق أنك لا تتكلم بما تسمع مع قريب ولا مع بعيد؛ فأعطاني ذلك وفسرت له المعنى المراد وأجبته عن جميع الإشكالات الواردة العارضة حتى ظهرت المسألة ظهور الشمس، ففرح الشريف بذلك غاية الفرح، فقلت له: إن لقيت شيخنا الإمام رضي الله عنه يوماً من الأيام في دهرك وانجر الكلام إلى هذه المسألة وأراد أن يشرحها لكم فأظهر الجهل وصور نفسك بصورة من لم يسمعها ولا طرقت سمعه، فأعطاني العهد على ذلك أيضاً. ثم إني التقيت مع سيدنا الشيخ في ذلك اليوم فكان أول ما بدأني به أن قال لي تكلمت مع الشريف فلان بكذا وكذا، وذكر المسألة، فقلت له: يا سيدي نعم، ولم أرد إلا الخير ثم جعلت أفتش عن خاطره فإذا به والحمد لله مثل الحليب، وكشوفاته رضي الله عنه لا تنحصر. ومن أراد جمع كراماته احتاج إلى تأليف خاص مع أن كل ما في هذا الكتاب من الكرامات.

ومن كراماته رضي الله عنه: تأثير كلامه في القلوب، فقد جاءه فقيه من الفقهاء ذات يوم، فقال له يا سيدي ادع الله لي أن يقطع الوساوس من قلبي، فقال رضي الله عنه: الوسواس لا يكون إلا مع الجهل بالطريق، فمن قصد مدينة وهو جاهل بطريقها فإن الخواطر تختلف عليه، فيقول له خاطره الطريق هكذا فيتبعه، ثم يقول له آخر بل الطريق من هٰهنا فيبقى حيران ولا يدري أين يذهب، والعارف بالطريق يسير وقلبه سالم من ذلك، وطريق الدنيا والآخرة هو الله تعالى، فمن عرف هذا ربح خيري الدنيا والآخرة وأحياه الله حياة طيبة، ومن جهل هذا كان على الضد، فلما سمعت هذا الكلام رحمني الله به عز وجل فصار الخاطر إذا توجه لقضاء حاجة من غيره تعالى جذبه جاذب من غيره ورده إلى الله عز وجل ونطلب من الله تمام ذلك.

وسمعته يقول: المؤمنون إذا ناموا ناموا على الله، وإذا استيقظوا استيقظوا على الله فلما سمعت منه هذا الكلام سكن معناه في قلبي ولله الحمد، فأنا في النوم والله تعالى في قلبي.

وسمعته يقول: إذا ذهب خاطر العبد مع غير الله فقد انقطع عن الله عز وجل. ثم من الناس من يرجع إلى الله عز وجل عن ساعة ومنهم من يرجع عن ساعتين، ومنهم من يرجع

عن أقل، ومنهم من يرجع عن أكثر، فلينظر العبد كيف قلبه مع الله عز وجل، فصار هذا الكلام ـ ولله الحمد ـ بمنزلة اللجام القلبي، فكلما أراد أن يسرح في بحار الغفلة جذبه هذا الكلام.

وسمعته مرة يقول: إن العبد لا ينال معرفة الله تعالى حتى يعرف سيد الوجود ﷺ، ولا يعرف سيد الوجود ﷺ حتى يعرف شيخه، ولا يعرف شيخه حتى يموت الناس في نظره فلا يراقبهم ولا يراعيهم، فصلّ عليهم صلاة الجنازة ونزاع من قلبك التشوف إليهم، فرحمني الله بهذا الكلام حين سمعته وكان هو سبب دخول الخير عليّ، ولهذا الكلام تفسير عريض وشرح طويل، ولو تتبعنا هذا الباب لطال وفيما ذكرناه كفاية.

وقد طلبت من الفقهاء أصحابه رضي الله عنهم أن يقيدوا بعض ما عاينوا من كراماته، فكتب إليّ الفقيه الثقة الرضي أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد بن حنين الزيراري فعرضت ما كتبه على الشيخ رضي الله عنه فأقرّ به وصدقه، ونص ما كتبه:

الحمد لله وحده، ومما منّ الله به عليّ أني لما القيت مع شيخنا الإمام الغوث الهمام مولاي عبد العزيز ابن مولاي مسعود، كان قلبي متعلقاً جداً بأمور الدنيا من حرث وتجارة ونحو ذلك، حتى كنت من ذلك في غاية الكد والتعب وكانت الدنيا هي المقصودة والآخرة أضغاث أحلام، وكنت ممن رزقه الله شيئاً للعلم، وعزمت على أن أدخل في زمرة العدول أو أسعى في تولية خطة القضاء والعياذ بالله، فرحمني الله عز وجل حين لقيته، وطهر الله قلبي وذلك ببركته وحسن سياسته، فإني لما التقيت معه وأخذت عنه ورأى ما بي من العلة المعضلة، أمرني ببيع ما عندي من ثيران الحرث وأن أفعل بها كذا وكذا، وذكر لي أمراً لا ينافي الأسباب الدنيوية وهو في الباطن يريد أن يمحوها من قلبي. فالله در هذا الإمام ما أحسن سياسته، إذا ما من حالة خبيثة يريد أن ينقلني منها إلا وينقلني وأنا لا أشعر حتى أجد نفسي فيما هو أطيب منها وأحسن، ويظهر لي خبث الحالة الأولى وظلامها عياناً، وهذا دأب هذا الإمام العظيم معي ومع سائر إخواني بحيث إذا وجدك على حالة قبيحة لا يقول لك أترك هذا الأمر صراحة ويشنع عليك في ذلك ويتبرأ منك إذا لم تترك، إذ ربما تأبى النفس ذلك ويدعوها ذلك إلى المخالفة بل يرفق بك ويحسن لك ما أنت عليه بعض التحسين، ثم يسارك شيئاً فشيئاً حتى تجد نفسك على حالة لم تكن عليها، وتستقبح ما كنت عليه مع انشراح صدر وطيب نفس، ولما أمرني رضي الله ببيع الثيران بقيت أياماً وغسل الله من قلبي حب الفلاحة، بل صرت كارهاً لها، ثم أمرني ببيع ما عندي من الكتب كلها وأن أفعل بها شيئاً يحبه قلبي وتفرح به نفسي، ثم بعد ذلك حصل لي طمع في الناس وصرت أتشوق لما في أيديهم، فرقاني رضي الله عنه حتى صرت لا أشاهد للناس نفعاً ولا ضراً فضلاً عن الطمع فيهم.

ومن كشوفاته رضي الله عنه أن قال لي ذات يوم في أول ما لقيته: هل عندك شيء

من السمن؟ فقلت نعم سيدي، عندي كذا وكذا، فقال ائتني ببعضه، فقلت نعم، فقال بعض الإخوان لعل ما بقي من السمن لا يوصل إلى وقت رخاء السمن. فقلت نعم، فقال رضي الله عنه: هل بقي ما يوصلك إلى الوقت الفلاني؟ قلت نعم، فقال ائتني بما زاد على ذلك، ثم إنه لما وصل ذلك الوقت أتاني رجل بشيء من السمن لوجه الله من حيث لا أحتسب فكفاني إلى رخائه.

ومنها أني كنت أستشيره رضي الله عنه ونفعني به في بيع شيء من الزرع كان عندي، فقال لي اليوم الخامس من الشهر الفلاني بع ما تريده، فلما وصل ذلك الشهر كان غاية بيع الزرع في اليوم الخامس والسادس منه، فلما كان اليوم السابع أعطى الله المطر الغزير فرخص الزرع غاية والحمد لله.

ومنها أني ذهبت لزيارته وكانت إحدى زوجاتي حاملاً فتكلمت معه في شأنها، فقال لي إنها تلد ولداً ذكراً اسمه أحمد، فلما قدمت ذكرت لأهلي ذلك فكان كما قال رضي الله عنه، ثم إن زوجتي الأخرى دخلتها غيرة حيث ولدت الأولى ذكراً وكانت ترضع بنية ففطمتها قبل الأوان لعلها تحمل، فلمتها على ذلك، فقالت إني حامل وخفت على البنت وأقسمت على ذلك، فلما ذهبت لزيارة الشيخ رضي الله عنه ذكرت له القصة فقال كذبت ليس عندها شيء، فرجعت فوجدتها كما قال رضي الله عنه، فمكثت ثلاث أشهر ومضيت لزيارته فقال لي أحملت زوجتك؟ فقلت لا أدري يا سيدي، فقال إنها حامل منذ خمسة عشر يوماً وهو ذكر إن شاء الله فسمه باسمي وهو يشبهني إن شاء الله، فلما رجعت أعلمت الزوجة بما قال وفرحت ثم ولدت ذكراً كما قال رضي الله عنه وهو أشبه الناس به بشرة.

ومنها أن الزوجة الأولى حملت ثانياً فسألته عن حملها فقال لي بنت وسمها باسم أمي، فكان الأمر كما قال، فزادت عندنا بنت وسميتها باسم أمه رضي الله عنه.

ومنها أني كنت جالساً معه ذات يوم وهو يمازحني، فقال لي هل فعلت كذا وكذا وذكر لي أمراً من جملة المعاصي، فقلت له لا ظناً مني أني لم أفعله، فقال لي انظر وهو يضحك، فأقسمت له بأني لم أفعله ثانياً وثالثاً، ثم إني في المرة الرابعة تفكرت وإذا بي قد فعلت ذلك منذ خمسة عشر عاماً في بلدة بعيدة بينها وبين فاس نحو من سبع مراحل، فاستحييت فعلم بي وقال أتحلف الآن؟ قلت لا سيدي، وقبلت يده الكريمة فقلت له ومن أين لك بهذا يا سيدي؟ فقال وهل يغيب عليه تعالى شيء وكذا من أطلعه الله على أسراره ثم نبأني بأمور فعلتها قبل ذلك وبعد ذلك وتبت إلى الله على يده توبة نصوحاً والحمد لله.

ومنها أني كنت جالساً ذات يوم أمامه وهو متكىء على يمينه رضي الله عنه وهو بين النوم واليقظة فخطر بقلبي خاطر سوء والعياذ بالله ففتح عينيه وقال: ما الذي قلت؟ فقلت، يا سيدي لم أقل شيئاً فقال: ما الذي قلت في قلبك، فاستحييت منه وتبت إلى الله.

ومنها أني خلوت ذات ليلة بإحدى زوجاتي وكانت مستلقية فكنت أمازحها حتى حصل مني النظر إلى عورتها قصداً وعمداً، فلما قدمت عليه للزيارة وكان بيني وبينه مرحلتان جعل يمازحني حتى قال ماتقولون أنتم أيها العلماء في النظر إلى عورة المرأة؟ فقلت له ما قالت العلماء فقال لي: وهل تفعله؟ فقلت لا، نسباناً لما وقع مني، فقال: حتى في الليلة الفلانية، فاستحييت وتذكرت ما فعلت فقام عني وقال: لا تعد وجه نظرك إلى الكعبة إن شاء الله.

ومنها أني جمعت بين زوجتي ذات ليلة في مبيت واحد لعذر منع إحداهما من مبيتها بمسكنها، فباتت كل واحدة منهما على فراش وحدها وبت أنا على فراش وحدي وبقي فراش رابع في البيت لم يبت عليه أحد،ثم دعتني نفسي إلى وطء إحدى الزوجتين فوطئتها ظناً مني أن الأخرى نائمة، ثم لما نمت شيئاً قليلاً قمت ووطئت الأخرى ظناً مني أن الأولى نائمة أيضاً. ثم لما قدمت لزيارته وكنت أكثر منها وإن بعدت المسافة جعل ذات يوم يمازحني حتى قال: ما تقولون في جمع المرأتين في مسكن واحد مع وطئهما، فعلمت أنه أشار إلى ما وقع مني، فقلت سيدي وكيف علمت ذلك، فقال ومن نام على الفراش الرابع؟ فقلت سيدي ظننت أنهما نائمتان، فقال: ما نامت الأولى ولا الثانية على أنه لا يليق ذلك ولو نائمتين، فقلت سيدي ذلك هو المذهب وأنا تائب إلى الله.

ومنها أني كنت ذات يوم جالساً عنده مع جماعة من الإخوان وسيدتنا زوجته لم تكن بالدار، فأراد بعض أصحابنا الحاضرين أن ينزل لدار الوضوء ليقضي حاجته وكانت دار الوضوء مقابلة لباب الدار حتى أن الداخل قد يرى من بها، وإذا به رضي الله عنه قد صعد مسرعاً وقفل علينا باب المسكن ونزل مسرعاً، فلم ندر لم فعل ذلك وبقينا متحيرين، وإذا بالسيدة قد دخلت فعلمنا أن ذلك كان لذلك.

ومنها أني قدمت لزيارته رضي الله عنه فجلس معي في مسكن من مساكن داره حتى كان وقت النوم فقال: نم ونزل، فأزلت ثيابي واستلقيت وإذا بيد دخلت معي ودغدغتني في مراقي فضحكت قهراً وضحك هو رضي الله عنه وهو بموضع مبيته بالسفل في البيت فعلمت أنه الذي فعل ذلك.

ومنها أني سافرت لزيارته مع جماعة من الإخوان، فلما قفلنا من عنده ولم يكن معنا سلاح ولا ما نردّ به اللصوص أخطأنا العمارة وبتنا بموضع قفر مخوف مآوى اللصوص فبتنا ونام الأصحاب، وبقيت أنا ورجل فأحسسنا بالأسد قريباً منا، فقلت له لا توقظ أصحابنا لئلا تصيبهم فجعة وكان فيهم من لم يجرب الأمور وعسى الله أن يدفعه عنا، فلما قرب الصباح أخذنا السير فوجدنا بقربنا أرنباً كأنها خرجت روحها الساعة، ثم لما قدمت مرة أخرى لزيارته مع بعض الإخوان لم أنم، وجعلت أحرس الدواب، فلما قدمنا عليه قلت يا سيدي أردت أن أنام لأني البارحة لم أنم، فقال: ولم؟ فقلت كنت أحرس الدواب فقال لي

رضي الله عنه وما تنفع حراستك وكيف بكم لو جاءكم القطاع ليلة كذا؟ وأشار إلى ليلة الأسد، قلت يا سيدي وكيف ذلك، فقال: أليس لما بلغتم إلى الوادي الفلاني لحق بكم ثلاثة من الناس؟ فقلت نعم، فقال: لما صعدوا إلى الجبل وجدوا أربعة رجال ينظرون من يقطعون عليه، فلما وصلوهم أعطوهم خبركم وتبعوكم السبعة ينظرون أين تبيتون، فلما بتم جلسوا ينتظرون نومكم فلما ظنوا نومكم قدموا يطلبونكم فوجدوا أسداً قريباً منكم، فقالوا كيف نفعل إن قاتلنا الأسد، فطن القوم، وإن ذهبنا إليهم منعنا الأسد فخلوا سبيلكم، وذهبوا إلى قافلة أخرى، فلما لم يحصلوا على شيء منها رجعوا إليكم من جهة أخرى فتعرض لهم الأسد أيضاً من تلك الجهة وظنوه أسداً آخر، فقال بعضهم ما بال هؤلاء القوم جئناهم من جهة كذا فحماهم الأسد، ثم جئناهم من جهة أخرى فحماهم الأسد، فأرادوا أن يفهموا، ثم طبع الله على قلوبهم فسألته عن الأرنب فقال إن الأسد فيه عزة نفس كابن آدم، وكما أن ابن آدم إذا نزل بوجهه ذباب فإنه يطرده فكذلك ذلك الأسد بينما هو جالس وإذا بالأرنب بين يديه ولم تره فقتلها.

ومنها أني لما أردت أن أتزوج الزيرارية وكنت غير عارف بصفتها فوصفها لي بما وجدتها عليه وذكر لي فيها أموراً لا يعلمها إلا الله، ثم لما عزمت على الدخول قال لي أنا ليلة الدخول أكون عندكم، فقلت له وبم أعلم ذلك يا سيدي؟ فقال لي أن أفعل لك علامة، ثم لما اجتمعت بالزوجة وكلمتها بعض الكلام وإذا بالدم يسيل من خياشيمها، فقلت لها وما بالك؟ فقالت لي أنت ضربتني على أنفي فسكت عنها وعلمت أنه فعل سيدنا الإمام، ثم لما ذهبت لزيارته وذكرت له القصة قال لي نعم، ولو لم يهبط ذلك الدم من خياشيمها لمرضت، وذلك أنها جاءت من موضع بعيد وكان يوماً بارداً فامتخض فيها الدم.

ومنها أني كنت معه رضي الله عنه ذات يوم بداره وهو رضي الله عنه بالسفل يصنع شيئاً، وأنا بالفوق واقف أنظر إلى سطح أمامي، وإذا بامرأة صعدت عليه فرأيت بوجهها حمرة فتأملتها أحمرة دم أم حمرة عكار فبأي نظرة مني إليها نظر إليّ وقال اتق الله هذا مع حضوري وجعل يضحك رضي الله عنه.

ومنها أني ذهبت لزيارته مرة وكنت راكباً على بغلة فلما وصلت موضعاً صعباً نزلت عن الدابة وتركتها تمشي، فلما جاوزت المحل وأردت أن أركب فرت فجعلت أصيح يا سيدي مولاي عبد العزيز فأتاح الله لي أناساً فقبضوها فلما وصلته جعل يضحك ويقول ما يفعل عبد العزيز؟ أنت بموضع كذا وهو بموضع كذا نعم لو كنت معك لأعنتك فقلت يا سيدي كل ذلك عليك سواء.

ومنها أني كنت جالساً ذات يوم بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي مستنداً إلى حائط القبلة وأمامي سارية لم يستند عليها أحد ولا بيني وبينها أحد وأنا أذكر الله، ثم بعد مدة قمت لأنصرف إلى داره رضي الله عنه فمشيت خطوات قليلة فنسيت شيئاً فرجعت إليه فلم

أشعر إلا وسيدنا الإمام واقف مع السارية فلبس سلهامه وأنا أجزم بأنه لم يكن هناك أحد، فقلت سيدي ومولاي، كم لك بهذا الموضع ومتى جئته؟ فقال حين شرعت تذكر الذكر الفلاني وكنت أذكره سراً بحيث لا يسمعه الذي جنبي، فعلمت أنه كان على حالة احتجب فيها عن العيون.

ومنها أنه كان وقع لي مع امرأة أجنبية شيء يكرهه الشرع الشريف إلا أنه خفيف، فكنت ذات يوم جالساً معه وأنا أتكلم معه على شأن النساء حتى ذكرناها ولا أدري لأي سبب ذكرناها، فقال لي بديهة أرى بينك وبين تلك المرأة خيطاً أزرق فلم ذلك؟ فتذكرت ما كان واستحييت، وكان مضى لتلك القصة نحو من الخمس سنين.

ومنها أني استشرته مرة في شراء شيء من أمور الزاد، فقال لي لا ما عندك يكفيك بل اشتر السمن، إنه ليس عندك ما يوصلك إلى أوانه، فقلت نعم سيدي غير أن فلانة لها عندي سمن أمانة وكنت يوماً ذكرت قلة السمن وهي عندي فقالت ها السمن عندي كثير فما يخصك منه فخذه ولم أدر مرادها هل عطية لوجه الله أو سلف أظنها صادقة، فسكت عني شيئاً قليلاً وقال لي اشتر السمن وأعادها ثانياً وثالثاً، فعلمت أن المرأة لا تفي بشيء مما قلت، فكان الأمر كذلك، وذلك أنه لما كانت وقت بيعه قدمت وباعته وهي بداري وهي تعلم حالي وأنه ليس عندي شيء ثم يسر الله عليّ أكثر مما كنت أرجوه منها ببركة الشيخ رضي الله عنه.

ومنها أن بعض الناس كان أسلفني دراهم وترك دراهم أخرى أمانة عندي ثم قدم ليأخذ سلفه وأمانته ولم يكن عندي شيء مما أسلفني ولا تيسر لي ما أبيعه في قضائه، وكنت أظنه بطيء الاحتياج له فأخرجت له الأمانة وجعلت أذكر الشيخ سلفي لكي لا يذكر لي السلف فسكت ولم يذكر لي ذلك إلى الآن، وذلك نحو الستة أشهر مع أنه قدم ليأخذ الأمرين لا محالة، فالحمد لله على ذلك اهـ. ما كتبه.

وكتب لي الفقيه الثقة الصدوق سيدي علي بن عبد الله الصباغي رحمه الله ما رأى من كرامات الشيخ رضي الله عنه فعرضته على الشيخ حرفاً حرفاً فأقر به وصدقه في ذلك، لأن غرضي أن لا أكتب في هذا المجموع إلا ما رأيته بعيني أو سمعته من الشيخ رضي الله عنه بأذني ونص ما كتب.

الحمد لله وحده، هذا تقييد ما رأيت من شيخنا الإمام الأستاذ الأكبر الغوث الأشهر سيدي ومولاي عبد العزيز ابن مولاي مسعود من الشرفاء الفاسيين الشهير نسبهم بالدباغين رضي عنه من الكرامات والمكاشفات.

فمنها ما وقع لي أول ما رأيته وصحبته وأخذت عنه رضي الله عنه فحين رجعت إلى أهلي وبقيت نحو العشرة الأيام وقعت عند بعض قرابتي مسألة كبيرة وعلم بها بعض الناس

وبعضهم حضرها نحو العشرين نفساً ما بين صغير وكبير ذكر وأنثى، وكانت تلك المسألة من المسائل التي إن سمع بها المخزن يهلك القبيلة كلها، فخرجت إلى الخلاء وعيطت عليه رضي الله عنه ثلاث مرات برفع صوتي وقلت يا سيدي استر هذه القبيلة من نار هذه المسألة فصارت تلك المسألة كأنه سقط عليها جبل أو رمى بها في البحر وسكت جميع من علم بها وصار بمثابة من لم يعلم بها، وإن سمعها بعضهم من أحد خفية يكذب بها وحفظ الله القبيلة ومن فعلها ببركته رضي الله عنه.

ومنها ما وقع لي حين رجعت إليه المرة الثانية فرأيت من مكاشفاته رضي الله عنه وحسن جوابه للمشاورين له، فقلت يا سيدي فاز وسعد من هو قريب منك كلما وقعت له مسألة يجدك قريباً منه ويشاورك فيها وكيف أصنع أنا يا سيدي في مسائل وأنا منك على مسيرة أربعة أيام فمن أشاور فيها؟ فقال لي رضي الله عنه: كلما عرضت لك مسألة ولم تدر ما تفعل فيها فاخرج إلى الخلاء وصل ركعتين بقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة في الركعة وبعد أن تسلم عيط عليّ ثلاث مرات، واعتقد واستحضر أني حاضر معك وشاورني في مسألتك فإنك تجد الجواب، فعرضت لي مسألة وكثر عليّ الهم فيها فخرجت إلى الخلاء وفعلت كما أمرني رضي الله عنه فوجدت المخرج قريباً ببركته رضي الله عنه، وكان الإخوان إذ ذاك بين يدي الشيخ رضي الله عنه وأنا منه حينئذ مسيرة أربعة أيام، فلما التقيت بعد ذلك مع الإخوان قالوا لي هل كان منك كذا وكذا يوم كذا وكذا، فقلت نعم، فقالوا نحن بين يدي الشيخ رضي الله عنه فإذا به ضحك وقال مسكين سيدي علي بن عبد الله هذه النية فيه خرج إلى الخلاء وينادي يا مولاي عبد العزيز أين مولاي عبد العزيز منه؟ وحين التقيت به رضي الله عنه قال لي لا تهتم بمسألة أبداً ولو بلغت بك الحاجة ما بلغت، فمن حين قال لي هذا الكلام أذهب الله عني الهم كله فما أراد الهم أن يقرب مني في مسألة إلا ويسرها الله عليّ قبل أن أهتم بها ببركته رضي الله عنه. قلت للشيخ رضي الله عنه مسألة الركعتين خاصة بسيدي علي بن عبد الله أو لكل من أرادها؟ فقال رضي الله عنه هي لكل من أرادها فحمدت الله على ذلك.

قال سيدي علي: ومنها وما وقع لي معه رضي الله عنه حين ودعته وودعني في المرة الأولى، وكان ذلك في آخر رمضان، فقال لي رضي الله عنه تأتي بكبش نعيد عليه يعني العيد الكبير، فقلت له نعم يا سيدي، فحين قرب العيد اشتريت كبشين وكان حينئذ بعض الأخلاء من الإخوان عنده وكان بيني وبين ذلك الأخ مسيرة يومين في نصف المسافة بيني وبين الشيخ رضي الله عنه، فقال له إن فلاناً يقدم عليك بكبشين فخذ أحدهما وعيد به، واقدموا بالآخر وحين قدمت على ذلك الأخ قال لي ما قال له الشيخ رضي الله عنه فلم تأخذني ريبة في ذلك لما رأيت من مكانته عند الشيخ رضي الله عنه، فقلت له خذ ما شئت منهما، فقال نأخذ الأدنى ونذهب للشيخ بالأجود، فتركنا واحداً وذهبنا بالذي ظهر أنه

الأجود، فلما رآه الشيخ رضي الله عنه قال لي عملها بك فلان؟ أخذ الأجود وأتيت لي بالأدنى، فقلنا له يا سيدي هذا الذي ظهر لنا أنه أجود وأسمن، فقال ذلك شحمه في كرشه وهو لم يره قط فخرجنا يوم ذبحهما كما ذكره رضي الله عنه وحين تركنا كبشاً وذهبنا له بالآخر فقلنا كيف نصنع لهذا الكبش وكيف يوافقنا ونحن ركبان؟ فيسر الله علينا رفقة من الغنم ذاهبة إلى فاس ولم يكن معنا من هو راحل إلا أخ لي من أبي فتركناه مع ذلك الكبش ليأتي به مع تلك الرفقة، فلم يلحق بنا إلا بعد يوم من لحوقنا للشيخ رضي الله عنه، فلما رآه الشيخ رضي الله عنه قال له أنت أتيتنا بكبش ونحن أعطيناك ولداً، فقلت له يا سيدي تلك حاجته، وكان أخي شديد الاشتياق إلى الأولاد وله زوجة صغيرة لها نحو الخمس عشرة سنة عنده ما ولدت قط حتى يئست من الولادة، وحتى كانت تتهم زوجها أنه هو العقيم، فلما ربطنا الكبش في مكان وذهب بنا الشيخ رضي الله عنه لمسكنه وكان ذلك ليلاً، فلما رأى أخي على ضوء المصباح قال له ادن مني فدنا منه وكشف عن جبهته وقال هذا ما هو غندور عندك يا فلان ثلاث مرات، ثم قال له رضي الله عنه كيف تسميه؟ فقال له يا سيدي سمه أنت كيف شئت، فسكت ساعة وقال سمه رحالاً، ولم يكن هذا الاسم عندنا في القبيلة ولم يتسم به أحد من أجدادنا، فقال له بعض الإخوان الحاضرين من أين لك يا سيدي هذا الاسم الغريب الذي لم يكن عندهم قط؟ فضحك رضي الله عنه فقال هذا الذي رأيت، فلما رجعنا إلى أهلنا وجدنا امرأة أخي ظهر بها حمل ولم يكن لهم بها علم قبل، فزاد عنده ولد وسموه رحالاً كما ذكر الشيخ رضي الله عنه، وتعجب الناس من ذلك. قلت وإنما سماه رحالاً إشارة إلى أنه سيرحل ولا يدوم فكان الأمر كذلك، فإنه عاش نحو الثلاثة الأعوام ومات، فكان في هذا الاسم كرامة أخرى.

وقد سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول لوالده بعد موته المرة الأولى: أعطيناك فيها رحالاً، وفي هذه المرة نعطيك من يقيم عندكم ولا يرحل عنكم.

ثم قال سيدي علي: ومنها أيضاً أني ذهبت بعض الأيام إلى الصعيد مع صاحب لي، وكنت رجلاً صياداً بالمكحلة فتغدينا في بيوتنا وقت الفطور وخرجنا ولم نحمل معنا خبزاً لأنا ظننا أن لا نبطىء، فأخذنا شاة غزال بأسفل جبل في بلادنا يسمى جليداً بأرض صحراء كثيرة الغزلان فيها فأبطأ بنا الحال وأخذنا الجوع عشية وندمنا على عدم حمل الخبز معنا، فلما زرته رضي الله عنه بعد ذلك، قال لي لم ذهبت إلى الصيد يوم الأربعاء ولم تحمل معك ما يؤكل، فلقيك رجل وفتشك فلم يجد عندك ما يؤكل ثم أخذتم شاة غزال بأسفل الجبل فأعطاني نعت البلد كلها ونعت الجبل، وقال لي إن برأس ذلك الجبل، عوينة ماء صغيرة قدر القصعة لا تيبس ولا تسيل خارجاً عن محلها لا تزيد ولا تنقص وأنا لا أعرفها، ولا يطلع إلى رأس الجبل إلا قليل من الصيادين وقليل ما هم، فلما رجعت سألت عن تلك العوينة فذكرها لي من يعرفها كما نعت الشيخ رضي الله عنه، قلت والرجل الذي لقيته

وفتشته هو الشيخ رضي الله عنه، سألته رضي الله عنه عن الرجل ففسره لي، وسمعته يقول: لا إله إلا الله كم صلينا عند تلك العوينة التي برأس الجبل أنا وسيدي منصور وكان يعجبنا ذلك الموضع لعلوه.

ثم قال سيدي علي: ومنها أنه نعت لي بلادي كلها مرة أخرى ونعت مسكننا كما هو ونعت غيره وهو منه على مسيرة أربعة أيام ولم يره قط وكان كما وصف رضي الله عنه لم يزد ولم ينقص.

ومنها أني لما زرته مرة أخرى ونعت مسكننا كما هو قال لم تربط خيلك في ذلك الموضع وهناك رجل صالح مدفون عند أرجل خيلك؟ وما رأينا أثر قبر قط ولا بإزائنا مقبرة وبيننا وبين المقبرة نحو نصف ميل، فقال لي رضي الله عنه: بمراحك سبعة قبور ولا عليك فيها إلا ذلك القبر الذي عند أرجل الخيل فحول خيلك عن ذلك الموضع ووقره واحترمه واجعل عليه حائلاً يحول بينه وبين ما يؤذيه، فقال له بعض الإخوان الحاضرين، يا سيدي ممن هو؟ فقال من عرب بين «وجدة وتلمسان» كان معاشراً للصباغات وكانوا يعدونه من جملة الطلبة وليس معروفاً عندهم بالصلاح ومات ودفن هناك، فأخذنا نسمي له الأعراب التي بين وجدة وتلمسان وهو يقول لا، حتى ذكرنا له أولاد رياح فقال منهم، وهو رضي الله عنه لم يعرف بلادنا ولا مسكننا ولا وجدة ولا تلمسان ولا الأعراب التي بينهما ولم يطأها ولا رآها قط، ثم قال لي: إن أردت أن تقف عليه فخذ الفاس وانبش به تجده، فقلت له يا سيدي أين هو في المراح؟ فقال لي ها هو غربي بيت ابنك خارجه مقابلاً للمطمورة التي من جهة باب المراح، وعندنا في المراح ثلاثة مطامير، ولما رجعت إلى أهلي ذكرت لهم ذلك وأخذنا الناس ونبشنا به في الموضع الذي وصف فوجدنا الأمر كله كما ذكر رضي الله عنه وتعجب الناس من ذلك، قلت للشيخ رضي الله عنه ولم كانت القبور التي في مراحه لا بأس عليه فيها إلا قبر هذا الولي،فقال رضي الله عنه: لأن روح هذا الولي كانت مسرحة وروح غيره كانت محبوسة في البرزخ وقد طال الأمد على القبور ومر عليهم نحو الثلثمائة سنة فزال عني الإشكال، والحمد لله على ذلك.

ثم قال سيدي علي: ومنها أنه ذهب معي لزيارته رضي الله عنه ابن عمي وكان نسيبي فجئنا للشيخ وتركنا امرأة ابن عمي حاملاً ونية ابن عمي في زيارته أن يشكو للشيخ بقلة الشيء وغلبة الفقر وذلك أول زيارته للشيخ رضي الله عنه، فلما رآه رضي الله عنه قال له ألك زوجة؟ قال نعم يا سيدي، فقال له أهي حامل؟ قال نعم يا سيدي، فقال له أتحب أن تلد لك بنتاً مرزوقة؟ فقال نعم بالفرحة علي يا سيدي، ذلك الذي نحب، فجمع له رضي الله عنه بين خبر البنت وبين تيسير أمر الرزق الذي هو بغيته، فلما رجع إلى أهله وجد امرأته ولدت بنتاً وحضر ضحوة سابعها فوجدهم ينظرون كيف يسمونها وكان الشيخ رضي الله عنه قال له كيف تسميها؟ فقال كيف شئت أنت يا سيدي، فسماها خديجة ولم

يكن ذلك الاسم عندنا قط، فتعجب الناس من ذلك قلت للشيخ رضي الله عنه لم سميتموها خديجة فقال رضي الله عنه: كل من فتح الله عليه وتهنأ وأدرك الفتح الكبير فإنه إن أراد أن يتزوج امرأة طلب أن يكون اسمها خديجة، وإن زادت عندي بنت أحب أن يكون اسمها خديجة لأن النبي ﷺ سعد بمولاتنا خديجة وأدرك معها خيري الدنيا والآخرة.

ثم قال سيدي علي: ومنها أنه رضي الله عنه وصف لي زوجتي من رأسها إلى قدمها عضواً عضواً ما ظهر منها وما خفي وكانت كما وصفها رضي الله عنه لم يزد ولم ينقص حتى وكلفت أنا بوصفها ما وصفتها كما وصف رضي الله عنه، فلو حضرت والله بين يديه ما زاد فيها معرفة وكانت منه على مسيرة أربعة أيام ولم يرها قط.

ومنها أني كنت رجلاً كثير النوم، فتارة أفيق عند طلوع الفجر فأطأ زوجتي في ذلك الوقت وتارة يجدني الفجر نائماً، فلما حضرت بين يديه رضي الله عنه قال للإخوان الحاضرين إن فلاناً كلما أقدمت عليه عند طلوع الفجر أجده إما نائماً وإما أن يطأ زوجته في ذلك الوقت، فقال له بعض الإخوان الحاضرين يا سيدي ما الأفضل؟ هل وطء الزوجة أو النوم في ذلك الوقت؟ فقال رضي الله عنه: وطء الزوجة أفضل من النوم في ذلك الوقت، ولكن وطء الزوجة في أوقات الصلاة أن تكون منه ولد فإنه لا يكون بإذن الله إلا عاقاً لوالديه، فتبت إلى الله من ذلك ولم أعد إلى ذلك ولا إلى النوم في ذلك الوقت منذ سمعت منه ذلك رضي الله عنه قلت: وفي قوله إن الولد الكائن من ذلك الوطء يكون عاقاً كرامة أخرى، فإن سيدي علي بن عبد الله رحمه الله يشكو العقوق من أولاده كثيراً ورأينا منهم من يفعل له أفاعيل كبيرة.

ومنها أني كنت رجلاً كثير الملاعبة لزوجتي وأنوع لها في الملاعبة أنواعاً، فذكرت بعض ذلك لبعض الأخلاء من الإخوان فذكر ذلك للشيخ رضي الله عنه كالذي يعيب عليّ، فضحك الشيخ رضي الله عنه وقال: إنما ذكر لك بعض ما يفعل وبقي مما يفعل، إنه يفعل كيت وكيت حتى ذكر له كل ما كنت أفعل وأنا أسمع ولا يقدر أحد أن يبوح به لأحد ولا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، ثم قال رضي الله عنه. ولكن ذلك هو السنة وكل ما يفعل من ذلك فله به حسنات فسررت بذلك والحمد لله رب العالمين.

هذا ما حضرنا وقت التقييد. وكراماته رضي الله عنه لا تحصى نفعنا الله به وأماتنا على حبه، وحشرنا في حزبه بجاه سيدنا محمد نبيه، وحبيبه ﷺ وعلى آله وصحبه اهـ.

قلت: وقد استجاب دعاءه، فإنه رحمه الله ورضي عنه لما دنت وفاته حدثه قلبه بقرب أجله فودع أهله بالصباغات وقال لزوجته إني أذهب إلى الشيخ رضي الله عنه بفاس لأموت عنده، فقدم على الشيخ نفعنا الله به ومرض فأمره الشيخ بالوصية والتأهب للقاء الله عز وجل، فامتثل أمر الشيخ ومرضه رضي الله عنه في داره وكانت زوجته ومن معها

يصنعون له ما يليق بالمريض فلما قرب أمره قال الشيخ رضي الله عنه وهو في البيت وسيدي علي بالصقلابية لمن حضر: إن سيدي عليا الآن رأى النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه فصعدوا للسيد علي يسألونه فوجدوا لسانه قد سقط فكلموه ففهم كلامهم وهز رأسه أي نعم، وجعل يفتح فاه كهيئة الضحك، ثم بعد ذلك اتصل تبسمه وفرحه إلى أن خرجت روحه فسمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: لقد رحمه الله عز وجل بمنه وفضله، ولو جلس في الصباغات تسعين عاماً ما أدرك الحالة التي مات عليها.

وكتب إلى الفقيه سيدي عبد الله بن علي التازي ما عاينه بعض الأصحاب فعرضته على الشيخ أيضاً فصدقه، ونص ما كتب:

الحمد لله ذكر بعض كرامات شيخنا وكنزنا وذخرنا غوث الزمان وينبوع العرفان، سيدي ومولاي عبد العزيز نفعنا الله به آمين.

منها ما ذكر لنا الثقة سيدي عبد الرحمٰن المخوخي: أنه كان ذات يوم مع الشيخ رضي الله عنه بإزاء مولاي إدريس، ومع الشيخ رضي الله عنه حينئذ الشيخ العلامة سيدي أحمد ابن مبارك، قال سيدي عبد الرحمٰن فبعثني الشيخ لداره بقصد قضاء حاجة فذهبت مسرعاً نحو الدار وتركت الشيخ رضي الله عنه بالموضع المذكور، فلما وصلت الدار وجدت رجلاً يطلب الشيخ ليأخذ ثيابه ليغسلها، فبينما نحن ننتظر قدوم الشيخ من مولاي إدريس وإذا به رضي الله عنه خرج من داره وثيابه في يده فأعطاها للذي يريد غسلها، وحين تركته بمولاي إدريس تركته يمشي بالقباقيب لطين ووحل في الطريق من المطر ولو كان يمشي بنعله وذهب الذهاب المعتاد لم يمكن أن يسبقني إلى الدار لأني جئتها مسرعاً غاية الإسراع.

ومنها ما ذكر سيدي عبد الرحمٰن أيضاً قال: كانت للشيخ مرآة ينظر بها في الكتب، فتلفت له فجئته بمرآة أخرى من عند حبيبه وصديقه الحاج محمد الكواش فوجدها لا تليق فقال انظروا المرآة الأولى فإنها صافية لعلكم تجدونها، قال فأخذنا كتاباً كان يضعها فيه وفتشناه ورقة ورقة غير ما مرة فلم نجدها فيه فتغير الشيخ حينئذ وتنكر وجهه فقلت له يا سيدي مالك؟ فقال إني تغيرت على هذه المرآة ثم رفع الكتاب الذي فتشناه والمرآة التي ليست بجيدة في أنفه فسقطت من أنفه فوضع الكتاب فوجد المرآة التالفة مطروحة فوق ظهره، فقال لولده مولاي عمر: قل لأمك الحمد لله قد رد الله عليَّ مرآتي.

ومنها قال سيدي عبد الرحمٰن: كنا نجلس مع الشيخ رضي الله عنه في فصل البرد الشديد فنشاهد جبينه رضي الله عنه يسيل بالعرق سيلاناً كثيراً وقد شاهدنا انتقال هذه الحالة، قلت للشيخ رضي الله عنه ما سبب انتقال هذه الحالة؟ قال رضي الله عنه إن العرق الذي يسيل مني كان في أول الأمر حيث كانت المشاهدة تحضر وتغيب فإذا غابت كنت

كواحد من الناس، فإذا رجعت أخذتني عن حالة الآدمي فإذا ذهبت رجعت إلى الحالة الآدمية فإذا رجعت نقلتني عنها فكان ذلك يضرني كثيراً، ولما دامت علي وصارت لا تغيب وأنست الذات بها صارت لا تتأثر بها.

ومنها أيضاً ما وقع لكاتبه عبد الله بن علي ولأخيه عبد الرحمٰن المذكور أنهما صعدا يوماً على سطح مدرسة العطارين قالا فرأينا على سطوح الدور نسوة مجتمعات ومتفرقات. فجعلنا ننظر إليهن ونتذاكر أمرهن فيما بيننا ونضحك أحياناً، ثم وثب أحدنا مرة إلى الهواء من قوة ما غلب علينا من المزاح، فلما قدمنا دار الشيخ رضي الله عنه وجلسنا في الصقلابية المعروفة جعل رضي الله عنه يضحك ضحكاً كثيراً ويقول: ما أملح الشيخ الذي لا يكاشف، ثم قال أين كنتما؟ أصدقاني ولا تكذبا علي فذكرنا له الأمر الذي كان، فجعل رضي الله عنه يذكر لنا أمر النسوة ومكانهن في السطوح كأنه حاضر معنا، وذكر لنا أيضاً الوثبة المتقدمة من غير أن نذكرها له فذكر لنا رضي الله عنه أنه كان حينئذ جالساً مع بعض من قصده للزيارة فلم يشعروا به حتى تفرقع بالضحك وذلك حين شاهد تلك الوثبة فظن من حضر أنه كان يضحك عليه.

ومنها قال سيدي عبد الرحمٰن كانت امرأتي حاملاً فلما قدمنا على الشيخ ذكرنا له أمر الحمل فقال بعض من حضر يضحك على سيدي عبد الرحمٰن إنما هو بنت، فقال له الشيخ ادن مني فقال له في أذنه والله إنه لولد ذكر، فكان الأمر كما قال رضي الله عنه قال وجئته مرة أخرى أزوره وتركت الولد مريضاً فطلبت من الشيخ رضي الله عنه أن يدعو له بالشفاء، فقال أمهلني إلى مرة أخرى وأدعو له قال فعلمت بذلك أن الولد يموت بالقرب فكان كذلك.

قال: وقد ذهبت لأزوره مرة أخرى وقد تركت الزوجة حاملاً فقال لي الشيخ رضي الله عنه وأنا عنده والزوجة بتازة إنها زادت عندك بنت فكان الأمر كما قال رضي الله عنه.

ومنها قال سيدي عبد الرحمٰن: توجهت للشيخ لأزوره بفاس ومعي ثلاثون أوقية للشيخ فلما دنوت من المدينة أخذت أوقية قال فلما أعطيت الدراهم للشيخ قال لي أنت لا تترك عمايلك، قم اشتر لي موزونة تمراً وثلاثة موزونات جبناً مكان الأوقية التي أخذت فقلت له يا سيدي إنك تخلصت بالكياسة والعقل.

ومنها قال سيدي عبد الرحمٰن: قصدت الشيخ للزيارة فلما جلست بين يديه قال لي أي شيء كنت تفعل ليلة الأحد، فقلت وأي شيء يا سيدي، فقال حيث كنت تجامع أهلك وقد أجلست ولدك على الوسادة حيث أبى النوم وحيث كان القنديل على الصندوق أو ما علمت أني حاضر معك، وبالجملة فكرامات الشيخ رضي الله عنه لا تعد ولا تحصى اهـ. ما كتبه.

قلت: وقد ظهر من ذلك الوقت إلى وقتنا هذا ما لا يحصى من كرامات الشيخ

رضي الله عنه، وكانت كتابة هؤلاء إلى أواخر عام ثمانية وعشرين وعرضت ما كتبوه على الشيخ يوم عاشوراء عاشر المحرم فاتح سنة تسع وعشرين.

وكتب لي الفقيه الثقة الأرضي سيدي العربي الزيادي وغالب ما كتبه حضرته ورأيته بعيني وما لم أحضره سألت عنه الشيخ رضي الله عنه فصدقه ونص ما كتب.

ومما وقع لي مع شيخنا الإمام غوث الأنام سيدي ومولاي عبد العزيز نفعني الله به: أني كنت أشتري الكتب لبعض كتاب المخزن فاشتريت كتباً عديدة وصرفتها له وصرف لي الدراهم قبل أن تبلغه، فلما بلغته أرعد وأبرق عليها لكونها لم تعجبه ثم ردها علي وأمرني أن أردها على أربابها وإلا فنعمل لنفسنا ما نحب، فهالني ذلك الأمر وأهمني وأحزنني وأكربني وخفت من الكاتب لسطوته فذهبت إلى الشيخ رضي الله عنه وذكرت له المسألة وقلت له إن أصحاب الكتب أبوا أن يردوها وبقيت متحيراً خائفاً وليس عندي ما يوفي الثمن الذي صرفه الكاتب وللكاتب سطوة على أهلي إلى غير ذلك من الأمور المعضلة في تلك السرعة، فقال لي الشيخ رضي الله عنه يا ولدي لا تخشى من شيء إن شاء الله فإنه سيكون فرج ومخرج عن قريب إن شاء الله، فلم نلبث إلا قليلاً حتى فرج الله بموت الكاتب قتله السلطان نصره الله، وكان الفرج كما قال الشيخ رضي الله عنه.

(ومن ذلك) أنه وقع هرج عظيم في بلادنا تامسنا وكان قاضيها مؤاخياً لي في الله عز وجل، فخفت عليه فجئت للشيخ رضي الله عنه ليدعو له بخير فقال أما السيد الطاهر فلا تخف عليه مكروهاً، وأما الكاتب فلا أضمنه ولم أسأله عن الكاتب وكان أيضاً مؤاخياً لي وللقاضي المذكور هو صاحب الكتب السابقة فكان الأمر كما قال الشيخ رضي الله عنه فإن القاضي لم ينله مكروه، وقتل الكاتب.

ومن ذلك أيضاً: أنه لما بلغنا موت الكاتب ولم يعلم بذلك إلا القليل من الناس ذهبت لدار الشيخ رضي الله عنه فنقرت الباب فخرج ولم نعلمه بموت الكاتب فقال رضي الله عنه مات ذلك الكاتب؟ فقلت نعم سيدي، فقال هو ما قلت لك أو لا، ثم قال وهل عندك شيء من كتبه؟ فقلت نعم سيدي، فقال لي الله يخرج الأمور على خير وعافية، فخفت من كلامه هذا ودخلني منه رعب شديد فأكببت على يده وقبلتها وقلت يا سيدي إني خفت من جانب ذلك الكاتب وأعانني من حضر من أصحاب الشيخ فطلبوا لي من الشيخ الدعاء بخير، فقال لي ولهم حين رغبوا لا بدّ لك من الطلبة ولكنها سالمة إن شاء الله فبقيت متشوقاً لذلك الأمر ثم وقع الطلب والبحث والتفتيش على جميع من بينه وبين ذلك الكاتب خلطة ونزل بمن قبضوه أنواع من المحن من ضرب الرقاب وسبي الأموال وهتك الحريم، فهالني الأمر وزدت خوفاً على خوفي فأذهب إلى الشيخ رضي الله عنه فيقول الموت لا والمحنة تقال، فلم يزل على ذلك حتى جاء من يذهب بي إلى مكناسة فجئت به إلى الشيخ وأظهر له رضي الله عنه الفرح والسرور ودعا له بخير وأوصاه علي كثيراً، فقال

الرجل على الرأس والعين يا سيدي، وقال لي الشيخ إنك ترجع سالماً وبعث بسلامه مع الرجل إلى متولي البحث عن التفتيش للكاتب المذكور فذهبت لمكناسة وأعطيتهم الكتب التي للكاتب فأخذوها وودعوني فرجعت إلى فاس والحمد لله.

ثم بقي هناك بعض من يزين وجهه مع الظلمة فجعل يدل ذلك المتولي عليّ ويقول: بقيت عنده أموال لفلان في أكاذيب يفتريها فلم أبق في فاس إلا جمعة، وإذا بالرجل قد رجع وأظهر لي محبة وصداقة وقال إن محكم قاضي تامسنا كتب إلى المتولي المذكور بعد علمه بفصل القضية على خبر أن وجه لي فلاناً يلقاني بمدينة سلا، فإن أردت أن تذهب فعلى خاطرك وإن أردت أن تقعد فعلى خاطرك، ثم جئت به للشيخ رضي الله عنه فجعل يذكر عنده مثل هذا الكلام والشيخ رضي الله عنه ساكت عنه، ثم قال لي يا فلان الرأي الذي أشير به عليك أن تذهب مع صاحبك هذا الرجل، ولا بد أن نذهب معك بنحو الثلاثين أوقية لتعطيها للمتولي المذكور، فقال الرجل المذكور وأنا يا سيدي هذا هو الذي يظهر لي والسيد العربي أخبر، فقلت: يا سيدي إن كان إنما يريد أن يذهب بي لأجل أخي السيد الطاهر القاضي فما وجه ذهابي معه ولا بد وما وجه ذهابي بنحو الثلاثين أوقية؟ فقال لي رضي الله عنه اسمع ما أقول، فإني لا أقول إلا الجد، ولم أشعر بالبلاء الذي في قلب الرجل وإن كلامه معي إنما كان حيلة وخديعة، فلما لم أفهم وتماديت على الغفلة صرح لي الشيخ رضي الله عنه والرجل يسمعه ولكن جلا ذلك بالضحك، ثم قال لي الشيخ رضي الله عنه لما أردنا القيام من عنده لا تخف من الموت والحبس تحبس، فذهبت مع الرجل لمكناسة ولم أذهب بالثلاثين أوقية التي أمرني الشيخ بها فلما بلغنا مكناسة أعرض عني ذلك المتولي وأمر بحبسي في داره ومنعني من الخروج حتى يشاور السلطان نصره الله علي وقد شاور علي أناس قبلي فقتلهم، وكانوا من أهل بلادنا فدخلني من الخوف ما الله يعلمه وقلت ما بقي إلا القتل فذهب ذلك المتولي يشاور فصادف ببركة الشيخ رضي الله عنه كسوة سيدي أبي العباس السبتي قدم بها بعض إخوان الكاتب المذكور، فسمح له السلطان ولكل من انتسب إلى الكاتب فجاءني الفرج ببركة الشيخ رضي الله عنه غير أنهم قبضوني في السنخرة وكانت السنخرة ثلاثين أوقية، فوقفت على كلام الشيخ رضي الله عنه حيث قال أذهب معك بنحو الثلاثين أوقية فما زلت أقوم وأطيح حتى يسرها الله عليّ بمنه وكرمه وفضله وأطلق الله سراحي، وذهبت المحن والحمد لله وكل ذلك ببركة الشيخ رضي الله عنه.

ومن ذلك أيضاً أني ذهبت بعد صلاة المغرب لداره رضي الله عنه وجلست ببابها ساعة طويلة ولم ندق الباب، فنزل رضي الله عنه من الصقلابية فسمعت حسه في درج السلم فناداني يا فلان، فقلت نعم سيدي، فقال لي رضي الله عنه، ألم تزل بالباب منذ ساعة، فقلت نعم سيدي، والظلام نازل ولم أدق الباب ولم أخبر أحداً بأني بالباب حتى ناداني ثم خرج وقبلت يده السعيدة.

ومن ذلك أيضاً أني بت ذات ليلة بغير بيتي بالمدرسة فذهبت إليه رضي الله عنه غدوة، فخرج إلي وقال أين بِت البارحة ولِمَ لم تبت في بيتك؟ فقلت يا سيدي بل بت في بيتي وأردت أن أروغ، فقال ألم تبت في موضع كذا وكذا؟ فقلت لا يا سيدي، فقال لي رضي الله عنه. إن لم تصدقني أخبرتك بكل ما فعلت البارحة في ذلك الموضع فخفت في الفضيحة وقبلت يده الكريمة وقلت صدقت يا سيدي.

ومن ذلك أيضاً أني كنت ذات يوم بالمدرسة وأنا أتجادل مع رجل جاهل بقدر الشيخ رضي الله عنه في شأن الشيخ نفعنا الله به، فلما ذهبت إليه بعد ذلك قال من الرجل الذي كنت تتكلم معه البارحة. وأي شيء قلت، وأي شيء قال؟ فسكت، ثم أتى رضي الله عنه بالقصة على وجهها. وكراماته رضي الله عنه لا تعد ولا تحصى اهـ. ما كتبه.

قلت: ومن كرامات الشيخ رضي الله عنه، أني كنت أتكلم معه ذات يوم في شأن رجل، فقلت يا سيدي إنه يحبكم كثيراً فقال رضي الله عنه إنه ما يحبني وإن شئت أن تجربه فأظهر له في كلامك أنك رجعت عن محبتي واسمع ما يقول لك، فجاءني الرجل فقلت له يا فلان إنه بدا لي أمر آخر وجعلت أشير إلى ما يقتضي الرجوع فبادر الرجل فقال قد قلت لك هذا وأظهر باطنه الخبيث فعند ذلك قلت له إنما أردت اختبارك فظهر لنا ما أنت عليه فندم غاية الندم، ثم أعلمت الشيخ رضي الله عنه بذلك فقال لي رضي الله عنه ألم أقل لك ذلك.

ومنها أني كنت جالساً معه رضي الله عنه بالصقلابية، فبينما نتحدث في شيء من الأمور وإذا بالسيدة زوجته قامت تبكي وجعلت تدور في الدار وقد احترق كبدها مما سمعت، وذلك أنه جاءها الخبر بموت أخيها وكان غائباً، فقال لها رضي الله عنه بعد ما أشرف عليها إنه لم يمت وكذب من أخبركم بموته وأقسم على ذلك فو الله ما رجعت عن حالها لقوة ما نزل بها ثم جاء الخبر بعد ذلك كما قال الشيخ رضي الله عنه وأخوها إلى الآن في قيد الحياة.

ومنها أنه رضي الله عنه كان صاعداً نحو العرصة فلقيه رجل كان له قريب غائب بالمحلة مع مولاي عبد الملك ابن السلطان نصره الله، فرأى الشيخ رضي الله عنه جالساً مع بعض من ينتسب للصلاح وليس من أهله، فقام ذلك الرجل للشيخ رضي الله عنه وقال يا سيدي عبد العزيز أعطني خبر أخي الغائب يعني في المحلة هل حي أو ميت فإن سيدي فلانا يعني المنتسب السابق أعطاني خبره وأنه حي فتعامى عنه الشيخ، فأبى الرجل إلا أن يخبره، فقال الشيخ: فأما إذا أبيتم فخذ الخبر الصحيح الله يرحم الحاج عبد الكريم السبكي وهو الغريب الغائب يخبرك بخبره من صلى عليه يوم مات؛ قتله ابن السلطان ثم بعد ذلك جاء الخبر كما قال الشيخ رضي الله عنه.

ومنها أنه كان للشيخ رضي الله عنه خادم يخدم في العرصة مشاهرة ويعطيه أجرته كل

شهر، وكان مستتراً من ظلم المخزن وكان له أخ يبحث عنه ويعرضه للنوائب فكلمه الشيخ رضي الله عنه أن يتركه فأبى ثم بلغ به الحال حتى ذهب إلى القائد، وقال إن أخي عند مولاي عبد العزيز وأنه منعني منه فأرسل القائد صاحبه، فبينما أنا جالس معه رضي الله عنه في العرصة إذ أقبل الحرسي المرسل، فقال للشيخ قم للقائد، فقال له الشيخ أنا؟ فقال الحرسي نعم، فقال الشيخ رضي الله عنه سمعاً وطاعة، إنما أنا مسكين ورعية فقال لي قم فذهبنا متوجهين نحو القائد ثم ندم الحرسي وقال يا سيدي الحاجة إنما هي لأخي هذا الشاكي فمكنا منه وارجع فقال وهل منعتكم منه فأخذوه وانطلقوا به فما بقي أخوه إلا نحواً من شهر وسافر إلى الآخرة ورجع بعد ذلك أخوه إلى العرصة ولم يبق له مشوش.

ومنها أن بنى بزتاسن القبيلة المعروفة لما وقع بينهم وبين السلطان ما وقع وظفر بمن ظفر منهم أراد بعض الكتاب من أهل تازة أن تنقل نارهم إلى أهل تازة فزور كتاباً على أهلها ذكر فيه أنهم بعثوا إلى بني بزتاسن وقالوا لهم إنا معكم يد واحدة وذهب بها إلى السلطان نصره الله وقرأها عليه فغضب نصره الله وأراد أن يبعث لهم من ينتقم منهم، ثم بدا له نصره الله فحبسه وسمع بذلك أهل تازة فمر منهم من مر على الشيخ رضي الله عنه وشاوره في الهرب والجلاء عن بلادهم لأنهم خافوا من السلطان، فقال رضي الله عنه لهم: إن كنتم تفعلون ما أقول لكم فأنا أقول، فقالوا قل يا سيدي ما جئنا إلا لنهتدي بنصيحتك، فقال ليكن هذا وجهكم إلى السلطان نصره الله وأسبقوا عند الوزير ففعلوا ما أمرهم به وذهب بهم الوزير إلى السلطان وأثنى عليهم خيراً وبرأهم مما رماهم به ذلك الكاتب، فما زاد نصره الله على أن أمر بذبحه وكان ذلك عاقبة أمره.

وكذا وقع لرجل آخر كان من جانب المخزن الفاسيين الذين قتل منهم نيف وعشرون في شوال سنة ثلاثين ومائة وألف فكان من قدر الله أن جاء هذا الرجل حين سمع بالبحث والتفتيش عليهم قبل القبض على القائد، فشاور الشيخ في الهروب فقال لا تفعل واذهب إلى القائد بنفسك، وقل له ها أنا ذا فافعل بي ما شئت، فأنا عند الأمر والطاعة، فذهب وفعل ما قال له الشيخ رضي الله عنه، فقال له القائد إن كنت كما تقول فاذهب إلى ناحية فجج وكن مع تلك الرماة الذين بتلك الناحية فجاء إلى الشيخ وذكر له ما أمره به القائد فقال له الشيخ العزم العزم بادر بالخروج إلى الناحية المذكورة فبعد ما خرج بأيام قليلة قبض القائد وأصحابه فمات منهم العدد السابق ونجى الله ذلك الرجل السابق ببركة الشيخ رضي الله عنه، وهذا دأبه رضي الله عنه في هذا الباب فإني ما رأيت أحداً شاوره في الهروب من المخزن إلا أمره بالذهاب إليه ولا تكون عاقبته إلا خيراً، ولو ذكرت الحكايات الواقعة له في هذا المعنى لطال الكلام.

ومنها أن بعض الحكام عزله السلطان وجعله في زوايا الإهمال، فأرسل إلى الشيخ رضي الله عنه يطلب منه أن يرجع إلى الولاية فوعده رضي الله عنه بها، فلم يذهب الليل

والنهار حتى ولاه السلطان ورجع إلى حالته الأولى، فأرسل إليه الشيخ يرغبه في بعض حملة كتاب الله عز وجل لكي يسمح لهم في بعض المغارم فأبى وامتنع، فلقي أخو ذلك الحاكم الشيخ رضي الله عنه فوعده بأن يتولى مرتبة أخيه فكان الأمر كذلك فإنه لم يبق بعد امتناعه من قبول رغبة الشيخ رضي الله عنه إلا مدة قليلة ثم سافر إلى الآخرة وولى أخوه مرتبته وقضى حاجة الشيخ رضي الله عنه في أولئك المرغوب فيهم.

ومنها أني أول ماعرفته كانت تحتي ابنة الشيخ الفقيه العالم العلامة سيدي محمد بن عمر السلجماسي نزيل زاوية مولاي إدريس الأكبر وإمامها وخطيبها، وقد عرفت مكانته رحمه الله فكنت أحب البنت حباً شديداً لكمال عقلها وحسن عشرتها ولين جانبها في مواردها ومصادرها، ولما علم رضي الله عنه مكانتها في قلبي وإني لا أحب أحداً حبها جعل يسألني في بعض الأحيان ويقول هل تحبني مثلها أو هي أكثر فأصدقه وأقول هي أكثر وكنت معذوراً بجهلي بمكانة الشيخ وإمامته في ذلك الوقت فكان يتأثر بذلك وحق له رضي الله عنه فإن المريد لا يجيء منه شيء حتى لا يكون في قلبه غير الشيخ والله والرسول فكان يسايرني في هذا الباب ويريد أن ينقلني عن تلك الحالة فلما أن أبيت وسبق من قدر الله ما سبق دخلت عليه ذات يوم رضي الله عنه وذلك صبيحة ليلة سبع وعشرين من رمضان عام خمسة وعشرين ومائة وألف فما زلنا نتكلم حتى قال: إن مخالطة الأولياء بمنزلة أكل السموم وقد كان سيدي فلان لما عرفه مريده لم يترك له امرأة ولا ولداً حتى أفرده به ولم أفهم الإشارة حتى نزل بالمرأة ما نزل، وكان بقرب ذلك الكلام فبقيت في مرضها إلى أن توفيت رحمها الله، وكان رضي الله عنه يحبها محبة شديدة فهنيئاً لها وما زال يؤنسها في مرضها ويبعث لها بالأدوية والأشربة وكل ما يحبه المريض ويعدها بالشفاء ويعني به شفاء الآخرة كما أخبرنا بذلك، ولما توفيت بقي قلبي متعلقاً بولد تركته لي فجعلت إذا نظرت فيه اشتغل به قلبي فبقي مدة قليلة بعد أمه ثم قبضه الله عز وجل، ثم إني تزوجت من الفقيه المذكور بنتاً أخرى فلما بنيت بها وجدتها والله فوق ما نظن في الحسن والجمال والعقل والكمال واستولت على قلبي فلم تبق إلا مدة قليلة حتى قبضها الله عز وجل، ثم منّ الله علي بمحبة الشيخ رضي الله عنه المحبة التي لا محبة فوقها، وذلك أني كنت جالساً معه رضي الله عنه في الدار وهو يتكلم على محبة الله وكيف تكون وأوردت عليه أسئلة كثيرة وأجابني عنها وقد قيدت ذلك وستراه إن شاء الله في أثناء الكتاب ثم ضحك رضي الله عنه وقال: كيف نصنع معك ولم تزل تحب المرأتين في الدنيا حتى نقلهما الله عز وجل إلى رحمته وأنزلهما مع سائر الأرواح في البرزخ، ثم لم تزل مقيماً على محبتهما المحبة الكاملة فإلى أي موضع ينقلهما الله عز وجل من البرزخ ويجعلهما فيه حتى يغيبا عن قلبك، فغسل كلامه هذا والله محبتهما من قلبي وخلصت المحبة كلها للشيخ رضي الله عنه، ولقد تزوجت بنتاً ثالثة من بنات الفقيه المذكور رحمه الله ولم يتعلق بها قلبي فهي والحمد لله على السلامة والعافية.

(ومنها) أن السيدة زوجته وقع لها حمل، فقالت له يا سيدي عبد العزيز ما لي حاجة بهذا الحمل وأولادي والحمد لله عندي وأنا ذات مشقة وقيام على الدار ولا عندي أمة تقوم علي إذا تمادى بي هذا الحمل فإن كانت الولاية التي يشار بها إليك حقاً فالله يسقط عني هذا الحمل فلا حاجة لي فيه، وكان الشيخ رضي الله عنه يوصيها إذا نامت وغطت رأسها أن لا تعري وجهها خيفة أن ترى ما لا تطيق، فاتفق أن كشفت ذات يوم وجهها في وسط الليل فرأت مع الشيخ رضي الله عنه ثلاثة رجال من أهل الغيب فدخلها خوف عظيم أوجب لها إسقاط الحمل من بطنها.

(ومنها) وقد شاهد ذلك أهل الدار وبعض من قصد الشيخ للزيارة وذلك أنه رضي الله عنه كانت تحصل له غيبة خفيفة عن جسمه حتى أن الجالس معه يراه بمنزلة من خرجت روحه ولا تبقى في ذاته رضي الله عنه حركة نفس ولا غيرها في شفتيه وما يقرب منهما من العروق، فوقع له ذلك ذات يوم فدخل من دخل عليه البيت فوجد النور يسطع على هيئة البرق إلا أنه أبطأ وأصفى فخرج فأعلم من حضر فدخلوا فعاينوا ذلك فلما كان الغد لقيت الشيخ رضي الله عنه وخرجت معه إلى العرصة فاسترجع وقال لقد ظهر علي بالأمس أمر ما كانت عادته إلا الستر، فقلت يا سيدي لقد سمعت بهذا وما علمت سر الحكاية فقال رضي الله عنه. هو نوره ﷺ، وذكر ما كان نفعنا الله به.

(ومنها) أنه كان لي بعض الأصحاب من حملة القرآن العزيز وهو من الحبانية القبيلة المشهورة ولما وقع للقبيلة المذكورة من العسف والظلم ما وقع سنة سبع وعشرين أرسلت للذي كان عليهم في شأن ذلك الصاحب فحرره من جميع المطالب ثم عزل بعد ولايته عليهم نحواً من عامين وتولاهم من كنت أجزم أنه لا يخالف ما أقول له، فأرسلت إليه في شأن الصاحب فلم يقض شيئاً، فأردت أن أرسل لقائده، فقال لي الشيخ رضي الله عنه. لو أراد الله تحريره لأجابك الوالي عليهم، ولقضي مرادك فتعاميت وجعلت أرسل لمن يغلب في ذلك الوالي ومن بلغه كتابي منهم يفرح به ويصرح بقضاء الحاجة ثم يمنع الله منها فلا أحصي كم سعيت ولا قضى الله منها شيئاً فعرفت صدق كشف الشيخ رضي الله عنه.

(ومنها) أني كنت ذات يوم معه في العرصة ومعه شريف من أولاد الشيخ عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به،فقال له ذلك الشريف، يا سيدي أن رجلاً من أهل الجبل المجاور للشيخ عبد السلام دعاه الشرفاء للسلطان وقالوا له إنه تزوج الشريفات وهو من العوام والسلطان نصره الله يكره ذلك كثيراً فلما سمعه أمر له فأتى به وحبسه ووعده بالقتل، فقال الشيخ رضي الله عنه. أما يتقي الله كيف يتزوج بنات مولاي عبد السلام وهو ملموز بتجر طانيت، فقال الشريف يا سيدي من أين لك هذا وما عرفت الرجل ولا رأيته ولا اجتمعت به قط ولا أظنك سمعت به قبل هذا وهذا الأمر الذي لمز به لا يعرفه إلا النادر من قبيلته، فتعجب من كشف الشيخ وقبل يده الكريمة.

(ومنها) ما رأيته بخط يده الكريمة رأيته في كناش الحاج عبد القادر التازي وكان الشيخ رضي الله عنه في صغره يخدم عنده الشاشية بعد ما كان يخدمها عند رجل آخر قبله اسمه محمد بن عمر الدلاي فسافر محمد المذكور بقصد الحج وبقي الشيخ يخدم عند الحاج عبد القادر السابق، قال لي الحاج عبد القادر فأخذت ذات يوم سيدي عبد العزيز الكناش وكتب فيه الحمد لله وحده، توفي سيدي محمد بن عمر اليوم وانقلب إلى رحمة الله، قاله وكتبه في شهر ذي القعدة عام ثمانية عشر ومائة وألف عبد العزيز بن مسعود الدباغ لطف الله به آمين.

قال الحاج عبد القادر: فصحت به وقلت أي شيء تكتب، قال وكنت شاهدت له كرامات قبل ذلك، قال فأخذ القلم وخطط على ما كتب وقال ما كتبت شيئاً قال فلما قدم الحاج أخبروا بموت محمد بن عمر المذكور في الشهر الذي ذكر الشيخ رضي الله عنه فقلت للشيخ رضي الله عنه كيف وقع لكم هذا والفتح إنما كان عام خمسة وعشرين، فقال رضي الله عنه: منذ لبست الأمانة التي أوصى لي بها سيدي العربي الفشتالي حصل لي فتح ولكنه ضيق فإذا توجهت إلى شيء لا أحجب عنه ولكني لا أرى غيره قلت وصدق رضي الله عنه فإن الناس الذين كانوا يخالطونه في العشرة الثانية حدثوا عنه بكشوفات وكرامات.

(فمنها) أنه كان عند محمد بن عمر المتقدم يخدم الشاشية قرب صبيحة ذات يوم من الطنجير الذي كانوا يصنعون فيه فصاح به القيم على الطنجير فغضب الشيخ رضي الله عنه وقال والله لا يحمى لكم هذا الطنجير ولو أوقدتم عليه ما أوقدتم، فجعلوا يوقدون عليه من الصبح إلى العصر وأفنوا عليه حطباً كثيراً والماء بارد وكان محمد بن عمر غائباً عن موضع الخدمة، فلما جاء وأعلموه بالحكاية قال يا سيدي عبد العزيز أردت أن تخليني وأنا أحبك وأفعل معك الخير ولا ضرر على هذا الذي صاح بك وإنما الضرر علي وأنا لا ذنب لي، فلم يزل يستلطف بالشيخ رضي الله عنه ويستعطفه قال الشيخ رضي الله عنه فاستحييت منه لكثرة خيره فإنه كان يعطيني الأجرة سواء خدمت أم لا، ويقول إنما أشدك عندي للبركة ولا علي في خدمتك، قال فأخذت الحطب وجعلته تحت الطنجير وقلت لهم إنكم لا تحسنون إيقاد النار وها الطنجير أخذ في الحماية فمسوا الماء فوجدوه حامياً فتعجبوا، سمعت هذه الحكاية والكرامة من جماعة كثيرين وسمعتها من الشيخ أيضاً.

(ومن كراماته) رضي الله عنه: أني أسأله عن قول العلماء في المسألة فيعرفها ويعرف المسألة التي فيها خلاف والتي فيها وفاق ويعرف أقوال علماء الظاهر وعلماء الباطن في كل مسألة مسألة، وانجر الكلام بنا إلى نحو الست سنين ويعرف الحوادث الكائنة في الأعصار السالفة، ولقد كنت ذات يوم معه في سوق الخميس فسألته عن سبب الرعد والبرق والصواعق فذكر في ذلك كلاماً نفيساً ما يتكلم به إلا مثله وانجر الكلام بنا إلى أن ذكرت له

النار التي ظهرت بقريظة في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، وقد ذكرها القرطبي في التذكرة والحافظ ابن حجر في كتاب الفتن، وأبو شامة والنووي وشرحوا أمرها، فأردت أن أذكر كلامهم فجعل رضي الله عنه يذكر حكايتها وكيف كانت حتى ذكر ما ذكره العلماء رضي الله عنهم وزاد بذكر سبب خروجها ومن هو صاحب تلك النار التي يعذب بها في الآخرة في أسرار أخر لا تذكر فقضيت منه العجب.

واعلم أن كراماته رضي الله عنه لا تعد ولا تحصى ولو تتبعت ما أعلم منها وما يعلمه الأصحاب وقرهم الله ما وسعها إلا مجلد كبير فلنقتصر على هذا القدر فإن فيه كفاية.

ولنختم هذا الفصل بكرامة عظيمة كما افتتحناه بكرامة عظيمة وذلك أني لما عرفته رضي الله عنه في أول الأمر ورأيت سعة عرفانه وفيضان إيمانه جعلت أختبره فأسأله عن الحديث الصحيح من الباطل، وكان عندي تأليف الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى [الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة] وهو تأليف عجيب رتب فيه الأحاديث المشهورة بين الناس على الحروف ويسم كل حديث بسمته فيقول في الصحيح صحيح، وفي المكذوب مكذوب، ولا ينبغي للطالب أن يخلو منه فإنه كتاب نفيس فسألت شيخنا رضي الله عنه عن حديث:

أُمِرْتُ أَنْ أَحْكُمَ بِالظَّواهِرِ وَالله يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ.

فقال رضي الله عنه: ما قاله النبي ﷺ. وكذا قال الحافظ السيوطي وعن حديث:

كُنْتُ كَنْزاً لاَ أُعْرَفُ.

فقال رضي الله عنه: لم يقله النبي ﷺ، وكذا قال الحافظ السيوطي إنه لا أصل له، وعن حديث:

مَا خَلَقَ الله الْعَقْلَ الخ.

فقال رضي الله عنه: لم يقله النبي ﷺ وكذا قال أحمد بن حنبل وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وصرح ابن تيمية بأنه كذب، وقال الزركشي إنه موضوع بالاتفاق، وكذا أورده الحافظ السيوطي في اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، وإن كان في الدرر المنتثرة ذكر له شاهداً صالحاً.

(قلت) وذلك الشاهد من مراسيل الحسن البصري، وقال ابن حجر في الشرح إنه لا يحتج بمراسيل الحسن، وعن حديث:

اتخِذُوا عِنْدَ الْفُقَرَاءِ يَداً فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فقال: إنه عليه الصلاة والسلام لم يقله، وكذا قاله الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوي، وعن حديث:

أُحِبُّ الْعَرَبَ لِثَلاَثٍ لأَنِّي عَرَبِيٌّ وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ وَكَلاَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ.

فقال لم يقله عليه الصلاة والسلام.

(قلت) وكذا قال ابن الجوزي في الموضوعات وتصحيح الحاكم له متعقب وعن حديث:

عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فقال ليس بحديث، وكذا قال الحافظ السيوطي في الدرر. وعن حديث:

أَكْرِمُوا عَمَّاتِكُمُ النَّخْلَ، الحديث.

فقال: ليس بحديث، وكذا قال ابن حجر في الشرح والسيوطي في اللآلىء المصنوعة وابن الجوزي في الموضوعات. وعن حديث:

أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ.

فقال ليس بحديث، وكذا قال الحافظ ابن كثير والحافظ ابن الجزري في النشر والحافظ السيوطي في الدرر، وعن أحاديث كثيرة لا أحصها فوافق كلامه رضي الله عنه كلام العلماء، ومن عجيب أمره وغريب شأنه رضي الله عنه أني إذا خضت معه في هذا الباب يميز الحديث الذي أخرجه البخاري وليس في مسلم، والذي أخرجه مسلم وليس في البخاري، فلما طالت خبرتي له وثبت عند معرفته بالحديث من غيره، سألته عن السبب الذي يعرف به ذلك فقال مرة كلام النبي ﷺ لا يخفى، وسألته مرة أخرى فقال إن الشخص في الشتاء إذا تكلم خرج من فمه الفوار، وإذا تكلم في الصيف لا يخرج من فمه فوار وكذلك من تكلم بكلام النبي ﷺ خرج النور مع كلامه، ومن تكلم بغير كلامه خرج الكلام بغير نور.

وسألته مرة أخرى فقال: إن السراج إذا تغذى قوي نوره، وإذا ترك بقي على حالته وكذا حال العارفين إذا سمعوا كلامه ﷺ تقوى أنوارهم وتزداد معارفهم، وإذا سمعوا كلام غيره بقوا على حالتهم، فلما ظهر لي رسوخ قدمه في هذا وأنه جبل لا يتزلزل في معرفة ما خرج من شفتي النبي ﷺ. بدا لي أن أختبره في الفرق بين القرآن والحديث فإنه لا يحفظ من القرآن حزب «سبح» فضلاً عن غيره، فجعلت أذكر له مرة آية وأقول هل هي حديث؟ أم قرآن؟ فيقول هي قرآن، ثم أذكر له حديثاً وأقول له هل هو قرآن؟ أو حديث؟ فيقول هو حديث، وطال اختباري له في هذا الباب حتى ذكرت له مرة قوله تعالى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾.

وهي صلاة العصر:

﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾.

فقلت قرآن هذا أو حديث. فقال رضي الله عنه: فيه قرآن، وفيه حديث، فقوله وهي صلاة العصر خرج من شفتي النبي ﷺ وليس بقرآن والباقي قرآن، وكان حاضراً معي جماعة من الفقهاء حين سألته فتعجبنا والله جميعاً منه، فلما علمت أنه لا يخفي عليه القرآن من الحديث بدا لي أن أختبره في الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية، فجعلت أذكر له الحديث القدسي وأقول أهو قرآن فيقول ما هو قرآن. ولا هو بالحديث الذي كنت تسأل عنه، أو لا هذا نوع آخر من الحديث، يقال له الحديث الرباني، فقبلت يده الكريمة وقلت له يا سيدي نريد من الله ثم منكم أن تبينوا لي الفرق بين هذه الثلاثة فإن الحديث القدسي له شبه بالقرآن، وبالحديث الذي ليس بقدسي فيشبه القرآن من حيث هو منزل ويشبه ما ليس بقدسي من حيث إنه ليس متعبداً بتلاوته، فقال رضي الله عنه: الفرق بين هذه الثلاثة وإن كان كلها خرجت من بين شفتيه ﷺ وكلها معها أنوار من أنواره ﷺ أن النور الذي في القرآن قديم من ذات الحق سبحانه لأن كلامه تعالى قديم، والنور الذي في الحديث القدسي من روحه ﷺ وليس هو مثل نور القرآن، فإن نور القرآن قديم ونور هذا ليس بقديم، والنور الذي في الحديث الذي ليس بقدسي من ذاته ﷺ. فهي أنوار ثلاثة اختلفت بالإضافة فنور القرآن من ذات الحق سبحانه ونور الحديث القدسي من روحه ﷺ، ونور ما ليس بقدسي من ذاته ﷺ.

فقلت: ما الفرق بين نور الروح ونور الذات؟ فقال رضي الله عنه: الذات خلقت من تراب، ومن التراب خلق سائر العباد، والروح من الملأ الأعلى وهم أعرف الخلق بالحق سبحانه وكل واحد يحن إلى أصله، فكان نور الروح متعلقاً بالحق سبحانه ونور الذات متعلقاً بالحق فلذا ترى الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى بتبيين عظمته أو بإظهار رحمته أو بالتنبيه على سعة ملكه وكثرة عطائه. فمن الأول حديث:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ».

إلى آخره وهو حديث أبو ذر في مسلم. ومن الثاني حديث:

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ» الحديث.

ومن الثالث حديث:

«يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ» الخ.

وهذه من علوم الروح في الحق سبحانه، وترى الأحاديث التي ليست بقدسية تتكلم على ما يصلح البلاد والعباد بذكر الحلال والحرام والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد، هذا بعض ما فهمت من كلامه رضي الله عنه. والحق أني لم أوف به ولم آت

بجميع المعنى الذي أشار إليه، فقلت: الحديث القدسي من كلام الله عز وجل أم لا؟ فقال ليس هو من كلامه وإنما هو من كلام النبي ﷺ، فقلت فلم أضيف للرب سبحانه؟ فقيل فيه حديث قدسي، وقيل فيه فيما يرويه عن ربه وإذا كان من كلامه عليه الصلاة والسلام فأي رواية له فيه عن ربه وكيف تعمل مع هذه الضمائر في قوله:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ» الخ وقوله **«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ»** وقوله: **«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»**.

فإن هذه الضمائر لا تليق إلا بالله، فتكون الأحاديث القدسية من كلام الله تعالى وإن لم تكن ألفاظها للإعجاز ولا تعبدنا بتلاوتها، فقال رضي الله عنه مرة: إن الأنوار من الحق سبحانه تهب على ذات النبي ﷺ حتى تحصل له مشاهدة خاصة وإن كان دائماً في المشاهدة، فإن سمع مع الأنوار كلام الحق سبحانه أو نزل عليه ملك فذلك هو القرآن، وإن لم يسمع كلاماً ولا نزل عليه ملك فذلك وقت الحديث القدسي، فيتكلم عليه الصلاة والسلام ولا يتكلم حينئذ إلا في شأن الربوبية بتعظيمها وذكر حقوقها. ووجه إضافة هذا الكلام إلى الرب سبحانه أنه كان مع هذه المشاهدة التي اختلطت فيها الأمور حتى رجع الغيب شهادة والباطن ظاهراً فأضيف إلى الرب وقيل فيه حديث رباني، وقيل فيه فيما يرويه عن ربه عز وجل، ووجه الضمائر أن كلامه عليه الصلاة والسلام خرج على حكاية لسان الحال التي شاهدها من ربه عز وجل.

وأما الحديث الذي ليس بقدسي فإنه يخرج مع النور الساكن في ذاته عليه الصلاة والسلام الذي لا يغيب عنها أبداً، وذلك أنه عز وجل أمد ذاته عليه الصلاة والسلام بأنوار الحق كما أمد جرم الشمس بالأنوار المحسوسة، فالنور لازم للذات الشريفة لزوم نور الشمس لها.

وقال مرة أخرى: وإذا فرضنا محموماً دامت عليه الحمى على قدر معلوم، وفرضناها مارة تقوى حتى يخرج بها عن حسه ويتكلم بما لا يدري، وفرضناها مرة أخرى تقوى ولا تخرجه عن حسه ويبقى على عقله ويتكلم بما يدري فصار لهذه الحمى ثلاثة أحوال: قدرها المعلوم وقوتها المخرجة عن الحس، وقوتها التي لا تخرج عن الحس، فكذا الأنوار في ذاته عليه الصلاة والسلام فإن كانت على القدر المعلوم فما كان من الكلام حينئذ فهو الحديث الذي ليس بقدسي، وإن سطعت الأنوار وشعلت في الذات حتى خرج بها عليه الصلاة والسلام عن حالته المعلومة، فما كان من الكلام حينئذ فهو كلام الله سبحانه وهذه كانت حالته عليه الصلاة والسلام عند نزول القرآن عليه وإن سطعت الأنوار ولم تخرجه عن حالته عليه الصلاة والسلام فما كان من الكلام حينئذ قيل فيه حديث قدسي.

وقال مرة: إذا تكلم النبي ﷺ وكان الكلام بغير اختياره فهو القرآن وإن كان باختياره

فإن سطعت حينئذ أنوار عارضة فهو الحديث القدسي، وإن كانت الأنوار الدائمة فهو الحديث الذي ليس بقدسي، ولأجل أن كلامه ﷺ لا بد أن تكون معه أنوار الحق سبحانه كان جميع ما يتكلم به ﷺ وحياً بوحي وباختلاف أحوال الأنوار افترق إلى الأقسام الثلاثة والله أعلم.

فقلت: هذا كلام في غاية الحسن، ولكن ما الدليل على أن الحديث القدسي ليس من كلامه عز وجل؟ فقال رضي الله عنه، كلامه تعالى لا يخفى، فقلت بكشف؟ فقال رضي الله عنه بكشف وبغير كشف، وكل من له عقل وأنصت للقرآن ثم أنصت لغيره أدرك الفرق لا محالة، والصحابة رضي الله عنهم أعقل الناس وما تركوا دينهم الذي كانت عليه الآباء إلا بما وضح من كلامه تعالى، ولو لم يكن عند النبي ﷺ إلا ما يشبه الأحاديث القدسية ما آمن من الناس أحد، ولكن الذي ظلت له الأعناق خاضعة هو القرآن العزيز الذي هو كلام الرب سبحانه وتعالى.

فقلت له: ومن أين لهم أنه كلام الرب تعالى؟ وإنما كانوا على عبادة الأوثان ولم تسبق لهم معرفة بالله عز وجل حتى يعلموا أنه كلامه، وغاية ما أدركوه أنه كلام خارج عن طوق البشر فلعله من عند الملائكة مثلاً؟ فقال رضي الله عنه: كل من استمع القرآن وأجرى معانيه على قلبه علم علماً ضرورياً أنه كلام الرب سبحانه فإن العظمة التي فيه والسطوة التي عليه ليست إلا عظمة الربوبية وسطوة الألوهية، والعاقل الكيس إذا استمع لكلام السلطان الحادث ثم استمع لكلام رعيته وجد لكلام السلطان نفساً به يعرف حتى أنا لو فرضناه أعمى وجاء إلى جماعة يتكلمون والسلطان مغمور فيهم وهم يتناوبون الكلام لميز كلام السلطان من غيره بحيث لا تدخله في ذلك ريبة، هذا في الحادث مع الحادث، فكيف بالكلام القديم؟ وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم من القرآن ربهم عز وجل وعرفوا صفاته وما يستحقه من ربوبيته وقام لهم سماع القرآن في إفادة العلم القطعي به عز وجل مقام المعاينة والمشاهدة وحتى صار الحق سبحانه عندهم بمنزلة الجليس ولا يخفى على أحد جليسه.

قال رضي الله عنه: وكلام الرب سبحانه يعرف بأمور: منها خروجه عن طوق البشر، بل وسائر الحوادث لأن كلامه على وفق علمه المحيط وعلى وفق قضائه وحكمه فله تعالى العلم المحيط والقضاء النافذ، والحادث ليس له علم محيط ولا قضاء نافذ، فهو أي الحادث يتكلم على وفق علمه الحادث وحكمه العاجز اللذين هما بيد غيره فهو يتكلم مع علمه بأنه ليس له من الأمر شيء، ومنها أن لكلامه تعالى نفساً لا يوجد في كلام غيره فإن الكلام يتبع أحوال الذات، فكلام القديم يخرج ومعه سطوة الألوهية وعزة الربوبية، ولذا مزج فيه الوعد بالوعيد والتبشير بالتخويف ولو لم يكن فيه من العزة إلا أنه يتكلم والملك ملكه، والبلاد بلاده، والعباد عباده، والأرض أرضه، والسماء سماؤه، والمخلوقات مخلوقاته، لا منازع له في ذلك لكان ذلك كافياً.

وكلام غيره عز وجل لا بد فيه من سمة الخوف، فإن المتكلم ولو فرضناه من أعلى المقربين فباطنه ممتلىء بالخوف منه تعالى وهو تعالى لا يخاف أحداً، فهو عزيز وكلامه عزيز.

ومنها أن الكلام القديم إذا أزيلت حروفه الحادثة وبقيت المعاني القديمة وجدتها تتكلم مع سائر الخلق لا فرق بين الماضي والحال والاستقبال، وذلك أنه أي المعنى قديم ليس فيه ترتيب ولا تبعيض، ومن فتح الله بصيرته نظر إلى المعنى القديم فوجده لا نهاية له ثم ينظر إلى الحروف فيراها شبه صورة ستر فيها المعنى القديم، فإذا أزال الصورة رأى ما لا نهاية له وهو باطن القرآن، وإذا نظر إلى الصورة وجدها محصورة بين الدفتين وهو ظاهر القرآن، وإذا أنصت لقراءة القرآن، رأى المعاني القديمة راكدة في ظل الألفاظ لا يخفى عليه ذلك كما لا تخفى عليه المحسوسات بحاسة البصر.

ومنها التميز الواقع منه ﷺ بين كلامه وكلام ربه عز وجل، فإنه أمرهم بكتب كلام الرب سبحانه، ونهاهم أن يكتبوا عنه غيره، وأمرهم بمحو ما كتبوا من ذلك وما ثبت أنهم كتبوا عنه الأحاديث القدسية فتكون من جملة كلامه لا من جملة كلام الرب سبحانه وليس فيها أيضاً شيء من الخصال الثلاث أعني خروجها عن طوق البشر، وما ذكر بعده فهذا بعض ما استفدناه من إشاراته رضي الله عنه في الفرق بين هذه الثلاثة، وجوابه الأخير أعني قوله كل من له عقل، وأنصت للقرآن ثم أنصت لغيره أدرك الفرق لا محالة إلى آخر ما حققه، أشار إلى نحوه القاضي إمام الدنيا أبو بكر الباقلاني رحمه الله تعالى في كتاب الانتصار، وأطال النفس في ذلك جداً وبهذا الوجه رد على كثير دعاوى الروافض في إضافتهم إلى القرآن ما ليس منه فانظره، ولولا خشية الطول لأثبتنا كلامه حتى تراه عياناً.

ولما افتتح شيخنا الجواب، بقيت متعجباً منه رضي الله عنه، حيث أتى في بديهته بما قاله الإمام السابق، ثم إنه رضي الله عنه ختم الجواب بفرق خامس مبناه الكشف المحض لم نكتبه لأن العقول من ورائه وليكن هذا آخر ما أردنا أن نثبته في هذه المقدمة ولنشرع في المقصود الذي هو جميع ما سمعناه من علوم الشيخ رضي الله عنه وينحصر ذلك في أبواب.

الباب الأول
في الأحاديث التي سألناه عنها

فمنها حديث الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

«خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَفِي يَدَيْهِ كِتَابَانِ فَقَالَ لِلَّذِي في يَدِهِ الْيُمْنَى هٰذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَداً. ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ مِثْلَهُ فِي أَهْلِ النَّارِ».

قال في آخر الحديث:

«فَقَالَ بِيَدِهِ فَنَبَذَهُمَا ثُمَّ قَالَ: فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الجَنةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

قال ابن حجر وإسناده حسن فاستشكله بعض الناس وظن أن فيه تعلق القدرة بالمستحيل، حيث جمع أسماء أهل الجنة في كتاب تحمله يمناه عليه الصلاة والسلام، وكذا أسماء أهل النار ونص السؤال، وقد سأله عن عدة مسائل.

ومنها يا سيدي قول علماء الكلام: القدرة تتعلق بالممكنات دون المستحيل، مع أن في حديث:

وَرَدَ عَنِ المُصْطَفَى ﷺ: **«أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْم بِكِتَابَيْنِ فِي يَدَيْهِ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ إِنَّ فِي الْكِتَابِ الْوَاحِدِ أَسْمَاءَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَسْمَاءَ قَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَفِي الْكِتَابِ الآخَرِ أَسْمَاءَ أَهْلِ النَّارِ وَآبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ»**.

مع صغر جرم الكتابين وكثرة الأسماء ففي ذلك إيراد الصغير على الكبير من غير تصغير الكبير ولا تكبير الصغير، وإلا فأي ديوان يحصر أسماء هؤلاء فهذا أقوى دليل على المحال العقلي من إدخال الواسع على الضيق، لو شاء ذلك مع بقاء هذا على صغره وهذا على كبره، مع كون المخبر بذلك كما في صدر السؤال المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

فأجاب رضي الله عنه: بأن ما قاله علماء الكلام وأهل السنة والجماعة رضي الله عنهم هو العقيدة، ولا يمكن أن يكون في أطوار الولاية ولا في معجزات الرسالة ما تحيله العقول، نعم يكون فيهما ما تقصر عنه العقول. فإذا أرشدت إلى المعنى المراد قبلته وأذعنت له، والكتابة المذكورة في هذين الكتابين كتابة نظر لا كتابة قلم، وذلك أن صاحب البصيرة لا سيما سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد ﷺ، إذا توجه قصده إلى شيء

بأن ينظره فإن بصيرته تخرق الحجب التي بينه وبين المنظور إليه حتى يبلغ نورهما إليه ويحيط به، فإذا حصلت صورة المنظور إليه في البصيرة وفرضناها بصيرة كالة فإن حكمها يتعدى إلى البصر وتصير القدرة الحاصلة لها حاصلة للبصر أيضاً فيرى البصر الصورة مرتسمة له فيما يقابله، فإن كان المقابل له حائطاً رآها في حائط وإن كان المقابل له يده رآها في يده، وإن كان المقابل له قرطاساً رآها في قرطاس، وعلى هذا يتخرج حديث:

«مُثِّلَتْ لِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي عُرْضِ هٰذَا الْحَائِطِ».

لأنه ﷺ توجه ببصيرته إليهما، وهو في صلاة الكسوف فخرق ذلك إلى بصره وكان المقابل له عرض الحائط فرأى صورتهما فيه ﷺ، وعليه أيضاً يتخرج حديث الكتابين، فإنه ﷺ توجه ببصيرته إلى الجنة فحصلت صورتها في بصره، وكان المقابل له الكتاب الذي في يمينه فجعل عليه الصلاة والسلام ينظر إلى صورة الجنة وسكانها في ذلك الجرم الذي في يمينه، فقال:

«هٰذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَقَبَائِلِهِمْ وَآبَائِهِمْ».

ثم توجه ببصيرته إلى النار فحصلت صورتها في البصر وكان المقابل له الجرم الذي في شماله فجعل ينظر إلى صورتها وجميع ما فيها فقال:

«هٰذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَآبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ».

فإن كان في حديث «مثلت لي الجنة والنار» إشكال ففي هذا إشكال، وإن كان لا إشكال فيه فهذا أيضاً لا إشكال فيه، ومبنى الإشكال على حمل الكتابة على كتابة القلم، ولو كانت هناك كتابة بالقلم لتناقضت مع آخر الحديث فإن فيه «ثم نبذهما» أي الكتابين أي طرحهما ورمى بهما، وكيف يرمي ﷺ بكتاب جاء من رب العالمين وفيه أسماء أصفيائه ورسله وخيرته من خلقه والنبي ﷺ أشد الخلق تعظيماً لله ولرسله وملائكته، وإنما سمى الصورة الحاصلة في الجرم كتابة لمشابهتها للكتابة في الدلالة على ما في الخارج على أن ما في الخارج قد تطلق أيضاً الكتابة عليه، لأن الكتابة مأخوذة من الجمع فكل مجموع يقال فيه مكتوب، ومنه سميت كتائب الحرب كتائب لتكتبها واجتماعها، والواحدة كتيبة أي مكتوبة ومجموعة ومضمومة إلى غيرها من الكتائب.

وإنما أضيفت الكتابة إلى رب العالمين، لأن النور الذي هو سبب في حصول الصورة التي عبر عنها بالكتاب ليس هو من طوق العبد ولا من كسبه، وإنما هو مدد رباني ونور من عند الله سبحانه، فخرج من هذا أن المراد بالكتابة الصورة الحاصلة في النظر لا غير وحصولها في النظر غير مشكل كحصول سائر المرئيات في النظر، فإن إنسان العين مع صغره ترسم فيه الصور العظيمة كصورة السماء وهو أصغر من العدسة، فالحديث من نوع الممكنات وهكذا سائر المعجزات والخوارق والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن معنى قوله ﷺ:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

غير ما مرة.

فأجاب رضي الله عنه بأجوبة عديدة، وبقيت النفس متشوفة إلى الجواب الشافي والذي أوجب الإشكال أن لفظ الحرف ظاهر لغة لا إشكال فيه مثل الإشكال الذي في فواتح السور، ومع ظهوره لغة فقد اختلف العلماء فيه اختلافاً شديداً ولا يزيد الواقف عليه إلا حيرة وإشكالاً، فإنه ﷺ لم يرد إلا معنى واحداً.

وحكاية الخلاف فيه إلى أربعين قولاً توجب إبهامه وغموضه، لأن كثرة الأقاويل في شيء تعود عليه بالجهالة مع تجويز أن يكون مراده ﷺ خارجاً عن تلك الأقوال بأسرها، هذا وقد ورد الحديث المذكور عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، منهم عمر بن الخطاب، وهشام بن حكيم، وأبي بن كعب، وعبد الرحمٰن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن أبي سلمة، وأبي جهيم وسمرة بن جندب، وعمرو بن العاص، وأم أيوب الأنصارية، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين حتى قال أبو يعلى الموصلي في مسنده الكبير. إن عثمان بن عفان رضي الله عنه قام خطيباً على المنبر فقال: أنشد الله امرأ سمع النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ وَكُلٌّ لِشأنٍ».

إلا قام فقام الصحابة من كل جانب حتى ما أحصى عددهم وكل واحد يقول أنا سمعته يقول ذلك فقال عثمان: وأنا سمعته يقول ذلك، ومن ثم قال أبو عبيد وغيره من حفاظ الحديث: إنه من الأحاديث المتواترة، وقد اعتنى العلماء رضي الله عنه بالكلام عليه قديماً وحديثاً، وأفردوه بالتأليف كأبي شامة.

وأحسن كلام رأيته فيه، كلام أربعة من الفحول.

الأول: لسان المتكلمين القاضي أبو بكر البلاقلاني في كتاب الانتصار فقد أبدى فيه وأعاد.

والثاني: الحافظ الكبير الإمام ابن الجزري في كتابه النشر فقد نوع فيه الكلام إلى عشرة فصول وتتبع أسماء الصحابة الذين رووه عن النبي ﷺ.

والثالث: الحافظ أمير المؤمنين في الحديث الإمام ابن حجر في شرح البخاري في كتاب فضائل القرآن منه.

والرابع: الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب الإتقان في علوم القرآن فقد

نوع الأقوال فيه إلى أربعين قولاً، ومع وقوفي على كلام هؤلاء الأربعة الفحول ومعرفتي بظاهره وباطنه وبأوله وآخره، لم يحصل عندي ظن بمراده ﷺ بل بقيت على الشك في تعيين المراد.

فقلت لشيخنا رضي الله عنه: لا أسألك إلا عن مراد النبي ﷺ.

فقال رضي الله عنه: غداً نجيبك إن شاء الله، فلما كان من الغد قال لي رضي الله عنه: وقد صدق فيما قال:

سألت النبي ﷺ عن مراده بهذا الحديث، فأجابني عن مراده ﷺ، وقد تكلمت مع الشيخ رضي الله عنه في ذلك ثلاث أيام وهو يبين لي معنى المراد. فعلمت أن لهذا الحديث شأناً كبيراً وسمعت فيه من الأسرار ما لا يكيف ولا يطاق.

وملخص ما يمكن أن يكتب من ذلك، أن في النبي ﷺ قوة طبعت عليها ذاته الشريفة تنوعت أنوارها إلى سبعة أوجه، وهذه الأنوار السبعة لها وجهتان: إحداهما منه ﷺ إلى الحق سبحانه، والأخرى منه ﷺ إلى الخلق، وهي في الوجهة الأولى فياضة دائماً لا يسكن منها شيء ولا يفتر، فإذا أراد الله تعالى أن ينزل القرآن على نبيه ﷺ أنزل عليه الآية ومعها شيء من نور الوجهة الأولى مثلاً لا جميعاً إذ هو لا يفتر ولا يسكن في وجهة الحق سبحانه، فما ظهر في وجهة الخلق إلا شيء منه، ثم ينزل تعالى آية أخرى ومعها شيء من نور الوجه الثاني، ثم آية ثالثة ومعها شيء من نور الثالث وهكذا.

فقلت: وما هذه الأنوار السبعة التي أشير إليها بالأحرف السبعة؟ فقال رضي الله عنه: هي حرف النبوة، وحرف الرسالة، وحرف الآدمية، وحرف الروح، وحرف العلم، وحرف القبض، وحرف البسط.

فحرف النبوة علامته أن تكون الآية آمرة بالصبر، ودالة على الحق، ومزهدة في الدنيا وشهواتها، لأن النبوة طبعها الميل إلى الحق والقول به، والدلالة عليه والنصيحة فيه.

وحرف الرسالة علامته أن تكون الآية متعرضة للدار الآخرة ودرجاتها ومقامات أهلها وذكر ثوابهم وما شاكل ذلك.

وحرف الآدمية يرجع حاصله إلى النور الذي وضعه الله في ذات بني آدم وأقدرهم به على الكلام الآدمي حتى تميز به كلامهم عن كلام الملائكة والجن وسائر من يتكلم، وإنما دخل مع هذه السبعة مع وجوده في كل آدمي، لأنه فيه ﷺ بلغ الغاية في الطهارة والصفاء لكمال ذاته ﷺ في الطهارة والصفاء الكمال الذي لا كمال فوقه، ولا يمكن أن يكون إلا في ذاته ﷺ، وبالجملة، فلما كان هذا النور الذي يقع به كلام الآدمي في ذاته ﷺ مع نور النبوة ونور الرسالة ونور الروح ونور العلم ونور القبض ونور البسط، كان على غاية الكمال

لاستمداد ذاته النور من هذه الستة، فصارت الآيات تنزل عليه ولا تخلو آية من كتاب الله تعالى إلا وهو فيها؛ إذ لغات القرآن آدمية.

وحرف الروح: علامته أن تكون الآية متعلقة بالحق سبحانه وبعلي صفاته ولا ذكر لمخلوق فيها، لأن الروح في مشاهدة الحق دائماً فإذا نزلت الآية على هذا الوصف كان المصاحب لها نور الروح.

وحرف العلم: علامته أن تكون الآية متعرضة لأحوال الخلق الماضين كالإخبار عن عاد وثمود وقوم نوح وهود وصالح ونحو ذلك، أو منبهة على ذم بعض الآراء نحو قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وبالجملة: فحرف العلم عليه تخرج القصص والمواعظ والحكم ونحو ذلك.

قال رضي الله عنه: ونور هذا الحرف ينفي الجهل عن صاحبه ويصير به عارفاً معرفاً، حتى لو فرض شخص خلق في شاهق جبل ولم يخالط أحداً وترك هناك حتى كبر ثم جيء به لمدينة وقد أمده الله بنور هذا الحرف فإنه لا يقدر أن يتكلم معه من تعاطى العلم طول عمره في باب من الأبواب.

وحرف القبض: علامته أن تكون الآية تتكلم مع أهل الكفر والظلام فتراه في الآية يدعو عليهم مرة ويتوعدهم أخرى، نحو قوله تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وذلك أن جيش النور وجيش الظلام في قتال دائم، فإذا التفت ﷺ نحو الظلام وقع له قبض فيخرج عن ذلك القبض ما سبق ذكره في الآيات.

وحرف البسط: علامته أن ترى الآية متعرضة لنعم الله تعالى على الخلق وتعدادها، فإذا التفت ﷺ إلى نعمه تعالى على خلقه وقع له بسط، فخرجت الآية من مقام البسط.

قال رضي الله عنه: هذه أمارة كل حرف من الأحرف على التقريب، وإلا ففي كل حرف من هذه الأحرف ثلثمائة وستة وستون وجهاً لو شرحت هذه الأوجه في كل حرف وبينت في كل آية لظهر باطنه ﷺ للناس ظهور الشمس ولكنه من السر الذي يجب كتمه، ومن فتح الله عليه فتحاً كبيراً علمه، ومن لا فتح له فليترك على حاله.

فقلت: الأحاديث الواردة في هذا الباب تدل على أن المراد بالأحرف السبعة ما يرجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن كقول عمر رضي الله عنه: سمعت هشام بن حكيم يقرأ القرآن على حروف لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فقال: رسول الله ﷺ مصوباً لكل من حروف عمر وحروف هشام.

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

وهذه الأحرف: التي ذكرتم أوصاف باطنية وأنوار ربانية في ذاته ﷺ لا يمكن أن يختلف عمر وهشام فيها حتى يجيبهما ﷺ بأن القرآن أنزل عليها.

فقال رضي الله عنه: اختلاف التلفظات التي في أحاديث الباب فرع عن اختلاف الأنوار الباطنية، فتسكين الحروف ورفعها ينشأ عن القبض، والنصب ينشأ عن حروف الرسالة، والخفض ينشأ عن حروف الآدمية، ولكل آية فتح خاص وذوق معلوم، فلما سمعت منه هذا الكلام المنور بادرت فقرأت عليه الفاتحة وصدراً من سروة البقرة فسمعت منه في بيان ذلك التفريع ما بهرني، ثم أعدت القراءة وقرأت بسبع روايات: قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو بن العلاء البصري وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي فسمعت في ذلك العجب العجاب، ورأيت القراءات السبع تختلف باختلاف الأنوار الباطنية فظهر لي والحمد لله وله المنة ما كنت أطلبه منذ نيف وعشرين سنة في معنى الحديث، وقد طلبه قبلي الحافظ ابن الجوزي نيفاً وثلاثين سنة فظهر له وجه في معنى الحديث، ثم ذكر أنه وقف عليه لغيره، وقد بسط ذلك الوجه صاحب الانتصار المتقدم ولكنه قاصر على التلفظات واختلافها من غير تعرض لهذه الأنوار الباطنية التي أوجبت اختلاف التلفظات، وبالجملة فذلك الوجه وغيره مما قيل في الحديث إنما تعلقوا فيها بظل الشجرة وهذا الوجه الذي سمعه شيخنا رضي الله عنه من صاحب الوحي ﷺ، فيه ذكر الشجرة بعروقها وأصولها وفروعها وجميع ما ينشأ عنها.

قال رضي الله عنه: ولو أردت أن أملي فيه مقدار سبع كراريس لفعلت، ولكن منع منه المانع السابق، فقلت وكنت سمعت منه في بيان التفريع إن في الآية شيئاً من أجزاء النبوة مثلاً، وشيئاً من أجزاء الرسالة وهكذا حتى يأتي على الحروف السبعة، لا بد أن تشرح لنا المراد بأجزاء هذه الحروف السبعة، ثم تبين لنا وجه تفريع الحروف عليها لتتم الفائدة.

فقال رضي الله عنه: لكل حرف من هذه الحروف السبعة سبعة أجزاء، فللآدمية سبعة، وللنبوة سبعة، وللرسالة سبعة، وللروح سبعة، وللقبض سبعة وللبسط سبعة، وللعلم سبعة، فمجموع ذلك تسعة وأربعون.

أما الآدمية: فالأول من أجزائها كمال حسن خلق الصورة الظاهر على أبدع وجه وأحسنه في وجهها ويديها ورجليها وأصابعها وسائر أجزائها، وجميع ما يبدو منها مثل البياض في حسنه وصفائه ونحو ذلك.

الثاني: كمال منافع الذات الظاهرة مثل الحواس الخمس، فيكون السمع على غاية الكمال، والبصر على غاية الكمال، والشم على غاية الكمال، والذوق على غاية الكمال،

واللمس على غاية الكمال، ومثل الصوت والنطق بالحروف فيكون على غاية الكمال ونهاية البلاغة والفصاحة.

الثالث: كمال حسن خلق الصورة الباطنية حتى يكون القلب على أبدع أشكاله وأحسن أحواله، وتكون الكبد على الهيئة الكاملة، ويكون الدماغ على أحسن ما يكون، وتكون مجاري العروق على الوجه المعتدل، وهكذا حتى تأتي على جميع الأعضاء الباطنية، وتكون كلها على الكمال.

الرابع: كما الحسن الباطني حتى يكون التكليف باللذة الحس بالوحدانية في غاية الكمال.

الخامس: الذكورية فإنها من كمال الآدمية لأن فيها سر الفعل، وفي الأنوثية سر الانفعال، وذلك أن الله عز وجل خلق آدم له سبحانه وخلق الأشياء كلها لآدم، ومن جملة الأشياء النساء، ولما خلق الأشياء له أعطاه سر الفعل وجعله خليفة وجعل ذلك في الذكور من أولاده إلى غابر الدهر.

السادس: نزع حظ الشيطان من الذات، فإن بذلك تكمل الآدمية ولذا شقت الملائكة صدره ﷺ ونزعوا من قلبه ما نزعوا وغسلوه بما غسلوه، وملؤوه إيماناً وحكمة.

السابع: كمال العقل بحيث يكون على غاية الصفاء ونهاية المعرفة فهذه السبعة هي التي نعبر عنها بأجزاء الآدمية تقريباً ولم توجد أجزاؤها بالكمال الذي لا كمال فوقه إلا في ذاته ﷺ.

وأما القبض: فالأول من أجزائه حاسة موضوعة في الذات سارية في جميع جواهرها يقع للذات بسببها إلتذاذ بالخير في جميع جواهرها كما يلتذ الإنسان بحلاوة العسل، ويقع لها بسببها تألم بالشر في جميع جواهرها كما يتألم الإنسان بمرارة الحنظل ونحوه.

الثاني: الإنصاف فهو من أجزاء القبض ولا يكمل القبض إلا به لأن الكلام في القبض النوراني، فإن لم يكن معه إنصاف كان ظلمانياً وأدرك به صاحبه الغضب من الله عز وجل.

الثالث: النفرة من الضد فينفر عنه نفرة سائر الأضداد عن أضدادها ولا يجتمع معه كما لا يجتمع البياض مع السواد والقيام مع العقود.

الرابع: عدم الحياء من قول الحق فيذكره ولو كان مراً ولا تأخذه في الله لومة لائم.

الخامس: امتثال الأوامر لأن الكلام في القبض النوراني وإذا كان مع القبض مخالفة الشرع كان ظلمانياً وأوجب لصاحبه المقت من الله عز وجل.

السادس: الميل إلى الجنس ميلاً تاماً حتى يتكيف به مثاله إذا سمع النبي ﷺ من

يقول: الله حق وهو خالقنا ورازقنا وهو واحد لا شريك له في ملكه ونحو هذا الكلام فإنه يميل ﷺ إلى هذا القول ويحبه محبة تنحل بها أعضاؤه حتى يتكيف بسر هذا الكلام، وتصف ذاته الشريفة النور الذي خرج معه، فكما كانت النفرة الكاملة عن الضد كان له الميل الكامل إلى الجنس.

السابع: القوة الكاملة في الانكماش بحيث إذا انكمش على شيء من الأمور فإنه لا يسقط منه ولو قلامة ظفر مثاله في المحسوسات من انكمش على عشرة مثلاً فإن سقط منه واحد فلا قوة له كاملة في الانكماش وإن لم يسقط منه شيء فله القوة الكاملة فيه وكذا من انكمش على شيء، فإن لم يدم على ذلك فليس له القوة الكاملة في انكماشه عنه وإن دام عليه فله فيه القوة الكاملة، وقد سبق أن من أجزاء القبض الميل إلى الجنس والتكيف به ولا بد مع ذلك التكيف من قوة الانكماش وكذا من أجزائه النفرة عن الضد فلا بد في ذلك أيضاً من قوة الانكماش ليدوم على نفرته.

وأما البسط: فالأول من أجزائه الفرح الكامل وهو نور في الباطن ينفي عن صاحبه الحقد والحسد والكبر والبخل والعداوة مع الناس، لأن هذه الأوصاف ونحوها منافية للفرح وإذا وجد نور الإيمان مع هذا الفرح في الذات نزل عليه نزول مجانسة وموافقة وتمكن من الذات على ما ينبغي، وكان بمثابة المطر النازل على الأرض الطيبة فتتولد من ذلك أخلاق زكية.

الثاني: سكون الخير في الذات دون الشر، وهو نور يوجب لصاحبه أن يكون الخير سجية له وطبيعة فترى صاحبه يحب الخير ويحب أهله ولا يجول فكره إلا في الأمور الموصلة إليه، ومن فعل معه خيراً فإنه لا ينساه أبداً، وأما من فعل معه سوءاً ووصله بإذاية فإنه بمضي وقته ينساه ولا يبقى في فكره حتى أنك إذا اختبرته بعد ذلك وجدت قلبه فارغاً من ذلك وهو مطمئن مستبشر بمثابة من لم يقع له شيء يؤذيه فهذا من كمال البسط.

الثالث: فتح الحواس الظاهرة، وهو عبارة عن لذة تحصل في الحواس الظاهرة وذلك بفتح العروق التي فيها فتتكيف تلك العروق بما أدركته الحواس وبهذه اللذة يكمل البسط ففي البصر لذة بها يحصل الميل إلى الصور الحسنة، وعن ذلك ينشأ العشق والانقطاع الباطني للمنظور، وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغمات المستقيمة، وقد ينشأ عن ذلك اضطراب واهتزاز في الذات وهكذا سائر الحواس، ففي كل حاسة لذة زائدة على مطلق الإدراك.

والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذي هو من أجزاء البسط وبين كمال الحواس الظاهرة الذي هو من أجزاء الآدمية أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق السابقة، *فإن فتح العروق زائد على الإدراك* الذي في كمال الحواس، وبذلك الفتح الحاصل في

العروق والتكيف الجاذب بصاحبه يقع الانقطاع إلى المدرك فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة إلى ما يراه، وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الإدراك فإنه لا يحصل معه هذا الانقطاع، وكم من شخص يرى أموراً حسنة ولا يتأثر بها، وكم من آخر يسمع أصواتاً حسنة ولا تقع منه على بال، وبهذا الفتح والتكيف يحصل كمال البسط.

الرابع: فتح الحواس الباطنة وكل ما سبق في فتح الحواس الظاهرة من فتح العروق وتكيفها بما أدركته الحواس، وانقطاع الشخص مع ذلك إلى المدرك يجري في فتح الحواس الباطنة والفرق السابق يجري هنا أيضاً بين هذا الفتح وبين كمال الحواس الباطنة.

الخامس: مقام الرفعة، وذلك أن الشخص إذا تحلى بأجزاء الآدمية ثم تحلى بأجزاء القبض ثم بأجزاء البسط الأربعة علم قدر ما أوتيه، وأن تلك الخصال لا تعطى إلا لشيء كبير فيعلم أنه رفيع القدر كبير الدرجة عند ربه عز وجل، والكبير لا ينزل نفسه إلا في معالي الأمور ومكارم الأخلاق، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وقال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وإذا علم أنه كبير القدر رفيع الدرجة كمل بسطه فلذلك كان مقام الرفعة من أجزاء البسط.

السادس: حسن التجاوز فيعفو عمن ظلم ويتجاوز عمن أساء إليه، وإنما كان حسن التجاوز من أجزاء البسط لأن كلامنا في البسط الذي هو نوراني لا في البسط الذي هو ظلماني وقد سبق من أجزاء البسط مقام الرفعة وأنه عبارة عن رفعة القدر ونباهة الشأن فإن كان مع هذه الرفعة حسن التجاوز كان البسط نورانياً وإن كان معها الإساءة والعسف كان ظلمانياً، وأدرك به صاحبه الغضب من الله عز وجل فبان أن من حقيقة البسط النوراني، ومن أجزائه التي لا بد منها حسن التجاوز.

السابع: خفض جناح الذل ووجه دخوله في أجزاء البسط ما سبق في حسن التجاوز، لأن صاحب البسط مقامه رفيع فلا بد معه من التواضع والتذلل لأبناء الجنس المرافقين له في الحال، لأنه إن ترفع عليهم دخل عليه الكبر في بسطه وأدرك به الغضب من الله عز وجل.

واعلم أن الآدمية وأجزاءها وأن القبض وأجزاءه وأن البسط وأجزاءه كما توجد في النبي ﷺ، توجد في غيره ولو كان غير مؤمن، إلا أن النبي ﷺ يختص بالآدمية التي ليس فوقها في الخارج مزيد عليها، ويكون المراد بنزع حظ الشيطان الذي هو من أجزائها ما سبق نزعه في شق الصدر الشريف.

أما غيره عليه الصلاة والسلام. فإنها توجد فيه على درجة من الكمال لا على أعلى

الدرجات، ويكون المراد حينئذ بنزع حظ الشيطان الذي هو من جملة أجزائها نزع القباحة والوقاحة من الذات بحيث لا يكون صاحبها شريراً ولا معلوماً بسوء الخلق، لا نزع العلقة التي سبقت في شق الصدر فإن ذلك مختص بدرجة النبوة.

وأما القبض: فإنه يختص فيه النبي ﷺ بما يكون في أعلى الدرجات من القبض النوراني.

وأما غيره عليه الصلاة والسلام: فإن كان متبعاً لطريقته وماشياً على سيرته فإن قبضه يكون نورانياً ويكون فيه على درجة من درجات الكمال لا على الغاية في الكمال، لأن الغاية من خصائص النبوة وإن كان مخالفاً لشريعته كان قبضه ظلمانياً، فتكون الحاسة السابقة في الجزء الأول على العكس مما سبق، فيلتذ بسببها بالشر ويتألم بالخير، وينتفي عنه الجزء الثاني الذي هو الاتصاف، لأنه إذا كان يلتذ بالشر ويتألم بالخير استحال منه الاتصاف وإنما يمكن الاتصاف ممن يلتذ بالخير ويتألم بالشر، ويكون الجزء الثالث الذي هو النفرة عن الضد فيه على العكس فينفر من الخير، وكذا بقية الأجزاء فإنها تنعكس في القبض الظلماني فإن انعكست الأجزاء كلها على الوصف السابق فذلك القبض الظلماني الذي هو في مردة الشياطين الكفرة نسأل الله السلامة، ولذلك لم يزيدوا بمشاهدة المعجزات منه عليه الصلاة والسلام إلا طغياناً وكفراً، وإن انعكس بعض الأجزاء دون بعض فهو قبض عامة المؤمنين.

وأما البسط: فإنه عليه الصلاة والسلام يختص منه بما يكون في أعلى الدرجات من البسط النوراني وغيره عليه الصلاة والسلام يجري على التفصيل السابق في القبض.

والبسط النوراني: هو الذي يكون من أجزائه حسن التجاوز وخفض جناح الذل والظلماني ينتفيان فيه كما سبق والله أعلم.

(وأما النبوة) فالأول من أجزائها قول الحق، وهو ينشأ عن نور في الذات يوجب لها هذا القول ويكون ذلك من سجيتها وطبيعتها، ولا يرجع عنه ولو كان فيه مخالفة الأحباب ومفارقة الأوطان، بل ولو كان فيه ضرب الأعناق، وقد طلب المشركون منه عليه الصلاة والسلام أن يرجع عن قوله وراودوه على ذلك بكل حيلة فأبى وامتنع، ، ثم نصبوا له العداوة ورموه عن قوس واحد فما زاده ذلك إلا تثبتاً ورسوخاً لأن الذات الشريفة مطبوعة على قول الحق لا يتصور عندها غيره.

ثم حكى رضي الله عنه حكايتين:

الأولى: أن في بعض بلاد العجم طيوراً معلمة تكون على باب الدار، فإذا دخل السارق نطقت الطيور وقالت سرقوا بقاف معقودة، ولا يرجع ذلك الطير عن قوله ولو هدد وأشير عليه بالتخويف، وكذا لا يرجع إذا أعطى شيئاً يؤكل وبالجملة لا يرجع ولو قتل.

يشير رضي الله عنه بهذه الحكاية: إلى تفسير معنى قول الحق، وإلى أن الخير بالتعلم لأن الطير مع بعده علم حتى صار هذا القول سجية له فكيف ببني آدم فكيف بالمؤمنين.

الثانية: أن بعض المريدين قال لشيخه: يا سيدي دلني على شيء يريحني مع الله عز وجل، فقال له الشيخ: إن أردت ذلك فكن شبيهاً له في شيء من أوصافه عز وجل فإنك إن اتصفت بشيء منها فإنه يسكنك يوم القيامة مع أوليائه في دار نعيمه، ولا يسكنك مع أعدائه في دار جحيمه، فقال المريد: وكيف لي بذلك يا سيدي وأوصافه تعالى لا تنحصر، فقال الشيخ: كن شبيهه في بعضها فقال وما هو يا سيدي؟ فقال: كن من الذين يقولون الحق فإن من أوصافه تعالى قول الحق، فإن كنت من الذين يقولون الحق فإن الله سيرحمك فعاهد الشيخ على أنه يقول الحق وافترقا.

وكان بجوار المريد بنت فدخل الشيطان بينهما حتى فجر بها وافتضها، فلم تقدر البنت على الصبر مع أنها هي طلبت منه الفعل لأنها تعلم أن الافتضاض لا يخفى بعد ذلك، فأعلمت أباها فرفعه إلى الحاكم وقال: إن هذا فعل ببنتي كذا وكذا؛ فقال الحاكم للمريد أتسمع ما يقول؟. فقال صدق، قد فعلت ذلك وكان مستحضراً للعهد الذي فارق الشيخ عليه فلم يقدر على الجحود والنكران، فلما سمع منه الحاكم ما سمع، قال هذا أحمق، اذهبوا به إلى المارستان فإن العاقل لا يقر على نفسه بما يعود عليه بالضرر، فدخل المارستان ثم جاء من رغب الحاكم وشفع فيه فسرحوه.

يشير رضي الله عنه بهذه الحكاية، إلى أن عاقبة قول الحق لا تكون إلا محمودة والله أعلم.

الثاني: الصبر. وهو نور في الذات ينتفي عنها الإحساس بالألم والمصائب التي تلحقها في ذات الله عز وجل، وذلك هو الصبر الحقيقي الذي يكون بلا كلفة لاتساع عقل صاحبه بسعة فكره لكون الذات مفتوحاً عليها فعقلها سارح في كمالاته تعالى التي لا نهاية لها، فإذا وقع للذات شيء من الألم شغلت عنه بالأمور التي الفكر فيها مشغول.

وقد وقع لبعض الصالحين وكان من الأكابر بل كان هو غوث زمانه، أنه دخل عليه أربعة رجال ليقتلوه ظلماً وكان للولي المذكور جماعة من الولدان، فأخرجه أولئك الأربعة من داره وهو بين أهله وأولاده وجعلوا يجرونه وأولاده يضجون ويبكون، ولم يزالوا به حتى ذبحوه وفكره في ذلك مقبل على ما هو بشأنه وصدده ولم يلتفت قط إلى ما وقع به ولا إلى بكاء أولاده وصياح نسائه، فهذه من الصبر الغريب الذي لا يكاد يسمع به، وإذا كان هذا لأولياء أمته ﷺ، فكيف بصبره هو عليه الصلاة والسلام.

وأما إذا كانت الذات محجوبة فإن العقل نوره يجتمع في الذات ويبقى محصوراً فيها، فإذا نزل بالذات أمر يضرها أحست به إحساساً عظيماً حتى أنك لو أخذت محواراً وكويت

به هذا الرجل لكان عنده بمنزلة مائة محوار ولو كويت به المفتاح عليه فإما أن لا يحس به أصلاً كما وقع للولي المذكور وإما أن لا يحس به إحساساً عظيماً.

الثالث: الرحمة. وهي نور ساكن في الذات يقتضي الرأفة والحنانة على سائر الخلق، وهو ناشيء عن الرحمة الواصلة من الله عز وجل للعبد، وعلى قدر رحمة الله للعبد تكون رحمته هو لسائر الناس، ولا شك أنه ليس في مخلوقات الله عز وجل من هو مرحوم مثله ﷺ، فلذلك كانت رحمته ﷺ للخلق لا يوازيها شيء ولا يلحقه في ذلك أحد، ولقد بلغ من عظيم رحمته ﷺ أن عمت رحمته عليه الصلاة والسلام العالم العلوي والعالم السفلي وأهل الدنيا وأهل الآخرة، ولقد أشار عز وجل في آية:

﴿بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.

إلى أربعة أمور: **أحدها**: النور الذي تسقى به جميع المخلوقات التي وقع لها الرضا من الله عز وجل.

الثاني: ذلك النور قريب منه عز وجل ونعني بالقرب قرب المكانة والمنزلة لا قرب المكان.

الثالث: أن ذلك النور القريب منه عز وجل بأسره وجميعه في ذات النبي ﷺ.

الرابع: أن ذاته ﷺ مطيقة لذلك النور قادرة على حمله بحيث لا يلحقها في ذلك كلفة ولا مشقة، وهذا هو الكمال الذي فاق به نبينا ﷺ جميع الخلائق، والوجه الذي منه وقعت إشارة الآية إلى هذه المعاني الأربع من الأسرار التي يجب كتمها وبقيت معان أخر أشارت إليها الآية والله أعلم.

الرابع: معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه.

الخامس: الخوف التام منه عز وجل، وهو عبارة عن امتزاج الخوف الباطني الأصلي الذي هو في سائر الأجرام مع الخوف الظاهري الذي سببه العقل والمعرفة الظاهرة به عز وجل، فالخوف الباطني قائم بجميع الذات ومستول على جميع جواهرها الفردة لأن ما من جوهر إلا وهو مخلوق الله عز وجل، والمخلوق يخاف ربه خوف الحادث من القديم، وهو موجود في كل مخلوق ناطق وصامت كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ، فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

فسبب هذا القول: هو الخوف الأصلي الباطني، وعن هذا الخوف ينشأ التسبيح المذكور في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وحكم هذا الخوف الدوام والاستمرار في سائر اللحظات، وأما الخوف الظاهري فإن سببه الالتفات إلى الله عز وجل، فما دام ذلك الالتفات حصل الخوف، وإن اشتغل الفكر بشيء آخر ذهب الالتفات وزال الخوف، فمن رحمه الله تعالى أزال عنه الحجاب الذي بينه وبين هذا الخوف الباطني الحقيقي الأصلي الذي يدوم فيرجع له هذا الخوف ظاهراً دائماً صافياً طاهراً من الظلام، ثم يصير خوفه والحالة هذه يستمد من معرفته بربه عز وجل وبذلك يصير خوفه لا نهاية له لأن معرفته بربه لا تنتهي، فالخوف المستمد منها لا ينتهي. وبالجملة فالظاهر يستمد من الباطن الصفاء والدوام، والباطن يستمد من الظاهر الزيادة والفيضان، وهذا هو الخوف التام، وإنما كان الباطن يستمد من الظاهر الزيادة لأن الخوف في الباطن نسبته إلى سائر الأجرام على حد سواء وإنما الذي تختلف فيه الأجرام الخوف الظاهر، لأن سببه المعرفة وهم المختلفون فيها والله أعلم.

السادس: بغض الباطل. وهو ينشأ عن نور ساكن في الذات دائم فيها من شأنه الالتفات إلى جنس الظلام واستحضاره، حتى يكون نصب عينيه، ثم يقابله بالدفع مقابلة الضد لضده، فاستحضار الضد مما يعين على كمال بغضه فإذا دام استحضاره دام بغضه فبغض الباطل دائماً في كل لحظة من اللحظات جزء من أجزاء النبوة والله أعلم.

السابع: العفو. وهو ناشىء عن نور ساكن في الذات دائم فيها من طبع هذا النور. أن من ضره نفعه هو، فهو يقابل بالنفع من تلقاه بالضر، فمن قطعه وصله، ومن ظلمه تجاوز عنه، ومن أساء إليه أحسن هو إليه، فهذا العفو الذي هو على هذه الصفة جزء من أجزاء النبوة، ولا بد من دوامه لأن سببه النور السابق وهو دائم في الذات فحالة العفو دائمة، وهكذا كان نبينا محمد ﷺ.

واعلم أن خصال النبوة لم يحزها على الوجه الأكمل الذي ليس فوقه شيء إلا نبينا ﷺ، وسبب ذلك أن خصال الآدمية والقبض والبسط لم تكمل في ذات من الذوات مثل ما كملت في ذاته ﷺ، فلما كانت على الوجه الأعلى في ذاته الظاهرة ونزلت عليها خصال النبوة زادت أنوارها وتشعشعت أسرارها.

فالخصلة الأولى من خصال النبوة، تنزل على إحدى وعشرين خصلة التي في الآدمية والقبض والبسط حتى تصير تلك الخصلة كأنها درجت فيها أنوار تلك الخصال المذكورة.

والثانية: تنزل على اثنين وعشرين خصلة وتدرج فيها أنوار تلك الخصال بأسرها.

والثالثة: تنزل على ثلاث وعشرين خصلة وتدرج فيها أنوارها، وبالجملة فيكون نور الحق بمثابة المركب من اثنين وعشرين نوراً نوره ونور ما قبله من الخصال، ونور الصبر مركب من ثلاثة وعشرين نوراً نوره ونور ما قبله، ونور الرحمة مركب من أربعة وعشرين نوراً، ولهذا كانت رحمته ﷺ على الصفة السابقة حتى عمت المخلوقات كلها.

وأما معرفته بربه ﷺ فلا يطاق شرحها، وبالجملة فإذا وضعت خلال النبوة بين عينيك ثم تأملت ما قيل في شرحها وبلغت إلى كنهها ثم نزلت أنوارها على الأنوار التي قبلها وأدرجت الأنوار التي قبلها فيها، علمت جلالة النبي ﷺ وعظمته عند ربه عز وجل، وأنه كما قيل:

مُنزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ   فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأما الروح: فالأول من أجزائها ذوق الأنوار، وهو عبارة عن نور في الروح سار فيها تذوق به أنوار أفعاله تعالى في الكائنات، والأنوار الموجودة في العالم العلوي على ما قدر وسبق لها في القسمة وهو يخالف ذوق الذات في أمور أحدها أنه نوراني لا يتعلق إلا بالنور، بخلاف ذوقنا فإنه يتعلق بالأجرام، فنحس بذوق حلاوة العسل بسبب اتصال جرم العسل بلساننا، والروح تذوق حلاوة العسل لا من جرم العسل بل من نور العقل الذي قامت به حقيقة تلك الحلاوة وهكذا ذوقها لسائر المذوقات.

ثانيها أنه لا يشترط فيه الاتصال فإن الروح تذوق ما اتصل بها وما لم يتصل، بخلاف ذوقنا فإنه لا بد فيه من الاتصال على ما جرت به العادة، وعادة الروح الجارية أنه لا يشترط في ذوقها الاتصال.

ثالثها: أنه لا يخص محلاً من الروح دون غيره بل هو سار في جميع جواهرها الظاهرة والباطنة بخلاف ذوقنا فإنه يخص في العادة جرم اللسان.

رابعها: أنه يكون بسائر الحواس، يعني أن ذوقها ينشأ عن سائر الحواس، فإذا رأت الروح شيئاً مذوقاً كالعسل حصل لها ذوق حلاوته من نور الفعل الذي في تلك الحلاوة وكذا رؤيتها لسائر المذوقات وسائر الأنوار العلوية وكذا يحصل لها هذا الذوق عند سماع الألفاظ، فإذا سمعت لفظ العسل ذاقت النور الذي كان به العسل فتذوق حلاوته بسبب ذلك، وكذا إذا سمعت لفظ الجنة ولفظ الرضوان ولفظ الرحمة مثلاً حصل لها ذلك الذوق، وأما إذا سمعت القرآن العزيز: فأول ما تذوقه عند سماعه نور قول الحق الذي فيه، ثم تشتغل بعد ذلك بأذواق أخر لا تكيف، وبالجملة فهي تذوق بجميع ذاتها وسائر جواهرها ذوقاً يحصل لها عن سائر حواسها والله تعالى أعلم.

ثم إن الأرواح بعد اتفاقها في الذوق على الصفة السابقة تختلف فيه بالقوة والضعف وأقوى الأرواح فيه من خرق ذوقها العرش والفرش وغيرهما من العوالم، وليس ذلك إلا لروحه ﷺ لأنها سلطان الأرواح وقد سكنت في ذاته الطاهرة ﷺ سكنى الرضا والمحبة والقبول وارتفع الحجاب الذي بينهما فصار ذوق الروح الشريفة على كماله وخرقه للعوالم ثابتاً لذاته الطاهرة الترابية وهذا هو الكمال الذي لا كمال فوقه.

الثاني: الطهارة وهي عبارة عن صفاء الروح الصفاء الذي خلقت عليه، وهو ينقسم إلى حسي ومعنوي.

أما الحسي: فمن أجل أنها نور والنور كله على غاية الصفاء ونهاية الطهارة.

وأما المعنوي: فهو عبارة عن امتزاج المعرفتين، أعني المعرفة الباطنة والمعرفة الظاهرة وذلك أن المخلوقات بأسرها عارفة بخالقها سبحانه، لا فرق في ذلك بين صامت وناطق، ولا بين حي وجامد، وما من مخلوق إلا وجميع جواهره فيها هذه المعرفة الباطنة كما سبق بيانه في الخوف التام، ثم من رحمه الله عز وجل يصير له ما كان باطناً ظاهراً فيشعر بمعرفة جميع جواهره بربه عز وجل صير له ما كان باطناً ظاهراً فيشعر بمعرفة جميع جواهره بربه عز وجل ويصير في ظاهره عارفاً بربه بجميع أجزاء ذاته وهذا من أعلى درجات المعرفة، وقد فعل سبحانه هذا بالأرواح فهي عالمة بربها في ظاهرها بجميع ذواتها مع بعد اتفاقها في هذا الصفاء، فهي مختلفة فيه على قدر تفاوت ذواتها في الصغر والكبر، فإن من الأرواح من حجمه صغير ومنها من حجمه كبير، ولا شك أن من حجمه كبير فجواهره أكثر فتكون معارفه بربه عز وجل أكثر وأكبر الأرواح قدراً وأعظمها حجماً روحه ﷺ، فإنها تملأ السموات والأرضين، ومع ذلك فقد انطوت عليها الذات الشريفة واحتوت على جميع أسرارها فسبحان من أقدر الذات الطاهرة على ذلك، ثم إذا سكنت الروح في الذات سكنى المحبة والرضا والقبول وزال الحجاب الذي بينهما، أمدتها بصفائها الحسي والمعنوي، فيحصل في الذات صفاء حسي فينشأ عنه صفاء الدم الذي في الذات وذلك بأربعة أمور خفته، وزوال الثقل عنه، فإنه على قدر ثقل الدم يكون خبثه وتكثر معه الشهوات وصفاء رائحته، وعلامة ذلك أن تكون رائحته كرائحة العجين، وأما الدم الخبيث فإن رائحته كرائحة الحمأ المسنون، وصفاء لونه وعلامته أن يضرب إلى الصفرة.

وأما الدم الخبيث فإن لونه يضرب إلى السواد، وعلى قدر قربه من السواد يكون خبثه وصفاء طعمه، وعلامته أن يكون حلوا.

وأما الدم الخبيث. فإن طعمه يشبه طعم الشيء المحروق فإذا صفا جوهرالدم نزعت منه حظوظ الشيطان وانقطعت منه الشهوات وظلام المعاصي، ثم تصير عروق الذات تتغذى بهذا الدم الصافي فتصفو بصفائه وتنقطع منها الشهوات وعلائق الشيطان، فإذا حصل في الذات هذا الصفاء الحسي أمدتها الروح بالصفاء المعنوي فتصير عارفة بربها في ظاهرها بجميع جواهرها، وقد حصل الصفاء الحسي والمعنوي للذات الطاهرة لأنها احتوت على الروح الشريفة أخذت جميع أسرارها على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

الثالث: التمييز وهو نور في الروح تميز به الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر تمييزاً كاملاً، ومع ذلك فلا تحتاج فيه إلى تعلم بل بمجرد رؤية الشيء أو سماع لفظة تميزه

وتميز أحواله ومبدأه ومنتهاه وإلى أين يصير، ولماذا خلق، ثم الأرواح مختلفة في هذا التمييز على قدر الإطلاع، فمن الأرواح من هو قوي في الإطلاع، ومنها من هو ضعيف، وأقوى الأرواح في ذلك روحه ﷺ، فإنها لم يحجب عنها شيء من العالم فهي مطلعة على عرشه وعلوه وسفله ودنياه وآخرته وناره وجنته، لأن جميع ذلك خلق لأجله ﷺ، فتمييزه عليه الصلاة والسلام خارق لهذه العوالم بأسرها فعنده تمييز في أجرام السموات، من أين خلقت، ومتى خلقت، ولم خلقت، وإلى أين تصير في جرم كل سماء، وعنده تمييز في ملائكة كل سماء. وأين خلقوا ومتى خلقوا، ولم خلقوا وإلى أين يصيرون، ويميز اختلاف مراتبهم ومنتهى درجاتهم، وعنده عليه الصلاة والسلام تمييز في الحجب السبعين، وفي ملائكة كل حجاب على الصفة السابقة، وعنده عليه الصلاة والسلام تمييز في الأجرام النيرة التي في العالم العلوي مثل النجوم والشمس والقمر واللوح والقلم والبرزخ والأرواح التي فيه على الوصف السابق، وكذا عنده عليه الصلاة والسلام تمييز في الأرضين السبع، وفي مخلوقات كل أرض وما في البر والبحر من ذلك فيميز جميع ذلك على الصفة السابقة، وكذا عنده عليه الصلاة والسلام تمييز في الجنان ودرجاتها وعدد سكانها ومقاماتهم فيها، وكذا ما بقي من العوالم وليس في هذا مزاحمة للعلم القديم الأزلي الذي لا نهاية لمعلوماته، وذلك لأن ما في العلم القديم لم ينحصر في هذا العالم، فإن أسرار الربوبية وأوصاف الألوهية التي لا نهاية لها ليست من هذا العالم في شيء، ثم الروح إذا أحبت الذات أمدتها بهذا التمييز، فلذلك كانت ذاته الطاهرة ﷺ تميز ذلك التمييز السابق وتخرق به العوالم كلها، فسبحان من شرفها وكرمها وأقدرها على ذلك.

الرابع: البصيرة وهي عبارة عن سريان الفهم في سائر أجزاء الروح كما يسري في جميعها أيضاً سائر الحواس مثل البصر والسمع والشم والذوق واللمس، فالعلم قائم بجميعها والبصر قائم بجميعها، والشم قائم بجميعها، والذوق قائم بجميعها، واللمس قائم بجميعها حتى أنه ما من جوهر من جواهرها إلا وقد قام به علم وسمع وبصر وشم وذوق ولمس، فبصرها من سائر الجهات وكذا بقية الحواس، فإذا أحبت الروح الذات وزال الحجاب الذي بينهما أمدتها بهذه البصيرة فتبصر الذات من أمام وخلف وفوق وتحت ويمين وشمال بجواهرها كلها وتسمع كذلك وتشم كذلك، وبالجملة. فما كان للروح يصير للذات، وقد زال الحجاب بين الذات الطاهرة وبين الروح الشريفة يوم شقت الملائكة صدره الشريف ﷺ وهو صغير، ففي ذلك الوقت وقع الالتحام والاصطحاب بين روحه وذاته ﷺ وصارت ذاته تطلع على جميع ما تطلع عليه روحه ﷺ، فلهذا ﷺ كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وقد قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم:

«أَقِيمُوا رُكُوعَكُمْ وَسُجُودَكُمْ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِي كَمَا أَرَاكُمْ مِنْ أَمَامِي».

فهذا هو سر الحديث والله تعالى أعلم.

الخامس: عدم الغفلة وهو عبارة عن انتفاء أوصاف الجهل وأضداد العلم عن القدر الذي بلغ إليه علمها ووصل إليه نظرها فلا يلحقها سهو ولا غفلة ولا نسيان عن معلوم أي معلوم من القدر الذي وصلت إليه، وليس حصول المعلومات لديها على التدريج بل يحصل ذلك بنظرها دفعة واحدة، فليس في علمها أنها إذا توجهت إلى شيء غفلت عن غيره بل إذا توجهت إليه حصل غيره معه، بل لا تحتاج إلى توجه، لأن العلوم فطرية فيها، ففي أول فطرتها حصلت لها علومها دفعة واحدة، ثم دام لها ذلك كما دامت ذاتها فهذا هو المراد بعد الغفلة وهو ثابت لكل روح، وإنما تختلف في قدر العلوم، فمنها من علومه كثيرة، ومنها من علومه قليلة، وأعظم الأرواح علماً وأقواها نظراً روحه عليه الصلاة والسلام، لأنها يعسوب الأرواح، فهي مطلعة على جميع ما في العوالم كما سبق دفعة واحدة من غير ترتيب ولا تدريج، ثم لما وقع الاصطحاب بينها وبين ذاته الطاهرة ﷺ أمدتها بعدم الغفلة حتى صارت الذات مطلعة على جميع ما في العالم مع عدم لحوق الغفلة لها في ذلك، لكن الإطلاع ليس مثل الإطلاع، فإن إطلاع الروح دفعة واحدة من غير ترتيب وإطلاع الذات على سبيل التدريج والترتيب بمعنى أنها ما من شيء تتوجه إليه في العالم إلا وتعلمه، لكن علمه لا يحصل إلا بالتوجه فإذا توجهت إلى شيء آخر علمته، وهكذا، حتى تأتي على ما في العالم فلها التسلط في العالم على ما في العالم ولكن بتوجه بعد توجه ولا تطيق الذات ما تطيقه الروح من حصول ذلك في دفعة واحدة، وكذا يختلفان في عدم الغفلة فإنه في الروح على نحو ما سبق تفسيره.

وأما في الذات: فهو بالنسبة إلى توجهها بمعنى أنها إذا توجهت إلى شيء لا يفوتها ولا يلحقها في توجهها إليه سهو ولا غفلة ولا نسيان، وأما إذا لم تتوجه إليه فإنها قد تغفل عنه ويقع لها فيه السهو النسيان ولهذا قال ﷺ كما في صحيح البخاري:

«إِنَّما أَنَا بَشَرٌ أَنسَى كَمَا تَنسَوْنَ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي».

قال ذلك ﷺ حين وقع له السهو ولم ينبهوه.

(قلت) فلله دره من إمام فإنه قد أعطى للحقيقة حقها وأعطى للشريعة حقها، وأما حديث:

«إِنِّي لاَ أَنسَى وَلٰكِنْ أَنسَى لِأَسِنَّ».

فقد قال فيه الحفاظ مثل الإمام ابن عبد البر في التمهيد والحافظ ابن حجر في الفتح والحافظ جلال الدين السيوطي في حاشية الموطأ، إنه من الأحاديث التي لم يتصل إسنادها إلى النبي ﷺ في شيء من كتب الحديث، قال ابن حجر ويكفي في رده قوله في هذا الحديث:

«إِنمَا أَنَا بَشَرٌ أَنسَى كَمَا تَنسَونَ. . .».

فإنه ﷺ لم يكتف بنسبة البشرية إليه حتى شبه نسيانه بنسيان أصحابه رضي الله عنهم، أنظر بقية كلامه في الفتح والله أعلم.

السادس: قوة السريان وهي عبارة عن إقدار الله تعالى لها على خرق الأجرام والنفوذ فيها؛ فتخرق الجبال والجلاميذ والصخور والجدران وتغوص في ذلك وتذهب فيه حيث شاءت، وإذا سكنت الروح في الذات وأحبتها واصطحبت معها أمدتها بهذه القوة فتصير الذات تفعل ما تفعله الروح.

ومن ذلك حكاية النبي يحيى على نبينا وعليه السلام، الذي أراده قومه ففر منهم ودخل في شجرة، فإن روحه أمدت ذاته لمحبتها فيها بالقوة المذكورة فخرقت الذات جرم الشجرة ودخلت فيها.

ومن ذلك أيضاً: ما يقع للأولياء رضي الله عنهم من وجودهم في الموضوع ودخولهم إياه من غير فتح باب.

ومن ذلك أيضاً: ما يقع لهم رضي الله عنهم في مشي الخطوة حتى يضع الواحد منهم رجلاً بالمغرب وأخرى بالمشرق، فإن الذات لا تطيق خرق الهواء الذي بين المشرق والمغرب في لحظة، فإن الريح تقطع أوصالها وتفتت أعضاءها وتنشف الدم والرطوبات التي فيها، ولكن الروح أمدتها بالقوة المذكورة حتى وقع ما وقع.

ومن ذلك: قضية الإسراء والمعراج. فإنه عليه الصلاة والسلام بلغ إلى ما بلغ، ثم رجع في مدة قريبة وكل ذلك من عمل الروح حيث أمدت الذات بقوة السريان التي فيها والله أعلم.

السابع: عدم الإحساس بمؤلمات الأجرام مثل الجوع والعطش والحر والبرد ونحو ذلك فإن الروح لا تحس بشيء من ذلك فلا جوع ولا عطش ولا حر ولا برد بالنسبة إليها، وكذا إذا خرقت الأجرام الحادة فإنه لا ينالها شيء من ضررها ولا ألم من آلامها، وكذا إذا مرت بموضع قذارة فإنها لا تتضرر بذلك ولا يقع لها تألم منه بخلاف الملك في هذا الأخير فإنه يميل إلى الرائحة الطيبة وينفر من الرائحة الخبيثة، ولولا وجود هذا الأمر في الروح ما أطاقت القرار في الذات التي هي فيها والله تعالى أعلم.

فهذه الأمور السبعة لا بد منها في حق كل روح، فلذا قلنا فيها إنها أجزاء الروح تقريباً، والأرواح متفاوتة فيها كما سبق بيانه، وسبق أن أعلى الأرواح في ذلك روحه ﷺ، وسبق أن ما كان لها من هذه الأوصاف ثابت لذاته ﷺ ثم تضاف هذه الأنوار السبعة إلى الثمانية والعشرين أعني الأنوار السابقة في الآدمية، والقبض والبسط والنبوة.

فالأول وهو فوق الأنوار التي في الذات الشريفة تندرج فيه الأنوار التي قبله ويكون بمثابة المركب من جملتها مضافاً ذلك إلى نوره.

ثم الثاني وهو الطهارة: يتركب من نوره ومن نور الذوق الذي قبله ومن الأنوار التي قبلها، وهكذا على المنهج السابق والله أعلم.

وأما العلم: ونعني به العلم الكامل البالغ الغاية في الطهارة والصفاء، فهو الذي يجتمع فيه الخلال السبع الآتي ذكرها.

واعلم أن العلم نور العقل، والعقل نور الروح، والروح نور الذات، وقد سبق أن الذات الطاهرة التي أزيل الحجاب بينها وبين الروح، تتصف بما ثبت للروح من الأنوار السابقة، فكذلك أيضاً إذا كانت الروح كاملة في الطهارة والصفاء فإنها تتصف بجميع ما ثبت لنور العقل الذي هو العلم، فهذه الأنوار السبعة التي في العلم تتصف بها الروح، وزيادة على ما سبق فأول أجزائه الحمل للمعلومات وهو نور في العلم يوجب له حصول المعلومات فيه حصول يفوق حصول المبصرات في البصر والمسموعات في السمع والمحسوسات في باقي الحواس، فحصول الأشياء فيه بمثابة الذات، وحصولها في البصر مثلاً بمثابة الظل والخيال، يعني أن الحصول الثاني كالخيال بالإضافة إلى الحصول الأول، فالحصول في العلم هو الحقيقي، والحصول في البصر هو الخيالي؛ عكس ما يعرفه الناس، وإنما انعكس الأمر عند الناس لقلة نور العلم الذي هو فيهم حتى أنه كالشعرة أو أقل، فلما قل العلم فيهم جدا صاروا معولين على الحواس.

وأما من أعطاه الله عز وجل العلم الكامل، فإن البصر وسائر الحواس عنده كالخيال بالإضافة إلى ما عنده من العلم.

ثم ضرب مثلاً ليتبين الحال.

فقال رضي الله عنه: لو فرضنا رجلاً بنى داراً ووقع له في بنيانها أنه باشر بنفسه العمل البعيد والقريب فنقل التراب وطبخه وجعل منه الآجر ونقل الحجر وطبخه وجعل منه الجير، ونقل الخشب ونشرها وبنى البنيان وشيد الأركان ولم يعنه أحد في شيء من أمورها، بل تولى جميع أعمالها من أولها إلى آخرها، حتى أنه ما من شيء منها إلا وفعله عن قصد ونية وفكرة وروية، حتى صار كل شيء منها بمثابة ما فطرت عليه ذاته فهو حاضر في فكره لا يغيب عنه، فإذا غاب عن الدار مدة ثم رجع إليها فنظرها ونظرها معه رجل آخر فرؤية البصر موجودة منهما معاً ولكن الصانع يفوق الرجل الآخر من حيث إن الدار وأجزاءها وأجزاء أجزائها وتفاصيل أعمالها وتفاصيل تلك التفاصيل مما عملته يد الصانع، فهو يعلم من ظاهر الدار وباطنها وداخلها وخارجها ما لا يعلمه الآخر، فكذلك العلم الكامل يحيط بالظاهر وبالباطن، وبالأجزاء وبأجزاء الأجزاء وبالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل، والبصر إنما يتعلق بظاهر سطح الدار ولا يعمه فضلاً عن أن يخرق إلى الباطن، وهذا المثال تقريبي لا تحقيقي، فإن العلم الكامل لا يدريه إلا من رحمه الله تعالى، ولا يبلغ إلى كنهه بالأمثلة والتقريبات، فقلت فكيف تحصل الأشياء في العلم.

فقال رضي الله عنه: إذا فرضنا نور العلم بمثابة أوقية من الماء الصافي الأبيض الذي بقي على أصل خلقته في رقته وصفاء جوهره، ثم فرضنا أوقية أخرى مركبة من قطرات كثيرة متباينة، فقطرة مالحة وقطرة حلوة، وقطرة مرة وقطرة حامضة، وقطرة باردة وقطرة حارة وهكذا حتى تأتي على الآخر، ثم جعلنا الأوقية المركبة على الأوقية الصافية فإنهما يلتحمان ويختلطان ويصير الماءان ماء واحداً، فالأوقية الأولى بمثابة العلم، والأوقية الثانية بمثابة المعلومات لاختلافها وتباينها.

فقلت فهل القطرات المتباينة التي في أوقية المعلومات متمايزة كل قطرة في حيز أو غير متمايزة بل مختلطة وملتحمة.

فقال رضي الله عنه: هي مختلطة، ثم أخذ كفا من ماء وقال هذه أوقية العلم ثم أخذ قطرة من ماء آخر ووضعها على الماء الذي في كفه، فقال: أليس أنها امتزجت مع جميع جواهر الماء؟ فقلت نعم، فقال هذا حصل في العلم، ثم أخذ قطرة أخرى وزادها على الماء، فقال أليس أنها امتزجت معه، فقلت نعم، فقال هذا معلوم ثان حصل في العلم، ثم أخذ قطرة ثالثة فزادها على الماء فقال أليس أنها امتزجت معه، فقلت نعم، فقال: هكذا حصول المعلومات في العلم فإن نوره في أول القطرة يكون خالياً من العلوم، ثم يحصل فيه شيئاً فشيئاً على سبيل التدريج، والمعلومات تحصل ونور العلم يزيد، فلا نهاية لنوره أبداً كما لا نهاية للمعلومات فإنه بمثابة الغمد لها فإن قل ما في الغمد صغر جرم الغمد، وإن كثر ما في الغمد كبر جرم الغمد.

ومن عجيب أمر هذا الغمد أن يكون في أول القطرة صغيراً جداً قدر ما يسع معلوماً واحداً فإن زاد معلوم ثان اتسع له الغمد وهكذا إلى ما لا نهاية له والله أعلم.

الثاني: عدم التضييع وهو نور في العلم يقتضي أن لا يسقط من معلوماته شيء إلا لمن يستحقه فهذا النور يحفظه من وصوله إلى غير أهله فلا يصل إليه ابتداء، وعلى تقدير إذا وصل إليه فإنه يسترجعه ويستفهمه ويرده إلى أصله ويحميه من البقاء عند من لا يستحقه، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام، فإنه يتكلم بأنوار العلوم ويسمعها منه البر والفاجر والمؤمن والمنافق.

فأما الفاجر والمنافق: فإنها لا تقر عنده ولا تبقى على باله، لأن النور المذكور يسترها إلى أصلها الطاهر ومحلها الزاهر وهو ذاته ﷺ.

وأما أهل المحبة والإيمان رضي الله عنهم. فإنهم أهل للحكمة ومحل لقبول الخيرات كما قال تعالى:

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

فإذا سمعوا تلك الأنوار فإنها تستقر فيهم لطهارتهم.

وبالجملة فالعلم ينقسم إلى طاهر وهو ما في نوره بياض، وإلى غير طاهر وهو ما في نوره زرقة، فإذا فرضنا أربعة رجال أحدهم علمه طاهر كامل، وثانيهم علمه طاهر قليل، وثالثهم علمه غير طاهر وهو كامل، ورابعهم علمه غير طاهر وهو قليل، ثم فرضناهم اجتمعوا وجعلوا يتذاكرون ما عندهم من العلوم، فالطاهر الناقص يستفيد من الطاهر الكامل ولا يستفيد من الثالث شيئاً لعدم المجانسة، والناقص غير الطاهر يستفيد من الثالث ولا يستفيد من الأول شيئاً لعدم المجانسة ففي العلم مطلقاً عدم التضييع فإن كان طاهراً فإنه لا يدخل على غير الطاهر ولا يستقر عنده، وإن كان غير طاهر فإنه لا يدخل على الطاهر ولا يستقر عنده، وإنما يدخل الطاهر على الطاهر والخبيث على الخبيث.

الثالث: معرفة اللغات وأصوات الحيوانات والجمادات، وذلك أن العلم الكامل إذا حصلت فيه الأشياء فإنها تحصل فيه فحقائقها وذاتياتها ولوازمها وعوارضها، واللغات والأصوات تنشأ عن أمور عرضيات، ومن المحال أن يعلم العرضيات ولا يعلم ما ينشأ عنها، ثم المعلومات التي حصلت حقائقها في العلم تنقسم إلى جماد وإلى حيوان.

فالجماد له صوت مثل خرير الماء وصرير الباب ووقع الحجر على الحجر وغير ذلك، وصاحب العلم يعرف المراد من هذه الأصوات.

وأما الحيوان، فإنه ينقسم إلى ناطق وغيره، والناطق وهو الإنسان له لغة معروفة وأما غير الناطق فإنه ينقسم إلى طيور وحيوانات وغيرها، ولجميع ذلك مناطق معروفة، وصاحب العلم الكامل يعرف ذلك بأسره.

قلت: وقد سمعت من الشيخ رضي الله عنه في هذا الباب حكايات كثيرة سيأتي بعضها أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى.

قال رضي الله عنه: وأما الصامت الذي لا صوت له، كالجدار والدار والفيافي والقفار والجبال والأشجاء فنطقها لا يعرفه إلا الله عز وجل فهو باطني بينها وبين خالقها سبحانه وقد يظهره الله تعالى أحياناً معجزة لنبي أو كرامة لولي.

الرابع: معرفة العواقب، وذلك أنه قد سبق في التمييز الذي هو من جملة أجزاء الروح أنه نور في الروح تميز به الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر تمييزاً كاملاً، فلا تزال تميز به الأشياء وتدرجها من درجة إلى درجة حتى تنتهي إلى العواقب، فإذا انتهت إلى العواقب وقف التمييز وجاء هذا الجزء الذي هو معرفة العواقب فينظر في العواقب ويفصلها على ما هي عليه في نفس الأمر، ثم العاقبة منحصرة بعد في أمرين، إما الفناء في الدار الآخرة كما في حق الجمادات ونحوها مما لا بقاء له في الآخرة، وإما البقاء كما في حق المكلفين ونحوهم، فأما الذي عاقبته الفناء فإن هذا الجزء ينظر في فنائه كيف يكون ومتى

يكون، وكيف يندرج ذلك الشيء في الفناء، وكيف تنقض أجزاؤه وتنعدم شيئاً فشيئاً، إلى أن يصير عدماً محضاً وفي أي موضع يكون فناؤه، وأسباب فنائه والأمور المقتضية لانتفائه حتى يصير فناؤه أمراً ظاهراً معقولاً لا بعد فيه ولا خرق فيه للعادة، وفي ذلك علوم كثيرة.

وأما الذي عاقبته البقاء، فإن التمييز يدرجه إلى أن يجعله في الجنة أو في النار، ثم يجيء هذا الجزء فينظر في ثوابه ويفصله تفصيلاً موافقاً لما يكون له في الجنة، وكذا حال عقابه، ولهذا شرح طويل ولعلنا بحول الله وقوته نذكر شيئاً منه في أثناء الكتاب مما سمعناه من الشيخ رضي الله عنه والله أعلم.

الخامس: معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين الإنس والجن وهي علوم كثيرة، قال رضي الله عنه: فيخص الإنس ثلثمائة وستة وستون علماً، وكذا الجن، إلا أنه ينقص عن الإنس بثلاثة علوم فله ثلثمائة وثلاثة وستون علماً كلها تتعلق بأحواله.

قال رضي الله عنه: فمن جملة ذلك معرفة الأسباب التي يكون بها معاشهم في الظاهر وفي الباطن، ومعاشهم في الظاهر: هو ما تقوم به ذواتهم وتدوم به حياتهم فيدخل في ذلك معرفة أسباب التكسب من حراثة وفلاحة وتجارة وكل ما يعمل باليد من سائر الصناعات، فلا بد من معرفة ذلك كله ومعرفة ما يوصل منه إلى الربح وما لا يوصل، ويدخل في ذلك أيضاً علم الأدب الذي يعبر عنه الناس بعلم السياسة فإنه أيضاً لا بد من معرفة الأسباب التي تكون معها المعاشرة وتدوم معها المخالطة وفيها علوم كثيرة.

وأما معاشهم في الباطن فهو ما يجمع العبد على ربه تعالى ويحوشه إليه ويدله عليه ويدخل في ذلك معرفة الشرائع وأنوارها وأسرارها الموصلة إليه تعالى، فيعرف حكم الله في الواقعة وما الحكمة في مشروعيته وما النفع الواصل إلى العبد منه في الدنيا والآخرة ولو كتبنا ما سمعنا من شيخنا رضي الله عنه في هذا الباب ورسمنا الجزئيات وأعيان النوازل التي سألنا عنها لأتينا في ذلك بما يستغرب ويستظرف ويعلم الواقف عليه بمجرد سماعه وفهمه أنه الحق الذي لا ريب فيه، فإني خضت معه رضي الله عنه في الخلاف الواقع بين شيوخ المذهب رحمهم الله ثم في الخلاف الواقع بين أرباب المذاهب، ثم في الخلاف الواقع بين شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سنين عديدة، فسمعت من الأسرار في ذلك ما لا يدخل تحت حصر، متعنا الله بذلك في الدنيا وفي الآخرة بمنه وكرمه آمين.

قال رضي الله عنه: ومن جملة تلك العلوم معرفة الآفات العارضة لأسباب المعاش الظاهري والباطني، وكيفية التحرز منها حتى يكون صاحب هذا العلم على بينة من أمره في سائر أسبابه فيعلم ما ينفعه النفع الخاص به في الدارين وما يضره الضرر الخاص به كذلك، ويدخل في هذا معرفة علم الطب الكامل على ما هو عليه في نفس الأمر، وهو إما ظاهري، وهو ما يرجع على صلاح المعاش الظاهري، وإما باطني، وهو ما يرجع إلى صلاح المعاش الباطني والله تعالى أعلم.

السادس: معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين أعني العالم العلوي والعالم السفلي، وذلك أن العالم السفلي منحصر في سبعة أمور، العناصر الأربعة وهي الماء والتراب والريح والنار والمركبات الثلاث، النبات والمعادن والحيوانات، فلا بد في العلم الكامل من معرفة حقائق هذه الأشياء المعرفة الكاملة، ومعرفة خواصها التي امتازت بها ومعرفة ما ينفع منها وما يضر ومعرفة قواها واختلاف أفرادها في تلك القوى، حتى أن النار قد يكون جرمها واسعاً وقواها ضعيفة، وقد تكون نار أخرى بعكسها وفي ذلك كلام طويل والله أعلم.

السابع انحصار الجهات في جهة واحدة وهي جهة أمام وهي من أجزاء العالم الكامل وذلك أن العلم بعد كونه نوراً يدرك من جميع الجهات لينظر فيه، فإن رزق الله صاحبه قوى زائدة حتى صار ما يراه من غير جهة أمام بمثابة ما يراه من جهة أمام من غير زيادة ولا نقص ويكون في نظره إذ ذاك لا يحس إلا بجهة أمام، وتمحى سائر الجهات في رؤيته، ولا تبقى إلا جهة أمام، فإن العلم يوصف بالكمال وليس هذا إلا في علم المفتوح عليه، وعليه يتخرج حديث:

«إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِي كَمَا أَراكُمْ مِنْ أَمَامِي».

فهم مع كونهم وراءه يراهم في قبلته كما يرى ﷺ ما في قبلته وإن كان صاحب العلم يحس بافتراق الجهات فالعلم غير كامل والله تعالى أعلم.

وأما الرسالة: فالأول من أجزائها سكون الروح في الذات، سكون الرضا والمحبة والقبول، وذلك لأن في الذوات الطاهرة أنوار مستمدة من إيمانهم بالله عز وجل وعلى قدر تلك الأنوار قلة وكثرة يضعف سكون الروح في الذات ويقوى، لأن النور إلى النور أميل والأرواح من الأنوار غير أن نور الإيمان بالله تعالى أسطع وأنصع من نورها، فإذا رأت ذلك النور في ذات من الذوات فإنها تميل إليه وتستحليه وتستعذبه وليس سكونها في الذات التي نور إيمانها قدر ذراع مثلاً مثل سكونها في الذات التي نور إيمانها قدر ذراعين وهكذا.

ثم إن نور الإيمان يزيد بزيادة نور الأجور وذلك لأن للأعمال أجوراً، وللأجور أنواراً، وأنوار تلك الأجور تنعكس إلى الذوات فيحصل للذوات بها نفع في الدنيا بالحسنى بأن تعظم بها أنوار إيمانهم، ونفع في الآخرة ظاهري بأن تصير تلك الأجور نعماً في الجنة يتنعم بها العاملون.

قال رضي الله عنه: ولو فرضنا رجلين استويا في نور الإيمان وعمل أحدهما حسنات في نهاره دون الآخر ثم ناما معاً بالليل، فإن نور إيمان الذي عمل يبيت ساطعاً منيراً لامعاً في زيادة، بخلاف الذي لم يعمل، قال رضي الله عنه: وليس في سائر الأعمال أعظم أجراً من الرسالة، فلهذا كان المرسلون عليهم الصلاة والسلام لا يلحقون في الإيمان أبداً.

ثم إنهم عليهم السلام يختلفون بحسب اختلاف أتباعهم قلة وكثرة؛ وليس في سائر

المرسلين من يبلغ نبينا ﷺ في كثرة الأتباع، فكان أجره عليه السلام فوق أجور المرسلين، فعظم نور إيمانه ﷺ حتى بلغ إلى نهاية لا تلحق ولا تكيف، فلزم أن سكون الروح في ذوات المرسلين ليس كسكونها في ذوات غيرهم فهذا السكون الخاص هو الذي جعلناه جزءاً من أجزاء الرسالة، وقد علمت أن سكونها في ذاته عليه الصلاة والسلام فوق سكونها في ذوات سائر المرسلين، فكان هذا الجزء على غاية الكمال في ذاته عليه الصلاة والسلام.

ومما يختلف به أيضاً سكون الروح كون نور الإيمان الذي في ذات صاحبها أقل من جرم الروح أو مساوياً أو أكثر، فسكونها في الذات الذي هو أكثر منها أقوى من سكونها في غيره.

قال رضي الله عنه: وأما الذوات التي ليس فيها نور إيمان أصلاً وهي ذوات الكفار، فإن سكون الروح فيها إنما هو بحسب اتباع القدر والقهر الإلهي وإلا فهي مبغضة لها غاية البغض.

الثاني: العلم الكامل غيباً وشهادة، ونعني بالغيب ما يتعلق بمعرفة الحق سبحانه وعليّ صفاته، ونعني بالشهادة ما يتعلق بالخلق فيدخل فيه معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، والعلوم المتعلقة بأحوال الكونين، والعلوم المتعلقة بأحوال العاقبة، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك، والمعدود هٰهنا جزء هو الكمال في معرفة تلك الأمور فالكمال في ذلك والغاية القصوى فيه جزء من أجزاء الرسالة، فلا بد لكل رسول من أن يكون فيه ذلك وهو في نبينا ﷺ بلغ إلى غاية الغاية والله أعلم.

الثالث: الصدق مع كل أحد في الأقوال والأفعال، بأن تكون الأفعال والأقوال على وفق الرضا والمحبة من الله عز وجل، لأن الخلق أمروا بالاقتداء بالرسل عليهم الصلاة والسلام، فيجب أن يكونوا على الحالة التي وصفنا فهم لا يقولون إلا الحق، ولا ينطقون إلا بالصدق، ولا يمازحون إلا بالجد، وإذا أخبروا بشيء فإنه كائن لا محالة وواقع من غير ريب، وإن دل ظاهر من الظواهر على خلاف شيء من ذلك فهو مؤول بالتأويل الصحيح والحق الصريح، وستقف على شيء من ذلك إن شاء الله تعالى في أثناء الكتاب. وبالجملة فهم عليهم الصلاة والسلام في كلامهم بمثابة أهل الجنة في شهواتهم فكما أن أهل الجنة إذا اشتهوا شيئاً كان لا محالة، فكذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا قالوا شيئاً كان لا محالة والله أعلم.

وهذا المعنى في الصدق زائد على المعنى الذي سبق في قول الحق الذي هو من أجزاء النبوة، فإن الصدق الذي هنا بمثابة من يحاكى بصاحبه ما سبق في القدر فكأنه مسلوب الاختيار بخلاف قول الحق فإنه لم يبلغ إلى هذه الغاية ففي الصدق نور زائد على قول الحق والله أعلم.

الرابع: السكينة والوقار، وهو نور في القلب يوجب لصاحبه الطمأنينة بالله واعتماد العبد عليه وصرف الحول والقوة إليه وعدم مبالاته بغيره عز وجل، حتى أن صاحبه إذا أمره الله عز وجل بتبليغ أم وأراد أهل الأرض مضادته فيه وعداوته عليه فإنه لا يبالي بهم ولا يكترث بشأنهم، بل يراهم بمنزلة العدم ويستوي حاله معهم لو صادقوه وأحبوه على ذلك ونصروه عليه فإنه لا يرى لهم حولاً ولا قوة في المخالفة ولا في الموافقة أما من ليست له سكينة فإنه إذا سمع بمن يقصده ويريد ضرره فإنه يرى لنفسه حولاً وقوة ويرى لعدوه كذلك حولاً وقوة فيتحيل في الوجه الذي يدافع به عدوه وتدخله الوساوس حينئذ، فتارة يقدر كيف يهرب، وتارة كيف النجاة إذا وقع اللقاء ولا يزال كذلك حتى يلقاه عدوه وقلبه معلول وعزمه محلول فلا يجيء منه شيء، فلذلك كانت السكينة جزءاً من أجزاء الرسالة، لأن صاحب الرسالة أمر بعداوة أهل الأرض حتى يرجعوا عن كفرهم وباطلهم، فهو لا يبالي بإقبالهم ولا بإدبارهم ولا بمحبتهم ولا بأعراضهم، وكذلك كانت حالة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن أهل الأرض نصبوا لهم العداوة ورموهم عن قوس واحدة وما أثر ذلك فيهم.

قال رضي الله عنه: وهذه السكينة هي المذكورة في غير ما آية من القرآن العزيز نحو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنزالها في الرسول ﷺ، المراد به إظهارها بمشاهدة آثارها من الثبات ومصابرة العدو الكثير؛ وإنزالها في المؤمنين بإحداثها فيهم من بركته ﷺ ثم انجر الكلام بنا إلى السكينة التي كانت في تابوت بني إسرائيل المذكورة في قوله تعالى:

﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وإلى السكينة المذكورة في حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه، وإلى السكينة المذكورة في غير ذلك من الأحاديث، وكنت علمت ما قال فيها أئمة التفسير رضي الله عنهم، فشرح رضي الله عنه المقام شرح من يرى الأمر عياناً حتى أنجر الكلام إلى كيفية مجيء جبريل عليه السلام النبي في صورة دحية بن خليفة الكلبي، ولولا خشية الملال لأثبت ذلك كله والله أعلم.

الخامس: المشاهدة الكاملة: ولا سبيل إلى شرحها لأنه من وراء العقول؛ كما أنه لا سبيل إلى شرح معرفة الله عز وجل التي هي من أجزاء النبوة.

السادس: أن يموت وهو حي وذلك عبارة عن كون رسول الله ﷺ يشاهد حال حياته كما يشاهده الموتى بعد موتهم، وإنما كان هذا من أجزاء الرسالة لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا بالترغيب والترهيب، وهما لا يكونان إلا ممن يعاين أحوال الآخرة فيرغب

في دار الترغيب، ويخوف من دار العقاب، ويشرح للناس عذاب القبر وكيف عروج الأرواح إلى البرزخ ونحو ذلك مما تطيقه عقولهم.

فقلت فإن الوحي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام بذلك يكفي عن هذه المشاهدة.

فقال رضي الله عنه: الوحي خطاب والخطاب كلام، والكلام لا يكون إلا للعارف بالمعنى، فهذه المشاهدة تكشف له أحوال المعاد ويعرفها معرفة العيان.

وأما الوحي فيقع به الإذن منه عز وجل في تبليغ ما أريد تبليغه مما تطيقه العقول وتقدر الذوات على سماعه.

وأما ما لا تطيقه العقول ويذيب الأكباد سماعه، فالرسول فيه على المشاهدة السابقة ولا وحي فيه، ولو كان الكلام مع غير العارف بالمعاني لاستحال الفهم منه والأفهام لغيره والله أعلم.

السابع: أن يحيا حياة أهل الجنة وذلك عبارة عن كون ذات الرسول عليه الصلاة والسلام تسقى بما تسقى به ذوات أهل الجنة بعد دخولهم إلى الجنة، فذوات الرسل عليهم الصلاة والسلام بمثابة أهل الجنة في الجنة، وذلك أن الدار داران.

دار الفناء: وفيهما قسمان، ما هو نوراني وما هو ظلماني.

ودار البقاء: وفيها قسمان ما هو نوراني وهو الجنة وما هو ظلماني وهو النار، وإذا زال الحجاب أمد كل قسم من دار البقاء ما يوافقه من دار الفناء فيمد النوراني النوراني والظلماني الظلماني ثم زوال الحجاب عمله مختلف ففي حق الرسل عليهم الصلاة والسلام سابق حاصل لهم في هذه الدار. كما سبق في الجزء السادس، وهم عليهم السلام فوق كل نوراني في هذه الدار، فوقع لذواتهم الشريفة الاستمداد من نوارني دار البقاء الذي هو الجنة، وأما غالب الخلق فإن زوال الحجب إنما يكون لهم يوم القيامة وفي ذلك اليوم يقع لهم الاستمداد، فمن كان من أهل الإيمان استمد من أنوار الجنة ومن كان من أهل الطغيان استمد من نار جهنم أعاذنا الله منها بمنه وكرمه آمين.

وبالجملة فالاستمداد موقوف على زوال الحجاب، وقد زال في الدنيا عنهم عليهم الصلاة والسلام فكانوا أحياء كحياة أهل الجنة، قال رضي الله عنه: فهذا بيان الأجزاء السبعة التي هي عدد لكل حرف من الأحرف السبعة التي هي الآدمية. والقبض والبسط، والنبوة والروح، والعلم والرسالة.

قلت: ولنعد هذه الأجزاء فإنه نافع في بيان التفريع الذي وقع السؤال عنه.

فللآدمية كمال حسن الصورة الظاهرة وكمال الحواس الظاهرة ونحوها، وكمال حسن الخلق الباطن، وكمال الحواس الباطنة والذكورية ونزع حظ الشيطان، وكمال العقل.

وللقبض سريان حاسة في الذات تلتذ بالخير وتتألم بالباطل والإنصاف والنفرة عن الضد وامتثال الأمر والميل إلى الجنس بحيث يتكيف به، والقوة الكاملة في الانكماش وعدم الحياء من قول الحق.

وللبسط الفرح الكامل وسكون الخير في الذات، وفتح الحواس الظاهرة وفتح الحواس الباطنة ومقام الرفعة وحسن التجاوز؛ وخفض جناح الذل.

وللنبوة قول الحق والصبر والرحمة والمعرفة بالله عز وجل، والخوف التام منه، وبغض الباطل والعفو.

وللروح الذوق للأنوار والطهارة والتمييز والبصيرة وعدم الغفلة، وقوة السريان وكونها تحس بمؤلمات الأجرام.

وللعلم الحمل للعلوم، وعدم التضييع ومعرفة اللغات ومعرفة العواقب ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، وانحصار الجهات في أمام.

وللرسالة يكون الروح في الذات، سكون المحبة والرضا والقبول والعلم الكامل غيباً وشهادة، والصدق مع كل أحد والسكينة مع الوقار، والمشاهدة الكاملة وكونه يموت وهو حي، وكونه يحيا حياة أهل الجنة.

قال رضي الله عنه: وأما بيان تفريع الاختلافات التلفظية التي بين القراء من الصحابة وغيرهم رضي الله عنهم على الأنوار السبعة الباطنية، فهو أنك قد علمت أن أجزاء الأحرف الباطنية تسعة وأربعون، كما أنه لا يخفى عليك أن الكلام العربي يتألف من تسعة وعشرين حرفاً، فلكل حرف جزء من الأجزاء السابقة.

فللهمزة الامتثال، وهو من أجزاء القبض.

وللباء السكينة، وهي من أجزاء الرسالة.

وللتاء المثناة كمال الحواس الظاهرة وهو من أجزاء الآدمية.

وللثاء المثلثة الإنصاف وهو من أجزاء القبض.

وللجيم الصبر وهو من أجزاء النبوة.

وللحاء الرحمة الكاملة، وهي من أجزاء النبوة.

وللخاء المعجمة ذوق الأنوار وهو من أجزاء الروح.

وللدال المهملة الطهارة وهي من أجزاء الروح.

وللذال المعجمة معرفة اللغات وهي من أجزاء العلم.

وللراء حسن التجاوز وهو من أجزاء البسط.

وللزاي الصدق مع كل أحد وهو من أجزاء الرسالة.

وللطاء المهملة التمييز وهو من أجزاء الروح.

وللظاء المشالة نزع حظ الشيطان، وهو من أجزاء الآدمية.

وللكاف معرفة الله تعالى، وهي من أجزاء النبوة.

وللام العلم الكامل وهو من أجزاء الرسالة.

وللميم الذكورية، وهي من أجزاء الآدمية.

وللنون الفرح الكامل، وهو من أجزاء البسط.

وللصاد المهملة العقل الكامل، وهو من أجزاء الآدمية.

وللضاد المعجمة قول الحق، وهو من أجزاء النبوة.

وللعين المهملة العفو، وهو من أجزاء النبوة.

وللغين المنقوطة كمال الصورة الظاهرة وهو من أجزاء الآدمية.

وللفاء الحمل للعلوم؛ وهو من أجزاء العلم.

وللقاف البصيرة، وهي من أجزاء الروح.

وللسين المهملة خفض جناح الذل، وهو من أجزاء البسط.

وللشين المنقوطة القوة الكاملة من الإنكماش، وهي من أجزاء القبض.

وللهاء النفرة عن الضد، وهي من أجزاء القبض.

وللواو يموت وهو حي، وهو من أجزاء الرسالة.

وللام ألف عدم الغفلة، وهو من أجزاء الروح.

ولـلياء التي هي آخر الحروف الخوف التام من الله عز وجل، وهو من أجزاء النبوة فهذه تسعة وعشرون حرفاً.

فللآدمية منه خمسة، وهي التاء المثناة، والظاء المشالة، والميم والصاد والغين المعجمة فالتاء لها كمال الحواس الظاهرة، والظاء لها نزع حظ الشيطان، والميم الذكورية، والصاد كمال العقل، والغين كمال الصورة الظاهرة.

وبقي من أجزاء الآدمية جزآن.

وللقبض من هذه الحروف أربعة، وهي الهمزة، والثاء المثلثة، والشين المنقوطة، والهاء فللهمزة الامتثال، وللثاء الإنصاف، وللشين قوة الانكماش، وللهاء النفرة عن الضد.

وبقي من أجزاء القبض ثلاثة.

وللبسط من هذه الحروف ثلاثة، وهي الراء والنون، والسين المهملة فللراء حسن التجاوز، وللنون الفرح الكامل، وللسين خفض جناح الذل.

وبقي من أجزاء البسط أربعة.

وللنبوة من هذه الحروف ستة، وهي الجيم والحاء المهملة، والكاف والضاد المنقوطة، والعين المهملة، والياء التي هي آخر الحروف، فللجيم الصبر، وللحاء الرحمة الكاملة، وللكاف معرفة الله عز وجل، وللضاد قول الحق، وللعين العفو، وللياء الخوف التام من الله عز وجل وبقي من أجزاء النبوة جزء واحد.

وللروح من هذه الحروف خمسة: وهي الدال المهملة، والخاء المنقوطة، والطاء المهملة، والقاف ولام الألف، فللدال المهملة الطهارة، وللخاء الذوق للأنوار، وللطاء التمييز، وللقاف البصيرة، وللام الألف عدم الغفلة.

وبقي من أجزاء الروح جزآن.

وللعلم من هذه الحروف حرفان. وهما الذال المعجمة والفاء، فللذال المعجمة معرفة اللغات، وللفاء الحمل للعلوم.

وبقي من أجزاء العلم خمسة.

وللرسالة من هذه الحروف أربعة: وهي الباء الموحدة والزاي واللام والواو فللباء السكينة، وللزاي الصدق مع كل أحد واللام العلم الكامل، وللواو يموت وهو حي.

وبقي من أجزاء الرسالة ثلاثة، فهذه تسعة وعشرون حرفاً موزعة على تسعة وعشرين جزءاً، والباقي من عدد الأجزاء عشرون، فإنك إذا أسقطت تسعة وعشرين عدد الحروف من تسعة وأربعين عدد الأجزاء، بقي عشرون جزءاً، فالتسعة والعشرون المسقطة هي التي سبق منها خمسة للآدمية، وأربعة للقبض، وثلاثة للبسط، وستة للنبوة، وخمسة للروح، واثنان للعلم، وأربعة للرسالة.

فمجموع ذلك تسعة وعشرون، والعشرون الباقية هي التي سبق أنها من الآدمية اثنان، ومن القبض ثلاثة، ومن البسط أربعة، ومن النبوة واحد، ومن الروح اثنان ومن العلم خمسة، ومن الرسالة ثلاثة.

فمجموع ذلك عشرون، ولنعدد هذه العشرين ثم بعد بذلك نشرع في تقسيمها فنقول:

هي كمال الصورة الباطنة وكمال الحواس الباطنة، والحاسة السارية في الذات، وهي التي عبرنا عنها فيما سبق بسريان حاسة في الذات؛ بها تلتذ بالخير، وتتألم بالشر، وربما عبرنا عنها بالقوة السارية، والميل إلى الجنس، وعدم الحياء من قول الحق، وسكون الخير في الذات، وفتح الحواس الظاهرة، وفتح الحواس الباطنة، ومقام الرفعة وبغض الباطن، وقوة السريان، ولا تجسن بمؤلمات الأجرام، وعدم التضييع، وانحصار الجهات، في أمام ومعرفة العواقب ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين، وسكون الروح في الذات سكون الرضا، والمحبة والقبول، ويحيا حياة أهل الجنة، والمشاهدة الكاملة، فالجميع عشرون.

فالأول منها للآدمية؛ والثلاثة بعدها للقبض والأربعة بعدها للبسط، وواحد بعدها للنبوة، والاثنان بعده للروح وخمسة بعدها للعلم، والثلاثة الأخيرة للرسالة.

إذا سمعت هذا فاعلم أن الثمانية عشر من هذه العشرين تتوزع على حروف المد واللين التي هي، الألف والواو والياء، فللألف ستة، وللواو ستة، وللياء ستة وإنما كان هذا العدد لكل واحد لأنه ﷺ مد إلى ستة مراتب، فمد مرة قدر ألف، ومرة قدر الألفين، ومرة قدر ثلاث ألفات، ومرة قدر أربعة ألفات، ومرة قدر خمسة ألفات، ومرة قدر ستة ألفات، وهذا التقدير تقريبي لا تحقيقي.

قلت وكذا الحافظ شيخ المقرئين ابن الجزري رحمه الله عز وجل في النشر: فإنه لما تكلم على مراتب المد قال ما ملخصه:

المرتبة الأولى: القصر وهي قدر ألف ونسب القراءة لابن كثير وأبي جعفر في المنفصل.

المرتبة الثانية: فوق القصر قليلاً، وقدرها ألفان وقيل ألف ونصف ويعبر عنهما بزيادة بعد زيادة، وبالتمكين من غير إشباع وبالزيادة المتوسطة، ونسب القراءة بها إلى الدوري وقالون عند بعضهم.

المرتبة الثالثة: فوقها قليلاً وهي التوسط، وقدر بثلاث ألفات، وقيل بألفين ونصف وقيل بألفين، وقائله يرى أن المرتبة الثانية ألف ونصف ونسب القراءة بها إلى الكسائي.

المرتبة الرابعة: فوقها قليلاً وقدرت بأربع ألفات، وقيل بثلاث ونصف، وقيل بثلاث، ونسب القراءة بها إلى عاصم وابن عامر.

المرتبة الخامسة: فوقها قليلاً وقدرت بخمس ألفات وقيل بأربع ونصف، وقيل بأربع ونسب القراءة بها لحمزة وورش.

المرتبة السادسة: فوقها قليلاً، ويعبر عنها بالتمطيط وقدرت بست ألفات، وذكرها أبو القاسم ونقلها عن جماعة من القراء، ونسب القراءة بها لورش وخص الخامسة بحمزة ونازعه في ذلك ابن الجزري، ثم ذكر ابن الجزري مرتبتين أخريين إحداهما قبل القصر، ويقال لها البتر وهي عبارة عن حذف حروف المد وقطعها من الكلام، ثم نقل عن أبي عمرو الداني تغليط من قال بها، ثم أولها بتأويل حسن وحكم بأنه لا بد من مرتبة القصر وأنه لا يجوز حذف حروف المد، والمرتبة الأخرى ذكرها بين الخامسة والسادسة، وذكر الأصوب فيها أن لا تعد فرجع حاصل كلامه رحمه الله تعالى إلى أن المراتب ست كما قال الشيخ رضي الله عنه.

ثم بسط ابن الجزري رحمه الله تعالى بعد هذا القول بأن هذا التقدير بألفات تقدير ليس معه تحقيق.

قلت ولو خرجت إلى بسط ذلك وذكر دليله لخرجنا عن الغرض، والمسألة لها استعداد من الأصول حيث قال ابن الحاجب منهم رحمه الله تعالى: إن المد ونحوه ليس بتواتر، ومن عرف التواتر وشروطه وهل هي موجودة في مراتب المد، علم غور المسألة، ولنرجع إلى مقصودنا فنقول:

أما الستة التي للألف، فهي كمال الصورة الباطنة، وسكون الروح في الذات سكون الرضا، والحاسة السارية في الذات، وكمال الحواس الباطنة، وبغض الباطل وسكون الخير في الذات.

ثم إن الألف الممدود على قسمين: فتارة يكون في كلمة هي عبارة عن النفس وما يدخل فيها نحو (إنا آمنا) فإن الألف المدية في ضمير وهو كناية عن نفس المتكلم، وتارة يكون في كلمة معناها خارج عن ذات المتكلم، نحو: (من السماء ماء) فإن كان في الكلمة التي هي كناية عن نفس المتكلم فللمرتبة الأولى وهي القصر التي هي قدر ألف كمال الحس الباطني.

وللمرتبة الثانية: وهي قدر ألفين سكون الروح مزيداً على كمال الحس الباطني الذي للأول.

وللمرتبة الثالثة: الحاسة السارية مزيدة على ما للثانية وللأولى.

وللمرتبة الرابعة: كمال الحواس الباطنة مزيداً على ما للمراتب الثلاث.

وللمرتبة الخامسة: بغض الباطل مزيداً على ما للمراتب الأربع.

وللمرتبة السادسة: سكون الخير في الذات مزيداً على ما للمراتب الخمس، ففي المرتبة الأولى جزء، وفي الثاني جزءان، وفي الثالثة ثلاثة. وفي الرابعة أربعة، وفي الخامسة خمسة وفي السادسة ستة.

وإن كان الألف في كلمة خارجة عن الذات، فللمرتبة الأولى كمال الصورة الباطنة، وللثانية هو مع بغض الباطل وللثالثة هو مع سكون الخير في الذات، وللرابعة ذلك مع القوة السارية، وللخامسة ذلك مع كمال الحس الباطني، وللسادسة ذلك مع سكون الروح في الذات سكون الرضا وسر البداءة في الأولى بكمال الحس الباطني.

وفي الثاني بكمال الصورة الباطنية أن الألف لما كان في كلمة النفس كان كمال الحس الباطني مشيراً إلى الباطن.

والآدمية: هي فراش الكمال وعليها تخرج فإذا كان الكلام نفسانياً كان فراشه آدمية نفسانية، وإذا كان الكلام ليس في الأمور النفسانية مثل السماء والماء كانت الآدمية غير نفسانية.

ولا شك أن كمال الصورة الباطنة إنما مرجعة إلى تحسين خلقة الباطن التي ينشأ عنها حسن الصوت بنحو الألفاظ التي من جملتها السماء والماء بخلاف كمال الحس الباطني، فإنه راجع إلى تحسين قوى النفس والله أعلم.

وأما الستة التي للواو: فهي عدم الحياء، والميل إلى الجنس، وفتح الحواس الظاهرة وفتح الحواس الباطنة، ولا نحس بمؤلمات الأجرام، وقوة السريان، فإن كانت الواو الممدودة في أمر خارج عن الذات نحو: (ليسوءوا وجوهكم) كان للمرتبة الأولى التي هي مقدار واو عدم الحياء والميل مع فتح الحواس الظاهرة وللثانية التي هي مقدار واوين ذلك مع الميل إلى الجنس، وللثالثة عدم الحياء والميل مع فتح الحواس الظاهرة وللرابعة عدم الحياء والميل وفتح الحواس الظاهرة مع فتح الحواس الباطنة، وللخامسة عدم الحياء والميل وفتح الحواس الظاهرة وفتح الحواس الباطنة مع عدم الإحساس بمؤلمات الأجرام وللسادسة عدم الحياء والميل وفتح الحواس الظاهرة، وفتح الحواس الباطنة وعدم الإحساس بمؤلمات الأجرام مع قوة السريان، فكل مرتبة تشتمل على ما قبلها مع زيادة ما أضيف إليها وإن كانت الواو في كلمة عن كناية نحو: (قالوا آمنا).

فللمرتبة الأولى فتح الحواس الباطنة، وللثانية زيادة على ذلك فتح الحواس الظاهرة، وللثالثة زيادة على ذلك الميل إلى الجنس، وللرابعة زيادة على ذلك عدم الحياء وللخامسة زيادة على ما سبق عدم الإحساس بتألمات الأجرام، وللسادسة زيادة على ما سبق قوة السريان فكل مرتبة تشتمل على ما قبلها مع زيادة ما أضيف إليها، وسره ظاهر لأن الواوين فيهما الواو الواحدة والواوات الثلاث فيها الواوان، وهكذا في الألفات والياءات.

وأما الستة التي للياء: فعدم التضييع، وانحصار الجهات في أمام، ومعرفة العاقبة ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين، والحياة كحياة أهل الجنة فإن كانت الياء في داخل نحو: (إني ألقي إلي) فللمرتبة الأولى معرفة

العلوم المتعلقة بأحوال الكونين، وللثانية ذلك مع عدم التضييع، وللثالثة ذلك مع معرفة العاقبة، وللرابعة ذلك مع انحصار الجهات، وللخامسة ذلك مع معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، وللسادسة ذلك مع الحياة كحياة أهل الجنة، وإن كانت الياء في خارج نحو: (وفي أنفسكم) فللأولى انحصار الجهات، وللثانية ذلك مع معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين وللثالثة ذلك مع الحياة كحياة أهل الجنة، وللرابعة ذلك مع معرفة العاقبة وللخامسة ذلك مع عدم التضييع، وللسادسة ذلك مع معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين فهذا بيان الثمانية عشر جزءاً، وبيان المراتب التي تتفرع عليها.

وأما الجزءان الباقيان وهما كمال العشرين: فهما للمشاهدة وكمال الرفعة، وعلى أنوارهما وعجيب أسرارهما جاء رسم القرآن العزيز، فالحروف التي ترسم ولا تقرأ كالواو في الصلوة والزكاة والربوا ومشكوة، وفي نحو (سأوريكم ـ وأولئك ـ وأولاء) وكالياء في نحو هديهم وموسى وعيسى وملائه وبأييد كلها لسر من أسرارهما، لكن إن كان مدلول الكلمة أمراً محسوساً مشاهداً في الخارج كموسى وعيسى وملائه ومنوة ومشكوة فالذي فيه سر المشاهدة، وإن كان مدلولها أمراً معنوياً غير محسوس نحو (هديهم ـ وسأوريكم ـ وبأييد) فالذي فيه سر مقام الرفعة.

فقلت: فهل رسم القرآن على الصفة المذكورة صادر من النبي ﷺ أو من ساداتنا الصحابة رضي الله عنهم فقال رضي الله عنه هو صادر منه ﷺ، وهو الذي أمر الكتاب من الصحابة رضي الله عنهم أن يكتبوه على الهيئة المذكورة فما زادوا ولا نقصوا رضي الله عنهم على ما سمعوا من النبي ﷺ.

فقلت: فإن جماعة من العلماء رحمهم الله ترخصوا في أمر الرسم وقالوا إنما هو اصطلاح من الصحابة رضي الله عنهم جروا فيه على ما كانت قريش تكتب عليه في الجاهلية، حتى قال القراء في كتابهم (الربوا) بالواو، وإنما صدر ذلك منهم، لأن قريشاً تعلموا الكتابة من أهل الحيرة وهم ينطقون بالواو في الربوا فكتبوا على وفق منطقهم، وأما قريش فإنهم ينطقون بالألف فكتابتهم له بالواو جرى على منطق غيرهم وتقليد لهم، وحتى قال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب الانتصار: إن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كان.

ولننقل كلامه بلفظه وإن كان فيه طول.

قال رحمه الله تعالى حيث تكلم على قول عثمان: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها ما نصه: ومما يسوغ في تأويل قول عثمان: أرى فيه لحناً ستقيمه العرب بألسنتها، هو أن المقصود منه ما وجد فيه من حذف الكاتب واختصاره في مواضع وزيادة

أحرف في مواضع أخرى وإن كان الكاتب لو كان كتبه على مخرج اللفظ وصورته لكان أحق وأولى وأقطع للشبهة عمن ليس الكلام باللسان طبعاً له، وقوله ستقيمه العرب بألسنتها معناه أنها لا تلتفت إلى المرسوم المكتوب وإنما تتكلم به على مخرج اللفظ وصورته، فمن هذه الأحرف كتابتهم الصلوة والزكوة والحيوة بالواو على غير مخرج اللفظ، وكذلك إسمعيل وإسحق وإبراهيم والرحمٰن وملك مما حذفوا فيه الألف على غير مخرج اللفظ، وكذلك زادوا الألف في نحو: قالوا وخرجوا وكفروا وأمثال ذلك والألف غير ثابتة في اللفظ، فرأى عثمان رضي الله عنه أن كتب هذه الكلمات على مخرج اللفظ أولى وأحق، وأن من تلاها على ما كتبت به كان لاحناً مخطئاً، غير أنه علم وغيره من الصحابة أن العرب لا تتلوها على مطابقة الرسم، فلذلك قال ستقيمه العرب.

ومما يدل على صحة هذا التأويل ما رواه أبو عبيد عن حجاج عن هارون بن موسى عن الزبير بن حريث عن عكرمة قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضي الله عنه، فوجد فيها لحناً فقال: لا تغيروه فإن العرب ستقيمه، ولو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف، وقصد بذلك ـ والله أعلم ـ أن ثقيفاً كان أبصر بالهجاء وأشد تمسكاً بالكتابة على مخارج الألفاظ وأعلم بذلك من غيرها وأن هذيلاً تستعمل الهمز كثيراً في كلامها وتظهره وتأتي به مبيناً، والهمز إذا ظهر وبان في لفظ المملي سمعه الكاتب وصوره على مخرج اللفظ، وكان القارىء بعد ذلك بالخيار إن شاء لين الهمز وأسقطه على لغة قريش، أو حققه على لغة هذيل، ولو لم يكن التأويل ما ذكرنا لم يكن معنى لذكر ثقيف وهذيل، فثبت أن اللحن الذي أراده عثمان هو ما وقع من الكاتب من ترك مراعاة اللفظ وإنما لم يغيره وأمرهم أن لا يغيروه، لأنه رأى ذلك قد اتسع وكثر في المصاحف كثرة يطول تتبعها، ومحتاج معها إلى إبطال النسخ التي رفعت إليه واستئناف غيرها، وفي ذلك صعوبة ومشقة عظيمة، ويصعب ذلك أيضاً على النفر الذين عينهم لكتابة المصاحف لأنهم لم يعتادوا الكتابة إلا بذلك الوجه أو خاف نفورهم لما فيه من الطعن عليهم في كتابتهم والقدح فيما رسموه، فأمضاه على ما فيه لعلمه بأن العرب لا تنطق به على ما رسم أبداً.

فإن قيل على هذا الجواب فقد صرتم إلى أنه وقع في خط المصحف ورسمه خطأ، وما ليس بصواب وما كان غيره أولى منه، وأن القوم أجازوا ذلك وأمضوه وسوغوه وذلك إجماع منهم على خطأ وإقرار لما ليس بصواب.

قلت: لا يلزم ما قلتم، لأن الله تعالى إنما فرض على الأمة الوصية في القرآن وألفاظه فلا يزيدون حرفاً ولا ينقصونه ولا يقدمونه ولا يؤخرونه ويتلونه على نحو ما يتلى عليهم. وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا

يدرك إلا بالسمع والتدقيق، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وخطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمرهم برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته ولذلك اختلفت خطوط المصاحف. فمنهم من كان يكتب الكلمة على مطابقة مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف وأن تعوّج الألفات، وأن يكتب أيضاً على غير هذه الوجوه، وساغ أن يكتب الكاتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتبه بالهجاء والخطوط المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك، وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصور؛ وأن الناس قد أجازوا ذلك كله وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص كما أخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته، وتصويب الكاتب به على أيّ صورة كان.

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، وأنى له بذلك؟ اهـ. كلام القاضي أبي بكر الباقلاني ملخصاً.

قال رضي الله عنه: ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن العزيز ولا شعرة واحدة وإنما هو بتوقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الأحرف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول وما كانت العرب في جاهليتها ولا أهل الإيمان من سائر الأمم في أديانهم يعرفون ذلك ولا يهتدون بعقولهم إلى شيء منه وهو سر من أسراره خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية فلا يوجد شبه ذلك الرسم لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في غيرهما من الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز، وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في مائة دون فئة، وإلى سر زيادة الياء في بأييد من قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾.

أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) من قوله تعالى في الحج:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

وعدم زيادتها في سبأ من قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

وإلى سر زيادتها في قوله تعالى:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

وحذفها من قوله تعالى:

﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾.

وإلى سر زيادتها في قوله تعالى:

﴿أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾.

وإسقاطها من قوله تعالى:

﴿فأُولَئِكَ عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾.

وإلى سر زيادتها في (آمنوا وكفروا وخرجوا) وإسقاطها من (باؤ وجاؤ، وتبوؤ وإن فاؤ) أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف الألف في بعض الكلمات المتشابهة دون بعض فحذفت قرآنا في يوسف، والزخرف، وإثباته في سائر المواضع، وكذا إثبات الألف بعد الواو في سموات فصلت وحذفها في غيرها، وإثبات الميعاد مطلقاً وحذفه في الأنفال وإثبات سراجاً حيثما كان، وحذفه في الفرقان، وكذا في إطلاق بعض التاءات وربطها نحو رحمة، ونعمة، وقرة، وشجرة، فإنها في بعض المواضع كتبت بالتاء، وفي مواضع أخر كتبت بالهاء، وكذا الصلاة والحياة في بعض المواضع كتبت بالواو فيهما نحو:

﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ - وَالحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَعَلَى حَيَوٰةٍ﴾.

وفي بعضها بالألف نحو:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، ﴿وَأَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر وكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية، وإنما خفيت على الناس لأنها من الأسرار الباطنية التي لا تدرك إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطعة في أوائل السور فلها أسرار عظيمة ومعان كثيرة، حتى أن جميع ما في السورة التي في أولها تلك الحروف من المعاني والأسرار كلها مندرج تحت تلك الحروف، وفجميع ما في سورة (صٓ) مندرج تحت حرف (ص) وجميع ما في (قٓ) و(نٓ) و(يٓس) و(طه) وغير ذلك مندرج في هذه الرموز، وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها ولا

يدركون شيئاً من المعاني الإلٰهية التي أشير إليها، حتى ظن جماعة من الناس أنها أسماء للسور، وظنت جماعة أخرى أنها أشير بها إلى أعداد معلومة وظنت جماعة أخرى أنها من الحروف المهملة التي ليس وراءها معان، وكلهم حجبوا الإطلاع على المعاني الباهرة العجيبة التي فيها، فكذا أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف.

وأما قول من قال إن الصحابة رضي الله عنهم الذين اصطلحوا على الرسم المذكور فلا يخفي ما في كلامه، لأن القرآن العزيز كتب في زمانه ﷺ، وبين يديه على هيئة من الهيئات، وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم: إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها، فإن كان عينها بطل الاصطلاح لأنه اختراع وابتداع وسبقية التوقيت تنافي ذلك وتوجب الاتباع، فإن نسب اتباعهم حينئذ للاصطلاح كان بمنزلة من قال: إن الصحابة اصطلحوا على أن الصلوات خمس، وعلى أن عدد الركعات مثلاً أربع وإن كان غير ذلك، فكيف يكون النبي ﷺ كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسي مثلاً والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى؟ فلا يصح ذلك لوجهين:

أحدهما: ما فيه من نسبة الصحابة وأعلام الهدي رضي الله عنهم إلى المخالفة وذلك محال.

ثانيهما: أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز أن يزاد في القرآن حرف ولا أن ينقص منه حرف، والكتابة أحد الوجودات الأربع، وما بين الدفتين كلام الله، فإذا كان النبي ﷺ كتب على هيئة فإذا أثبت الرحمٰن والعالمين ولم يزد الألف في مائة ولا في كفروا وأخرجوا، ولا الياء في ﴿بأييد﴾ ولا في ﴿أفائن مت﴾ ونحو ذلك مما ذكرناه فيما سبق، وما لم نذكره والصحابة رضي الله عنهم عاكسوه في ذلك وخالفوه لزم أنهم رضي الله عنهم وحاشاهم من ذلك تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان، ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على أنه لا يحمل لأحد فعله ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين لأنا مهما جوّزنا أن تكون فيه حروف زائدة على ما في علم النبي ﷺ وعلى ما عنده وأنها ليست بوحي ولا من عند الله ولم نعلمها بعينها شككنا في الجميع، ولئن جوّزنا لصحابي أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحي، لزمنا أن نجوز لصاحبي آخر نقصان حرف من الوحي، إذ لا فرق بينهما، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية، وإنما يصح أن يدعي الاصطلاح من الصحابة رضوان الله عليهم لو كانت كتابة القرآن العزيز إنما حدثت في عصرهم بعد وفاة النبي ﷺ، فثبت أن الرسم توفيقي لا اصطلاحي، وأن النبي ﷺ هو الآمر بكتابته على الهيئة المعروفة. فقلت: إنه عليه الصلاة والسلام كان لا يعرف الكتابة، وقد قال تعالى في وصفه:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

فقال رضي الله عنه: كان ﷺ لا يعرفها بالاصطلاح والتعلم من الناس، وأما من جهة الفتح الرباني فيعلمها ويعلم أكثر منها، وكيف لا والأولياء الأميون من أمته الشريفة المفتوح عليهم يعرفون خطوط الأمم والأجيال من لدن آدم عليه السلام وأقلام سائر الألسن وذلك ببركة نوره ﷺ، فكيف به عليه الصلاة والسلام.

قال رضي الله عنه: ومن فتح الله عليه ونظر في أشكال الرسم التي في ألواح القرآن ثم نظر في أشكال الكتابة التي في اللوح المحفوظ، وجد بينهما تشابهاً كثيراً، وعاين زيادة الألف في اللوح المحفوظ في كفروا أو آمنوا، وغير ذلك مما سبق، وعلم أسراراً في ذلك كله، وعلم أن تلك الأسرار من وراء العقول.

قلت: وقد سمعت من شيخنا رضي الله عنه وهو من الأميين أسرار جميع ما سبق في كفروا ومائة ونحوهما وقابلناه مع ما ذكره أئمة الرسم وفحوله فوجدنا الجد والله فيما قال الشيخ نفعنا الله به، ولعل الله يوفقنا بمنه وكرمه حتى نملي فيه مجموعاً، وما قنعت عقولنا قط بما قاله أئمة الرسم مع أنهم إنما تكلموا على توجيه النزر القليل منه وما زلنا نستشكل أمر الرسم ونسبته إلى الصحابة رضي الله عنهم، حتى طرح الشيخ رحمه الله عنا بكلامه هذا الإشكال فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

ثم إني سألته رضي الله عنه على سبيل الامتحان وأنا أعلم أنه لا يعجز عن الجواب، مع كونه لا يحفظ حزب (سبح) عن الزائد في بأييد، هل الياء الأولى أو الياء الثانية، فقال رضي الله عنه: الياء الثانية، فشككته، فجزم بأنها الثانية، وكذا قال أبو عبد الله الخراز وآخر الياءين من ﴿بأييد﴾ للفرق بينه وبين الأيد، وعن الزائد في ﴿ملائه﴾ هل هو الألف المعانقة أو الياء؟ فقال رضي الله عنه: هي الألف، وعن أمور أخر من هذا الباب وعن أسرارها فأجاب بما هو الحق كأنه من المهرة في حفظ القرآن العزيز.

ثم قلت: هذا الذي ذكرتم من كون الرسم توقيفياً للخصم أن يقول سلمنا، ولكن لم لا يجوز أن يكتب القرآن العزيز على الرسم القياسي ويكتب بإثبات الألف وبحذف الزوائد، وأي شيء يضر في ذلك؟

فقال رضي الله عنه: للكلام القديم أسرار، ولكتابته دخل في تلك الأسرار، فمن كتبه بالكتابة التوقيفية فقد أداه بجميع أسراره، ومن كتبه بالكتابة القياسية فقد نقص من أسراره، ويكون الذي كتبه كلمات من تلقاء نفسه لا الكلمات المنزلة.

ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً فقال: لو فرضنا رجلاً كتب كان التي هي من الأفعال الناقصة منقلبة بالواو هكذا كوان، وقصد بتلك الكتابة سراً اطلع عليه بعض الناس دون بعض، فجاء من لم يطلع على السر فظن أن كتبها بالواو لا يترتب عليه سر من جهة المعنى، فقال أنا أكتبها بالألف لأن المعنى واحد، والأصل في تأديته هو الألف وأنا أكتبها

بالألف، فيقول له من اطلع على السر لقد نقصت من السر وكتبت كان أخرى لا التي قصدها الرجل، فإنه إنما كتبها بالواو وجعل الألف فوقها ليفيد السكون والتكوين، فكأنه كتب في كوان المنقلبة كان وكون، أي كان زيد وكونه الله عز وجل وهكذا الحال فيمن كتب الصلاة والزكاة والحياة بغير واو، فإنه قد نقص من أسرارها.

فقلت: فإن كان الرسم توقيفياً بوحي من النبي ﷺ وأنه كألفاظ القرآن فلم لم ينقل تواتراً حتى ترفع فيه الريبة وتطمئن القلوب به كما في ألفاظ القرآن؟ فإن ما من حرف حرّف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب، وأما الرسم فإنه إنما نقل بالآحاد كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه، ومن نقله بالآحاد وقع الاضطراب، بين النقلة في كثير منه، وكيف تضيع الأمة شيئاً من الوحي؟

فقال رضي الله عنه: ما ضيعت الأمة شيئاً من الوحي، والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسماً، فأهل العرفان والشهود والعيان حفظوا ألفاظه ورسمه ولم يضيعوا منهما شعرة واحدة وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذي هو فرق التواتر، وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم في بعض حروف الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضيعة، كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه، قلت: هذا الذي قاله الشيخ رضي الله عنه في غاية الحسن ونهاية العرفان.

وبقي من كلامه رضي الله عنه أسرار وأنوار لم نكتبها مخافة التطويل.

وأما الحديث الذي نقله عن عثمان «وأن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها» فهو حديث مرسل، ومع كونه مرسلاً ففي إسناده اضطراب يعود بالجهالة على بعض رجال إسناده، والقاضي أبو بكر رحمه الله ممن تولى بنفسه رد ذلك الحديث في الكتاب السابق، كما رده جماعة من أهل العلم كالحافظ أبي عمرو الداني المقري رحمه الله تعالى في المقنع الموضوع في الرسم ونصفه في آخر المقنع.

فإن قال قائل: فما تقول في الخبر الذي رويتموه عن يحيى بن يعمر وعكرمة مولى ابن عباس عن عثمان رحمه الله أن المصاحف لما نسخت عرضت عليه فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال «اتركوها فإن العرب ستقيمها أو ستعرفها بلسانها» إذ ظاهره يدل على خطأ في الرسم.

قلت: هذا الخبر لا تقوم بمثله عندنا حجة ولا يصح به دليل من جهتين: إحداهما أنه مع تخليط في إسناده واضطراب في ألفاظه مرسل، لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان رحمه الله تعالى شيئاً ولا رأياه. وأيضاً فإن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان، لما فيه من الطعن عليه مع محله من الدين ومكانه من الإسلام وشدة اجتهاده في بذل النصيحة واهتمامه له، فيما فيه إصلاح للأمة فغير ممكن أن يتولى جمع المصحف مع سائر الصحابة

الأخيار الأتقياء الأبرار نظراً لهم، ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحناً وخطأً يتولى تغييره من يأتي بعده ممن لا يشك أنه لا يدرك مداه ولا يبلغ غايته، هذا مما لا يجوز لقائل أن يقوله ولا يحل لمعتقد أن يعتقده اهـ. الغرض منه.

ثم أورد بسنده بعد ذلك طريق يحيى بن يعمر وطريق عكرمة فانظرهما فيه، وانظر كلام الانتصار فإنه أبسط منه في الرد.

وقال أبو القاسم الشاطبي رحمه الله في العقيلة:

وَمَنْ رَوَى سَتُقِيمُ الْعَرَبُ أَلْسُنَهَا   لَحْناً بِهِ قَوْلَ عُثْمَانٍ فَمَا شُهِرَا

قال الجعبري رحمه الله في شرحها بعد أن ساق الحديث، ثم أجاب عنه المصنف بما أجاب به في المقنع بأنه غير صحيح لاضطراب سنده وانقطاعه، قلت ولاضطراب ألفاظه لأن قوله أحسنتم وأجملتم أرى فيه شيئاً من لحن إلى آخره مدح، فكيف يمدحهم على الإساءة، ولأن غرضه رجوعهم إليه، فلو وقف صحته عليهم لزم الدور، ولأن المصحف إن أراد به الجنس لزم منه ما لزم أو الفرد فما رأيناها تختلف اختلاف لحن، فدل على عدمها في كل فرد منها، ولأن الفصاحة والكتابة نشأت في قريش، تغيرها فرع عليها فكيف يجعل الفرع أصلاً؟ هذا خلف هذا كلام الجعبري رحمه الله تعالى وإن كان الحديث في نفسه مردوداً هان الأمر. ولله در الإمام أبي الحسن القابسي رحمه الله حيث اعترض على الأستاذ أبي بكر بن فورك رحمه الله حيث تصدى للجواب عن أحاديث مشكلة وهي باطلة.

قال القابسي: لا يتكلف الجواب عن الحديث حتى يكون صحيحاً، والباطل يكفي في رده كونه باطلاً.

وأما قول القاضي أبي بكر رحمه الله ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع ولا في القياس ما يدل على وجوب اتباع المرسوم.

فجوابه يعلم مما سبق لأنه بنى على أنه اصطلاحي وحيث كان توقيفياً فدليل الوجوب من الكتاب قوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وإذا كان رسم آخر لا يوفي بالمعنى الذي قصده الشارع تعين رسمه بالرسم الذي أتى به الرسول فيجب اتباعه، ويكون الأمر في قوله: (فخذوه) للوجوب بالنسبة لمسألتنا حيث لم يوجد رسم يوفي توفيته.

ومن السنة فعله عليه الصلاة والسلام، الذي هو تقريره، وقوله الذي هو أمره لهم، فقد أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعلومة، فإن زعم زاعم أنه لم يأمرهم بذلك فلا ينازع في

تقريره عليه الصلاة والسلام وتقريره على أمر لا يسد غيره مسده يوجب ذلك ويصير لازماً، ولم تزل نصوص أئمة الاجتهاد طافحة بذلك، ثم الإمام مالك، وأحمد بن حنبل وغيرهما من أهل الاجتهاد.

قال الحافظ أبو عمرو الداني في كتاب المقنع: حدثنا أبو محمد عبد الملك بن الحسن، أن عبد العزيز بن علي حدثهم، قال: حدثنا المقدام بن تليد قال: حدثنا عبد الله بن عبد الحكم قال: قال أشهب: سئل مالك رحمه الله تعالى، فقيل له أرأيت من استكتب مصحفاً اليوم أترى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك ولكن يكتب على الكتابة الأولى، قال أبو عمرو: ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة وقال في موضع آخر: حدثنا أبو محمد عبد الملك بن الحسن، قال: حدثنا عبد العزيز بن علي قال: حدثنا المقدام بن تليد قال: حدثنا عبد الله بن عبد الحكم قال، سئل مالك عن الحروف التي تكون في القرآن مثل الواو والألف، أترى أن تغير من المصحف إذا وجدت فيه كذلك؟ قال لا، قال أبو عمرو يعني الواو واولف الزائدتين في الرسم لمعنى مثل الواو في أولئك وأولى وأولات وشبهه ومثل الألف في لن ندعوا وقتلوا ولا أوضعوا ولا أذبحنه ومائة ومائتين ولا تيأسوا ويبدؤا وتفتؤا ويعبؤا وشبهه، وكذا الياء في من نبأى المرسلين وملائه وشبهه اهـ.

وقال الجعبري في شرح العقيلة ما نقله أبو عمرو عن مالك هو مذهب الأئمة الأربعة، وإنما خص مالك لأنه صاحب فتياه ومستندهم مستند الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم اهـ.

والكلام في هذا طويل ولو تتبعناه لم يسعه لا كراسة ولا كراستان وذلك يخرجنا عن الغرض الذي هو جمع كلام الشيخ رضي الله عنه وحده، قال رضي الله عنه: فهذا بيان رجوع التسعة والعشرين، ومراتب المدمع كيفية الرسم إلى التسعة والأربعين جزءاً، وبيان ما لكل حرف من تلك الأجزاء.

وأما وجه رجوع الحركات الثلاث التي هي الرفع والنصب والخفض ورجوع الجزم إليها، فاعلم أن الرفع والجزم من القبض، والنصب من الرسالة، والخفض من الآدمية فحرف القبض إن كان مرفوعاً أو مجزوماً ففيه قبضان، وإن كان الحرف لغير القبض لأنه ينسب إليه، ورفعه وجزمه ينسبان للقبض، مثلاً الثاء والشين والهاء من حروف القبض ورفعها وجزمها من القبض أيضاً، والباء والتاء المثناة مثلاً من حروف غير القبض ورفعهما وجزمهما من القبض، وكذلك حروف الرسالة إذا كانت منصوبة ففيها جزآن من الرسالة، جزء للحرف وجزء للنصب، وكذا حروف الآدمية إذا كانت محفوظة ففيها جزآن من الآدمية جزء للحرف وجزء للخفض.

وأما حروف النبوة، وحروف البسط، وحروف الروح، وحروف العلم، فحركاتها ليس لها منها شيء، لأن رفعها للقبض ونصبها للرسالة وخفضها للآدمية وجزمها للقبض فتبين أن القبض والرسالة والآدمية تدخل على الأربعة الباقية، فالرفع الذي للقبض ينقسم إلى سبعة أقسام بحسب أجزاء القبض، فالرفع الذي في هدى، وللمتقين، ويؤمنون، والحمد لله، ونعبد ونستعين كله من الحاسة السارية في الذات التي تتألم الذات بسببها بالشر وتلتذ بالخير، والرفع الذي في كفروا والكافرون هم الظالمون من النفرة عن الضد، والرفع الذي في أنزل ونحوه من الامتثال، والرفع الذي في أولئك حيثما وقع من الميل إلى الجنس، والرفع الذي في خرجوا وأخرجوهم وتنذرهم الذي على التاء كله من قوة الانكماش، والرفع الذي في:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ونحوه مما هو حق ولا منازع فيه من الإنصاف، والرفع الذي في قال الله ونحوه من عدم الحياء من قول الحق.

وأما الجزم أيضاً فإنه ينقسم إلى سبعة أقسام، فالجزم الذي في الحمد من الحاسة السارية، والذي في العالمين من الأنصاف، والذي في الرحمٰن من امتثال الأمر، والذي في نعبد من الانكماش، والذي في اهدنا من النفرة عن الضد، والذي في غير من عدم الحياء من قول الحق، والجزم الذي في نحو ربهم من الميل إلى الجنس.

وأما النصب فإنه ينقسم أيضاً إلى سبعة أقسام، بحسب أجزاء الرسالة فالنصف الذي في الحمد الذي فوق الهمزة من المشاهدة، والنصب الذي فوق الحاء من السكينة، والنصب الذي فوق النون من العالمين من الحياة كحياة أهل الجنة، والنصب الذي فوق الميم من:

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وفوق الياء من يوم الدين من الصدق مع كل أحد، والنصب الذي فوق الكاف من إياك والذي فوق العين واللام من عليهم من العلم الكامل، والنصب الذي فوق التاء من نستعين وفوق طاء الصراط من سكون الروح في الذات سكون الرضا، والنصب الذي فوق الكاف من أولئك وعبدك وعبادك من الجزء الذي تقول فيه يموت وهو حي.

وأما الخفض فإنه ينقسم أيضاً إلى سبعة أقسام بحسب أجزاء الآدمية، فالخفض في لله وكل لام مجرورة في الأول أو في الوسط من كمال الحس الباطني، والخفض الذي في الهاء من لله من الذكورية، والخفض الذي تحت الباء من رب من العقل الكامل، والخفض الذي تحت الميم من العالمين من كمال الحواس الظاهرة، والخفض الذي تحت النون من الرحمٰن من كمال السورة الباطنة، والخفض الذي تحت الكاف من ملك من كمال الصورة الظاهرة، والخفض الذي تحت النون من الدين من نزع حظ الشيطان.

إذا فهمت هذا وعلمت أن جميع الحروف والحركات ومراتب المد لا يخرج شيء منها عن أجزاء الأنوار السبعة الباطنية علمت وجه الحديث وفهمت معنى قوله ﷺ:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

وظهر لك ظهوراً بيناً لا شك فيه أن الاختلافات التلفظية التي بين أئمة القراء لا تخرج عن المعنى الشريف والسر اللطيف المقصود من الحديث الكريم، ولنبين ذلك في سورة أم القرآن حتى يظهر عياناً فنقول: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله﴾.

فيه جزء من الآدمية في الميم لأنها للذكورية وهي من أجزاء الآدمية، وجزء آخر في الخفض الذي تحت الهاء فإنه للذكورية أيضاً، وجزء آخر في الخفض الذي تحت اللام فإنه لكمال الحس الباطني، ففيه ثلاثة أجزاء من الآدمية وفيه جزء من النبوة في الحاء فإنها للرحمة وهي من أجزاء النبوة، وجزء من الروح في الدال فإنه للطهارة وهي من أجزاء الروح، وفيه خمسة أجزاء من القبض بين الحروف والحركات والجزم، فالهمزة للامتثال وهو من أجزاء القبض، والجزم الذي فوق اللام من الحاسة السارية وهي من أجزاء القبض، والجزم الذي فوق الميم من الحاسة السارية أيضاً، والرفع الذي فوق الدال من الحاسة السارية أيضاً، وكل رفع في الفاتحة فهو من الحاسة السارية، والهاء للنفرة عن الضد وهي من أجزاء القبض وفيه ستة أجزاء من الرسالة ففتحة الهمزة للمشاهدة، واللام للعلم الكامل وفتحة الحاء من السكينة، واللام المكسورة للعلم الكامل، واللام المشددة للعلم الكامل أيضاً. وشدتها مع الفتحة للمشاهدة وكل شدة مفتوحة في الفاتحة فإنها للمشاهدة، فتبين أن فيها ثلاثة أجزاء من الآدمية، وجزء من النبوة وجزء من الروح، وخمسة أجزاء من القبض، وستة من الرسالة، ففي الهمزة قبض من جهة الحرف ورسالة من حركته، وفي اللام عكسه رسالة من الحرف وقبض من جزمه، وفي الحاء نبوة من الحروف ورسالة من حركته، وفي الميم آدمية من حرفه وقبض من جزمه، وفي الدال روح من حرفه وقبض من حركته وفي اللام الأولى رسالة من حرفه وآدمية من حركته، وفي اللام الثانية المشددة رسالة من حرفه ورسالة من حركته، وفي الهاء قبض من حرفه وآدمية من حركته، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فيه أربعة أجزاء من الآدمية، فالكسرة التي تحت الباء من العقل الكامل وهو من أجزاء الآدمية، والألف الهوائي الذي بعد العين من كمال الحواس الظاهرة والميم من الذكورية وكسرتها من كمال الحواس الظاهرة والجميع من الآدمية وفيه جزءان من القبض، فالهمزة الوصلية من الامتثال، وسكون اللام من أل من الإنصاف، وهما من القبض وفيه جزءان من البسط، فالراء من حسن التجاوز، والنون من الفرح الكامل، وهما من البسط وفيه جزء النبوة، لأن العين من العفو وهو من النبوة، وفيه ثمانية أجزاء من الرسالة ففتحة الراء من السكينة، والباء من السكينة أيضاً، وفتحة الهمزة من المشاهدة واللام من العلم الكامل،

وفتحة العين من السكينة، واللام من العلم الكامل وفتحته من المشاهدة، وفتحة النون من يحيا حياة أهل الجنة والجميع من أجزاء الرسالة، وفيه جزء واحد من العلم، وهو الياء الممدودة بعد الميم فإنها من انحصار الجهات في إمام وهو من أجزاء العلم، ففي الراء بسط من الحرف ورسالة من الحركة، وفي الباء رسالة من الحرف وآدمية من الحركة، وفي الهمزة قبض من الحرف ورسالة من الحركة، وفي اللام المسكنة رسالة من الحرف وقبض من السكون، وفي العين نبوة من الحرف ورسالة من حركته وفي الألف آدمية، وفي اللام رسالة من الحرف ورسالة من حركته، وفي الميم آدمية من الحرف، وآدمية من حركته. وفي الياء علم وفي النون بسط من الحرف ورسالة من حركته، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

فيه خمسة أجزاء من الآدمية، فالميم للذكورية وكسرة النون لكمال الصورة الباطنة وكسرة الحاء لكمال الحس الظاهر، والميم للذكورية وكسرتها لكمال العقل، والجميع من أجزاء الآدمية.

وفيه خمسة أجزاء أيضاً من القبض، فالهمزة للامتثال، وسكون اللام للحاسة السارية، وسكون الحاء لامتثال قول الحق، والهمزة للامتثال أيضاً، وسكون اللام للحاسة السارية، والجميع من أجزاء القبض.

وفيه ثلاثة أجزاء من البسط، فالراء من حسن التجاوز، والنون للفرح الكامل، والراء الثانية لحسن التجاوز وفيه جزءان من النبوة لأن الحاء الأولى والثاني كلاهما للرحمة الكاملة وهي من أجزاء النبوة وفيه من أجزاء الرسالة سبعة، فتحة الهمزة للمشاهدة، واللام للعلم الكامل، وفتحة الراء المشددة للمشاهدة، وفتحة الميم من الصدق مع كل أحد، وفتحة الهمزة للمشاهدة، واللام للعلم الكامل، وفتحة الراء المشددة للمشاهدة، وإذا ألقيت اللامين لإدغامهما فيما بعدهما كانت خمسة وسقط جزءان من الرسالة ومن القبض، وفيه من أجزاء العلم جزء واحد وهو الياء الممدودة فإنها لانحصار الجهات في إمام، وأما الألف الهوائي الذي بعد الميم فإنه لكمال الحواس الظاهرة فيزاد على الخمسة السابقة للآدمية، وتنزيل هذا على الحرف وحركته يعلم مما سبق فلا وجه لإعادته في كل مرة، وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

فيه من أجزاء الآدمية سبعة، فالميم للذكورية، وكسرة اللام لكمال الحس الباطني، وكسرة الكاف لكمال الصورة الظاهرة والميم للذكورية وكسرتها لكمال الحواس الظاهرة وكسرة الدال لكمال الصورة الباطنة، وكسرة النون لنزع حظ الشيطان هذا على قراءة القصر: وأما على قراءة المد وزيادة الألف بعد الميم فتكون أجزاء الآدمية ثمانية، لأن الألف المدي الذي هو قدر ألف لكمال الحواس الباطنة إذا كان في خارج عن ذات المتكلم.

وفيه من القبض جزء واحد وهو سكون الواو، وهو للحاسة السارية واللام المدغمة بلغي سكونها.

وفيه أيضاً جزء واحد من البسط وهو النون، فإنه للفرح الكامل، وفيه من النبوة جزآن، لأن الكاف لمعرفة الله تعالى، والياء للخوف التام من الله تعالى، وهما من أجزاء النبوة.

وفيه جزء من الروح وهو الدال فإنه للطهارة وفيه ثلاثة أجزاء من الرسالة، فاللام للعلم الكامل، والهمزة من أل ولامها ملغيان وفتحة الميم من الصدق وفتحة الياء كذلك من الصدق وفيه جزآن من العلم، لأن الواو من الجزء الذي نعبر عنه بقولنا يموت وهو حي والياء الممدودة لانحصار الجهات في أمام، وقوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فيه من أجزاء الآدمية ستة: كسرة الهمزة فإنها لكمال العقل، والألف المدية لكمال الحواس الظاهرة، وكسرة الهمزة من وإياك والألف المدية كما سبق، والتاء لكمال الحواس الظاهرة، وكسرة العين لكمال الحس الباطني.

وفيه من أجزاء القبض ستة: الهمزة في أوله للامتثال، وسكون العين للقوة الكاملة في الانكماش، وضم الباء للحاسة السارية، وضم الدال كذلك وسكون السين للامتثال وضم النون للحاسة السارية.

وفيه من أجزاء البسط أربعة: النونات الثلاث للفرح الكامل، والسين لخفض جناح الذل.

وفيه من أجزاء النبوة ستة: الياء فإنها للخوف التام والكاف لمعرفة الله تعالى والعين للعفو وهكذا الياء والكاف والعين من وإياك نستعين، فإنها على الحكم السابق.

وفيه من أجزاء الروح جزء واحد وهو الدال فإنه للطهارة.

وفيه من أجزاء الرسالة عشرة: فتحة الياء للصدق مع كل أحد، وفتحة الكاف للعلم الكامل، وفتحة النون ليحيا حياة أهل الجنة، والياء للسكينة والواو ليموت وهو حي، وفتحة للمشاهدة وفتحة الياء وفتحة الكاف وفتحة النون على الحكم السابق، وفتحة الياء لسكون الروح في الذات سكون الرضا.

وفيه من أجزاء العلم جزء واحد الياء المدية فإنها هنا لمعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين، وقوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

فيه من أجزاء الآدمية تسعة: كسرة الهمزة لكمال العقل، وكسرة الدال لكمال الصورة الباطنة، والصاد لكمال العقل، وكسرته لكمال الحس الباطني، والألف المدية لكمال الحس الباطني أيضاً، والميم للذكورية، والتاء لكمال الحواس الظاهرة، وكسرة القاف لكمال الحواس الظاهرة أيضاً والميم للذكورية.

وفيه من أجزاء القبض ثمانية: الهمزة للامتثال، والهاء للنفرة عن الضد وسكونها كذلك للنفرة، والهمزة الوصلية في الصراط للامتثال وكذلك في المستقيم، وسكون اللام للحاسة السارية وضم الميم للحاسة السارية أيضاً، وسكون السين للإنصاف.

وفيه من أجزاء البسط ثلاثة، النون للفرح الكامل، والراء لحسن التجاوز، والسين لخفض جناح الذل، هذا على قراءة الصاد، وأما على قراءة السين وهي قراءة قنبل ومن وافقه فيكون فيه للبسط أربعة، لأن سين السراط تزاد على الثلاثة فتكون أربعة وليس فيه شيء من أجزاء النبوة.

وفيه من أجزاء الروح ثلاثة: الدال للطهارة، والطاء للتمييز، والقاف للبصيرة الكاملة.

وفيه من أجزاء الرسالة ثمانية: فتحة النون ليحيا حياة أهل الجنة، وفتحة الهمزة من الصراط للمشاهدة، وفتحة الراء للسكينة، وفتحة الطاء لسكون الروح في الذات سكون الرضا، وفتحة الهمزة من المستقيم للمشاهدة، واللام للعلم الكامل وفتحة التاء للسكينة، وفتحة الميم للسكينة أيضاً.

وفيه من أجزاء العلم جزء واحد، وهو الياء المدية فإنها هنا لانحصار الجهات في أمام وقوله تعالى:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فيه من أجزاء الآدمية ثمانية: الصاد لكمال العقل، وكسرته لكمال الحس الباطني والألف المادية لكمال الحس الظاهري، وكسرة الذال لكمال الحس الباطني، والميم للذكورية والتاء لكمال الحواس الظاهرة، وكسرة الهاء لكمال الحواس الظاهرة أيضاً، والميم للذكورة.

وفيه من أجزاء القبض سبعة: الهمزة من أنعمت للامتثال، وسكون النون للحاسة السارية، وسكون الميم للإنصاف، وسكون الياء للإنصاف أيضاً، والهاء للنفرة عن الضد، وضمتها في قراءة حمزة ومن وافقه للميل إلى الجنس، وسكون الميم للميل إلى الجنس أيضاً، وكذلك ضمتها في قراءة ابن كثير ومن وافقه.

وفيه من أجزاء البسط أربعة: السين من سراط في قراءة قنبل ومن وافقه، وأما على *قراءة إشمام الصاد بالزاي* وهي قراءة حمزة في الصراط وقراءة خلف في (صراط وصراطي

وصراطك) فيكون في هذا الحرف جزء من الآدمية، لأن فيه جزءاً من الصاد وهي من حروف الآدمية وجزءاً من الرسالة لأن فيه جزءاً من الزاي وهي من حروف الرسالة. والحاصل أن هذا الحرف المشيم فيه شيء من الآدمية وشيء من الرسالة الجزء الثاني من البسط الراء فإنها لحسن التجاوز، والثالث النون الأولى، والرابع النون الثانية، فإنها للفرح الكامل.

وفيه من أجزاء النبوة ثلاثة: العين الأولى والعين الثانية للعفو، والياء المسكنة للخوف التام من الله عز وجل.

وفيه من أجزاء الرسالة اثنا عشر جزءاً، فتحة الراء للسكينة، وفتحة الطاء لسكون الروح في الذات سكون الرضا، وفتحة همزة الوصل للمشاهدة، واللام للعلم الكامل، وفتحته للمشاهدة، وفتحة النون ليحيا حياة أهل الجنة، وفتحة الهمزة للمشاهدة، وفتحة العين للسكينة، وفتحة التاء للعلم الكامل وكذا فتحة العين وفتحة اللام من عليهم، وكذا حرف اللام فإنه للعلم الكامل أيضاً.

وفيه من أجزاء العلم جزآن: الدال فإنها لمعرفة اللغات والياء المدية فإنها لانحصار الجهات في أمام.

وفيه من أجزاء الروح جزء واحد وهو الطاء فإنها للتمييز والله أعلم، وقوله تعالى:

﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾.

الغين فيه لكمال الصورة الظاهرة وهي من الآدمية والفتحة عليها للسكينة وهي من أجزاء الرسالة، والياء الساكنة للخوف التام من الله عز وجل وهو من أجزاء النبوة وسكونها لعدم الحياء من قول الحق وهو من أجزاء القبض، والراء لحسن التجاوز وهو من أجزاء البسط وكسرتها لكمال الصورة الباطنية، وهو من أجزاء الآدمية، وهمزة الوصل للامتثال وهو من أجزاء القبض، وفتحتها للمشاهدة وهي من أجزاء الرسالة واللام المسكنة للعلم الكامل، وهو من أجزاء الرسالة وسكونها للحاسة السارية وهي من أجزاء القبض، والميم للذكورية وهي من أجزاء الآدمية، وفتحتها للسكينة وهي من أجزاء الرسالة، والغين لكمال الصورة الظاهرة وهو من أجزاء الآدمية، وسكونها للقوة الكاملة في الانكماش، وهي من أجزاء القبض، والضاد لقول الحق وهو من أجزاء النبوة، وضمتها للحاسة السارية، وهي من أجزاء القبض، والواو المدية لعدم الحياء من قول الحق وهو من أجزاء القبض أيضاً، والباء للسكينة وهي من أجزاء الرسالة وكسرتها للعقل الكامل وهو من أجزاء الآدمية، والعين للعفو وهو من أجزاء النبوة وفتحتها للعلم الكامل وهو من أجزاء الرسالة، واللام للعلم الكامل وهو من أجزاء الرسالة، وفتحتها أيضاً للعلم الكامل وهو من أجزاء الرسالة، والياء للخوف التام من الله عز وجل وهو من أجزاء النبوة، وسكونها للانصاف وهو من

أجزاء القبض، والهاء للنفرة وهي من أجزاء القبض، وكسرتها لكمال الحس الظاهري وهو من أجزاء الآدمية.

وأما على قراءة من ضم الهاء فإن ضمتها للنفرة عن الضد عكس الضمة في عليهم من «أنعمت عليهم» فإنها للميل إلى الجنس، لأن المنعم عليه يقع الميل إليه، والمغضوب عليه تقع النفرة منه، والميم للذكورية وهي من الأجزاء الآدمية، وضمتها في قراءة ابن كثير ومن وافقه للنفرة عن الضد، وهي من أجزاء القبض، وسكونها في قراءة غيره لتوكيد النفرة المستفادة من الضمة التي قرأ بها ابن كثير فإنها هي الأصل والسكون طارىء عليها والواو ليموت وهو حي وهو من أجزاء الرسالة، وفتحتها للمشاهدة وهو من أجزاء الرسالة أيضاً، واللام ألف للعلم الكامل وهو من أجزاء الرسالة وفتحتها للعلم الكامل أيضاً وهو من أجزاء الرسالة، وألف الوصل للامتثال وهو من أجزاء القبض وفتحته للمشاهدة وهي من أجزاء الرسالة، والضاد المشددة لقول الحق وهو من أجزاء النبوة وفتحتها للمشاهدة وهي من أجزاء الرسالة.

وأما الألف الهوائية فإنها هنا في خارج عن ذات المتكلم فتجيء مراتب المد الستة، فإن مددناها قدر ألف فهي لكمال الصورة الباطنة، وإن مددناها قدر ألفين فهي لكمال الصورة الباطنة مع سكون الروح في الذات سكون الرضا، وإن مددناها قدر ثلاث ألفات فهي لكمال الصور الباطنة وسكون الروح مع القوة السارية، وإن مددناها قدر أربع ألفات فهي لكمال الصورة الباطنة وسكون الروح والقوة السارية مع كمال الحس الباطني، وإن مددناها قدر خمس ألفات فهي لكمال الصورة الباطنة وسكون الروح والقوة السارية وكمال الحس الباطني مع بغض الباطل، وإن مددناها قدر ست ألفات فهي لكمال الصورة الباطنة وسكون الروح والقوة السارية وكمال الحس الباطني، وبغض الباطل مع سكون الخير في الذات.

وقد علمت أن كمال الصورة الباطنة من الآدمية وسكون الروح من الرسالة والقوة السارية من القبض، وكمال الحس الباطني من الآدمية، وبغض الباطل من النبوة، وسكون الخير في الذات من البسط، ففي المد الذي هو قدر ألف آدمية فقط، وقدر ألفين آدمية ورسالة، وقدر ثلاث آدمية ورسالة وقبض، وقدر أربع آدمية ورسالة وقبض وآدمية، وقدر خمس آدمية ورسالة وقبض وآدمية ونبوة، وقدر ست آدمية ورسالة وقبض وآدمية ونبوة وبسط. وأما اللام المشددة المكسورة فهي للعلم الكامل وهو من أجزاء الرسالة وكسرتها الكمال الحس الباطني وهو من أجزاء الآدمية. وأما الياء المدية فإن وقفنا على النون وسكناها وقلنا بالمراتب فهي ستة، فإن مددناها قدر ياء فهي لانحصار الجهات في أمام، وإن مددناها قدر ياءين فهي لانحصار الجهات في أمام مع معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، وإن مددناها قدر ثلاث آيات فهي لانحصار الجهات في أمام ومعرفة العلوم

المتعلقة بأحوال الثقلين مع الحياة كحياة أهل الجنة، وإن مددناها قدر أربع آيات فهي للانحصار ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين والحياة كحياة أهل الجنة مع معرفة العاقبة، وإن مددناها قدر خمس آيات فهي للانحصار، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، والحياة كحياة أهل الجنة، ومعرفة العاقبة مع عدم التضييع، وإن مددناها قدر ست آيات فهي للانحصار، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، والحياة كحياة أهل الجنة، ومعرفة العاقبة وعدم التضييع مع معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين.

وقد علمت أن الانحصار ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين ومعرفة العاقبة ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين وعدم التضييع كلها من أجزاء العلم، وأن الحياة كحياة أهل الجنة فقط من هذه الستة هي من أجزاء الرسالة، ففي المد الذي هو قدر ياء جزء من العلم، وقدر ياءين جزآن من العلم، وقدر ثلاث جزآن من العلم وجزء من الرسالة، وقدر أربع ثلاثة أجزاء من العلم وجزء من الرسالة، وقدر خمس أربعة من العلم وجزء من الرسالة، وقدر ست خمسة من العلم وجزء من الرسالة، وأما النون المفتوحة فإنها للفرح الكامل وهو من أجزاء البسط وفتحته للحياة كحياة أهل الجنة وهو من أجزاء الرسالة هذا آخر ما يتعلق بالفاتحة بحسب القراآت المتواترة.

وقد علمت أن أكثر الحروف السبعة دوراناً في الكلام ثلاثة: الآدمية والقبض والرسالة، وسره أنها تجري في الحروف والحركات، فكل رفع وسكون فللقبض، وكل نصب فللرسالة وكل خفض فللآدمية، فكل كلام كثر النصب فيه فقد كثر فيه نور الرسالة، وكل كلام كثر فيه الخفض فقد كثر فيه نور الآدمية، وكل كلام كثر فيه الرفع أو الجزم فقد كثر فيه القبض.

وأما ما يتعلق بالفاتحة بحسب القراآت الخارجة من السبعة، فاعلم أن فيها اختلافاً كثيراً خارج السبعة فمنه قراءة زيد بن رؤبة بن العجاج والعتكي. (الحمد لله) بنصب الدال وتوجيهها بحسب الظاهر أنه منصوب على المفعولية المطلقة بعد حذف الفعل وأصله أحمد الله حمداً ثم غير إلى التركيب المخصوص، وتوجيه قراءة الرفع أنه على الابتداء، وأما توجيهه بحسب الباطن فهو تابع لسر حركة الضم والنصب، فعلى قراءة الرفع يكون فيه ذكر حمد الله مع تكيف الذات به تكيفاً سرى فيها بجملتها وجاء التكيف عن الضمة التي على الدال فإنها للحاسة السارية في الذات، فكأنه عليه الصلاة والسلام بعد أن ذكر حمد الله أحست ذاته بمعناها فتكيفت به فهو بمنزلة من قال وفعل بخلاف قراءة النصب، فإنّ النصب على الدال يدل على العلم الكامل بالله عز وجل وأنه يستحق الحمد لا محالة، وهل تكيفت الذات به أم لا سكتت الآية عن ذلك، ولهذا كانت قراءة الرفع أصح وأشهر وأكثر.

فإن قلت: السكون الذي على اللام والميم من الحاسة وذلك يفيد التكيف المذكور فتستوي قراءة الرفع والنصب.

قلت: الحاسة تدل على التكيف كما قلتم لكنها إن كانت قبل تمام اللفظ كالسكون الذي على اللام والميم المذكورين، فالتكليف يتعلق بخصوص اللفظ بمعنى أن الذات تكيفت بهذا اللفظ واستحلت حروفه، وإن كانت بعد تمام الكلمة كضمة الدال فالتكيف يتعلق بالمعنى وهذا منتف في قراءة النصب وموجود في قراءة الرفع فكانت أولى وأكثر، ومنه قراءة الحس البصري الحمد لله بنصب الدال ونصب اللام، ووجهه بحسب الظاهر أنه على الاتباع أي أتبعت اللام للدال وبحسب الباطن ينبني على اختلاف سر الفتحة والكسرة فالكسرة هنا لكمال الحس الباطني وهو راجع إلى كمال الوجدان فتفيد قراءة الكسر أي كسر اللام إن إضافة (الحمد لله) أحس بها الوجدان أو تكيف بمعناها، بخلاف قراءة النصب فإنها للعلم الكامل أي فهو يعلم بالإضافة المذكورة علماً كاملاً والإحساس بالشيء أقوى من العلم به، فلذا كانت قراءة كسر اللام أصح وأشهر وأكثر ومنه قراءة قتيبة عن الكسائي لله بالإمالة، وفي الإمالة جزء من الكسر وكل كسر في لام في الوسط أو في الأولى فهو لكمال الحس الباطني، ففي الإمالة إشعار بالإحساس بالمعنى وفي ذلك من التعظيم وتبليغ المعنى ما لا يخفى، وكذلك قراء قتيبة أيضاً عن الكسائي (العالمين) بالإمالة و(الرحمٰن) بالإمالة، و(مالك يوم الدين) بالإمالة، لكن هذا الإحساس لما كان قبل تمام الكلمة وظهور معناها كان مرجعه إلى اللفظ فلهذا لم تكن الإمالة أولى من الفتح، لأن الإحساس من اللفظ المستفاد من الإمالة؛ إنما كان يصدر منه ﷺ أحياناً، وذلك عند نشطه وقراءته لنفسه فيخرج المعاني الباطنة ويظهرها في قراءته.

وأما إذا أراد أن يبلغ كلاماً للأمة ويعلمهم، فغالب أحواله ﷺ أن لا يشغل الألفاظ بما اشتغل به باطنه الشريفة ﷺ، فلذا كانت قراءة الفتح أكثر وأشهر لأنها جاءت على العادة الغالبة، ومنه الرفع في ﴿رب العالمين، والرحمٰن والرحيم﴾ قرأ بذلك أبو زيد الأنصاري وقرأ بالنصب أيضاً، وتوجيه هذه القراآت بحسب الظاهر أن الخفض على الاتباع والرفع والنصب على القطع بإضمار مبتدأ أو ناصب، وبحسب الباطن يتبع اختلاف أسرار الحركات الثلاث، فالكسرة للعقل الكامل وهو من الآدمية والآدمية كلها تواضع وتأدب، فالعقل الكامل هنا أشعر بتواضع المتكلم لربه ومشاهدة كونه مفعولاً ومربوباً وهو سر من أسرار الكسرة والفتحة في قراءة النصب للعلم الكامل وهو يستلزم معرفة الأشياء على ما هي عليه، فهو يعلم الرب ربا والعالمين مربوبين، وهل تواضعت ذاته وتأدبت بين يدي الله تعالى؟ أمر آخر، والرفعة في قراءة الضم للحاسة السارية ولكنها قبل تمام المعنى إذ لا يتم معنى المضاف حتى يذكر المضاف إليه، فالحاسة هٰهنا أشعرت بأن الذات تكيفت بلفظ الرب وتحلت به فقراءة الكسر أرجح من جهة المعنى، ولهذا كانت أكثر وأشهر وأصح، ومنه اختلاف القراء في ﴿ملك يوم الدين﴾ على قراآت شتى، فقراءة الجمهور بالقصر من غير ألف، وقراءة الكسائي وعاصم ومن وافقها بالألف بعد الميم، وتوجهه بحسب الظاهر أن قراءة *القصر* جارية على أنه صفة مشبهة مثل (ملك الناس) وقراءة المد على أنه اسم فاعل

مثل (مالك المالك) وبحسب الباطن ينبني على سر الألف المدية المزيدة في قراءة المد، فإنها لكمال الصورة الباطنة وخرجت بسر الإشارة إلى فعل فعله المخبر عنه، فالألف مشيرة لي أنه تعالى اتصف بالملك وأنه فعل من أفعاله ومشيرة إلى القوم الحاضرين السامعين للكلام بتنبيههم إلى هذا الأمر العظيم، فصوت الألف خرج من كمال الصورة الباطنة. وقصد بهذا الصوت إفادة أمرين: أحدهما في المخبر عنه وهو أن ما نسب إليه من أفعاله، وثانيهما للسامعين بأن يتنبهوا ويستيقظوا من سنة الغفلة.

قال رضي الله عنه: وهذا المعنى لا يوجد في قراءة القصر إلا أنه خلفه سر آخر في قراءة القصر وهو أن فيها إشارة إلى سر الإضافة أي إضافة (ملك) إلى (يوم الدين) وهذا المعنى في قراءة المد ضعيف جداً. قلت وهذا عين القواعد النحوية فإن اسم الفاعل للحدوث والتجدد وهذا هو سر الألف السابق وإضافته في الانفصال، وهذا معنى قوله رضي الله عنه: وهذا المعنى في قراءة الرفع ضعيف فلله دره من إمام، وقراءة اليماني (مليك يوم الدين) زيادة ياء بعد اللام.

قال رضي الله عنه: وهذه الياء هنا لمعرفة العاقبة لأن الياء إذا كانت لا تختل البنية بزوالها فهي لمعرفة العاقبة وإلا فهي على التفصيل السابق، ففي الياء المزيدة سر الإشارة إلى نفس المتكلم فحيث كان عارفاً بالعاقبة نبه نفسه وأيقظها، وإنما كانت ضعيفة لأن تنبيه النفس الذي دلت عليه الياء يؤذن بأن معنى الكلام قد يغفل عنه وهو هٰهنا ليس بمغفول عنه إذ كل أحد يتنبه له، فكانت قراءة حذفها أولى وقراءة علي رضي الله عنه (ملاك يوم الدين) بصيغة المبالغة.

قال رضي الله عنه: ومعنى هذه القراء أخص مما قبلها فإنها تقتضي أنه تعالى يملك في يوم الدين رقاب أهل التكليف دون سائر المخلوقات. ووجه الاقتضاء أن الكسر الذي تحت الكاف من كمال الصورة الظاهرة وهي صورة بني آدم، فهي التي أخرجت رأسها تحت الكاف، والصوت المستفاد من الألف المدية تنبيه عليها والاعتناء بإدغام اللام في اللام وتكريرها زيادة توكيد لها وتحقيق لمعناها، وهذا يقتضي إخراج غيرها بخلاف القراءة المشهورة، وبالجملة فهذا الاعتناء يقتضي سد الباب عن غير بني آدم فلا دخول له في هذه القراءة فلذا كانت ضعيفة. قلت وهذا مقتضى المبالغة في الملك المستفاد من صيغة فعال فإن الملك هو المتصرف والتصرف في بني آدم بالثواب والعقاب أكثر من التصرف في غيرهم، إذ بنو آدم هم المقصودون وغيرهم تبع لهم فملاك يقتضي القصد إلى هذا المعنى الأبلغ الأكثر، ولذا كانت القراءة المتواترة أشهر لأنها أعم لدخول بني آدم وغيرهم فيها وقراءة أبي حيوة ﴿مالك يوم الدين﴾ بنصب الكاف على النداء أو إضمار فعل، وأما بحسب الباطن فإن فتحة الكاف من العلم الكامل والذي فتح الكاف لم يدخل نفسه ولا نفس غيره في المملوكية بخلاف من كسر الكاف، فإن الكسرة من الآدمية والآدمية فيها أدب من

المتكلم وخضوع، ثم أدب الآدمية ينشأ عن أجزائها السبعة، وجزؤها هنا هو كمال الصورة الظاهرة المدلول عليها بالكسرة، فالأدب الذي في الكسرة إذن نشأ عن إحسانه تعالى وإتقانه لصورة بني آدم وهذا معنى الإعتراف لله تعالى بالمالكية لذات المتكلم وغيره بخلاف قراء النصب، ولذا كانت غير مشهورة وقراءة عمر بن عبد العزيز ﴿ملك يوم الدين﴾ بإسكان اللام ووجهه بحسب الظاهر أنه سكن الكسرة التي كانت تحت اللام كما سكنوا كسرة كتف تخفيفاً، وبحسب الباطن أن الكلام خرج على طريق الحكاية على لسان الحق سبحانه وتعالى والنيابة عنه مع اضطراب ذات المتكلم وعدم قدرتها على ذلك، ودل على هذا الذي قلناه سكون اللام إذ هو السبب في تبدل القراءة ووجه دلالته على ذلك أن حرف الرسالة كاللام الذي هو للعلم الكامل إذا سكن، فإن تسكينه يدل على أن حركة ما قبله من العلم الكامل أيضاً، وإن كانت مع غير السكون لغير العلم الكامل، فلا بد أن تكون مع السكون للعلم الكامل كالحال هنا، فإن الميم مع تحريك اللام كانت حركتها للصدق ومع السكون صارت للعلم الكامل لأن السكون لتحقيق معنى الحرف المؤكد لما قبله فيكون هذا السكون أخرج حركة ما قبله عن معناها وأخرج حرفه عن حركته التي هي للعلم الكامل إن فتح اللام أو لكمال الحس الباطني إن كسر وما تغير اللفظ ووقعت فيه هذه الرجفة حتى وقعت الزلزلة في الذات المتكلمة والاضطراب، وذلك لتكلمها بما لا تطيقه من نسبة الملك إليها إذ لا تطيقه إلا الذات القديمة، ولذا رجعت إلى أدب العبودية الذي يشير إليه خفض الآدمية الذي تحت الكاف، فسكون اللام من الحاسة السارية لكنها لما أوجبت رجفة في اللفظ آذنت بوقوع مثلها في الذات، ولم يقع ذلك حتى كانت الذات كصبي تحمل ما لا يطيقه، ولذا كانت قراءة الجمهور أشهر وأكثر لأن الذات فيها لم تنحط إلى ما لا تطيقه والله أعلم.

وبقيت قراءة أخرى وهي ﴿ملك يوم الدين﴾ على أنه فعل ماض ويوم الدين مفعوله، قرأ بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و﴿مالك يوم الدين﴾ برفع الكاف منونة ونصب يوم قرأ بها عاصم الجحدري ﴿ومالك يوم الدين﴾ برفع الكاف غير منون وخفض يوم بالإضافة وأسرارها تعرف من أسرار الحركات وليس في شيء من هذه القرآت غير المشهورة ما يوفي بالمعنى الذي في القراءتين المتواترتين.

ومن اختلافهم في الفاتحة. اختلافهم في ﴿إياك﴾ فقراءة الجمهور بكسر الهمزة. وقراءة سفيان الثوري بفتح الهمزة ووجهه بحسب الظاهر أنهما لغتان، وأما بحسب الباطن فإن سر الكسرة سر يباين سر الفتحة فسر الكسرة فيه أدب وإنكسار بين يدي الله تعالى وتذلل له وخضوع في هذا الأمر المطلوب وهو نسبة عبادة المتكلم له تعالى، وإنما إفادة الكسرة هذا المعنى لأنها من العقل الكامل وكمال العقل يستدعي التواضع والتذلل لعلمه بمرتبة العبد كيف ينبغي أن تكون وبمرتبة الرب كيف ينبغي أن تكون، وأما سر الفتحة فإنها نشأت من المشاهدة الكاملة التي هي من أجزاء الرسالة فهي تشعر بالوصول والجمع ففيهما

نوع إذلال، وفي الكسرة نوع تذلل وهو اللائق بعامة الخلق، فلذا كانت القراءة بها أشهر وأكثر، وقراءة الأسواري بكسر الهمزة وتخفيف الياء من التشديد هكذا إياك ولا فرق بينها وبين قراءة الجمهور إلا أن قراءة الجمهور فيها تأكيد الخوف من الله تعالى وتأكيد الصدق في ذلك الخوف وذلك يقتضي قوة التعلق بالله تعالى وشدة الإيحاش إليه عز وجل بخلاف القراءة بالتخفيف فإنه إن كان فيها. خوف وصدق لأن الياء للخوف من الله تعالى. وفتحتها للصدق كما سبق بيانه زادت قراءة التشديد بالتوكيد في ذلك.

ومن اختلافهم قراءة بعض أهل مكة (نعبد) بإسكان الدال ووجهه التخفيف كإسكان أبي عمرو يأمركم.

وأما بحسب الباطن فإن سر الضمة وإن كان قريباً من سر الجزم هنا فإن الضمة للحاسة السارية والجزم أيضاً لها فبينهما فرق وهو أن الجزم يشتمل على سر الضمة ويزيد على ذلك السر مثله لأجل أن الضمة هي الأصل والسكون طارىء عليها فالسر الأصلي لا يزول مع وجود الطارىء فالجزم أوكد من الضمة لكنه لما كان فرعاً طارئاً قد يكون وقد لا يكون كانت الضمة أشهر وأكثر وأيضاً فإن السر الأصلي عام في جميع المؤمنين والسر الطارىء عليه خاص بالخواص، فقراءة الضم فيها قبض عام لأهل العموم وقراءة الجزم فيها قبض خاص لأهل الخصوص، وقراءة بعضهم (إياك يعبد) بالبناء للمفعول وبالياء على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

وأما بحسب الباطن فإن الضمة التي على الياء للانكماش والسكون الذي على العين للانكماش والمنكمش عنه هٰهنا هو ضد معنى الياء وضد معنى العين، فالياء للخوف من الله تعالى، وضده عدم الخوف الذي هو العصيان والعين للعفو وضده الظلم والإساءة، فانكمش هذا المتكلم عن هذين المعنيين القبيحين بعد اتصافه بمعنى الحرفين وقوى انكماشه حتى بلغ به الحال إلى أن صار من العارفين الذين يحيون حياة أهل الجنة وهم أهل الباطن رضي الله عنهم الذين يشاهدون عبادة كل مخلوق لله تعالى وتسبيحه له كما قال تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وإنما قلنا إنه صار من الذين يحيون حياة أهل الجنة، لأن فتحة الباء التي بعد العين لذلك المعنى الذي هو الحياة كحياة أهل الجنة فهذه القراءة لا تصدر إلا من العارف.

قال الشيخ رضي الله عنه: وبها كان يقرأ سعيد بن جبير رضي الله عنه، لأنه كان من أكابر العارفين نفعنا الله به آمين.

ولهذا لم يحتج صاحب هذه القراءة إلى إدخال نفسه في العبادة لمشاهدته أنه لا يخرج أحد عن عبادته تعالى بخلاف قراءة الجمهور بالنون والبناء للفاعل؛ فإن المتكلم

أدخل نفسه في العبادة، فتحتمل قراءته العارف وغيره، فإن شهد أنه لا يخرج أحد عن عبادة ربه تعالى فيكون إدخاله نفسه تلذذاً وإن لم يشاهد ذلك كان القارىء غير عارف، ومع ذلك فقراءة الجمهور أولى، لأن القارىء إذا اشتغل بالقراءة فإن الحروف تشتعل أنوار معانيها وتسقي ذات المتكلم بتلك الأنوار، فإن قرأ بالنون فقد أدخل نفسه فيسقى بنور معنى النون، وإن قرأ بالياء وكان غير عارف فإن ذلك النور الذي يدل عليه النون يفوته وغرضنا قراءة الفاتحة بجميع أنوارها.

وأما العارف فلا يفوته ذلك لمشاهدته أنه لا يخرج أحد عن عبادته تعالى.

وبالجملة فقراءة النون تليق بجميع الأمة العارفين وغيرهم بخلاف قراءة الباء، فإن القارىء بها عارف لا محالة لأن في قراءته ما يشعر بأنه قام بواجب الحق سبحانه وهو الخوف التام منه المستفاد من الياء، وبواجب الخلق وهو العفو عنهم ومسامحتهم وعدم الإساءة إليهم المستفاد ذلك من العين، ثم بعد أن تحلى بهذين الأمرين العظيمين انكمش عن ضدهما المستفاد من ضمة الياء وسكون العين، وهذه حالة عظيمة، ولذا سقي بما سقي به أهل الجنة، حتى حيي حياتهم.

ومنه قراءة بعضهم (تعبدو) بزيادة واو بعد الدال وهي رواية عن نافع رواها الأصبهاني عن ورش ووجهها أن الضمة أشبعت فتولدت الواو منها.

وأما بحسب الباطن فإن هذه القراءة زادت على قراءة الجمهور بالواو والواو فيها لعدم الحياء من قول الحق ومعنى عدم الحياء أن العبد صرح في لفظه بأن عبادته لربه تعالى ثم مد صوته بالواو وهو بين يدي ربه تعالى ليحقق ذلك المعنى ويؤكده ويقرره تقريراً لا شبهة فيه، وهذا المعنى وإن كان حسناً فالأحسن منه أن لا يرى العبد لنفسه عملاً وكيف لا وربه هو خالقه وخالق حركاته وسكناته، ولذا سقط الواو من قراءة الجمهور لأن الحياء هنا أولى من عدم الحياء لأن فيه رؤية عمل وعدم أدب مع الحق سبحانه.

قال الشيخ رضي الله عنه: والقراءة بالواو صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ، وترجيح قراءة الجمهور عليها بالنسبة إلينا لا بالنسبة إليه ﷺ، إذ القرآت بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام تتبع الأنوار التي يريدها الحق منه سبحانه.

قال رضي الله عنه: ولا تكتب الألف في رسم هذه القراءة بعد الواو لأن الواو إذا كانت لإثبات معنى الكلمة لا غير لم تزد بعدها ألفاً.

ومنه قراءة يحيى بن وثاب ﴿نستعين﴾ بكسر النون ووجهه أنه لغة فاشية وإن كانت اللغة الكثيرة فتح النون.

وأما بحسب الباطن، فإن سر الفتحة يغاير سر الكسرة، لأن في الكسرة إخراجاً لغير

المتكلم بخلاف الفتحة، ووجه ذلك أن الكسرة من الحس الباطني الذي هو من الآدمية، وقد علمت أن الآدمية فيها أدب وخضوع، فالكسرة إشارة إلى نفس المتكلم التي خضعت وتأدبت، وحيث حصر الإشارة في نفسه لزم إخراج غيره ولذا كانت قراءة الجمهور أولى لأنها أعم وأكثر فائدة.

ومنه قراءة عمر رضي الله عنه ﴿غير المغضوب﴾ بالرفع وقراءة بعضهم له بالنصب وهي رواية الخليل بن أحمد عن ابن كثير مع قراءة الجمهور له بالخفض وتوجيهها بحسب النحو ظاهر.

وأما بحسب الباطن فإنه يتبع سر هذه الحركات الثلاث. فالكسرة من الآدمية، وهي هنا لكمال الصورة الباطنية وفيها أدب عظيم؛ وسببه أن في الكسرة إشارة إلى تعيين ﴿المغضوب عليهم﴾ وإشارة أخرى إلى كونهم من جنسين، ومن أقاربنا وبني أعمامنا في الأصل، فكأن الذي قرأ بالكسر يقول غير هؤلاء الذي غضبت عليهم كاليهود مثلاً وهم من أقاربنا، ومع ذلك فقد ميزتنا عليهم بالتفضيل والهداية فضلاً منك يا ربنا ومنة، فلك الحمد على ذلك، ففيها أدب عظيم ولذا قرأ بها الجمهور.

وأما قراءة الضم فإن فيها أيضاً تعيين المغضوب عليهم وتخصيصهم بقوم معينين مع النفرة منهم والبعد عنهم والبراءة منهم، وذلك من سر الضمة فإنها للقبض والنفرة عن الضد والبراءة، فليس فيها التواضع الذي في قراءة الكسر.

وأما قراءة النصب فليس فيها تعيين المغضوب عليهم فالكلام معها باق على عمومه وعلى القراءتين الأوليين يكون من العام المراد به الخصوص.

ومنها قراءة أيوب السختياني رحمه الله ﴿ولا الضألين﴾ بقلب الألف همزة ساكنة ووجهه أن ذلك لغة قليلة.

وأما بحسب الباطن فإن الهمزة للامتثال وسكونها للامتثال أيضاً، ففيها قبضان قبض من ذاتها والآخر من حركتها، وهذا القبض قبض الامتثال والمراد بالامتثال امتثال القول بأن الضالين أعداؤنا وبغضاؤنا، فهذه الهمزة بمنزلة أن يقال ولا الضالين وهم أعداؤنا، فالهمزة الساكنة سدت مسد هذه الجملة ومع ذلك فقراءة الجمهور أولى منها لأن في الألف المدية وأسرار مراتبها كما سبق ما لا تفي ببعضه هذه القراءة.

هذا بعض ما سمعناه من الشيخ رضي الله عنه في تفسير هذه القرآت وتوجيهاتها وبقيت قرآت أخر ذكرها أئمة القراء وزاد الشيخ رضي الله عنه عليها قرآت أخر تركت ذكرها وذكر توجيهاتها مخافة الملل والسآمة، فإني لو تتبعت هذه المسألة وكتبت ما في بطن الشيخ رضي الله عنه من علومها ما وسعه عدة مجلدات.

ثم فيما ذكره رضي الله عنه وكتبناه عدة أمور ينبغي التنبه لها:

(الأول): ما في كلامه المنوّر رضي الله عنه من شرح باطن النبي ﷺ والتنبيه على علوّ مكانة أسرار قلبه وقالبه الشريفين ﷺ وذلك مما تعلم به مكانته عليه الصلاة والسلام، فإن أنوار التسعة والأربعين جزءاً ما وجدت في أحد مثل وجودها فيه عليه الصلاة والسلام، فإنها ارتقت فيه حقائقها وتنزلت فيه معارفها وأسرارها، ومن أراد أن يزداد محبة في نبينا ﷺ؟ فلينزل الجزء الأول من تلك الأجزاء ثم ينزل الثاني إلى جنبه، ثم الثالث وهكذا، حتى يأتي على تمام التسعة والأربعين، ثم يستحضر المعاني التي لها ثم يجعلها شيئاً واحداً مركباً نوره من أنوارها فيرى نوراً عظيماً لا يكيف ولا يطاق، ثم يجعله في باطنه عليه الصلاة والسلام فإنه يزداد بذلك محبة في جانبه الكريم لا محالة ويحصل له بذلك شرح صورته الظاهرة والباطنة عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

(الثاني) ما فيه من شرح حال الروح وبيان خصالها الحميدة وأوصافها العجيبة الغريبة وهي الذوق والتمييز والبصيرة وعدم الغفلة وقوة السريان وكونها لا تحس بمؤلمات الأجرام، فمن علم هذه الأوصاف وأحاط علماً بالمراد من معانيها وقف على علم كبير من معرفة الروح بلوازمها وخواصها.

وقد اختلف الناس فيها اختلافاً كثيراً؛ فمن قائل لا نخوض فيها وسد الباب دون الكلام فيها، ومن قائل بالخوض فيها وسلوك سبل معرفتها، ثم هؤلاء لم يذكروا شيئاً من خواصها فبقيت العقول متحيرة، وكلام الشيخ رضي الله عنه في غاية الوفاء بذكر خواصها ولوازمها؛ فمن أراد الخوض فيها فليسلك طريق الشيخ رضي الله عنه فيها.

وأما كيف هي الروح وكيف ذاتها وكيف تجانسها وتخالفها، وكيف كانت قبل دخولها في الأشباح، فقد سمعنا من الشيخ رضي الله عنه العجب العجاب، وسيأتي بعضه إن شاء الله تعالى أثناء الكتاب.

(الثالث) ما فيه من شرح معارف الأولياء رضي الله عنهم، وبذلك تعلم الولاية والعرفان فإنه لا فرق بين الولي وغيره إلا أن يفتح ما بين الذات والروح، فمن فتح على ذاته في الأسرار التي عند روحه وأزيل الحجاب الذي بينهما فهو الولي العارف صاحب الفتح، ومن بقيت ذاته محجوبة عن روحه فهو من جملة العامة ولو طار في السماء أو مشى على الماء، ولو شرحت ما سمعت من الشيخ رضي الله عنه في هذا الباب لطال الكلام وعسى أن يأتي شيء من ذلك في أثناء الكتاب؛ والله أعلم.

(الرابع) ما فيه من شرح الحديث الشريف وتنزيله على أنوار باطنه وأسرار قلبه الكريم ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام نبي كريم ورسول عظيم، وله باطن كبير، وقلب بالأنوار غزير، وقد نزل القرآن على قلبه الذي هو بهذه الصفة العظيمة، فتفسير الشيخ رضي الله عنه موف بجميع هذه الأسرار ومحتو على جملة هذه الأنوار.

وأما من شرح الحديث ونزله على ظاهر العبارة ومجرد اللسان العربي فشرحه لا مساس له بمقام النبوة والرسالة، لأن اختلاف التلفظات من غير اختلاف أسرار الباطن لا ينشأ إلا عن باطن خراب من الأسرار، وأبعد من هذا تفسير من فسره بالحلال والحرام والوعد والوعيد والخبر والاستخبار والنداء، فإن هذا لا يصح أن يقال فيه:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

ولا يصح أيضاً أن يختصم الصحابة في هذه المعاني وكذا من فسرها بالأمر والنهي والوعد والوعيد إلى آخر ما ذكروه، وبالجملة فالعاقل الكيس لا يخفي عليه الحق إذا سمعه.

(الخامس) إذا تأملت ما ذكره أئمة القرآن رضي الله عنهم في توجيه القراءات السابقة وتأملت ما ذكره الشيخ رضي الله عنه في ذلك، علمت بعد ما بين المقامين فإن ما ذكروه وإن كان صحيحاً في نفسه إلا أنه عام لا يخص نبينا ﷺ من حيث إنه نبينا فإن ما ذكروه في وجه تسكين اللام من ﴿ملك يوم الدين﴾ في قراءة السكون من كونه للتخفيف كعضد وكتف موجود في جميع كلام العرب ألا ترى إلى وجوده في كتف وعضد مع أنهما ليسا من القرآن، وأين هذا من السر السابق عن الشيخ رضي الله عنه في ذلك وكذلك ما ذكروه في توجيه قراءة ﴿إياك نعبد﴾ بالبناء للمفعول على أنه التفات، فإن الالتفات موجود في كلام العرب عامة، وأين هذا من السر الذي بين فيه سر الياء وسر حركتها المخصوصة وسر العين وسر كونها المخصوص وسر الباء وسر فتحته المخصوصة وسر الدال وسر حركته المخصوصة.

(السادس) إياك أن تظن أن هذه الحروف السبعة الباطنية بها تفسر القرآن العزيز وأنها هي معناه، فإنك إن ظننت هذا فلست بمصيب، بل القرآن له معنى، وفي معناه يندرج علوم الأولين والآخرين، وهذه الحروف السبعة الباطنية لذلك المعنى بمنزلة الكساء والثياب، فالمعنى شيء وكسوته شيء، فإذا تأملت فيما سبق في الفاتحة تتخيل شيئاً من هذا، ولو فسر القرآن بمعناه الحقيقي لعلم ظاهر القرآن وباطنه وعلم من باطنه ما كانت عليه الأرواح قبل دخولها في الأشباح، وما ستكون عليه بعد المفارقة، وعلم منه كيف تستخرج سائر العلوم من القرآن العزيز التي تدركها علوم الخلائق من أهل السموات والأرضين، وكيف تؤخذ الشريعة بل وجميع الشرائع منه وجميع ما أشرنا إليه في أجزاء العلم السابقة من معرفة العواقب والعلوم المتعلقة بأحوال الكونين، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين ومعرفة سائر اللغات وغير ذلك مما ذكرناه ومما لم نذكره، وكل ذلك قطرة من البحر الذي في باطنه ﷺ، فلو فهم القرآن العزيز بهذا الطريق ثم ركب ذلك التفسير على أنوار هذه الحروف السبعة وألبست المعاني ثيابها، ظهر عند ذلك ما تدهش منه العقول وتطيش عند سماعه، وعند ذلك يعلم أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يأتوا بسطر واحد من القرآن ما قدروا عليه، فسبحان من خص نبينا ﷺ بالأسرار التي لا تكيف ولا تطاق.

(السابع) لا مطمع لأحد في معرفة أسرار هذه الحروف التلفظية التي في القرآن، ووجه تخصيص كل حرف منها بالسر الذي خص به، كتخصيص الهمزة بالامتثال، والباء بالسكينة، والتاء بكمال الحواس الظاهرة وغير ذلك مما سبق إلا أن يكون من أهل الفتح والعرفان ومن أرباب الشهود والعيان، وكذلك تخصيص الحركات الإعرابية بالأسرار التي خصت بها، فإن ذلك لا يعرف إلا بالفتح، ولو كان لهذه الأسرار والتخصيصات ضابط يضبطها لتوصل الناس إلى ما سبق من الأسرار، ومن أراد أن يعرف ذلك فليشافه أربابه ويسأل عن كل حرف وعن حركة فإنه يوفق للحق إن شاء الله.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

(الثامن) ما سبق في مر الرسم وأنه بتوقيف من النبي ﷺ، وأن له أسراراً تخصه رافع لجميع الإشكالات الواردة في رسم القرآن، وحيث ظن غالب الناس أنه اصطلاح من الصحابة رضي الله عنهم افترقوا فرقتين، فرقة صوبوا ذلك الاصطلاح وقالوا له أسرار منها ما فهمناه ومنها ما لم نفهمه، فما فهمناه يكون بمنزلة معقول المعنى وما لم نفهمه يكون بمنزلة التعبدي والكل صواب، وفاتهم أن هذا إنما يكون في أحكام الله تعالى ولا يكون في اصطلاح الناس أبداً، فما ذكروه إنما يصح على التوقيف لا على الاصطلاح وفرقة لم يصوبوا ذلك الاصطلاح؛ وقالوا إن العرب لم تكن عارفة بالكتابة فلذا وقع منهم ما وقع، وعليه يدل كلام الفراء السابق، وقد نقله عنه أبو إسحاق الثعلبي المفسر عند قوله تعالى:

﴿الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾.

وممن ذهب إلى هذا ولي الدين بن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير.

(التاسع) في سؤالين أوردتهما على الشيخ رضي الله عنه: السؤال الأول، قلت له رضي الله عنه، أن الحروف قسمناها على الأنوار الباطنية فخرج منها للآدمية حروف وهي التاء والظاء والميم والصاد والعين. وللقبض منها حروف، وهي الهمزة والتاء والشين والهاء. وللبسط منها حروف، وهي الراء والنون والسين. وللنبوة منها حروف، وهي الجيم والحاء والكاف والضاد والعين والياء. وللروح منها حروف، وهي الخاء والدال والطاء والقاف ولام ألف، وللعلم منها حرفان، وهما الذال والفاء. وللرسالة منها حروف، وهي الباء والزاي واللام والواو، وهذه الحروف موجودة في كلام الناس ولا تخص القرآن العزيز فيلزم أن يكون كل كلام فيه هذه الأحرف منزلاً على سبعة أحرف مع أن هذا الحكم خاص بالقرآن العزيز لا يثبت لغيره من الكتب السماوية فضلاً عن غيرها لما صح في الحديث أن النبي ﷺ قال لابن مسعود:

«إِنَّ الْكُتُبَ كَانَتْ تَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَإن الْقُرآنَ أُنْزِلَ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ إلى آخِرِهِ».

فأجاب رضي الله عنه: أن هذا التقسيم للحروف خاص بحروف القرآن لا يثبت لغيرها من الحروف، فليست كل همزة للقبض، ولا كل باء للسكينة، ولا كل تاء لكمال الحواس الظاهرة، ولا كل جيم للصبر، ولا كل حاء للرحمة، ولا كل خاء لذوق الأنوار، بل بشرط وجْودها في القرآن العزيز. فأما إذا كانت في كلام آخر في غير القرآن فلها تقسيم آخر، وهو أن التسعة والعشرين حرفاً محصورة في الأجزاء الآدمية السبعة، فكمال الصورة الباطنة منها لجميع الحروف فعلية تخرج، ومن نوره تكون أصواتها، والذكورية الرفع وكمال الصورة الظاهرة للنصب وكمال العقل للخفض وكمال الحس الباطني للجزم ونزع حظ الشيطان لمد الألف، وكمال الحواس الظاهرة لمد الياء، وأما مد الواو فإنه يأخذ جزءاً من نزع حظ الشيطان وجزءاً من كمال الحواس الظاهرة فهذا تقسيم الحروف الموجودة في الكتب السماوية غير القرآن العزيز، وفي الأحاديث القدسية وغيرها وفي سائر كلام الناس، فأنوار الستة الأحرف الباطنية فيها وهو القبض والبسط والنبوة والروح والعلم والرسالة راكدة ساكنة لا اشتعال لها.

فقلت: فإن هذه الأنوار الستة موجودة في ذوات سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام. فإذا أنزل عليهم كتاب لزم أن يكون منزلاً على هذه الأنوار فيكون منزلاً على سبعة أحرف.

فقال رضي الله عنه: هي موجودة في ذواتهم عليهم الصلاة والسلام كوجودها في ذاته ﷺ إذا تكلم بالأحاديث القدسية وغيرها، ولا يلزم من وجودها إشتعال أنوارها وقيام أسرارها، وإنما تشتعل أنوارها في القرآن العزيز فقط لسر في النازل فيه ولسر في ذاته ﷺ، والكتب السماوية فإنها السر الثاني، فإن ذاته عليه الصلاة والسلام لم توجد فيها، والأحاديث النبوية فإنها السر الأول وسائر كلام الناس فإنه السران معاً.

وقد شرح الشيخ رضي الله عنه السر الأول السر الثاني بما لا يعلم إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدني الصريح.

قال رضي الله عنه: ومن هنا كان القرآن العزيز معجزاً لا تمكن معارضته في نظمه وتراكيبه ومعانيه، والكتب السماوية تعارض في النظم والتركيب وإن كانت لا تعارض في المعاني لأنها من الكلام القديم، والله أعلم.

السؤال الثاني في الجمع بين تفسير الشيخ رضي الله عنه وبين أحاديث الباب ولنسردها حتى إذا فرغنا منها عدنا إلى الجمع، فمنها حديث عمر مع هشام بن حكيم وهو متفق عليه، والقصة مشهورة في صحيح البخاري وغيره. قال ابن حجر: وقد وقع عند الطبري من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده قال:

«قَرَأَ رَجُلٌ فَغَيَّرَ عَلَيْهِ عُمَرُ فَاخْتَصَما عِنْدَ النَّبِيِّ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّم فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلَمْ تُقْرِئْنِي يَا رَسُول الله؟ قَالَ بَلَى، قَال فَوَقَعَ في صَدْرِ عُمَرَ شَيْءٌ، عَرَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ في وَجْهِهِ،

قَالَ فَضَرَبَهُ في صَدْرِهِ وَقَالَ: أَبعِدْ شَيطَاناً، قَالَهَا ثَلاثاً، ثمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ القُرْآنُ كُلُّهُ صَوَابٌ مَا لَمْ تَجْعَلْ رَحْمَةً عَذَاباً، وَمَا لَمْ تَجعَلْ عذاباً رَحْمَةً».

ومنها حديث أبي بن كعب:

«دَخَلْتُ المَسْجِدَ أُصَلِّي، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَافْتَتَحَ النَّحلَ فَقَرَأَ فَخَالَفَنِي في القِرَاءَةِ، فَلَمَّا انفَتَلَ قُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَقَامَ يُصَلِّي، فَافْتَتَحَ النَّحلَ فَخَالَفَنِي وَخَالَفَ صَاحِبي، فَلَمَّا انفَتَلَ قُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، فَدَخَلَ قَلْبِي مِنَ الشَّكِّ وَالتَّكذِيبِ أَشَدُّ مِمَّا كَانَ في الجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَذتُ بِأَيْدِيهِمَا فَانطَلَقتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِهِمَا، فَقُلْتُ استَقرِىءْ هٰذَينِ، فَاسْتَقرَأَ أَحَدَهُمَا فَقَالَ أَحْسَنْتَ، فَدَخَلَ صَدْرِي مِنَ الشَّكِّ والتَّكذِيبِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ في الجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ اسْتَقرَأَ الآخرَ فَقَالَ أَحْسَنْتَ، فَدَخَلَ صَدْرِي مِنَ الشَّكِّ وَالتَّكْذِيبِ أَكْثَرَ مِمَّا كانَ في الجَاهِلِيَّةِ، فَضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ صَدْرِي بِيَدِهِ، وَقَالَ أُعِيذُكَ بالله مِنَ الشَّكِّ يَا أُبَيُّ، ثمَّ قالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيهِ السَّلامُ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وجَلَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقرَأَ القُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، ثُمَّ عَادَ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقرَأَ القُرْآنَ على حَرْفَيْنِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، ثُمَّ عَادَ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقرَأَ القُرْآنَ عَلَى سَبعَةِ أَحْرُفٍ وَأَعطَاكَ بِكُلِّ حَرْفٍ مَسْئَلَةً».

الحديث رواه الحرث بن أبي أسامة في مسنده بهذا اللفظ قاله ابن الجزري في النشر وفي لفظ آخر لمسلم:

«عَنْ أَبَيِّ بنِ كَعْبٍ أَنَّ جِبْرِيلَ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ عِندَ أَضَاةِ بَنِي غفَارٍ فَقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تُقرِىءَ أمتك القُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَال: أَسْأَلُ الله مُعَافَاتَهُ وَمَعُونَتَهُ، فَإِنَّ أُمَّتِي لا تُطِيقُ ذٰلِكَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذٰلِكَ، ثم أَتَاهُ الثَّالِثَةَ بِثَلاثَةٍ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذٰلِكَ، ثمَّ أَتَاهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ لهُ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقرَأَ القُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا».

قال ابن حجر: وأضاة بني غفار بفتح الهمزة والضاد المعجمة بغير همزة وآخره تاء تأنيث: هو مستنقع الماء كالغدير وجمعه أضا كعصا، وهو موضع بالمدينة النبوية، نسب إلى بني غفار بكسر الغين المعجمة وتخفيف الفاء لأنهم نزلوا عنده. ولمسلم من طريق عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب:

«قَالَ كُنتُ في المَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي فقرأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَينَا الصَّلاةَ دَخَلْنَا جَمِيعاً عَلَى رسُولِ الله ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هٰذا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا فَقَرَآ فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ قِرَاءَتَهُمَا، قَالَ: فَسُقِطَ في نَفْسِي أَولاً إِذْ كُنتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَضَرَبَ في صَدْرِي فَفِضتُ عَرَقاً وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الله فَرَقاً فَقَالَ: يَا أُبَيُّ أُرسِلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ» إلى آخِره.

وعند الطبري في هذا الحديث:

«فَدَخَلَنِي وَسْوَسَةُ الشَّيطَانِ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهِي فَضَرَبَ في صَدْرِي وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَخْسِىءْ مِنْهُ الشَّيطَانَ».

وعند الطبري من وجه آخر أن ذلك وقع بينه وبين ابن مسعود فقال النبي ﷺ:

«كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ، وَكِلاَكُمَا مُجْمِلٌ، قَالَ أُبَيٌّ: فَقُلْتُ مَا كِلاَنَا أَحْسَنَ وَلاَ كِلاَنَا أَجْمَلَ، قَالَ فَضَرَبَ في صَدْرِي» إلخ.

ومنها حديث عمرو بن العاص، أن رجلاً قرأ آية من القرآن قال عمر وإنما هي كذا وكذا فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال:

«إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَأَيَّ ذٰلِكَ قَرَأْتُمْ فَقَدْ أَصَبْتُمْ فَلاَ تُمَارُوا فِيهِ».

أخرجه أحمد بسند حسن. ولأحمد أيضاً وأبي عبيد والطبري من حديث أبي جهيم: أن رجلين اختلفا في آية من القرآن كلاهما يزعم أنه تلقاها من رسول الله ﷺ فذكر نحو حديث عمرو بن العاص.

وللطبري والطبراني عن زيد بن أرقم قال:

«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أَقْرَأَنِي سُورَةَ أَقْرَأَنِيهَا زَيْدٌ وَأَقْرَأَنِيهَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فَاخْتَلَفَتْ قِرَاءَتُهُمْ، فَقِرَاءَةُ أَيِّهِمْ آخُذُ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ وعَلِيٌّ إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ عَلِيٌّ: لِيَقْرَأْ كلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ كَمَا عَلِمَ فَإِنَّهُ حَسَنٌ جَمِيلٌ».

ولابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود:

«أَقْرَأَنِي رَسُولُ الله ﷺ مِنْ آلِ عُمْرَانَ فَرُحْتُ إِلَى المَسْجِدِ فَقُلْتُ لِرَجُلٍ اقْرَأْهَا فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ حُرُوفاً مَا أَقْرَأُهَا، فَقَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى رسُول الله ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ الاخْتِلاَفُ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيَّ عَلِيٌّ شَيْئاً فَقَالَ عَلِيٌّ: فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلُّ إِنْسَانٍ كَمَا عَلِمَ، قَالَ فَانْطَلَقْنَا وَكلُّ رَجُلٍ مِنَّا يَقْرَأُ حُرُوفاً لاَ يَقْرَؤُهَا صَاحِبُهُ».

وللترمذي من وجه آخر:

«أَنَّهُ ﷺ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ، فَمِنْهُمُ الْعَجُوزُ وَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْغُلاَمُ وَالْجَارِيَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَاباً قَطُّ، فَقَالَ: مُرْهُمْ فَلْيَقْرَءُوا الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

وللحديث طرق كثيرة، ولو تتبعناها لطال الحال وظاهرها شاهد، لكون المراد بالأحرف الاختلافات التلفظية بدليل قوله:

«فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا».

وقوله «فانطلقنا وكل واحد منا يقرأ حروفاً لا يقرأ بها صاحبه» وقوله «أتاه المرة الأولى بحرف ثم أتاه الثاني بحرفين، ثم أتاه بثلاثة أحرف، ثم أتاه الرابعة بسبعة أحرف» فإن هذا لا يتأتى إلا في الاختلافات التلفظية، لأن الحروف الباطنية طبيعة ذات النبي ﷺ فلا يمكن أن يأتيه مرة بحرف ثم ثانية بحرفين، وهكذا لأن الجميع كان في باطنه ﷺ قبل ذلك لا سيما وسؤاله عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل أن ينزل القرآن على سبعة أحرف، إنما كان في المدينة كما سبق في حديث أبي بن كعب.

فأجاب رضي الله عنه: بأن الاختلافات التلفظية كالظل والأنوار الباطنية كالشاخص فمن أثبت الظل فليس بناف للشاخص ولا مبطل له، بل هو في الحقيقة مثبت له إذ لا يوجد ظل بدون شاخص وحينئذ فالوحدة في الظل تقتضي الوحدة في الشاخص والتعدد في الظل يقتضي التعدد في الشاخص، فإذا أتاه بحرف من الشاخص أي عينه للقراءة، وإن كان موجوداً قبل ذلك، وإذا أتاه بحرفين من الظل فقد أتاه بحرفين من الشاخص أي عينهما للقراءة، وإن كانا موجودين قبل ذلك في الطبيعة الشريفة والسجية المنيفة، وإذا أتاه بسبعة أحرف من الظل فقد أطلق له القراءة على جميع الأنوار الباطنية السبعة.

فقلت: فأما السبعة الباطنية فقد فهمناها والحمد لله ببركتكم وفضلكم، وأما السبعة اللفظية فما هي؟ أهي اختلاف لغات كما ذهب إليه أقوام وافترقوا في تعيينها فرقاً؟ أم هي اختلاف أحكام كما ذهب إليه آخرون محتجين بحديث ابن مسعود مرفوعاً قال:

«كَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ يَنْزِلُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ: زَجْرٌ وَأَمْرٌ، وَحَلاَلٌ وَحَرَامٌ، وَمُحْكَمٌ، وَمُتَشَابِهٌ وَأَمْثَالٌ، فَأَحِلُّوا حَلاَلَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَافْعَلُوا ما أَمَرْتُكُمْ، وَانْتَهُوا عَمَّا نَهَيْتُكُمْ وَاعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ وَاعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ، وَآمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَقُولُوا آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا».

وأجاب مخالفوهم بأن الحديث غير صحيح لأنه منقطع بين أبي سلمة بن عبد الرحمٰن وعبد الله بن مسعود فإنه لم يلقه وقد رواه عنه، أم هي اختلاف وجوه القراءات، وقد افترقوا في تعيين هذه الأوجه على فرق، أما السبعة فليست مقصودة وإنما المقصود بها التوسعة والتسهيل لا خصوص العدد، فقوله «أنزل على سبعة أحرف» معناه أنه أنزل على التيسير والتوسعة والتسهل فليقرأ كل واحد مما تيسر له، وقد ذهب إلى هذا أقوام.

فقال رضي الله عنه: هي اختلاف أوجه القراءات، ولكن أي شيء نقول لهم حيث لم يعلمونا القراءة في صغرنا؟ فإني أرى الأوجه التي انتهى إليها اختلاف قراءته ﷺ ولا أدري كيف أخبر عنها، ثم لم يزل رضي الله عنه يشير إلى ما يعاين ويضرب الأمثلة لإخراجه *وتعيينه لنا حتى فهمنا مراده*، والحمد لله.

وقد عرضناه عليه المرة بعد الأخرى فقال ذلك هو مرادي وذلك الاختلاف منحصر في سبعة أوجه:

الأول اختلاف القراءة بالحركات والسكون وأوجه الإعراب مثل:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾. بخفض أليم ورفعها.

الثاني اختلاف القراءة بزيادة الحروف ونقصانها مثل:

﴿وَسَارِعُوا﴾ ﴿سَارِعُوا﴾ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً﴾ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً﴾.

الثالث: اختلاف القراءة بزيادة الكلمات ونقصانها مثل:

﴿إِنَّ الله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

بإثبات كلمة هو في قراءة ونقصانها في أخرى.

الرابع اختلاف القراءة بالتقديم والتأخير مثل وقتلوا وقاتلوا بالبناء للمفعول في الأول وللفاعل في الثاني وعكسه، ومثل:

﴿فَيَقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حقًّا﴾.

فإنه قرىء على الوجهين أيضاً، ومثل:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

وقرىء وجاءت سكرة الحق بالموت وهي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلحة بن مطرف وزين العابدين.

الخامس اختلاف القراءات بمخارج الحروف مثل الصراط بالإشمام فإن مخرج الإشمام غير مخرج الصاد، ومثل اختلاف مخرج القاف في قيل بالكسر والإشمام وكذا حيل وجيء وسيء وسيق، وكذا الصلاة بلام مفخمة ومرققة، وكذا الراء المفخمة في نحو منذر والمرققة.

السادس اختلاف القراءة بالفتح والإمالة الإدغام والإظهار.

السابع اختلاف القراءة بالبطء والإسراع، فإنه ﷺ كان يرتل تارة ويسرع أخرى.

قال رضي الله عنه: وهذه الأوجه المختلفة مرتبطة بالأنوار الباطنية زيادة على ما سبق في تقسيم الحروف والحركات، فالترتيل والبطء في القراءة ينشأ عن الروح، والإسراع مع إقامة الحروف ينشأ عن القبض، والإمالة تنشأ عن النبوة، والفتح عن الرسالة، والإشمام كله للروح، وعدمه للنبوة، وزيادة الحروف للقبض ونقصانها للروح، وزيادة الكلمات للرسالة، ونقصانها للعلم، والتقديم للآدمية، والتأخير للعلم، والحركات التي لا خلاف فيها مثل:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ كلها للبسط.

قلت: فهذا كلامه المنوّر رضي الله عنه. وقد عدّ ابن قتيبة في المشكل أوجه القراءات وقد نقل كلامه ابن الجزري في النشر وابن حجر في الشرح، وقد اعترض عليه قاسم بن ثابت في الدلائل، وكذا عدها أبو الفضل الرازي، ثم ابن الجزري في النشر على خلاف متقارب بينهما وكذا القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار.

وإذا تأملت ما عدوه مع عد الشيخ رضي الله عنه ظهر لك الحق إن شاء الله تعالى، لا سيما وعدّ الشيخ رضي الله عنه ناشىء عن الكشف الصحيح فإنه لا يعرف من القراءة شيئاً إلا ما شاهده في كشفه الصريح ولا سيما وما عده مربوط بالأنوار الباطنية كما سبق. وهذا آخر الكلام في هذه المسألة، والله تعالى ينفعنا به في الدنيا والآخرة إنه سميع قريب، وحسبنا الله وكفى به وكيلاً.

وسألته رضي الله عنه عن قوله ﷺ:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ».

كذا رواه البخاري وغيره، ورواه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة:

«جزء من خمسة وأربعين» ورواه الطبري والإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

«جُزْءٌ مِن تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ».

بتقديم التاء على السين، ووقع في شرح القرطبي:

«جُزْءٌ مِنْ سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ».

بتقديم السين على الباء الموحدة، ورواه الطبري أيضاً عن عبادة:

«جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ».

ورواه ابن عبد البر عن أنس موقوفاً:

«جُزْءٌ من سِتَةٍ وَعِشْرِينَ».

ووقع في شرح النووي:

«جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ».

ووقع في شرح ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى:

«جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ».

ووقع فيه أيضاً:

«جُزْءٌ مِنْ سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ».

فهذه تسع روايات، خمس في الأربعين، وأربع في العشرين. وبقيت روايات أخر وهي رواية سبعين، ورواية اثنين وسبعين، ورواية ستة وسبعين، ورواية الخمسين، ورواية الأربعين، ورواية اثنين وأربعين، فهذه خمس عشرة رواية أصحها رواية ستة وأربعين، ثم رواية خمس وأربعين، والباقي فيه مقال إلا رواية سبعين فإنه أخرجها مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه.

فقلت له رضي الله عنه: ما المراد بأجزاء النبوة؟ وما الحكمة في اختلاف هذه الروايات؟ وهل يمكن الجمع بينها وتخريج الحديث على جميعها؟ فإن هذا أمر حارت فيه عقول الفحول من أكابر المحدثين ولم ينفصلوا. فيه على طائل.

فقال رضي الله عنه: أجزاء النبوة هو ما سبق في أجزاء آدميتها وفي أجزاء قبضها وفي أجزاء بسطها وفي أجزائها هي بنفسها.

أما أجزاء آدميتها: فكمال الصورة الظاهرة، وكمال الحواس الظاهرة، وكمال الصورة الباطنة، وكمال الحواس الباطنة والذكورية، ونزع حظ الشيطان، وكمال العقل فهذه سبعة.

وأما أجزاء قبضها: فالحاسة السارية في الذات، والإنصاف، والنفرة عن الضد وعدم الحياء من قول الحق، وامتثال الأمر، والميل إلى الجنس، والقوة الكاملة في الانكماش فهذه سبعة.

وأما أجزاء بسطها: فالفرح الكامل، وسكون الخير في الذات، وفتح الحواس الظاهرة، وفتح الحواس الباطنة، ومقام الرفعة وحسن التجاوز، وخفض جناح الذل فهذه سبعة.

وأما أجزاؤها هي بنفسها: فقول الحق والصبر، والرحمة الكاملة، والمعرفة بالله عز وجل والخوف التام منه، وبغض الباطل والعفو فهذه سبعة.

ومجموع ذلك ثمانية وعشرون.

وقد سبق شرح هذه الأجزاء كما ينبغي فراجعه فيما سبق، ثم تسقط الذكورية من هذا العدد لأن الرؤيا تعم الذكر والأنثى فيبقى سبعة وعشرون وعلى ذلك تخرج رواية سبعة وعشرين السابقة. عن ابن أبي جمرة وإن أسقطنا كمال الصورة الظاهرة لكونه لا تعلق له بخصوص الرؤيا، وإن كان من أجزاء النبوة فالباقي ستة وعشرون عليها تخرج رواية ستة وعشرين السابقة عن ابن عبد البر، وإن أسقطنا كمال الصورة الباطنة لتلك العلة أيضاً فالباقي خمسة وعشرون وعليها تخرج رواية خمسة وعشرين السابقة عن ابن أبي جمرة، وإن

أسقطنا كمال الحواس الظاهرة لتلك العلة كان الباقي أربعة وعشرين وعليها تخرج رواية أربعة وعشرين السابقة عن النووي.

قال رضي الله عنه: هذا إن وقعت التجزئة من النبوة بدون رسالة وإلا فيزاد على العدد السابق أجزاء الروح، وهي الزوق للأنوار والطهارة والتمييز والبصيرة وعدم الغفلة وقوة السريان، وكونها لا تحس بمؤلمات الأجرام، فهذه سبعة، ويزداد عليها أيضاً أجزاء العلم. وهي الحمل للمعلوم، وعدم التضييع ومعرفة سائر اللغات، وجميع ما تنطق به الطيور والبهائم، ومعرفة العواقب ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الكونين، ومعرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين، وانحصار الجهات في أمام، فهذه سبعة، ويزاد على ذلك أيضاً أجزاء الرسالة وهي سكون الروح في الذات سكون الرضا والمحبة والقبول والعلم الكامل غيباً وشهادة، والصدق مع كل أحد، والسكينة والوقار، والمشاهدة الكاملة وكونه يموت وهو حي وكونه يحيا حياة أهل الجنة، فهذه سبعة فمجموع ذلك أحد وعشرون إلى ثمانية وعشرين فيكون المجموع تسعة وأربعين، وعلى ذلك تخرج رواية الطبري وأحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص «جزء من تسعة وأربعين» وإن أسقطنا الذكورية وكمال الصورة الظاهرة كان الباقي سبعة وأربعين وعليها يتخرج رواية القرطبي من أنها «جزء من سبعة وأربعين» وإن أسقطنا مع ذلك كمال الصورة الباطنة كان الباقي ستة وأربعين، وهي الرواية السابقة عن البخاري الصحيحة المتفق عليها، وإن زدنا في الإسقاط كمال الحواس الظاهرة كان الباقي خمسة وأربعين.

قال رضي الله عنه: فهذا توجيه هذه الروايات السبعة والباقية لا أعرف لها وجهاً في الصحة.

فقلت فهذا التوجيه الذي ذكرتموه والتخريج الذي أبديتموه ليس فيه عد الرؤيا في أجزاء النبوة بحال، والحديث يقتضي أنها من جملة الأجزاء لأنه ﷺ قال:

«الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ».

فهذا يقتضي أنها واحدة من هذه الأجزاء وأنتم لم تعدوها من الأجزاء.

فقال رضي الله عنه: الرؤيا الصالحة تستمد من جزء من الأجزاء الآدمية الذي هو نزع حظ الشيطان، ومن جزء من أجزاء الروح الذي هو البصيرة، فالبصيرة إذا نزلت على نزع حظ الشيطان من الذات تولد من مجموعها المرائي الحسان.

فقلت: فهذا يقتضي أن يقول في الحديث إنها جزآن بالتثنية من أجزاء النبوة لأن نزع حظ الشيطان والبصيرة جزآن لا جزء واحد فتكون الرؤيا على هذا جزءين لا جزء واحد.

فقال رضي الله عنه: مدار الرؤيا في الحقيقة على نزع حظ الشيطان، وأما جزء الروح

فيها فهو تابع ومساعف، فمن نزع الله منه حظ الشيطان كانت أفكاره كلها في الخير، فإذا نام رأى الخير الذي كان فكره يخوض فيه فكانت رؤياه صالحة، ومن لم ينزع منه حظ الشيطان كانت أفكاره بخلاف ذلك، فكانت مرائيه غير صالحة.

قلت: وهذا الذي قاله الشيخ رضي الله عنه محض الكشف وصفاء المعرفة، وأما العلماء رضي الله عنهم فما عد واحد منهم هذه الأجزاء وأحالوا عدها على العارفين بحقائق النبوة وخصالها الأشياء ٧ وقد تكلف الإمام الحليمي رضي الله عنه لذلك أشياء أوردت ذكرها لتقف على حقيقة الحال.

قال الشيخ علاء الدين القونوي رحمه الله: وقد قصد الحليمي في هذا الموضع بيان كون الرؤيا الصالحة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فذكر وجوهاً من الخصائص العلمية للأنبياء تكلف في بعضها حتى أنهاها إلى العدد المذكور وتكون الرؤيا واحداً من تلك الوجوه: فأعلاها تكليم الله بغير واسطة، ثانيها الإلهام بلا كلام، ثالثها الوحي على لسان الملك، رابعها نفث الملك في روعه أي قلبه، خامسها كمال عقله، سادسها كمال حفظه حتى يحفظ الصورة كلها إذا سمعها مرة، سابعها عصمته من الخطأ في اجتهاده ثامنها ذكاء فهمه حتى يسع ضروباً من الاستنباط، تاسعها كمال بصره حتى يبصر من أقصى الأرض ما لا يبصر غيره، عاشرها كمال سمعه حتى يسمع من أقصى الأرض ما لا يسمعه غيره، حادي عشرها كمال شمه كما وقع ليعقوب في قميص يوسف، ثاني عشرها تقوية جسده حتى سار في ليلة واحدة مسيرة ثلاثين، ثالث عشرها عروجه إلى السموات رابع عشرها مجيء الوحي له في مثل صلصلة الجرس، خامس عشرها تكليم الشاة، سادس عشرها إنطاق النبات، سابع عشرها إنطاق الجذع، ثامن عشرها إنطاق الحجر تاسع عشرها إلهامه عواء الذئب أن يفرض له رزقاً، العشرون فهمه رغاء البعير، الحادي والعشرون سماعه صوتاً ولا يرى متكلماً، الثاني والعشرون تمكنه من مشاهدة الجن، الثالث والعشرون تمثل الأشياء المغيبة كتمثل بيت المقدس له صبيحة ليلة الإسراء، الرابع والعشرين حدوث أمر يعلم به العاقبة كما قال في الناقة لما بركت بالحديبية.

«حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

الخامس والعشرون إستدلاله باسم على أمر كما قال لما جاء سهيل بن عمرو.

«سَهُلَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ».

السادس والعشرون أن ينظر شيئاً علوياً يستدل به على أمر يقع في الأرض كما قال:

«إِنّ هٰذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ».

السابع والعشرون رؤيته من ورائه، الثامن والعشرون اطلاعه على أمر قد وقع لمن مات قبل أن يموت كما قال في حنظلة الغسيل.

«إِنِّي رَأَيْتُ المَلائِكَةَ تُغَسِّلُهُ».

وكان جنباً قبل أن يموت التاسع والعشرون أن يظهر ما يستدل به على فتوح مستقبله كما جرى يوم الخندق، الثلاثون إطلاعه على الجنة والنار في الدنيا الحادي والثلاثون الفراسة، الثاني والثلاثون طواعية الشجرة له حتى انتقلت بعروقها وغصونها من مكان إلى مكان، الثالث والثلاثون قصد الظبية وشكواها ضرورة خشفها الصغير، الرابع والثلاثون معرفته بتأويل الرؤيا بحيث لا يخطىء فيها أبداً، الخامس والثلاثون معرفته بالحزر والخرس حتى يجيء كما قال، السادس والثلاثون هداية الخلق إلى الأحكام، السابع والثلاثون هدايته إياهم إلى سياسة الدين والدنيا، الثامن والثلاثون الهداية إلى طرق الخيرات والرشاد، التاسع والثلاثون الهداية إلى مصالح البدن بأنواع الطب، الأربعون الهداية إلى أوجه القربات، الحادي والأربعون الهداية إلى الصناعات النافعة، الثاني والأربعون الإطلاع على الغيب مما لم ينقله أحد قبله، الثالث والأربعون الإطلاع على ما سيكون، الرابع والأربعون التوقيف على أسرار الناس ومخبآتهم، الخامس والأربعون تعليم طرق الاستدلال، السادس والأربعون الإطلاع على طريق التلطف في المعاشرة.

قال: فقد بلغت خصائص النبوة العلية ستة وأربعين وجهاً ليس فيها وجه إلا وهو يصلح أن يكون مقارناً للرؤيا الصالحة التي أخبر أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة والكثير منها وإن كان قد يقع لغير النبي لكنه للنبي لا يخطىء أصلاً، ولغيره قد يقع فيه الخطأ، والله أعلم اهـ ملخصاً.

قلت: وفيه نظر لأنه قصد عد أجزاء النبوة مطلقاً والوجوه التي ذكرها غالبها مقصور على نبينا فقط ﷺ، وذلك كتكليم الشاة وتسليم الحجر وحنين الجذع، والفهم عن الذئب والبعير والغزالة وتمثيل بيت المقدس له وقوله:

«حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ». وقوله: «سَهُلَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ». وقوله: «إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ».

وعلمه بجنابة حنظلة، وما وقع في حفر الخندق وطواعية الشجرة له، وانتقالها من مكان وإلى مكان وغير ذلك، فإن هذه لا يمكن أن تكون من أجزاء النبوة لأنها جزئيات بأعيانها وقعت وانقطعت، ثم الستة الأولى من هذا العدد تندرج تحت معرفة اللغات كما لا يخفى، كما أن قوله:

«حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

إلى تمام الخمسة بعده يندرج في معرفة العواقب. فهذه إحدى عشرة خصلة رجعت إلى خصلتين، ثم جميع هذه الست والأربعين خصلة التي قال إنها من وجوه العلم ترجع بأسرها إلى خصلة واحدة من خصال الرسالة وأجزائها، وهي العلم الكامل غيباً وشهادة كما سبق في شرحه، فقد رجعت خصاله إلى خصلة واحدة من خصال الرسالة وأجزائها.

وبالجملة فما زاد الحليمي رضي الله عنه على أن عمد إلى بعض الخوارق الظاهرة على يديه ﷺ فعدها من أجزاء النبوة المطلقة الموجودة فيه وفي سائر الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ثم هذه الخوارق يجوز في غالبها أن يكون كرامة لأولياء أمته ﷺ، لأن ما كان معجزة لنبي يجوز أن يكون كرامة لولي، كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة رضي الله عنه. فتبين أن الخوارق المذكورة تكون لغير الأنبياء فليست من أجزاء النبوة بحال، والله أعلم.

وقال الغزالي رحمه الله: ولا يظن أن تقدير النبي ﷺ يجري على لسانه كيفما اتفق بل لا ينطق إلا بحقيقة الحق وذلك كقوله:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَة مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ».

فإنه تقدير تحقيق، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف تلك النسبة إلا بتخمين، لأن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص: منها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته وملائكته والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره، بل عنده من كثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق ما ليس عند غيره، وله صفة يبصر بها الملائكة ويشاهد بها الملكوت كالصفة التي يفارق بها البصير الأعمى، وله صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب ويطالع بها ما في اللوح المحفوظ كالصفة التي يفارق بها الذكي البليد، وله صفة بها يحاول الأفعال الخارقة للعادة كالصفة التي يحاول بها غيره الأفعال الاختيارية، فهذه صفات ثابتة للنبي ﷺ يمكن انقسام كل واحدة إلى أقسام، بحيث أنا يمكننا أن نقسمها إلى أربعين أو إلى خمسين أو إلى أكثر وكذا يمكننا أن نقسمها إلى ستة وأربعين جزءاً بحيث تقع الرؤية الصحيحة جزءاً منها لكنه لا يرجع إلا إلى ظن وتخمين، لا أنه الذي أراده ﷺ حقيقة اهـ ملخصاً.

ونقلناه هنا لتعلم جلالة شيخنا رضي الله عنه ومكانته من العلم والعرفان، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال المازري: لا يلزم العالم أن يعلم كل شيء جملة وتفصيلاً، فقد جعل الله تعالى للعالم حداً يقف عنده، فمنه ما لا يعلم المراد منه جملة وتفصيلاً ومنه ما يعلم المراد منه جملة لا تفصيلاً، وهذا من هذا الفصل اهـ.

يعني حديث الستة والأربعين جزءاً ومثله لابن بطال وابن العربي والخطابي وغيرهم.

وقال ابن بطال عن أبي سعيد السفاقسي إن بعض أهل العلم ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه في المنام ستة أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك في اليقظة بقية حياته، ونسبة وحي المنام منها جزء من ستة وأربعين جزءاً لأنه عاش بعد النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح ورد من وجوه:

أحدها أن ما بعد وحي المنام وحي اختلف في مدته ولم يتفق على أنها ثلاث وعشرون سنة.

ثانيها: أن هذا وإن صح في رواية ستة وأربعين فما يقول صاحب هذا التوجيه في باقي الروايات كرواية خمسة وأربعين وتسعة وأربعين، ورواية السبعين والخمسين وغير ذلك مما سبق؟

ثالثها: أنا لا نسلم أن مدة وحي المنام كانت ستة أشهر وما دليله؟

رابعها: أن ما بعد وحي المنام لم ينحصر في اليقظة بل منه الوحي في المنام أيضاً، والرؤية الصالحة فينبغي ضمها للستة أشهر فتزيد الأشهر بذلك. وأجيب عن الثالث بأن ابتداء الوحي كان على رأس الأربعين من عمره ﷺ كما جزم به ابن إسحاق وغيره، وذلك في ربيع الأول ونزول جبريل إليه وهو بغار حراء كان في رمضان وبينهما ستة أشهر. وردّ هذا الجواب أولاً بأنه لم يتفق على أن الشهر هو رمضان، فقد ذهب جماعة إلى أنه رجب وذهبت جماعة أخرى إلى أنه ربيع الأول، وثانيها فإنه على تقدير تسليمه ليس فيه تصريح بالرؤيا. وأجيب عن الرابع بأن مرادنا بالرؤية المتتابعة لا مطلق الرؤيا حتى يلزمنا التلفيق. وأجيب عن الثاني وهو اختلاف الأعداد التي في الروايات أنه وقع بحسب الوقت الذي حدّث به النبي ﷺ بذلك كان يكون لما أكمل ثلاث عشرة سنة بعد مجيء الوحي إليه حدث بأن الرؤيا جزء من ستة وعشرين وذلك وقت الهجرة، ولما أكمل عشرين حدث بأربعين، ولما أكمل اثنين وعشرين حدث بأربعة وأربعين، ثم حدث بستة وأربعين في آخر حياته. وأما ما عدا هذه الروايات فضعيف، ورواية الخمسين تحتمل أن تكون لجبر الكسر، ورواية السبعين للمبالغة وما عدا ذلك لم يثبت، وهذه مناسبة لم أر من تعرض لها قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله.

ثم قال: ويبقى فى أصل المناسبة إشكال وهو أن المتبادر من الحديث إرادة تعظيم رؤيا المؤمن الصالح والمناسبة المذكورة تقتضي قصر الخبر على صورة ما اتفق لنبينا ﷺ، كأنه قيل كانت المدة التي أوحى إلى نبينا فيها في المنام جزء من ستة وأربعين جزءاً من المدة التي أوحى إليه فيها في اليقظة، ولا يلزم من ذلك أن تكون كل رؤيا لكل صالح تكون كذلك، وقد أنكر الشيخ ابن أبي جمرة التأويل المذكور فقال: ليس فيه كبير فائدة ولا ينبغي أن يحمل كلام المؤيد بالفصاحة والبلاغة على هذا المعنى، ولعل قائله أراد أن يجعل بين النبوة والرؤيا الصالحة نوع مناسبة ويعكر عليه الاختلاف في عدد الأجزاء اهـ.

وقد تكلف جماعة من العلماء مناسبات الاختلاف المذكور.

فقال الإمام أبو جعفر الطبري: رواية السبعين عامة في كل رؤيا صادقة من كل مسلم، ورواية الأربعين خاصة بالمؤمن الصادق الصالح، وأما ما بين ذلك فبالنسبة لأحوال المؤمنين.

وقال الإمام ابن بطال: أما الاختلاف في العدد قلة وكثرة فأصح ما ورد فيها من ستة وأربعين ومن سبعين، وقد وجدنا الرؤيا تنقسم قسمين جلية ظاهرة كمن رأى في منامه أنه أعطى ثمراً فأعطى ثمراً مثله في اليقظة فهذا القسم لا غرابة في تأويله ولا رمز في تفسيره وخفية غير ظاهرة وهذا القسم لا يعبره إلا حاذق لبعد ضرب المثل فيه، فيمكن أن هذا من السبعين والأول من الستة والأربعين، لأنه إذا قلت الأجزاء كانت الرؤيا أقرب إلى الصدق وأسلم من وقوع الغلط في تأويلها بخلاف ما إذا كثرت الأجزاء.

قال: وقد عرضت هذا الجواب على جماعة فحسنوه وزادني بعضهم فيه أن النبوة كانت على مثل هذين الوصفين تلقاها الشارع عن جبريل، فقد أخبر أنه كان يأتيه الوحي مرة فيتكلم معه من غير كلفة، ومرة يلقي إليه حملاً وجوامع يشتد عليه أمرها، حتى يأخذه البرحاء وينحدر منه العرق. ولخصه المازري فقال: قيل إن المنامات دلالات والدلالات منها ما هو جلي، ومنها ما هو خفي، والأقل في العدد هو الجلي، والأكثر فيه هو الخفي، وما بين ذلك لما بين ذلك.

وقال الإمام أبو محمد بن أبي حمزة رحمه الله تعالى. ما حاصله: إن النبوة جاءت بالأمور الواضحة وفي بعضها ما يكون فيه إجمال مع كونه مبيناً في موضع آخر. وكذلك المرائي، منها ما هو صريح لا يحتاج إلى تأويل، ومنها ما يحتاج فالذي يفهمه العارف من الحق الذي يخرج منها جزء من أجزاء النبوة، وذلك الجزء يكثر مرة ويقل أخرى بحسب فهمه، فأعلاهم من يكون بينه وبين درجة النبوة أقل ما ورد من العدد، وأدناهم الأكثر من العدد وما عداهما ما بين ذلك اهـ.

قلت: وحاصله أن الأدنى في العدد بالنسبة لأقوى الناس فهما في الرؤيا والأعلى بالنسبة للأضعف والأوسط للأوسط وفيه نظر، لأن اختلاف العدد حينئذ راجع إلى فهم المعبر الذي لم تقع له الرؤيا، ولو كان كما قال لكان لفظ الحديث هكذا فهم الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً، فتكون المزية في فهمها لا فيها وهو مخالف لغرض الحديث، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن الرؤيا التي هي من الله والتي هي من الشيطان.

فقال رضي الله عنه: إن من الذوات ذوات أقيمت في الحق وعلقت به، ومن الذوات ذوات أقيمت في الباطل وعلقت به، وأمدت كل واحدة بما يليق بها، ويديم عليها حالتها، ثم ضرب مثالاً بسائلين كل واحد منهما يسأل عشرة دنانير فأعطيها وفرح غاية الفرح، فأما أحدهما ففرحه برب العطية وسروره به بحيث إن ذلك يشعشع في باطنه وابتهج به سره وصار ذلك ديدنه وهجيراه في ليله ونهاره، فهذا هو الذي أقيم في الحق وعلق به والثاني فرحه بالدنانير ليقضي بها حاجته فإذا وجدها ذهب خاطره مع الحوائج التي تقضي بها، فإذا

قضاها وتم مراده منها رجع للطلب ويقول يا رب أعطني عشرة أخرى وقلبه مبتلي بالحوائج، وإليها ينظر، وقوله يا رب أعطني ليس فيه إلا مجرد إمرار الاسم على لسانه مع فراغ القلب من معناه لكونه مغموراً بالانقطاع والحجاب، فهذا هو الذي أقيم في الباطل وعلق به، فمرائي الأول من الله لتعلقه به، ومرائي الثاني من الشيطان لتعلقه به، والكل من الله عز وجل، وإنما أضيفت الثانية للشيطان لأنه يرضى بها ويحبها لبني آدم لأنها ناشئة عن الظلام الذي يحبه الشيطان محبة الفرع لأصله إن أصله الظلام.

قلت: وهكذا ذكر أئمة الحديث ابن حجر وابن العربي وابن بطال وابن أبي جمرة وغيرهم أن المرائي كلها من الله عز وجل وإنما أضيفت للشيطان لرضاه بها.

وسألته رضي الله عنه: عن الرؤيا الصادقة والكاذبة.

فقال رضي الله عنه: الرؤيا الصادقة هي التي يكون قلب صاحبها في المنام في معاينة الحق ومشاهدته، كما قد يكون ذلك في اليقظة، والرؤيا الكاذبة بالعكس فهي التي يكون قلب صاحبها في المنام في مثل ما تقول العامة ذهب بوهم وجاء بوهم فيكون محجوباً عن معاينة الحق في المنام كما قد حجب عنه في اليقظة.

فقلت: فإن رؤيا بعض أهل الظلام قد تكون صادقة لا يحجب قلب صاحبها وقد سبق أن رؤيا أهل الظلام من الشيطان وما كان من الشيطان فلا بد من الحجاب معه، وقد رأى الملك الرؤيا التي قص الله في كتابه العزيز حيث قال:

﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ الآية.

فقال رضي الله عنه: إنما كان ذلك لأن فيها سراً وحقاً ليوسف عليه السلام وهي سبب شهرته وخروجه من السجن واستيلائه، على أن رؤيا الكافر قد تخرج إذا تعلق بها أمر لغيره وهذه الرؤيا عم حكمها جميع من عاصر الملك، فهي رؤيا لغيره لا لخصوص نفسه.

فقلت: فرؤيا صاحب السجن خاصة بهما وقد خرجت كل واحدة عنهما فأين حكم الغير هٰهنا؟

فقال رضي الله عنه: إنما كان ذلك لأن فيها حقاً ليوسف عليه السلام وهي سبب لشهرته وخروجه من السجن واستيلائه على الملك، وبالجملة فأهل الظلام لا تصدق رؤياهم إلا إذا كان فيها حق للغير، أو كان فيها شهادة باستقامة الدين الحق الذي لم يكن الرائي عليه أو كانت سبباً في توبته أو نحو ذلك.

قلت: ومثله في فتح الباري قال الحافظ ابن حجر في باب رؤيا أهل المجون والفساد والشرك.

قال أهل العلم بالتعبير: إذا رأى الخائن أو الفاسق الرؤيا الصالحة فإنها قد تكون

بشرى له بهدايته إلى الإيمان مثلاً أو إلى التوبة أو إنذاراً عن بقائه على الكفر والفسق، وقد تكون لغيره ممن ينسب إليه من أهل الفضل؛ وقد يرى ما يدل على الرضا بما هو فيه، وتكون من جملة الابتلاء والغرور والمكر نعوذ بالله من ذلك اهـ.

قلت: إذا رأى ما يدل على الرضا بكفره فليست بصالحة لأن الصالحة هي الصادقة أو أخص منها كما قرره هو قبل ذلك، فلعله انتقل ذهنه إلى ما يراه الكافر مطلقاً لا بقيد كونه صالحاً.

وسألته رضي الله عنه عن الرؤيا التي تضر والتي لا تضر إذا كانت محزنة، بعد أن حكيت له حكاية المرأة التي رأت كأن سارية بيتها قد سقطت، وأنها ولدت ولداً أعور، وكان زوجها غائباً في تجارة وقت الرؤيا، فقصت ذلك على النبي ﷺ فقال لها عليه الصلاة والسلام:

«يَرْجِعُ زَوْجُكِ سَالِماً إنْ شاءِ الله وَتَلِدِينَ وَلداً صَالِحاً».

ثم رجعت المرأة مرة أخرى فلم تجده عليه الصلاة والسلام، فقصتها على عائشة فقالت لها عائشة: إن صدقت رؤياك ليموتن زوجك الغائب، وتلدين ولداً فاجراً، فلما دخل عليه الصلاة والسلام وأعلمته عائشة بالرؤيا والتعبير كره ذلك وقال:

«مَهْ يَا عَائِشَةُ: إِذَا عَبَّرْتِ لِلْمُسْلِمَ فَعَبِّرِيهَا عَلَى خَيْرٍ، فَإِنَّ الرُّؤْيَا تَكُونُ عَلَى مَا تُعَبَّرُ عَلَيْهِ».

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الدارمي بسند حسن عن سليمان بن يسار عن عائشة رضي الله عنها.

فقال رضي الله عنه: الرؤيا المحزنة إنما هي تنبيه من الله للبعد واختبار له، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه؟ فإذا كان العبد متعلقاً به تعالى ورأى الرؤية المحزنة لم يلتفت إليها ولم يبال بها لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده الأمور وتصاريفها، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة فلا يهوله أمر الرؤيا ولا يلقى لها بالاً، وهذا هو الذي لا تضره بإذن الله، وإذا كان العبد غير متعلق بربه ورأى الرؤيا المحزنة جعلها بين عينيه وعمر بها باطنه وشغل بها سره وانقطع بها عن ربه ويقدر أنها نازلة به لا محالة ويذهله أمرها عما سبق به القدر، ومن خاف من شيء سلط عليه فهذا هو الذي نضره الرؤيا.

فقلت: فلم أمر الرائي بالتعوذ بالله من شرها وشر الشيطان وبالنفث عن يساره ثلاثاً؟

فقال رضي الله عنه: إن قلوب المؤمنين تنام على الله وتفيق على الله فإذا ناموا ناموا وربهم في قلوبهم، وإذا استيقظوا استيقظوا وهو تعالى في قلوبهم، فإذا رأى واحد منهم رؤيا تحزنه فإنه إذا استيقظ يتزلزل قلبه عن حالته التي نام عليها، فأمره النبي ﷺ بالرجوع

إلى الحالة الأولى وذلك بأن يرجع إلى الله تعالى ويجعله بينه وبين الرؤيا المحزنة وهو معنى الاستعاذة بالله فيتعلق به تعالى وينقطع عن الرؤيا المحزنة، ولما كان الشيطان لا يحب رجوعه إلى الله أمر أن يستعيذ بالله منه بأن يجعل الله تعالى بينه وبين اللعين فينقطع عنه ويتعلق بالحق سبحانه، وأمر بالنفث استقذاراً للحالة التي رجع عنها لما فيها من الانقطاع عنه تعالى فنفث عن يساره ثلاثاً استقذاراً لها.

قال رضي الله عنه: وإنما أمر بالنفث عن يساره لأن جهة اليسار منها يأتي الشيطان.

قال رضي الله عنه: والخير كله من جهة اليمين فالحافظ الكاتب القوي في النور على جهة اليمين، والضعيف في النور على جهة الشمال، والجنة من جهة اليمين؛ وجهنم من جهة الشمال، وجبريل عليه السلام لم يأته قط ﷺ إلا من جهة اليمين وأرواح الشهداء لا ينظرها ﷺ إلا من جهة اليمين لأنه عليه الصلاة والسلام بعد موتهم في بدر وأحد وغيرهما كان يتوحشهم فينظر عن يمينه فيراهم فرساناً راكبين مجاهدين، والعرش من جهة اليمين، والأرض من جهة الشمال والأرض التي فيها المؤمنون من بني آدم من جهة اليمين، والتي فيها الجن من جهة الشمال، والعروق التي في الجانب الأيمن تسبح الله كثيراً بخلاف التي في الشمال فإنها صمة مصمتة، ونور الحق يأتي من جهة اليمين، والباطل من جهة الشمال، وبالجملة فالخير كله من جهة اليمين والشر كله من جهة الشمال.

فقلت: ما المراد باليمين؟.

فقال رضي الله عنه: أما بالنسبة للمفتوح عليه فإنه يرى كل خير من جهة يمينه ويرى كل شر من جهة شماله ثم يتحول الأمر إذا تحول حتى أنا لو فرضناه متوجهاً نحو المشرق فإنه يرى من جهة يمينه التي هي إلى ناحية الجنوب كل خير فيشاهد الجنة والعرش وأرواح الشهداء ويرى من جهة شماله التي هي إلى ناحية الشمال جهنم والشياطين، وأرواح الأشقياء وغير ذلك من وجوه الظلام فلو تحول وانقلب إلى جهة المغرب ورجعت يمينه إلى ناحية الشمال وشماله إلى ناحية الجنوب فإنه يرى من جهة يمينه جميع الخيرات السابقة وغيرها، ويرى من جهة شماله التي هي إلى ناحية الجنوب جميع أنواع الشرور السابقة وغيرها، وهكذا إذا انقلب إلى جهة أخرى فإن الحال ينقلب.

قال رضي الله عنه: وسر ذلك أن العارف له مرآتان ينظر بهما إحداهما نورانية لا يرى بها إلا النور وما شاكله، والأخرى ظلمانية لا يرى بها إلا الظلام وما شاكله فالنورانية في يمينه وهي نور إيمانه بالله عز وجل، والظلمانية في يساره وهي شهوات النفس الخبيثة وخبثها بالإضافة إلى نور الإيمان، فإذا نظر إلى جهة يمينه كان نظره بنور إيمانه فيرى ما يشاكله من كل ما هو حق ونور، وإذا نظر إلى جهة شماله كان نظره بظلام شهوات النفس فيرى ما يشاكله من كل ما هو ظلام وباطل، لأن نظره بنظر طبيعة ذاته لأنه فيه روح وذات،

فلما سكنت الروح في ذاته سكون المحبة والرضا والقبول مع الإيمان قام بهما نور وهو نور إيمانه واختلط في ذاته، وكان واحداً والعقل هو الناظر، فإذا نظر بمرآة نور الروح رأى الطيبات، وإذا رأى بمرآة نور الذات رأى الظلام وما يماثله قاله عبد العزيز، وعلى هذا فتخرج حديث الأسودة التي على يمين آدم عليه السلام التي إذا نظر إليها ضحك، والأسودة التي هي عن يساره عليه السلام التي إذا نظر إليها بكى، والأسودة الأولى أرواح السعداء والثانية أرواح الأشقياء.

قال رضي الله عنه؛ وكان النفث ثلاثاً لأن الأولى من الذات، والثانية من الروح، والثالثة استعانة من العبد بالحق سبحانه، فهذا سر التثليث وإنما أمر العبد بالتحول عند يقظته عن الجنب الذي كان عليه لإبطال حكم النوم الأول، فيصير بمنزلة من ابتدأ نوماً آخر ذاكراً فيه الله تعالى بخلاف ماذا لم يتحول فإنه بمثابة من بقي على نومه الأول.

وأما الأمر بالصلاة فقال رضي الله عنه: إنه عليه الصلاة والسلام أمر به مرة، قلت؛ وهو في صحيح مسلم ولم يذكره مرة أخرى.

قلت: وهو الذي في صحيح البخاري فمن شاء فعله بأن يقوم للصلاة ومن شاء بقي على حالته وسر الأمر بالصلاة ليمحو الظلام الذي دخل في ذاته من الرؤيا المحزنة فيخرجه بالصلاة ويطهر ذاته منه.

قلت: وهذه آداب الرؤيا المحزنة وهي أن يتعوذ بالله من شرها وأن يتعوذ من شر الشيطان، وأن ينفث عن يساره ثلاثاً، وأن يتحول عن جنبه الذي رأى وهو نائم عليه الرؤيا المحزنة، وأن يقوم للصلاة، والأربعة الأول لا بد منها، والخامسة يتخير فيها النائم.

قلت: لأن الأربعة الأول وردت في سائر الروايات، والخامسة وردت مرة دون أخرى.

وبقي أدبان، ذكرهما العلماء.

الأول: قراءة آية الكرسي، قال ابن حجر: ذكره بعض العلماء ولم أقف على سند له قال الشيخ رضي الله عنه: وهو كذلك فإنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بقراءتها.

والثاني: أن لا يذكرها لأحد وهو في صحيح البخاري، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله ورد في صفة التعوذ من شر الرؤيا أثر صحيح أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد الرزاق بأسانيد صحيحة عن إبراهيم النخعي قال:

«إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ في مَنَامِهِ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ إِذَا اسْتَيقَظَ: أَعُوذُ بِمَا أَعاذَتْ بِهِ مَلائِكَةُ الله وَرُسُلِهِ مِنْ شَرِّ رُؤيَايَ هٰذِهِ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْهَا مَا أَكْرَهُ في دِينِي وَدُنْيَايَ».

وورد في الإستعاذة من التهويل في المنام ما أخرجه مالك قال:

«بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ ابْنَ الْوَلِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُرَوَّعُ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرَوَّعُ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ ﷺ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَعَذَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ».

وأخرجه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يفزع في منامه فذكر نحوه، وزاد في أوله:

«إِذَا اضْطَجَعْتَ فَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَعُوذُ بِاللهِ».

فذكره وأصله عند أبي داود والترمذي وحسنه الحاكم وصححه والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن الرؤيا التي عبرها أبو بكر بحضرة النبي ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام:

«أَصَبْتَ بَعْضاً وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً».

وقد أخرج القصة البخاري في صحيحه حيث قال حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن ابن عباس كان يحدث:

«أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ، فَأَرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْهَا فَالْمُسْتَكْثِرُ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَإِذَا سَبَبٌ وَاصِلٌ مِنَ الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ فَأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلاَ بِهِ، ثُمَّ أَخَذَهُ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلاَ بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وَصَلَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَاللهِ لَتَدَعُنِي فَأَعْبُرُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اعْبُرْ، قَالَ: أَمَّا الظُّلَّةُ فَالإِسْلاَمُ، وَأَمَّا الَّذِي يَنْطِفُ مِنَ الْعَسَلِ وَالسَّمْنِ: فَالْقُرْآنُ حَلاَوَتُهُ تَنْطِفُ فَالْمُسْتَكْثِرُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَأَمَّا السَّبَبُ الْوَاصِلُ مِنَ الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ: فَالْحَقُّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ تَأْخُذُ بِهِ فَيُعْلِيكَ اللهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ ثُمَّ وُصِلَ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ، فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي: أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَصَبْتَ بَعْضاً وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً، قَالَ: فَوَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَتُحَدِّثُنِّي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ؟ قَالَ لاَ تُقْسِمْ».

قوله: ظلة: بضم الظاء المعجمة سحابة لها ظل، وقوله: تنطف: بطاء مكسورة ويجوز ضمها ومعناه تقطر، وقوله: وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء في رواية ابن وهب «وأرى سبباً واصلا من الأرض إلى السماء» والسبب هو الحبل، وقوله: أعبر في رواية ابن عيينة عبرها بتشديد الباء؛ وقوله: أما الظلة فالإسلام وأما الذي ينطف من العسل والسمن، في رواية سليمان بن كثير «وأما العسل والسمن فالقرآن في حلاوة العسل ولين اللبن» وقوله: لا تقسم في رواية ابن ماجه «لا تقسم يا أبا بكر».

وقد اختلف العلماء رضي الله عنهم في الوجه الذي وقع لأبي بكر رضي الله عنه فيه الخطأ، فقال المهلب ومن تبعه، موضع الخطأ في قوله ثم وصل له لأن في الحديث ثم وصل ولم يذكر له، وكان ينبغي لأبي بكر أن يقف حيث وقفت الرؤيا ولا يذكر الموصول له، فإن المعنى أن عثمان يقطع به الحبل ثم وصل لغيره أي وصلت الخلافة لغيره، وقال عياض: قيل خطؤه في قوله وصل له وليس في الرواية إلا أنه وصل وليس فيها له وكذلك لم يوصل لعثمان وإنما وصل لعلي: أي وصلت الخلافة لعلي. ورد هذا بأن لفظة له وإن سقطت من رواية الليث عند الأصيلي وكريمة فهي ثابتة عند أبي ذر عن شيوخه الثلاثة، وكذا في رواية النسفي وهي ثابتة في رواية ابن وهب وغيره عن يونس عند مسلم وغيره وفي رواية معمر عند الترمذي وفي رواية سليمان عن ابن عيينة عند النسائي وابن ماجه وفي رواية ابن حسين عند أحمد وفي رواية سليمان بن كثير عند الدارمي وأبي عوانة كلهم عن الزهري. وزاد سليمان بن كثير في روايته فوصل له فاتصل فاللفظة حينئذ ثابتة في الحديث. والمعنى حينئذ أن عثمان كاد ينقطع عن اللحاق بصاحبه بسبب ما وقع له من تلك القضايا التي أنكروها عليه، فعبر عنها بانقطاع الحبل ثم وقعت له الشهادة فوصل فاتصل بهم. وذهب قتيبة بن سعيد وأبو محمد بن أبي زيد وأبو محمد الأصيلي وأبو بكر الإسماعيلي وأحمد بن نصر الداودي وغيرهم إلى أن الخطأ في مبادرته رضي الله عنه لتعبيره الرؤيا قبل أن يأمره عليه الصلاة والسلام بذلك أي أصبت في التعبير وأخطأت في المبادرة. ورد هذا بأنه رضي الله عنه استأذن النبي ﷺ في التعبير فأذن له، وحينئذ فلا مبادرة لأن التعبير إنما كان بعد الإذن وبأنه خلاف المتبادر من قوله «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً» فإن المتبادر منه أنه أصاب بعضاً من التعبير، وأخطأ بعضاً من التعبير.

وذهب الطحاوي والخطابي وابن العربي وابن الجوزي وجماعة إلى أن الخطأ في تعبيره السمن والعسل بالقرآن فعبرهما بشيء واحد، وكان من حقه أن يعبرهما بشيئين كما وقع في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقد أخرجه أحمد قال:

«رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ فِي إِحْدَى أُصْبُعَيَّ سَمْناً وَفِي الأُخْرَى عَسَلاً، وَأَنَا أَلْعَقُهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَكَرْتُ ذٰلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَال: تَقْرَأُ الْكِتَابَيْنِ التَّوْرَاةَ وَالْفُرْقَانَ، فَكَانَ يَقْرَؤُهُمَا بَعْدَ ذٰلِكَ».

ففسر في هذا الحديث السمن والعسل بشيئين، فكذا في هذا الحديث ينبغي تعبيرهما بالكتاب والسنة، أو بالعلم والعمل، أو بالحفظ والفهم، أو بغير ذلك، وقيل الخطأ في تفسير الظلة بالإسلام وكان ينبغي أن يفسرها بالنبي ﷺ، ويفسر السمن والعسل بالكتاب والسنة، وقيل الخطأ بمعنى الترك، أي تركت بعضاً فلم تعبره حيث لم يتعين الرجال الثلاثة الذين بعد النبي ﷺ ولهذا لم يبر النبي ﷺ قسمه، لأن إبرار القسم إنما يطلب إذا لم تترتب عليه مفسدة ولا مشقة ظاهرة، فإن كان ذلك فلا إبرار، ولعل المفسدة في ذلك ماعلمه من

سبب انقطاع الحبل بعثمان المفضي ذلك إلى قتله واشتعال نار تلك الحروب والفتن، فكره ذكر ذلك خوف شيوعه بين الناس، وأيضاً لو أبر قسمه للزم تعيينهم، ولو عينهم لكان نصاً على خلافتهم وقد سبقت مشيئة الله تعالى أن الخلافة تكون على هذا الوجه فترك تعيينهم مخافة أن يقع في ذلك مفسدة، قال جميعه محيي الدين النووي رحمه الله.

وذهبت طائفة إلى الإمساك عن الخوض في هذه المسألة تعظيماً لجانب الصديق رضي الله عنه، حتى قال أبو بكر بن العربي رحمه الله: سألت بعض الشيوخ العارفين بتعبير الرؤيا عن الوجه الذي أخطأ فيه أبو بكر فقال: من الذي يعرفه ولئن كان تقدم أبي بكر بين يدي النبي ﷺ للتعبير خطأ فالتقدم بين يدي أبي بكر لتعيين خطئه أعظم وأعظم فالذي يقتضيه الحزم والدين الكف عن ذلك فقال رضي الله عنه الظلة هي الإسلام والعسل والسمن اللذان تنطف بهما أفعال العباد المقبولة مطلقاً، ولا يختص ذلك بتلاوة القرآن، بل ذلك يعم جميع أوجه الطاعات المقبولة من صلاة وصيام وحج وزكاة وصدقة وعتق وحبس وقضاء حاجة لمؤمن وحضور جنازة وفداء الأسرى وغير ذلك مما تتحرك فيه الذوات من الأعمال الظاهرة، وهذه الأعمال الظاهرة هي الصاعدة إلى البرزخ فتشاهدها الأرواح التي في البرزخ ويقولون هذه حسنة فلان بن فلان الذي سيقدم علينا يوم كذا وكذا فيشاهد عمله الصالح أبوه وجده وجد جده مثلاً وسواء في هذه المشاهدة الأرواح التي نزلت إلى الأرض ثم رجعت إلى البرزخ والتي لم تنزل بعد الأعمال إلى الأرض، حتى أنه لو فتح على صبي صغير لأوقف الناس على أعمالهم الصالحة ويقول أنت يا فلان ورد علينا عملك الفلاني ونحن في البرزخ يوم كذا وكذا، وأنت يا فلان ورد علينا عملك المقبول قبل ذلك أو بعده، ولكن الله تعالى قضى بستر ذلك فأنسى ذلك، الأرواح بعد دخولها في الأشباح.

ثم هذه الأعمال الظاهرة على قسمين منها ما هو متمحض لله تعالى ولا يصل الخلق منه نفع في الظاهر، وذلك كالسجود لله والركوع له وعبادته بالصلاة والصوم والخوف منه والرغبة إليه وغير ذلك من الطاعات التي بين العبد وربه سبحانه.

ومنها ما يلحق العباد منه نفع كالعتق والصدقة والحبس وفداء الأسرى وقضاء الحوائج وسائر القربات التي فيها نفع للخلق.

وجزاء القسم الأول من الله لعبده: أن يمده بنور من عنده يزيد به إيمانه ويقوي به عرفانه، فتمحى من قلبه الوساوس وتضمحل منه الشكوك ويصفي إيمانه في الدنيا وتعظم مشاهدته في الآخرة، فجزاء هذا القسم نور محض وقوة في الإيمان.

وأما القسم الثاني: فجزاؤه بإصلاح الذات، وذلك بتكثير الرزق ودفع المصائب النازلة فيحصل للذات نفع عظيم لأنه إذا دفعت عنها المصائب ومنعت منها ووصلت إليها الأرزاق الكثيرة فإنها تتمتع بذلك وتنمو به غاية النمو هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة فإن تلك الصدقات التي نفع بها العباد ترجع عليه نعماً من جنس ما يجب ويشتهي مفروك أو كعك أو طيور تؤكل أو أزواج تنكح أو غير ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

فخرج من هذا أن جزاء القسم الأول نافع في الإيمان، وجزاء القسم الثاني نافع في إصلاح الذوات، وإلى القسم الأول الإشارة بالعسل المذكور في الرؤيا، وإلى القسم الثاني الإشارة بالسمن المذكور فيها أيضاً، ووجه ذلك أن العسل يجلب القوة للذات ويهضم الأضرار التي تمانع القوة ولا يخصب الذات ولا ينبت فيها لحماً، فأشبه القسم الأول الذي يجلب قوة الإيمان للذات دون الأرزاق، وينفي عنها الشكوك والشبه، ويصفي نور الإيمان، والعسل كذلك يقوي الذات وينقيها من الضعف ويصفيها من الوهن والرخو، وأما السمن فإنه مخصب للذات وينبت فيها اللحم ويسمنها وينميها ولا تكتسب به قوة مثل القوة التي تكسبها من العسل، فأشبه السمن القسم الثاني من الأعمال الي تدر الأرزاق وتدفع المصائب الخارجة عن الذوات فهذان القسمان من الأعمال هما المقصودان بالعسل والسمن في هذه الرؤيا، فالعسل مقو والسمن منم، والقسم الأول مقو للإيمان، والثاني منم للأرزاق، فتشاكل العسل مع القسم الأول، وتشاكل السمن مع الثاني.

فقلت: فأي القسمين أحسن وأفضل؟

فقال رضي الله عنه: أيهما أحسن لك، أن تكون رقيقاً مثل العشبة وفيك قوة الأربعين رجلاً أو سميناً لا تقدر على المشي وليس فيك قوة؟

فقلت: الأحسن لي أن أكون رقيقاً وبي قوة أربعين رجلاً.

فقال رضي الله عنه: فذلك هو قياس الأعمال التي تزيد في نور الإيمان والتي تزيد في الأرزاق.

ثم قلت: هذه الأعمال الظاهرة المنقسمة إلى القسمين صاعدة من الأرض إلى السماء، والعسل والسمن في الرؤيا نازلان لا صاعدان، فكيف ساغ تفسيرهما بالأعمال المذكورة مع اختلافهما في النزول والصعود.

فقال رضي الله عنه: الصعود والنزول إضافيان فقد يكون الصعود عندنا نزولاً عند غيرنا فلعل روح الرائي كانت في السماء من الوجه الذي يقابلنا لا من الوجه الذي يقابل السماء الثانية، ولا شك أن أهل الوجه الذي يقابلنا رؤوسهم إلينا وأرجلهم على ذلك الوجه وحيث كانت رؤوسهم إلينا فإنهم يرون الصاعد من الأرض إلى السماء نازلاً عليهم، وأيضاً فإن المقصود من الرؤيا أن يعلمها الرائي ويتبينها، فلو جعلت ظلة الإسلام في الأرض فوق رؤوسنا لحجب عن الرائي ما يصعد منها، فلأجل ذلك جعل الصعود نزولاً، ففي النزول أيضاً تأويل وتعبير لا أنه على حقيقته.

قال رضي الله عنه: والحبل الممدود من السماء إلى الأرض هو الإيمان الكامل، ولكن ليس كل إيمان كامل مراداً بل بشرط كونه في الأمراء الذين يقيمون حدود الشريعة على الكمال في أنفسهم وفي رعيتهم، لأن ذلك الحبل متصل بالظلة وهو السبب في إمطارها للسمن والعسل حتى نزل على الناس وتكففوه بين مستكثر ومستقل، ولا يكون الإيمان الكامل سبباً في قبول أعمالهم وكثرة طاعاتهم وظهور الخيرات عليهم وصعودها مقبولة إلا إذا كان صاحبه يأخذ على أيدي المؤمنين فينصر الضعيف ويرد القوي عنه ويقيم حدود الشريعة على الكمال، فعند ذلك تكثر الخيرات في العباد وتقل منهم المعاصي، فلا يزنون ولا يسرقون ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وحينئذ فالأمة كلهم أخيار أبرار، والأمير بمنزلة من يشد للناس عمود الإسلام ويمطر عليهم خيراته وبركاته، وهذه الحالة كانت في زمانه ﷺ على الكمال.

قال رضي الله عنه: وأما الأمراء الثلاثة المذكورون في الرؤيا، فاختلف الأولياء العارفون فيهم.

فذهبت طائفة من الأولياء ويقال لهم الطائفة الصديقية أتباع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأشياخي من هذه الطائفة إلى أن المراد بهم الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، والقطع بعثمان هو ما أنكر عليه، والوصل هو موته رضي الله عنه شهيداً.

وذهبت طائفة أخرى من الأولياء ويقال لهم الطائفة الحسينية، أتباع الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى أن هؤلاء الأمراء أشراف من ذرية النبي ﷺ ومن بيت النبوة والرسالة تجتمع الكلمة الإسلامية على اثنين منهم، وتجتمع على الثالث ثم تفترق ثم تجتمع، وهو المراد بالقطع والوصل. قال: والمقصود بالرؤيا ما عليه هذه الطائفة، فإن مقام النبي ﷺ عظيم ولا يطأ في موضعه ويصعد في مرقاته إلا نبي أو ولد نبي، ولما كان الحبل واحداً وصعد فيه الأمراء الثلاثة كصعوده ﷺ فيه، آذن ذلك بأن بينه وبين الأمراء الثلاثة مجانسة، وقد علم أن إيمانه الكامل لا يجانسه فيه أحد، فلم تبق المجانسة إلا في نسبه وهي ثابتة في الأمراء الأشراف المذكورين، فإن موضع الواحد وداره لا يدخله إلا هو أو ولده، وأيضاً فإن صاحب الرؤيا من الصحابة وهو عالم بأبي بكر وعمر وعثمان، فلو كانوا مرادين في الرؤيا لعلمهم ولقال بعد قوله فرأيتك يا رسول الله أخذت به وعلوت، ورأيت أبا بكر أخذ به وعلا ثم رأيت عمر أخذ به وعلا ثم رأيت عثمان، فلما أضرب عن ذلك وقال رأيت رجلاً ورجلاً ورجلاً دل على أنه رأى رجالاً لا يعرفهم فليسوا هم الخلفاء الثلاثة.

قلت: وباحثت الشيخ في ذلك أبحاثاً كثيرة ونازعته مراراً عديدة.

فقال رضي الله عنه: الحق هو الذي أقوله لك، وأنهم أشراف لا الخلفاء الثلاثة، ثم آنسني بالدليلين السابقين وقال لي: أنا من الطائفة الصديقية، ولكن الحق أحق أن يقال.

ثم قلت للشيخ رضي الله عنه: وكيف خفي أمر التعبير على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ويعلمه غيره؟ وإن كنا نعلم أن فضل الله يؤتيه من يشاء، إلا أنا نعتقد أن أبابكر الصديق رضي الله عنه سيد العارفين بعد النبي ﷺ، وإمام الأولياء من الصحابة وغيرهم أجمعين، وقد سمعناكم غير ما مرة تقولون، ما في أمة النبي ﷺ من يطيق أبا بكر في العرفان، وليس في أوليائها وصالحيها من يعرف باطن النبي ﷺ كمعرفة أبي بكر، فهو سيد العارفين وإمام المحبين.

فقال رضي الله عنه: أبو بكر رضي الله عنه يعلم أمر هذا التعبير، ويعلم ما هو أكثر منه بعشرة آلاف درجة، ولكن إنما غاب عنه في ذلك الوقت بسبب حضوره ﷺ، فإن أنوار الحاضرين العلمية تغيب عند حضوره عليه الصلاة والسلام، ولا يبقى لها اشتعال لانعكاسها إلى نور المحبة فتثير نار الشوق فيشتغل الفكر بذلك ويستغرق الباطن فيما هنالك، ولا شك أنه إذا غابت أنوار العلم واشتعلت أنوار المحبة والشوق، يصير المتكلم في العلم بمنزلة الساهي عنه، وبمنزلة الذي يقطع في الروح، لأن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، فإذا توجه إلى شيء انقطع عن غيره، ومقصود العارفين وسيدهم هو أبو بكر ومحل رجائهم هو ذات النبي ﷺ فإذا حضرت بين أيديهم لم يلتفتوا إلى علم ولا إلى غيره، لأن العلم من أنوار ذاته عليه الصلاة والسلام، فإذا غابت الذات تعلقوا بأنوارها لتوصلهم أنوارها إليها، فإذا حضرت الذات سقطت الوسائل ووجب التوجه إليه وصرفت القلوب نحو قصدها.

فقلت: فبأي شيء يتوجه إليها؟.

فقال رضي الله عنه: بثلاثة أمور: المحبة والتعظيم والتعجب فيما أعطاه الله تبارك وتعالى وإذا قال النسوة في يوسف عليه السلام:

﴿حَاشَ لله مَا هٰذا بَشَراً إِنْ هٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

فماذا يقوله العارفون في سيد الوجود ﷺ؟ قال: ولا يكمل أمر هذه الثلاثة ويصح التوجه بها إلا إذا انحسرت من العارف سبعة أمور في ذاته عليه الصلاة والسلام فلا يكون لتلك السبعة قصد إلا الذات الشريفة، ومتى نقص واحد منها ظهر الخلل في التوجه: الأول فكر النفس، الثاني الخيال وهو نظر النفس، الثالث العقل، الرابع المثال وهو ينظر العقل، الخامس الذات؛ السادس الروح، السابع العلم، فيشترط في كمال توجه العارف انحصار تصور هذه الأمور السبعة في الذات الشريفة، وإذا انحصرت أنوار هذه السبعة في الذات حصل التوجه بالمحبة والتعظيم والتعجب وانقطعت الآمال عما سوى ذلك. قال: ولو أن العارف إذا كان في هذه الحالة وسئل عن لون ولده هل هو أبيض أم لا؟ فإنه يحصل له الدهش وإن أجاب بشيء، فإنه لا يشعر به، وإذا كان الجواب صواباً فإنما هو لاعتياده التكلم بما أجاب به لا غير، فلذلك وقع لأبي بكر رضي الله عنه ما وقع.

ولو أن سائلاً ترك أبا بكر حتى كان في خلافته وسأله عن تعبير الرؤيا المذكورة، فإنه يسمع منه العجائب والغرائب في ذلك، وما عرفنا نحن هذا التعبير إلا من طريق أبي بكر رضي الله عنه، وكيف يمكن أن نعرف شيئاً ولا يعرفه شيخنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا من المحال، ولكن السر في ذلك هو ما ذكرناه، والله أعلم.

قلت: هذا ما سمعنا من شيخنا الأمي رضي الله عنه، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ولي سنين عديدة وأنا أطلب الشفاء في تعبير هذه الرؤيا فما وجدته في ديوان ولا عند إنسان إلا عند الشيخ رضي الله عنه، ولا يخفي أن الكلام السابق عند الشيوخ المتقدمين بعيد عن الغرض والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن حقيقة الرؤيا المنامية، وكيف هي وبأي شيء تقع؟ فإن الناس اختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً، فذهب الأطباء إلى أنها عن الأخلاط الأربعة فمن غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح في الماء ونحوه لمناسبة الماء طبيعة البلغم، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصعود في الجو ونحو ذلك من الأمور المحزنة، ومن غلب عليه الدم يرى الأمور الحلوة والأشياء المفرحة لأن الدم حلو مفرح، ومن غلبت عليه السوداء يرى الأمور السوداوية والأشياء الحامضة.

قال المازري: وهو مردود، لأنه وإن جوّزه العقل إلا أنه لم يقم عليه دليل ولم تطرد به عادة، والقطع في موضع التجويز غلط.

وذهب الفلاسفة إلى أن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش فما حاذى النفوس منها انتقش فيها.

قال المازري: أيضاً: وهو مردود لأنه تحكم بلا برهان عليه والتناقش من صفات الأجسام. وأكثر ما يجري في العالم العلوي الأعراض، والأعراض لا تناقش فيها.

وذهب المعتزلة إلى أنها خيالات لا حقائق لها، وقصدوا إبطالها كما أنكروا عذاب القبر.

قال ابن العربي في القبس: وجرت المعتزلة على أصولها في تحيلها على العامة في إنكار أصول الشرع في الجن وأحاديثها والملائكة وكلامها، وأن جبريل عليه السلام لو كلم النبي ﷺ بصوت لسمعه الحاضرون.

وذهب صالح المعتزلي إلى أنها رؤيا بعين الرأس.

قال ابن العربي: وهو شذوذ.

وذهب الآخرون إلى أنها رؤيا بعينين في القلب يبصر بهما وأذنين يسمع بهما.

وذهب أهل السنة إلى أنها اعتقادات وإدراكات يخلقها الله تعالى في قلب النائم كما يخلقها في عين اليقظان وقلبه، وإذا خلقها جعلها علامة على الأمور والأشياء يخلقها في ثاني حال، وهذه الاعتقادات تارة يحضرها ملك عند خلقها فتكون الرؤيا مبشرة، وتارة يحضرها شيطان فتكون محزنة.

وذهب بعضهم: إلى أن المرائي لها ملك موكل بها يعرضها على النائم فيمثل له صوراً تارة تكون موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون أمثلة لمعان معقولة.

قال القرطبي وهو مردود لأنه يحتاج إلى دليل.

وذهب بعضهم إلى أن سبب المرائي عروج الروح إلى العرش فيرى النائم ما يقع له، فإن لم يستيقظ حتى بلغت الروح العرش كانت الرؤيا صادقة، وإن استيقظ قبل ذلك كانت كاذبة، واستدل قائله بالحديث الذي أخرجه الحاكم والعقيلي من رواية محمد بن عجلان، عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه، قال: لقي عمر علياً فقال يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب، قال نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا عَبْدٌ وَلاَ أَمَةٌ يَنَامُ فَيَمْتَلِىءُ نَوماً إلاّ عُرِجَ بِرُوحِهِ إِلَى الْعَرْشِ، فَالّذِي لاَ يَسْتَيِقِظُ دُونَ الْعَرشِ فَتِلْكَ الرّؤْيَا الصَّادِقَةُ، والَّذِي يَسْتَيِقِظُ دُونَ الْعَرشِ فَتِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي تَكْذِبُ».

قال الحافظ الذهبي في تلخيصه: هذا حديث منكر ولم يصححه المؤلف يعني الحاكم ولعل الأخذ فيه من الراوي عن ابن عجلان وهو عبد الله الأزدي الخراساني ذكره العقيلي في ترجمته وقال إنه هو غير محفوظ، ثم ذكر من طريق أخرى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليّ بعضه، وذكر فيه اختلافاً في وقفه ورفعه.

وذهب بعضهم إلى أن الرؤيا كلام يكلم الحق سبحانه وتعالى به عبده، واستدل قائله بحديث ورد في ذلك وهو قوله عليه الصلاة والسلام:

«رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ كَلامٌ يُكَلِّمُ بِهِ الْعَبْدُ رَبَّهُ».

وقد أخرجه الحكيم الترمذي عن عبادة بن الصامت ذكره في نوادر الأصول في الأصل الثامن والسبعين، وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر وهو واه وفي سنده مع ذلك من لا يرضى.

قال الحكيم الترمذي: قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مَنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾:

أي في المنام.

وذهب آخرون إلى أن الله تعالى وكل بالرؤيا ملكاً اطلع على أحوال بني آدم من اللوح

المحفوظ فينسخ منها ويضرب لكل واحد على قصته مثلاً، فإذا نام مثل له تلك الأشياء على طريق الحكمة لتكون له بشرى أو نذارة أو معاتبة، والشيطان قد يسلط على الإنسان لشدة العداوة فهو يكيده بكل وجه ويريد إفساد أموره بكل طريق فيتلف عليه رؤياه، إما بتخليط فيها أو بغفلته عنها.

فقال رضي الله عنه: الرؤيا على قسمين خواطر وإدراكات بمثابة حال اليقظة، فإن الشخص في اليقظة له خواطر وهي ما يخطر على باله، وله إدراكات وهي ما يدركه بعقله من العلوم أو يشاهده بحواسه من المحسوسات، فكذلك النائم تارة تكون رؤياه في منامه بخواطر تخلق في قلبه، وتارة تكون بإدراك شيء ورؤيته، فانقسم أمر الرؤيا إلى إدراكات وخواطر.

القسم الأول: الإدراكات. ثم منها ما يضاف للروح، ومنها ما يضاف للذات، وذلك أن الناظر في الحقيقة هو الروح، ونظرها ببصيرتها، وقد سبق الكلام على بصيرتها في أجزاء الروح حيث تكلمنا على حديث.

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

فإن نظرت ببصيرتها فذلك هو الذي يضاف إلى الروح وينسب إليها، وإن نظرت بنظر الذات وقلبها ورأت ما تعتاده الذات من دار ومسجد وبستان، ونحو ذلك فهذه الرؤيا هي التي تضاف إلى الذات وتنسب إليها، وذلك كما أن للروح سمعين:

أحدهما: سمعها الذي ينسب إليها قبل حجبها في الذات، وهو الذي يبلغ إلى مشارق الأرض ومغاربها.

وثانيهما: سمعها الذي ينسب إليها بعد حجبها وهو سمعها من الأذن فقط، وبصرين:

أحدهما: قبل الحجب وهو الذي يبلغ إلى مشارق الأرض ومغاربها ويخرج السبع الطباق.

وثانيهما: بعد الحجب وهو الذي يكون من العين فقط، ومشيتين.

إحداهما: قبل الحجب وهي التي تقطع بها مشارق الأرض ومغاربها في خطوة.

وثانيهما: بعد الحجب وهي التي تكون بالرجل فقط، كذلك لها نظران:

أحدهما: قبل الحجب وهو الذي يكون ببصيرتها ويكون بسائر جواهرها وتنظر به سائر معلوماتها في لحظة ولا قرب ولا بعد عندها في ذلك، حتى أن الذات التي هي فيها والعرش على حد سواء عندها.

وثانيهما: بعد الحجب وهو الذي يكون في القلب فقط، فإذا نام الشخص ورأى شيئاً في منامه فتارة يراه بنظر الروح، وتارة يراه بنظر قلب الذات، والفرق بين ما ينسب للروح وما ينسب للذات، الصفاء والطهارة، فالمنسوب للروح فيه صفاء وطهارة، والمنسوب للذات بخلاف ذلك.

ولذا كان الأول لا تعبير فيه أو فيه تعبير قريب.

وأما الثاني: فإن الرمز فيه يبعد ويخفى ويدق فيه التعبير ويصعب حتى أنا لو فرضنا زيداً جرحه رجل ثم فرضناه رأى ذلك في منامه قبل أن يقع فإنه إن رآه بنظر الروح رأى رجلاً يجرحه فتخرج الرؤيا كما رؤيت، وإن رآه بنظر الذات رأى مثلاً أنه مر بطريق فأصابه فيها عود فجرحه، وإنما كان الأول فيه صفاء وطهارة لأنه بنور الروح ونورها حق فيحاكى الشيء على ما هو عليه، بخلاف الثاني فإنه بنور الذات ونورها فيه باطل والباطل لا يحاكي الشيء على ما هو عليه، بل يقلبه ويغيره فيرى الجمل في المنام ضفدعا ويرى الطائر حجراً والرجل عوداً ونحو ذلك، وقل أن تخلو ذات من الذوات من الظلام، اللهم إلا أن يكون صاحبها معصوماً.

ثم الظلام على درجات بحسب قوته وضعفه ودرجاته عشرة.

الدرجة الأولى: الظلام الداخل على الذات من سهو المكروه كأن يأكل بشماله سهواً ونحوه من المكروهات، فهذا السهو إذا وقع من العبد فإنه يدخل عليه ظلاماً خفيفاً في ذاته، فإذا نام الشخص وذلك الظلام في ذاته فإنه يقلب له الرؤيا قلباً خفيفاً حين يراها مثاله من رأى في المنام الجنة ولم يرد دخولها فتعبيره أنه أراد أن يفعل حسنة غير واجبة ثم رجع عنها ووجه هذا التعبير أن الحسنة سبب في دخول الجنة فوقعت الجنة فالرؤيا عبارة عن الحسنة وعدم إرادة الدخول إشارة إلى امتناعه من فعلها وحقيقة الرؤيا من غير قلب أن يرى أنه أراد أن يفعل حسنة ثم رجع عنها فانقلبت الرؤيا إلى ما ترى قلباً خفيفاً سببه الظلام السابق.

الدرجة الثانية: الظلام الداخل على الذات من سهو الحرام كمن أكل في صيامه سهواً ونحوه من المحرمات التي تقع من العبد سهواً ولا يلحقه فيها إثم للسهو، فإن هذا الظلام يفوق ظلام السهو المكروه ويقلب الرؤيا أكثر منه مثاله من رأى في منامه الجنة وأراد دخولها، فمنع منها فتعبيره أنه يريد فعل فرض الكفاية ثم يرجع عنه ووجه التعبير ما سبق وقد قوي الظلام في هذه الرؤيا حتى رؤى في صورة من يمتنع من دخول الجنة لأن هذا ظلام مانع من فرض الكفاية ناشىء عن فعل الحرام سهواً بخلاف الرؤيا السابقة والله تعالى أعلم.

الدرجة الثالثة: الظلام الداخل على الذات من عمد المكروه أي من فعل المكروه عمداً كمن أكل بشماله عمداً ونحو ذلك، فهذا العمد إذا وقع من العبد فإنه يدخل على ذاته ظلاماً فوق ظلام سهو الحرام فيقلب له رؤياه أكثر من مثاله من رأى شياطين دخلت داره فتعبيره أن امرأته زانية، وأن رجالاً يدخلون عليها، ووجه هذا التعبير أن الشياطين في الرؤيال عبارة عن الزناة للمشاكلة والمشابهة، والدخول عبارة عن الوطء والدار عبارة عن الزوجة، فهذا التعبير لا بعد فيه، وليس فيه قلب كثير، لكن الخبث والظلام كثر في الشيء المقصود بالرؤيا لما فيه من المعرة وهتك الحريم وتمزيق العرض، فالظلام قوي في هذه المرتبة في المعبر عنه وبهذا تعلم أن الظلام يقوى تارة في التعبير وتارة في المعبر عنه.

الدرجة الرابعة: الظلام الداخل على الذات من عمد الحرام أي من فعل الحرام عمداً كمن زنى عمداً أو أفطر في صيامه عمداً أو نحو ذلك، فهذا العمد إذا وقع من العبد أدخل على ذاته ظلاماً فوق ظلام الدرجة التي قبله. مثاله من رأى أنه يمشي أمام شيخ مسلم، فتعبيره أنه ذو معاص وإيمانه صحيح، ووجه هذا التعبير أن الشيخ المسلم هو إيمان الرائي وذلك أن الشيب وكبر السن في الإسلام يدلان على البصيرة فيه، فلما وقع التعبير بالشيخ المسلم عن إيمان الرائي، علمنا أن إيمانه صحيح والتقدم أمامه والمشي قبله يدل على المعاصي، وأن صاحب هذا الإيمان لا يتبعه بل يمشي أمامه ولا يبالي به، فقد قوي الظلام في هذه الرؤيا في التعبير، فإن إطلاق الشيخ على الإيمان الصحيح فيه خفاء كثير والإشارة بالتقدم عليه إلى المعاصي مما يخفي أيضاً، فلهذا قلنا إن الظلام الذي فيه في هذه الدرجة يفوق ما قبله وفيه أيضاً في المعبر عنه ظلام إذ المعاصي أمرها جسيم وخطرها عظيم.

الدرجة الخامسة: الظلام الداخل على الذات من الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة، وذلك أن العقيدة على قسمين خفيفة وثقيلة.

فالخفيفة هي التي لا يخلد صاحبها في النار ولكن يعاقب عليها، مثل اعتقاده أنه تعالى يُرى في الآخرة وأنه تعالى لا يجب عليه جزاء أي الثواب والعقاب بل الثواب من فضله والعقاب من عدله، وأنه تعالى لا يحتاج في فعله إلى واسطة وأن سائر الوسائط وما ينشأ عنها من جملة أفعاله تعالى فالنار وحريقها والطعام وشبعه والسيف وقطعه جميع ذلك من فعله تعالى، وأن الجنة موجودة الآن، وأن النار موجودة الآن، وأنه تعالى لا يظلم أحداً في الدنيا ولا في الآخرة فهذه هي العقيدة الخفيفة، فمن اعتقدها فهو المؤمن حقاً وإيمانه كامل، ومن جهلها بأن اعتقد أنه تعالى لا يرى، وأن الجزاء يجب عليه، وأنه يحتاج إلى واسطة في أفعاله، وأن الجنة والنار غير موجودتين الآن، فصاحب هذا الاعتقاد معاقب يوم القيامة عقاباً فوق عقاب ذنب المعاصي غير الاعتقادية.

وأما العقيدة الثقيلة فهي التي إذا جهلها الشخص لحقه الخلود في نار جهنم، مثل *اعتقاد أنه تعالى موجود*، ووجوده بالقدم والبقاء والمخالفة، وأنه تعالى فاعل بالإختيار

وليس فعله عن طبيعة ولا تعليل، وأنه تعالى هو الخالق لأفعالنا ليس لنا منها شيء، وأنه تعالى لا يشاركه في ملكه كبيرة في الأرض مثل الملوك والوزراء، ولا في السماء مثل الشمس والقمر والنجوم وسائر الملائكة، وأنه تعالى سميع وأنه تعالى بصير، وأنه تعالى عليم، فهذه هي العقيدة الثقيلة، فإذا اعتقدها العبد مع العقيدة الخفيفة كمل إيمانه فإن جهلها العبد أو جهل شيئاً منها حق عليه الخلود في نار جهنم نسأل الله السلامة.

فإذا فهمت هذا فلنرجع إلى الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة فنقول: إنه يدخل على الذات ظلاماً يفوق ظلام ما قبله ويقلب له رؤياه أكثر منه. مثاله: من رأى ميتاً في المنام وهو عالم بأنه ميت وسأله عن حاله وما لقيه من الله عز وجل، فجعل الميت يشكو له حاله وسوء فعاله؛ فتعبيره أنه يدل على حسن دين الرائي وصلاح آخرته، وأن المعاصي التي كان فيها سيتوب منها، ووجه هذا التعبير أن الموعظة في النوم تؤثر لا محالة، فإن الله تبارك وتعالى أقامها للعبد مقام الزجر والتخويف، وما كان من الله تعالى فإنه يمضيه وينفذه وليس في طوق العبد أن يلتقي مع ميت يسأله عن حاله بل ذلك منه تعالى حيث جمع بين الرائي والميت ليسمع منه ما يسمعه ليرحمه تعالى، ولو شاء تبارك وتعالى لتركه متردداً في عمايته فقد قوي الظلام في تعبير هذه الرؤيا وخفي فيها الرمز ودق فيها التعبير أكثر مما قبله والله تعالى أعلم.

الدرجة السادسة: الظلام الداخل على الذات من جهل العقيدة الخفيفة جهلاً مركباً مثل أن يعتقد أنه تعالى لا يرى، أو أنه تعالى يجب عليه الجزاء، ويعتقد أنه على صواب في هذه العقيدة، فهذا الظلام الداخل على الذات من هذا الجهل المركب يوفق الظلام الداخل عليها من المرتبة التي قبلها. مثاله من رأى أنه يأكل من زقوم نار جهنم ويشرب من حميمها فتعبيره أنه يخوض في الحرام جمعاً ومنعاً فهو يجمع الدنيا من غير حلها ولا يصرفها في مستحقها، ووجه هذا التعبير أن الحرام يقود إلى دخول جهنم، والأكل من زقومها، والشراب من حميمها، والظلام فيه من جهة التعبير من حيث أن الزقوم والحميم مكروهان طبعاً، والمال محبوب طبعاً فقد تباينا بالكره والمحبة فصار ذلك بمثابة التعبير عن الضد بضده، وأيضاً فمما يبعد به التعبير أن يكون المعبر عنه في الدنيا والمعبر به في الآخرة أو بالعكس لتباين الدارين، ولبعد ما بينهما رمزاً إلى الفظاعة والبشاعة التي في جهنم والزقوم والحميم فقد قوي الظلام هٰهنا من ثلاثة أوجه وليس ذلك بموجود في شيء مما قبله والله تعالى أعلم.

الدرجة السابعة: الظلام الداخل على الذات من الجهل البسيط في العقيدة الثقيلة مثل من يعتقد شيئاً منافياً لما سبق في العقيدة المذكورة وهو بحيث لو علم لرجع فهذا الظلام يفوق ما قبله. مثاله من رأى أنه دخل جهنم فتعبيره أنه مبتلي بعقوق الوالدين أو نحو ذلك من المعاصي الكبار، ووجه التعبير ظاهر وقوة الظلام فيه من جهة التعبير لاختلاف الدارين،

فإن المرئي في الدار الآخرة والمعبر عنه في دار الدنيا، ومن جهة بشاعة دخول جهنم، ومن جهة المعبر عنه الذي هو عقوق الوالدين، فإنه فوق الخوض في جمع الحرام فلهذا كان ظلام هذه المرتبة أقوى والله تعالى أعلم.

الدرجة الثامنة: الظلام الداخل على الذات من الجهل المركب في العقيدة الثقيلة، مثل أن يعتقد أن العبد يخلق أفعاله ويعتقد أنه على صواب في هذا الاعتقاد، فهذا الظلام يفوق الظلام الذي قبله، ويقلب الرؤيا أكثر منه. مثاله من رأى أنه أخذه ملك وألقاه في جهنم، فتعبيره أنه سيسوقه قدر من قدر الله تعالى إلى معصيته ووجه هذا التعبير أن الملك أشير به إلى القدر، وجهنم أشير بها إلى المعصية، والظلام فيه من حيث أنه أشير إلى القدر بالملك فهو في غاية الخفاء ونهاية الرمز والدقة مع بشاعة ذات الرؤيا فإن أخذ الملك العبد قهراً وإلقاءه إياه في نار جهنم في غاية الأمر المكروه بخلاف الذي رأى أنه دخل جهنم، أو أنه أكل من زقومها وشرب من حميمها إذ لا قاهر له وقاسر فلهذا قلنا إن الظلام في هذه المرتبة أقوى مما قبله والله تعالى أعلم.

الدرجة التاسعة: الظلام الداخل على الذات من الجهل البسيط في الجناب العلي، أعني جنابه ﷺ، مثل أن يعتقد في النبي ﷺ صفة ليس هو عليها، ولكنه بحيث لو علم لرجع، فهذا الظلام الذي في هذه المرتبة يفوق الظلام الذي قبله، فإن النبي ﷺ هو باب الله عز وجل، ومن جهل الباب وضل عنه فإنه لا يمكنه دخول الدار أبداً، فلولا هو ﷺ ما صح لنا إيمان بالله ولا شيء من خير الدنيا وخير الآخرة. مثاله من رأى أنه رجع شاباً والفرض أنه كبير فتعبيره أنه يدرك دنيا عظيمة لا يعمل فيها بطاعة الله عز وجل، ووجه هذا التعبير أن حالة الكبر أشير بها إلى الفقر والشباب الذي رجع إليه أشير به إلى الغنى، وقوة الظلام فيه من جهة التعبير فإن الإشارة بالشباب إلى إدراك الدنيا في غاية الخفاء، ومن جهة المعبر عنه الذي هو إدراك الدنيا فإنها رأس الخطايا وأصل كل معصية لا سيما إن كانت واسعة عظيمة كما في الرؤيا، ومن جهة كونه لا يعمل فيها بطاعة الله عز وجل والله تعالى أعلم.

الدرجة العاشرة: الظلام الداخل على الذات من الجهل المركب في الجناب العلي، على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام، مثل أن يعتقد فيه صفة ليس هو عليها ويعتقد أنه على صواب في تلك العقيدة، فهذا الظلام الداخل على الذات من الجهل المركب المذكور يفوق كل ظلام قبله. مثاله: من رأى أنه يمشي خلف شاب فتعبيره أنه يعمل بعمل قوم لوط، ووجه التعبير فيه ظاهر وقوة الظلام فيه من المعبر عنه، إذ عمل قوم لوط من أكبر الكبائر، نسأل الله السلامة بمنه وكرمه.

قال رضي الله عنه: **وهذه درجات الظلام المنسوبة إلى نظر الذات.**

وأما درجات الطهارة منه المنسوبة إلى الروح فعشرة أيضاً، وهي إعدام العشرة الأولى ونقائض لها ولهذا كانت على عكس ما سبق في الخفة والثقل فإن أثقل درجات العشرة السابقة الجهل المركب في الجناب العلي، وعدمه هو أخف عشرة الطهارة التي للروح، ويليه في الخفة عدم الجهل البسيط في الجناب العلي، ثم عدم الجهل المركب في العقيدة الثقيلة، ثم عدم البسيط فيها، ثم عدم الجهل المركب في العقيدة الخفيفة ثم عدم البسيط فيها ثم عدم عمد الحرام، ثم عدم عمد المكروه، ثم عدم السهو في الحرام ثم عدم السهو في المكروه وهو أثقلها لأن عدم السهو في المكروه قد يكون معه الجهل مركباً وبسيطاً في العقيدتين وفي الجناب العلي، وسنشير إلى أمثلة هذه العلامات العشرة.

ثم اعلم أن الروح إذا نظرت الرؤيا ببصيرتها ونظرها الصافي فإنها لا تراها إلا على ما هي عليه من غير تبديل ولا تغيير، ثم إنها إذا أرادت أن تؤدي نظرت في الذات فإن كانت طاهرة من الظلام معصومة من جميع أوجهه أدتها إليها كما رأتها من غير تبديل ولا تغيير، وإن كان في الذات ظلام فإن القلب والتعبير يقع على حسبه وقدره عند التأدية فيخرج من هذا أن الروح عند تأديتها ما رأت إلى الذات ينقسم تبليغها إلى الذات على هذين القسمين، فالذات الطاهرة لا يحصل لها قلب عند التأدية لأن القلب للرؤيا إنما هو من الظلام، والفرض أن الذات طاهرة منه.

وأما الذات غير الطاهرة فإنه يحصل لها قلب على حسب ما فيها من الظلام لأن الصفاء وإن وقع كان الظلام لها من وجه آخر، وبالجملة فالصفاء إما كلي. وهو الذي لا يكون إلا في ذوات المعصومين عليهم الصلاة والسلام، وإما جزئي: وهو الذي يكون من وجه دون وجه، ولهذا كانت درجاته عشرة ولنرتبها على عكس الترتيب الذي في العشرة الأولى فنقول:

الدرجة الأولى: عدم الجهل المركب في الجناب العلي، فهذا الصفاء من هذا الجهل فوق كل صفاء من غيره ولهذا كانت للرؤيا معه بمثابة ما لا تعبير فيها أصلاً. مثاله من رأى الحق سبحانه راضياً عنه فرحاً به ضاحكاً له، فتعبيره أنه مرضي عنه وأن أفعاله طاهرة عند الله سبحانه وتعالى.

الدرجة الثانية: عدم الجهل البسيط في الجناب العلي، فهذا الصفاء هو دون ما قبله ولكن يليه في المرتبة ولهذا كانت الرؤيا معه فيها تعبير قليل. مثاله من رأى أنه يخاصم الملائكة وتعبيره أنه سيخرج فيه دماميل أو حكة أو كسر في بعض أعضائه بغير سبب عادي، ووجه هذا التعبير أن الذي رأى هو الروح، والملائكة الذين رأتهم هم ملائكة الذات الموكلون بحفظها، والمخاصم لهم هو الروح، وذلك أن الروح لما رأت ما سيقع للذات من دماميل ونحوها، خاصمت الملائكة الحفظة على الذات وكأنها تقول هذا من تفريطكم فيما استحفظتم عليه، فهذه الرؤيا بمثابة الكلام الذي حذف منه شيء فإذا قدر استقام الكلام

واتضح المرام وكذلك هنا لو ذكر سبب الخصومة لا تضح أمر الرؤيا ولم يكن فيها تعبير أصلاً.

الدرجة الثالثة: عدم الجهل المركب في العقيدة الثقيلة، فهذا الصفاء يلي ما قبله، ولهذا كان في رؤياه تعبير. مثاله من رأى أنه بين يدي الله تعالى واقفاً فزعاً مرعوباً، وتعبيره أنه يقع في بلية ويسلمه الله تعالى منها وله فيها أجر عظيم، ووجه هذا التعبير أن الوقوف بين يدي الله تعالى لا يكون إلا في الآخرة ولا يكون إلا للمؤمنين، فإن كان هذا المؤمن لم تصف ذاته من الظلام فإنه لا يخلو من توبيخ في ذلك المنام ثم تكون عاقبته النجاة والخلود في الجنة فإذا رأى النائم أنه واقف بين يديه تعالى عن هذه الحالة فحقيقة رؤياه ما سبق، والرائي في هذه الرؤيا هو الروح، والتعبير إنما وقع عند التأدية للذات لا من ظلام في نظر الروح، فإن كان الرائي لهذه الرؤيا من الأولياء والعارفين أو الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام عبرت بغير ذلك ويطول بنا ذكر ذلك والله تعالى أعلم.

الدرجة الرابعة: عدم الجهل البسيط في العقيدة الثقيلة فهذا الصفاء يلي ما قبله: مثاله: من رأى عزرائيل عليه السلام وهو يضحك معه ويفرح به فهو طول عمر الرائي ووجه هذا التعبير أنه ليس للشخص ما يفرح به مع هذا الملك الكريم إلا طول العمر فالظلام والواقع عند التأدية في التعبير من جهة خفاء الرمز فإن الإشارة بضحك هذا الملك الكريم إلى طول عمر الرائي مما يدق ويخفي والله تعالى أعلم.

الدرجة الخامسة: عدم الجهل المركب في العقيدة الخفيفة فهذا العدم والصفاء بلى ما قبله. مثاله: من رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فتعبيره أنه يدل على محبة الرائي للنبي ﷺ محبة عظيمة، والظلام فيها الذي كان عند التأدية هو من التعبير بأبي بكر عن محبة الرائي له عليه الصلاة والسلام، فإنه لا ملازمة بينهما، ولهذا كان ظلام التأدية فيها أقوى من الذي قبله والله تعالى أعلم.

الدرجة السادسة: عدم الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة فهذا العدم يلي ما قبله، مثاله من رأى ملائكة بموضع، فتعبيره أنه سيبنى فيه مسجد يعبد الله تعالى فيه ويسبح ويقدس، ووجه هذا التعبير ظاهر، وظلام التأدية فيه من بعد عالم الأنوار الذين هم الملائكة المعبر بهم عن عالم الأغيار، الذين هو المسجد المعبر عنه ولا كذلك ما قبله، فإن الملازمة وإن عدمت بين المعبر به والمعبر عنه لكنها من عالم واحد والله أعلم.

الدرجة السابعة: عدم عمد الجرام فهو يلي ما قبله. مثاله: من رأى إسرافيل بمكان فتعبيره أنه يدل على فتنة عظيمة ستقع بذلك المكان أو فرح عظيم، ووجه هذا التعبير أن هذا الملك الكريم عليه السلام هو الموكل بالفتنة والأفراح، وإنما كان ظلام التأدية فيه أقوى مما قبله من جهة أن إسرافيل لم يشتهر بذلك اشتهار عزرائيل بالأعمار مع بعد عالم الأنوار عن عالم الأغيار ففيه ما فيما قبله وزيادة والله أعلم.

الدرجة الثامنة: عدم عمد المكروه فهو يلي ما قبله. مثاله: من رأى شياطين أحاطوا به فتعبيره أن الشياطين لصوص يخرجون عليه. أو سراق يأخذون ماله، أو ناس يغتابونه بغير حق، ووجه التعبير فيه ظاهر وظلام التأدية فيه في المعبر عنه فإنه من الأمر المكروه عند الرائي ولا كذلك ما قبله والله أعلم.

الدرجة التاسعة: عدم سهو الحرام فهو يلي ما قبله، مثال: من رأى القيامة قامت بموضع فتعبيره أن حالة ذلك الموضع ستبدل، فإن كانت على عدل انقلبت إلى ظلم وجور، وإن كانت على عكس فالعكس، وظلام التأدية فيه في التعبير من جهة بعد القيامة الحقيقية من الحالة التي أشير إليها مع أن الانتقال من العدل إلى الظلم بعيد غاية من قيام القيامة إذ لا ظلم فيها، فليس هو كمن رأى إسرافيل عليه السلام كما سبق لأنه عليه السلام صاحب الحالتين في التعبير السابق بخلاف قيام القيامة في مسألتنا والله أعلم.

الدرجة العاشرة: عدم سهو المكروه فهو يلي ما قبله وهو أثقل الجميع وأكثر ظلاماً عند التأدية، مثاله: من رأى أنه حبيب للشياطين وصديق لهم وخليل، فتعبيره أن جلساءه لا خير فيهم ووجه التعبير ظاهر، وانظر إلى الظلام الذي فيها فإنه كاد يكون مثل الظلام الذي في نظر الذات لأن المرء على دين خليله، وإذا كان الجلساء لا خير فيهم فالجليس لا خير فيه، فكاد هذا الظلام الذي في الرؤيا يشير إلى خبث الذات وسوء صنيعها مثل الظلام الذي في الأقسام العشرة المنسوبة إلى الذات، فإن كل قسم منها يشير إلى خبث في الذات وإن اختلفت مراتبها كما سبق والله تعالى أعلم.

فقلت: فمقتضى هذا أن التعبير سببه هو الظلام الذي في الذات وإن اختلف أمره لأنه في رؤيا الروح أوجب التعبير عند التأدية، وفي رؤيا الذات أوجبه في نفس الرؤيا، والنظر كما سبق بيانه، وإذا لم يكن في الذات ظلام لكونها معصومة من سائر الأوجه، كذوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام انتفى التعبير لانتفاء سببه الذي هو الظلام، مع أنا وجدنا كثيراً من مرائي الأنبياء عليهم الصلاة و السلام وقع فيها تعبير مثل رؤيا يوسف عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

فإن الذين سجدوا له حقيقة هم إخوته وأبواه بدليل قوله تعالى:

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

ومن ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾.

فإن المذبوح حقيقة إنما هو الكبش لقوله تعالى:

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

ومن ذلك رؤيا نبينا ومولانا محمد ﷺ في أمر البقر التي تنحر، والسيف الذي في ذبابه كسر، والدرع الحصينة، فأول البقر بنفر من أصحابه يموتون، والكسر الذي في سيفه برجل من أهل بيته يموت، والدرع الحصينة بالمدينة، وأنه إن لم يخرج منها لم ينله مكروه، ومن ذلك رؤياه عليه السلام **«الناس يعرضون عليه وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، وأنه رأى عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا: فما أولتها يا رسول الله؟ قال: الدين»** إلى غير ذلك من مرائيه ﷺ الكثير التي فيها تأويل وتعبير.

فقال رضي الله عنه: نوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس كنوم غيرهم؛ فإنهم في مشاهدة الحق ولو ناموا، ولهذا كانت أعينهم تنام ولا تنام قلوبهم، ولهذا كانت مرائيهم تنقسم إلى معاينة وإلى وحي.

فأما المعاينة: فهو أن يرى النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً في المنام فتخرج الرؤيا كما شوهدت في المنام من غير زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير، فمن ذلك رؤياه عليه الصلاة والسلام أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ الآية.

ولا تنسب الرؤيا هٰهنا لخصوص الروح أو لخصوص الذات، بل لهما معاً لاتفاقهما في الصفاء والطهارة، ومن ذلك أيضاً جميع ما رأى ﷺ ليلة المعراج فإنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرة بروحه كما وقع له مرة أخرى بذاته الشريفة ففي المرة التي وقع له بالروح يكون رؤيا منام فذاته نائمة والروح رأت ما رأت ولم يقع في ذلك تأويل ولا تعبير.

والحاصل أن الرؤيا في هذا القسم تكون بمنزلة رؤية البصر، وكما أنه لا تبديل في البصيرة فكذلك لا تبديل في هذه.

وأما القسم الثاني وهو الوحي فهو كل رؤيا للأنبياء فيها تعبير وتحقيق، ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير في هذا القسم ما في الخارج ولا توجه إليه لا بروحه ولا بذاته، وإنما كلمة الحق سبحانه بما يريد منه من أمر أو نهي أو إخبار بشيء، ولكنه تعالى أقام مقام كلامه العزيز أموراً يخلقها لهم فيرونها وتكون واسطة في معرفة الوحي إليهم. فهي بمنزلة من يأمر بالإشارة وينهى بالإشارة ويخبر عن شيء بالرمز والغمز، فتلك الأشياء التي تقع في مرائيهم أمور وضعها الحق سبحانه للتخاطب فيما بينه تعالى وبين أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهم يفهمون المراد منها كما نفهم نحن المراد من الإشارة المخصوصة والغمز والرمز، ولهذا يمتثلونها عليهم الصلاة والسلام وينزلونها منزلة الوحي في اليقظة.

قال رضي الله عنه: وسر تلك الأشياء الموجودة في المرائي السابقة هو أن البيان

والتخاطب إنما يقع بالأمر الذي فيه المشاهدة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المشاهدة دائماً ولو في حالة النوم، وهم في مشاهدة الحق سبحانه في خليقته بمثابة الطير الذي لا يثبت على حالة فتراه مرة على هذا الغصن، ومرة على غصن آخر، ومرة على هذه الشجرة، ومرة على شجرة أخرى، ومرة في الأرض، ومرة في السماء، فكذلك هم عليهم الصلاة والسلام، مرة تحصل لهم المشاهدة عند رؤيتهم السموات والأرض، ومرة عند رؤية الكواكب والشمس والقمر، فإذا نظروا إلى ذلك استحصروا عظمة الخالق سبحانه وحصلت لهم مشاهدة كبيرة لا تكيف، فإذا أراد تعالى أن يعلمهم في حالة هذه المشاهدة بأمر أجنبي، فإنه يريه لهم فيما فيه المشاهدة، وهذا هو الواقع في رؤيا يوسف عليه السلام، فإنه حصلت له مشاهدة الحق سبحانه وهو نائم عند رؤية الكواكب والشمس والقمر، لأن روحه عرجت إلى السموات فحصلت لها المشاهدة المذكورة، فلما أراد الحق سبحانه أن يعلمه بسجود أبويه وإخوته له، أراه السجود في الكواكب والشمس والقمر التي فيها المشاهدة، وذلك لاشتغال الباطن بما فيه المشاهدة بلا قصد من يوسف عليه السلام إلى غير ما فيه المشاهدة حتى تقع الإرادة فيه، وكذلك حصلت لإبراهيم عليه السلام مشاهدة عند استحضاره نعمة الحق سبحانه على الوالد بولده، وكيف حال تلك النعمة العظيمة، فلما أراد الحق سبحانه أن يعلمه بذبح الكبش الذي هو فداء، أراده الذبح فيما فيه المشاهدة الذي هو الولد والنعمة به وهكذا يقال في سائر المرائي المتقدمة والله أعلم.

هذا ما يتعلق بالقسم الذي هو الإدراكات.

وأما القسم الثاني: وهو الخواطر فقد كنت سألته رضي الله عنه عن سبب الرؤيا وأجابني في ذلك ببيان هذا القسم ونص ما كتبته في ذلك؟.

وسألته رضي الله عن ذات يوم عما يراه النائم في منامه؟

فقال رضي الله عنه: سبب اختلاف المنامات وتنوعها اختلاف خواطر الذات وتنوعها، وسبب اختلاف الخواطر وتنوعها غيبي لا يطلع عليه أكثر الخلق، فقلت وما هو، فقال رضي الله عنه: هو فعل الله سبحانه في قلب العبد، وفعله تعالى في قلب العبد لا يسكن في اليقظة ولا في المنام حتى تخرج الروح من الجسد، وكل حركة للقلب منذ وجد العبد إلى مماته أثر لفعله تبارك وتعالى، يريد منها أمراً معيناً بخصوصه، فيخطر ذلك الأمر على القلب فإذا تحرك القلب ثانياً فلحركته الثانية خطر آخر، وكذا الحركة الثالثة وهلم جرا؛ فإذا أراد الله بعبده خيراً أو علمه منه، كان خاطر الحركة الأولى خيراً، وخاطر الثانية خيراً وهكذا، فإذا أراد الله بعبده سوءاً كان خاطر الحركة الأولى لما أراد سبحانه من السوء، وهكذا خاطر سائر الحركات حتى يتوب الله عليه ويريد به خيراً فتنقلب الخواطر إلى الخير ويتحرك العبد فيه، فكل أعمال العباد تابعة لخواطرهم وخواطرهم تابعة لحركات قلوبهم، وحركات قلوبهم تابعة لأفعال الحق سبحانه في القلوب وإرادته فيها.

فقلت: وهل هذا معنى كون قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبه كيف يشاء؟

فقال رضي الله عنه: نعم فحصل لي وجل عظيم وخوف تام من حركات القلوب وتقلباتها وعلمت أن مبنى السعادة بأسرها والشقاوة برمتها إنما هو على تلك الحركات، نسأل الله تعالى الذي بيده قلوبنا وتحت قهره وسلطانه جميع أمورنا أن يحركها فيما يحب ويرضى.

قال رضي الله عنه: ثم ثمرات هذه الحركات القلبية من خير أو غيره أجلها سبعة أيام، ومعنى ذلك أن مراد الله من الحركة يناله العبد ويدركه في ساعتها أو بعد ساعتها، وقد يتأخر ذلك وغاية تأخيره سبعة أيام، فقد يكون العبد في يوم يعمل عملاً وحركته تقدمت بيوم أو أكثر، وما مثل ذلك إلا كالنبات يظهر بعضه في يوم ويتأخر بعضه ويتقدم بعضه والزريعة واحدة.

﴿فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قال رضي الله عنه: فإذا فهمت هذا وعلمت أن الخواطر مرجعها إلى إرادة الحق سبحانه في القلب، فاعلم أن الشخص له حالتان، حالة اليقظة، وحالة النوم، فأما حالة اليقظة. فالحكم فيها للذات والروح فيها تابعة، وحكم الذات هو الجهل وعدم معرفة الأشياء على حقائقها، فإذا خطر على بال العبد في اليقظة حج فإنه يمر على خاطره من غير زيادة، وإذا مر على خاطره سماء أو جنة أو نار أو نحو ذلك فلا يقع للعبد حالة اليقظة إلا الشعور، وأما حالة المنام، فإن الذوات تركد حواسها وتسكن جوارحها وفعل الله تعالى في القلب دائم لا يسكن يقظة ولا مناماً، فإذا تحرك القلب بخاطر واحد مما سبق فإن الروح تتشوق إليه لانقطاع حكم الذوات، والروح خلقت عارفة، فإذا تشوقت إليه أدركته على ما هو عليه إدراكاً يقوم مقام رؤية العين، فمن رأى في المنام نفسه فوق السموات أو في الحج أو في موضع خاص من الأرض فسره هو ما ذكرناه، وهو أن خاطر ذلك الموضع جرى على القلب فتبعته الروح وأدركته على وجهه إدراكاً كإدراك العين والمشاهدة اهـ الغرض مما كتبته.

والفرق بين هذا القسم الذي هو الخواطر والقسم الأول الذي هو الإدراك وإن كان في كل من القسمين إدراك أن الإدراك إن كان مسبوقاً بالخاطر فالرؤيا أضغاث أحلام لا تعبر، وهي هذا القسم وإن كان الإدراك غير مسبوق بالخاطر بل وقع التوجه والقصد إليه من الذات أو من الروح من غير تحرك من الخواطر، فالرؤيا صحيحة وهي تعبر وأقسامها قد سبقت حيث أنهيناها إلى عشرين قسماً، والله أعلم.

قال رضي الله عنه: وأما من رأى سيد الوجود في المنام ﷺ، فإن رؤياه تنقسم إلى

قسمين: أحدهما ما لا تعبير فيه، وذلك بأن يراه على الحالة التي كان ﷺ في دار الدنيا التي كان الصحابة رضي الله عنهم يشاهدونه ﷺ عليها، ثم إن كان الرائي من أهل الفتح والعرفان والشهود والعيان، فإن الذي رأى هو ذاته الطاهرة الشريفة وإن لم يكن من أهل الفتح، فتارة تكون رؤياه كذلك وهو النادر، وتارة وهو الكثير يرى صورة ذاته الشريفة لا عين ذاته، وذلك لأن لذاته الشريفة الطاهرة صوراً بها يرى ﷺ في أماكن كثيرة في المنام وفي اليقظة، وذلك لأن لذاته ﷺ نوراً منفصلاً عنها قد امتلأ به العالم كله، فما من موضع منه إلا وفيه النور الشريف، ثم هذا النور تظهر فيه ذاته عليه الصلاة والسلام كما تظهر صورة الوجه في المرآة، فأنزل النور بمثابة مرآة واحدة ملأت العالم كله، والمرتسم فيها هو الذات الكريمة، فمن هنا كان يراه عليه الصلاة والسلام رجل بالمشرق وآخر بالمغرب وآخر بالجنوب وآخر بالشمال، وأقوام لا يحصون في أماكن مختلفة في آن واحد، وكل يراه عنده، وذلك لأن النور الكريم الذي ترسم فيه الذات مع كل واحد منهم والمفتوح عليه هو الذي إذا رأى الصورة التي عنده تبعها ببصيرته ثم يخرق بنورها إلى محل الذات الكريمة، وقد يقع هذا لغير المفتوح عليه بأن يمن عليه تعالى برؤية الذات الكريمة، وذلك بأن يجيئه عليه الصلاة والسلام إلى موضعه كما إذا علم منه عليه الصلاة والسلام كمال المحبة والصدق فيها، فأمر المسألة موكول إلى النبي ﷺ، فمن شاء أراه ذاته الكريمة، ومن شاء أراه صورتها، وله ﷺ ظهور في صور أخر وهي صور عدد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وصور عدد الأولياء من أمته من لدن زمانه عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة، والعدد المذكور الصحيح فيه أنه غير معلوم، وقيل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، فله عليه الصلاة والسلام من الصور التي يظهر فيها مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ومثل هذا العدد في أولياء أمته عليه الصلاة والسلام فله عليه الصلاة والسلام الظهور في مائتي ألف وثمانية وأربعين ألفاً، لأن الجميع مستمد من نوره عليه الصلاة والسلام، ومن هنا يقع كثيراً للمريدين رؤيته عليه الصلاة والسلام في ذوات أشياخهم، قلت وقد رأيته ﷺ مرة في صورة شيخنا رضي الله عنه فاحتضنته عليه الصلاة والسلام وأردت أن أدخله في باطني، فقال لي الشيخ رضي الله عنه: هذا لا يكون في مرة واحدة. وإنما يحصل بالتدريج شيئاً فشيئاً يريد أن دخوله عليه الصلاة والسلام في باطن الرائي إنما يكون بالتدريج، وإنما نسبت هذا القول للشيخ رضي الله عنه، لأنه كلمني من جهة أخرى والذات التي احتضنتها لم تزد على التبسم والفرح بي هذا ما تعلق بخاطري، والله أعلم.

القسم الثاني: من رؤياه عليه الصلاة والسلام ما فيه تعبير، والتعبير هٰهنا في درجات الظلام لا في تأويل الرؤيا فإنها على الحقيقة لا تأويل فيها، فإن من رآه عليه الصلاة والسلام فقد رأى الحق عليه الصلاة والسلام، ولنشر إلى درجات الظلام الواقعة في ذلك فنقول من رآه عليه الصلاة والسلام وهو يحرضه على الدنيا فظلام ذاته في الدرجة الأولى وهم سهو المكروه، وإنما كان في هذه الرؤيا ظلام لأن الذي عليه ذاته عليه الصلاة والسلام

هو الدلالة على الحق الباقي سبحانه لا على الدنيا الفانية، ومن رآه عليه الصلاة والسلام وقد أعطاه مالاً فظلامه في الدرجة الثانية وهي سهو الحرام، وإنما كان الظلام هنا أقوى لأن عطاء الفاني والتمكين منه أقوى من الدلالة عليه، ومن رآه عليه الصلاة والسلام في موضع قذر فظلامه في الدرجة الثالثة وهي عمد المكروه، ومن رآه عليه الصلاة والسلام شاباً صغيراً فظلامه في الدرجة الرابعة وهي عمد الحرام ومن رآه عليه الصلاة والسلام كبيراً ولكن لا لحية له فظلامه في الدرجة الخامسة وهي الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة ومن رآه عليه الصلاة والسلام وهو أسود فظلامه في الدرجة السادسة وهي الجهل المركب في العقيدة الخفيفة.

واعلم وفقك الله أن تمام تحقيق الكلام على الرؤيا والعجائب التي فيها موقوف على معرفة علم التعبير، وهو من العلوم الموهوبة المستورة: أي التي يجب سترها وكتمانها، ولي سنين عديدة وأنا أسأل الشيخ رضي الله عنه عن تعبير ما نرى في المنام، فيقول رضي الله عنه: سلني عن كل شيء وأذكر لك ما عندي فيه، إلا عن هذا فلا تسألني عنه، فإنه من الأشياء المستورة، وكم طلبته رضي الله عنه في هذا الباب وأعدت عليه السؤال مرة بعد مرة فيعيد علي الجواب بحاله، إلى أن من الله تعالى بأجوبة سمعتها منه رضي الله عنه فقيدتها، وهي التي سبقت في رؤيا أبي بكر رضي الله عنه: أي التي عبرها أبو بكر رضي الله عنه فرد عليه النبي ﷺ، وما تكلم معي في هذه المسألة إلا على كره وقال: إن تمام تحقيق ما تسأل عنه موقوف على معرفة علم التعبير؛ ولا يدرك بالتعلم لأنه موقوف على معرفة أحوال الرائي الخارجة عن ذاته ككونه من أهل الحاضرة أو من أهل البادية، وككونه من أهل العلم أو من العوام وما حرفته، ككونه بقالاً أو تاجراً أو صانعاً وهل هو من الأغنياء أو من الفقراء، إلى غير ذلك من الأحوال التي لا تكاد تنحصر، وعلى معرفة أحواله الباطنية من كون الروح أمدت الذات بجميع أجزائها وهي ثلثمائة وستة وستون جزءاً أو ببعضها، وهل هو الأكثر أو الأقل؟ وكيف وضع سر العقل في الذات، وفي أي شيء يجول فكر الرائي وخاطره، حتى لو فرضنا مائة رجل جاءوا إلى العالم بهذا العلم وقال كل واحد منهم إني رأيت في المنام أني شربت عسلاً فإنه يعبر لكل واحد تعبيراً لا يلاقي تعبير الآخر، لأن التعبير موقوف على ما سبق من الأحوال الظاهرة والباطنة، ولا يتفق فيها اثنان من تلك المائة فضلاً عن ثلاثة فهذه غاية الفائدة والسلام.

وسألته رضي الله عنه عن معنى قوله ﷺ في الإحسان:

«أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

فقال رضي الله عنه مبيناً له بضرب مثال: إن رجلاً مثلاً لو جاء إلى فضاء لا يرى فيه أحداً، وجعل يهتف باسم غني من الأغنياء وهو غائب عنه، ويقول: يا سيدي فلان أعطني كذا عاملني بكذا أنا محتاج إلى كذا، فإنه في صورة المتلاعب لا في صورة السائل، وكل

من رآه يهزأ به ويضحك منه، فإذا كان يرى في ظنه أن ذلك التلاعب هو غاية السؤال وأنه عاكف على باب ذلك الغني، كان هذا أيضاً منه غاية الوبال وزيادة ضلال على ضلال، قال: ولو أنه لم يسأل ذلك الغني حتى وقف بين يديه وجعل يسأله بلسانه فإنه لا يسأله بلسانه حتى تخضع له ذاته وتذل له أركانه ويبلغ الأرض بين يديه ويتطارح عليه بما أمكنه، ولا يبقى شيئاً من الخضوع إلا أظهره في جوارحه، وحينئذ ينظر فيه ذلك الغني نظرة رحمة ويعطيه سؤاله، فيظن الظان أنه أعطاه لأجل سؤاله اللساني وهو إنما أعطاه لأجل خضوعه الباطني الذي ظهر عليه في سائر أركانه، ومن المحال أن يكون في تلك الساعة سكن غير ذلك الغني في باطنه.

قال رضي الله عنه: فإلى هذا المعنى الذي في المثال وافتراق الحالين الذي فيه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله:

«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

أي من عبد الله على صفة الحضور بين يديه تعالى فقد أحسن عبادته ومن لا فلا، وعلامة العبادة على الحضور وعلى الغفلة أن ينظر إلى باطن العابد وقت العبادة، فإن كان معموراً بمشاهدة أمور فانية وحوائج شاغلة عنه تعالى، فهو بمنزلة الرجل الأول، وإن كان الباطن خالياً من غيره تعالى منقطعاً إليه ومقبلاً عليه تعالى بالكلية، كان صاحبه بمنزلة الرجل الثاني.

فقلت: فقد اختلف حديث البخاري ومسلم، فإن البخاري قدم الإيمان وثنى بالإسلام وثلث بالإحسان، ومسلم قدم الإسلام ثم الإيمان بعده وثلث بالإحسان.

فقال رضي الله عنه: المختار عندي صنيع البخاري وما في حديثه، فإن الإسلام إنما هو ثياب الإيمان، فالإيمان سابق والإسلام بعده.

فقلت: فالإسلام سابق على الإيمان بدليل قوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

فقال رضي الله عنه: نحن نتكلم في الإسلام الحقيقي المذكور في حديث جبريل الذي هو ثياب الإيمان، فإن اختلاف الشيخين البخاري ومسلم إنما وقع فيه، أما إسلام من أسلم بلسانه وبظاهره فقط فهو خواء على خواء ولا شيء في يد صاحبه، وإنما هو بمنزلة من رأى قوماً يرمون الرصاص بالمدافع ويضربون بها وينصبون المدافع نحو الإشارة والهدف ويحدقون أعينهم ويقومونها وينظرون كيف يرمون وهل يصيبون الغرض أم لا؟ فجاء هذا الرجل الناظر إليهم وتشابه بهم، فجعل يمد يداً ويقبض أخرى ويجعل ذلك قائماً

مقام المدفع ثم جعل يقوس عينيه وينظر هل يصيب أم لا؟ فإذا خرجت مدافع أولئك القوم كذب مدفعه هو، لأنه لا مدفع له.

قال رضي الله عنه: فهذا مثال من أسلم بلسانه فقط، فهو يصلي وباطنه يقول لا صلاة لك، ويصوم وباطنه يشهد بأنه لا صيام له، ويزكي ويحج ويجاهد وباطنه يقطع بأنه إنما فعل ذلك صورة، فظاهره في واد وباطنه في واد آخر، كما أن ذلك الرجل يعلم أنه لا مدفع له في يده وإنما هو متلاعب، كذلك المنافقون، يعلمون أنهم ليس في أيديهم شيء من أمور الإسلام، قلت صدق رضي الله عنه في هذا المثال، وقد حكى الله عز وجل عن المنافقين ما في هذا المثال حيث قال تعالى:

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

ولقد فضح الله حال المنافقين بهذا المثال من سوء طويتهم وخبث سريرتهم بما لا مزيد عليه، ولقد كنت قبل سماع هذا المثال أحسب أن لهم صلاة وصياماً وحجاً وزكاة وجهاداً بالقلب والباطن وإنما لم تقبل منهم لكفرهم، فلما سمعت هذا المثال انكشف لي أمرهم وتبين لي وجه كونهم أخبث الكفرة نسأل الله السلامة بمنه وفضله.

وسألته رضي الله عنه: عن حديث المطلب بن حنطب عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«نَظَرْتُ فِي ذُنُوبِ أُمَّتِي فَلَمْ أَرَ ذَنْباً أَعْظَمَ مِنْ آيَةٍ أُوتِيهَا رَجُلٌ فَنَسِيَهَا».

وقلت له: إن الترمذي نقل عن البخاري أن الحديث معلول لكون المطلب بن حنطب لم يسمع من أنس بن مالك، فيكون الحديث منقطعاً بين المطلب وأنس، وروى مثله عن أحمد بن حنبل رحمه الله، فهؤلاء الثلاثة الترمذي والبخاري وأحمد بن حنبل أعلوه بما سبق نقل عنهم ذلك الإمام أبو محمد عبد الحق الأشبيلي في الأحكام الكبرى والحافظ ابن حجر في شرح البخاري، والشيخ عبد الرؤوف المناوي في شرح الجامع الصغير.

فقال رضي الله عنه: الحديث صحيح، ونوره ﷺ فيه، ولكن ليس هو فيمن حفظ الآية ثم نسيها أي نسي لفظها وإن كان عاملاً بها، وإنما هو في الذي بلغه القرآن فأعرض عنه ومنع ذاته من نوره، واستبدله بضده من الظلام، بأن أعرض عن الحق الذي هو فيه وتبع الضلال الذي هو ظلام مبعد عن الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة.

قال كحال المنافقين في زمانه ﷺ؛ فالحديث وارد فيهم وعليهم نازل وإليهم يشير لأنهم من أمة الإجابة التي هي الأمة الخاصة فيما يظهر للناس وليس في ذنوب أمة الإجابة أعظم من نفاقهم وكفرهم الباطني، نسأل الله السلامة.

فقلت: فما نور القرآن الذي تشيرون إليه، فقال رضي الله عنه: فيه ثلاثة أنوار،

الأول نور الدلالة على الله الثاني نور امتثال الأوامر، الثالث نور اجتناب النواهي، فمن منع ذاته من دخول هذه الأنوار الثلاثة فيها وهو يسمعها في القرآن فهو المراد بالحديث.

قال رضي الله عنه: والآية تصدق بآية اللفظ التي يتعلق بها الحفظ والتلاوة، وتصدق بآية المعنى التي يتعلق بها العمل والامتثال، وهذه الثانية هي ذات الأنوار الثلاثة وهي المراد من الحديث المذكور.

قال رضي الله عنه: والآية عند المؤمن من الله تعالى بمنزلة الصك الذي فيه الحق، فإن صاحب الحق لا يضيع صكه وإن ضيعه وفرط فيه ضاع حقه، فكذلك الآية فيها حق للمؤمن، فإن حفظ الآية وعمل بما فيها ثبت حقه عند الله تعالى، واستوجب بها دخول الجنان، وإن فرط فيها وأعرض عنها استهزاء واستخفافاً كان هو صاحب الذنب العظيم المشار إليه في الحديث، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

«تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ أُمِرْتُ بِالْمتَكبِّرِينَ، وقَالَتِ الْجَنَّة مَالِي لاَ يدْخُلَنِي إلاّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطِهِمْ».

فقلت الجنة اعترفت للنار بأنها هي الغالبة حيث اختصت بالمتكبرين، وهي إنما يدخلها المستضعفون.

فقال رضي الله عنه: المسكن في الدار الآخرة تابع لحال ساكنيه، فإن كان ساكنوه أهل كبر وعجب وخيلاء، سرى إلى المسكن شيء من أوصاف ساكنيه، وإن كان ساكنوه أهل تواضع وانكسار وفقر واضطرار سرى شيء من ذلك إلى المسكن أيضاً ولا يخفى أن أهل جهنم أرباب تكبر وتجبر، وأن أهل الجنة أرباب تواضع وانكسار، فظهر على جهنم أوصاف ساكنيها، وظهر على الجنة أوصاف ساكنيها، فظاهر الكلام خرج في المحاجة بين الجنة والنار، والمقصود إظهار باطن أهل هذه، وباطن أهل هذه فلذلك ذكرت النار في احتجاجها ما فيه أنانية واستكبار، وذكرت الجنة في احتجاجها ما فيه تواضع وانكسار. وإذا تأملت علمت أن الحجة قائمة للجنة على النار، لأنه رجع حاصل الاحتجاج إلى أن الجنة كأنها قالت أني لا يدخلني إلا عباد الله المتواضعون الخاشعون العارفون بربهم عز وجل، وإلى أن النار كأنها قالت لا يدخلني إلا المتكبرون المتجبرون الجاهلون بربهم المطرودون عن حضرته وساحة رحمته. وبالجملة فكأن الجنة قالت إني لا يدخلني إلا أحباب الله تعالى، وكأن النار قالت إني لا يدخلني إلا بغضاء الله.

قلت: وهذا الجواب في غاية الحسن وبه ينتفى الإشكال السابق وينتفى به أيضاً إشكال آخر، وهو أن يقال لم لم تقل الجنة إني يدخلني أنبياء الله ورسله وملائكته وعباده المؤمنون فيكون هذا حجة لها على النار فما بالها حتى أظهرت المغلوبية وقالت مالي لا

يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطم، ولم تذكر أشراف الناس وأفضلهم وهم الأنبياء والرسل؟ وذلك لأنا نقول: إن ذلك هو قصدها وكأنها نطقت به وقالته، وإنما أخرجت الكلام في الصورة السابقة إظهاراً للتواضع والانكسار الذي في باطن أهلها، فكل واحد من ساكنيها لا يرى في مخلوقات الله أفقر منه فيرى نفسه أضعف الناس وأفقرهم وأحوجهم إلى الله عز وجل، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عما في الحديث:

من **«أَنَّ سَيِّدَ الْوُجُودِ ﷺ لَمَّا تَأَخَّرَ عَنْهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فِي ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ كَانَ يَصْعَدُ إِلَى شَاهِقِ جَبَلٍ وَيُرِيدُ أَنْ يَرمِيَ نَفسَهُ شَوْقاً إِلَى لِقَائِهِ فَيَبْدُو لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُ: إِنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَسْكُنُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ»**.

فقلت: إلقاء النفس من الشاهق يوجب قتلها، وهو من الكبائر، وإرادة فعل ذلك والعزم عليه معصية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا سيما سيد الوجود ﷺ معصومون من جميع المعاصي قبل البعثة وبعدها.

فقال رضي الله عنه: أعرف رجلاً رمى بنفسه في بدايته من حلقة داره إلى أسفل تسعين مرة في يوم واحد ولم يضره ذلك شيء كما لا يضره النوم على الفراش ذلك لأن الروح في البدايات لها الغلبة على الذات، ونسبة الأكوان للروح على حد سواء فهي تتربع في الهواء كما تتربع على الأرض، وتنام في الهواء مضطجعة كما ينام الشخص على فراشه، والحجر والحرير والصوف والماء في عدم الضرر عندها على حد سواء، فلا ألم في ذلك الإلقاء لو وقع منه ﷺ فضلاً عن القتل، وحينئذ فالغرم عليه لا شيء فيه.

قلت: ومن هذا ما يشاهد في أرباب الأحوال فترى الواحد منهم إذا نزل به حال ضرب الحائط برأسه على ما فيه من الجهد ولا يقع في رأسه خدش فضلاً عن غيره؛ فلله هذه المعارف الصادرة عن شيخنا رضي الله عنه.

قلت: والرجل الذي رمى بنفسه تسعين مرة هو شيخنا رضي الله عنه بنفسه سمعت ذلك منه حين أجابني عن هذا السؤال.

قال رضي الله عنه: وهم يعرفون أن ذلك الإلقاء ونحوه لا يضرهم شيئاً ولا يدفع عنهم شيئاً مما نزل بهم إلا أنه طبع في الذات فتفعله على مقتضي طبعها وعادتها، قال كالذي يضرب بالمركز ويستعين بالصوت الذي يحكى بقولنا اه فهو يعلم أنه لا ينفعه ولكن يفعله طبعاً والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن معنى ما في الحديث من:

«أَنَّ الله تعالى يَأْتِي لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَوْقِفِ فِي صُورةٍ لاَ يَعرِفُونَهَا فَيَسْتَعِيذُونَ بِالله مِنْهُ

وَيَقُولُونَ هٰذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنِا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمْ رَبُّهُمْ فِي صُورَةٍ يَعْرِفُونَهَا فَيَخِرُّونَ لَهُ سُجَّداً».

ما المراد بالصورة الأولى والثانية؟ فإن ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه ذكر في رسالته لفخر الدين رحمه الله: إن هذا الأمر لا يعرفه إلا أولياء الله.

فقال رضي الله عنه: المراد بالصورة الحالة فهما حالتان للباري سبحانه، ففي حالة وهي الأولى يجهله المؤمنون، وفي حالة وهي الثانية يعرفه المؤمنون، وذلك أن الحبيب إذا أراد أن يخاطب حبيبه خرج منه إلى الحبيب مع الكلام أنوار من الحنانة والشفقة والاتصالات التي بينهما. وأما إذا خاطب الواحد عدوه فإنه لا يخرج مع خطابه شيء من تلك الأنوار، بل يخرج الكلام عارياً منقطعاً عنها وهذا أمر معلوم في العادة فإن الحبيب إذا خاطب حبيبه تراه يلين له الخطاب ويتعطف عليه وتكثر رأفته به وينبسط معه غاية الانبساط، وإذا خاطب عدوه انقبض وانكمش وكلح وعبس وبسر وتولى. إذا فهمت هذا فالحالة الأولى للحق سبحانه، خاطب فيها مجموع الأمة أحبابه المؤمنين وأعداءه المنافقين، فخرج الخطاب بغير الأنوار التي يعرفها المؤمنون من ربهم، وإنما كانوا يعرفونها منه عز وجل لأنها في ذواتهم وأرواحهم، وقد أمدهم بها في دار الدنيا، فإذا سمعوا الخطاب على الهيئة الأولى استعاذوا بالله وقالوا «لست أنت ربنا» بل ربنا بيننا وبينه علامة وهي الأنوار التي تكون مع خطابه، فإذا قالوا ذلك قصد بخطابه عز وجل خصوص المؤمنين وقصره عليهم، فأطلق الأنوار مع الخطاب، فإذا هبت عليهم أنوار الخطاب وأحسوا بها علموا أنه هو ربهم سبحانه فخروا له سجداً وهي الحالة الثانية التي يعرفونه عليها، وإنما لم يطلق تعالى الأنوار مع الخطاب الأول لأن الخطاب موجه إذ ذاك للمجموع الذي فيه الأعداء. وفي الحالة الثانية حجب الأعداء وخص بخطابه الأحباب، فخرج مع الكلام الأنوار التي يشاهدونها في ذواتهم ويرون أسرارها في ظواهرهم وفي بواطنهم.

فقلت: فالمؤمنون الذين جهلوه في الحالة الأولى ما المراد بهم، هل جميعهم أو عامتهم؟ فقال رضي الله عنه: هم العامة فقط، أما الخاصة العارفون بربهم فلا يجهلونه في حالة من الأحوال.

فقلت: وهل الخطاب الأول كان للجميع أو العامة؟ فقال رضي الله عنه: إنما كان للعامة فقط، وفي يوم القيامة تخرق العوائد فيكلم الرب سبحانه رجلاً واضعاً رأسه في حجر رجل فيسمعه الرجل الواضع رأسه في الحجر ولا يسمعه الآخر وبالجملة فلا يسمع الكلام إلا من أريد به وغيره يحجب عنه ولو كان في غاية القرب من سامعه.

قلت: وكذا قال ابن العربي في الرسالة المتقدمة: إن العارفين بالله لا يجهلونه في الحالة الأولى وإنما يجهله المحجوبون، وهذا الكلام في غاية الحسن ونهاية اللطافة جمع

فيه الشيخ رضي الله عنه بين المعنى الشريف اللطيف الذي لا تنكره العقول وبين تنزيه الباري جل جلاله عن الصورة والإتيان والمجيء، فإنه على تفسيره رضي الله عنه لا إتيان ولا مجيء ولا صورة تعالي ربنا عن المجيء والصورة.

وأما ما ذكره الشيخ الشعراني في كتابه كشف الران عن وجوه أسئلة الحان في شأن الصورة المذكورة في هذا الحديث فلا يخفي ما فيه فليحذره الواقف عليه. وقد نقل الحافظ ابن حجر في الشرح عن ابن فورك الأستاذ رحمه الله ما يقرب من تأويل شيخنا رضي الله عنه، وإذا وقفت على شيخنا كلام ابن فورك علمت مكانة شيخنا وجلالته في المعرفة نفعنا الله به آمين.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

«إِنَّ قَلْبَ الْعَبْدِ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ».

فقال رضي الله عنه: الأصبع هنا معنوية وهي التصرف التي يكون بها، فالمراد بين تصرفين من تصرفات الرحمٰن، فقلت: وما المراد بالتصرفين؟ فقال: مقتضى الذات ومقتضى الروح، فإن الذات مأخوذة من التراب فهي تميل إلى الشهوة، والروح مخلوقة من النور فهي تميل إلى المعارف والحقائق، فهما في تناقض وتصادم دائماً، فقلت: وما الغالب منهما؟ فقال رضي الله عنه: الروح هي المتصرفة في الحركات والذات هي المتصرفة بالأسرار فالروح غالبة من حيث الحركة والذات من حيث سرها الخبيث، ولذا قلّ الشاكر من العباد حينئذ فهما كشقي الرحى، فالروح بمنزلة الشق الفوقاني لأنه هو المتحرك، والذات بمنزلة الشق السفلاني، لكن يفرض فيه غليان وحريق حتى تكون الرحى الفوقانية كالدائرة على الطنجير فهي تؤثر فيه ظاهراً وهو يؤثر فيها باطناً، أعاذنا الله من درك الشقاء وسوء القضاء.

فقلت: فإن العلماء رضي الله عنهم فسروا التصرفين بلمة الملك ولمة الشيطان.

فقال رضي الله عنه: الملك والشيطان عارضان تابعان، والذي فسرنا به هو الأصل وذلك لأن كل ذات طاهرة أو غير طاهرة لها خواطر، وتلك الخواطر هي الموجبة لفلاحها أو لهلاكها، والملك والشيطان تابعان للخواطر فإن كانت مرضية تبعها الملك وأتى بما يرضى، وإن كانت غير مرضية تبعها الشيطان وأتى بما تقتضيه، وذلك أن كل خاطر لذات فهو سرها، فإن كان طاهراً فهي طاهرة وإلا فلا. مثاله في المحسوسات إذا أخذت مداً من قمح ومداً من شعير ومداً من حمص ومداً من فول، ثم طحنت كل واحد على حدته وجعلته طعاماً ثم بخرته في الكسكاس، فإذا أخذت تتأمل في بخار كل طعام وجدته مبايناً للآخر، ووجدته يشير إلى حقيقة صاحبه، فكذلك الخواطر منزلتها من الذوات منزلة تلك الأبخرة من الأطعمة، فشأن الخواطر عظيم وخطبها جسيم، والمدار كله عليها والملك

والشيطان تابعان لها، فكم خاطر يجعل صاحبه في عليين، وكم خاطر يجعل صاحبه في أسفل سافلين، والخواطر المرضية هي مقتضى الروح وظهرت في الذات لطهارتها، والخواطر الخبيثة هي مقتضى طبع الذات وشهوتها والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

«الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ الله فِي أَرْضِهِ».

فقال رضي الله عنه: هو على التشبيه، فإن من أراد أن يدخل في حرمة ملك وجنابه وحكاه بادر فقبل يمينه، وكذا من أراد أن يدخل في رحمة الله وكنفه فليقبل الحجر الأسود فهو من الله تعالى بمنزلة اليمين من الملك.

قلت: وكذا ذكر الغزالي في تأويله حرفاً حرفاً، فانظره في كتاب التفرقة والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

«يُؤتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ ثُمَّ يُذْبَحُ».

فقال رضي الله عنه: هو حديث صحيح، خرج من شفتي النبي ﷺ والمراد به ملك في صورة كبش ويذبح زيادة في نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وهذا من أعز ما يطلبه الملائكة فإنهم يقولون في سجودهم: اللهم اجعلنا نعمة لعبادك المؤمنين وسبباً في رحمتهم، ولا يعرف حق المؤمن إلا الملك، وإنما أولنا الحديث لأن الموت عبارة عن تفرق الأحباب فالذات ترجع إلى التراب والروح لعالمها، فهو عدم الاتصال والاجتماع الذي بينهما.

قال لي رضي الله عنه: أما ذبح ملك في صورة كبش فمشاهد بالبصيرة وعليه والله أعلم يحمل الحديث، وقال لي: إن الناس إذا دخلوا الجنة تحدثوا ولا سيما في اليوم الأول بما كان في دار الدنيا ولا سيما ألم الموت فلذا ينعمهم تبارك وتعالى ويفرحهم بذبحه في صورة كبش والمذبوح ملك.

وسمعته رضي الله عنه يقول في أحاديث تسبيح الحصى وحنين الجذع وتسليم الحجر وسجود الشجر ونحوها من معجزاته ﷺ، إن ذلك هو كلامها وتسبيحها دائماً: وإنما سأل النبي ﷺ ربه أن يزيل الحجاب عن الحاضرين حتى يسمعوا ذلك منها، فقلت له: وهل فيها حياة وروح؟ فقال لا، ولكن المخلوقات كلها ناطقها وصامتها إذا سئلت عن خالقها قالت بلسان فصيح، الله هو الذي خلقني فافتراق المخلوقات إلى ناطق وصامت وحيوان وجماد بالنسبة إلى المخلوقات فيما يعرف بعضهم من بعض، وأما بالنسبة إلى الخالق سبحانه فالكل به عارف وله عابد وخاشع وخاضع، فإن الجمادات لها وجهتان: وجهة إلى

خالقها وهي فيها عالمة به عابدة له قانتة. ووجهة إلينا وهي فيها لا تعلم ولا تسمع ولا تنطق، وهذه هي التي سأل النبي ﷺ ربه أن يدفعها عن الحاضرين حتى تظهر لهم الوجهة الأخرى التي إلى الخالق سبحانه، وباعتبار وجهة الخالق قال تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

ومن هذا المعنى أجابني عن حكاية سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام مع الضفدع، لما استكثر السيد داود عليه السلام تسبيحه لربه عز وجل، فشاهد الضفدع المذكور يسبح طول عمره لا يفتر طرفة عين، فاستصغر سيدنا داود عليه السلام حالته التي كان استكثرها فقال رضي الله عنه: لي في الجواب: أن سيدنا داود عليه السلام شاهد من الضفدع حالته في الوجهة إلى الحق سبحانه، وهي حالة الباطن، فإن التسبيح فيها دائم لا فتور فيه ومن هذا المعنى، الحكاية التي ذكرها لنا شيخنا عن سيدي محمد اللهواج المتقدم ذكره في شيوخه رضي الله عنه وعنهم وعنا بهم، فسمعته رضي الله عنه يقول: وقد مهد للحكاية كلاماً على عادته رضي الله عنه أن للأرض علماً هي حاملته وعارفة به كما يحمل أحدنا كتاب الله عز وجل ويعرفه، وكذا لكل مخلوق من الجمادات علم هو حامل له فقلت: فتكون عاقلة عالمة كيف وهي جماد، فقال رضي الله عنه: إنما كانت جماداً في أعيننا، وأما بالنسبة إلى خالقها سبحانه فهي به عارفة، قال وما خلا مخلوق أي مخلوق كان عن قوله الله ربي فهي سارية في كل مخلوق، وكذا ما خلا مخلوق أي مخلوق كان عن الخضوع لخالقه سبحانه والخوف منه والخشية له والوجل من سطوته، والناس يظنون حيث وجدوا أنفسهم جاهلين بما عليه الأرض وغيرها من الجمادات أنهم يمشون على جماد ويجيؤون ويذهبون على موات، وذلك هوى الذي أخلاهم وأهلكهم.

قال رضي الله عنه: ولو علم الناس ما عليه الأرض ما أمكن أحد أن يعصي الله عليها أبداً.

قال رضي الله عنه، وقد كنت قبل أن يفتح علي مع سيدي محمد اللهواج وكان مفتوحاً عليه فخرج معي إلى العين السخونة بناحية خولان نقطع البلح الذي في النخل الكائنة هناك المحبسة على ضريح سيدي علي بن حرزهم، قال فمررنا على دار ابن عمر المعروفة خارج باب الفتوح أحد أبواب فاس حرسها الله، وهناك عين تجري فأخذت السنارة وجعلت فيها خبزاً وأردت اصطياد الحوت لكثرته بتلك العين فأبى على سيدي محمد، فحلفت لأصطادنه، فذهب معي إلى العين فرميت السنارة فيها وبقرب عنصر الماء حجرة كبيرة فسمعتها تقول، بالصياح: الله الله، فما فرغت العين حتى صاح كل حجر هناك، ثم صاح كل حوت هناك إلى الذي أكل الطعام الذي في السنارة، ومعنى ذلك الصياح: الله الله أما تتقي الله يا من اشتغل بالاصطياد؟ قال رضي عنه: فدخلني من الخوف والرعب في تلك الساعة ما يختار الواحد عليه، أن لو ربط في حبل ثم رفع إلى أعلى مكان

وجعل في خازوق على كلاب حتى يخرج منه، فقلت: وبم حصل لكم هذا الأمر الشديد؟ فقال: كما إذا كان شخص لم ير ثوراً قط ولا سمع به ثم مسح له على عينيه فوجد نفسه بين يدي ما لا يحصى من الثيران، كيف يكون حاله؟ فقلت: فكأنكم تقولون إن الذي حصل لكم من الخوف إنما حصل من خرق العادة، فقال نعم. إنما حصل لنا ذلك من مشاهدة ذلك الخارق للعادة فقلت: وهل سمعتم قولها السابق الخارق للعادة بلغة العرب أو بلغة الجمادات؟ فقال رضي الله عن: بلغة الجمادات ولها لغات وألسن تليق بذواتها وجماداتها، وسماعنا لها يكون بالذات كلها لا بالأذن التي في الرأس فقط، ثم قال رضي الله عنه: وهذا الشهد إنما يكون للولي في حال بدايته، وأما بعد ذلك فإنما يشاهد الفعل من الخالق سبحانه فيشاهد الخالق سبحانه يخلق فيها كلاماً وتسبيحاً وغير ذلك مما يكون فيها ويشاهدها ظروفاً خاوية وصوراً فارغة، فقلت: وهذا لا يختص بها بل يكون له هذا الشهود حتى في بني آدم وغيرهم من العقلاء، فقال رضي الله عنه: نعم لا فرق في شهوده بين الجميع.

قال رضي الله عنه: وما ذكرناه من حال الجمادات في معرفتها بخالقها سبحانه إنما يعرفه رجل خرج عن عالم السموات والأرض وتباعد عنه حتى صار ينظره كالكرة بين يديه، ثم ينظر إليه بالنظر القوي الخارق الذي لا أعرف اليوم من ينظر به إلا أن يكون ثلاثة من الناس، فإذا نظر بذلك النظر القوي رأى ما قلناه عياناً ورأى كل مخلوق لله تعالى من هذه الجمادات إما ساجداً له عز وجل وإما قائماً منكس الرأس من خشيته على هيئة الراكع، وأول ما يرى على هيئة الراكع الأرض بنفسها، والله تعالى أعلم.

قال رضي الله عنه: وكنت ذات يوم خارج باب الفتوح بناحية ضريح سيدي أحمد اليمنى رحمه الله تعالى جالساً تحت زيتونة، فبينما أنا كذلك إذ بجميع الحجر صغيره وكبيره والأشجار والأغصان تسبح الله تبارك وتعالى بلغاتها فكدت أهرب مما سمعت، قال: وجعلت أصغي إلى بعض الحجر فأسمع منه أصواتاً عديدة، فقلت: حجر واحد وله أصوات عديدة، فتأملته فإذا هو معجون اجتمعت فيه عدة أحجار، فلذلك تعددت الأصوات فيه، قلت وحصل له هذا أوائل فتحه رضي الله عنه.

وقريب من هذا ما سمعته منه رضي الله عنه يذكر في شأن العجماوات من الحيوانات، فسمعته رضي الله عنه يقول: إن الثور إذا رأى ثوراً آخر تكلم معه فيما وقع له في سائر يومه، فيقول له رعيت عشبة كذا وكذا وشربت ماء كذا وكذا، وبقي في خاطري كذا وكذا، فيجيبه الآخر بمثل ذلك ويتحدثان بما شاء الله وفي كلامهما تقطيع وتقدير بمنزلة الحروف والمخارج في كلامنا، ولكن ذلك محجوب عنا، وكذا كلام سائر الحيوانات والأشجار والأحجار كما أنه حجب عنها سماع كلامنا بمخارجه وحروفه المقطعة، بل لا يسمعون منه إلا صياحاً وأصواتاً، وأما من فتح الله عليه فإنه يسمع كلامها ويفهم معناه

ويعرف التقطيعات التي فيه وفهمه له بالروح والروح تعرف المقاصد والأغراض قبل النطق بها، وما دمت لم تر مفتوحاً عليه من العجم ومفتوحاً عليه من العرب وهما يتحدثان سائر يومهما يتكلم هذا بعجميته ويجيبه الآخر بعربيته فإنك لم تر شيئاً.

وسمعته رضي الله عنه يقول: كم مرة أذهب لأقضي حاجتي في بيت الوضوء فأرجع من غير قضائها، لما أسمع من ذكر الماء لاسم الجلالة، قلت: وقد سبق شيء من هذا في معرفة اللغات حيث تكلمنا على أجزاء العلم وفي الخوف التام الذي هو من أجزاء النبوة والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن حديث البزار عن أنس مرفوعاً:

«قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى صِفْ لَنَا كَلامَ رَبِّ الْعِزَّةِ وَكَيْفَ سَمِعْتَهُ؟ قَالَ أَرَأَيْتُمْ صَوْتَ الرُّعُودِ وَالصَّوَاعِقِ الْقَاتِلَةِ لِحِينِهَا فِي أَحْلَى حَلاوَةٍ سَمِعْتُ فَذٰلِك هُوَ كَلامُهُ، وَقَالَ مُوسَى يَا رَبِّ هَلْ كَلَّمْتَنِي بِجَمِيعِ كَلامِكَ؟ فَقَالَ يَا مُوسَى إنما كَلَّمْتُك بِقُوَّةِ عَشْرَةِ آلآفِ لِسَانٍ وَلَوْ كَلَّمْتُكَ بِجَمِيعِ كَلامِي لَذُبْتَ مِنْ حِينِك».

فقال لي رضي الله عنه ونفعنا بعلومه: المراد بصوت الرعود والصواعق القاتلة لحينها لازمة من الخوف الذي يحصل للشخص عند سماع ذلك الصوت فإنه خوف لا يكيف ولا يطاق، وكذلك الذي يسمع كلام الحق سبحانه وتعالى يحصل له من الخوف والهيبة ما يعم سائر أجزاء ذاته حتى ترى كل جوهر من جواهر ذاته يخاف وحده خوفاً تاماً مثل ما يخافه الشخص بكماله، وترى كل عرق من عروقه وكل جزء من أجزائه يرتعد ويكاد يذوب لولا لطف الله تبارك وتعالى، والمراد بقوله «في أحلى حلاوة» سعة الألطافات والرحمات والإنعامات الحاصلة لموسى في ذلك الوقت، وما يلتذ به كل عرق من عروق من يسمع ذلك الكلام الأزلي، وليس المراد بالصوت الصوت على حقيقته، بل هذا يستحيل في حق الله تعالى، وأما قوله «إني كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان» فمعناه أن الله تعالى أزال الحجاب عن موسى حتى سمع من مدلولات كلامه تعالى ما لو عبر عنه بعشرة آلاف لسان في لحظة واحدة لكان ذلك مقدار ما سمع من مدلولات كلامه تعالى، نظير ما سيأتي في المفتوح عليه، أنه لا تختلط عليه الأصوات ولا يشغله سمع عن سمع، وحينئذ فلو فرضت عشرة آلاف لسان توجهت إلى موسى فألقى إليها سمعه وفهمها في لحظة من غير ترتيب ولا سبقية، لكان هذا ما أشار إليه في الحديث، قال رضي الله عنه: وهذا سماع الروح لا سماع الذات، وذلك أن علم الروح لا ترتيب فيه، فإذا توجهت مثلاً إلى علم من العلوم مثل النحو أو الفقه فإن جميع مسائله تحضر عندها في لحظة وكذا قراءتها، فإذا أرادت أن تقرأ القرآن العزيز فإنها تقرؤه بجميع حروفه مع إتقان مخارجها وصفاتها في لحظة واحدة.

سمعت هذا الجواب منه رضي الله عنه في بدايته، وذلك أني كنت جالساً في مسجد

عين علون وبيدي الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور فعثرت منه على هذا الحديث، فقلت في نفسي يا ليت الشيخ حاضر حتى أسأله عن معناه، لم ألبث أن جاءني رضي الله عنه وجلس بإزائي، ففتحت الكتاب وقلت يا سيدي: إني كنت أتمنى أن أسألك عن حديث فيه، فقال رضي الله عنه. وأنا إنما جئتك لأجل الجواب فسل، فذكرت له الحديث فذكر الجواب السابق رضي الله عنه ونفعنا بعلومه.

وسمعته رضي الله عنه يقول: في قوله ﷺ:

«مَا خَفِيَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ إِلاَّ فِي هٰذه الْمَرَّةِ».

كما عند مسلم حيث أخرج حديث جبريل في السؤال عن الإيمان والإحسان، وقال ردوا السائل فطلبوه، فقال:

«ذٰلك جِبْرِيلُ وَإِنَّمَا خَفِيَ عَلَيَّ هٰذِهِ الْمرَّةِ».

فقال رضي الله عنه: في هذا الخفاء من التبجيل لنبينا ﷺ والتكريم له والتعظيم لقدره الرفيع شيء لا يطاق، ولا يعرفه إلا من رحمه الله تعالى، وذلك أن ذاته ﷺ قد يحصل لها في بعض الأحيان استغراق في مشاهدة الحق سبحانه، فتنقطع الذات بجميع علقها وتولهها وجميع عروقها وأجزائها وغمور نورها في نور الحق سبحانه فتبقى منقطعة عن غيره لكنها محفوظة فلا تفعل إلا الحق ولا تنطق إلا به فإذا رأى الملائكة هذه الحالة حصلت للنبي ﷺ وهم يعلمون أنه لا يطيقها غيره من مخلوقات الله عز وجل وأنه عليه الصلاة والسلام لا يشعر بهم حينئذ بادروا واغتنموها وسألوه عن الإيمان وأخذوه عنه وشيخوه فيه، فيقول له الملك وقد جاءه في صورة أعرابي جئت يا رسول الله لأومن بك ولأصدقك فعلمني كيف أومن بالله وبرسوله، فيعلمه.

فقلت: ولم يتعلمون الإيمان منه ويأخذونه عنه وهم عباد الله المكرمون وملائكته المقربون؟

فقال رضي الله عنه: جاه نبينا ﷺ عظيم وكل من أخذ الإيمان عنه ولم يبدل فإنه لا يرى صراطاً ولا ناراً فاغتنم الملائكة فرصتها، فقلت. ولم لا يسألونه في غير هذه الحالة؟ فقال رضي الله عنه إذا رد عليه السلام إلى حسه وعرفهم ملائكة وعلموا بأنه عرفهم فإنه لا يمكنهم والحالة هذه أن يجعلوا أنفسهم كالأعراب على الحقيقة حتى يخرج لهم الجواب من ذاته الكريمة مع نوره ومدده بخلاف ما إذا كان منقطعاً إلى الحق سبحانه وصارت الذات لا تسمع من المتكلم إلا نطقه وكلامه، فإن الجواب يخرج عن الحالة المطلوبة، فقلت: وهل الملائكة يعرفون الحالة التي يرد فيها إلى حسه ﷺ، والحالة التي ينقطع فيها إلى الحق سبحانه، فقال لي رضي الله عنه: لا يخفى ذلك عليهم ولا على من فتح الله بصيرته والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في حديث:

«مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاّ وَقَدْ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ إِلاَّ وَحْياً يُتْلَى».

أن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت من جنس ذواتهم وما يتعلق بها، فمنها ما يوهب لهم بعد الكبر، ومنها ما يتربى مع ذواتهم في حال صغرهم إلى أن تظهر عليهم حال الكبر، ومعجزة نبينا ﷺ كانت من الحق سبحانه ومن نوره ومشاهدته ومكالمته، وذلك لقوته ﷺ ذاتاً وعقلاً ونفساً وروحاً وسراً، حتى أنه لو أعطيت مشاهدته ﷺ لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يطيقوها، فلذلك قال «ما كان الذي أوتيته إلا وحياً يتلى» يعني أن معجزته ليست من جنس معجزاتهم ولو كانت معجزاتهم بلغت من الفخامة وضخامة القدر بحيث أنه يؤمن عليها وبسببها جميع البشر ومعجزاته ﷺ فوق ذلك كله، لأنها من الحق سبحانه لا منه ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً بملك كلما تزايد له ولد أرسله إلى موضع يربى فيه ويرسل مع كل واحد حاجة نفيسة مثل ياقوتة ليعلم بها ويعرف أنه ولد الملك إلى أن تزايد له ولد فتركه عنده وجعل هو يربيه بنفسه ويتولى جميع أموره فلا يكيف ما يحصل لهذا الولد من كمال المعرفة وكمال سريان سر أبيه فيه، ولا يقاس ما حصل في إخوته من سر الملك بما حصل فيه أبداً.

قال رضي الله عنه: وقد كان بعض الصحابة يتمنى أن يظهر على النبي ﷺ بعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيلتفت إلى ذلك النبي ﷺ ويرى ما خصه به المولى الكريم فيدركه حياء عظيم، ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً بالذي مكنه الملك من جميع ملكه وأطلق يده فيه يتصرف كيف شاء وجعل بعض أصحابه يتمنى له قرية يتصرف فيها.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: إنما مثل الأسرار والأنوار التي في القرآن والمقامات التي انطوى عليها والأحوال التي اشتمل عليها، كمثل من فصل كسوة وجعل فيها قلنسوة وقميصاً وعمامة وجميع ما يلبس، وطرحها عنده، فإذا نظرت إلى الكسوة ثم نظرت إلى جميع المخلوقات علمت أنه لا يطيق لباسها وتحملها إلا ذات النبي ﷺ، وذلك لقوة خص الله بها الذات الشريفة.

وسمعته مرة أخرى يقول في بيان كون مشاهدة النبي ﷺ لا تطاق: أن المشاهدة على قدر المعرفة، وأن المعرفة حصلت للنبي ﷺ حين كان الحبيب مع حبيبه ولا ثالث معهما، فهو ﷺ أول المخلوقات، فهناك سقيت روحه الكريمة من الأنوار القدسية والمعارف الربانية ما صارت به أصلاً لكل ملتمس ومادة لكل مقتبس، فلما دخلت روحه الكريمة في ذاته الطاهرة سكنت فيها سكنى الرضا والمحبة والقبول فجعلت تمدها بأسرارها وتمنحها من

معارفها، والذات تترقى في المعارج والمعارف شيئاً فشيئاً من لدن صغره ﷺ إلى أن بلغ أربعين سنة فزال الستر حينئذ الذي بين الذات والروح، وانمحى الحجاب الذي بينهما بالكلية وحصلت له ﷺ المشاهدة التي لا تطاق، حتى صار يشاهد كمشاهدة العيان أن الحق سبحانه هو المحرك لجميع المخلوقات والناقل لهم من حيز إلى حيز، والمخلوقات بمنزلة الظروف وأواني الفخار لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فأرسله الله تعالى وهو على هذه المشاهدة والمخلوقات في عينيه ذوات خالية وصور فارغة ليكون رحمة لهم، فلا يرى الفعل منهم حتى يدعو عليهم فيهلكوا كما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله مع أممهم، ولهذا استعجلوا دعواتهم وأخرت دعوة نبينا ﷺ شفاعة إلى يوم القيامة، فصارت دعوته رحمة على رحمة وظهر مصداق قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

ومصداق قوله ﷺ:

«إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ لِلْخَلْقِ».

وهذا أول بداية له ﷺ في المشاهدة، وفي كل لحظة يترقى ويعرج في مقاماته التي لا تكيف، فقلت وهل بقي فوق ذلك شيء، فقال رضي الله عنه: لو عاش نبينا ﷺ إلى زماننا هذا ما وقف في الترقي، فإن كمالات مولانا تعالى لا نهاية لها فقلت: فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تفوتهم المشاهدة السابقة إذ لو لم يكن معهم إلا مجرد الإيمان بالغيب بأن الله تعالى هو الخالق لنا ولأفعالنا لكانوا بمنزلة عوام المؤمنين، فقال رضي الله عنه: حصلت لهم المشاهدة بلا شك، لكن الستر لم يزل بالكلية وفي مشاهدة نبينا ﷺ زال بالكلية.

ثم تكلم رضي الله عنه بحقائق كشفية ورقائق عرفانية العقول من ورائها محجوبة إلى أن قال رضي الله عنه: ففي القرآن العزيز من الأنوار القدسية والمعارف الربانية والأسرار الأزلية شيء لا يطاق، بحيث أن سيدنا موسى صاحب التوراة، وسيدنا عيسى صاحب الإنجيل وسيدنا داود صاحب الزبور لو عاشوا حتى أدركوا القرآن وسمعوه لم يسعهم إلا اتباع القرآن والاقتداء بالنبي ﷺ في أقواله والاهتداء به في أفعاله، ولكانوا أول من استجاب له وآمن به وقاتل بالسيف أمامه.

قلت: وقد ورد بمعنى هذا الكلام الحديث عن النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لاتَّبَعَانِي».

أو كما قال عليه الصلاة والسلام وانظر ابن حجر في آخر كتاب التوحيد فقد أطال في تخريج طرق هذا الحديث، ولولا أنه أجنبي عن غرض الكتاب لأثبتناه هنا والله أعلم بغيبه وأحكم.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله ﷺ:

«وَالله لاَ أَحْمِلُكُمْ عَلَيهِ وَلاَ عِندِي مَا أَحْمِلُكُم عَلَيهِ».

يخاطب الأشعريين ثم حملهم عليه الصلاة والسلام بعد ذلك، والنبي ﷺ لا يقول إلا الحق ولا يتكلم إلا بالصدق.

فقال رضي الله عنه: النبي ﷺ لا يتكلم إلا بالصدق ولا يقول إلا بالحق، وكلامه ﷺ يخرج على حسب باطنه ومشاهدته، وهو ﷺ يكون تارة في مشاهدة الذات العلية، وفي هذه المشاهدة لذة عظيمة لا تكيف ولا تطاق ولا يماثلها شيء في الدنيا، وهي لذة أهل الجنة في دار الجنة، وتارة يكون في مشاهدة الذات وقوتها وسلطان قهرها، وفي هذه المشاهدة خوف وانزعاج بسبب مشاهدة القوة وسلطان القهر، وفي هاتين المشاهدتين يكون غائباً عن الخلق ولا يشاهد منهم أحداً وقد سبق شيء من هذا في حديث:

«مَا خَفِيَ عَلَيّ جِبْرِيلُ».

فراجعه وتارة يكون في مشاهدة قوة الذات مع الممكنات، فيشاهد القوة سارية في الممكنات، وفي هذه المشاهدة تغيب الذات العلية عن الباطن وتبقى أفعالها وفي هذه المشاهدة الثالثة يحصل امتثال الشرائع وتعليم الخلق وإيصالهم إلى الحق، فجميع ما ينطق به النبي ﷺ لا يعد وهذه المشاهدات فتارة يكون على الأولى، وتارة على الثانية، وتارة على الثالثة، والحديث المذكور خرج على الثانية، فإنه عليه الصلاة والسلام كان غائباً في مشاهدة الذات وقوتها، وهو غائب عن نفسه فضلاً عن غيره، فلما قالوا له يا رسول الله احملنا، وصادفوه في هذه المشاهد، قال لهم:

«وَالله لاَ أَحْمِلُكُمْ وَلاَ عِندِي مَا أَحْمِلُكُم عَلَيهِ».

وهو كلام حق، فلما رجع إلى مشاهدة الكائنات وصادف ذلك مجيء الإبل له، جرى على حكم هذه المشاهدة وما تقتضيه من اتباع الأوامر والقيام بحق الخلق، فقال «أين الأشعريون» فدعوا، فأعطاهم، فقالوا يا رسول الله: إنك حلفت أن لا تعطينا وقد أعطيتنا، فأجابهم ﷺ بما يقتضي أن حلفه أو لا كان على ما تقتضيه تلك المشاهدة التي كان عليها حينئذ، فقال:

«مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ وَلٰكِنَّ الله حَمَلَكُمْ».

أي أني حلفت على أني لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه، وهذا هو الكائن، فإن الحامل لكم هو الله تعالى لا أنا، فهو إخبار عن كونه ما قال إلا الحق ولا تكلم إلا بالصدق.

فقلت: فلم كفر عن يمينه عليه الصلاة والسلام حينئذ، حيث قال:

«**إِنِّي لَأَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا إِلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**».

فقال رضي الله عنه: لم يكفر النبي ﷺ عن يمينه في هذه القصة، والذي ذكره بعد في الحديث إنما هو ابتداء كلام وتأسيس حكم وإعطاء قاعدة شرعية، ولم يصدر منه ﷺ تكفير في هذه القصة رأساً، قلت: وإلى هذا ذهب الأكابر من الفحول كالحسن البصري وغيره فالله ما أصح عرفان هذا الشيخ العظيم.

ثم قال رضي الله عنه: ومثال المشاهدة الأولى التي قلنا إن لذتها مثل لذة أهل الجنة، مثل ما يلقى الملك المعروف بالسطوة والقهر وله سلاح وآلة قتل وغير ذلك من الأمور المفزعة، ثم إن الملك أزال السلاح ووضع آلة القتل ونزل عن فرسه ودعا رجلاً من مملكته وجعل ينبسط معه ويتعاطى معه أسباب الفرح والسرور وبلغ معه في ذلك الغاية إلى أن نام معه في ثوب واحد، فليت شعري كيف يكون السرور الداخل على هذا الرجل وهل يقدر أحد قدره أو يمكن واصف أن يبلغ كنهه وهذا مثل تطيقه العبارة بإشارتها إلى تلك المشاهدة مع الجزم ببعدها من هذا المثال البعد الذي لا قرب معه بوجه ولا بحال.

قال رضي الله عنه: وصاحب هذه المشاهدة في سكون ودعة وطيب نفس وانشراح صدر مع كون لذتها سارية في عروقه ولحمه ودمه وعظمه وشعره وبشره وجميع جواهر ذاته حتى أنا لو فرضنا أنا أخذنا شعرة واحدة منه ونظرنا إلى اللذة التي فيها وجدناها تساوي اللذة التي في عقله وقلبه لا تنقص لذتها عن لذتهما، حتى أنا لو جعلنا أحسن لذة في الدنيا وهي لذة الوقاع جزءاً من ستمائة ألف ألف ألف جزء، وجعلنا مجموع هذه الأجزاء جزءاً من سبعين ألف جزء، وجعلنا مجموع ذلك عشر هذه اللذة ما قارب ذلك شيئاً من هذه اللذة.

قال رضي الله عنه: ومثال المشاهدة الثانية، مثال من خرج على الملك ولكن لقيه بسلاحه وسطوته وقهره، فاللذة السابقة وإن حصل منها شيء في هذه المشاهدة فمعها خوف ووجل لا يطاق فإن من يشاهد الملك على فرسه وحربته في يده وهو يهزها ويتوعد فلا تسأل عن الوجل الحاصل له، قال والمشاهدة الأولى معها شبه منام، والثانية معها يقظة لأجل الانزعاج الحاصل بمشاهدة القهر وسطوة الذات، قال رضي الله عنه وإلى المشاهدة الثالثة بقوله ﷺ:

«**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ الله**» الحديث.

قلت: وقد أخرجه مسلم في صحيحه وتكلم فيه شيوخ الحديث عياض والنووي والعراقي رحمهم الله بقريب من كلام شيخنا رضي الله عنه، ولكن كلام الشيخ رضي الله عنه كلام من يشاهد ويعاين، قال رضي الله عنه: وليس في طوق الخلائق أجمعين أن

يقدروا على الدوام على المشاهدة الأولى والثانية ولا بد لهم من النزول إلى الثالثة ليستريحوا فكان ﷺ إذا نزل إليها يستغفر الله ويعد ذلك ذنباً في أسرار أخر أبداها الشيخ رضي الله عنه لا سبيل إلى إفشائها، ولما سمعت منه هذه المشاهدات الثلاث، وقال إن كلامه عليه الصلاة والسلام لا يعدوها، وأنه لا يشكل كلامه عليه الصلاة والسلام إلا على من لم يعرفها، وأنه عليه الصلاة والسلام لا يقول إلا الحق ولا يتكلم إلا بالصدق في سائر أموره وفي جميع أحواله، سألته عما أشكل على فهمي من الحديث، فسألته رضي الله عنه عن حديث تأبر النخل الذي في صحيح مسلم حيث مر عليهم وهم يؤبرون النخل، فقال عليه الصلاة والسلام:

«مَا هٰذَا؟ فَقَالُوا بِهٰذَا تَصْلُحُ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ ﷺ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَتْ فَلَمْ يُؤَبِّرُوهَا فَجَاءَتْ شِيصاً غَيْرَ صَالِحَةٍ فَلَمَّا رَآهَا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بَعْدَ ذٰلِكَ قَالَ مَا بَالُ التَّمْرِ هٰكَذَا قَالُوا يَا رَسُولَ الله قُلْتَ لَنَا كَذَا وَكَذَا فَقَالَ ﷺ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِدُنْيَاكُمْ».

فقال رضي الله عنه: قوله ﷺ «لو لم تفعلوا لصلحت» كلام حق وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالإطلاق، وذلك الجزم مبني على مشاهدة سريان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرة بلا واسطة ولا سبب، بحيث أنه لا تسكن ذرة ولا تتحرك شعرة ولا يخفق قلب ولا يضرب عرق ولا تطرف عين ولا يومىء حاجب إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة، وهذا أمر يشاهده النبي ﷺ كما يشاهد غيره سائر المحسوسات ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام، لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة، ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان فعنده في قوله تبارك وتعالى:

﴿وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

مشاهدة دائمة لا تغيب، ويقين يناسب هذه المشاهدة، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة ولا شك أن الجزم الذي يكون على هذه الصفة تخرق به العوائد وتنفعل به الأشياء وهو سر الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة، فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب ونسبة الفعل إلى رب الأرباب كان قوله حقاً وكلامه صدقاً، وأما صاحب الإيمان والغيب فليس عنده في قوله تعالى:

﴿وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه تعالى إلا الإيمان الذي وهبه الله تعالى له، فعنده جاذبان. أحدهما

من ربه وهو الإيمان الذي يجذبه إلى الحق، وثانيهما من طبعه، وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل، فهو بين هذين الأمرين دائماً لكن تارة يقوي الجاذب الإيماني فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين، وتارة يقوي الجاذب الطبعي فتجده يغفل عن معناه اليوم واليومين، وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة لهذا لم يقع ما أشار إليه النبي ﷺ لأن الصحابة رضي الله عنهم فاتهم اليقين الخارق الذي اشتمل عليه باطنه ﷺ، وبحسبه خرج كلامه الحق وقوله الصدق، ولما علم ﷺ العلة في عدم وقوع ما ذكر وعلم أن زوال تلك العلة ليس في طوقهم رضي الله عنهم أبقاهم على حالتهم، وقال: «أنتم أعلم بدنياكم» قلت: فانظر وفقك الله هل سمعت مثل هذا الجواب أو رأيته مسطوراً في كتاب مع إشكال الحديث على الفحول من علماء الأصول وغيرهم مثل جمال الدين بن الحاجب وسيف الدين الآمدي وصفي الدين الهندي وأبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

«إِذَا أُذِّنَ بِالصَّلاَةِ أَدْبَرَ الشَّيطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ».

فقال رضي الله عنه: إنما أدبر لأن الأذان إذا خرج من الذات الطاهرة ملأ نوره جميع الفراغ الذي يبلغه صوت الأذان، والنور بارد والشيطان خلق من مارج من نار، والبرودة والنار ضدان.

ويقرب من هذا ما سمعته رضي الله عنه يقول: إن الجن في جهنم لا تعذب بالنار لأنها طبعه يعني بالنار النار الحارة، وإذا كانت طبعه فإنها لا تضره وإنما يعذب بالبرد والزمهرير يعني النار الباردة وأن الجن في الدنيا يخاف من البرد خوفاً شديداً، أفتراهم إذا كانوا في زمن الصيف في الهواء يتخوفون من هبوب الرياح الباردة، فإذا هبت فروا فرار حمر الوحش.

وأما الماء فلا يدخله الجن والشياطين أبداً، فإن قدر على واحد أن يدخله طفيء وذاب كما يحترق أحدنا إذا دخل النار ويذوب، قال وإذا خفي عليك الجن كيف هو فانظر إلى نار مظلمة جداً كثير دخانها مثل ما يكون في الفخارين وصور فيها صورتهم التي خلقوا عليها فإذا لبست ذلك الدخان المظلم الصورة المذكورة كان ذلك بمثابة الجن، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

«إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»

فقال رضي الله عنه: العندية المراد بها المعية، والإطعام والسقي المراد بهما تقوية الله تعالى لنبيه ﷺ، فقلت: وهل الذات الترابية يكفي فيها ذوق الأنوار فلا تحتاج

معه إلى غذاء؟ فقال رضي الله عنه: لا يكفي ذلك فيها، ولو قدرنا أن رجلاً عمد إلى نبي من الأنبياء فمنعه الطعام والشراب لمات ذلك النبي، فلا بد لهذه الذات الترابية من الأغذية الناشئة عن التراب، ولهذا نرى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأكلون ويشربون ويجوعون ويشبعون، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: هل ولد ﷺ ليلاً كما ذهب إليه طائفة واستبدلوا بحديث عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله الثقفية أنها قالت:

«شَهِدْتُ وِلاَدَةِ النَّبِي ﷺ فَرَأَيْتُ الْبَيْتَ حِينَ وُضِعَ قَدْ امْتَلأَ نوراً ورَأَيْتُ النُّجُومَ تَدْنُو حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهَا سَتَقَعُ عَلَيّ».

رواه البيهقي وابن السكن والنجوم لا تكون إلا ليلاً، أو ولد ﷺ نهاراً وصححوه، واستدلوا له بحديث مسلم وغيره لكن بعد الفجر كما في حديث، وإن كان ضعيفاً، لأن الضعيف يعمل به في الفضائل والمناقب، وأجابوا عن الحديث السابق بأن النجوم تظهر بعد الفجر فلا يدل الحديث السابق على ولادته قبل الفجر ليلاً.

قال رضي الله عنه وأمدني بأسرار ذاته الكريمة: الذي في الواقع ونفس الأمر أنه عليه الصلاة والسلام ولد في آخر الليل قبل الفجر بمدة وتأخر خلاص أمه إلى طلوع الفجر؛ والمدة التي بين انفصاله ﷺ من بطن أمه وانفصال الخلاص منها هي ساعة الاستجابة في الليل التي وردت بها الأحاديث، وفخمت أمرها وأشعرت بتعظيمها وامتداد حكمها إلى يوم القيامة، قال رضي الله عنه: وفي تلك الساعة يجتمع أهل الديوان من أولياء الله تعالى من سائر أقطار الأرض وفيهم الغوث والأقطاب السبعة وأهل الدائرة والعدد رضي الله عنهم أجمعين، ويكون اجتماعهم بغار حراء خارج مكة وهم الحاملون لعمود نور الإسلام، ومنهم تستمد جميع الأمة فمن وافق دعاؤه دعاءهم ووقوفه وقوفهم في تلك الساعة أجاب الله دعوته وقضى وطره، وكان رضي الله عنه، يدلنا على قيام هذه الساعة كثيراً ويقول لنا إن الفجر يطلع بمكة قبل طلوعه بمدينة فاس، فراقبوا في قيامكم فجر مكة، واعملوا عليه، فسألته عن المقدار الذي يسبق به على فجر مدينة فاس، فقال رضي الله عنه: يطلع الفجر بمكة قبيل قيام ابن جمو المؤذن بالقرويين فقلت: فالساعة إذاً وقت قيام الوردي والسلاوي الذي بعده، فقال رضي الله عنه: نعم، قلت: وكذا كنت قبل أن أجتمع معه رضي الله عنه أقرأ آخر سورة الكهف:

﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾.

إلى آخر السورة لأفيق في ساعة الاستجابة، وبقيت على ذلك نحواً من ستة عشر عاماً فكنت غالب ما كنت أفيق في وقت الوردي، وكنت أفيق في بعض الأحيان في وقت السلاوي بعده.

وكذا سمعت من جماعة ممن اعتنى بأمر هذه الساعة المباركة ممن يسكن في غير مدينة فاس قالوا. فما كنا نفيق إلا في آخر الليل قبل الفجر بمدة يعنون فجر بلادهم والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن شهر ولادته عليه الصلاة والسلام، فإن العلماء اختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً، فقال بعضهم: إنه صفر، وقال بعضهم إنه ربيع الآخر، وقال بعضهم إنه رجب، وقال بعضهم: إنه رمضان وقال بعضهم إنه يوم عاشوراء، وقال بعضهم إن الشهر غير معين، أي غير معلوم لنا لا أنه في نفس الأمر غير معين.

فقال رضي الله عنه: الشهر هو ربيع الأول.

وسألته رضي الله عنه عن يوم الولادة من شهر ربيع الأول، فإن العلماء رضي الله عنهم اختلفوا فيه، فقيل في ثانيه، وقيل في سابعه، واختاره الأكثرون، وقيل في ثامنه وقيل في تاسعه، وقيل في ثاني عشره.

فقال رضي الله عنه: إنه ولد عليه الصلاة والسلام في سابع ربيع الأول وهذا هو الواقع في نفس الأمر يعني أنه ولد ليلة السابع منه كما سبق أنه عليه الصلاة والسلام ولد ليلاً.

وسألته رضي الله عنه عن عام الولادة فإن العلماء رضي الله عنهم اختلفوا في ذلك أيضاً، فقيل عام الفيل بعده بخمسين يوماً، وقيل بعده بخمسة وخمسين شهراً، وقيل بعده بأربعين شهراً، وقيل بعده بعشر سنين، وقيل بعده بخمسة عشر عاماً.

فقال رضي الله عنه: بل ولد عام الفيل قبل مجيء الفيل، وببركة وجوده ﷺ بمكة طرد الله الفيل عن أهلها، ولم أسأله عن قدر ما سبقت ولادته مجيء الفيل ولو سألته رضي الله عنه لعينه فإنك لو سمعته حين يأخذ في الأجوبة لسمعت آيات الله الكبرى والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن مقدار مدة حمله عليه الصلاة والسلام، فقال رضي الله عنه: مقدار حمله عشرة أشهر.

وسألته رضي الله عنه عن الإبط الشريف هل فيه شعر أم لا؟ فإن العلماء اختلفوا فيه أيضاً. ويطول بنا ذكر كلامهم.

فقال رضي الله عنه: الإبط الشريف لا شعر فيه ينتف، بل فيه شيء قليل جداً وهي العفرة أي بياض يخالطه سواد قليل، وسبب قلة الشعر في الإبط الشريف أن الشعر خرج إلى أعلى الصدر الشريف والمنكبين، فكان ﷺ أشعر الموضعين الكريمين فلذا قل شعر الإبطين الشريفين والله تعالى أعلم.

قلت: وما فهمت ما في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام كان على منكبيه شعر حتى سمعت من شيخنا رحمنا الله به هذا الكلام المنور.

وسألته رضي الله عنه: هل كان النبي ﷺ أقرن كما في بعض الروايات أو غير أقرن كما في رواية أخرى؟ فقال رضي الله عنه: لم يكن عليه الصلاة والسلام أقرن.

وسألته رضي الله عنه عن مشية النبي ﷺ هل كان يتكفأ يميناً وشمالا كما في بعض الروايات أو كان ينحدر إلى أمام كما في رواية:

«كَأَنَّمَا ينحَطُّ مِنْ صَبَبٍ».

فقال لي رضي الله عنه: كان يتكفأ يميناً وشمالاً وكنت في موضع ليس معنا ثالث فقال لي رضي الله عنه تعال حتى أريك كيف كان النبي ﷺ يمشي في دار الدنيا حال حياته، فخطا رضي الله عنه أمامي نحواً من ستين خطوة، فرأيته رضي الله عنه يتكفأ يميناً وشمالاً ورأيت مشية كاد عقلي يطير من حسنها وجمالها، ما رأت عيني قط أجمل منها وأبهر للعقول فرضي الله عنه ما أصح علمه بالنبي ﷺ والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن اللحية الشريفة لاختلاف الروايات في ذلك، فقال رضي الله عنه: كان ﷺ كث اللحية مع طولها طولاً متوسطاً في الذقن وكان خفيفها عند التقاء العارضين والذقن، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه، عن الشعر الشريف لاختلاف الروايات فيه، وعن الشيب الشريف والخضاب الشريف وهل تنور عليه الصلاة والسلام؟

فقال رضي الله عنه: كان شعر رأسه الشريف ﷺ يختلف، فأحياناً يطول وأحياناً يقصر، ولم يكن على حالة واحدة، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يقص ما يلي الجبهة ولا يدعه يطول، ولم يحلق عليه الصلاة والسلام إلا في نسك، وكان الشيب في العنفقة نحو الخمس شعرات، وفي الصدغين شيء قليل، وفي الذقن أكثر من ذلك، وخضب ﷺ بالحناء ولكنه قليل حين دخل مكة ومرات قلائل في المدينة وتنور ﷺ في وسطه كانت تنوره خديجة وعائشة رضي الله عنهما والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه، عن شق الصدر الشريف كم كان؟ فإن الأحاديث اختلفت في ذلك، فقال رضي الله عنه: ثلاث مرات عند حليمة واستخرج منه حظ الشيطان وهو ما تقتضيه الذات الترابية من مخالفة الأمر واتباع الهوى. وعند عشر سنين، ونزع منه أصل الخواطر الرديئة. وعند النبوة، ولم أسأله عن أي شيء نزع حينئذ، وظاهر أكثر الأحاديث أنه وقع ليلة الإسراء، قال رضي الله عنه: وليس كذلك قال والشق وقع من غير آلة ومن غير دم والتئام بلا خياطة ولا آلة، ولم يحصل له عليه الصلاة والسلام ألم في ذلك لأنه من *فعل الرب سبحانه والله أعلم*.

قلت: أما الشق عند حليمة فمتفق عليه، وأما عند عشر سنين، فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند.

وأما عند النبوة أي ابتداء البعثة فقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

وأما عند الإسراء فقد أنكره بعضهم وقال إنه لم يرد إلى من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني وروايته منكرة، قال ابن حجر: والصحيح أنه ثبت في الصحيحين من غير رواية شريك ثبت من حديث أبي ذر، وانظر ابن حجر في آخر كتاب التوحيد، وقد علمت أن الشيخ رضي الله عنه أمي فكلامه بمحض الكشف والعيان فيكون الصواب عدم وقوع الشق عند الإسراء والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه ما قيل إن سبابته ﷺ أطول من وسطاه، فقال رضي الله عنه: سبابة رجله الشريف أطول من وسطاها وسبابة يديه مساوية لوسطاهما والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن ضم جبريل للنبي ﷺ ثلاث مرات حين جاءه.

بـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ «فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ما أَنَا بِقَارِىءٍ، فَضَمَّهُ جِبْرِيلُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الْجُهْدَ».

فقال رضي الله عنه: الضمة الأولى ليتوسل به إلى الله تبارك وتعالى في حصول الرضا له الأبدي الذي لا سخط بعده. والضمة الثانية ليدخل أي جبريل في جاه النبي ﷺ ويلوذ بحماه الشريف. والضمة الثالثة ليكون أي جبريل من أمته الشريفة فقال رضي الله عنه؛ وقول جبريل عليه السلام له (اقرأ) معناه بلغ الكلام القديم بالحادث، فإن جميع القرآن أنزل على النبي ﷺ في ذلك الموضع وهو المراد بقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

قال: وإنما كان جبريل يطلب منه أن يبلغ المعاني القديمة والمكالمة الأزلية الخاصة له عليه الصلاة والسلام إذ ذاك، فقال له عليه الصلاة والسلام: ما أنا بقارىء أي إني لا أطيق أن أبلغ الكلام القديم والقول الأزلي باللسان الحادث، فعلمه جبريل كيف يبلغه باللسان الحادث، فلذلك كان النبي ﷺ يحبه كثيراً ثم تكلم الشيخ رضي الله عنه في هذا المعنى بما بهر عقولنا وأطال في كلامه نحو اليوم، وفي ذلك من الأسرار ما لا يحل كتبه والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن حديث:

﴿أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هٰذِهِ﴾.

الحديث الذي يشير فيه النبي ﷺ إلى انخرام ذلك القرن على رأس مائة سنة.

فقال رضي الله عنه: هذا الحديث تكلم به النبي ﷺ قبل وفاته بقريب وهو كلام من روحه الشريفة تعزي ذاته الكريمة وتسليها، حيث علم ﷺ بقرب أجله فتكلمت الروح بهذا السر المكنون لتحصل التسلية للذات. قلت: صدق رضي الله عنه، في قوله إن هذا الحديث تكلم به النبي ﷺ قبل وفاته بقريب، فإن مسلماً روى في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن ذلك كان قبل وفاته ﷺ بشهر، فلله در هذا الإمام الأمي ما أعرفه بشمائل المصطفى ﷺ.

ثم قلت له رضي الله عنه وهو المقصود بالسؤال: هل يصح الاستدلال بهذا الحديث على تكذيب من ادعى الصحبة بعد انخرام ذلك القرن كما كذبوا من ادعاهما بعد المائتين، وكذا كذبوا من ادعاها بعد الستمائة، ومن ادعاها في المائة الثانية. وانظر قصة عكراش ومعمر المغربي ورتين الهندي، وقد أطال في الإصابة في الصحابة في تراجمهم الحافظ ابن حجر، وكذا تعرض لذلك تلميذه شمس الدين السخاوي في شرح الألفية في اصطلاح الحديث، وكذا الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوي.

فقال رضي الله عنه: الصحابة رضي الله عنهم لا يحاط بهم، وقد تفرقوا قبل وفاته ﷺ وبعد وفاته، وذهبت طائفة منهم تجول في أقطار الأرض. والحديث المذكور عام أريد به خصوص من هو معروف بين الناس بالصحبة مشهور بها، هذا هو الذي دل عليه الكشف والعيان.

ثم تكلمت معه في رجال رجراجة وما يزعم الناس فيهم أنهم صحابة وفدوا على النبي ﷺ في حال حياته وأنه عليه الصلاة والسلام كلمهم بلغة البربر. وقد تعرض لحكايتهم الشهاب في شرح الشفاء ولكن أوردها من غير سند متصل واستغربها غير واحد من الأئمة.

قال رضي الله عنه: ما هم بصحابة ونور الصحابة لا يخفى على أرباب البصائر، وليس في المغرب من الصحابة أحد والله تعالى أعلم.

وهذا بعض ما سمعناه منه رضي الله عنه في تفسير ما أشكل علينا من الأحاديث فلنقتصر على هذا القدر فإن فيه كفاية للمريد والله أعلم.

الباب الثاني

في بعض الآيات القرآنية التي سألناه عنها
وما يتعلق بذلك من تفسير اللغة السريانية

ثم تفسير فواتح السور نحو: صَ، وق، ويسَ، وطهَ، وكهيعص، والمَ، والر وغير ذلك من أسرار الله تعالى التي ستقف عليها في هذا الباب.

فسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى في قصة آدم وحواء عليهما السلام:

﴿فَلَمَّا آتاهُما صَالحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكاءَ فِيمَا آتاهُما فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُون﴾.

فقلت: آدم نبي الله وحبيبه كيف يجعل له شركاء؟ فقال رضي الله عنه: هذا معاتبة الآباء بما فعلته الأبناء والأولاد، كمن له بستان فيه فواكه وثمار فجاء إليه أولاد زيد فأخذوا من ثماره وأفسدوا فيه، فجاء رب البستان إلى زيد وجعل يخاصمه ويعاتبه، ويقول له: أفسدت علي بستاني وأكلت ثماري وفعلت وفعلت فعلى شبه هذا الأسلوب جاءت القصة الشريفة، سمعت منه رضي الله عنه هذا الجواب في بدايته.

قلت: وهذا قول حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: نقله الحافظ السيوطي في الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور، واختار هذا القول السيد الجرجاني في شرح المواقف، فرضي الله عن هذا السيد الجليل ما أعرفه بالله وبأنبيائه، واستدلوا على هذا التفسير بأن سياق آخر الآية إنما يصح في الكفار وبقراءة من قرأ (جعلاً له شركاء) بالجمع فإنها أيضاً إنما تصح في الكفار والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه، عن قوله تعالى حكاية عن الملائكة:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

فقلت: إن فيه ضرباً من الغيبة، والملائكة عليهم السلام معصومون.

فقال رضي الله عنه: إنه ليس بغيبة وحاشاهم من ذلك فإنهم عباد الله المكرمون، وإنما هذا الكلام خرج منهم مخرج من قال أتجعل فيها من هو محجوب، وعندك من ليس بمحجوب، يصلح ليكون فيها وهو نحن، فإنا نشاهدك ونعرف قدرك فلا نعصي أمرك، والمحجوب لا يعرف قدرك فيعصي أمرك، فكأنهم قالوا أتجعل فيها من لا يعرفك ونحن نعرفك، وهذا منهم إخبار عما انتهى إليه علمهم وبحسب ما عندهم، فلذا قال تعالى:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي ما ظننتموه من أن المحجوب لا يمكن أن يعرف قدري، وأنه لا يعرف قدري إلا من يشاهدني هو منتهى علمكم وعلمي فوق ذلك، فإني أقوي المحجوب وأزيل الستر بيني وبينه حتى تحصل له مني المعرفة، ويظفر مني بعلم ما لا تطيقونه، ولذا قال تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَم الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الآيات.

فقلت: فهل المخاطب في هذه الآية جميع الملائكة أو ملائكة الأرض فقط؟

فقال رضي الله عنه ونفعنا به؛ هم ملائكة الأرض فقط، قلت: وهذا قول طائفة من المفسرين، منهم حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وانظر التفاسير الثعلبي وغيره.

ثم تكلم رضي الله عنه، في أمر الملائكة عليهم الصلاة والسلام وفي أمر إبليس وما يتعلق بالقصة وذكر كلاماً، العقول من ورائه محجوبة فلذا لم نكتبه والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما فهم الملائكة أن بني آدم يكونون محجوبين عن ربهم تعالى قائمين على أنفسهم مستبدين برأيهم، حتى قالوا:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية.

من قوله تعالى: خليفة فإن الخليفة شأنه الاستقلال والاستبداد والانقطاع عن غيره فينسب لنفسه التدبير والعلم بالعواقب والنظر في المصالح، ويقطع نفسه عن ربه تعالى وفي ذلك هلاكه وحتفه، فمن لفظ الخليفة أخذوا أن الآدمي محجوب عن الله تعالى والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

فقلت: إن الآية تقتضي أن بعض ما أنزل إليه بأحسن، مع أن القرآن كله أحسن وذكرت له أجوبة العلماء رضي الله عنهم، منها أن من ظلم يجوز له الانتقام لقوله تعالى:

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

والأحسن له الصبر لقوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

فكأنه يقول اتبعوا العفو دون العقوبة فالعقوبة حسنة والعفو أحسن، ومنها أن المراد بالأحسن الناسخ، والحسن المنسوخ، ومنها أن الله تعالى حكى لنا عن عباده أن منهم من

أطاع ومنهم من عصى، فنتبع من أطاعه فهو الأحسن، ومنها أن المراد اتبعوا المأمور به دون المنهي عنه، ومنها أن المراد اتبعوا العزائم دون الرخص؛ فالأحسن هو العزائم، والحسن هو الرخص.

ثم قلت: إن هذه الأوجه لا مناسبة فيها للآية.

أما الأول: فإن سياق آخر الآية يقتضي أن من لم يتبع الأحسن يخاف أن تنزل به قارعة من عذاب الله وإنه من الساخرين والكافرين، ومن لم يعف لا يكون هذا حكمه.

وأما الثاني: فإن أريد أن المنسوخ حسن باعتبار اتباعه فليس كذلك إذ ما نسخ العمل به لا يجوز اتباعه، وإن أريد من حيث التلاوة فهو والناسخ من الأحسن.

وأما الثالث: فإن من عصى لا يحل اتباعه فضلاً عن أن يحسن، ومثله يقال في المنهي عنه، وأما الرخص فإنها وإن كانت حسنة لكن مرتكبها لا يستحق الأوصاف التي في آخر الآية بمثابة من لم يعف في الوجه الأول، فإنه أيضاً لا تتنزل عليه الأوصاف التي في آخر الآية. وبالجملة فالأحسن في الأول والخامس لا يناسبان آخر الآية، والأحسن في الأوجه الباقية فأشكل الأحسن في الآية.

فقال رضي الله عنه: ليس ما ذكر في الأوجه السابقة سر الآية ولا نورها وإنما سرها ونورها واتبعوا يا معشر عبادي أحسن ما أنزل إليكم من ربكم كتاباً ورسولاً، فالقرآن هو أحسن كتاب أنزل إلينا من عند الله، والنبي ﷺ هو أحسن رسول جاءنا من عند الله فالحسن هو الكتب الإلهية غير المبدلة والرسل الذين أرسلهم الله تعالى قبل نبينا ﷺ.

فقلت لشيخنا رضي الله عنه: الكتب الإلٰهية منها التوراة والإنجيل وزيادة إليكم تنافي حمل الأحسن على ما ذكرتم لإقتضائها أن الحسن أنزل إلينا كالأحسن مع أن التوراة أنزلت إلى اليهود والإنجيل أنزل إليهم وإلى النصارى.

فقال رضي الله عنه: بعثة نبينا محمد ﷺ عامة للعرب ولليهود وللنصارى وغيرهم، والأحسن الذي هو القرآن أنزل إلى جميعهم، والحسن الذي هو الكتب الإلٰهية، أنزل لكل قوم منها ما يخصهم، فللعرب شريعة إسماعيل، ولليهود التوراة، وللنصارى الإنجيل، فالحسن أنزل لهم في الجملة على هذا الفرض وهو ظاهر.

قلت: وقد صدر جماعة من المفسرين بهذا القول وأن المراد بالأحسن هو القرآن وتمام تقريره ما أوضحه الشيخ رضي الله عنه ولا شك في مناسبته لسياق آخر الآية فإن من لم يتبع القرآن والرسول وكفر بهما مستحق للأوصاف التي في آخر الآية والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه، عن حكمة تقديم السمع على البصر في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وفي قوله:

﴿أَنشَأَلَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾.

وفي قوله:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي قدم السمع فيها على البصر مع أن البصر أعظم فائدة وأعم نفعاً فإن فائدة النهار والليل يختص بها البصير؛ وأما السميع الذي لا بصر له فإنه يستوي عنده الليل والنهار والنور والظلمة والشمس والقمر ولا يهتدي لشيء من أنوار هذه النبرات، وكذلك العجائب التي في مصنوعات الله تعالى فإن غالبها إنما هو في صور المخلوقات وحسن تركيبها، والصور إنما تدرك بالبصر، فحسن التركيب الذي في خلقة بني آدم وسائر الحيوانات وأنواع النباتات والأزهار إنما يدرك بالبصر وكذلك خلق السموات وكونها مرفوعة بغير عمد وتزيينها بالنجوم إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تعد ولا تحصى إنما يدرك بالبصر، فالذي ظهر لنا أن البصر أقوى فكان حقه أن يقدم على السمع.

فقال رضي الله عنه: كل ما ذكرتم في البصر صحيح، وفي السمع فائدة واحدة تقوم مقام ذلك كله، وتزهو على جميع ما ذكرتم، وهي أن الرسول عليه الصلاة والسلام ومرسله عز وجل وسائر الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها، إنما تدرك بالسمع، ويلزم من ذلك أن جميع الشرائع متوقفة على السمع، وبيان ما ذكرناه أنا لو فرضنا بني آدم لا سمع عندهم أصلاً فإذا جاءهم رسول من عند الله فقال لهم:

﴿إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ﴾

فهذا الصوت لا يرى، ولا سمع لهم حتى يسمعوا مقالته، فيبقى الرسول عاطلاً فإذا قال لهم وآية صدقي معجزة كذا وكذا لم يسمعوه، فيبقى عاطلاً فإذا قال لهم وقد أمركم الله عز وجل أن توحدوه ولا تشركوا به شيئاً لم يسمعوه، وبقي أيضاً عاطلاً، فإذا قال لهم وأمركم أن تؤمنوا بي وبجميع رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر لم يسمعوه وبقي أيضاً عاطلاً، فإذا قال لهم وأوجب عليكم من الأمور كذا وكذا وحرم عليكم منها كذا وكذا، وأباح لكم منها كذا وكذا، لم يسمعوه وبقي عاطلاً، فظهر أنه لو لم يكن سمع ما عرف رسول ولا مرسل، ولا وقع إيمان بغيب ولا بشهادة، ولا صح اتباع شريعة، ويلزم أن لا يكون ثواب ولا عقاب، فترتفع الجنة ونعميها، والنار وجحيمها، لأنه لا ثواب ولا عقاب حتى يبعث الرسول، لقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

والبعثة لا تصح مع انتفاء السمع، وبالجملة فبنو آدم لو لم يكن لهم سمع لسقط

التكليف وكانوا في درجة البهائم، فبالسمع استوجبوا الدرجة العليا ولحق من لحق منهم بالملأ الأعلى، فظهر أن السمع أقوى فائدة وأعم نفعاً لأن أسرار الربوبية موقوفة عليه، فلذا قدم في الآيات السابقة التي سبقت مساق الإمتنان لأن المنة به أقوى من المنة بالبصر والله تعالى أعلم قلت فانظر وقد وفقك الله إلى حسن هذا الجواب، فإني لما سمعته جعلت أتعجب من نفسي كيف خفي علي هذا الجواب مع ظهوره الغاية ولا هادي إلا الله سبحانه.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً﴾.

ما المراد بيظلم نفسه، فإن ظلم النفس يصدق بما قبله الذي هو عمل السوء في الآية الثانية، وفعل الفاحشة في الأولى، فالظلم أعم مما قبله، والعام لا يعطف بأو، وذكرت له ما قال المفسرون في ذلك، وأن بعضهم حمل عمل السوء والفاحشة على الكبيرة وظلم النفس على الصغيرة، وظهر لي أن يحمل عمل السوء والفاحشة على المعصية مطلقاً، وظلم النفس على الإصرار على المعصية، لأنه لا عمل فيه في الظاهر، يعني أن من أصر على الزنى مثلاً فإنه لا يصدق عليه أنه فاعل للزنى، وممكن للنفس من شهواتها، ولكنه عازم على ذلك، وبهذا العزم والإصرار صار ظالماً لنفسه حيث عرضها للعقاب ولم تظفر بشهواتها، فتكلمنا في الآية كلاماً كثيراً، وذكر رضي الله عنه أجوبة ثلاثة وخضنا في الكلام فيها ثم سكت لحظة من الزمان قليلة.

فقال رضي الله عنه: يقول لكم سيدي محمد بن عبد الكريم البصري، إن سبب نزول هذه الآية: هو ما كانت عليه الجاهلية والعرب في ذلك الوقت من المجادلة عن الظالم والذب عنه، وتبرئته مما رمى به، وهم يعلمون أنه فعل ذلك، كأن يسرق واحد من قوم ويعلمون به ثم يجادلون عنه وينفون عنه السرقة مثلاً، فالسارق هو الذي فعل الفاحشة والسوء، والمجادل هو الذي ظلم نفسه بشهادة الزور وقول الباطل، وقال لي رضي الله عنه: إن سيدي محمد بن عبد الكريم يعرف كيف يتكلم، فأعجبني هذا التفسير غاية لمناسبته سياق الآية:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾.

حيث يقول تعالى فيها:

﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

﴿هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾.

وكنا حين الخوض معه في الآية الكريمة خارج باب الحديد أحد أبواب فاس حرسها الله تعالى، وسيدي محمد بن عبد الكريم المذكور كان بالبصرة، فسمع كلامنا وعرف مرادنا، فأجابنا من مكانه فرضي الله عن أوليائه الكرام، وسيأتي بيان سر سماعه كلامنا مع البعد الكثير والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

ما معنى كانوا أحق بها وأهلها مع أنه لا أحقية ولا أهلية قبل الإسلام، فقال رضي الله عنه: الأحقية والأهلية بحسب الوعد الأول والقضاء السابق قبل خلق المخلوقات والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولَى﴾.

هل كانت عاد أخرى ثانية، وذكرت اضطراب كلام المفسرين فإنهم يقولون: إن هوداً عليه السلام هو الذي بعث إلى عاد، وأنه كان قبل إبراهيم عليه السلام بكثير ثم ذكروا في قصة هلاك قومه وفادة نفر منهم إلى حرم الله مكة يستسقون، ومكة إنما بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأشكل أمر القصة على كثير من الناس حتى ذهبت طائفة إلى أنه لم يكن إلا عاد واحدة، وإنما وصفت بالأولى رعاية لثمود فالثانية هي ثمود، وذهبت طائفة أخرى إلى تعدد عاد فالأولى هي التي أرسل إليها هود وعذبت بالريح، وعاد الثانية أرسل إليها نبي آخر وعذبوا بغير الريح، وهم الذين وفد بعضهم إلى مكة ولم يعينوا النبي ولا العذاب، ويشكل عليهم ما في سورة الأحقاف، فإن القصة فيها أصحاب الوفد وعذابهم بالريح وصاحبهم هود لقوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ﴾.

وقال في آية أخرى:

﴿وَإِلَى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً﴾.

وإنما قلنا إن القصة في سورة الأحقاف لأصحاب الوفد، لما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن الحارث بن حسان البكري، قال:

خرجت أنا والعلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ الحديث، وفيه فقلت: أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوفد عاد، فقال وما وفد عاد؛ وهو أعلم بالحديث، ولكنه يستطعمه فقلت: *إن عادا قحطوا*، فبعثوا قيل بن عنز إلى معاوية بن بكر بمكة يستسقى لهم، فمكث

شهراً في ضيافته فلما كان بعد شهر خرج فاستسقى لهم فمرت به سحابتان فاختار السوداء منهما فنودي خذها رماداً لا تبقى من عاد واحداً، وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه بعضه وانظر ابن حجر في سورة الأحقاف.

وفي رواية أخرى، خرج قيل بن عنز ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم وكان إذ ذاك بمكة العمالقة، وسيدهم معاوية بن بكر فذكر القصة إلى أن قال في آخرها، فقال مرثد بن سعد يا قوم إنكم لا تسقون بدعائكم حتى تطيعوا رسولكم، فقال قيل لمعاوية احبسه عنا لا يخرج معنا فإنه قد آمن بهود وصدقه.

فقال رضي الله عنه: عاد الثانية أرسل إليها هود ليجدد شرع من قبله من الأنبياء المرسلين إليهم: وهو الذي قص علينا قصته في القرآن، وهو الذي وفد قومه إلى مكة وعذبوا بالريح العقيم، وهو من ذرية إسماعيل عليه السلام، ونسبة هود بن عابر بن شياع بن الحارث بن كلاب بن قيدار بن إسماعيل، وليست عاد الثانية كلها من ذرية إسماعيل، بل هود وعشيرته فقط، وقيل فيه:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾.

تغليباً لأنه كان هو عشيرته يساكنونهم ويرحلون معهم، ومن هؤلاء شداد بن عاد الذي له الخيمة العظيمة ذات العماد.

قال: والعلماء يظنون أن إرم ذات العماد مدينة مبنية بالذهب على صفة الجنة في كلام طويل لهم وليس كذلك، بل إرم اسم قبيلة عاد وذات العماد نعت للقبيلة أي صاحبة العماد لهذه الخيمة التي لكبيرهم، أو المراد عماد جميع خيامهم فإني رأيت مسكنهم ووصفه بقريب مما وصف به العلماء الأحقاف، قال وهو مسيرة تسعة أيام، وكبيرهم يسكن في وسط الأرض، وكان من قصده يمشي حافياً عاري الرأس مسيرة أربعة أيام ونصف من كل ناحية بين الخيام لقوة العمارة فيها وكثرة الخلائق مع ضيقها عنهم، وأرسل الله تعالى إليهم مياهاً وعيوناً تسيح على وجه الأرض من ناحية جبال بعيدة عن بلادهم يزرعون عليها، قال: وخيمة كبيرهم مساحتها في الأرض قدر رمية بسهم وأوتادها وأعمدتها مطبقة بالذهب الخالص وحبالها من الحرير، وقد رأيت قطعاً من ذهبها باقية إلى الآن مدفونة في أرضهم، وجميع خيامهم مطبقة بالمنف، ولم يكن في ذلك الزمان إلا الأبيض منه فيه يبطنون وإلى هؤلاء القوم أرسل الله هوداً الذي سبق نسبه. قلت وما ذكره في شأن المدينة المسماة بإرم ذات العماد، ورد ما قيل فيها إليه ذهب جهابذة العلماء كالحافظ ابن حجر في شرح البخاري فإنه بعد أن أشار إلى قصة المدينة المذكورة قال وهي مروية من طريق عبد الله بن لهيعة، ونقل عن مجاهد ما يؤيد التفسير الثاني في ذات العماد. قال مجاهد معناه أنهم كانوا أهل عمود أي خيام وذكر في ذلك أقوالاً أخر فانظرها في سورة الفجر، وما قاله رضي الله

عنه في نسب هود محض كشف وعيان، فإنه أمي عامي لا يعرف تاريخاً ولا غيره، فلا ينبغي لأحد أن يعارضه بما قال أهل التاريخ في نسب هود لأنه مبني على خبر الواحد، ومع ذلك فقد اضطرب خبر الواحد في نسب هود، فقيل في نسبه هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل هود بن شارخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، فهو على هذا ابن عم أبي عاد، قالوا وإنما جعل من عاد وإن لم يكن منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف لحاله وأرغب في اقتفائه.

قال رضي الله عنه: وأما عاد الأولى، فإنهم كانوا قبل قوم نوح عليه السلام، وأرسل الله إليهم نبياً يسمى «هويد» بهاء مضمومة قريبة من همزة بين بين وواو ساكنة سكوناً ميتاً بعدها ياء ساكنة سكوناً حياً قال رضي الله عنه: وهو رسول مستقل بشرعه بخلاف هود الذي أرسل إلى عاد الثانية فإنه مجدد لشرع من قبله من المرسلين، قال رضي الله عنه: وكل رسول مستقل فلا بد أن يكون له كتاب، قال: ولسيدنا هويد المذكور كتاب وأنا أحفظه كما أحفظ جميع كتب المرسلين، فقلت له: وتعدها؟ قال: أحفظها ولا أعدها، اسمعوا مني ثم جعل يعدها كتاباً كتاباً قال: ولا يكون الولي ولياً حتى يؤمن بجميع هذه الكتب تفصيلاً ولا يكفيه الإجمال، فقلت هذا لسائر الأولياء المفتوح عليهم فقال رضي الله عنه: بل لواحد فقط وهو الغوث فاستفدت منه في ذلك الوقت أنه رضي الله عنه هو الغوث وعلومه رضي الله عنه دالة على ذلك، فإني لو قيدت جميع ما سمعت منه لملأت أسفاراً، وكم مرة يقول: جميع كلامي معكم على قدر ما تطيقه العقول، قال: وأهلك الله عادا الأولى أصحاب هويد بالحجارة والنار، وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم حجارة من السماء فاشتغلوا بها وجعلوا يهربون منها فأخرج الله لهم ناراً فأحرقهم وسمعته رضي الله عنه يقول: كان قبل نوح سبعمائة رسول من الأنبياء وفي قصصهم من العجائب الكثيرة وإنما لم يقص الله علينا في كتابه العزيز منها شيئاً لعدم اشتهار أهلها في أزمنة الوحي، فقلت: فما معنى قوله في حديث الشفاعة في صفة نوح وأنه أول الرسل، فقال رضي الله عنه: المراد أنه أول الرسل إلى قوم كافرين، ومن قبله من المرسلين أرسلوا إلى قوم عقيدتهم صحيحة، فقلت: فلم عوقب قوم هويد بالحجارة والنار إذا كانوا مؤمنين، فقال رضي الله عنه: كانت عادته تعالى مع القوم الذين قبل نوح أن يهلكهم على ترك أكثر القواعد وإن كانوا على العقائد.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾.

فقلت: استدلت بهذه القصة من قال إن المصيب واحد وإن المخطىء معذور بل مأجور إذا بذل اجتهاده ووسعه. فإن داود عليه السلام حكم بإعطاء الغنم لأرباب الحرث

يأخذونها قبالة حرثهم الذي أفسدوه. وسليمان عليه السلام حكم بإعطاء الغنم لرب الحرث يستغلها، وأعطى الحرث لرب الغنم يقوم عليه حتى يصلحه كما كان قبل رعي الغنم، فإذا صلح دفع الحرث لأهله ودفعوا له غنمه فصوب الله سليمان حيث قال:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

واستدلوا أيضاً بقصة أخرى وقعت بينهما، وهي قصة المرأتين اللتين خطف الذئب ولد الكبرى منهما فأخذت ولد الصغرى وادعت أنه ولدها، وترافعتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، لأنها ذات الحوز، وقضى سليمان بأن يقسم الولد بينهما نصفين، فلما سمعت الصغرى بقسم الولد نصفين سلمت للكبرى وقالت هو ولدها، وجعلت الكبرى تطلب قسمه فقضى به للصغرى، وقال للكبرى: لو كان ولدك ما طلبت قسمه.

وبقصة ثالثة وقعت بينهما، وهي أن امرأة ادعى عليها أنها مكنت كلباً من نفسها، فأمر داود برجمها حيث شهد الشهود بذلك، ثم إن سليمان وقع له مع الصبيان وهو يلعب نظير القصة فحكم بتفريق الشهود ففرقوا، فاختلف قولهم فرجع داود إلى تفريق الشهود.

وبقصة رابعة وقعت بينهما وهي أن امرأة وجد في فرجها ماء فادعى أنه مني رجل وأنها زانية فأمر داود عليه السلام برجمها، فأمر سليمان عليه السلام أن يؤخذ ذلك الماء ويطبخ فإن عقد فهو ماء بيض وإلا فهو مني، فأخذوه فطبخوه فوجدوه ماء بيضة، وعلموا أن المرأة مكذوب عليها، انظر ابن حجر في كتاب الأحكام.

فقال رضي الله عنه: كأنكم تقولون أخطأ داود وأصاب سليمان عليهما السلام، وهل يعتقد الفقهاء مثل هذا في الأنبياء عليهم السلام وهم صفوة الله من خليقته، وهم عنده أفضل من الملائكة ومن كل عزيز، فإذا جاز عليهم الخطأ وصار يصدر منهم فأي ثقة تقع لنا بهم حيث صاروا مثلنا، فمعاذ الله أن يكون داود أخطأ.

أما توجيه القصة الأولى: فلأن داود عليه السلام حكم بصميم الحق الذي هو غرمه قيمة الحرث وإنما أمر بدفع الغنم لأنهم لم تكن عندهم عين في ذلك الزمان وإن كانت فهي قليلة فكانوا يتعاملون بالغنم والمواشي لكثرتها عندهم، فلذلك أمر بدفع الغنم ولم يأمر بدفع العين.

وأما سليمان عليه السلام، فإنه حكم بالصلح ورأى أن يدفع منفعة الغنم وغلتها من سمن ولبن وصوف في قيمة الحرث حتى يرجع الحرث وهو العنب إلى الحالة الصالحة، وهذا إنما يكون مع التراضي ولا يقال لمن حكم بصميم الحق إنه أخطأ وإن الذي حكم بالصلح هو الذي أصاب.

وأما توجيه الحكم في القصص الباقية، فإن داود عليه السلام حكم بما يقتضيه

ظاهرالحال في القصص الثلاث وهو الواجب في الحكم، إذ لا يجوز للحاكم أن يحكم بغيره، وسليمان عليه السلام تحيل على الباطن حتى رده ظاهراً فحكم به حينئذ. ولا يقال في الحكم الأول إنه أخطأ وأن الثاني هو الصواب، بل كل منهما صواب، وإن كان الأول يجب نقضه عند ظهور الباطن، فنقضه لا يدل على أنه كان حين التنفيذ خطأ، فهو بمثابة عدول شهدوا شهادة زور بأمر فأمضاه القاضي بناء على شهادتهم، فذلك هو الواجب عليه، وليس ذلك بخطأ منه، فإن تاب الشهود ورجعوا واعترفوا بالزور وجب على القاضي أن يحكم بما يقتضيه رجوعهم ولا يلزم أن يكون حكمه الأول خطأ.

قال رضي الله عنه: وأعرف رجلاً من فارس يعني نفسه، ذهب إلى أخ له في الله من أهل البصرة، يعني سيدي محمد بن عبد الكريم السابق، وكان قاضياً، فجلس معه فجاء رجلان يختصمان، فقال أحدهما: إن خصمي أخذ مني ياقوتة تساوي مالاً عظيماً عريضاً وهي عنده، فقال خصمه: إني أعطيته التفتيش في لباسي وجميع ما عليّ وأزيد الحلف بالله ما هي عندي، فأراد القاضي أن يحكم بذلك. فقال له جليسه لا تحكم بينهما ثم التفت الجليس إلى الخصمين، فقال: إن هذا يعني القاضي أخونا في الله، وقد صنع لنا طعاماً فنريد منكما أن تحضراه، فإذا أكلنا الطعام نظر القاضي بعد ذلك في أمركما، قال فذهبنا مع القاضي، فلما حضر الطعام جعل الجليس والقاضي يرمقان المدعى عليه حينئذ، قال فتنخم ومسح نخامته في سبتية كانت معه، قال: فأخذها من يده، فإذا الياقوتة خرجت مع النخامة، فأعطيناها للمدعي. قال رضي الله عنه: فهذه حيلة في رد الباطن ظاهراً، ولو حكم أولاً بالتفتيش واليمين لكان حكمه صواباً، وإن كان يعلم بطريق الكشف أنها عند المدعى عليه، فإن الله لم يكلفه بذلك وجليسه استعمل الحيلة حتى رد الباطن ظاهراً، فقلت: فهل القاضي كان يعلم بالكشف أنها عند المدعى عليه؟ فقال رضي الله عنه: نعم كان يعلم ذلك هو والجليس، قال فهذا نظير ما وقع بين هذين النبيين الكريمين في القصص الثلاث، ففي القصة الأولى حكم به داود للكبرى لأجل الحوز والحوز يقضي به، وحكم في الثانية بالرجم لأجل الشهادة، وفي الثالثة حكم به أيضاً لأجل وجود العلامة، وسليمان تحيل في القصص الثلاثة حتى رد الباطن ظاهراً، والله تعالى أعلم.

قلت: فرضي الله عن هذا الشيخ وما أعلمه! وقد قال ابن حجر: قال ابن المنير: والأصح أن داود عليه السلام في واقعة الحرث أصاب في الحكم وسليمان عليه السلام أرشد إلى الصلح، ولا يخلو قوله تعالى:

﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾.

أن يكون عاماً أو في واقعة الحرث فقط، وعلى التقديرين فيكون أثنى على داود فيها بالحكم والعلم، فلا يكون من قبيل عذر المجتهد إذا أخطأ لأن الخطأ ليس حكماً ولا علماً اهـ.

وهو ينحو إلى ما قال الشيخ رضي الله عنه فيها، أي في واقعة الحرث، وأما ما ذكره في القصص الثلاث بعدها فهو الحق الذي لا شك فيه ولا يمكن المحيد عنه، وقد أشار إلى مثله في قصة أخرى الإمام الشافعي وأبو عبد الله البلخي وغيرهما من الأكابر، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن معنى الساق، في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾.

فقال رضي الله عنه: الساق بلغة السريانية هو الجد ضد الهزل، فقلت: وهو في لغة العرب أيضاً كذلك يقولون انكشف الحرب عن ساق أي عن جد، فقال لي فهو إذا من توافق اللغتين، قلت: وما رأيت من يعرف السريانية وجميع اللغات التي لبنى آدم وللجن وللملائكة وللحيوانات مثله. فسألته رضي الله عنه: عن اسم سيدنا عيسى ﷺ مشيخاً هل هو بالخاء المعجمة أو المهملة؟ فقال: هو بالمعجمة، وهو لفظ سرياني، ومعناه بلغتهم الكبير.

وسألته رضي الله عنه، عن معنى الإنجيل فقال: هو لفظ سرياني، ومعناه بلغتهم نور العين.

وسألته رضي الله عنه؛ عن التوراة فقال: هو لفظ عبراني ومعناه بلغتهم الشريعة والكلام الحق.

وسألته رضي الله عنه عن اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ مشفح هل هو بالفاء أو بالقاف فإن العلماء اختلفوا فيه فقال: هو بالفاء من الشفح، بمعنى الحمد وهو لفظ سرياني.

وسألته رضي الله عنه عن اسمه ﷺ المنحمنا فإن العلماء اختلفوا في ضبطه فإن منهم من يقول إنه بضم الميم الأولى وكسر الثانية، ومنهم من يقول إنه بفتح الميم الأولى وكسر الثانية، فقال رضي الله عنه: هو بفتح الميمين معاً الأولى والثانية، وهما كلمتان لا كلمة واحدة، فالمن بفتح الميم وإسكان النون كلمة وحمنا بفتح الحاء والميم وشد النون كلمة أخرى، ومعنى الكلمة الأولى النعمة التي لها نفع ظاهر ونفع باطن، فالنفع الظاهر هو ما كان للذوات في عالم الأشباح، والنفع الباطن هو ما كان للأرواح في عالم الأرواح، فهو نعمة سقي منها جميع المخلوقات وجميع العوالم، ولا شك أنه ﷺ كذلك، ومعنى الكلمة الثانية وهي كالصفة للأولى أن النعمة السابقة بلغت إلى الغاية وارتفعت إلى النهاية فكأنه يقول في النبي ﷺ إنه النعمة التي بلغت الغاية ولم يدركه سابق ولا لاحق، وهو لفظ سرياني.

وقد قدم علينا بعض أصحابنا من أخيار أهل تلمسان، فأخبرني أنه سمع بعض من

حج بيت الله الحرام يقول: إنه زار قبر سيدي إبراهيم الدسوقي نفعنا الله به فوقف عليه الشيخ سيدي إبراهيم الدسوقي نفعنا الله به وعلمه دعاء وهو هذا:

بسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف منه وأحذر، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته، أحمى حميثاً أطمى طميثاً، وكان الله قوياً عزيزاً حمّ عسقّ حمايتنا كهيعص كفايتنا، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقال له سيدي إبراهيم ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيء فقال لي صاحبنا التلمساني وهو الحاج الأبر التاجر الأطهر سيدي عبد الرحمٰن بن إبراهيم من أولاد ابن إبراهيم القاطنين بتلمسان إن أخي الحاج محمد بن إبراهيم لما لم يعرف معنى هاتين الكلمتين وهما أحمى حميثاً وأطمى طميثاً امتنع من هذا الدعاء، وقال لا أدري ما معناهما، ولعل أن يكون فيهما ما أكره فسألني عن معنى الكلمتين، فسألت شيخنا رضي الله عنه عن معناهما؟ فقال رضي الله عنه: بديهة لا يتكلم أحد اليوم على وجه الأرض بهاتين الكلمتين فيمن أين لك بهما؟ فحكيت الحكاية، فقال رضي الله عنه: نعم سيدي إبراهيم الدسوقي من أكابر الصالحين، ومن أهل الفتح الكبير وهو وأمثاله الذين يتكلمون بهاتين الكلمتين.

ثم قال رضي الله عنه: هما كلمتان بلغة السريانية.

أما أحمى، فمعناه يا مالك، وفي سره يا مالك الملك العظيم الأعظم الحي القيوم. وحميثاً إشارة إلى مملكته فهو بمنزلة من يقول، يا مالك الأسرار، يا مالك الأنوار، يا مالك الليل والنهار يا مالك السحاب المدرار، يا مالك الشموس والأقمار، يا مالك العطاء والمنع، يا مالك الخفض والرفع، يا مالك كل حي يا مالك كل شيء، وفي هذا الأسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبداً.

وأما قوله أطمى: فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة والكبرياء والقهر والغلبة والعز والانفراد في ذلك كله وكأنه يقول، يا عالم كل شيء، يا قادراً على كل شيء، يا مريد كل شيء، ويا مدبر كل شيء؛ ويا قاهر كل شيء، ويا من لا يتطرق إليه عجز ولا يتوهم في تطرقه نقص. وطميثاً: إشارة إلى الأشياء التي يتصرف فيها وإلى الممكنات التي يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه لا إله إلا هو، وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم تبليغه أبداً والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول؛ إن اللغة السريانية هي لغة الأرواح، وبها يتخاطب الأولياء من أهل الديوان فيما بينهم لاختصارها وحملها المعاني الكثيرة التي لا يمكن أدؤها بمثل ألفاظها في لغة أخرى، فقلت: وهل تبلغها في ذلك لغة العرب؟ فقال رضي الله عنه لا يبلغها في ذلك إلا ما في القرآن العزيز، فإن لغة العرب إذا جمعت المعاني التي في السريانية وكانت بلفظ العرب كانت أعذب وأحسن من السريانية، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن اللغات كلها مطنبة بالنسبة للسريانية لأن الكلام في كل لغة غير السريانية يتركب من الكلمات لا من الحروف الهجائية وفي السريانية يتركب من الحروف الهجائية، فكل حرف هجائي في السريانية يدل على معنى مفيد، فإذا جمع إلى حرف أخر حصلت منهما فائدة الكلام، ومن عرف لأي معنى وضع كل حرف هان عليه فهم السريانية وصار يتكلم بها كيف يحب وارتقى بذلك إلى معرفة أسرار الحروف، وفي ذلك علم عظيم حجبه الله عن العقول رحمة بالناس لئلا يطلعوا على الحكمة مع الظلام الذي في ذواتهم فيهلكوا، نسأل الله السلامة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن اللغة السريانية سارية في جميع اللغات سريان الماء في العود، لأن حروف الهجاء في كل كلمة من كل لغة قد فسرت في السريانية ووضعت فيها لمعانيها الخاصة التي سبقت إليها الإشارة. مثاله أحمد يدل في لغة العرب إذا كان علماً على الذات المسماة به. وفي لغة السريانية تدل الهمزة المفتوحة التي في أوله على معنى، والحاء المسكنة على معنى والميم المفتوحة على معنى، والدال إن كانت مضمومة على معنى وإن كانت مفتوحة على معنى آخر، وهكذا محمد، يدل في لغة العرب على الذات المسماة به، وفي السريانية تدل الميم على معنى، والحاء المفتوحة على معنى، والميم المشددة على معنى، والدال التي في آخره على معنى، وهكذا زيد وعمرو ورجل وامرأة وغير ذلك مما لا ينحصر في اللغة العربية، فكل حروفها الهجائية لها معان خاصة في اللغة السريانية، وكذا حكم كل لغة، فالبارقليط وضع في لغة العبرانية علماً على سيدنا محمد ﷺ، وفي السريانية الهمزة التي في أوله تدل على معنى، واللام المسكنة تدل على معنى والباء على معنى، وهكذا إلى آخر حروفه، فالسريانية هي أصل اللغات بأسرها واللغات طارئة عليها، وسبب طروها عليها الجهل الذي عم بني آدم، وذلك لأن مبنى وضع السريانية وأصل التخاطب بها المعرفة الصافية التي لا جهل معها حتى تكون المعاني عند المتكلمين بها معروفة قبل التكلم فتكفي إشارة ما في إخطارها في ذهن السامع، فاتفقوا على أن أشاروا إلى المعاني بالحروف الهجائية تقريباً وقصداً إلى الاختصار لأن غرضهم الخوض في المعاني لا فيما يدل عليها، حتى أنه لو أمكنهم إحضارها بلا تلك الحروف ما وضعوها أصلاً، ولهذا لا يقدر على التكلم بها إلا أهل الكشف الكبير ومن في معناهم من الأرواح التي خلقت عرافة دراكة، والملائكة الذين جبلوا على المعرفة، فإذا رأيتهم يتكلمون بها رأيتهم يشيرون بحرف أو بحرفين، أو بكلمة أو بكلمتين إلى ما يشير إليه غيرهم بكراسة أو كراستين.

إذا عرفت هذا علمت أنه لما عم بني آدم الجهل كان ذلك سبباً في نقل الحروف عن معانيها التي وضعت لها أولاً وجعلها مهملة فاحتيج في أداء المعاني إلى ضم بعضها إلى بعض حتى يحصل منها مجموع يسمى كلمة، فيدل على معنى من المعاني الدائرة عند أهل ذلك الوضع فضاع بسبب جهل معاني الحروف ومعرفة أسرارها علم عظيم، ومع ذلك فإن

أخذت تلك الكلمة التي في تلك اللغة وأردت أن تفسر حروفها بما كانت عليه قبل الوضع والنقل، وجدت في الغالب حرفاً منها يدل على المعنى الذي نقلت إليه لا تفاقه مع المنقول عنه، ووجدت باقي حروف تلك الكلمة يدل على معان أخر يعرفها السريانيون ويجهلها غيرهم، فالحائط مثلاً وضع في لغة العرب للسور المحيط بدار أو نحوها، والحاء التي في أوله تدل على ذلك في لغة السريانية، والماء مثلاً وضع في لغة العرب للعنصر المعروف، والهمزة التي في آخره تدل على ذلك، والسماء وضعت للجرم المعلوم، والسين التي في أوله تشير إلى ذلك، وهكذا من تأمل غالب الأسماء وجدها على هذا النمط ووجد غالب حروف الكلمة ضائعة بلا فائدة، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن سيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لما نزل إلى الأرض كان يتكلم بالسريانية مع زوجته وأولاده لقربهم بالعهد، فكانت معرفتهم بالمعاني صافية فبقيت السريانية في أولاده على أصلها من غير تبديل ولا تغيير إلى أن ذهب سيدنا إدريس على نبينا وعليه الصلاة والسلام فدخلها التبديل والتغير، وجعل الناس ينقلونها عن أصلها ويستنبطون منها لغاتهم، فأول لغة استنبطت منها لغة الهند فهي أقرب شيء إلى السريانية، قال وإنما كان سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام يتكلم بالسريانية بعد نزوله من الجنة لأنها كلام أهل الجنة، فكان يتكلم بها في الجنة فنزل بها إلى الأرض فقلت: فقد ذكر المفسرون في قوله تعالى:

﴿خَلَقَ الإنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أن المراد بالإنسان آدم: والمراد بالبيان النطق بسبعمائة لغة أفضلها لغلة القرآن.

فقال رضي الله عنه: إن ذلك التعليم الذي وقع لآدم صحيح وهو كذلك يعرف تلك اللغات ومن دونه من الأولياء يعرفها ولكن لا ينطق إلا باللغة التي نشأ عليها، وآدم إنما نشأ على لغة أهل الجنة وهي السريانية، والله تعالى أعلم.

قلت: وهذا الكلام في غاية الحسن ولا يرد عليه حديث ابن عباس مرفوعاً.

«أَحِبُّوا الْعَرَبَ لِثَلاثٍ: فَإِنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَكَلامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ».

فإن العقيلي قال لا أصل له، وعده ابن الجوزي في الموضوعات، وسألت عنه الشيخ رضي الله عنه. فقال: ليس بحديث ولم يقله النبي ﷺ.

وسمعته رضي الله عنه يقول؛ من تأمل كلام الصبيان الصغار وجد السريانية كثيراً في كلامهم، وسبب ذلك أن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر، فكان آدم عليه السلام يحدث أولاده في الصغر ويسكتهم بها ويسمي لهم أنواع المآكل والمشارب بها فنشأوا عليها وعلموها أولادهم وهلم جرا، فلما وقع التبديل فيها وتنوسيت لم يبق منها عند الكبار شيء في كلامهم وبقي عند الصغار منها ما بقي، وسر آخر وهو أن الصبي ما دام في حال الرضاع

فإن روحه متعلقة بالملأ الأعلى، وفي ذلك الوقت يرى الصبي الرضيع منامات ولو رآها الكبير لذاب لغلبة حكم الروح في ذلك الوقت وغلبة حكم الذات على الكبير، وقد سبق أن لغات الأرواح هي السريانية، وكما أن ذات الصبي ترى المنامات السابقة والحكم للروح فكذلك قد تنطق بألفاظ سريانية والحكم للروح.

قال رضي الله عنه: فمن أسمائه تعالى لفظه أغ التي ينطق بها الصبي الرضيع، وهو اسم يدل على الرفعة والعلو واللطف والحنانة فهو يمنزلة من يقول ياعلي يا رفيع يا حنان يا لطيف، وترى الصبي إذا فطموه يسمون له مثل الفول والحمص بلفظة بوبو، وهو موضوع في السريانية للحلو المأكول، ولذا يسمى له الثدي الذي يرضع منه بهذا الاسم أيضاً، وإذا أراد الصبي أن يتغوط أعلم أمه وقال ع ع، وهو موضوع في السريانية لإخراج خبث الذات والصبي يسمى له صبي آخر أصغر منه بلفظ مومو وهو موضوع في السريانية للشيء القليل الحجم العزيز، ولذلك سمى إنسان العين باللفظة السابقة، وتضاف إلى العين فيقال مومو العين أي الشيء القليل فيها العزيز، وتتبع بقية ألفاظ السريانية التي في كلام الصبيان يطول والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لا أعرف أحداً في هذا الحين وهو عام تسعة وعشرين ومائة وألف في يوم التروية منه من أهل المغرب يتكلم بالسريانية، فقلت له وسيدي منصور وقد مات قبل ذلك كان يتكلم بها أم لا؟

فقال رضي الله عنه: نعم كان يتكلم بها وسيدي عبد الله البرناوي كان يحسنها أكثر منه فقلت فما سبب تعليمها؟

فقال رضي الله عنه: كثرة مخالطة أهل الديوان رضي الله عنهم، فإنهم لا يتكلمون إلا بها لكثرة معانيها كما تقدم، ولا يتكلمون بالعربية إلا إذا حضر النبي ﷺ أدباً معه وتوقيراً لأنها كانت لغته ﷺ حال حياته في دار الدنيا، فقلت: فسيدي عمر الهواري وسيدي محمد اللهواج أكان يعرفانها أم لا؟ فقال: لا والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن سؤال القبر، هل يكون بالسريانية أم بغيرها، وقد قال الحافظ السيوطي في منظومته:

وَمِنْ غَرِيبِ مَا تَرَى الْعَيْنَانِ ... أَنَّ سُؤَالَ الْقَبْرِ بِالسُّرْيَانِي

قال شارحها قال الناظم: يعني في شرح الصدور بأحوال الموتى والقبور، وقع في فتاوي شيخ الإسلام علم الدين البلقيني أن الميت يجيب السؤال بالسرياني: قال الناظم ولم أقف له على سند.

وقد سئل الحافظ ابن حجر عن ذلك فقال: ظاهر الحديث أنه باللسان العربي، ويحتمل مع ذلك أن يكون خطاب كل واحد بلسانه وهو متجه انتهى.

فقال رضي الله عنه: نعم سؤال القبر بالسريانية، لأنها لغة الملائكة والأرواح، ومن جملة الملائكة ملائكة السؤال، وإنما يجيب الميت عن سؤالهما روحه وهي تتكلم بالسريانية كسائر الأرواح، لأن الروح إذا زال عنها حجاب الذات عادت إلى الميت حالتها الأولى.

قال رضي الله عنه: والولي المفتوح عليه فتحاً كبيراً يتكلم بها من غير تعلم أصلاً، لأن الحكم لروحه فما ظنك بالميت فلا صعوبة عليه في التكلم بها.

فقلت: يا سيدي نريد من الله ثم منكم أن تمنوا علينا بذكر كيفية السؤال وكيفية الجواب باللغة السريانية.

فقال رضي الله عنه: أما السؤال فإن الملكين يقولان له بلفظ السريانية (مرازهو) وضبطه بفتح الميم وبها تشديد ضعيف، وبفتح الراء المهملة وبعدها ألف، وبعد الألف زاي مسكنة، وبعد الزاي هاء مضمومة بعدها واو ساكنة سكوناً ميتاً، ومن شاء أن يجعلها هاء واقفة ويجعل بعدها سلة هكذا، ومعنى هذه الحروف المسؤول بها يعرف بأصل وضع الحروف في اللغة السريانية، فأما الميم المفتوحة وهي الحرف الأول فإنها وضعت لتدل على المكونات كلها والمخلوقات بأسرها، وأما الحرف الثاني وهو الراء فإنه وضع للخيرات التي في تلك المكونات، وأما الزاي فإنها وضعت للشر الذي فيها، وأما الهاء التي بعدها صلة فإنها وضعت لتدل على الذات المقدسة الخالقة للعوالم كلها سبحانه لا إله إلا هو، فظهر بهذا أنه أشير بالحرف الأول إلى سائر الكائنات وبالحرف الثاني إلى جميع الخيرات التي فيها، فيدخل في الخيرات سيد الوجود ﷺ وجميع الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام، والكتب السماوية والجنة واللوح والقلم وجميع الأنوار التي في السموات والأرضين وما في العرش وما تحته وما فوقه إلى غير ذلك من الخيرات، وأشير بالحرف الثالث وهو الزاي إلى جميع الشرور فيدخل في ذلك جهنم أعاذنا الله منها، وكل ذات خبيثة شريرة كالشيطان وكل ما فيه شر وأشير بالحرف الرابع وهو الهاء الموصلة إليه تبارك وتعالى.

قال رضي الله عنه: وعادة اللغة السريانية الاكتفاء بإرادة بعض المعاني من غير وضع ألفاظ تدل عليها، وذلك كالقسم والاستفهام والتمني وغير ذلك، قال: فالاستفهام هنا مراد بقرينة السؤال من غير حرف دال عليه، فكأنه قيل المكونات كلها والأنبياء والملائكة والكتب والجنة وجميع الخيرات والشياطين وسائر الشرور هل هو تعالى خالقها أم غيره؟.

قال رضي الله عنه: وأما الجواب فإن الميت إذا كان مؤمناً فإنه يجيبهما بقوله، مراد أزيرهو، وضبطه بفتح الميم وفيها تشديد ضعيف وبعدها راء مفتوحة بعدها ألف ساكنة بعد الألف دال ساكنة، وبعد الدال همزة مفتوحة، وبعد الهمزة زاي مكسورة بعدها ياء ساكنة سكوناً ميتاً، وبعد الياء راء ساكنة، وبعد الراء هاء موصولة بواو ساكنة سكوناً ميتاً.

ومعنى هذه الحروف: أن الحرف الأول أشير به كما سبق إلى المكونات كلها والمخلوقات بأسرها، وأشير بالحرف الثاني إلى نور سيدنا محمد ﷺ وإلى جميع الأنوار التي تفرعت منه، كأنوار الملائكة والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأنوار اللوح والقلم والبرزخ وكل ما فيه نور، وإنما فسرنا هذا الحرف في الجواب بهذا التفسير وفسرناه في السؤال بالتفسير السابق، لأن المجيب من أمة النبي ﷺ فهو يريد أن ينخرط في سلكه ويدخل تحت لوائه، فلذلك يريد في جوابه بهذا الحرف لمعنى الذي ذكرناه ولا يخالف تفسيره في السؤال بجميع الخيرات لأن كل خير إنما تفرع من نور نبينا ﷺ.

قال رضي الله عنه: وأشير بالحرف الثالث وهو الدال المسكنة إلى حقيقة جميع ما دخل تحت الحرف الذي قبله، فكأنه يقول نبينا محمد ﷺ حق، وسائر الأنبياء حق وسائر الملائكة حق لا شك في جميع ذلك، وجميع ما دخل تحت الحرف السابق، وأشير بالحرف الرابع وهو الهمزة المفتوحة إلى مدلول ما بعدها، فالهمزة المفتوحة في لغة السريانية من أدوات الإشارة كلفظة هذا وهذه في العربية، والزاي التي بعدها وضعت لتدل على الشرك كما سبق فيدخل تحتها الظلام الأصلي وكل ظلام تفرع عنه فهي أريد بها ضد ما أريد بالحرف الثاني، فيدخل فيها جهنم وكل ما فيه ظلام وشر، وأشار بالراء المسكنة إلى حقيقة كل ما يدخل تحت الحرف الذي قبله وهي الزاي المكسورة المشبعة بالياء الساكنة، وأشير بالهاء الموصولة إلى الذات العلية من حيث أنها خالقة ومالكة ومتصرفة وقاهرة ومختارة، فحاصل معنى الجواب أنه قيل جميع المكونات ونبينا الذي هو حق وسائر الأنبياء الذين هم حق، وكافة الملائكة الذين هم حق، وجميع الأنوار التي هي حق، وعذاب جهنم الذي هو حق، وكل الشر الذي هو حق هو سبحانه خالقها ومالكها، ومتصرف فيها المختار فيها وحده لا معاند له ولا شريك، ولا راد لحكمه فيها.

قال رضي الله عنه: فإذا أجاب الميت بهذا الجواب الحق قال له الملكان عليهما الصلاة والسلام ناصر؛ وضبطه بفتح النون في أوله بعدها ألف وبعد الألف صاد مكسورة وبعد الصاد راء ساكنة ومعناه يعلم مما وضعت له حروفه في السريانية، فالحرف الأول وهوناً بالنون المفتوحة بعدها ألف للنور الساكن في الذات المشتعل فيها، والحرف الثاني وهو الصاد المكسورة وضعت لتدل على التراب، والراء الساكنة تدل على حقيقة المعنى السابق، فمعنى هذا الكلام حينئذ نور إيمانك الساكن في ذاتك الترابية أي التي أصلها من التراب صحيح حق مطابق لا شك فيه، فهو قريب من قوله في الحديث:

«نَم صَالِحاً، قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنتَ لَمُوقِناً».

والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن كلمات من القرآن اختلف العلماء فيها، هل هي سريانية

أم لا؟ فمنها أسفاراً قال الواسطي في الإرشاد هي الكتب بالسريانية، وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال هي الكتب القبطية قاله في الإتقان في علوم القرآن.

فقال رضي الله عنه: هي سريانية وهي الكتب كما قال الواسطي رحمه الله، ومعنى الكلمة تلك محاسن الأشياء التي ليست في طوق البشر لأن الهمزة المفتوحة إشارة لما يليها كما سبق، والسين المسكنة وضعت لمحاسن الأشياء والفاء المفتوحة اسم لما ليس في طوق البشر، والراء المفتوحة إشارة أخرى إلى تلك المحاسن، فكأنه يقول: إن الكتب فيها هذه المحاسن التي لا تطاق، والله تعالى أعلم.

ومنها الربانيون قال الجواليقي، قال أبو عبيدة: العرب لا تعرف الربانيون، وأحسب اللفظة عبرانية أو سريانية، وجزم أبو القاسم بأنها سريانية قاله في الإتقان.

فقال رضي الله عنه: اللفظة سريانية، ومعناه الذين فتح الله عليهم في العلم من غير تعلم وهي مركبة من ثلاث كلمات، ربا، وني، ويون، فشرح الكلمة الأولى، أن الراء المفتوحة إشارة للخير الكثير الذي دلت عليه الباء المشددة، فكأنه يقول: هذا خير كثير وشرح الكلمة الثانية: أن النون المكسورة إشارة للقرب، وشرح الكلمة الثالثة، أن الياء المضمومة إشارة إلى الشيء الذي لا يثبت على حالة كالبرق والنور، والنون المفتوحة، إشارة إلى الخير الساكن في الذات المشتعل فيها، فكأنه يقول: ذلك الخير القريب مني الذي هو في ذوات أهل الفتح نور من الأنوار وسر من الأسرار، وهو ساكن في ذواتهم مشتعل فيها، والله تعالى أعلم.

ومنها هيت لك أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: هيت لك، قال: معناه هلم لك بالقبطية، وقال الحسن هو بالسريانية، كذلك أخرجه ابن جرير. وقال عكرمة: هو بالحورانية كذلك أخرجه أبو الشيخ، وقال أبو زيد الأنصاري هو بالعبرانية وأصله هيتله. أي تعاله قاله في الإتقان.

فقال رضي الله عنه: ليس بسرياني، والله تعالى أعلم.

ومنها شهر ذكر الجواليقي أن بعض أهل اللغة ذكر أنه سرياني، فقال رضي الله عنه: ليس بسرياني، والشهر في لغة السريانيين اسم للماء، قلت: ومن عرف تفسير حروفه لم يشك في ذلك، والله تعالى أعلم.

ومنها عدن: ذكر ابن جرير أن ابن عباس سأل كعباً عن جنات عدن، فقال: جنات كروم وأعناب بالسريانية. وذكر ابن جرير في تفسيره أنها بالرومية، قاله في الإتقان. فقال رضي الله عنه: هي سريانية وذكر في تفسير اللفظة كلاماً عالياً.

ومنها رهوا: قال الواسطي في قوله تعالى:

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾.

أي ساكناً بالسريانية. وقال أبو القاسم: أي سهلاً بالقبطية، فقال رضي الله عنه: هي سريانية واللفظ يدل على القوة التي لا تطاق، فإذا قلنا فلان رهو أي قوي لا يطاق، وإذا قلنا هذا من القوم الرهو أي من القوم الذين لا قبل لأحد بهم، قلت: والمعنى حينئذ ظاهر، ومن عرف تفسير حروف الكلمة لم يشك فيما ذكره الشيخ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن ألفاظ من هذا النمط. فأجابني عنها، وتركت كتبها هنا خشية الملل والسآمة، ولما سمعت منه تفسير كل حرف من الكلمة السريانية المتقدمة علمت أنه إنما أجابني عن الألفاظ السابقة من نحو مشقع ومشيخاً والإنجيل والمنحمنا وأحمى حميثاً وغير ذلك مما سبق على سبيل التقريب، فطلبت منه رضي الله عنه تفسير كل كلمة على حسب ما وضعت لها حروفها فشرح ذلك كله - ولله الحمد - كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً فتركت ذكر ذلك خشية الطول، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لا يعرف اللغة السريانية إلا الغوث والأقطاب السبعة الذين تحته، وقد علمها لي سيدي أحمد بن عبد الله في نحو من شهر، وذلك سنة خمس وعشرين يعني ومائة ألف.

قلت: وهذا الكلام سمعته منه في رابع النحر سنة تسع وعشرين ومائة وألف، ومراده بسيدي أحمد بن عبد الله الذي كان غوثاً قبله كما سبق ذكره، وسيأتي أنه من العشرة الذي ورثهم الشيخ رضي الله عنه، وزاد في آخر ذي القعدة سنة تسع وراثة رجل آخر من كبار الأولياء، كما سمعت ذلك منه واسم الرجل الولي سيدي إبراهيم لملز، بسكون الميم بين لامين مفتوحتين وفي آخره زاي كذا ضبطه الشيخ رضي الله عنه، وذلك الوقت الذي كان يعلمه سيدي أحمد بن عبد الله السريانية كان أول فتحه، فعلمه السريانية لعلمه بأنه يصير قطباً، فإنه تقطب بعد ذلك بقليل، ومما يدل على أنه لا يعرفها إلا خواص الأولياء الذين أشار إليهم شيخنا رضي الله عنه ما سيأتي في تفسير فواتح السور من النصوص المتظافرة بذلك عن فحول الأولياء رضي الله عنه، وقد علمني رضي الله عنه أصل وضع الحروف في اللغة السريانية في يوم التروية سنة تسع وعشرين، ففهمت ذلك ولله الحمد في يوم واحد، فقال رضي الله عنه: أنا ما تعلمتها إلا في شهر وأنت تعلمتها في يوم واحد فقبلت يده الكريمة رضي الله عنه، وقلت: هذا من بركتكم وحسن تفهيمكم للأشياء، والله تعالى أعلم.

وكنت أتكلم معه ذات يوم في آخر رمضان سنة تسع وعشرين في تفسير:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

فسألته عما اشتهر من أن لكل كلمة في القرآن ظاهراً وباطناً، فقال رضي الله عنه: ذلك حق فلقوله تعالى:

﴿إِذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

ظاهر وباطن، فظاهرها يتكلم على آخرها، وباطنها يتكلم على أولها، فقلت: ما مرادكم بالآخر، فقال رضي الله عنه: ما يقع في المحشر يوم القيامة، ومرادنا بالأول ما وقع في عالم الأرواح، ثم تكلم على شيء مما في عالم الأرواح، فسمعنا منه العجب العجاب وأتى بما بهر العقول وهو من أسرار الله التي لا تكتب، ثم سألته عن الآية التي ظاهرها في عالم الأرواح نحو:

﴿وَإِذ أَخَذ رَبّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

فأين باطنها؟ فقال رضي الله عنه: ما سبق في العلم الأزلي والتقدير الأولى، وعن الآية التي هي نحو قوله تعالى:

﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ فما معنى باطنها؟ فقال رضي الله عنه: الظلام الذي كان في عالم الأرواح، ومنه نشأت جهنم، أعاذنا الله منها، فللمنافقين فيه مقام يضاهي مقامهم في جهنم، أي لأرواحهم مقام في ذلك الظلام يضاهي مقام أشباحهم في جهنم، نسأل الله السلامة.

فقلت: وهل لمعرفة هذا الباطن من سبب، فقال رضي الله عنه، لا يدرك إلا بالكشف، لكن من عرف السريانية وأسرار الحروف أعانه ذلك على فهم باطن بالقرآن عوناً كثيراً، وعلم ما في عالم الأرواح، وما في هذه الدار، وما في الدار الآخرة وما في السموات وما في الأرضين وما في العرش وغير ذلك، وعلم أن معاني القرآن العزيز التي يشير إليها لا نهاية لها، فعلم معنى قوله تعالى:

﴿مَا فَرَّطْنا في الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن القرآن العزيز: هل هو مكتوب في اللوح المحفوظ باللغة العربية، فقال رضي الله عنه: نعم وبعضه بالسريانية فقلت: وما هذا البعض؟ فقال رضي الله عنه: فواتح السور، فقلت: هذه ضالتي التي كنت أنشد منذ سنين، وذلك أني اجتمعت معه رضي الله عنه ولله الحمد وله الشكر أول ما اجتمعت معه في رجب سنة خمس وعشرين، فسايرته في الكلام وسألته عن أمور تتعلق بالولاية فسمعت منه ما بهرني فلما رآني استحسنت أجوبته، قال رضي الله عنه: سل عن كل ما بدا لك، فسألته رضي الله عنه: عن *فواتح السور*، فقلت له: ما معنى:

﴿صٓ. وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؟

فقال رضي الله عنه: لو علم الناس معنى (صٓ) والسر الذي يشير إليه ما اجترأ أحد على مخالفة أمر ربه أبداً، ولم يفسره لي.

ثم سألته عن معنى (كهيعصٓ): فقال لي رضي الله عنه: فيها سر عجيب، وكل ما ذكر في سورة مريم من قصة سيدنا زكريا وسيدنا يحيى ومريم وولدها عيسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإدريس وآدم ونوح، وكل قصة ذكرت في السورة بعد ذلك كله داخل في معنى (كهيعص) وبقي من معناها أكثر مما ذكر في السورة، قال رضي الله عنه: وهذه الرموز مكتوبة في اللوح المحفوظ، وكل رمز منها يكتب معه تفسيره، فالرموز أشكالها عظيمة وتفسيرها يكتب فوقها مرة وتحتها أخرى ومرة في وسطها، قال رضي الله عنه: وما شبهت ذلك إلا بما يفعله العدول إذا ذكروا متخلف الهالك، فإنهم إذا ذكروا ذلك واستوعبوه حصلوه في حروف فوقه برسم الزمام ففواتح السور مثل ذلك الرسم، وما في السورة مثل التفسير له، وهي عادة اللوح المحفوظ يترجم برموز ثم يشتغل بتفسيرها، فإذا فرغ منها ترجيم برموز غيرها ثم يفسرها وهلم جرا، والتفسير يكتب في جوف الحرف إذا كان نحو (صٓ) فلهذا يرى في اللوح المحفوظ عظيماً نحواً من مسيرة يوم وأقل وأكثر.

قال رضي الله عنه: ولا يعلم ما في فواتح السور إلا أحد رجلين: رجل ينظر في اللوح المحفوظ، ورجل يخالط ديوان الأولياء أهل التصرف رضي الله عنهم، وغير هذين الرجلين لا طمعية له في معرفة فواتح السور أبداً.

وسألته رضي الله عنه: عن (المٓ) التي في أول البقرة، وعن (المٓ) التي في أول سورة آل عمران، هل أشير بهما إلى شيء واحد أو معناهما مختلف؟

فقال رضي الله عنه: بل معناهما مختلف، وكل واحدة منهما قد شرحت بما في سورتها، سمعت هذا الكلام منه في أول ما لقيته، فعلمت أنه رضي الله عنه من أكابر الأولياء، لأني رأيت أكابر الصوفية رضي الله عنهم إذا تعرضوا لفواتح السور ورمزوا إلى شيء مما ذكره الشيخ رضي الله عنه، صرحوا بأنه لا يعرف معنى فواتح السور إلا الأولياء الذين هم أوتاد الأرض، فكانت هذه عندي شهادة عظيمة بولاية هذا السيد الجليل، رزقنا الله محبته ووصلنا إلى العلوم التي تبدو لنا منه، ولم يتعاط شيئاً منها لا في كبره ولا في صغره، بل ولا قرأ القرآن ولا يحفظ منه إلا سوراً قليلة من حزب (سبح) وإذا سمعته يتكلم في تفسير آية سمعت العجب العجاب، وهذه نصوص من أكابر الصوفية رضي الله عنهم الشاهدة بولايته وبجميع ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه.

قال الترمذي الحكيم رضي الله عنه في نوادر الأصول: إن فواتح السور فيها أشار إلى

حشو ما في السورة ولا يعلم ذلك إلا حكماء الله في أرضه، وأوتاد أرضه، وصلوا إليه به، نالوا هذه الحكمة وهم نجباء الحكماء، هم قوم وصلت قلوبهم إلى فردانيته، تناولوا هذا العلم من الفردية وهو علم حروف المعجم، وبهذه الحروف يعبر للعلوم كلها، وبالحروف ظهرت أسماؤه حتى عبروها بالألسنة اهـ، نقله الولي العارف بالله سيدي أبو زيد عبد الرحمٰن الفاسي رحمه الله في حاشيته على الحزب الكبير، للولي القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي نفعنا الله به.

وقال في تلك الحاشية أيضاً قال بعضهم: معرفة الحروف والأسماء من خصائص علوم الأنبياء من حيث كونهم أولياء، ولذا تقع المشاركة فيها بين الأولياء والأنبياء، وهي من علوم الكشف، فلا فائدة في التصرف فيها ببضاعة العقل بل لا يعرفه من جهله ولا يجهله من عرفه، وكل على حسب ما فتح له، ولذلك يتفاوت فيها أهلها، ويقع الاختلاف بينهم فيما يشيرون إليه فيها.

«تُسقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلى بعْضٍ فِي الأُكُلِ».

وقال في تلك الحاشية أيضاً قال الوزتحي في تفسيره: الحروف المقطعات رموز معاني سور القرآن، ولا يعرف معاني تلك الرموز إلا الربانيون اهـ.

قال سيدي عبد الرحمٰن صاحب الحاشية: ويرد عليه أنه ورد رمز متحد في صور متعددة مختلفة المعاني نحو (الٓمٓ حمٓ) ونحو ذلك، ويجاب بأن الرمز كالمشترك بين معان اهـ.

قلت: فانظر إلى هذه الشهادة العظيمة من هؤلاء الأكابر، وقد ذكر في تلك الحاشية نقولاً أخر عن سيدي عبد النور، وسيدي محمد بن سلطان، وسيدي داود الباخلي، في شرح الحزب المعروف بحزب البحر لسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي، لتعلم مكانة هذا الإمام الكبير حققنا الله بمحبته، فبقيت على ما سمعت منه في أوائل السور من غير استفادة لخصوص معانيها إلى أن كان يوم التروية سنة ١١٢٩ تسع وعشرين فسمعت منه ما سبق، وهو أن بعض القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ بالسريانية، وأن ذلك البعض هو فواتح السور، فطلبت منه أن يجيبني إلى تفسير كل فاتحة على حدتها ويذكر لي شرح تلك الرموز بأسرها، فأجابني ولله الحمد على ذلك، فلنشر إلى بعض فإن جميعه لا يسعه إلا تأليف مستقل فنقول:

أما (صٓ) فقال رضي الله عنه في تفسيره: إن المراد به في هذه السورة الفراغ الذي يجتمع فيه الناس وجميع الخلائق في يوم المحشر، وذكره في الآية على سبيل الوعد والوعيد، فكأنه يقول هو (صٓ) أي الذي أخوفكم وأبشركم به هو (صٓ) وذلك أن ذلك الفراغ، يتلون على ما تقتضيه أفعال كل ذات من الذات فتراه على كافر عذاباً من العذاب، وعلى مؤمن إلى جنبه رحمة من الرحمات، وعلى كافر آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن

عذاباً ولكن لا من جنس العذاب الذي للكافر الأول، بل من جنس آخر، وعلى مؤمن آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لا من جنس الرحمة التي للمؤمن الأول، بل من جنس آخر اقتضته أفعاله وهكذا حتى تأتي على جميع من في المحشر، ولا تجد فيه حيزاً يشبه حيزاً أبداً مع أنه فراغ واحد في رأي العين، وعلى ما تقتضيه طبيعة الدنيا والمفتوح عليه يرى هذا عياناً فيرى زيداً في فراغه على ما كتب له ويرى عمراً في فراغه على ما كتب له، وكأنهم الآن واقفون فيه بين يدي الله عز وجل فلهذا قلنا لو علم الناس ما أريد بـ (صٓ) وما أشير إليه به ما اجترأ واحد على مخالفة أمر الله عز وجل فإنه لو فتح للناس على مكانتهم في ذلك الفراغ لاغتبط المطيع ولمات المخالف أسفاً، ولا يخفى أنه يكون في ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون والأنبياء والملائكة والجن والشياطين، وقد أشار إلى الكفار في صدر السورة بذكر طوائف منهم، وإلى الأنبياء بذكر طوائف منهم، وإلى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء، وإلى الملائكة بذكر الملأ الأعلى آخر السورة، وإلى الجن والشياطين بالإشارة إليهم في آخر السورة، وذكر أحوالهم في الدنيا، وإن لم تكن لهم في المحشر لأنها هي السبب في اختلاف أحوالهم في ذلك الفراغ الذي يحشرون فيه.

وبقيت أسرار أخر تتعلق بما في السورة لا يحل إفشاؤها، والله تعالى أعلم.

وأما (كهيعصٓ) فلا يفهم المراد منها إلا بعد تفسير كل حرف على حدته، فالكاف المفتوحة وضعت للعبد، والفاء الساكنة تحقيق لمعنى الفاء المفتوحة، ففيها ما في المفتوحة وزيادة التحقيق والتقرير ومعنى المفتوحة الشيء الذي لا يطاق، فكأن الساكنة تقول وكونه لا يطاق حق لا شك فيه، والهاء المفتوحة وضعت لتدل على الرحمة الطاهرة الصافية التي لا يخالطها كدر ولا غير، ويا للنداء والعين المفتوحة وضعت لتدل على الرحيل والانتقال من حال إلى حال، والياء المسكنة هنا تدل على الاشتباك والاختلاط، والنون المسكنة تحقيق لمعنى المفتوحة ومعنى المفتوحة الخير الساكن في الذات الشامل فيها، والصاد المفتوحة وضعت لتدل على الفراغ والدال المسكنة تحقيق لمعنى الصاد لأنها من حروف الإشارة، وحروف الإشارة تحقيق للمعاني التي قبلها بخلاف حروف غير الإشارة فإنها إذا سكنت حققت معاني مفتوحاتها، هذا تفسير الحروف على ما اقتضاه وضعها.

وأما المعنى المراد منها هنا: فهو إعلام من الله تعالى لجميع المخلوقات بمكانة النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى، وأنه تعالى منّ على كافة المخلوقات بأن جعل استمداد أنوارها من هذا النبي الكريم ﷺ، وبيان ذلك من التفسير السابق أن الكاف دلت على أنه ﷺ عبد، والفاء الساكنة دلت على أنه لا يطاق، وأن كونه لا يطاق حق لا شك فيه، ومعنى كونه لا يطاق أنه أعجز الخلائق فلم يدركه سابق ولا لاحق، فكان بذلك سيد الوجود ﷺ، والهاء المفتوحة دلت على أنه رحمة طاهرة صافية مطهرة لغيرها، كما قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

وقال ﷺ:

«إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ لِلْخَلْقِ».

و«يا» نداء للعبد السابق والمنادي لأجله هو ما دلت عليه العين من الرحلة المؤكدة بمعنى الياء الساكنة لأنها من حروف الإشارة، وحروف الإشارة للتأكيد كما سبق وتفيد مع ذلك لزوم الرحلة واشتباكها، والمرحول به هو معنى النون الساكنة وهو نور الوجود الذي تقوم به الموجودات، والمرحول إليه هو المعنى الذي أشير إليه بالصاد. فمعنى الكلام حينئذ، يا هذا العبد العزيز علي اذهب ذهاباً حتماً لازماً إلى جميع من هو في حيز وفراغ بالأنوار التي تقوم بها وجوداتهم ليستمدوا منك فإن مادة الجميع إنما هي منك فقد ترتبت معاني الحروف ترتيباً حسناً واتسق نظم الكلام أي اتساق، وذلك لأن معاني الحروف في السريانية كمعاني الكلمات في غيرها، فكما أن الكلام إذا تركب من الكلمات في لغة من اللغات لا يستقيم إلا إذا ترتبت معاني كلماته، كذلك الكلام في السريانية إذا تركب من الحروف فإنه لا يستقيم إلا إذا ترتبت معاني حروفه، وكان بعضها آخذ بحجزة بعض، وكما أن الكلام إذا تركب من الكلمات في غير السريانية قد يحتاج من ترتيب معاني كلماته إلى تقديم وتأخير وفصل بين معنيين متلاصقين بما هو أجنبي منهما، وإضمار شيء يتوقف عليه تصحيح المعنى، كذلك الكلام في السريانية إذا تركب من الحروف فقد يحتاج في ترتيب معاني الحروف إلى تقديم وتأخير وحذف وإضمار إلى غير ذلك.

قال رضي الله عنه: وهذا الذي فسرنا به معاني هذه الرموز معلوم عند أربابه بالكشف والعيان، فإنهم يشاهدون سيد الوجود ﷺ ويشاهدون ما أعطاه الله عز وجل، وما أكرمه به ربه بما لا يطيقه غيره، ويشاهدون غيره من المخلوقات الأنبياء والملائكة وغيرهم، ويشاهدون ما أعطاهم الله من الكرامات ويشاهدون المادة سارية من سيد الوجود ﷺ إلى كل مخلوق في خيوط من نور قابضة في في نوره ﷺ ممتدة إلى ذوات الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام وذوات غيرهم من المخلوقات، فيشاهدون عجائب ذلك الاستمداد وغرائبه.

قال رضي الله عنه: ولقد أخذ بعض الصالحين طرف خبزة ليأكله فنظر فيه وفي النعمة التي رزقها بنو آدم قال: فرأى في ذلك الخبز خيطاً من نور، فتبعه بنظره فرآه متصلاً بخيط نوره الذي اتصل بنوره ﷺ، فرأى الخيط المتصل بالنور الكريم واحداً، ثم بعد أن امتد قليلاً جعل يتفرع إلى خيوط كل خيط متصل بنعمة من نعم تلك الذوات. قلت: وهو صاحب الحكاية رضي الله عنه، وجعلنا من حزبه ومن شيعته ولا قطع بيننا وبينه.

قال رضي الله عنه: ولقد وقع لبعض أهل الخذلان ـ نسأل الله السلامة ـ أنه قال:

ليس لي من سيدنا محمد ﷺ إلا الهداية إلى الإيمان، وأما نور إيماني فهو من الله عز وجل لا من النبي ﷺ، فقال له الصالحون: أرأيت إن قطعنا ما بين نور إيمانك وبين نوره ﷺ وأبقينا لك الهداية التي ذكرت أترضى بذلك؟ قال نعم رضيت. قال رضي الله عنه: فما تم كلامه حتى سجد للصليب وكفر بالله وبرسوله ﷺ، ومات على كفره نسأل الله السلامة بمنه وفضله.

وبالجملة فأولياء الله تعالى العارفون به عز وجل وبقدر رسول الله ﷺ، يشاهدون جميع ما سبق عياناً كما يشاهدون جميع المحسوسات بل أقوى، لأن نظر البصيرة أقوى من نظر البصر كما سيأتي، وحينئذ فيشاهدون سيدنا زكريا عليه السلام وأحواله ومقاماته من الله عز وجل ممتدة من سيد الوجود ﷺ إلى سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام، وكذلك كل ما ذكر في السورة من سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام وأحواله ومقاماته ومريم وأحوالها ومقاماتها وعيسى وأحواله ومقاماته وإبراهيم وإسماعيل وموسى وهارون وإدريس وآدم ونوح وكل نبي أنعم الله عليه، وهذا بعض ما دخل تحت تلك الرموز، وبقي مما دخل فيها عدد لا يحصى، فلهذا قلنا إن ما في السورة بعض البعض مما في الرموز فإن جميع الموجودات الناطقة والصامتة العاقلة وغير العاقلة وما فيه روح وما لا روح فيه كلها داخلة في تلك الرموز.

ولما سمعت منه رضي الله عنه هذا التفسير الحسن سألته رضي الله عنه عما نقله أبو زيد في الحاشية السابقة عن سيدي محمد بن سلطان ونصه: ونقل سيدي عبد النور عن سيدي أبي عبد الله بن سلطان، وكان من أصحاب الشاذلي رضي الله عنهم أنه قال: رأيت في النوم كأني اختلفت مع بعض الفقهاء في تفسير قوله تعالى (كهيعص) (وحمعسق) فأجرى الله تعالى على لساني، أو قال فقلت: هي أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، فكأنه قال كاف، أنت كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود أنت كل الوجود ها هبنا لك الملك، وهيأنا لك الملكوت، يا عين يا عين العيون، صاد صفاتي أنت.

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ﴾.

«حا» حميناك، «ميم» ملكناك، «عين» علمناك، «سين» ساررناك، «قاف» قربناك، قال فنازعوني في ذلك ولم يقبلوه مني، فقلت: نسير إلى رسول الله ﷺ ليفصل بيننا، فسرنا فلقينا رسول الله ﷺ، فقال لنا: الذي قال محمد بن سلطان هو الحق اهـ. فقال رضي الله عنه: هذا المعنى الذي قاله سيدي محمد بن سلطان صحيح بالنسبة إلى مقامه ﷺ، وتفسير هذه الحروف على حسب وضعها وما اقتضاه أصلها هو ما قلناه. قلت: ولا يخفى عليك علو تفسير الشيخ رضي الله عنه فإن هبة الملك وتهيئة الملكوت كل منهما يقتضي المباينة له ﷺ وعدم التفرع عنه، وأين هذا من أدراج الملك والملكوت وجميع المخلوقات تحت الصاد؟ ثم الحكم على الجميع بأن مادته من سيد الوجود ﷺ على ما اقتضاه حرف النون

والعين، وهذا معنى كونه كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود، فكل ما أشار إليه سيدي محمد بن سلطان رضي الله عنه يندرج تحت النون والعين والصاد.

ثم سمعت منه رضي الله عنه تفسير الفواتح كلها فاتحة فاتحة ورمزاً رمزاً، ولا سبيل إلى كتب جميع ذلك لطوله، إلا أني أذكر هٰهنا جوابين للشيخ رضي الله عنه. أحدهما عن سؤال وجهه إليه بعض الفقهاء ممن ينتسب إلى محبة الفقراء مع عدة أسئلة.

ونص السؤال: ومنها ـ سيدي ـ أي من الأسئلة: ما السر الإلٰهي المودع في حرف مقطع وهو (قٓ) حتى قال فيه بعض العارفين فيه اجتمع سر دائرة الحضرة القديمة والحضرة الحادثة بين لنا سيدي ذلك، وكان قصده بهذه الأسئلة اختبار الشيخ رضي الله عنه وهل ما ينسب إليه من العلوم الوهبية صحيح أم لا؟ فنظر هذا الفقيه في كتب الحاتمي وغيره وجمع من الأسئلة ما لا يحسب أنه لا يجيب عنه أحد فوجهه للشيخ رضي الله عنه.

فأجاب رضي الله عنه عنها كلها مع كونه أمياً عامياً، وأجاب رضي الله عنه عن هذا السؤال: بأن الحضرة القديمة هي حضرة الأنوار الحادثة التي كانت مخلوقة قبل خلق الأرواح والأشباح، وقبل خلق السموات والأرضين، وليس المراد بالقدم القدم على حقيقته الذي هو حيث كان الله ولا شيء معه، والمراد بالحضرة الحادثة هي ما بعد ذلك من الأرواح والأشباح، ولا شك أن حضرة الأرواح مع الأشباح منها ما وعده الله بالجنة ومنها ما وعده الله بالنار، ثم ما وعده الله بالجنة فرع عن بعض أنوار حضرة الأنوار كما أن ما وعده الله بالنار فرع عن بعضها، فصارت الحضرة الثانية فرعاً عن الحضرة الأولى وانقسم الأمر فيهما إلى مرضي عنه وغير مرضي عنه، فإذا فهمت هذا فهذا الحرف المقطع فيه من حيث التلفظ ثلاثة حروف مسمى قاف، ومسمى ألف، ومسمى فاء. فمسمى قاف مضموماً إلى مسمى ألف، موضوع في السريانية لتصرف الله تعالى في الحضرتين بالخير وبالشر وبالفضل والعدل، ومسمى فاء إذا كان مسكناً موضوع في السريانية لإزالة القبيح مما قبله والقبيح منهما هو الموعود بالشر، وإذا زال منهما الموعود بالشر بقي الموعود بالخير فيهما وهم خاصته تبارك وتعالى، فهذا الحرف المقطع إشارة إلى خاصته تعالى في الحضرتين وإلى الخيرات التي تفضل جلا وعلا عليهم بها، وهذا هو سر الحضرتين، فهو اسم من أسمائه تعالى أضيف إلى أعز المخلوقات عليه تبارك وتعالى فهو بمنزلة قولنا في العربية سلطان، فهذا اللفظ يشير إلى الملك ورعيته سواء كانت الرعية أهل سعادة كالمسلمين أو أهل شقاوة كالذميين، فإذا أريد مدح ملك قيل فيه سلطان الإسلام فالإسلام أخرج أهل الذمة من حيث الأدب والتعظيم والوقار لا أنهم خارجون حقيقة فهو بمنزلة من يقول يا رب محمد والأنبياء والملائكة وأهل السعادة، وهكذا حتى تأتي على جميع عددهم وعدد مقاماتهم وأحوالهم مع الله تعالى، وحتى تأتي على أهل الجنة وجميع منازلهم ودرجاتهم فيها، فإذا أتيت عليه ولم تذر منه شعرة واحدة فهو معنى (قٓ) ففيه حينئذ أسرار الرسالة

وأسرار النبوة وأسرار الملائكة وأسرار الولاية، وأسرار السعادة وأسرار الجنة وأسرار جميع الأنوار وسائر الخيرات التي في سائر المخلوقات.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾.

عادتهم في السريانية أن لا يكتب في الخط الفاء التي للإزالة ليتشاكل الخط مع المعنى فلهذا لم تكتب في الخط في (قٓ) والله أعلم.

فقال رضي الله تعالى عنه: وإن شئت تجعل الحضرة القديمة هو ما سبق في العلم الأزلي وتكون الحضرة قديمة على حقيقتها وتجعل الحضرة الحادثة هي المعلومات التي أوجدها عز وجل وأبرزها في هذا العالم فلك ذلك، وبقيت المعنى على حالته، والله تعالى أعلم.

قلت: فانظر وفقك الله ما أحسن هذا الجواب قد اجتمعت مع السائل فقلت له: ما عندكم في جواب الشيخ رضي الله عنه، فقال: الذي ذكره الشيخ زروق أن الحضرة القديمة هي دائرة القاف والحادثة هي التعريقة التي تحت الدائرة، والسر الذي فيها هو الإشارة إلى استمداد الحادثة من القديمة من حيث أن التعريقة متصلة بالحلقة التي سميناها دائرة، فاتصالها أشير به إلى استمداد الحادثة من القديمة فقد أشير بسورة (قٓ) إلى الحضرتين بحلقته إلى القديمة وتعريقته إلى الحادثة، وباتصال التعريقة بالحلقة إلى استمداد الحادثة القديمة.

فقلت: وأين هذا مما ذكره الشيخ رضي الله عنه؟ فإن السؤال وقع عن معنى قاف الذي هو لفظ من الألفاظ وهذا الذي ذكرتموه إنما يتعلق بالخط لا باللفظ، فإن لفظ قاف ليس فيه حلقة ولا تعريقة، ثم إن ما ذكرتموه ليس فيه تعرض لمعنى الحضرة القديمة والحضرة الحادثة، ثم أي مناسبة بين الحلقة والحضرة القديمة؟ وأي مناسبة بين التعريقة والحضرة الحادثة، فإن كان ذلك لمجرد الاتصال فهو موجود في حلقة الميم وتعريقتها، وفي الصاد والضاد والعين والغين وغير ذلك من الحروف التي فيها حلقة وتعريقة فانقطع السائل ولم يدر ما يقول، وليس هذا مني اعتراض على الشيخ زروق رضي الله عنه، فإني أعوذ بالله من الاعتراض عليه وعلى غيره من الأولياء نفعنا الله بعلومهم، وإنما باحثت السائل وجاريته في الكلام على أني لم أقف على كلام الشيخ زروق رضي الله عنه، ولا علمت كيف هو، ولعل السائل نقله لي بالمعنى ولم يتحققه فلذلك وقع عليه الاعتراض، والله تعالى أعلم.

وأما الجواب الثاني فهو عن الإشكال الذي أشار إليه سيدي عبد الرحمٰن الفاسي نفعنا الله به صاحب الحاشية السابقة.

وحاصله: ما وجه اتحاد الرمز وتعدد السور إذا كانت الفواتح رموزاً إلى حشو ما في سورها، فإن هذا يقتضي تباين الرموز كما تباينت السور.

فأجاب رضي الله عنه: بأن سبب اختلاف السور واتحاد الرموز هو أن أنوار الآيات القرآنية ثلاثة أقسام: أبيض وهو الذي يقوله العباد ويسألونه من ربهم عز وجل. وأخضر وهو ما يقوله الحق سبحانه. وأصفر وهو ما يتعلق بأحوال المغضوب عليهم، ففي الفاتحة الأخضر، وهو الحمد لله، لأنه من قول الحق سبحانه وتعالى، وفيها الأبيض وهو من رب ﴿العالمين﴾ إلى ﴿غير المغضوب﴾ وفيها الأصفر، وهو من ﴿المغضوب عليهم﴾ إلى آخرها وهذه الأنوار الثلاثة في كل سورة إلا أن بعضها قد يقل وبعضها قد يكثر كما ترى في الفاتحة، وسبب اختلاف هذه الأنوار الثلاثة اختلاف الأوجه الثلاثة التي للوح المحفوظ، فإن له وجهاً إلى الدنيا أي متعلقاً بالدنيا وأحوال أهلها وقد كتب فيه كل ما يتعلق بها وبأهلها وله وجه آخر إلى الجنة، وقد كتب فيه أحوالها وأحوال أهلها وصفاتهم وله وجه آخر إلى جهنم وقد كتب فيه أحوالها وأحوال أهلها وصفاتهم أعاذنا الله من جهنم وعذابها، فالوجه الذي إلى الدنيا نوره أبيض، والذي إلى الجنة نوره أخضر، والذي إلى جهنم نوره أصفر، وهو أسود في الحقيقة وإنما صار أصفر في نظر المؤمن لأن نور بصيرته إذا وقع على شيء أسود صيره أصفر في نظره، حتى إن المؤمن إذا كان في المحشر وكان له من النور الخارق ما كتب له وكان على البعد منه كافر أحاط به سواد عظيم وظلام كثير، فإنه أي المؤمن يراه أصفر فيعلم أن ذلك الشبح المرئي شبح كافر.

قال رضي الله عنه: وأما الكافر فإنه لا يرى شيئاً ويحجبه الظلام الذي غشيه من كل جهة، فهو لا يرى إلا سواداً على سواد.

فقلت: فإذاً لا يقع في قلبه إلا من كان في المحشر يماثله فلا يرى للمؤمن عليه مزية فلا يتمنى أن لو كان في الدنيا مسلماً.

فقال رضي الله عنه: يخلق الله تعالى له العلم الضروري بالجنة وأحوال أهلها. إذا فهمت هذا الآية إن أخذت من الوجه الذي يلي الجنة كان نورها أخضر، وإن أخذت من الوجه الذي إلى النار كان نورها أصفر، وإن أخذت من الوجه الذي إلى الدنيا كان نورها أبيض، ثم في كل وجه من هذه الأوجه تفاصيل وتقاسيم لا يحيط بها إلا الله تعالى وهذه الفواتح التي في أول السور مكتوبة في اللوح المحفوظ كما هي مكتوبة في المصحف ولكن كتب مع كل حرف منها شرحه بالسريانية، فإذا رأيت ما كتب في شرح كل فاتحة علمت تباينها وبيان ذلك أن (الٓمٓ) رموز أشير بها إلى نور سيد الوجود ﷺ الذي استمد منه جميع المخلوقات، فإن نظر إلى هذا النور المشار إليه بهذا الرمز من حيث إن من المخلوقات منهم من آمن به ومنهم من كفر به، وما هي أحوال من آمن به وما هي أحوال من كفر به، وما يتعلق بذلك؟ وينساق إليه الكلام، فهو الذي ذكره في سورة البقرة، وبهذا المعنى نزلت، وإن نظر إليه باعتبار الخيرات الحاصلة للناس منه وكيفية حصولها وذكر بعض من حصلت له فهو الذي ذكر في سورة آل عمران وبهذا المعنى نزلت، وإن نظر فيه باعتبار ما

نزل من النقم على غير أهله وما أصيبوا به في هذه الدار ونحو ذلك فهو الذي ذكر في سورة العنكبوت، وكذا يقال في كل سورة ترجمت بهذا الرمز يعلم هذا الذي قلناه من عاينه في اللوح المحفوظ، ثم أوردت سؤالاً يتعلق بالمقام فأجابني عنه بما لا تطيقه العقول فلذا لم نكتبه، والله تعالى أعلم.

قلت: وهذه إشارة من فوق فوق إلى ما ذكره الشيخ رضي الله عنه، وأما تحقيق المعنى الذي أشار إليه والبلوغ إلى تمامه فإنه لا يدرك إلا بالفتح أو بمشافهة الشيخ رضي الله عنه، فعند أخذه رضي الله عنه في تبيين المعاني وسؤال السائل له عن كل ما يعرض له في خاطره يصل الشخص إلى المعنى بتمامه وإن لم يكن من أهل الفتح، والله تعالى أعلم.

وقد ظهر لي أن أكتب هنا أصل وضع الحروف في اللغة السريانية لأنه يحتاج إليه، وقد سبقت منا الحوالة عليه كثيراً فلنذكره تتميماً للفائدة فنقول:

أما الهمزة: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى جميع الأشياء قلت أو كثرت وتكون الإشارة في بعض الأحيان من المتكلم إلى ذاته ونفسه وهذه الإشارة سالمة من القبض فإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء القريب القليل، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء القريب المناسب.

وأما الباء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء الذي هو في غاية العز أو في غاية الذل، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى ما دخل أو هو داخل على الذات، وإن كانت مضمومة فهي إشارة معها قبض.

وأما التاء المثناة من فوق، فإن كانت مفتوحة فهي اسم للخير الكثير العظيم، وإن كانت مكسورة فهي اسم لما صنع وأبرز، وإن كانت مضمومة فهي اسم اللقليل البارز وقد يؤتى بها لجمع الضدين.

وأما الثاء المثلثة، فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى النور أو الظلام، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى زوال الشيء من الشيء وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى جعل الشيء على الشيء.

وأما الجيم: فإن كانت مفتوحة فهي نبوة أو ولاية إذا كان قبلها أو بعدها ما يدل على ذلك وإلا فهي للخير الذي لا يزول أبداً، وإن كانت مضمومة فهي الخير الذي يؤكل أو ينتفع الناس منه، وإن كانت مكسورة فهي الخير القليل الذي في الذات من نور الإيمان.

وقال لي رضي الله عنه مرة أخرى: وإن كانت مكسورة فهي الخير القليل الضعيف أو النور.

وأما الحاء: فإن كانت مفتوحة فهي تدل على الإحاطة والشمول للجميع، وإن كانت مضمومة فهي العدد الكثير الخارج عن بني آدم كالنجوم، وإن كانت مكسورة فهي العدد الداخل في الذات أو للذات عليه ولاية كملكية العبيد والدنانير والدراهم وغير ذلك.

وأما الخاء: فإن كانت مفتوحة فهي طول إلى النهاية مع رقة وإن كانت مضمومة فهي اسم لكمال في الحيوانات، وإن كانت مكسورة فهي اسم لكمال في الجمادات.

وأما الدال: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى خارج عن الذات وإن كانت مسكورة فهي إشارة إلى ما في الذات أو إلى ما هو داخل عليها أو إلى ما هو قريب منها وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى ما هو قليل أو قبيح ومعه غضب فيهما.

وأما الذال: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى ما في تعظيم ذلك الشيء الذي ملكته الذات، وإن كانت مضمومة فهي اسم للشيء الخشن في ذاته أو العظيم أو القبيح، وإن كانت مكسورة فهي اسم للشيء القبيح الذي لا يعقبه في نفسه غضب.

وأما الراء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى جميع الخيرات الظاهرة والباطنة وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الواحد في نفسه وهو ظاهر وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي فيه الروح، وليس من بني آدم أو إشارة إلى الروح نفسها.

وأما الزاي: فإن كانت مفتوحة فهي اسم للشيء الذي إذا دخل على الشيء ضره. وقال مرة: اسم للشيء وما يتحرز منه وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى القبيح الذي فيه ضرر كالكبائر، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى القبيح الذي لا ضرر فيه كالصغائر والشبهات والنجاسة.

وأما الطاء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء الذي جنسه طاهر وصاف إلى النهاية وهو في ذاته أيضاً طاهر صاف إلى النهاية وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الخبيث إلى النهاية عكس الأول، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي من طبعه السكون أو أمر بالسكون.

وأما الظاء: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء الذي هو عظيم في نفسه ولا يكون معه ضده كالجود في الشرفاء والغش في اليهود وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي يتبع تحرك نفسه وهي تسعى في هلاكه، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي يتضرر منه العبد ومن طبعه أنه يضر.

وأما الكاف: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى حقيقة العبودية الكاملة وإن كانت مضمومة فهي العبد الأسود أو القبيح، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى إضافة العبودية إليك.

وقال مرة أخرى: فهي إشارة منك إليك بالعبودية.

وأما اللام: فإن كانت مفتوحة فهي حصول المتكلم على شيء عظيم وتكون إشارة إلى شيء عظيم، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي لا نهاية له، وإن كانت مكسورة فهي إشارة من المتكلم إلى وجود ذاته أو إلى ذاته. هذا إذا كانت مرققة فإن كانت مفخمة فهي إشارة مع قلق، وقال مرة: مع قبح.

وأما الميم: فإن كانت مفتوحة فهي جميع المكونات، وإن كانت مكسورة فهي نور الذات ظاهراً كما في العين وباطناً كما في القلب، وإن كانت مضمومة فهي العزيز القليل كماء العين ومنه قيل مومو.

وأما النون: فإن كانت مفتوحة فهي الخير الساكن في الذات الشاعل فيها، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الخير الكامل أو النور الساطع، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى شيء يدركه المتكلم أو هو له.

وأما الصاد: فإن كانت مفتوحة فهي جميع غبار الأرض في الموقف بين يدي الله عز وجل، وإن كانت مكسورة فهي الأرضون السبع، وإن كانت مضمومة فهي جميع نباتاتها هذا إذا كانت الصاد مرققة فإن كانت مفخمة فالمفتوحة هي الأرض التي غضب الله عليها أو التي لا نبات فيها والمكسورة الذات التي لا نبات فيها أو الذات لا خير فيها، والمضمومة ما يلحقنا منه ضرر من المعنيين السابقين.

وقال مرة أخرى: الصاد بالفتح إشارة إلى الأرض كلها وما عليها مقدار فرسخ، وبالضم جميع الأرضين وما هو تراب، والكسر للنبات الذي على وجه الأرض، وإذا كانت مفخمة تكون الإشارة إلى ما على هؤلاء بغضب من الله عز وجل اهـ. وهذا الثاني كتبته من خطه رضي الله عنه بعد وفاته، والأول سمعته منه مشافهة والعبارة في الثاني له رضي الله عنه.

وأما الضاد المعجمة: فهي إذا كانت مفتوحة عبارة عن الصحة وعدم البلاء، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي لا نور فيه أو لا ظلام فيه، وإن كانت مكسورة فهي عبارة عن الخضوع.

وأما العين المهملة: فإذا كانت مفتوحة فهي اسم لقدوم أو رحيل، وإذا كانت مضمومة فهي اسم للساكن في الذات التي تقوم به، وإن كانت مكسورة فهي اسم لخبث الذات.

هذا هو الذي سمعته منه رضي الله عنه، والذي في خطه رضي الله عنه العين بالفتح إشارة إلى ما هو قابل، وبالضم إشارة إلى الشيء الذي ينفع ويضر على حسب الإرادة،

وبالكسر خبث العبودية اهـ: وهو قريب من الأول، لأن الذي هو قابل فيه قدوم والساكن في الذات التي تقوم به مثل الروح والحفظة ينفع ويضر بإذن الله تعالى، وخبث العبودية هو خبث الذات وظلامها.

وأما الغين المعجمة: فإن كانت مفتوحة فهي اسم للنظر الذي يبلغ به حقيقة الشيء، وإن كانت مضمومة فهي اسم من أسمائه تعالى ويدل على الحنانة فيه، وإن كانت مكسورة فهي سؤال مما يجهله ليجيبه بما يعلمه، هذا ما سمعته منه رضي الله عنه، وفي خطه رضي الله عنه الغين بالفتح إشارة إلى الشيء الذي من طبعه يدفع كل من قاربه، وبالضم إشارة إلى الحنانة والتعظيم وكمال العز وبالكسر الشاق إلى الشيء الذي تكلم بكلمة ولا يعرفها وهو إشارة إلى ما هو مجهول اهـ. وهما متقاربان.

وأما الفاء: فإن كانت مفتوحة فهي لنفي الخبث بعد ما كان جنسه معلوماً بالخبث فهي إشارة إلى أنه طاهر وجنسه خبيث، والخبث مثل المعاصي وما أشبهها، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الذات وما احتوت عليه وفي بعض الأحيان قد يكون معها التقليل، وإن كانت مضمومة فهي لتزويل الخبث.

وأما القاف: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى حيازة الخيرات أو إلى جميع الأنوار، وإن كانت مضمومة في إشارة إلى النشأة الأصلية أو العلم القديم وما أشبه ذلك، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الذل.

وأما السين: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الشيء المليح الذي من طبعه الرقة. وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء القبيح الخشن أو إشارة إلى سواد حسا ومعنى وبالكسر إشارة إلى الشيء الطابع وتكون الإشارة منه، وهذا ما في خطه رضي الله عنه.

والذي سمعته منه رضي الله عنه السين المرققة بالفتح اسم لمحاسن الأشياء، وبالضم اسم للسواد حساً ومعنى، وبالكسر لباب الذات وسرها من عقل كامل وعفو وحلم وهما متقاربان.

وأما الشين: فإن كانت مفتوحة فهي إشارة إلى الرحمة التي لا يعقبها عذاب، وتكون إشارة إلى من خرجت منه النقمة ودخلت عليه الرحمة وتظهر، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى عال في نفسه مع التعظيم، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي من طبعه الستر، وقد تكون الإشارة إلى ما هو مستور في القلب وما أشبه ذلك، هذا ما في خطه رضي الله عنه. والذي سمعته منه رحمه الله تعالى ونفعنا به، الشين بالفتح رحمة لا يعقبها عذاب، وبالضم ما تحير فيه الأذهان أو يضر بالأجفان كالقذي ونحوه، وبالكسر ما وطيء عليه بعضو أو رجل ولم يظهر أو ما بطن في القلب ولم يظهر.

وأما الهاء: فإن كانت مفتوحة فهي الرحمة الطاهرة التي لا نهاية لها، وإن كانت

مضمومة فهي اسم من أسمائه تعالى وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الخير الذي يخرج من ذوات المخلوقات، هذا ما في خطه رضي الله عنه.

والذي سمعته منه رضي الله عنه: الهاء بالفتح الرحمة المطهرة التي لا نهاية لها وبالضم من أسمائه تعالى وفيه مشاهدة جميع المكونات، بخلاف النون المضمومة فهي بمنزلة من يقول ربي، والهاء المضمومة بمنزلة من يقول ﴿رب العالمين﴾ وبالكسر جميع النور الخارج من ذوات المؤمنين.

وأما الواو: فإن كانت مفتوحة فهي الأشياء المشتبكة في الإنسان، مثل العروق والأصابع وما أشبه ذلك، وإن كانت مضمومة فهي الأشياء المباينة لبني آدم مثل الأفلاك والجبال وما أشبه ذلك، وإن كانت مكسورة فهي الأشياء المشتبكة المستقذرة أو المبغوضة كالأمعاء ونحوها.

وأما الياء: فإن كانت مفتوحة فهي للنداء وقد يؤكد بها، هذا ما سمعته منه رضي الله عنه، والذي في خطه رضي الله عنه الياء بالفتح للنداء وتكون في بعض الأحيان للخبر الذي فيه نداء نحو ﴿لم يلد﴾ فإنه خبر وفيه نداء، وإن كانت مضمومة فهي إشارة إلى الشيء الذي لا يثبت كالبرق ونحوه، وإن كانت مكسورة فهي إشارة إلى الشيء الذي يستحيا به أو يستحيا منه كالعورة.

قال رضي الله عنه: هذه أسرار الحروف ولكل حرف منها سبعة أسرار تنشأ من مناسبة المعاني السابقة وله سبعة أسرار أخر يناسب بها الكلام العربي، وإذا كان الكلام عجمياً ناسبه بأسرار أخر والله يوفقناويعلمنا بجاه سيدنا محمد ﷺ، وكتبه عبد العزيز بن مسعود الشريف الشهير بالدباغ اهـ. من خطه رضي الله عنه.

فانظر رحمك الله: هل سمعت مثل هذا أو رأيته مسطوراً في ديوان؟ واللهتعالى أعلم.

وفي الشهر الذي لقيته رضي الله عنه واجتمعت به أو بعده بقليل كلمني بثلاث كلمات من السريانية، وقال لي: اعقل عليها، وإياك أن تنساها، وهي «سنر سذع مازر» بكسر السين وفتح النون بعدها راء مسكنة، ثم سين مكسورة بعدها ذال معجمة مسكنة، ثم عين مضمومة ثم ميم مفتوحة بعدها ألف بعده زاي مفتوحة، ثم راء مسكنة.

فقلت له رضي الله عنه: ما هذه اللغة؟ فقال: سريانية لا يعرف أحد يتكلم بها على وجه الأرض، يعني إلا القليل.

فقلت: وما معنى هذه الكلمات؟ فلم يفسر لي معانيها، وحيث علمت أصل وضع الحروف في السريانية تبين لك أنه يقول لي انظر إلى هذا النور الساكن في ذات الشاعل فيها الذي هو في ظاهري وفي باطني، انظر إلى هذا الخير العظيم الذي ملكته ذاتي وبه قوامها

فإن به طهارة جميع الأكوان من الشرور وكل ما في السموات والأرض وسائر العوالم من الخيرات الظاهرة والباطنة فهي مستمدة من هذا النور الذي هو في ذاتي، فهو رضي الله عنه يخاطبني بأنه هو المتصرف في العوالم كلها، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾.

ونحو ذلك مما يدل على تجدد علمه تعالى مع أن علمه تعالى قديم والقديم لا يتجدد.

فقال رضي الله عنه: إن القرآن ينزل على عادة الناس في كلامهم، ولو كان لملك من الملوك قريب ليس فوقه قريب وفوض إليه ذلك الملك أمر الرعية وغاب الملك عن أعين الناس وشرط على الرعية طاعة ذلك القريب وخصه بالدخول عليه بحيث لا يدخل عليه من الرعية غير ذلك القريب، فهذا يخرج من عنده بما يلزم الرعية في طاعة الملك وخدمته فإذا جعل ينفذ أوامر الملك يقول لهم يأمركم الملك بكذا ويطلب منكم كذا ويريد منكم أن تفعلوا كذا وكذا، حتى تصير هذه عادة ذلك القريب في خطاباته كلها حتى في الأمور التي تخصه، ولا تكون من الملك، فيقول لهم اخرجوا مع الملك إلى كذا وباشروا معه الأمر الفلاني، وإنما يعني نفسه؛ وذلك للاتحاد الذي حصل بينه وبين الملك وهذا معروف في عادة الناس لا ينكر، فكذلك هٰهنا العلم الذي نسب إلى الله عز وجل ليس متجدداً إنما المقصود به نسبته إلى الرسول ﷺ، ثم ذكر رضي الله عنه كلاماً عالياً يشير به إلى معنى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

قلت: وهذا الجواب غير الجواب الذي يذكره المفسرون في الآية، وإنها على حذف مضاف: أي وليعلم رسول الله، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن مسألة الغرانيق وقلت له: هل الصواب مع عياض ومن تبعه في نفيها، أو مع الحافظ ابن حجر فإنه أثبتها؟ ونص كلام الحافظ وأخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير. قال:

«قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّي وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى فَأَلْقَى الشَّيطَانُ عَلَى لِسَانِهِ تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهَا لَتُرْتَجَى، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ مَا ذَكَرَ آلِهَتَنَا بِخَيرٍ قَبْلَ الْيَوم فَسَجَدَ وَسَجَدُوا».

ثم ذكر تخريج البزار للقصة وكلامه عليها وما يتبع ذلك إلى أن قال: وتجرأ أبو بكر

ابن العربي على عادته فقال؛ ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة لا أصل لها، وهو إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سالم متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، وكذا قوله ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صحابي، وأكثر الطرق في ذلك عنهم ضعيفة قال: وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز رفعه إلا طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير مع الشك في وصله وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه ثم رده من طريق النظر فقال: لو وقع ذلك لارتد كثير ممن أسلم ولم ينقل ذلك اهـ، قال ابن حجر وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن للقصة أصلاً، وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر فذكر في ذلك ست تأويلات فانظرها فيه، ولما ثبتت هذه القصة فسر بها قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الآية.

فنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يفسر تمنى بقرأ، وأمنيته بقراءته، قال يشير إلى مسألة الغرانيق التي سبق ذكرها؛ ونقل عن النحاس أن هذا أحسن تأويل قيل في الآية وأجله وأعلاه، فقلت للشيخ رضي الله عنه: فما هو الصحيح عندكم في هذا أو ما الذي نأخذه عنكم في هذا الموضع الضيق؟

فقال رضي الله عنه: الصواب في القصة مع ابن العربي وعياض ومن وافقهما لا مع ابن حجر، وقط ما وقع للنبي ﷺ شيء من مسألة الغرانيق، وإني لأعجب أحياناً من كلام بعض العلماء كهذا الكلام الصادر من ابن حجر ومن وافقه، فإنه لو وقع شيء من ذلك للنبي ﷺ لارتفعت الثقة بالشريعة، وبطل حكم العصمة وصار الرسول كغيره من آحاد الناس حيث كان للشيطان سلاطة عليه وعلى كلامه، حتى يزيد فيه ما لا يريده الرسول ﷺ ولا يحبه ولا يرضاه، فأي ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم ولا يغني في الجواب أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضاً، لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحي في مسألة الغرانيق بالزيادة، كذلك يجوز إن يتسلط على الوحي بزيادة هذه الآية برمتها فيه وحينئذ فيتطرق الشك إلي جميع آيات القرآن، والواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب في الدين وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط، وأن يعتقدوا في الرسول ﷺ ما يجب له من كمال العصمة وارتفاع درجته عليه الصلاة والسلام إلى غاية ليس فوقها غاية ثم على ما ذكروه في تفسير قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ الآية.

يقتضي أن يكون للشيطان تسلط على وحي كل رسول رسول، وكل نبي نبي، زيادة على تسليطه على القرآن العزيز لقوله تعالى:

﴿مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

فاقتضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه ولا ريب في بطلان ذلك.

قلت: ورضي الله عن الشيخ، ما أدق نظره مع كونه أمياً، وقد قال ناصر الدين البيضاوي رحمه الله تعالى. قيل تمنى قرأ، وأمنيته قراءته وألقى الشيطان فيها أي تكلم بالغرانيق رافعاً صوته، بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ، وقد رد بأنه يخل بالوثوق ولا يندفع بقوله:

﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾.

لأنها أيضاً تحتمله اهـ. الغرض منه، وقد بسطه الشيخ رضي الله عنه في جوابه.

قلت: وأيضاً فإن الضمير في تمني يعود إلى ما قبله من الرسول لعام والنبي ولا يمكن أن يلقي الشيطان في أمنية كل منهم مسألة الغرانيق، وقد علمت رحمك الله أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين، فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أي وجه جاء، وقد عد الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الخبر الذي يجب أن يقطع بكذبه.

وأما قول الحافظ ابن حجر رحمه الله: والحديث حجة عند من يحتج بالمرسل، وكذا عند من لا يحتج به لاعتضاده بوروده من ثلاث طرق صحاح.

فجوابه: أن ذلك فيما يكفي فيه الظن من الأمور العملية الراجعة إلى الحلال والحرام وأما الأمور العلمية والاعتقادية فلا يفيد خبر الواحد في ثبوتها، فكيف يفيد في نفيها وهدمها فبان من هذا أن ما ذكره عياض غير مخالف للقواعد بل ما ذكره الحافظ رحمه الله ورضي عنه هو المخالف لها، لأنه أراد أن يعمل بخبر الواحد في هدم العقائد، وذلك مخالف للقواعد وكذا قوله في تفسير تمنى بقرأ وأمنيته بقراءته وأنه مروي عن ابن عباس وأن ذلك أحسن ما قيل في الآية وأجله وأعلاه. وجوابه أن الرواية في ذلك عن ابن عباس ثبتت في نسخة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواها علي بن أبي صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وقد علم ما للناس في ابن أبي صالح كاتب الليث وأن المحققين على تضعيفه، والله تعالى أعلم.

ثم قلت للشيخ رحمه الله ونفعنا به: ما الصحيح عندكم في تفسير قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

وما هو نور الآية الذي تشير إليه؟

فقال رضي الله عنه: نورها الذي تشير إليه هو أن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحبه لهم ويرغب فيه ويحرص عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم في ذلك نبينا ﷺ الذي قال له الرب سبحانه وتعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ وقال تعالى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

إلى غير ذلك من الآية المتضمنة لهذا المعنى، ثم الأمة تختلف كما قال تعالى:

﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾.

فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة، الموجبة لكفره وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو من وساويس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات. إذا تقرر هذا فمعنى ﴿تمنى﴾ أنه يتمنى الإيمان لأمته، ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح، فهذه أمنية كل رسول ونبي، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوى من الوساويس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحـانية والرسالة، ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به، فخرج من هذا أن الوساويس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين.

قلت: وهذا التفسير عندي من أبدع ما يسمع وذلك لا يتبين إلا بجلب بعض التفاسير التي قيلت في الآية ثم ينظر فيما بينها وبين تفسير الشيخ رضي الله عنه.

فالتفسير الأول: ما سبق في رواية ابن أبي صالح كاتب الليث بن سعد وقد سبق ما فيه من مخالفة العقيدة ومن مخالفته للعموم الذي في صدر الآية، فإنه فسرها بخصوص مسألة الغرانيق واللفظ عام في كل رسول ونبي.

التفسير الثاني: قال أبو محمد مكي قال الطبري ﴿تمنى﴾ أي حدّث نفسه فألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة، فيقول لو سألت الله أن يغنمك كذا ليتسع المسلمون والله يعلم الصلاح في غير ذلك، فيبطل الله ما يلقي الشيطان. وقد نقل الفراء والكسائي (تمنى) بمعنى حدث نفسه اهـ.

قلت: ولا يخفي ما فيه، وكيف يصح أن يتحيل الشيطان على النبي ﷺ وهو صاحب البصيرة الصافية التي يستنير منها الكون كله ثم ما ذكره لا يناسب العموم الذي في أول الآية ولا التعليل الذي في آخرها كما لا يخفي، والله تعالى أعلم.

التفسير الثالث: قال البيضاوي ﴿إلا إذا تمنى﴾ إذا زور في نفسه ما يهواه ألقى الشيطان في أمنيته في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام:

«وَإِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ الله فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».

إلى آخر ما ذكره مما لا يناسب سياق الآية ولا تنزيه مقام الرسالة.

وبالجملة فالتفسير الصحيح للآية هو الذي يوفي بثلاثة أمور: العموم الذي في أولها والتعليل الذي في آخرها، ويعطي للرسالة حقها وليس ذلك بحسب ما وقفت عليه إلا في تفسير الشيخ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه أيضاً: عن اختلاف عياض وابن حجر رحمهما الله في قصة هاروت وماروت، فإن الأول نفى الأحاديث الواردة في ذلك وأبطلها، والثاني أثبت القصة وقال إنها وردت من طرق شتى يكاد يجزم الواقف عليها بصحة القصة ويقطع بوقوعها، واتبعه الحافظ السيوطي فإنه أكثر من طرقها في كتابه الحبائك في أخبار الملائك وقال فيه إنه استوفى طرقها في تفسيره الكبير.

فقال رضي الله عنه ونفعنا به: الحق في ذلك مع عياض رحمه الله وذكر أسراراً لا تكتب ولا تفشى والسلام.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ الآية.

هل في السماء جبال من برد كما قاله بعض المفسرين؟

فقال رضي الله عنه: ليس فيها ذلك والمراد بالسماء في الآية ما علاك فكأنه يقول وينزل من جهة العلو وجبال البرد تكون في جهة العلو بحمل الرياح لها من الأرض إلى الجهة المذكورة.

وسبب سؤالي له رضي الله عنه عن هذه الآية، أنه ورد على سؤال عن أصل الثلج مم يكون؟ وتضمن السؤال فصولاً كثيرة لم أدر ما أقول فيها، فعرضته على الشيخ رضي الله عنه فأجابني عن فصوله فكتبتها في جوابي، و لنذكر السؤال والجواب لتكمل الفائدة بذلك.

ونص السؤال: الحمد لله، سادتنا الأعلام أدام الله بكم النفع للأنام، جوابكم في الثلج ما أصله وهل ينزل كذلك من محله منعقداً أم هو ماء عقدته الرياح، وما محله الذي ينزل منه، أمن السماء أم من المعصرات، أم هو من بحر في السماء مكفوف كما قيل به في في المطر أو غير ذلك؟ ولأي شيء خص بالبلاد الشديدة البرد دون غيرها، ولأي شيء خاص بالجبال فقط دون سهل الأرض؟ وعلى أنه إن نزل في سهلها فإنه لا يمكث إلا قليلاً

بخلاف مكثة في الجبال، ونراه في بعض الأحيان ينزل مجتمعاً مع المطر دفعة، وفي بعضها ينزل وحده وهو الأغلب، وأيضاً فإنه قد لا يكون الحاجز بين الحارة والباردة إلا اليسير مثل الستة عشر ميلاً فأقل فتختص كل واحدة منهما بما اختصت به، هل ذلك معلل أم لا، ولأي شيء خصت الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل منها؟ وأيضاً الصاعقة لا تنزل إلا في البلاد الباردة والجبال ومواضع الشجر، بخلاف الأرض السهلة المستوية الحارة مثل الصحراء، فقد ذكر أهلها أنهم لا يعرفونها ولا تنزل عندهم فلأي شيء خصت بناحية دون أخرى وما السر في ذلك جواباً شافياً.

ونص الجواب: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.
الجواب والله الموفق للصواب بمنه: إن الثلج ماء عقدته الرياح وأصله غالباً من ماء البحر المحيط، وماء البحر المحيط مخصوص بثلاث خصال لا توجد في غيره: البرودة إلى النهاية لمجاورته للرياح ولبعده من حر الشمس، ولذلك ينعقد بأدنى سبب. والصفاء إلى النهاية لأنه ماء باق على أصل خلقته لم يمتزج بشيء من جواهر الأرض، فإنه بحر محمول على القدرة الأزلية وليس هو على الأرض ولا على شيء والبعد إلى النهاية، فإن المسافة التي بيننا وبينه في غاية البعد. إذا فهمت، فاعلم أنه تبارك وتعالى إذا أمر الرياح تحمل شيء من هذا الماء، فإنه ينعقد بعد حمله لأجل البرودة التي فيه، ولا تزال الرياح تحمله شيئاً فشيئاً وتسحقه قليلاً قليلاً، فإذا طالت المسافة التي بيننا وبينه حصل له انحلال إلى النهاية حتى يصير مثل الهباء، وتجتمع أجزاؤه لأجل النداوة التي فيه ولذا ينزل على هيئة لطيف الصوف أحياناً وعلى هيئة أخرى أدق منها أحياناً، فهذا أصل الثلج، وذلك بخلاف البرد، فإن المسافة التي بين انعقاده ونزوله غير طويلة لأنه من مياه البحور التي في وسط الأرض ومن الغدران التي تجتمع في الأرض عند نزول الأمطار غالباً، ولذلك قد يوجد أحياناً في وسط الحبة شيء من البرد من أجزاء الأرض مثل الكريس ونحوه، وقد شاهد الثقات ذلك وإنما ما كان مستديراً على هيئة الطعام المفتول الغليظ وأغلظ لأجل مصاككة الريح له، فراجت أجزاؤه في الهواء تحت أيدي الرياح مثل روجان أجزاء الطعام تحت أيدي المرأة في الصحفة، فحصل فيه فتل مثل ما يحصل في الطعام، ولمانزل في الحين شاهدنا ذلك فيه ولو أنه تأخر نزوله ودامت المصاككة والروجان لاندهقت أجزاؤه وصار ثلجاً، فهذا بيان أصل الثلج، وبيان الموضع الذي ينزل منه.

وأما قولكم: لأي شيء خص بالبلاد الشديد البرد إلى قولكم بخلاف مكثه في الجبال.

فجوابه: أن العلة في ذلك هي أن الثلج لا يزال على انعقاده حتى يطرأ عليه مانع، فإذا طرأ المانع رجع مطراً وذلك المانع هو الأجزاء البخارية الصاعدة من الأرض وفيها نوع حرارة، فإذا لقيت الثلج كسرت من برودته فزال انعقاده، ولا يخفى أن هذه الأجزاء البخارية

تكثر جداً في البلاد الحارة والسهول، ولذا لا يرى فيها ثلج، وعلى تقدير إن رؤي فإنه لا يطول مكثه، بخلاف البلاد الباردة والجبال المرتفعة فإنه لا مانع فيها من بقاء الثلج على انعقاده.

وقولكم: ونراه أحياناً ينزل مع المطر وأحياناً وحده.

فاعلم أن سبب نزوله مع المطر أحد أمرين: إما ذوبان بعض أجزائه بالأجزاء البخارية السابقة فينزل الذي لم يذب ثلجاً والذي ذاب مطراً، ولذلك يكون المطر النازل معه في الغالب ضعيفاً رقيقاً مسحوقاً مثل الثلج، وأما إن نزل قبل تمام انعقاده فإن الرياح تحمل ماء فينعقد وتطحنه ثم تحمل ماء آخر، فإذا أمرهما الله بالنزول نزل الأول ثلجاً والثاني مطراً.

وقولكم: وأيضاً فإنه قد لا يكون الحاجز إلى قولكم هل ذلك معلل أم لا؟

فجوابه: أن مدار الفرق على وجود المانع من الانعقاد وعدمه، وقد فقد المانع في البلاد الباردة ووجد في الحارة، فلذلك اختصت كل واحدة بما اختصت به.

وقولكم: لأي شيء خصت الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل منها.

فجوابه: أنه إنما اختصت بذلك لقربها من الجو الذي هو في غاية البرودة، وأما السهول فإنها بعيدة منه وبهذا حصل الفرق.

وقولكم: وأيضاً الصاعقة فإنها لا تنزل إلى قولكم وما السر في ذلك؟

فجوابه: أن القول بأن الصاعقة لا تنزل في الأرض السهلة المستوية الحارة غير صحيح فإنا شاهدناها تنزل في بلادنا سلجماسة وهي أرض سهلة مستوية حارة صحراء ولا أحصي كم شاهدناها تنزل فيها؟

وقد ذكر السيد في شرح المواقف أن صبياً كان في صحراء فأصاب رجليه صاعقة فسقط ساقاه ولم يخرج منه دم.

وقد ذكر المفسرون نزولها في الصحراء عند قوله تعالى:

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾.

واعلم أن هذا الذي ذكرناه في الجواب أخبر به من عاين الأمر على ما هو عليه من أرباب البصيرة نفعنا الله بهم نعني الشيخ رضي الله عنه، فينبغي أن ينسب هذا الجواب لساداتنا الصوفية رضي الله عنهم.

وأما كلام أهل السنة والجماعة، فقد عدمناه في هذا الباب، فإني راجعت مظانّ المسألة في كتب التفسير والحديث والكلام فما عثرت على شيء فيها، وهذا الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله مع جلالة قدره وعلو درجته في الحديث والآثار؛ لم يتعرض

لذلك لا في الكتاب الذي سماه بالهبة السنية في الهيئة السنية وقد وضعه في علم الهيئة لأمثال هذه المسألة، ولا في حاشيته على البيضاوي، وعادته فيها أن يرد كلام الحكماء الذي يتبعه البيضاوي بكلام السلف الصالح، ولا في الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور، ولا في غير ذلك من كتبه التي وقفنا عليها، وقد أكثر في هذه الكتب الثلاثة من الكلام على الرعد والصواعق والمطر والسحاب والبرق وكان من حقه أن يتكلم على الثلج والبرد وعلى سببهما، لأن البيضاوي نقل طريقة الحكماء في سببهما وهي مبنية على نفي الفاعل بالاختيار كما أشار إلى ذلك صاحب المواقف وهذه طريقة الحكماء. قال في المواقف وشرحها:

اعلم أن حر الشمس وغيرها يصعد إلى الجو أجزاء: إما هوائية ومائية مختلطين وهو البخار وصعوده ثقيل، وإما نارية وأرضية وهي الدخان، وصعوده خفيف وليس ينحصر الدخان كما تعورف في الجسم الأسود الذي يرتفع مما يحترق بالنار، وقلما يصعد البخار والدخان ساذجين، بل يتصاعدان في الأغلب ممتزجين ومنهما يتكون جميع الآثار العلوية. أما البخار فإن قل واشتد الحر في الهواء حلل الأجزاء المائية وقلبها إلى الأجزاء الهوائية وهي الهواء الصرف وإلا: أي وإن لم يكن الأمر كذلك، فإن كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلله، فإن وصل ذلك البخار بصعوده إلى الطبيعة الزمهريرية التي هي الهواء البارد كما عرفت عقده ببرده فتكاثف وصار سحاباً وتقاطرت الأجزاء المائية إما بلا جمود وهو المطر إذا لم يكن البرد شديداً، وإما مع جمود إذا كان البرد شديداً فإن كان الجمود قبل الاجتماع والتقاطر وصيرورته جثاثاً كباراً فهو الثلج، وإن كان الجموع بعده فهو البرد، وإنما يستدير ويصير كالكرة بالحركة السريعة الخارقة للهواء بمصادفته فتمتحى الزوايا عن جانب القطرات المنحدرة.

ثم تكلم على سبب الظل والصقيع والضباب والرعد والبرق والصاعقة والريح وغيرها من الأمور العلوية، ثم قال بعد كلام طويل ملخص بعبارة جامعة وافية ما ذكرناه في الفصل الثاني أو في المرصد الأول كله آراء الفلاسفة حيث نفوا القادر المختار كما سبقت الإشارة إليه أثناء الكلام مرة بعد أخرى إلى آخر كلامه اهـ. المراد منه، وحينئذ فعلى ناصرالدين البيضاوي رحمه الله درك في تفسير قوله تعالى:

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾.

بطريقة الفلاسفة، والعجب من سكوت الحافظ السيوطي رحمه الله في الحاشية على ذلك وكذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله في حاشيته عليه.

واعلم أن الجواب الأول الذي سمعناه من الشيخ رضي الله عنه لو أردنا بسطه وبيان أوجهه وتفصيل ما ينجر إليه الكلام ما وسعنا له كراس، وفي هذا القدر كفاية، والله تعالى أعلم.

قاله وكتبه عبيد ربه أحمد بن مبارك بن محمد بن علي بن مبارك السلجماسي اللمطي، لطف الله به آمين.

وسألته رضي الله عنه: عن الزلزلة وسببها؟ وذلك أني كنت معه رضي الله عنه بسوق الرصيف نتماشى، فحدثت زلزلة صغيرة شعر بها بعض الناس دون بعض، وكنت أنا ممن لم يشعر بها، فلما بلغنا المخفية لقينا ناس فسألونا أشعرتم بالزلزلة؟ فقلت أنا ما شعرنا بشيء وما كانت زلزلة، فقال لي الشيخ رضي الله عنه قد كانت، وذلك حيث كنا بسوق الرصيف واقفين عند فلان في حانوته ثم شاع أمرها في الناس.

فسألته رضي الله عنه عن سببها وقد كنت عرفت ما قاله السلف الصالح فيها وما قاله الفلاسفة أيضاً فيها وأحببت أن أسمع جوابه رضي الله عنه.

فقال لي رضي الله عنه: سبب زلزلة الأرض تجلى الحق سبحانه لها وشرح هذا الكلام سر، وقد سمعته من الشيخ رضي الله عنه.

قال رضي الله عنه: ثم هذا التجلي كان كثيراً في أول خلق الأرض وقبل خلق الجبال فيها، فكانت تضطرب وتميل، ثم حجبها جل وعلا وخلق الجبال فيها فسكنت، وفي آخر الزمان يكثر هذا التجلي أيضاً فلا تزال الأرض تكثر فيها الزلازل والرجفات حتى يبيد من عليها.

قلت: وذكر الحافظ السيوطي رحمه الله في كتابه الذي سماه بكشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، عن ابن عباس قريباً من كلام الشيخ رضي الله عنه ونصه:

وقال الطبراني في كتابه السنة: باب ما جاء في تجلي الله للأرض عند الزلزلة، حدثنا حفص بن عمر الرقي، حدثنا عمرو بن عثمان الكلبي، حدثنا موسى بن أعين عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن ابن عباس قال:

«إِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُخَوِّفَ عِبَادَهُ أَبْدَى عَنْ بَعْضِهِ لِلأَرْضِ فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَزَلْزَلَتْ وَإِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُدَمْدِمَ عَلَى قَوْمٍ تَجَلَّى لَهَا».

وقال الديلمي في مسند الفردوس: أخبرنا عبدوس أخبرنا ابن زنجويه، أخبرنا القطيعي، حدثنا محمد بن إسحاق البلخي القاضي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمٰن بن براء من أهل هراة، حدثنا أبو عبد الله الهروي، حدثنا محمد بن أزهر، حدثنا أيوب بن موسى عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَإِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُخَوِّفَ خَلْقَهُ أَظْهَرَ لِلأَرْضِ مِنْهُ شَيْئاً فَارْتَعَدَتْ، وَإِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُهْلِكَ خَلْقَهُ تَبَدّى لَهَا» اهـ.

فرضي الله عن الشيخ ما أعرفه بالأمور.

ثم قال الحافظ السيوطي: وبهذه الآثار عرف فساد قول الحكماء أن الزلازل إنما تكون عن كثرة الأبخرة الناشئة عن تأثير الشمس واجتماعها، يعني الأبخرة تحت الأرض بحيث لا تقمعها برودة حتى تصير ماء، ولا تتحلل بأدنى حرارة لكثرتها، ويكون وجه الأرض صلباً بحيث لا تنفذ البخارات منها، فإذا صعدت ولم تجد منفذاً اهتزت الأرض منها واضطربت كما يضطرب بدن المحموم لما يثور في بطنه من بخارات الحرارة وربما انشق ظاهر الأرض فتخرج تلك المواد المحتبسة، ووجه فساده أنه قول لا دليل عليه بل ورد الدليل بخلافه اهـ. كلام الحافظ رحمه الله تعالى.

نعم سألت الشيخ رضي الله عنه: عن سبب الخسف الذي يظهر في الأرض أحياناً ويكثر في آخر الزمان.

فقال رضي الله عنه: إن الأرض محمولة على الماء، والماء محمول على الريح، والريح تخرج من حيز عظيم بين السماء وطرف الماء أعني ماء البحر المحيط، وذلك أنا لو قدرنا رجلاً يمشي ولا ينقطع مشيه فإنه يبلغ لمنقطع الأرض، ثم يرى البحر المحيط، فإذا فرضناه يمشي عليه ولا ينقطع مشيه، فإنه لا يزال يمشي فوق الماء إلى أن ينقطع، وعند ذلك لا يبقى بينه وبين السماء إلا الجو الذي تخرج منه الريح، فيرى رياحاً لا تكيف ولا تطاق وهي بإذن الله الحاملة للماء والأرض، والماسكة للسماء، ثم هي خدامة دائماً لا تسكن لحظة ومرتفعة نحو السماء، فإذا أراد الله تعالى أن ينزل المطر على قوم أمر شيئاً من تلك الرياح فانعكس إلى جهة الأرض، وعبر على متن البحر المحيط أو غيره، فيحمل ما أراد الله تعالى من الماء إلى الموضع الذي يريده عز وجل؛ وكم مرة أنظر إلى طرف الماء الموالي للجو الذي فيه الرياح فأرى فيه جبالاً من الثلج لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل، فإذا رجعت من الغد وجدت تلك الجبال نقلت إلى طرف الماء الموالي لجبل قاف، وإذا الرياح المنعكسة هي التي حملتها، والله تعالى أعلم.

وإذا أراد الله أن يخسف بقوم دخلت الرياح في منافس وتقويرات في الأرض بينها وبين الماء، فإذا دخلت الريح فيها وقع في الأرض انحلال ينشأ عنه الخسف، وفي آخر الزمان تكثر المنافس في الأرض، ويكثر انعكاس الرياح إلى جهة الأرض فتكثر الخسوفات حتى يختل نظام الأرض، وكل ذلك بفعل الله تعالى وإرادته، والله تعالى أعلم.

ثم لا تزال الرياح تعمد نحو الأرض وتقصد خرابها حتى تصير الأرض في أيدي الرياح بمثابة الغربال في يدي الذي يصير بها زرعاً من تراب أو حجر، والمصير في الأرض هو عجب الذنب الذي تركب منه الذات، وهو لبني آدم بمثابة الزريعة، فيجمعه الله من أعماق الأرض وقعر البحار ووسط الكهوف وتحت الجبال وحيثما كان، وفي ذلك اليوم

تسير الجبال، ثم تنسف نسفاً من قوة الريح، ثم تنشق السماء وينزل الماء على عجب الذنب، فلا يزال ينمو شيئاً فشيئاً كنمو القلنيص والبطيخ ونحوهما ويظهر على وجه الأرض.

قال رضي الله عنه: وهنا كان يقول لنا سيدي عبد الوهاب البرناوي رحمه الله: اذكروا يوم تبيض الأرض فتسير إلى نمو عجب الذنب، فإذا تم نموه انفتح عن بني آدم كما تنفتح البيضة عن الطير، قال السرة يومئذ من جهة الظهر لا من جهة البطن، ثم يأمر الله تعالى الأرواح بالدخول في أشباحها، فإذا دخلت الأرواح فيها استقلت قائمة فانقطعت السرة، فإذا تم دخول الأرواح في الأشباح أمر الله تعالى النور والسر الذي كان يحجب جهنم عن الخروج إلى أهل الدنيا وهو نور نبينا ومولانا محمد ﷺ أن يسير نحو الجنة، وعند ذلك تخرج جهنم إلى أهل الأرض وتأتيهم من كل جهة ولا يسلم مقدار الخوف الذي يدخل العباد في ذلك اليوم إلا الله تبارك وتعالى.

قال رضي الله عنه: وفي ذلك اليوم وقت دخول الأرواح في الأشباح يسمع للأرواح دوي وخفقان وأصوات تملأ القلوب رعباً، وتنقطع الأكباد منها دهشاً.

ثم تكلم رضي الله عنه على ما يقع في ذلك اليوم، وسيأتي بعضه إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله تعالى:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ﴾ الآية.

خطاب للإنس والجن، هل ذلك الإرسال في المحشر أو بعد استقرارهم في جهنم؟

فقال رضي الله عنه: إنما يكون ذلك في المحشر، وهي النار التي تخرج على أهل المحشر وتحف بهم من كل ناحية والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

ما المراد بالسجلّ: فإن من المفسرين من فسره بالصحيفة: أي كطي الصحيفة للكتاب أي لأجل الكتابة التي فيها: أي طويت الصحيفة لأجل الكتابة التي فيها.

فقال رضي الله عنه: المراد بالسجل الآلة التي يضع الناسخ عليها الكتاب الذي ينسخ منه التي تسمى عند العامة بحمار الكتب، وأظنه رضي الله عنه قال: اللفظة سريانية، والمعنى: يوم نطوي السماء كطي الآلة المذكورة، فإن صاحبها إذا فرغ من النسخ عليها يطويها، وقوله تعالى ﴿للكتاب﴾ في موضع الحال من السجل: أي حال كون السجل

للكتاب احترازاً من السجل الذي لغير الكتاب، وفاتني أن أسأله رضي الله عنه عن وجه الشبه وكيفية طي السماء، ولم شبه طيها بطي الآلة المخصوصة؟ وهل بينهما مناسبة خاصة لا توجد في غيرهما وهل هناك سجل آخر لغير الكتاب حتى يحترز عنه وما هو؟ ولو سألته رضي الله عنه ورحمه عن هذه الأسئلة لخرجت في أجوبتها علوم غيبية، فإنه رضي الله عنه لا يجيبنا إلا عن عيان، وحيث عدمت كلامه في تتميم المسألة فنكملها بكلام العلماء رضي الله عنهم.

قال الإمام أبو عبد الله البخاري في صحيحه: السجل الصحيفة. قال الحافظ في الفتح وصله الفريابي من طريقه يعني من طريق مجاهد وجزم به الفراء، وروى الطبري معناه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿كطي السجل﴾ يقول كطي الصحيفة على الكتاب. قال الطبري: ومعناه كطي السجل على ما فيه من الكتابة، وقيل على بمعنى من: أي من أجل الكتاب، لأن الصحيفة تطوى لما فيها من الكتابة.

وجاء عن ابن عباس «أن السجل اسم كاتب كان للنبي ﷺ» أخرجه أبو داود والنسائي والطبري من طريق عمر بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس بهذا، وله شاهد من حديث ابن عمر عند ابن مردويه، وفي حديث ابن عباس عند ابن مردويه «السجل الرجل بلسان الحبشة» وعند ابن المنذر من طريق مسلم قال «السجل الملك» وعند الطبري من وجه آخر عن ابن عباس مثله، وعند عبيد بن حميد من طريق عطية مثله وبإسناد ضعيف عن علي مثله.

وذكر السهيلي عن النقاش أنه ملك في السماء الثانية ترفع إليه الحفظة الأعمال كل خميس واثنين، وعند الطبري من حديث ابن عمر بعض معناه. وقد أنكر الثعالبي والسهيلي أن السجل اسم للكاتب لأنه لا يعرف في كتاب النبي ﷺ، ولا في أصحابه من اسمه السجل، قال السهيلي، ولا وجد إلا في هذا الخبر، وهو حصر مردود فقد ذكره في الصحابة ابن منده وأبو نعيم وأورده من طريق ابن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له السجل، وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه اهـ. كلام الحافظ رحمه الله تعالى والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

فقلت: موسى عليه السلام من أكبر العارفين بالله تعالى، ولا يكون العارف عارفاً حتى يخوض بحار المشاهدة، فكيف سأل الرؤية، وهو من أهل المشاهدة الدائمة وهل تزيد الرؤية على المشاهدة؟

فقال رضي الله عنه ونفعنا بذاته الكريمة: مشاهدة الذات العلية لا تخلص لأهلها من مشاهدة أفعالها ولا تصفو منها، إلا لو كانت أفعال الذات العلية تنقطع، ولو انقطعت طرفة عين لانهدم الوجود واختل نظام العالم، فما من موجود إلا وفيه فعل الله تعالى وهو مادته والسبب في بقائه، وهو الحجاب بينه وبين الذات العلية، ولولا أنه تعالى حجب أفعاله تعالى فيها لاحترقت الذوات وذاب كل حادث في العالم، فلما لم تصف المشاهدة لأهلها وصارت الأفعال المتقدمة بمنزلة القذي في البصر، سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل أن يقطع عنه الفعل حتى لا يحجبه عن مشاهدة الذات العلية على الصفاء، فقال له ربه عز وجل، إذا قطعت الفعل عن الحادث اختلت ذاته، وهذا الجبل أقوى منك ذاتاً، وأصلب منك جرماً فانظر إليه ﴿فإن استقر مكانه﴾ بعد قطع فعلى عنه ﴿فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل﴾ وقطع عنه الفعل الحاجب له عن سطوة الذات العلية تدكدك الجبل وتطايرت أجزاؤه حتى صعق موسى عليه السلام.

ثم ذكر رضي الله عنه أسراراً إلٰهية لا أحرمنا الله منها بمنه وكرمه والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾.

فإن علماء التفسير رضي الله عنهم اختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً وذكرت له بعض ما قالوه.

فقال رضي الله عنه: لا أفسر لكم الآية إلا بما سمعت من النبي ﷺ يذكره لنا في تفسيرها بالأمس.

فقال رضي الله عنه: إن ما يقع في خواطر العباد مما يتعلق بالأمور الكائنة على قسمين قسم لا يقع وإليه الإشارة بقوله: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ وقسم يقع وإليه الإشارة بقوله: ﴿ويثبت﴾ يعني أن الخواطر المتعلقة بالأمور الاستقبالية كنزول مطر وقدوم قادم ووقوع حادث منها ما يخيب وهو الممحو، ومنها ما يجيب بالجيم وهو المثبت ﴿وعنده﴾ تعالى ﴿أم الكتاب﴾ وهو العلم القديم الذي لا يخيب أصلاً، هكذا فسره النبي ﷺ فاعتمده واطرح ماسمعت من غيره، وذلك أني كنت سمعت منه في الآية تفسيراً آخر طالماً أفصح فيه عن حقائق عرفانية والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

هل تدل الآية على نبوة السيدة مريم، وهل ما قيل من نبوة غيرها من النساء كأم

موسى وآسية امرأة فرعون وسارة وهاجر وحواء صحيح أم لا؟ فإن من العلماء من ذهب إلى الأول، ومنهم من ذهب إلى الثاني، وحكى بعضهم الإجماع عليه في السيدة مريم فيكون غيرها أحرى، ومنهم من توقف كالشيخ الأشعري رئيس أهل السنة والجماعة، واستدل الأولون بأن الملك لا ينزل إلا على النبي عليه الصلاة والسلام وقد صرحت الآية بنزوله على مريم، وجعلوا هذا فارقاً بين النبي والولي، فقالوا النبي ينزل عليه الملك، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك.

فقال رضي الله عنه: الصواب مع أرباب القول الثاني، وهو نفي النبوة عن نوع النساء، ولم تكن لله نبوة في ذلك النوع أبداً، وإنما كانت مريم صديقة، والنبوة والولاية وإن اشتركتا في أن كلا منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل، فنور النبوة مباين لنور الولاية، وما به المباينة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف، غير أن نور النبوة أصلي ذاتي حقيقي مخلوق مع الذات في أصل نشأتها، ولذا كان النبي معصوماً في كل أحواله، ونور الولاية بخلاف ذلك، فإن المفتوح عليه إذا نظر إلى ذات من سيصير ولياً يرى ذاتاً كسائر الذوات، وإذا نظر إلى ذات من سيصير نبياً رأى نور النبوة في ذاته سابقاً، ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

فيكون صاحبها مطبوعاً على قول الحق ولو كان مراً، وعلى الصبر الذي لا يحس معه بألم ولا تكون معه كلفة، وعلى الرحمة الكاملة وعلى معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه، وعلى الخوف التام منه عز وجل خوفاً يمتزج فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله، وعلى بغض الباطل بغضاً دائماً، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضره فهذه هي خصال النبوة، وأجزاؤها السبعة التي تطبع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده. وأما ذات الولي. فإنها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شيء زائد فإذا فتح عليها جاءتها الأنوار فأنوارها عارضة، ولذا كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده.

وأما ما ذكروه في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح، لأن المفتوح عليه سواء كان ولياً أو نبياً، لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه ويخاطبهم ويخاطبونه وكل من قال إن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه، وفذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه.

قلت: وكذا قال الحاتمي رحمه الله في الفتوحات المكية في الباب الرابع والستين وثلثمائة غلط جماعة من أصحابنا منهم الإمام أبو حامد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي، أن النبي ينزل عليه الملك والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك، قال:

والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك، فالولي إذا نزل عليه الملك فقد يأمره بالاتباع، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وأنه من أهل السعادة والأمان، كما قال تعالى:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

قال وسبب غلط هؤلاء ظنهم أنهم عموا طرق الله بسلوكهم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا أنه لم ينزل على غيرهم ولا ينزل أصلاً على ولي ولو سمعوا من ثقة نزوله على ولي لرجعوا عن قولهم لأنهم يصدقون بكرامات الأولياء، وقد رجع لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه اهـ. ملخصاً.

وإذا فهمت كلام الشيخ رضي الله عنه في الفرق السابق علمت أن ما استصوبه الحاتمي رحمه الله في الفرق غير ظاهر، لأن حاصله أن الولي لا ينزل عليه الملك بالأمر والنهي بخلاف النبي وليس كذلك، فإن الولي ينزل عليه الملك بالأمر والنهي ولا يلزم منه أن يكون ذا شريعة كما في قصة مريم، فإن الملك نزل عليها بالأمر وليست نبية كما سبق.

ولو أفشينا ماسمعنا من الشيخ رضي الله عنه في هذا الباب لكان آية للطالبين وعمدة للراغبين، ولكنه سر لا يفشى، إلا أني أحببت أن أذكر هنا أمرين من علوم الشيخ رضي الله عنه أحدهما بعض ما يشاهده المفتوح عليه.

فقال رضي الله عنه: أما في المقام الأول فإنه يكاشف بأمور منها أفعال العباد في خلواتهم ومنها مشاهدة الأرضين السبع والسموات السبع، ومنها مشاهدة النار التي في الأرض الخامسة وغير ذلك مما في الأرض والسماء، قال: وهذه النار هي نار البرزخ، لأن البرزخ ممتد من السماء السابعة إلى الأرض السابعة، والأرواح فيه بعد خروجها من الأشباح على درجاتها، وأرواح أهل الشقاوة والعياذ بالله في هذه النار، وهي على هيئة منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعشاش وأهلها في نزول وصعود دائماً، لا يكلمك الواحد منهم كلمة واحدة حتى تهوي به هاويته، قال: وليست هذه النار هي جهنم، لأن جهنم خارجة عن كرة السموات السبع والأرضين السبع، وكذلك الجنة ومن الأشياء التي يشاهدونها اشتباك الأرضين بعضها ببعض، وكيف تخرج من أرض إلى أرض أخرى، وما تمتاز به أرض عن أرض أخرى، والمخلوقات التي في كل أرض، ومنها مشاهدة اشتباك الأفلاك بعضها ببعض وما نسبتها من السموات، وكيف وضع النجوم التي فيها ومنها مشاهدة الشياطين وكيف توالدها، ومنها مشاهدة الجن وأين يسكنون، ومنها مشاهدة سير الشمس والقمر والنجوم والأصوات الهائلة التي هي مثل الصواعق القاتلة لحينها، فإن هذا يكون سمعه دائماً ويجب عليه أن لا يستعظم شيئاً من هذه الأمور؛ وأن يستصغر كل ما يرى وإلا وقف به الحال وصار أمره إلى الانتكاس، لأن الذات في زمن الفتح سفافة تسف كل ما تستحسنه، وهذه

الأشياء المشاهدة كلها ظلام، فإذا ركن إلى شيء منها وقف في الظلام وانقطع عن الله عز وجل، ولذا كان غير المفتوح عليه في ساحة الأمن، وكان المفتوح عليه في غاية الخطر إلا من عصمه الله. وإذا كانت الذات قبل الفتح مفتونة مشغولة عن الله عز وجل بنحو اللوز والزبيب والحمص فضلاً عن الدراهم والدنانير والنساء والأولاد، فكيف لا يفتن بعد الفتح بمشاهدة العالم العلوي والسفلي ومساعدة الشياطين له على ما يريد ولا عصمة إلا بالله.

قال رضي الله عنه: ومن وقف مع شيء من هذه الأمور السابقة كانت الشياطين معه يدا بيد وصار من جملة السحرة والكهنة نسأل الله السلامة، ومن رحمه الله تعالى جذبه إليه وخلق فيه شوقاً وطلباً قلبياً يخرق به هذه الحجب.

وأما ما يشاهده في المقام الثاني: فإنه يكاشف بالأنوار الباقية كما كوشف في المقام الأول بالأمور الظلمانية الفانية، فيشاهد في هذا المقام الملائكة والحفظة والديوان والأولياء الذي يعمرونه، ويشاهد مقام عيسى عليه الصلاة والسلام وكل من يضاف إليه وكان على شاكلته، ثم مقام موسى عليه الصلاة والسلام وكل من معه، ثم مقام إدريس عليه الصلاة والسلام وكل من معه، ثم مقام يوسف عليه الصلاة والسلام وكل من معه ثم مقام ثلاثة من الرسل متقدمين، منهم من كان قبل إدريس، ومنهم من تأخر عنه، أسماؤهم غير معروفة بين الناس، ولو شرحنا مقامات الأنبياء المذكورين وكيف يرى الملك على أصل خلقته لسمع السامع شيئاً لم يكن له على بال. ويجب أيضاً على المكاشف بهذه الأمور أن لا يقف مع شيء منها لما سبق أن ذاته حينئذ شفافة، فإذا وقف مع شيء منها شفت ذاته أسراره حتى أنه إذا وقف مع مقام سيدنا عيسى مثلاً واستحسنه سقى بسره ورجع في الحين على دينه وخرج عن ملة الإسلام، نسأل الله السلامة.

ولا يزال المفتوح عليه على خطر عظيم وهلاك قريب حتى يشاهد مقام سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فإذا شاهده حصلا له الهناء وتم له السرور، لأن في ذاته ﷺ قوة جاذبة إلى الله عز وجل اختصت بها ذاته الشريفة ﷺ من بين سائر المخلوقات، ولذا كان أعز المخلوقات وأفضل العالمين، فإذا وصل المفتوح عليه إلى مقام نبينا ﷺ، تزايد جذبه إلى الله عز وجل وأمن من الانقطاع، وفي ذلك أسرار أخر يعرفها أرباب الفتح، جعلنا الله منهم ولا حرمنا بركتهم.

وأما المقام الثالث: فإنه يشاهد فيه أسرار القدر في تلك الأنوار المتقدمة.

وأما المقام الرابع: فإنه يشاهد فيه النور الذي ينبسط عليه الفعل وينحل فيه كانحلال السم في الماء فالفعل كالسم والنور كالماء؛ وفي هذا المقام يقع الغلط لكثير حيث يظنون أن ذلك النور هو الحق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وفي المقام الخامس: يشاهد انعزال الفعل عن ذلك النور، فيرى النور نوراً والفعل فعلاً؛ ويظهر له الغلط فيما ظنه أولاً، وأضربنا عن ذكر أسماء المقامات وشرح معانيها واستيفاء أقسامها، لأن الغرض الإشارة إلى تحذير المفتوح عليه، وقد حصلت والحمد لله مع ما في شرح لك من الأسرار التي لا تذكر لأهلها إلا مشافهة. والأمر الثاني أنك قد علمت الفرق بين النبي والولي.

وأما الفرق بين النبي والملك: فهو أن الملك ذاته نورانية ركب الله تعالى فيها العقل والحواس.

سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: في ذات كل ملك خمسة رؤوس، لكل رأس يمين وشمال وفوق وتحت فله فوق تسعة أفواه مجموع ذلك ثلاثة وستون في كل رأس، فإذا ضربت عدد الرؤوس الخمسة في عدة الأفواه السابقة كان الخارج ثلثمائة فم وخمسة عشر فما، والفم يكون فيه ثلاثة ألسن، وقد يكون فيه خمسة ألسن، وقد يكون فيه سبعة ألسن. فإذا كان فيه ثلاثة فالخارج من ضربها في عدد الأفواه تسعمائة وخمسة وأربعون لساناً، وإن كان فيه خمسة كان الخارج ألف لسان وخمسمائة لسان وخمسة وسبعين لساناً، وإن كانت سبعة كان الخارج ألفي لسان ومائتي لسان وخمسة ألسن، وإذا تكلم الملك بكلمة خرج صوته بها من هذه الألسن كلها، فسبحانه الملك الخلاق العظيم؛ فالمفتوح عليه إذا لم يؤيده الله تعالى بمزيد قوة من لدنه ينصدع قلبه عند سماع صوت الملك فما ظنك بمشاهدة ذاته في أصل خلقتها.

إذا سمعت هذا، فذات الملك نور صاف ركب فيها عقل وحواس فهو بمثابة الروح فإنها خلقت من نوره، وفي ذلك النور عقل به تقع معرفته عز وجل من جميع ما سبق في أجزائها السبعة، وقد سبق أن علومها فطرية مقارنة لأصل نشأتها، فكذلك الملك فهو مفتوح عليه في أول أمره.

وأما النبي فذاته مخلوقة من تراب، وقد حجبت الروح مع أسرارها في تلك الذات الترابية، والتراب بطبعه يقتضي الحجب إلا أن ذات النبي لما أمدها الله تعالى في أصل نشأتها بنور النبوة زال منها الظلام ورق الحجاب، فصار صاحبها بمثابة ضجيع الحق دائماً، قريب من الله قريب من الحق، لا يتحرك إلا في الحق، ولا يسكن إلا فيه. إذا سكت سكت على الحق، وإذا تكلم تكلم بالحق، أمره كله حق، حتى أنه لو فرض أنه خلق بين قوم نشأوا على الضلال لكان منابذاً لهم ومناقضاً لهم في جميع حركاتهم وسكناتهم لمجرد الحق في حشو ذاته، وإن لم يسمع شرعاً ولا أمراً ولا نهياً، فهذه حالة كل نبي في أصل نشأته وبداية أمره وقبل أن يفتح عليه، فأما إذا وقع الفتح وزال الحجاب بين الروح والذات بالكلية وصار في حضرة الشهود دائماً، فلا تسأل عن زاخر بحوره التي لا ساحل لها، فعند ذلك لا يطيقه الملك ولا غيره من المخلوقات، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَذَا النّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقدِرَ عَلَيْهِ﴾.

كيف يظن عدم القدرة عليه وخروجه عن إحاطة ربه؟ فإن هذا يبعد صدوره من أدنى ضعفة الموحدين فكيف بالأنبياء والمرسلين؟

فقال رضي الله عنه: معنى مغاضباً أي غاضباً عليهم، حيث تركوا ما فيه رشدهم وصلاحهم من الإيمان به والاستسلام لأمر حتى نزل بهم أمر الله تعالى وعذابه بحسب ما يظهر للناظر، فإن العذاب كان فوق مساكنهم، فلما رأى ذلك يونس عليه السلام غضب.

وَ ﴿أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وأما قوله تعالى ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

فمعناه أنه ظن أن لن نهلكه بما أهلكناهم، وذلك أنه لما رأى أمارة العذاب فر عنهم ظاناً النجاة وأنه لا يصيبه ما أصابهم، بمنزلة رجل رأى ناراً مقبلة لا تخص هذا دون هذا، أو رأى سيلاً جارياً لا ينجو منه ما وقف له ففر منه ظاناً أن فراره ينجيه من تلك النار أو من ذلك السيل، فهذه كانت حالته عليه السلام، فإنه لما رأى العذاب نازلاً بقومه وظن أنه إن بقي معهم أصابه ما أصابهم فر منهم ظاناً أنه لا يصيبه ما أصابهم لأجل فراره، فأراه الله تعالى نوعاً آخر من القدرة، لم يكن في ظنه عليه السلام (ف) لما رأى ذلك.

﴿نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

استجاب له ربه ونجاه عز وجل؛ وكانت القصة بعد ذلك آية للذاكرين، وأسوة للأوابين، وتسلية للمصابين، وفتح باب فرج للسائلين، ألا تراه يقول:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ففراره عليه السلام لظنه النجاة من العذاب النازل بقومه، لا إعجازاً للقدرة وخروجاً عن إحاطة سيده به.

قلت: وهذا أحسن ما قيل في الآية، فإن للمفسرين فيها أوجهاً كثيرة من تأملها علم أن هذا أحسنها، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

وَ ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ما المراد بالضر الذي مسه، وهل ما يقوله أهل التفسير في مرض أيوب عليه السلام صحيح أم لا، وكذا ما يذكرونه في طول مدة ضره؟ وذكرت له كلام الحافظ ابن حجر في الفتح في أحاديث الأنبياء منه، فلينظره من أراد الوقوف عليه في ترجمة أيوب عليه السلام.

فقال رضي الله عنه: الضر الذي مسه هو الالتفات إلى غيره تعالى، وهو أعظم ضر عند العارفين به عز وجل من الأنبياء والمرسلين، فهذا هو الضر الذي سأل أيوب عليه السلام من ربه أن يرفعه عنه، لا ضر مرض بدنه، فإن هذا يقربه من الله عز وجل، والذي يبعده من ربه سبحانه هو ضر الالتفات إلى غيره والانقطاع عنه ولو في لحظة من اللحظات.

وأما المرض الذي يذكره المفسرون والمؤرخون فلم يكن، ومدة مرضه كانت شهرين وزيادة أيام عينها لي الشيخ رضي الله عنه ونسيتها، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

ما المراد بالمعيشة الضنك؟ فإنه إن أريد بذلك ضيق المعيشة أشكل الأمر بأن كثيراً من الكفرة فيهم أغنياء ولا شك أن معيشتهم واسعة لا ضيقة، والآية تقتضي أن كل معرض عن ذكره تعالى معيشته ضيقة.

فقال رضي الله عنه: يسبق إلى العقول في الدنيا ما تصير إليه الذوات في الآخرة، وقد قضى تبارك وتعالى على الكفرة بالخلود في جهنم، كالكافر لا تمر عليه ساعة إلا ويتكدر عليه حاله لما يسبق إلى قلبه من الوسوسة، فإن الوسواس يحرك عليه الهم ويكدر عليه أمره، وأقله أن يقول له: لعلك لست على دين صحيح فهذا هو الأمر الذي يقذفه الله في قلوب الكفرة وبه تضيق معيشتهم ولو كانوا أغنياء أو ملوكاً، فالمراد بضيقها ضيقها في القلوب لا في اليد، فإن من كانت بيده دنيا واسعة وعلم أن مصيره إلى سخط الله ضاقت معيشته.

قلت: وهذا الذي قاله الشيخ في غاية الحسن، وقد قال البيضاوي مشيراً إلى تفسير ضيق المعيشة وذلك لأن مجامع همه ومطامح نظره إلى أعراض الدنيا متهالكاً إلى ازديادها خائفاً على انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة اهـ الغرض منه.

قلت: وقد أخبرني بعض الفقهاء وكان الكفرة أسروه سبع سنين أنه لم يزل منذ كان تحت أسرهم يناظرهم ويناظرونه، قال: وطال اختباري لهم وكثرة مراجعتي لهم حتى بان لي أن غالبهم على شك، فهم لمرض قلوبهم بمثابة الأجرب الذي يبتغي من يحك له، فإذا أحسوا بطالب من طلبة الإسلام أسرعوا إليه وسألوه وتباحثوا معه، ثم لا يزيدون على أن يقعوا في حبالته بأدنى كلام يصدر منه لهم، قال: وهذا حكم الأوساط منهم، وأما كبراؤهم وأساقفتهم وذوو رأيهم فحصل لي من طول اختباري لهم وكثرة مناظرتي معهم أنهم جازمون بأنهم على الضلال والباطل.

﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

قال: ولم أزل في مناظرتهم حتى ذكروا لي أن حبرا من أحبارهم بموضع كذا إليه انتهى علم الكتب السابقة، فانتهيت إليه فوجدته بحراً لا ساحل له يستحضر نصوص التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العزيز، وكثيراً من أحاديث نبينا ﷺ، وبعض أشعار امرىء القيس الكندي، فقلت له: إني جئت لأسألك عن مسألة هي أكبر همومي أغمتني وأسهرتني وأدامت حزني، فقال: وما هي؟ فقلت: إني منذ كنت في بلاد الإسلام لم أزل أسمع أن دين الإسلام حق وأن دين النصارى ضلال، وحين وقعت في بلادكم انعكس الأمر علي، فأسمعهم يقولون إن دينهم حق ودين الإسلام على غير حق، وأظهرت له أنه حصل لي شك بسبب ذلك وأني سألت عن أعلم أهل النصرانية فاتفقت كلمتهم عليك، ولم يختلف اثنان في أنك سيدهم وأعلمهم، وقد فرض الله على الجاهل أن يسأل العالم فأردت منكم أن تجيبوني بما هو الحق عندكم في هذه المسألة لأتخذ جوابكم يوم القيامة حجة فيما بيني وبين ربي عز وجل، فأنا جاهل وأنت عالم وقد فرض الله على الجاهل أن يسأل وعلى العالم أن يقول الحق وينصح الله، فوقع السؤال منه غاية الموقع، ووضع جبهته على كفه وسكت طويلاً وجموع النصارى جالسون معه، فرفع رأسه وأسر إلي في أذني لا دين إلا دين الإسلام فهو الحق الذي لا يقبل الله غيره، قم عني قبل أن يعلم النصارى بهذا الذي قلت لك.

ثم ذكر مناظرات وقعت له مع أحبارهم من هذا المعنى في ذكرها خروج عن غرضنا، وإنما أردنا تأييد ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه، ومن ناظر اليهود والنصارى علم ما قاله الشيخ رضي الله عنه.

وقد تكلمت أنا مع بعض أحبار اليهود، فلم أزل أحاججه حتى بان لي في آخر أمره أنه جازم بأنه على باطل، وأنه ما منعه من الإسلام إلا العناد وخشية الفضيحة من قومه، وهي مناظرة طويلة حضرها جماعة من الفقهاء والقراء أصحابنا، وحضر مع اليهود بعض اليهود أيضاً.

وكذا تكلمت مع بعض أحبار النصارى فما وجدت عندهم شيئاً، والحكايات في هذا كثيرة، ومن أراد ذلك فعليه بـ [تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب] تأليف عبد الله الميورقي بفتح الميم وتخفيف الياء وإسكان الراء وكان من أحبارهم ثم أسلم، وكذا تأليف عبد الحق الإسلامي وكان من أحبار اليهود ثم أسلم، وكذا تأليف أبي العباس القرطبي في الرد على النصارى وفيه العجب العجاب وفيه نحو من عشرين كراسة، ومن طالع هذه الكتب لو خالط أهل الكتابين علم يقيناً أن قلوبهم مرضى بالشك والجزم بأنهم على الضلال، فرضي الله عن سيدنا الشيخ ونفعنا به، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

ما الذي هم به؟

فقال رضي الله عنه: هم بضربها، فسألته عما يذكره بعض المفسرين في ذلك، فأنكره غاية الإنكار. وقال: أين العصمة والولي إذا وقع له الفتح نزع الله منه اثنين وسبعين عرقاً من عروق الظلام، فبعضها ينشأ عنه الكذب وبعضها ينشأ عنه الكبر، وبعضها ينشأ عنه الرياء، وبعضها ينشأ عن حب الدنيا، وبعضها ينشأ عنه الشهوة ومحنة الزنا وغير ذلك من القبائح، هذا في الولي، فكيف بالنبي الذي فطر على العصمة ونشأت ذاته عليها؟

قال رضي الله عنه: وقد يبلغ الولي إلى حالة يستوي في نظره محل الشهوة وغيره حتى يكون فرح الأنثى وهذا الحجر ـ يشير إلى حجر بين يديه ـ بمثابة واحدة، وكيف لا والمفتوح عليه لا يغيب عليه ما في أرحام الأنثى فضلاً عن غيره، وهو إنما ينظره بنور الله الذي لا يحضره شيطان ولا يكون معه ظلام أبداً، فإذا كان هذا في حق الولي فكيف بالنبي المعصوم؟ جعلنا الله ممن يعرف للنبوة حقها، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله تعالى:

﴿وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيماً﴾.

هل هذا خاص بموسى عليه السلام؟ وهل ما يذكر السادات الصوفية رضي الله عنهم من المكالمة حق مثل قول الشيخ العارف بالله أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في الحزب الكبير: وهب لنامشاهدة تصحبها مكالمة.

فقال رضي الله عنه: ما ذكره الشيخ أبو الحسن وغيره من الصوفية في المكالمة حق لا شك فيه، ولا يعارض ذلك الآية الشريفة إذ لا حصر فيها.

قال رضي الله عنه: وكلام الحق سبحانه يسمعه المفتوح عليه إذا رحمه الله عز وجل سماعاً خارقاً للعادة فيسمعه من غير حرف ولا صوت ولا إدراك لكيفية ولا يختص بجهة دون جهة، بل يسمعه من سائر الجهات بل ومن سائر جواهر ذاته، وكما لا يخص السماع له جهة دون أخرى كذلك لا يخص جارحة دون أخرى، يعني أنه يسمعه بجميع جواهره وسائر أجزاء ذاته، فلا جزء ولا جوهر ولا سن ولا ضرس ولا شعرة منه إلا وهو يسمع به حتى تكون ذاته بأسرها كأذن سامعة.

ثم ذكر اختلاف أهل الفتح في قدر السماع وبينه بما لا يذكر نفعنا الله به والله، تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ الآية.

فما وجه التقييد بحالة الخوف مع أن قصر الصلاة جائز حتى في حالة الأمن.

فقال رضي الله عنه: التقييد المذكور ليس للإخراج حتى يكون المفهوم مخالفاً بل للتنصيص على رفع الحرج عن هذه الحالة بخصوصها، وللتنبيه على الاعتناء بإدخالها في هذا الحكم وذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يستكثرون من العبادة إذا خرجوا للجهاد مخافة أن يكون ذلك آخر عهدهم من الدنيا، فكانوا يسرمدون العبادة حتى أن منهم من يجاهد في النهار ويبيت في الليل قائماً لله تعالى راكعاً وساجداً، فكانوا يرون من التقصير والحرج الشديد المنافي للتأهب للآخرة التقلل من العبادة إذا سافروا لغزو عدوهم ويرون أن الصواب هو الإكثار منها حينئذ، ورسخ هذا في عقولهم، فأراد الله تعالى أن يزيل ذلك من قلوبهم فأنزل الحكم مقيداً بالحالة التي يتوهمون منافاتها له، والله تعالى أعلم.

ولما انجر الكلام إلى المفهوم سألته عن مفهوم قوله ﷺ:

«فِي الْغَنَمِ السَّائِمَةِ زَكَاةٌ».

فقال رضي الله عنه: هي المريضة التي لا تقدر على رعى، فإذا بلغت الغنم إلى هذه الحالة سقطت الزكاة فيها، لأن الزكاة تتبع نعمة الملك، والغنم إذا بلغت إلى حد سقطت فيه أكلها ورعيها لم تبق فيها نعمة ملك توجب زكاة، لأن الغالب حينئذ موتها وهلاكها فهذا هو مقصود النبي ﷺ فقلت: إن الشافعي يقول: إن المفهوم هي المعلوفة، فقال رضي الله عنه. المعلوفة داخلة في منطوق الحديث لأنها سائمة بالطبع وإنما منعت من الرعي، ولو خليت وطبعها لم تترك السوم ومالكها هو الذي تكفل لها العلف ونعمة الملك محققه فيها.

ثم سألته عن اختلاف المجتهدين في المفهوم، فقال بعضهم باعتباره مطلقاً، وقال بعضهم بإلغائه مطلقاً، وفصل بعضهم على ما هو معروف في الأصول.

فقال رضي الله عنه: المفهوم لا تمكن معرفته على الحقيقة إلا لرجل عرف البواعث والأغراض الحاملة للنبي ﷺ على التقييد ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة باطنه الشريف ﷺ، ولو أن رجلاً منا أودع في أحكامه تقييدات ثم غاب عنا فإنه لا يمكننا الجزم بمراده بتقييداته إلا بمعرفة ما عنده فيها، وليس ذلك إلا بسؤاله إذا كان حياً حتى يفصح عن مراده، فإذا لم يسأل عن مراده حتى مات تعذر معرفة مراده، وعلى هذا فمن أطلق القول باعتبار المفهوم مطلقاً أو بعدم اعتباره مطلقاً فقد سلك بالتقيدات مسلكاً واحداً وذلك لا يصح، لأن الأغراض الحاملة على التقييد مختلفة: فمنها ما يقتضي المخالفة في الحكم، ومنها ما يقتضي الموافقة، وكذا من فصل على الوجه الذي يقوله الأصوليون، فمن ألغى العدد مطلقاً واعتبر الشرط مطلقاً فقد سلك بتقييد العدد مسلكاً واحداً وبتقييد الشرط مسلكاً واحداً، وذلك مناف للأغراض الحاملة على التقيد بهما.

وبالجملة فالتقييدات الشرعية لا يعرفها على الحقيقة إلا أكابر أهل الفتح كشيخنا رضي الله عنه، فإني أكثرت الخوض معه في هذا الباب بعد تحصيلي وإحاطتي بما قاله الفحول أهل الأصول في المفاهيم، مثل إمام الحرمين في البرهان، والإمام أبي حامد في المستصفى، والإمام أبي الوليد الباجي في الفصول، والإبياري والإمام علي بن إسماعيل في شرح البرهان، والإمام أبي عبد الله بن الحاج العبدري في شرح المستصفى، إلى ما ذكره تاج الدين السبكي في جمع الجوامع وشروحه وحواشيه وغير ذلك، فحصلت هذا كله.

ثم تكلمت مع الشيخ رضي الله عنه في ذلك أياماً فسمعت منه والله ما يوفق أهل الاجتهاد، وكيف لا وهو من أهل مشاهدة النبي ﷺ دائماً، رزقنا الله رضاه ومحبته وحشرنا في زمرته وحزبه آمين.

وسألته رضي الله عنه: عن قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ إلى آخر الآية.

هل كان هذا من إبراهيم عليه السلام استدلالاً لنفسه ونظراً في مصنوعات الله عز وجل ليرتقي به إلى الحق؟ أو هو استدلال لقومه على سبيل التبكيت والتسكيت لهم؟ فأورد دعواهم على سبيل التسليم، ثم كر عليها بالإبطال، فإن المفسرين رضوان الله عليهم اختلفوا في ذلك.

فقال رضي الله عنه: كان ذلك منه على سبيل الاستدلال لنفسه، ولكن ليس كاستدلال سائر الناس، فإن استدلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس كاستدلال سائر الناس، فإنهم عليهم الصلاة والسلام في غاية المعرفة بالله تعالى وعلى كمال العبودية له عز وجل ونهاية الخوف والخضوع له تعالى، لما طبعت عليه ذواتهم من معرفة الحق والميل إليه، وإنما معنى استدلال إبراهيم عليه السلام في هذه الآية: هو أنه يطلب أن يرى بعين رأسه ما كان يراه في باطنه وبصيرته، فهو يعرف الله تعالى المعرفة التامة بالبصيرة، ويريد أن تخرق بصيرته إلى بصره، فجعل يطلب ببصره في هذه الموجودات ما يناسب معروفه في بصيرته، فنظر إلى النيرات المذكورات في الآية فوجدها لا تناسب المنزه المقدس سبحانه فتبرأ منها جميعاً إلى ما يعرفه ببصيرته، وهو الذي فطر السموات والأرض جميعاً سبحانه. ومثال ذلك على سبيل التقريب: كمثل ولي مفتوح عليه نظر ليلة تسع وعشرين إلى الهلال فرآه ببصيرته قد استهل، ثم نظر إليه ببصره فلم يره، فجعل يطلبه ببصره مع من يطلبه، فمن نظر إليه ولا يعرف ما في باطنه قد يظن به أنه على شك في استهلال الشهر كسائر من يطلبه من الحاضرين، ومن علم ما في بصيرته أيقن بأنه جازم باستهلاله وأنه مشاهد ببصيرته، وإن طلبه معنى إنما هو لتحصيل مشاهدة البصر لا غير بخلاف غيره من الحاضرين؛ فإنه على

شك في استهلاله ظاهراً وباطناً، فهذا هو الفرق بين استدلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واستدلال المحجوبين، فيجب تنزيل استدلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الجهل بالله والشك فيه، وكل ما ينافي العلم الضروري به عز وجل للعصمة التي خصوا بها وفي تنافي الشك والجهل به تعالى، لأنهما نوعان من الكفر وهم عليهم الصلاة والسلام معصومون من الصغائر، فكيف بالكبائر، فكيف بما هو من نوع الكفر.

قلت: هذا كلام في غاية العرفان، وقد وقع لي معه رضي الله عنه مما لا أحصيه أنه في ليلة تسع وعشرين يخبرنا باستهلال الشهر وهو تحت سقف في داره أو في المسجد أو في غير ذلك، ثم لا نزال جلوساً في مكاننا حتى يقدم علينا الخبر باستهلاله. وقد اتفق لنا معه غير ما مرة أن يخبرنا عند الإصفرار مثلاً باستهلاله فنطلب منه أن يخرج معنا إلى مراقبته فنخرج جميعاً فلا يراه واحد منا لا هو ولا نحن لدقته وعدم حدة أبصارنا، فلا نزال ننظر ولا نراه حتى يقدم من هو أحد منا بصراً فيراه ثم تستفيض رؤيته من كل ناحية وكثيراً ما يقول لي رضي الله عنه هذا اليوم من رمضان والناس مفطرون، لأنه آخر يوم من شعبان عندهم، وهذا اليوم يوم عيد، والناس صائمون لأنه آخر يوم من رمضان عندهم أو هذا اليوم يوم عرفة وهو الثامن فيما يظنه الناس، ثم بعد ذلك يرد الخبر من أماكن بعيدة على مسافة أربعة أيام ونحو ذلك بعين ما قاله الشيخ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله تعالى عنه عن قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

ما المراد بإظهاره على الأديان كلها، هل المراد به أنه ناسخ لها، أو المراد به سطوع حجته وظهور دلالة صحته أو غير ذلك؟

فقال رضي الله عنه: هذا الدين الظاهر أظهره الله على الأديان كلها من كل وجه من جهة ناسخ لها ومن جهة سطوع حجته، ومن جهة كثرته على وجه الأرض، حتى أن الأديان بالنسبة إليه كلا شيء، وذلك أن من فتح الله بصيرته ونظر إلى وجه الأرض عامرها وغامرها رأى في كل موضع أقواماً يعبدون الله تعالى ويقدسونه وهم على الدين المحمدي، والأرض عامرة بهؤلاء السادات رضي الله عنهم، فهم في هذا البر وفي ذلك البر يعني بر أهل الكفر وفي الكهوف والجبال والسهول وفي عامر الأرض وغامرها.

ومما اختص به هذا الدين الشريف ـ جعلنا الله من أهله ـ أن فيه نوراً يمنع الأمة المشرفة الآخذة به من الارتداد والرجوع إلى الكفر وذلك لمحبة الله تعالى في هذا النبي الكريم ﷺ، فجمع له في دينه خاصلاً كثيرة مجموعها عاصم لأمته الشريفة من الارتداد بخلاف غيره من الأديان، فإنه لم يستوف الخصال المانعة من الردة.

قال رضي الله عنه: ومن نظر إلى اللوح المحفوظ ونظر فيه إلى المرسلين وإلى شرائعهم التي هي مكتوبة فيه، علم دوام شريعة نبينا محمد ﷺ وعدم ارتداد أمته، وذلك أن الله عز وجل خلق النور وخلق الظلام ثم خلق العباد والأمم، ثم جعل للنور أبواباً يدخل منها عن ذواتهم، وجعل للظلام أبواباً يدخل منه على ذواتهم، ثم شرع الشرائع وأرسل المرسلين بها ليفتح بها أي بالشرائع أبواب النور وهي الأوامر التي فيها، ويسد بها أبواب الظلام عن ذواتهم وهي النواهي التي فيها، فالأوامر تفتح أبواب النور، والنواهي تسد أبواب الظلام، ولم يستوف في شريعة الأوامر الفاتحة للنور والنواهي السادة للظلام إلا في شريعة نبينا محمد ﷺ، فلهذا كانت فوق الشرائع كلها، وكانت أمته الشريفة فوق سائر الأمم، وإلى ذلك المعنى أشار النبي ﷺ بقوله:

«لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلاَلَةٍ».

قال رضي الله عنه: والمفتوح عليه إذا نظر إلى الأمم السابقة ونظر إلى الأماكن التي كانوا يسكنونها في أزمنتهم رأى الظلام فوق مساكنهم على هيئة ضباب أسود مثل الدخان، ثم لا يزال الظلام يخرج منهم وهم يتركون دينهم شيئاً فشيئاً إلى أن ينزل عليهم وتسقي ذواتهم به فتصبح الأمة وقد خرجت عن دينها، فسأل الله العصمة، ثم لا تهتدي إليه أبداً، فهذا وجه من وجوه إظهار هذا الدين على سائر الأديان.

قلت: وسيأتي إن شاء الله تعالى التعرض لشيء من أبواب الظلام وما في ذلك من العبرة للمعتبرين، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ الله لئن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فإن المفسرين ذكروا أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، فإنه جاء إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يدعو له بكثرة الدنيا، فقال له النبي ﷺ:

«يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تَشْكُرُ عَلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُ شُكْرَهُ».

فلم يزل يراجع النبي ﷺ حتى قال: والله يا رسول الله إني لأشكر الله على الكثير، وعاهد الله لئن آتاه الله ما لا كثيراً ليتصدقن فدعا له النبي ﷺ فكثرت ماشيته ونمت كما ينمو الدود، وكان يصلي مع النبي ﷺ الجماعة والجمعة، فلما كثرت ماشيته خرج بها وفاتته الجماعة وبقي يحضر الجمعة، ثم كثرت ماشيته حتى ما أمكنه أن يحضر الجمعة من شغله بها، فسأل عنه النبي ﷺ، فقال: أين ثعلبة؟ فقالوا يا رسول الله كثرت ماشيته وشغلته عن حضور الجمعة والجماعة، فقال النبي ﷺ: ويح ثعلبة، فبعث عليه الصلاة والسلام مصدقين لأخذ الزكاة فاستقبلهما الناس بزكواتهم فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه الكتاب

الذي فيه الصدقة والفرائض، فقال ثعلبة: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فارجعا حتى أرى رأيي، فنزلت الآية فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنكَ»

فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال عليه الصلاة والسلام هذا عملك، أمرتك فلم تطعني، فلما قبض النبي ﷺ جاء بصدقته إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثم جاء بصدقته إلى عمر فلم يقبلها، وهلك في زمن عثمان.

قال الحافظ السيوطي في حاشية البيضاوي: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردوية والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي أمامة، فقلت للشيخ رضي الله عنه: هل كان هذا الرجل في الصحابة وهل هذه الحكاية صحيحة؟.

قال رضي الله عنه: نظرت فلم أر أحداً من صحابة النبي ﷺ وقع له مثل هذا الذنب، ولا رأيت لهذه الحكاية وجوداً. قلت: وكذا أشار الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في الصحابة إلى إنكاره الحكاية وعدم مجيئها من طريق يعتد بها فانظره في ترجمة ثعلبة المذكور في الكتاب المذكور، فإني نقلته بالمعنى وقد طال عهدي به، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

هل كانت في عالم الأرواح، أو حين خلق الله آدم وأخرج ذريته من ظهره وركب فيهم العقل والنطق حتى أجابوا بما أجابوا، أو الآية إنما هي من باب الاستعارة التمثيلية وذلك بأن شبه تمكين بني آدم من العلم بربوبيته تعالى ووحدانيته وتمكنهم من ذلك، حيث نصب لهم الدلائل على الربوبية وركب فيهم العقول التي يفهمون بها بالإشهاد والاعتراف، فالتمكين بمثابة الإشهاد والتمكن بمثابة الاعتراف على طريق الاستعارة التمثيلية.

فقال رضي الله عنه: القصة كانت في عالم الأرواح، ولما أراد الله تعالى أن يشهدهم على أنفسهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فحصل للأرواح هول عظيم مثل ما يحصل للناس يوم القيامة عند نفخة البعث أو أشد من ذلك، ثم أزال تعالى الحجاب عنهم حتى أسمعهم كلامه القديم، وعند ذلك افترقت الأرواح بحسب قوة أنوارها وضعفها، فمن الأرواح من أجاب محبة وهي أرواح المؤمنين ومنها من أجاب كرها، وهي أرواح الكافرين، ثم الذين أجابوا محبة اختلفت مراتبهم أيضاً فمنهم من قوي عند سماع الكلام القديم، ومنهم من ضعف، ومنهم من لم يزل يتمايل طرباً من لذة سماع الكلام القديم ومنهم من جعله الله رحمة فجعل يمد غيره حتى تحصل له القوة، فظهرت مراتب الأشياخ والمريدين، فمن

ذلك اليوم تعارفت أرواحهم، ثم إن الأرواح بأسرها غلبتها سطوة الكلام القديم فجعلت تتطاير من أمكنتها في البرزخ وتنزل إلى الأرض لتستريح، فانقسمت الأماكن بحسب النزول فيها إلى ثلاثة أقسام: قسم لم ينزل فيه إلا أرواح المؤمنين طائفة بعد طائفة، وقسم لم ينزل فيه إلا أرواح الكافرين طائفة بعد طائفة أيضاً؛ وقسم نزل فيه الفريقان معاً.

فأما القسم الذي لم ينزل فيه إلا أرواح المؤمنين، فهو الموضع الذي يسكنه أهل الإيمان بالله ومعرفته، ولايسكن فيه كافر أبداً عكس القسم الثاني.

وأما الثالث فإنه يسكنه الفريقان معاً وآخرهم نزولاً فيه هو المختوم له به، فإن كان من أرواح السعداء ختم له بأهل الإيمان وإن كان العكس بالعكس، وقد ينزل في الموضع فريق من أرواح السعداء ثم فريق من أرواح الأشقياء ثم فريق من أرواح السعداء ثم فريق من أرواح الأشقياء وهكذا حتى يقع الختم فالمفتوح عليه إذا نظر إلى موضع يعمره اليوم أهل الشرك يعلم هل يعمره المؤمنون بعدهم أم لا؟ وذلك بأن ينظر إلى نزول الأرواح إلى الأرض يوم ألست بربكم، ثم ينظر إلى ما نزل بعد هذه الطائفة الموجودة، فإن لم يكن إلا أرواح الكفرة علم أنه لا يسكنها أهل الإسلام أبداً، وإن نزل بعد هذه الطائفة شيء من أرواح السعداء علم أنها ستكون دار إسلام.

قال رضي الله عنه: ويعرف ذلك أيضاً بوجهين آخرين: أحدهما أن ينظر إلى أرض الشرك، فإن وجد أهل الفتح والولاية يزيدون فيها علم أنها ستصير دار إسلام، وإن نظر إليها فلم ير لهم فيها وجوداً أصلاً علم أنها دار مغضوب عليها، فقلت للشيخ رضي الله عنه: فإذا فتح على واحد وهو في أرض الشرك فكيف يفعل؟ فقال رضي الله عنه: يمده أهل الغيب ويذهبون إليه بذواتهم ويعلمونه علم الظاهر فإن علم الباطن إذا لم يكن معه علم الظاهر قل أن يفتح على صاحبه.

وقال لي مرة أخرى: إن علم الباطن بمثابة من كتب تسعة وتسعين سطراً بالذهب، وعلم الظاهر بمثابة من كتب السطر المكمل المائة بالمداد، ومع ذلك فإذا لم يكن ذلك السطر الأسود مع سطور الذهب المذكورة لم تفد شيئاً وقل أن يسلم صاحبها.

وقال لي مرة أخرى: إن علم الظاهر بمثابة الفنار الذي يضيء ليلاً فإنه يفيد في ظلمة الليل فائدة جليلة وعلم الباطن بمثابة طلوع الشمس وسطوع أنوارها وقت الظهيرة، فربما يقول صاحبه لا فائدة لهذا الفنار الذي في يدي، قد أغناني الله عنه بضوء النهار فيطفئه، وعند ذلك يذهب عنه ضوء النهار ويعود إلى ظلام الليل، فبقاء ضوء نهاره مشروط بعدم انطفاء الفنار الذي بيده.

قال رضي الله عنه: وكم من واحد زل في هذا الباب ولا يرجع له ضوء نهاره إلا إذا أخذ الفنار وشعله مرة ثانية، وقد يوفقه الله لذلك وقد لا يوفقه، نسأل الله العصمة بمنه وكرمه.

والوجه الثاني أن ينظر إلى أرض المشركين، فإن وجد المساجد عامرة والجماعة تقام فيها غيباً علم أن الأرض ستصير إلى أهل الإسلام، وإن لم ير فيها ذلك علم أن الأرض مطموسة مكسوفة؛ وذكر رضي الله عنه حكايات في هذا الباب ولعلنا نذكرها فيما يأتي إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عما وقع لإخوة يوسف؟ وسبب ذلك أنه رفع إليّ سؤال ونص الغرض منه: هل الأنبياء معصومون قبل النبوة كما هم معصومون بعدها، وهل إجماعاً أو على خلاف، وهل الصغائر في ذلك مثل الكبائر أم لا؟ فإذا فهم هذا عنا شيخنا فلا بد أن يسطر لنا ما عنده، وما الذي يجب ربط القلب عليه في إخوة سيدنا يوسف على نبينا وعليهم الصلاة والسلام؟ هل هم أنبياء أم لا؟ وعلى أنهم أنبياء فما الجواب عما صدر منهم كما في علمكم، فكتبت هذا السؤال في كناشي وأردت أن أجيب عنه.

أما عن عصمة الأنبياء فيما ذكره أهل العلم الكلامي مثل صاحب المواقف وغيره.

وأما عما وقع لإخوة يوسف فبتأليف وقع في يدي للحافظ السيوطي وسماه دفع التعسف عن إخوة يوسف فأردت أن ألخصه في الجواب.

ثم إن الشيخ رضي الله عنه وقف على السؤال في الكناش، فكتب بخط يده الكريمة ما نصه:

الجواب ـ والله الموفق للصواب ـ أن الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام معصومون قبل النبوة وبعدها، والذي صدر من إخوة يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مأمورون به في بواطنهم، والأمر من عند الله ومعاتبتهم على ذلك على حسب الظاهر فقط لأن الغيب سر مع الله والسلام.

وكتبه عبيد ربه أحمد بن مبارك السلجماسي اللمطي كان الله له آمين اهـ.

ونسب الجواب إلي ونفعنا الله به، لأن السؤال وجه إلي.

قال رضي الله عنه: وغالب معاتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا المعنى. وذلك كان يأمرهم الله تعالى في الباطن بأمر وقد أمرهم في الظاهر بخلافه، وهذه هي ذنوبهم فيما يظهر لهم عليهم الصلاة والسلام.

فقلت: فإذا كان الفعل بأمر من الله تعالى باطني فأي ذنب يقع وما معنى العتاب عليه والفاعل إنما فعله بإذن؟

فقال رضي الله عنه: نعم ولكنه إذا رأى الأمر الظاهري ووجد نفسه مخالفاً له ظهر له في عينه أن ذلك ذنب لأن مجرد مخالفة الظاهر عنده ذنب.

فقلت: هذا ظاهر في رؤيته إياه ذنباً وليس بظاهر في العتاب، فإن الذي أمره ظاهراً هو الذي أمره باطناً والأمر الباطني كالناسخ أو التخصيص للأمر الظاهري وحينئذ فلا عتاب.

فقال رضي الله عنه: نزول الوحي يتبع خواطر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا خطر ببال النبي شيء أو تحدث به في نفسه نزل الوحي به، وهو إذا ظهر له أنه أذنب تحدث به في نفسه وجعل يعاتبها فينزل الوحي بالعتاب تبعاً للخاطر.

قال رضي الله عنه: ومن أراد أن يعرف خواطر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما كانت تتحدث به أنفسهم، فلينظر إلى الكتب المنزلة عليهم، فإنها جارية على ما في خواطركم، فإذا نصحت الكتب فهم تحدثوا بالنصيحة وأحبوها للخلق، وإذا بشرت الكتب فهم قد انبسطوا وأحبوا للناس ما فيه ربحهم، وإذا أنذرت وأغلظت في الوعيد فهم قد انقبصوا وحصل لهم انكماش، وبهذا تظهر لك ثمرة عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتعلم أن خواطرهم كلها حق، وأن وساوسهم كلها من الله تعالى.

وقد سألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

كيف عاتب الله تعالى نبيه وهو سيد العارفين وإمام الأنبياء والمرسلين؟

فأجابني رضي الله عنه بهذا المعنى، فقال: إنه عليه الصلاة والسلام لما شاوره زيد في طلاق زينب وأمره بإمساكها: وتقوى الله في معاشرتها، وكان يعلم عليه الصلاة والسلام أنها ستصير إليه وأخفى ذلك ولم يظهره رجع على نفسه بالعتاب، وقال في خاطره تخشى الناس والله أحق أن تخشاه، وجعل يعاتب نفسه بهذا في الباطن، فأظهر الله سبحانه ما في باطنه عليه الصلاة والسلام وأنزل الوحي به.

قال رضي الله عنه: ومن فتح الله عليه وتأمل الكتب السماوية وجد فيها نور الكلام القديم ونور طبع الحالة التي يكون عليها النبي عند نزول الوحي عليه، وهو تارة يكون على حالة قبض فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم ونور القبض الذي كانت عليه الذات حينئذ، وتارة يكون على حالة بسط فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم، ونور البسط الأول قديم والثاني حادث، وتارة يكون على حالة تواضع فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم، ونور التواضع هكذا كل آية لا تخلو عن شيء من طبع ذاته ﷺ، وهكذا آية:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَالله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

فيها نور الكلام القديم ونور طبع ذاته ﷺ في حالة نزولها وهو نور العتاب، فالكلام القديم من الله لا منه، والعتاب منه لا من الله عز وجل.

قال رضي الله عنه: وأهل الفتح رضي الله عنهم إذا تعاطوا تفسير القرآن فيما بينهم لم يكن لهم هم إلا أسباب النزول، وليس المراد بها أسباب النزول التي في علم الظاهر، بل الأحوال والأنوار التي تكون عليها ذات النبي ﷺ وقت النزول، فيسمع منهم في ذلك ما لا يكيف، لأنهم يخوضون في البحور التي في باطنه عليه الصلاة والسلام أعني بحر الآدمية والقبض والبسط والنبوة والروح والرسالة والعلم الكامل، وقد سبق ذلك في أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، والله تعالى أعلم.

وقد سألته أيضاً عن قوله تعالى:

﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

فأجابني رضي الله عنه بما يقرب من هذا المعنى فقال: إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن يعفو وأن يصفح الصفح الجميل، وأن يعاشر بالتي هي أحسن ويدفع بها حتى قال:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.

فكانت هذه عادته مع الخلق، فلما جاءه أهل النفاق واستأذنوه في التخلف وذكروا أعذارهم أذن لهم في التخلف وهو يعلم نفاقهم للرحمة التي فيه ولما أمره من المعاشرة بالتي هي أحسن وحضه عليها في غير ما آية، فسلك معهم مسلك الظاهر، ثم تحدث في باطنه بنزول آية تفضحهم، وإنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه ووصية الله له فتحدث في باطنه بفضيحتهم على وجه يبين كونها من الله لا منه للحياء الذي فيه ﷺ، مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له لتكون أبعد عن التهمة وأدخل في محض النصيحة وأزجر لهم عن الاشتغال بالنفاق مع النبي ﷺ مرة أخرى، فإن الله تعالى هو وكيله على من ينافقه وخصيمه وحجيجه، فتضمنت صورة هذا العتاب مصالح شتى، وفي الباطن لا عتاب وإنما ناب الحبيب عن حبيبه في المخاصمة لا غير.

قال: ولا ينبغي لأحد أن يظن بالنبي ﷺ أنه كان لا يعلم الصادق من الكاذب من المعتذرين، وكيف يخفى ذلك عليه والمفتوح عليه في هذا الزمان، يعلم الصادق والكاذب منهم في ذلك الزمان، وأهل الفتح أجمعون إنما نالوا ما نالوا بمحبته ﷺ، فسقوا بمقدار شعرة من نوره ﷺ، وقد سبق في «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» كيف كان علم النبي ﷺ.

قلت: وهذا التقرير في الآية أحسن ما قيل فيها عند من تأمل كلام المفسرين.

وقد قال البيضاوي عفا الله عنا وعنه.

﴿عَفا الله عَنْكَ﴾.

كناية عن خطئه في الإذن، فإن العفو من روادفه.

قال شيخ الإسلام زكريا في حاشيته: تبع فيه الزمخشري، قال الطيبي، أخطأ الزمخشري في هذه العبارة خطأً فاحشاً، ولا أدري كيف ذهب عنه وهو العلم في استخراج لطائف المعاني أن في أمثال هذه الإشارات وهي تقديم العفو إشعاراً بتعظيم المخاطب وتوقيره وتوقير حرمته وهو كما قال، لأن مثل ذلك لا يقتضي تقدم ذنب بل يدل تصديره على التعظيم، كما تقول لمن تعظمه، عفا الله عنك؛ ما صنعت في أمري ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي؟ ولهذا قال التفتازاني، ما كان ينبغي للمصنف يعني الزمخشري أن يعبر بهذه العبارة الشنيعة، بعد ما راعى الله مع رسوله تقديم العفو وذكر الإذن المنبىء عن علو المرتبة وقوة التصرف وإيراد الكلام في صورة الاستفهام وإن كان القصد إلى الإنكار، على أن قولهم ﴿عفا الله عنك﴾ قد يقال عند ترك الأولى، والأفضل بل في مقام التبجيل والتعظيم، مثل عفا الله عنك ما صنعت في أمري اهـ.

وقال الحافظ السيوطي في حاشيته: تبع في هذه العبارة السيئة الزمخشري، وقد قال صاحب الانتصاف هو بين أمرين: إما أن لا يكون هذا المعنى مراداً فقد أخطأ، أو يكون مراداً لكن كنى الله عنه إجلالاً ورفعاً لقدره، أفلا تأدب بآداب الله تعالى لا سيما في حق المصطفى ﷺ، ثم نقل كلام الطيبي والتفتازاني ثم قال:

وقال القاضي عياض في الشفاء: هو استفتاح كلام بمنزلة أصلحك الله وأعزك الله، وقد ألف في هذا الموضع راداً على الزمخشري الصدر حسن بن محمد بن صالح النابلسي كتاباً سماه [جنة الناظر وجنة المناظر في الانتصار لأبي القاسم الطاهر] ﷺ وبهذه النكتة وأمثالها نهى أهل الدين والورع عن مطالعة الكشاف وإقرائه، وقد ألف في ذلك تقي الدين السبكي كتاباً سماه سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف، فانظره في تلك الحاشية فقد نقله برمته والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

ما المراد بالتعذيب المنفي هل في الدنيا أو في الآخرة؟ وهل بلوغ الدعوة شرط فيهما كما تقتضيه الآية؟ أو ليس بشرط كما دلت عليه أحاديث المعتوه ومن في معناه ممن لا يفهم الخطاب فإنه يمتحن يوم القيامة بنار يؤمر بدخولها، فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فقال رضي الله عنه: بلوغ الدعوة شرط في التعذيب الواقع في الدنيا، بنحو الخسف والرجم وأخذ النصيحة وغير ذلك مما عذبت به الأمم السابقة العاصية لرسلها، فقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

أي ما كنا معذبين: أمة بخسف ونحوه حتى يجيئها رسولها، وتقوم حجة الله عليها، وأما عذاب الآخرة فلا يتوقف على بعثة ولو توقف على بعثة لم يدخل أحد من يأجوج ومأجوج النار مع أنهم أكثر من يدخل جهنم.

فقلت: والحديث الذي ورد أنه عليه الصلاة والسلام ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده فأبوا، فهم في النار مع من عصى من ولد آدم.

فقال رضي الله عنه: لم يكن ذلك، قلت: وكذا قال الحفاظ من أهل الحديث إن الحديث السابق في سنده نوح بن أبي مريم أبو عصمة الضبي الجامع الوضاع، قال فيه ابن حبان إنه جامع لكل شيء إلا الصدق.

قلت: ولم أرد أن أطول بذكر أحاديث المعتوه ومن في معناه، ولا بما قاله أئمة التفسير في تفسير الآية الكريمة ولا بما قاله فيها أيضاً فحول علماء الأصول، لأن الغرض جميع كلام الشيخ رضي الله عنه، ولولا كثرة الجهل في الناس لاقتصرت عليه مجرداً ولم أورد ما يدل له من الأحاديث ونحوها، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن سبب التغير بقوله تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

في حق النبي ﷺ. وقوله في حق جبريل:

﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

فقال رضي الله عنه: القرآن ينزل على النبي ﷺ من نور الحق، وإذا غير ﷺ أخذت العبارة من الحالة الغالبة على ذات النبي ﷺ، وهي إما تواضع أو غيره، وهي في هذا المقام تواضع منه ﷺ مع جبريل بالتعظيم له واستصغار نفسه.

وقال لي رضي الله عنه مرة أخرى: إنما ذكر قوله:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

لإثبات ما قبله وتصحيح ما نسب لجبريل عليه السلام، فكأنه يقول: وهذا الذي قلناه في حق جبريل جاءكم به من عند من تعلمون صدقه وأمانته ومعرفته بما يقول، والمخبر إذا كان هذه الصفة وثق بخبره، وليس هو بمجنون حين يتكلم بما لا يعلم، فالغرض من قوله:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

إدخال ما قبله في عقول المخاطبين لا تعريف حالة النبي ﷺ، حتى يقال إنه اقتصر في تعريفه على هذه الصفة السلبية، وأتى في تعريف حال جبريل عليه السلام بأوصاف عظام، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله رَبُّنَا﴾.

ما هذا الاستثناء من شعيب عليه السلام، فإن الاستثناء يقتضي الشك وعدم الثبوت على الحالة التي هو عليها.

فقال رضي الله عنه: هذا الاستثناء محض رجوع إلى الله تعالى، وذلك هو محض الإيمان، لأن أهل الفتح ولا سيما الرسل عليهم الصلاة والسلام يشاهدون فعل الله تعالى فيهم؛ وأنه لا حول لهم ولا قوة، وأن الفعل الذي يظهر على ذواتهم إنما هو من الله تعالى فإذا استثنى صاحب هذه الحالة فقد غرق في بحر العرفان وأتى بأعلى درجة الإيمان، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾.

لم أقسم على تصحيح رسالته عليه الصلاة والسلام بالنجم مع أن النجم حجر من الأحجار؟ وأي مناسبة بينه وبين نور الرسالة حتى وقع به القسم عليها؟

فقال رضي الله عنه: لم يقع القسم بالنجم من حيث إنه نجم وحجر، بل من حيث نور الحق الذي فيه، ونور الحق الذي فيه هو نور الاهتداء به في ظلمات البر والبحر.

ثم بين ذلك بضرب مثال؛ فقال: لو أن رجلين خرجا مسافرين فضلاً عن الطريق وعدما الزاد والرفيق حتى أيقنا بالهلاك، وعدما الخلاص والفكاك، فأما أحدهما فكانت له معرفة بالنجم الذي يهتدي به إلى جهة سفره فرصده إلى أن كان الليل فتبعه إلى أن بلغ غاية قصده ونهاية مراده ونجاه الله تعالى، وأما الآخر فلم تكن له معرفة بالنجم ولا كيف يهتدي به ولا قلد صاحبه في معرفة، فهو لا يزال يتخطى في أودية الضلال إلى أن يهلك وبعد هلاكه يرجع كالحممة بسبب ما يمر على ذاته من الحر والقر، وهكذا حالة الناس مع الرسول ﷺ، فهو بين هذين الرجلين. ففريق آمنوا به وصدقوه و اتبعوه، فبلغوا به إلى جنة النعيم، وما لا يكيف من العطاء الجسيم، كما بلغ الرجل الأول إلى موضع الزاد والرفيق فأصاب من النعيم والظل الظليل مراده وحاجته. وفريق كذبوه فلم يزالوا في سخط الله حتى ماتوا فأحرقتهم جهنم بحرها وزمهريرها كما أحرقت ذات الرجل الثاني بالحر والقر، فوقعت

المشاكلة بين المقسم به والمقسم عليه، وفي الحقيقة، وقع القسم بفرد من أفراد نور الحق الذي يعرفونه على فرد آخر لا يعرفونه.

فقلت: فما المراد بقوله: ﴿إذا هوى﴾.

فقال رضي الله عنه: المراد زال عن وسط السماء، لأنه إذا كان في وسط السماء لا يهتدي به أحد، لأنه حينئذ واقف غير مائل إلى جهة من الجهات فلا يتأتى به استدلال، والله تعالى أعلم.

قلت: وللمفسرين رضي الله عنهم في الآية أقوال كثيرة، قد استقصاها نجم الدين الغيطي في تأليفه في الإسراء والمعراج، وهو تأليف جليل. وإذا وقفت عليه علمت نباهة ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه، ولولا الإطالة والخروج عن الغرض لجلبناها، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله تعالى: ﴿الصمد﴾: هو اسم تسقى منه جميع المخلوقات الشجر والحجر والمدر وما فيه روح وما لا روح فيه، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في أهل الأعراف: هم مثل سيدي فلان وسيدي فلان، يشير إلى أهل الفتح الكبير من أهل العرفان رضي الله عنهم.

قال رضي الله عنه: ولهم في الجنة منازل عالية يعلون بها على من في الجنة، مثل المنارة العالية التي بمدينة فاس، فإن أهلها يشرفون منها على من تحتهم ومنازلهم العلية هي الأعراف، ضرب رضي الله عنه هذا المثل تقريباً.

قلت: وفي أهل الأعراف أقوال ذكرها الحافظ السيوطي في [البدور السافرة] من جملتها أنهم حمزة والشهداء، وهو قريب مما ذكره الشيخ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فقال رضي الله عنه: المراد بالفتح المشاهدة، أي مشاهدته تعالى، وذلك أنه سبق في سابق علمه تعالى أن الخلق لا يعرفونه جميعاً إذ لو عرفوه جميعاً لم تكن إلا دار واحدة وقد قضى تعالى أن له دارين، فحجب الخلق عنه تعالى إلا من رحمه الله فمنعهم من مشاهدة الفعل منه تعالى، ومن مشاهدة ذاته تعالى، فإنه لو كشف الغطاء عنهم لشاهدوه تعالى كما قال:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ـ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ـ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ـ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾.

وشاهدوا أفعالهم كلها مخلوقة له تعالى، وأنه هو الفاعل لها لا هم، وإنما هم ظروف وأجرام موضوعة وهو تعالى يحركها كيف يشاء كما قال تعالى:

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وعند ذلك لا يعصيه أحد قط، لأن المعصية لا تكون إلا من المحجوب الغافل الساهي عن ربه وقت معصيته، قال والمؤمنون وإن كانوا يعتقدون أن الله هو الفاعل فيهم المريد لأفعالهم، لكن هذا الاعتقاد يحضر ويغيب، وسببه الحجاب، فاعتقادهم مجرد إيمان بالغيب لا عن مشاهدة وعيان، ومن رحمه الله تعالى زال عنه الحجاب وأكرمه بمشاهدته تعالى، فلا يرى إلا ما هو حق من الحق وإلى الحق، فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين.

فقلت: ومتى وقع؟ فقال: من صغره، فإنه ﷺ لم يحجب عنه تعالى.

فقلت: وهذا الفتح ثابت لكل نبي بل ولكل عارف، فأي خصوصية فيه لنبينا ﷺ؟

فقال رضي الله عنه: الفتح يختلف بالقوة والضعف، فكل على ما يطيق، والقوة التي في النبي ﷺ عقلاً وروحاً ونفساً وذاتاً وسراً وحفظة لم تثبت لغيره حتى لو جمع أهل الفتح كلهم من الأنبياء وغيرهم، وجعلت القوة المشار إليها عليهم لذابوا جميعاً وتهافتت ذواتهم، والمراد بقوله بالذنب في قوله تعالى:

﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

سببه وهو الغفلة وظلام الحجاب الذي في أصل نشأة الذات الترابية، قال: وهذه الغفلة والحجاب للذنوب بمثابة الثوب العفن والوسخ لنزول الذباب عليه، فمتى كان ذلك الثوب على أحد نزل عليه الذباب، ومتى زال عنه ذلك الثوب زال عنه الذباب، فالثوب مثال الحجاب، والذباب مثال للذنوب، فمن سمى ذلك الثوب ذباباً فهي تسمية سائغة فكذلك المراد هنا بالذنب هو الحجاب، والمراد بما تقدم وما تأخر الكناية عن زواله بالكناية فكأنه يقول «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة منا عليك ولتهدي وتنصر، فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته.

فقلت: وهل هذا خاص بالنبي ﷺ، فقال: نعم. فقلت: ولم؟ فقال: لأنه عين كل شيء.

فقلت: ولذلك تقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المحشر، ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قلت: وهذا الذي قاله الشيخ رضي الله عنه من أنفس المعارف وألطف اللطائف وأليق بالجناب النبوي، وأبلغ في التنزيه والتعظيم، وأوفق للعصمة المجمع عليها، وأوفى بحق النبي ﷺ، وأنسب بترتيب الآية وحسن سياقها، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

وقد تكلم في الآية خلائق لا يحصون كثرة، وكان في عقولهم هذا المعنى الذي يشير

إليه الشيخ رضي الله عنه، وما أظهروه فكم حوم عليه السبكي الكبير، وكم طار في طلبه عقل أبي يحيى الشريف الشهير بابن أبي عبد الله الشريف التلمساني، حتى جعل في الذنب ثلاث مراتب، وفي المغفرة ثلاث مراتب. أما الذنب فله مصدر وهو النفس، وله حقيقة وهو المخالفة، وله أثر وهو الظلام الذي يكون في القلب من الذنب المشار إليه، بقوله تعالى:

﴿كلاً بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وفي الحديث **«إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْباً حَصَلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ»**.

قال: وتسمية المصدر والأثر ذنباً مجاز من باب تسمية الشيء باسم سببيه في المصدر ومسببه في الأثر.

وأما المغفرة فهي مأخوذة من الغفر الذي هو الستر والستر على درجات، الأولى: وهي أقواها أن لا يوجد الشيء أصلاً فهو مستور في ظلمة العدم. الثانية: أن يوجد، ولا تكون لنا حاسة تدركه أصلاً. الثالثة: أن يؤيده وتكون لنا حاسة تدركه، ولكن يحول بيننا وبينه حجاب فالشمس، إن لم توجد في السماء أصلاً فهي مستورة في العدم، وإن وجدت وكان الناظر إليها أعمى فهي مستورة عنه لعدم الحاسة، وإن حال بيننا وبينها غيم فهي مستورة عنا به وهي أضعف مراتب الستر فإنها بعد زوال الغيم تبصر.

قال: فالمغفرة في حق النبي ﷺ تراد بمعنى العدم، والذنب في حقه ﷺ يراد بمعنى المصدر، وبمعنى الحقيقة، ولا شك أن مغفرة كل منهما أي طيه عن العدم تستلزم مغفرة الأثر بخلاف العكس فلهذا لا يصح أن يكون الذنب في حقه بمعنى الأثر، لأن محو الأثر وطيه عن العدم لا يستلزم رفع حقيقة الذنب الذي هو المخالفة، ولأن محو الأثر مع بقاء حقيقة المخالفة ينافي العصمة، ولأنه يشاركه في هذا القدر لو كان مراداً آحاد العصاة فإن أريد بالذنب في الآية الحقيقة التي هي المخالفة كانت من في قوله ﴿من ذنبك﴾ بمعنى عن أي ليغفر الله ما تقدم عن ذنبك وهو المصدر وما تأخر عنه وهو الأثر، وإن أريد بالذنب الحقيقة والمجاز كان المراد بالمتقدم هو الحقيقة، وبالمتأخر هو الأثر المجاز، وفاته رحمه الله تعالى تفسير الفتح بما قاله الشيخ وذلك هو روح المسألة، فإنه فسره بالقضاء ولم يبين المقضى به ما هو ليصح تفرع ما بعده عليه كما لا يخفى ذلك على من طالع كلامه.

وقد ألف في المسألة الحافظ السيوطي جزءاً لطيفاً جمع فيه أقوال العلماء وكذا الشريف المتقدم أبو يحيى بن أبي عبد الله الشريف التلمساني وقد جمع بين هذين التأليفين الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بابا السوداني في تأليف له في هذه المسألة، رحم الله الجميع بمنه وكرمه ونفعنا بهم وبعلومهم آمين والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

وقوله ﷺ في:

«خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ الله».

كيف يجمع بين هذا وبين ما يظهر على الأولياء العارفين رضي الله عنهم من الكشوفات والأخبار بالغيوب بما في الأرحام وغيرها، فإنه أمر شائع في كرامات الأولياء رضي الله عنهم.

فقال رضي الله عنه: الحصر الذي في كلام الله تعالى وفي الحديث الغرض منه إخراج الكهنة والعرافين ومن له تابع من الجن الذين كانت تعتقد فيهم جهلة العرب الإطلاع على الغيب ومعرفته، حتى كانوا يتحاكمون إليهم ويرجعون إلى قولهم، فقصد الله تعالى إزالة ذلك الاعتقاد الفاسد من عقولهم، فأنزل هذه الآيات وأمثالها كما أراد الله تعالى إزالة ذلك الواقع ونفس الأمر، فملأ السماء بالحرس الشديد والشهب، والمقصود من ذلك كله جمع العباد على الحق وصرفهم عن الباطل، والأولياء رضي الله عنهم من الحق لا من الباطل، فلا يخرجهم الحصر الذي في الآية ونحوها.

قال رضي الله عنه: ونحن نقول في هذا وأمثاله إن الكلام يكون عاماً، ونشاشيب النور التي تكون فيه تخص بعض أفراده دون بعض، فالعارف إذا سمع اللفظ العام نظر إلى تلك النشاشيب، فإن رآها نزلت على فلان وفلان وزيد وعمرو وخالد وبكر فقط، علم أنهم المرادون فقط دون غيرهم، فلا دخول له في الكلام، وإن كان اللفظ عاماً وإن نظر إلى النشاشيب فرآها نزلت على جميع الأفراد ولم يشذ منها فرد، علم أن الجميع مراد قال: ونبينا ومولانا محمد ﷺ، كان يعلم هذا قبل أن تخرج الآية من كلامه الشريف، لأن نور النشاشيب يسبق إلى قلبه ليعرف مراد الحق سبحانه.

قلت: يشير رضي الله عنه إلى العام الذي أريد به الخصوص، والعام الذي بقي على عمومه، لكن رضي الله عنه لا يعلم اصطلاحاً وإن سبق أهل الاصطلاح إلى روح المعاني حتى أنه لو أتاه أعلم علماء الظاهر وأشدهم جدلاً وأروغهم فيه وأكثرهم إطلاعاً وأراد معارضته فإنه لا يطيقه لأن الشيخ رضي الله عنه يسبقه إلى المعاني فيسد عليه كل ثنية حتى لا يسع معارضه إلا الإستسلام والانقياد، إلى قوله: وكنت أقول له كثيرا يا سيدي: ما غبن فيك أحد مثل ما غبن فيك علماء الظاهر، فإنهم لو خالطوك وجاروك في الكلام في أبواب العلم لاستنارت بصائرهم فيها وانزاحت عنهم الإشكالات التي فيها، وقد كان عندي كتاب التبصير لأبي المظفر الإسفرايني في اثنتين وسبعين فرقة، فكان رضي الله عنه يقول لي أذكر لي شبه أهل الأهواء وسلني عن عويصها، فما ذكرت له قط شبهة إلا حلها في أول جوابه، ثم ترقى إلى علوم ومعارف أخر.

وتكلمت معه رضي الله عنه في مرض موته في برهان القطع والتطبيق، فسمعت منه فيه أسراراً وظفرت فيه بعلوم ما ذكرها قط علماء الكلام أبداً، ثم علمني رضي الله عنه توحيد الصوفية العارفين بالله وقال لي: هذا الذي كانت عليه صحابة النبي ﷺ.

فقلت: بعد أن علمت إشارته رضي الله عنه يا سيدي. لو علم الناس هذا الحق في التوحيد ما افترقت الأمة إلى ثلاثة وسبعين فرقة؛ فقال نعم. هو الذي أراد النبي ﷺ أن يكتبه لهم في كتاب عند وفاته ﷺ حتى لا تضل أمته من بعده أبداً.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: إني قلت للشيخ رضي الله عنه إن التخصيص في آية:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحداً﴾ الآية.

بالرسول يخرج الولي فالمعارضة باقية.

فقال رضي الله عنه: إنما يخرج غير الرسول، وأما الولي فإنه داخل في الآية مع الرسول، ثم ضرب مثالاً وكان الوقت وقت حراثة فقال: لو أن كبيراً من الكبراء مثل سيدي فلان أراد الخروج لينظر إلى أرض حراثته ويختبر الفلاحين الذين فيها فإنه لا بد أن يخرج معه بعض غلمانه وأعز أصحابه عليه، فإذا بلغ إلى الموضع واطلع عليه وعلم ما فيه فإن من يكون معه من الغلمان والأصحاب والأتباع ينالهم شيء من ذلك، فكذا الرسول لا بد له من عبيد وخدم وأحباب وأصحاب من أمته، فإذا اطلع الرسول على غيب أفلا ينال أصفياء أمته شيء من ذلك.

ثم قلت للشيخ رضي الله عنه فإن علماء الظاهر من المحدثين وغيرهم اختلفوا في النبي ﷺ هل كان يعلم الخمس المذكورات في قوله:

﴿إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

فقال رضي الله عنه وعن سادتنا العلماء: وكيف يخفى أمر الخمس عليه ﷺ والواحد من أهل التصرف من أمته الشريفة لا يمكنه التصرف إلا بمعرفة هذه الخمس.

وكذا سألته عن قول العلماء في معرفة ليلة القدر أنها رفعت عن النبي ﷺ ولذا قال:

«اطْلُبُوهَا فِي التَّاسِعَةِ فِي السَّابِعَةِ فِي الْخَامِسَةِ».

ولو بقيت معرفتها عنده عليه الصلاة والسلام لعينها لهم.

فقال رضي الله عنه: سبحان الله وغضب، ثم قال: والله لو جاءت ليلة القدر وأنا ميت وقد انتفخت جيفتي وارتفعت رجلي كما تنتفخ جيفة الحمار لعلمتها، وأنا على تلك الحالة، فكيف تخفى على سيد الوجود ﷺ.

ثم ذكر أسراراً عرفانية في معرفة الخمس السابقة وفي معرفة ليلة القدر لا ينطق بها إلا عارف مثله، وفقنا الله لذكر شيء منها في هذا الكتاب، وقد عينها رضي الله عنه لنا في أعوام مختلفة، فمرة عينها لنا في رجب، وعينها لنا في عام آخر في شعبان، وفي عام آخر في رمضان، وفي عام آخر في ليلة عيد الفطر، كان يعينها لنا قبل أن تأتي، ويأمرنا بالتحفظ عليها، وكان يقول لنا إنها تنتقل وكذلك كان يعين لنا ساعة الجمعة، ولعلنا نذكر شيئاً من أسرارها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وليكن هذا آخر ما أردنا جمعه من الآي التي فسرها لنا الشيخ رضي الله عنه، وبقيت آيات أخر بعضها سيأتي في أثناء الكتاب في المواضع التي تناسبه وبعضها لم نستوعب فيها مراده رضي الله عنه، فلم أكتبها لذلك وبعضها فيها أسرار عرفانية لا تكتب، والله يجعل ما كتبناه خالصاً لوجهه الكريم وموجباً لرضوانه العميم، وأن ينفع به من كتبه أو قرأه أو حصله أو سعى في شيء منه بجاه صاحب الكلام رضي الله عنه، ونفعنا به آمين وجعلنا من أهل محبته في الدارين.

الباب الثالث

في ذكر الظلام الذي يدخل على ذوات العباد وأعمالهم وهم لا يشعرون

سمعته رضي الله عنه يقول: أرسلني شيخي سيدي عمرو بن محمد الهواري يوماً إلى عرصة له بقصد أن أنظر إلى خدمة أناس كان أجرهم للخدمة فيها، وأوصاني أن أنظر إلى خدمتهم وأكد عليّ في ذلك فلما كان وقت صلاة الظهر جاء إلينا وهو معنا، وبقي معنا هنالك إلى أن فرغ الخدام من الخدمة وأعطاهم أجرتهم، فلما خرجوا نظرتت إليه فإذا هو متغير ووجهه عليه أثر الغضب حتى خفت منه، فقال لي: هل رأيت اليوم شيئاً؟ فقلت: ما رأيت شيئاً، أيّ شيء فقال لي: انظر لعلك رأيت شيئاً فقلت: ما رأيت شيئاً فقال: أيّ شيء رأيت في خدمة الخدام فقلت: حيث كنت غائباً قبل أن تجيء إلينا كانوا يخدمون خدمة ضعيفة في غاية الضعف، وحين قدمت ورأوك جعلوا يخدمون فوق طاقتهم، فقال لي إنك رأيت اليوم أعمال الفاسقين وأعمال المحرومين.

فأما الفاسقون فهم الذين يعبدون وتخرج العبادات والطاعة من ذواتهم بغير نية ولا قصد، بل جرت عادة الذات بذلك فصارت حركاتهم وسكناتهم في حال الطاعة لأجل العادة وعلى وفق الطبيعة من غير غرض من الأغراض، فلا غرض عندهم لا صحيح ولا فاسد، فليست عبادتهم لله ولا لغير الله، وإنما عبادتهم لمجرد الطبع والعادة، كمن كان شبعان ريان لا يحب أكلاً ولا يشتهيه ولا تطيقه ذاته.

ثم حضر مع أناس في النزاهة فجعلوا يتحركون فيما يأكلون وجعل هذا الرجل يتحرك معهم، فهم يتحركون لأجل الأكل ونفع أنفسهم وهو يتحرك معهم لا لأجل الأكل لأنه لا يريده، بل والفرض أنه لا يطيقه ولا لأجل معونة إخوانه المؤمنين، لأن هذه نية صالحة، ولكن الحامل على حركته أنه لما رأى الناس يتحركون تحركت ذاته طبعاً وعادة فهذه أعمال الفاسقين.

وأما المحرومون: فهم الذين تكون أعمالهم لنفع أنفسهم ولتحصيل أغراضها ولا تكون لله عز وجل، وهذه الأعمال لا تزيد إلا بعداً من الله عز وجل، لأنها مخالفة لسر حقيقة الذات فإن سر حقيقة الذات أنها ذات مخلوقة لله مفعولة له مملوكة له منسوبة إليه لا نسبة لغيره فيها بوجه من الوجوه، فلو جرت أفعالها على هذا السر لكانت كلها لله خالصة، فكأنه يقول لا حظ لي في شيء من أفعالها هي كلها مخلوقة لله فتخرج عنه الأعمال عند صدورها على سر حقيقة الذات.

وأما أنه يقول ذاتي هي لله وأفعالها لي فينويها لنفسه ولتحصيل أغراضه فهذا لا يجري فعله على سر حقيقة ذاته ولا يمكنه أبداً أن يوفي بشيء من حقوق الله، لأنه يفعل لغرض نفسه لا للقيام بحق الله، فقد انقطع عن الله في أفعاله فتنقطع عنه العطية من ربه عز وجل فيكون محروماً من المحرومين.

فقلت: فقد وردت آيات كثيرة وأحاديث لا تحصى في الترغيب بذكر الثواب وجزيل الأجر لمن فعل الفعل ولو كان كما قال سيدي عمر بن محمد الهواري لم يرد شيء منها بذلك لما فيه من القطع عن الله عز وجل.

فقال رضي الله عنه: لا يرد علينا ما في الآيات والأحاديث، لأنه لم يقل فيها اعملوا لأنفسكم وأنا أثيبكم على أعمالكم في هذه الحالة بجزيل العطية، وإنما قال اعبدوني وأخلصوا لي العبادة، وأنا أثيبكم، فنيتنا في أفعال لنا تكون لله عز وجل ولعظمته وكبريائه ولما أسدى إلينا من العطايا الجسيمة، وهو يثيبنا عليها عز وجل فضلاً منه ومنة، وإنما يرد علينا ما في الآيات والأحاديث أن لو كانت العبادة مع الإخلاص لا أجر فيها ولا يثاب العبد عليها، فحينئذ يرد ما ذكرتم، وما أقبح العبد وأجهله حيث يظن أن يحصل الحسنات ويكسب الأجر بأفعاله وهو يعلم أن أفعاله لم يحصل منها ولا شعرة، فإذا كانت الذات مخلوقة لله والأفعال مخلوقة لله فكيف يسوغ لنا أن نعتمد في الحسنات على أفعالنا المخلوقة له عز وجل ولا نعتمد على مجرد فضله ورحمته، ولكن الغفلة عن الله تعمي البصائر والعياذ بالله.

قال رضي الله عنه: وقد كان بعض العباد يعبد الله بقصد نفع نفسه وأن يعطيه ما يحب فدام على ذلك عشرين سنة، وكان لحاحا في الطلب، فما ظهر له شيء مما يطلب فتحير في أمره، فقال، كيف يكون هذا؟ أنا أطلب الله في مسألة عشرين سنة ولم يعطني شيئاً ولا رحمني بها، فألقى الله عز وجل عليه رحمته ورزقه في تلك اللحظة معرفة نفسه وأفعالها فقال: إني لأحمق إذا كان الله سبحانه خلق الذات وخلق أفعالها، وخلق الصحة فيّ وخلق المكان الذي أعبده فيه، وخلق الماء الذي أتوضأ به، وخلق الثوب الذي أستتر به، وخلق الزمان الذي أعبده فيه، فأيّ شيء عملت حتى أطلب عليه أجراً وأستحق بسببه ذكراً؟ كلا والله ما فعلت شيئاً ولكني عمدت إلى أفعال الله فيّ فقطعتها عنه ثم نسبتها إليّ وجعلت أطلب بها عنده وأتمنى بها عليه حتى صرت أقول: وقفت أنا ببابه عشرين سنة وما أعطاني شيئاً، أنا تائب إليك يا رب، أنا تائب إليك يا رب، أنا تائب إليك يا رب، فلما تاب إلى الله وعلم منه تعالى التوبة الصحيحة رحمه الله تعالى بأن أعطاه كل ما يتمنى وزاده المعرفة به التي لا تعارضها جنة ولا غيرها.

قلت: ومثل هذه الحكاية وما ذكره الحافظ السيوطي في البدور السافرة في باب «من نوقش الحساب هلك» فذكر فيه حديثاً عن النبي ﷺ أنه قال:

«كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ الله سُبْحَانَهُ سِتمائَةِ سَنَةٍ فِي جَزِيرَةٍ مِنَ الْبَحْرِ وَأَعْطَاهُ الله فِيهَا عَيناً عَذْبَةً وَأَنْبَتَ لَهُ شَجَرَةً مِنَ الرُّمَّانِ تُثْمِرُ لَهُ كُلَّ يوم رُمَّانَةً يَأْكُلُهَا وَتَكْفِيهِ فِي القُوتِ فَبَقِيَ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ الْمُدَّةَ السَّابِقَةَ وَلاَ حَصَلَ لَهُ فتورٌ وَلاَ مَلَلٌ، فَلَمَّا مَاتَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ ادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَفَضْلِي فَقَالَ: يا رب بل بعملي وعبادتي لك ستمائةِ سنة فَنَاشَهُ الله تعالى الحساب، فقال له عز وجل: عِبَادَتُكَ هٰذِهِ الْمُدَّةَ لاَ يَقُومُ بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ النِّعَم الَّتِي أَنعَمْتُ بها عليكَ، فَإِنِّي أَخرَجْتُ لَكَ عَيناً عَذْبَةً وَسطَ الْبَحْرِ الْمَالِحِ فَبِأَيِّ حِيلَةٍ اسْتَوْجَبْتَ عَلَيَّ هٰذِهِ النِّعْمَةَ؟ وَأَنبتُّ لَكَ شَجَرَةً تُثمِرُ لَكَ كُلَّ يَوم، وَإِنَّمَا تُثْمِرُ لِغَيْرِكَ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، فَبِأَيِّ حِيلَةٍ اسْتَوْجَبْتَ عَلَيَّ ذٰلِكَ؟ وَأَطَلْتُ عُمْرَكَ هٰذِهِ الْمدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَإِنَّمَا يَعِيشُ غَيْرُكَ أَنْقَصَ مِنْ ذٰلِك وَقَوَّيْتُكَ على الْعِبَادَةِ هٰذِهِ الْمُدَّةَ وَغَيْرُكَ لاَ يَقْوَى عَلَيهَا، وَطَرَدْتُ عَنْكَ الشَّيْطَانَ وَسَلَّمْتُكَ مِنْهُ وَكَمْ أَهلَكَ مِنَ النَّاسِ غَيْرَكَ، وأَعْطَيتكَ الصِّحَّةَ فِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ ولَم أعطِهَا لِغَيْرِكَ، وَخَلَقْتُ ذاتك وَلَمْ تَكُ شَيئاً، وَخَلَقْتُ حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكَ نِعْمَتِي أَدخِلُوهُ جَهَنَّمَ، فَانطَلَقَتْ بِهِ الْمَلاَئِكَةُ إلى جَهَنَّمَ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ هَلَكَ، فَقَالَ يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ، فَقَالَ الله تَعَالَى وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ رُدُّوهُ وَأَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي قَالَ الله تَعَالَى ادخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ لِي».

هذا معنى الحديث، وقد طال عهدي به.

ثم قلت لشيخنا رضي الله عنه: أي شيء أقبح، عبادة الفاسقين، أو عبادة المحرومين؟

فقال: عبادة المحرومين أفضل وأحسن لمسألة واحدة، وهي أن الله تعالى رؤوف رحيم لطيف، فإذا رأى العبد داوم على عبادته لتحصيل أغراضه فإنه يرحمه بفضله بأن يعرفه حقيقة الأمر في ذاته وفي أفعاله حتى يتوب إلى الله وبتوجه بعبادته إليه تعالى كما وقع للعابد عشرين سنة وخلائق لا يحصون كثرة.

فقلت: وبرحمته ولطفه يعطيهم الأجور التي في الأحاديث والآيات فإنه بالوجه الذي رحمهم حتى عرفهم به يرحمهم، ويعطيهم الأجر.

فقال رضي الله عنه: إن كان مرادك يعطيهم الأجر إذا أعطاهم المعرفة بما في حقيقة الأمر فنعم، وإن كان مرادك يعطيهم الأجر وهم منقطعون منه ويرون الفعل منهم ويرون أنهم يستوجبون على الله أجراً، فلا تظن هذا أبداً.

فقلت: فهذا رجل سمع في الحديث من يفعل كذا فله كذا، ومن يترك كذا فله كذا ويعتقد أنه لا يتحرك إلا بإذنه تعالى، فبادر عند سماع الحديث لامتثال ما فيه وليحصل له الأجر الذي فيه.

فقال رضي الله عنه: إن كانت حرية نظره وقصده إلى تحصيل أمر ربه ونية الأجر

تابعة بحيث أنه لو لم يرد أجراً في الحديث لفعل فهذا لا ضرر عليه، وإن كانت حرية نظره وقصده إلى تحصيل الأجر ونية الامتثال تابعة حتى أنه لو لم يرد أجراً لترك الفعل، فهذا هو الذي نتكلم عليه، وهو الذي نذمه، لأنه خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت حرية نظره وقصده إليهما معاً فهذا يعطي أجره بشرط أن ينظر بعينين صحيحتين.

العين الأولى تنظر إلى الفعل وأنه طاعة وأنه وعد عليه بكذا من الأجر، وهذه لا يحتاج العامل إلى توصيته بها.

العين الثانية تنظر إلى أنه تعالى هو خالقه وخالق ذلك الفعل وأنه تعالى وعده بالثواب وأنه تعالى في ذلك متفضل لا يجب عليه شيء فيما وعد به، وأنه مع ذلك مختار إن شاء رحم وإن شاء عذب، ولكن العبد لما سمع أمر مولاه امتثله واحتسب على ربه الأجر والخير، فإذا نظر العبد إلى ربه هذا النظر الحسن الجميل فلا يضره نظره إلى الثواب فيعطيه ربه أجره ويثيبه بجزيل الحسنات.

فقلت: فإن هذا القسم اختلف فيه العلماء، فذهب الغزالي رحمه الله في كتاب منهاج العابدين إلى أنه لا أجر فيه، وجعله من باب التشريك للعمل وهو عنده بمنزلة الرياء المحبط للعمل. وذهب أبو بكر بن العربي في سراج المريدين والقرافي في القواعد والفروق رحمهما الله إلى أنه يؤجر عليه، وأن ذلك التشريك لا يضر وأنه ليس بمثابة الرياء المحبط للعمل.

فقال رضي الله عنه: الصواب مع ابن العربي والقرافي.

فـ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾.

وهذا قد أحسن عملاً فلعمله نور إذا خرج من ذاته ولنيته الصالحة ونظره إلى ربه بالعين الثانية نور آخر زائد على نور العمل فكيف يحرم الأجر وأكمل منه من لم ينظر إلى الأجر وهو القسم الأول، وأكمل منهما معاً من انقطع عن العمل بعد نيته فلم يشعر بالعمل إلا عند الشروع فيه، وعند ذلك أنه نوى لله عز وجل ثم غاب عنه بمشاهدة خالقه سبحانه فجال فكره في عظمته تعالى وكبريائه، نسأله تعالى أن يهب لنا ذلك بمنه وفضله وكرمه وجوده.

قال رضي الله عنه: وهذه المشاهدة توجب محبة الله سبحانه، ومحبته سبحانه توجب الانقطاع إليه والانقطاع إليه يوجب أن يكون الأجر منه تعالى، على ما يليق بقدره سبحانه لا على ما يليق بقدرة العبد، وعدم المشاهدة يوجب الغفلة عنه سبحانه، وهي توجب الانقطاع إلى الذات، والانقطاع إلى الذات يوجب أن يكون الأجر على قدر العبد، لا على قدر الرب سبحانه، ولهذا ترى رجلين كل منهما يصلي على النبي ﷺ فيخرج لهذا أجر ضعيف ويخرج لهذا أجر لا يكيف ولا يحصى، وسببه ما قلنا.

فالرجل الأول خرجت منه الصلاة على النبي ﷺ مع الغفلة وعمارة القلب بالشواغل والقواطع، وكأنه ذكرها على سبيل الألفة والعادة، فأعطى أجراً ضعيفاً.

والثاني خرجت منه الصلاة على النبي ﷺ مع المحبة والتعظيم.

أما المحبة فسببها أن يستحضر في قلبه جلالة النبي ﷺ وعظمته وكونه سبباً في كل موجود، ومن نوره كل نور، وأنه رحمة مهداة للخلق، وأنه رحمة الأولين والآخرين، وهداية الخلق أجمعين، إنما هي منه ومن أجله فيصلى عليه لأجل هذه المكانة العظيمة لا لأجل علة أخرى ترجع إلى نفع ذاته.

وأما التعظيم: فسببه أن ينظر إلى هذه المكانة العظيمة وبأي شيء كانت وكيف ينبغي أن تكون خصال صاحبها، وأن الخلائق أجمعين عاجزون عن تحمل شيء من خصالها لأنها ارتقت حقائقها فيه ﷺ إلى حد لا يكيف بالفكر فضلاً عن أن يطاق تحمله بالفعل، فإذا خرجت الصلاة من العبد على النبي ﷺ، فإن أجرها يكون على قدر منزلة النبي ﷺ وعلى قدر كرم الرب سبحانه، لأن محرك هذه الصلاة والحامل عليها هو مجرد تلك المكانة العظيمة، فكان الأجر عليها على قدر تلك المكانة الحاملة عليها، وصلاة الأول كان المحرك عليها حظ نفسه وغرض ذاته فكان الأجر عليها على قدر محركها:

﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

فهكذا عمل العبد بينه وبين ربه فإذا كان المحرك له هو عظمة الرب وجلاله وعلوه في كبريائه فالأجر على قدر عظمة الرب سبحانه، فإذا كان المحرك له والحامل عليه مجرد غرض العبد وما يرجع لذاته، فالأجر على قدر ذلك والسلام.

فقلت: فهل ينتفع النبي ﷺ بصلاتنا عليه أو لا ينتفع؟ فإن هذه مسألة قد اختلف العلماء فيها رضي الله عنهم.

فقال رضي الله عنه: لم يشرعها الله سبحانه لنا بقصد نفع نبيه ﷺ وإنما شرعها الله لنا بقصد نفعنا خاصة، كمن له عبيد فنظر إلى أرض كريمة لا تبلغها أرض في الزراعة فرحم عبيده فأعطاهم تلك الأرض على أن يكون الزرع كله لهم يستبدون به، ولم يعطهم ذلك على وجه الشركة، فهكذا حال صلاتنا عليه ﷺ فأجرها كله لنا، وإذا شعل نور أجرها في بعض الأحيان واتصل بنوره ﷺ، تراه بمنزلة شيء راجع إلى أصله لا غير، لأن الأجور الثابتة للمؤمنين قاطبة إنما هي لأجل الإيمان الذي فيهم، والإيمان الذي فيهم إنما هو من نوره ﷺ، فصارت الأجور الثابتة لنا إنما هي منه ﷺ ولا مثال له في المحسوسات إلا البحر المحيط مع الأمطار إذا جاءت بالسيول إلى البحر، فإن ماء الأمطار من البحر فإذا رجع إلى البحر فلا يقال إنه زاد في البحر.

فقلت: فإن بعض العلماء استدل على أنه ﷺ ينتفع بها بأن قاسها على النفع الحاصل له ﷺ من الخدمة والولدان إذا كان في الجنة، فكما أنه ﷺ ينتفع بالنعم والفواكه المحمولة إليه في الظروف، فكذلك ينتفع ﷺ بالأنوار والأجور المحمولة إليه في هذه الحروف، فالحمل هناك وقع بالأيدي الحاملة للظروف، وهنا وقع بالأفواه الحاملة للحروف، قال: ولا تزيد حالته في دار الدنيا على حالته ﷺ في الجنة حتى يمتنع القياس.

فقال رضي الله عنه: ومن أين هم أولئك الخدمة والولدان، إنما هم من نوره ﷺ، بل الجنة وكل ما فيها من نوره ﷺ، وإنما يصح ما قاله هذا العالم، أن لو كان أولئك الخدمة مباينين له ﷺ، ويكون إيماننا مبايناً له ﷺ وليس كذلك.

قال رضي الله عنه: ومن علم كيف هو النبي ﷺ استراح.

قال رضي الله عنه: وترى الرجل يقرأ دلائل الخيرات فإذا أراد أن يصلي على النبي ﷺ صوره في فكره وصور الأمور المطلوبة له كالوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود وغير ذلك مما هو مذكور في كل صلاة وصور نفسه طالباً لها من الله تعالى، وقدّر في فكره أن الله يجيبه ويعطيه ذلك لنبيه ﷺ على يد هذا الطالب، فيقع في ظن الطالب أنه حصل منه للنبي ﷺ نفع عظيم فيفرح ويستبشر ويزيد في القراءة ويبالغ في الصلاة ويرفع بها صوته ويحس بها خارجة من عروق قلبه، ويعتريه خشوع وتنزل به رقة عظيمة، ويظن أنه في حالة ما فوقها حالة وهو في هذا الظن على خطأ عظيم فلا يصل بصلاته هذه إلى شيء من الله تعالى لأنها متعلقة بما ظنه وصوره في فكره، وظنه باطل والباطل لا يتعلق بالحق سبحانه، وإنما يتصل بالحق سبحانه ما هو حق في نفس الأمر بحيث أن الشخص لو فتح بصره لرآه في نفس الأمر، فكل ما كان كذلك فهو متعلق بالحق سبحانه، وكل ما لو فتح الإنسان بصره لم يره فهو باطل، والباطل لا يتعلق بالحق سبحانه، فليحذر المصلي على النبي ﷺ من هذه الآفة العظيمة، فإن أكثر الناس لا يتفطنون ويظنون أن تلك الرقة والحلاوة الحاصلة لهم من الله سبحانه وإنما هي من الشيطان ليدفعهم بها عن الحق سبحانه ويزيدهم بها بعداً على بعد، وإنما ينبغي أن يكون الحامل محبته ﷺ وتعظيمه لا غير وحينئذ يشتعل نورها كما سبق، وأما إن كان الحامل عليها نفع العبد فإنه يكون محجوباً وينقص أجره كما سبق، وكذا إن كان الحامل عليها نفع النبي ﷺ فإن صلاته حينئذ لا تتعلق بالحق سبحانه ولا تبلغ إليه كما سبق، والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن للأعمال أجوراً وإن للأجور أنواراً، وإن للأنوار اتصالاً بالذات اليوم في هذه الدار، فإذا كانت الأعمال خالصة لله تعالى وجرت على سر حقيقة الذات كما سبق، فإن أنوار أجورها تسطع على الذات فتفطن الذات بذلك فيحصل لها خشوع وقشعريرة وبكاء وغير ذلك مما يقتضيه ذلك النور الساطع فيعلم صاحب البصيرة *بذلك النور أن العمل قبل*، وأن أجره يبلغ من القدر كذا وكذا.

وأكثر الناس يظنون أن الأجور لا تعلم إلا في الدار الآخرة، وذلك في حق المحجوبين.

وأما غير المحجوب: فذلك مكشوف له غير خفي عنه.

قال: وأما إذا كانت الأعمال لغير الله تعالى ولم تجر على حقيقة الذات فإنها عناء وتعب فلا أجور لها ولا يسطع بها على الذات نور.

قال رضي الله عنه: فليختبر العامل قلبه عند العمل فإن لكل عمل وإن دقّ أجراً، ولأجره نور ساطع تفطن الذات به لا محالة، فإن كان القلب عند العمل معموراً بالشواغل والقواطع، فليعلم أن الله قد حرمه أجره، ولذلك ملأ قلبه بالشواغل، وإن كان القلب فارغاً من الشواغل منقطعاً نحو الحق سبحانه فليعلم أن الله تعالى قد نجز له أجره.

قال رضي الله عنه: وترى الطالب يسافر من قطر إلى قطر ليحصل العلم بنية أن يدرك الجاه والكلمة النافذة أو الدنيا أو غير ذلك من الأغراض الباطلة ويبقى على هذه النية السنين المتطاولة فيحرمه الله تعالى من نور العلم، فلا يكون من الراسخين فيه أبداً، لأنه لا يدرك حقيقة العلم إلا من توجه إليه بباطنه، وباطن هذا معمور بأغراضه وشواغله والذي يتحرك في العلم منه هو ظاهره فقط، والعلم سر من الأسرار فلا يدركه الظاهر أبداً، فكذلك أجور الأعمال التي ليست بخالصة لله تعالى فلا يدركها العبد أبداً لأن الأجور من أسرار الله تعالى والظاهر بدون الباطن لا يدرك الأسرار أبداً والله الموفق.

وسألته رضي الله عنه: لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل، فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول وحق سيدي فلان كسيدي عبد القادر الجيلاني، أو سيدي يعزي، أو سيدي أبي العباس السبتي وغيرهم، نفعنا الله بهم، وإذا أراد أن يحلف أحداً ويؤكد عليه في يمينه يقول: احلف لي بسيدي فلان، وإذا أصابه ضر وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدي فلان، وهم في ذلك كله منقطعون عن الله عز وجل، وإذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعاً فما السبب في ذلك؟

فقال رضي الله عنه: أهل الديوان أولياء الله فعلوا ذلك عمداً، لقوة الظلام في الذوات وكثرة المنقطعين عن الله عز وجل، فصارت ذواتهم خبيثة وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم سبحانه، أن تكون ذاته ظاهرة، لأنه تعالى يجيب من دعاه إذا انقطع إليه باطناً وقت الدعاء، وإجابته تكون بأحد أمرين: إما أن يعطيه ما سأل، وإما أن يبين له سر القدر في المنع إذا منعه، وهذا لا يكون إلا للأولياء ولا يكون للبعداء المحجوبين، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمراً ومنعها ولم يطلعها على سر القدر في المنع لربما وقع لها وسواس في وجود الحق

سبحانه فتقع فيما هو أدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها، فكان من المصلحة ما فعل أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين، لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم.

قال رضي الله عنه: ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام في ذواتهم، أنك ترى الواحد يخرج من داره بعشرين موزونة مثلاً ويذهب بها إلى ضريح ولي من أولياء الله تعالى فيطرحها عنده ليقضي له حاجته، وكم من فقير محتاج يلقاه في الطريق ويطلب منه متاع الله في سبيل الله لوجه الله فلا يعطيه درهماً واحداً حتى يبلغ للولي فيطرحها عند رأسه، وهذا من أقبح ما يكون، وسببه أن الصدقة لم تخرج لله عز وجل وعظمته وكبريائه ووجهه الكريم وجوده العظيم، إذ لو خرجت لذلك لدفعها صاحبها لكل محتاج لقيه، ولكن لما كان الحامل عليها والداعي إلى إخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه وحظوظه خص بها موضعاً دون موضع لظنه أن النفع يتبع ذلك الموضع وجوداً وعدماً.

قال رضي الله عنه: وقد رأيت في هذا اليوم ما أهدى للصالحين من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء، فإذا هو من الدنانير ثمانون ديناراً، ومن الغنم ثلثمائة وستون شاة، ومن البقر اثنان وسبعون ثوراً، أخرج هذا كله في يوم واحد للصالحين، وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم.

قال رضي الله عنه: وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل، الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم، بها، وهي منحصرة في ثلثمائة وستة وستين سبباً، كلها موجبة لانقطاع العبد عن ربه عز وجل.

فقلت: وهل حضركم الآن منها شيء؟

فقال رضي الله عنه: اكتب.

الأول: الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله عز وجل.

الثاني: التوسل إلى الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة، فيقول الزائر قدمت لك وجاه الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي، وإنما كان سبباً للانقطاع، أن الزائر قلب الواجب وعكس القضية فإنه كان من حقه أن يتوسل لله عز وجل بأوليائه لا أن يعكس.

الثالث: زيارة الصالحين وعلى الزائر دين فرض كعدد صلوات وجب قضاؤها عليه، فترك قضاءها الذي هو حق الله وفيه نور الله وسره تعالى الذي يرحمه به، وذهب إلى زيارة صالح ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام.

الرابع: الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرهما فيقول في نفسه لا أعصي هذا الظالم، لأني إن عصيته قتلني أو منع رزقي أو غير ذلك مما يوجب الخوف منه، ولو تحقق

بوجود الحق تعالى معه وتصرفه فيه وفي ذلك الظالم لعلم أنه هو الفاعل وحده لا يشاركه ذلك الظالم ولا غيره في فعل من الأفعال، وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى، وبقدر ما يقوي هذا النظر في العبد يقوي قربه من ربه تعالى، وبقدر ما يقل أو ينعدم يكون بعده من الله عز وجل، وانقطاعه.

الخامس: الطمع في الظالم فيتقرب إليه لينال منه رزقاً، ولو تحقق بأن الله سبحانه هو الرزاق لم يصدر منه ذلك.

السادس: النصرة للكافرين فيلهمهم مصالحهم في دنياهم بأن يرى لهم طريقاً ونحوه فإنه من أسباب الانقطاع عن الله عز وجل قلت: وما رأينا من نصح ظالماً إلا وكانت عاقبة أمره خسراً، ونذكر هٰهنا قصة سفيان الثوري رضي الله عنه مع الذي أراد أن يوقظ حرسياً للصلاة فقال له سفيان لا توقظه، دعه هذه الساعة نسترح منه، ومن شره فيها.

السابع: عدم النصيحة للمسلمين، فيرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له.

الثامن: استحلاء التعب والمشقة في طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل، فمن أحس بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سبباً من أسباب الانقطاع.

التاسع: طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر، وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب الحلال، وأما من طلب الدنيا بالزور والكذب والفجور والإيمان الحانثة، فقد طلبها بمعاصي هي أخس منها أي من الدنيا، فمن أحس بذلك من نفسه فليتب إلى الله عز وجل فإن الدنيا لا تدرك إلا بما هو أعز منها.

العاشر: أن تكون أعمال العبد وطاعاته بقصد أن يرحمه الله بها وبقصد نفع نفسه وتحصيل أغراضه وحظوظه لا بقصد وجه الله الكريم ووجوده العظيم، وهذا سبب قد عم أكثر الناس إلا من رحمه الله عز وجل، جعلنا الله منهم بمنه وفضله: قال رضي الله عنه ولو لم يخلق الله جنة ولا ناراً لتبين من يعبده ممن لا يعبده، ولكانت عبادة الذي يعبده خالصة لوجهه الكريم، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوهما فضلوا على السبيل.

الحادي عشر: المعاصي في حرمات الله تعالى كالمساجد ونحوها، فإن العبد لو تحقق بإضافة البيت إلى ربه وقال في قلبه هذا بيت الله لم تصدر منه فيها معصية.

الثاني عشر: اللواط، وستأتي إن شاء الله مفسدته وأنه لا مزيد عليها.

الثالث عشر: ضرب الرجل امرأته من غير ذنب فلذلك الضرب سبب في الانقطاع لما لها عليه من الحقوق.

الرابع عشر: المنة على العيال والأهل بالنفقة، فيقول أنفقت عليكم كذا وكذا بقصد المنة.

الخامس عشر: الحسد وسيأتي إن شاء الله ما فيه من المفاسد وأن غالب المعاصي منه.

السادس عشر: الإقدام على المعصية مع معرفتها وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

السابع عشر: جمع الدنيا من الحرام قلت: ولا يتكرر مع الوجه التاسع كما لا يخفى.

الثامن عشر: عقوق الوالدين، فسمعته رضي الله عنه، يحكي عن شيخه سيدي عمر بن محمد الهواري، وذكر أنه كان جالساً معه عند السدرة المحررة التي هي خارج روضة سيدي علي بن حرزهم، فجاءه ولده يودعه وأراد الذهاب إلى الحج فأبى عليه أبوه سيدي عمر، قال وكان عاقاً لأبيه، فذهب وأبوه غير راض عنه، فقال لي سيدي عمر: نتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور.

أحدها: أن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم.

ثانيها: أنه إذا جلس في موضع من المواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين في شيء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه، وينزع الله تعالى البركة والنور من كلامه، ويصير ممقوتاً بينهم.

ثالثها: أن أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرف لا ينظرون إليه نظر رحمة ولا يرقون له أبداً.

رابعها: أن نور إيمانه لا يزال ينقص شيئاً فشيئاً، فمن أراد الله به الشقاوة والعياذ بالله لم يزل كذلك إلى أن يذهب نور إيمانه ويضمحل بالكلية فيموت كافراً، نسأل الله السلامة، ومن لم يرد به ذلك مات ناقص الإيمان أعاذنا الله من ذلك، قال: ونتيجة رضاهم أربعة أمور هي أضداد لهذه الأمور: تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة، ويحلو كلامه بين الناس، ويحن عليه أولياء الله تعالى، ولا يزال إيمانه يزيد شيئاً فشيئاً والله الموافق.

فانظر يا أخي هذه المفاسد الأربعة التي في عقوق الوالدين، والمحاسن الأربعة التي في بر الوالدين.

التاسع عشر: مخالطة المحجوبين كذوي الرياسات، فإن في ذات العبد المؤمن خيطاً من نور يخرج من ثقبة من ذاته يتصل ذلك النور بعطية الحق سبحانه يزيد بمخالطة أوليائه تعالى ويقل بعدمها، ويخاف عليه من الانقطاع أصلاً، وانسداد الثقبة بمخالطة أرباب

الرياسات، فإنهم برياستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته، فتكون تحت أسرهم وفي حكم قبضتهم؛ فلا يزال يصغى إليهم بقلبه وقالبه، ويبقى على ذلك المدة الطويلة ولا يقع الحق سبحانه في فكره، ولا في خاطره، فلا يزال كذلك مسترسلاً في أغراضه وانقطاعه حتى تنسد الثقبة أصلاً والعياذ بالله، وهذه آفة حاصلة من ذوي الرياسات، نسأل الله السلامة.

العشرون: التفريق بين الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

قال رضي الله عنه: ومعنى التفريق أن يحب بعضهم ويبغض بعضهم، كما هو شأن الخوارج والروافض، وإنما كان ذلك التفريق سبباً في الانقطاع عن الله عز وجل، لأن كل واحد منهم ورث خصلة من خصاله ﷺ، فبغض ذلك الخليفة يسري إلى بغض النبي ﷺ، فلذلك كان سبباً في الانقطاع.

فقلت له: فما الخصلة التي في أبي بكر رضي الله عنه.

فقال: خصلة الإيمان بالله عز وجل، فإن الإيمان بالله تعالى كان في النبي ﷺ على كيفية خاصة، لو طرحت على أهل الأرض صحابة وغيرهم لذابوا، وورث أبو بكر رضي الله عنه من تلك الكيفية شيئاً قليلاً على قدر ما تطيقه ذاته، ومع ذلك لم يكن في أمة النبي ﷺ من يطيق أبا بكر في ذلك ولا من يدانيه لا من الصحابة ولا من غيرهم من أهل الفتح الكبير، لأن النبي ﷺ بلغ في أسرار الألوهية وحقائق الربوبية ورقائق العرفان مبلغاً لا يكيف ولا يطاق، وكان يتكلم مع أبي بكر في البحور التي كان يخوضها عليه الصلاة والسلام، فارتقى أبو بكر المرتقى المذكور، ومع ذلك فكان النبي ﷺ في الثلاث سنين الأخيرة لا يتكلم معه في تلك الحقائق خيفة عليه أن يذوب.

قال رضي الله عنه: وأما الخصلة التي في عمر رضي الله عنه فهي في خصلة النصيحة للمؤمنين، والنظر إليهم وإيثارهم على نفسه، وتدبير أمر جيوشهم، وما يصلح عامتهم وخاصتهم، وهذه خصلة من خصاله ﷺ، وقد ورث عمر رضي الله منها القدر الذي تطيقه ذاته.

وأما الخصلة التي في عثمان رضي الله عنه، فهي خصلة الرأفة والحنانة وصلة الرحم، وهذه واحدة من خصاله ﷺ، وقد ورث منها عثمان ما يطيقه.

وأما الخصلة التي في علي رضي الله عنه، فهي خصلة الشجاعة، وهي إحدى خصاله ﷺ وقد ورث منها علي رضي الله عنه ما يطيقه.

قال رضي الله عنه: وكذا سائر الصحابة رضي الله عنهم كل واحد منهم ورث شيئاً من النبي ﷺ، فبغض صحابي أيّ صحابي كان يوجب الانقطاع عن الله عز وجل.

ثم تفرقنا فلم نسمع منه تمام العدد السابق حتى مات رضي الله عنه والله يفتح علينا فيه ببركته رضي الله عنه.

وسمعته رضي الله عنه يعد الأمور التي تزيد في الإيمان.

فقال رضي الله عنه: منها زيارة القبور. ومنها الصدقة لله تعالى خالصة. ومنها التحرز عن الأيمان الحانثة، ومنها غض البصر عن العورات والنظر إليها. ومنها التغافل على معاصي الناس، لأن من ينظر من معاصي الناس ويتتبعها قد يبتليه الله تعالى الوسواس بأن ينعم الله تعالى على العاصي ويديم عليه النعمة ويجزل له العطية، فيقول الناظر إلى معصيته، كان هذا إنما أدرك هذه النعمة بمعصيته فيوسوس له الشيطان في المعصية حتى يقع فيها، أو يوسوس له على وجه آخر، ويقول انظر كيف أنعم عليه ربه وهو يعصيه وحرمك أنت وأنت تطيعه، ما هذا مقتضى الحكمة، إلى غير ذلك من الوساوس الباطلة أعاذنا الله منها. ومنها تعظيم العلماء الذين هم حملة الشريعة رضي الله عنهم، فتعظيمهم يزيد في الإيمان جعلنا الله من الذين يعرفون قدرهم.

قال رضي الله عنه: ولو علم العامة قدر العلماء عند الله عز وجل، ما تركوهم يمشون على الأرض، ولتناوب أهل كل حومة العالم الذي فيهم وحملوه على أعناقهم، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما حرم الله اللواط لأنه يسقط مع نطفة الرجل عدد من الملائكة فإذا وقعت النطفة في الدبر الذي هو ليس محلاً للحراثة ماتوا جميعاً، ومرة قال: إنهم بمنزلة فرخ الحمام، إذا سقط على صخرة من عش عال أترى يبقى فيه شيء؟

قال: وأما إذا وقعت النطفة في الفرج الذي هو محل الحراثة فإنه يبقى مع تلك النطفة العددان من الملائكة عدد ملائكة نطفة الأب وعدد ملائكة نطفة الأم، ومجموع ذلك ثلثمائة وستة وستون ملكاً أنصافاً بينهما، إلا أن الرجل يزيد بعشرة، لأن ملائكته أكثر لسر في أصالة آدم لحواء.

قال: فإذا قضى الله تعالى بالتكوين، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة ثم ما بقي من الأطوار، وكذا عدد الملائكة ينمو كل واحد منهم كما تنمو النطفة، فإذا خرج الولد إلى الدنيا خرج معه أولئك الملائكة، وهم حفظة ذاته وكبيرهم الحافظ الذي على اليمين، فكما أن الولد نشأ بين الأب والأم، كذلك أولئك الملائكة نشأوا بين ملائكة ذات الأب وهم ثلثمائة وستة وستون وبين ملائكة ذات الأم.

قال: وأما إذا قضى الله تعالى أن لا يكون ولد من تلك النطفة، فإن عدد الملائكة ينزلون معها إلى الرحم ويموتون ولا ضرر على العبد في ذلك، لأنه لا كسب له في ذلك قال: وما شبهتهم حينئذ إلا بقطرات الزيت النازلة من فتيلة القنديل إذا كان مملوءاً بالزيت أكثر من القدر المعتاد فتنزل مضيئة ولا تبلغ إلى الأرض حتى تنطفىء.

قال رضي الله عنه: ولهذا لا يجوز التسبب في إخراج المني من الرحم، لأنا لا ندري هل أراد الله أن يكون من النطفة ولد أم لا؟ فنسعى في إهلاك عدد كثير من الملائكة.

وأما المفسدة التي حرم الزنا لأجلها فليست هي من جهة الملائكة، وإنما هي من جهة قطع النسب، وذلك أن الناس يوم القيامة لهم نفع عظيم بالأنساب، ولا تقبل هناك دعوى نسب إلا بشهادة، ولذلك أمر النبي ﷺ بالإشهاد في النكاح وإعلانه والجهر به، والزاني لا يفعل ذلك إلا خفية لأنه لو جهر به لأقيم عليه الحد، فهو ساع في قطع النسب واختلاطه، فهذا ما سبقت إليه الإشارة في مفسدة اللواط عصمنا الله منه.

وسمعته رضي الله عنه يقول: أتدري من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ فقلت له قل يا سيدي، فقال: هو رجل أعطاه الله ذاتاً كاملة. وعقلاً كاملاً وصحة كاملة، ومهد له في العيش وأسباب الرزق، ثم يبقى هذا الرجل اليوم واليومين والأكثر ولا يخطر بباله ربه سبحانه، وإذا أمكنته المعصية أقبل عليها بذاته الكاملة وعقله الكامل، واستلذ بها واستحسنها من غير فكر يشوش عليه من ناحية ربه تعالى، فتجده متصلاً بالمعصية غاية الاتصال، منقطعاً عن ربه تعالى كل الانقطاع، يميل بكليته للمعصية ويستحليها غاية الاستحلاء، فيكون جزاء هذا يوم القيامة أن ينقطع إلى العذاب بجميع شراشره، ويتشوف إليه بالكلية، ويقع فيه المرة الواحد ويستحليه استحلاء المجروب للحك، وعلى قدر ما حك يكون وباله.

قال رضي الله عنه: ولا سيما في حال المعصية شأنها عظيم وأمرها جسيم، فينبغي للمؤمن إذا عصى أن يعلم أن له رباً قادراً عليه فيحصل الخوف والوجل منه تعالى فتنكسر بذلك سورة العذاب إن لم يقع السماح بالكلية، والله الموفق.

فهذا ما سبقت الإشارة إليه سابقاً في شأن الإقدام على المعصية مع معرفتها.

وسمعته رضي الله عنه يحكي في استحضار الخالق سبحانه حال المعصية حكاية عجيبة عن سيدي عمر بن محمد الهواري، قال سيدي عمر: جاء رجل مسرف على نفسه مرتكب للمعاصي إلى شيخي وأنا حاضر، فقال له: يا سيدي أنا مرتكب للمعاصي مصر عليها لا أقدر على تركها فكيف الحيلة في الخلاص؟ فقال له الشيخ: ويحك أتعصي ربك، أترك المعاصي ولا تعد إليها، فقال لا أقدر، فقال الشيخ ويحك تب إلى ربك، فقال لا أقدر، فتغافل عنه الشيخ وأقام عنده يوماً أو يومين، فلما أراد وداعه، قال: يا سيدي كيف الخلاص؟ فقال له الشيخ: إذا أردت أن تعصي ربك فاستحضر ثلاثة أمور وافعل ما شئت: استحضر المعصية وقبحها وما توصل إليه من غضب الرب، واستحضر ذاتك ونفسك وخساستك وإعراضك عن ربك، واستحضر ربك وسطوته وقهره وقدرته عليك متى أرادك، ثم عفوه عنك وما أسبله عليك من جميل ستره، فإذا استحضرت هذه الأمور كما ينبغي

فافعل ما بدا لك، قال فذهب الرجل ثم بعد مدة لقيته فسلم علي وقال: أو ما تعرفني؟ فقلت له من أنت؟ فقال أنا صاحب المعاصي، وقد أخذ الله بيدي ببركة كلام الشيخ، وذلك أني أردت المعصية فاستحضرت الأمور التي أوصاني بها، فما قدرت عليها فكانت ذلك سبب توبتي، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: عندي أن الكبيرة ما فعلت حالة انقطاع القلب عن الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر باطناً، وإن تعلق العبد بذلك ظاهراً فإنه لا ينفعه.

وإنما كانت المعصية في هذه الحالة كبيرة، لأنه في حالة الانقطاع يكون العبد واقعاً في المعصية بقلبه وقالبه وبحبه ولبه وبيديه ورجليه وبكل ذاته، فلا يزجره من قلبه زاجر ولا يذكره من ربه ذاكر.

والصغيرة ما فعلت حال تعلق القلب بالرب سبحانه وبالأمور الموصلة إليه من رسله وملائكته وكتبه، فإن العبد إذا وقع في المعصية حينئذ يقع فيها على غير نية مع شائبة بغض فيها لأجل المزاجر التي في قلبه، فهو في حالة مواقعتها في حياء من ربه تعالى.

فقلت: يشكل على هذا التفريق عدّه ﷺ الكبائر في الحديث مع إطلاقها ولم يقيدها بحالة الانقطاع عن الله عز وجل، فقال ﷺ في حديث الصحيحين:

«الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ» زاد البخاري **«وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»** وزاد مسلم بدلها **«وَقَوْلُ الزُّورِ»** وفي حديثهما أيضاً **«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ: الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ»**.

فقال رضي الله عنه: هذه المعاصي لا تصدر من العبد إلا إذا كان مقطوعاً عن ربه عز وجل، فإن كان القلب متعلقاً بالرب سبحانه لا يشرك ولا يتعاطى سحراً ولا شيئاً مما هو مذكور في هذين الحديثين.

ثم قال رضي الله عنه: ألا ترى إلى فلان فإنه سيكون من أولياء الله تعالى وهو الآن محجوب من جملة المحجوبين، وقلبه متعلق بربه تعالى، فما باله لا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذه المعاصي ويخاف منها خوفه من النار، وإلى فلان فإنه ليس من المفتوح عليهم، وقلبه منقطع عن الله عز وجل، ومجرد ذكر اللسان لا ينفع وانظر إلى ما يرتكبه من القبائح، نسأل الله السلامة بمنه وكرمه.

قال: فمعاصي أهل القطيعة لا تخفى ومعاصي أهل الوصلة لا تخفى.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما أسباب المعاش من حراثة وتجارة وغيرهما بمنزلة الكشاكيل التي في أيدي السعاة؛ فإنه قد جرت عادة الرب سبحانه أنه لا ينزل الرزق على

العبد إنزالاً بأن يعطيه الرزق في يده من غير حيلة، بل لا يعطيه إياه حتى يسأله بكشكول من كشاكيل أسبابه، فإذا مد له الكشكول وضع له فيه ما يليق به ويصلحه، ويحنئذ فيجب على المستبب أن ينزل سببه بهذه المنزلة فيكون نظره عند السبب إلى ربه عز وجل، لا إلى السبب، كما أن الساعي المتكفف إنما ينظر إلى الناس الذين يعطونه ولا ينظر إلى كشكوله الذي في يده، وإذا كان نظره عند السبب إلى ربه عز وجل كان متعلقاً حالة سببه بربه عز وجل، فيكون سببه وصلة بينه وبين ربه تعالى، فلا يعتمد على سببه بل على ربه، وإذا كان اعتماده على ربه فلا يتعاطى إلا سبباً أذن له ربه فيه، وحينئذ فلا فرق عنده بين أن يكثر من الأسباب أو يقلل، فإن المعطي سبحانه واحد وهو قادر على أن يعطيه في سبب واحد ما يعطيه لغيره في أسباب عديدة، فليتق الله وليجمل في الطلب، فهذه صفة أسباب المتعلقين بالله عز وجل.

وأما غيرهم فيقتلون أنفسهم حالة السبب بالخدمة ولا يرون سبباً من الأسباب إلا تعاطوه سواء كان مأذوناً فيه أو غير مأذون فيه، ويعتقدون أن الرزق يكون على حسب حيلهم وسياستهم الفاسدة، فهؤلاء هم الذين يستحلون التدبير في أمور الدنيا والتعب فيها وركوب المشاق العظيمة في طلبها على طاعة الله عز وجل وعبادته لكمال انقطاعهم عنه سبحانه.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول في هذا المعنى: إنما مثل الناس كمثل قوم ربطت في أوساطهم حبال، ثم دلوا من شواهق جبال عالية، حتى كانوا بين الأرض والسماء، فتركوا معلقين في الهواء وطال ذلك من أمرهم، فأما العقلاء منهم فإنه لا يقر لهم قرار ولا تسكن أنفسهم إلى غير من الأغيار، بل نظرهم مقسوم، فمرة ينظرون إلى الموضع التي تسقط فيه أرجلهم، وهل هو قريب أو بعيد؟ وهل المكان رخو أو صلب وكيف تكون حالتهم إذا سقطوا على ذلك المكان؟ وهذه أنظار تذيب الأكباد وتفتت الفؤاد، ومرة ينظرون إلى الذي في يده الحبل المعلقون فيه، هل أراد أن يطلقه من يده أم الوقت باق؟ وهل بينهم وبينه مودة ورحمة فيحن عليهم إذا أطلقهم وينزلهم إلى المكان الذي يسقطون إليه برفق أو لا مودة ولا رحمة بينه وبينهم، فلا يبالي كيف رماهم وحينئذ فيسعون في طلب مرضاته ولا يمكنهم ذلك بحيلة من الحيل إذ لا يمكنهم عمل من الأعمال، اللهم إلا أن يكون بخشوع القلب وخضوع اللسان، ونظر العين إليهم نظر الخائف منه المستعطف له، ثم هو مختار إن شاء رحم وإن شاء عذب، فتحترق قلوبهم من خوفه وعذابه.

وأما غير العقلاء من أولئك المعلقين، فإنهم لا ينظرون إلى المكان الذي يسقطون إليه ولا ينظرون إلى الذي بيده الحبل، بل يغلب النسيان ويظنون أن الموضع الذي هم فيه حينئذ موضع قامة فيشتغلون بأسباب الإقامة، فيبنون فيه الدور والقصور ويتعاطون الحراسة والتجارة وهم في ذلك الهواء ولا شعور لهم بأمر الحبل، فإذا قطع بهم وجدوا أنفسهم قد

فرطوا في المكان الذي يسقطون إليه حيث لم يشتغلوا بالنظر إليه، ولا تعاطوا أسباب صلاحه ولو بالدعاء والتضرع، ولا تأهبوا للوقوع فيه، وفي الذي في يده الحبل فإنهم ما عرفوه فضلاً عن أن يتضرعوا له ويطلبوا منه النجاة والسلامة.

قال رضي الله عنه: فهذه حالة الغافل عن الله وعن الآخرة والذاكر لهما، فالحبل هو العمر وانقطاعه بالموت والمكان، والذي يسقط فيه إما جنة وإما نار، والذي في يده الحبل هو الله سبحانه، فالعارفون به في خوف دائم من هذين الأمرين فأثابهم الحق سبحانه بالراحة يوم اللقاء، وأما الغافلون فعلى العكس من ذلك، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما أرسل الله للعباد رسله وأمرهم بالطاعة لخصلة واحدة، وهي أن يعرفوه فيوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فمتى حصل هذا المقصود من العبد كان عند الله محبوباً عزيزاً، وسيأتي في كلامه رضي الله عنه أن الطاعة إنما هي فتح باب يدخل منه نور الحق على الذوات، وأن النهي عن المعاصي إنما هو عبارة عن سد أبواب يدخل منها ظلام الباطل على ذات العاصي، فمن كان مرتكباً للطاعات مجتنباً للمخالفات فقد فتح على ذاته أبواب نور الحق وسد عنه أبواب ظلام الباطل، ومن ترك الطاعات وارتكب المخالفات فقد فتح على نفسه أبواب ظلام الباطل وسد عنها أبواب نور الحق، ومن أطاع وعصى وفعلهما معاً فقد فتح على نفسه البابين معاً، فلينظر العبد في أي مقام هو وأي باب فتحه على نفسه قبل أن يندم حيث لا ينفعه الندم ولكن أكثر الناس يظنون أن القيام بالطاعات ظاهراً يكفي في فتح أبواب الحق، كما أن فعل المخالفات في الظاهر يكفي في فتح أبواب الشر، وليس كذلك بل لابد في ذلك أن يوافق الظاهر الباطن، فالناس حينئذ على أربعة أقسام:

قسم ظاهره وباطنه مع الله فظاهره مع الله بامتثال أوامره، وباطنه مع الله بزوال الغفلة حال فعل الطاعة وحصول المراقبة والمشاهدة فهذا هو المحبوب عند الله عز وجل.

وقسم والعياذ بالله ظاهره وباطنه مع غير الله سبحانه فظاهره في المخالفات وباطنه مغمور بالغفلات، فهذا هو المذموم.

وقسم ظاهره مع الله وباطنه مع غير الله فظاهره في الطاعات وباطنه غافل، وعلة هذا حيث لم ترده عبادته إلى ربه إنها أي عبادته صارت عادة له من جملة العادات، فاستأنست ذاته بها فصار يفعلها بحكم وازع الطبع لا بحكم وازع الشرع، وقد ينضاف إلى هذه العلة علة أخرى وهي أن يكون عند الناس معروفاً بالعبادة والزهد وحسن السيرة فيخاف من تقصيره في عبادته أن يسقط من أعين الناس، فتراه يعبد ليله ونهاره حرصاً على أن تزيد درجته عند الناس، فهذا هو الذي لم تزده عبادته إلا بعداً من الله سبحانه، وقد يجمع الله سبحانه بعض أهل هذا القسم مع واحد من أكابر أوليائه من أهل القسم الأول فيرى الولي

علته فيريد أن يعالجه فيأمره بترك بعض ما هو عليه من ظاهر العبادة فيأبى عليه ذلك لاستحكام العلة فيهلك مع الهالكين.

قلت: كما وقع لصاحب أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه، وذلك أنه أمر بعض من كان معه ـ والله تعالى أعلم ـ على هذه الحالة بترك صيام نفل فأبى عليه، فقال له أصحابه وإخوانه في الله: ويلك أتعصي قدوتك؟ فقال لهم أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله عز وجل.

وقسم ظاهره مع غير الله وباطنه مع الله سبحانه، فظاهره في المخالفات وباطنه في مراقبة الحق سبحانه، فتراه يعصي وربه بين عينيه لا يغيب عن فكره فتكبر عليه معصيته ويراها واقعة عليه كالجبل، فهو حزين كئيب دائماً، وهذا أفضل عند الله بدرجات من القسم الذي فوقه، لأن مقصود الله من عباده هو الانكسار والوقوف بين يديه تعالى بالذلة والخضوع حصل لهذا دون الذي فوقه.

قلت: وقد سبق له رضي الله عنه المثال الذي ضربه لعباده المنافقين الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، فراجعه في شرح حديث الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» لتعلم به خساسة أهل القسم الثالث والله الموفق بمنه وفضله.

وسمعته رضي الله عنه يقول: وقد سئل عن اضطراب الذات في بعض الأحيان وصياحها، وذكر السائل أنه إذا اشتغل بالذكر والعبادة يحصل له ذلك وخاف أن يكون من الشيطان لعنه الله، وذكر أنه إذا أقبل على الدنيا واشتغل بها انقطع عنه ذلك.

فقال رضي الله عنه: إن الروح قد تنفض بالنور الذي فيها على الذات فيحصل للذات ذلك الاضطراب، فتارة تمدها به في حالة الطاعة وتارة تمدها به في حالة المعصية، فبينما الشخص في معصية ربه عاكف على شهوته إذ نفضت الروح على الذات بذلك النور فيحصل للذات خشوع ورجوع إلى الله تعالى، قال: فلا ينبغي للشخص إذا حصل له ذلك في حالة الطاعة إن ينسبه إلى طاعته وعبادته فيدخله العجب فيقول لو كان من ذلك الطاعة لما حصل في حالة غيرها.

قال: وهذا النور الحاصل للذات من الروح هو للذات بمنزلة الزمام، فإذا رآها عدلت عن الطريق وخاف عليها من الزيغ ظهر عليها أي على الذات ليقودها إلى الطريق، ولا يكون إلا فيمن أراد الله به خيراً إذا هو سبب من أسباب الهداية، وقد يكون في ذات أخرى لم يرد الله بها خيراً ظلاماً يصدها عن الطريق ويمنعها من إجابة الرسول ﷺ قال فلكل ذات ضوء لا تمشي إلا في ضوئها، فإذا كان ضوؤها يهديها إلى الطريق فهي موفقة وإن كان ضوؤها يزيغ بها وهو الذي نسميه ظلاماً، فهي مخذولة.

ثم قال رضي الله عنه: وفي الروح ثلثمائة وستة وستون سراً، فمن تلك الأسرار سر

لو أمدت الروح به الذات لبكت دائماً، ومنها سر لو أمدتها به لضحكت دائماً، ومنها سر لو أمدتها به لصاحت دائماً، ولكنها لا تمدها إلا بما سبق به القدر.

وكنت معه رضي الله عنه ذات يوم بموضع، فجلس معنا رجل، وبينما الشيخ رضي الله عنه يتكلم، إذا جعل الرجل يصيح صياحاً منكراً، وطال ذلك من أمره فقال لي الشيخ رضي الله عنه بعد ذلك، هو شيء كبير، لولا أن الشياطين تلعب به ويفسدون عليه صلاته.

فقلت: يا سيدي وكيف؟

فقال رضي الله عنه: إن وجهة القلوب إلى الله تعالى هو صلاتها، كما أن ركوع الذات وسجودها هو صلاتها، وإنما شرعت الصلاة وسائر الطاعات لتحصل هذه الوجهة، فهي نتيجة العبادات وفائدتها التي هي سبب ربح العبد ورحمته؛ فإذا رأت الشياطين شخصاً أراد أن تحصل له هذه الوجهة من ذكر أو سماع كلام رقيق أو نحو ذلك، نفذوا على قلبه فأفسدوا عليه وجهته حسداً لبني آدم وبغضاً فيهم، فتحصل لهذا الصائح مفاسد منها فساد الوجهة التي هي سبب ربحه، ومنها أن يظن أنه على شيء، ومنها ما يخشى عليه من الانقطاع لأنه بذلك الصياح يظن أنه على شيء، وكذلك الناس يظنون أنه على شيء، فيشيرون إليه وويل لمن أشارت إليه الأصابع.

قلت: ومما يؤيد هذه الحكاية التي ذكرها الشيخ زروق رضي الله عنه، وملخصها أن قوماً من الفقراء كانت عندهم بفاس مبيتة فكلموا شخصاً صادقاً في الذهاب معهم وكان أعمى فذهب معهم إلى الموضع، فبينما هم يذكرون إذ قال الشيخ الأعمى رضي الله عنه يا قوم: قد دخل عليكم الشيطان في صورة عنز بقرونها ثم قال: فمن هو صاحب الغفارة الحمراء منكم، فإني رأيت الشيطان يشمه شماً عنيفاً، ثم صاح الأعمى، وقال: إنه نطحه بقرونه حتى غاصت فيه، فلم يفرغ من كلامه حتى صاح صاحب الغفارة وخرج عن حسه، ثم قال الأعمى: ومن هو صاحب اللباس الفلاني فيكم؟ فإني رأيت الشيطان قد انتقل إليه يشمه؛ ثم صاح، لقد نطحه والله بقرنه نطحة منكرة، فصاح المشموم وغاب عن حسه، أنظر تمام الحكاية فافتضحوا بحضور ذلك الصادق معهم، وكانوا قبله يحسبون أنهم على شيء، فكانوا على جهل مركب.

وقد اتفق أنه صاح بعض الناس بحضرة شيخ عارف، فقال له الشيخ: إني تبعت صيحتك حتى دخلت إلى قبر بمقبرة كذا فقال الصائح: ولم يكن من أصحاب ذلك الشيخ: صدقت يا سيدي لما مررت بكم فوجدتكم تذكرون محبوبكم ذكرت أنا محبوبتي، وكانت ابنة عم لي ماتت، وذلك هو قبرها، فلما تذكرتها صحت من ألم فراقها والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: الدخان المعروف بطابة، حرام لأنه يضر بالبدن ولأن

لأهله ولاعة به تشغلهم عن عبادة الله وتقطعهم عنه، ولأنا إذا شككنا في شيء أحرام هو أم حلال ولم نجد فيه نصاً عن النبي ﷺ نظرنا إلى أهل الديوان من أولياء الله تعالى، وهم أهل الدائرة والعدد، فإن وجدناهم يتعاطون ذلك الشيء علمنا أنه حلال، وإن وجدناهم لا يتعاطونه ويتحامون عنه علمنا أنه حرام، وإن كان بعضهم يتعاطاه وبعضهم لا يتعاطاه نظرنا إلى الأكثر فإن الحق معه، وأهل الديوان لا يتعاطون هذا الدخان، ولأن الملائكة تتأذى بريحه.

ثم حكى لنا حكاية عن مدينة متعفنة لاجتماع فضلات بني آدم فيها، وزبل الدواب مع قلة المياه لذلك وأطال في وصف المدينة وكيفية شكلها وأين هي والغرض حاصل بهذا الذي قلناه، فلذا لم نكتب كيفية وصفه لها، قال فتجتمع فيها روائح كريهة فوق ما يظن، قال: فدخلها ذات يوم ثمانية من أولياء الله تعالى من أهل التصرف، فلما توسطوها خرجوا منها مسرعين، وسبب إسراعهم أن ملائكة ذواتهم نفرت من تلك الروائح الكريهة فنفر الأولياء لذلك لأنه لا يعلم خطر نفور الملائكة عن الذات إلا من له بصيرة؛ وما مثاله إلا كمن جيء به إلى موضع العدو وبلاد اللصوص ثم عزل عن سلاحه فبأي شيء يلقي العدو حينئذ.

فقلت: فالثوم والبصل ونحوهما لها رائحة كريهة وأكلهما ليس بحرام.

فقال رضي الله عنه: إذا اجتمع حق الآدمي وحق الملك قدم الآدمي لأن كل شيء إنما خلق من أجل بني آدم، فما فيه منفعة لنبي آدم لا يحرم، وإن كان فيه مضرة للملك وفي الثوم والبصل منافع لا تخفى بخلاف الدخان فإنه لا منفعة فيه نعم يحدث بسبب شربه ضرر في الذات ويصير الدخان بعد ذلك قامعاً له فهو بمنزلة من قطع ورقع ولو لم يشربه صاحبه لم يحصل فيه قطع حتى يحتاج إلى ترقيع فيظن أربابه أن فيه نفعاً وليس فيه إلا هذا.

قلت: وكذا سمعت بعض من ابتلى به يقول: إنه سمعه من طبيب ماهر نصراني.

وما ذكره رضي الله عنه في خطر نفور الملائكة عن الذات به أجابني مرة أخرى حين سألته، لما اختلف علينا كلام الشيخ الحطاب وكلام الشيخ المواق رحمهما الله تعالى في دخول الحمام مع مكشوفين لا يستترون فقال الشيخ الحطاب: يحرم الدخول، ويجب عليه التيمم إن خاف من الماء البارد، وقال الشيخ المواق: يدخل ويستتر ويغض عينيه ولا حرج عليه.

فقال رضي الله عنه: الصواب مع الشيخ الحطاب، وأما ما ذكره الشيخ المواق ففيه آفة بعد فرض المستتر متحرراً إلى الغاية وفاراً من النظر في عورة غيره إلى النهاية، وهي أي الآفة أن المعاصي ومخالفة أوامر الله تعالى لا تكون إلا مع الظلام الذي بينه وبين ظلام جهنم خيوط واتصالات يحصل له الشقاء من جهنم بسببها، ولا أحداً عرف بذلك من

ملائكة الله تعالى، فإذا اجتمع قوم تحت سقف الحمام مثلاً على معصية وظهرت المعصية من جميعهم عم الظلام ذلك الموضع فتنفر الملائكة عنهم، وإذا نفرت الملائكة جاء الشيطان وجنوده فعمروا الموضع فتصير أنوار إيمانهم أي العصاة حينئذ كالمصابيح التي جاءتها الرياح العاصفة من كل مكان، فترى نورها مرة يذهب إلى هذه الجهة ومرة إلى هذه الجهة ومرة ينعكس إلى أسفل حتى تقول إنه انطفأ واضمحل، ولهذا كانت المعاصي بريد الكفر والعياذ بالله تعالى، فإذا كان الحمام وأهله على هذه الحالة التي وصفنا وفرضنا رجلاً خيراً ديناً فاضلاً متحرزاً جاء ودخله واستتر فإنه يقع لنور إيمانه اضطراب بالظلام الذي وجده في الحمام، لأن ذلك الظلام ضد الإيمان فتضطرب ملائكته لذلك أيضاً فتطمع فيه الشياطين وتصل إليه وتشتهي إليه النظر في العورة وتغويه فلا يزال معهم في قتال وهم يقوون عليه وهو يضعف بين أيديهم حتى يستحسن الشهوة ويستلذ النظر للعورة نسأل الله السلامة.

قال: ولو فرضنا جماعة يشربون الخمر ويستلذون به ويظهرون المعاصي التي تكون معه ويفحشون فيها، ولا يتحرزون من أحد، ولا يخشونه، ثم فرضنا رجلاً جاءهم وفي يده دلائل الخيرات وجلس بينهم وجعل يقرؤها، وأطال معهم الجلوس وجلس معهم اليوم إلى آخره وهو على قراءته وهم على معاصيهم، فإنه لا يذهب عليه الليل والنهار حتى ينقلب إليهم، ويرجع من جملتهم للعلة التي ذكرناها، ولهذا نهي عن الاجتماع مع أهل الفسوق والعصيان لأن الدم والشهوة والغفلة فينا وفيهم، إلا من رحمه الله وقليل ما هم والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه، يصف جهنم أعاذنا الله منها، فذكر فيها ما لا يطاق من الوصف، حتى قال بعض إخواننا الحاضرين يا سيدي: لو علم الناس جهنم لشغلتهم عن الأكل والشرب فضلاً عن غيرهما.

فقال رضي الله عنه: المؤمنون بالله وبرسوله كلهم عارفون بجهنم، فإن الواحد منهم إذا جرى على لسانه ذكر جهنم كان ذلك الذكر جارياً على قلبه كما جرى على لسانه وإذا سمعها تذكر وكان ذلك السماع جارياً على قلبه كما جرى على أذنه فقد استوى الظاهر والباطن في الإيمان بها، وحضرت في الباطن كحضورها في الظاهر، وإنما الشأن في استدامة ذلك الحضور، فمن استدامه فقد رحمه الله وزالت غفلته وقلت مخالفته، ومن لم يستدمه كان على العكس من ذلك.

فقلت له: وما السبب في عدم استدامة ذلك الحضور، فقال: الدم الذي في الذات وبخاره هو السبب في ذلك، وذلك أن العبد إذا ذكر جهنم أو سمع بذكرها فإن ذلك كما سبق ينزل على قلبه وحينئذ يذهب الدم وبخاره.

قلت: ولذا يصفر وجه الخائف وإذا هرب الدم تعطل حكمه الذي هو الغفلة، فإذا انقطع ذلك الذكر الذي هو سبب هروب الدم رجع الدم إلى مجاريه، واستولت الغفلة على الذات، فإذا رجع العبد إلى الذكر رجع الدم إلى القرار فزالت الغفلة، فإن سها العبد عن الذكر رجع الدم إلى مكانه واستولت الغفلة على العبد حتى يرجع العبد إلى الذكر فتزول حتى يسهو عنه فترجع، وهكذا على الدوام إلا من رحمه الله.

ثم الناس مختلفون في مقدار الأمد الذي بين الرجوع إلى الذكر وبين السهو عنه، فمنهم من يرجع بعد ساعة، ومنهم من يرجع بعد ساعتين، ومنهم من يرجع بعد يوم ومنهم من يرجع بعد يومين.

فانظر يا أخي، من أي قسم تكون.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيهِ أُنِيبُ﴾.

فقلت: ولم كانت الذات إذا سمعت الذكر تزول عنها الغفلة ويهرب منها الدم، وإذا لم تسمعه كانت بعكس ذلك.

فقال: لأنها بسماع الذكر تحصل لها اليقظة والإفاقة فتكون بمنزلة من رجع إليه عقله فتجري أفعاله على السداد، فإذا زال السماع عنها رجعت إلى منامها الذي هو الغفلة ومثالها حينئذ كنائم وقع في النوم وقوع استطابة واستحلاء، فإذا كلم ونودي أجاب من كلمه على كره واستثقال وبمجرد انقطاع النداء يرجع إلى منامه لأنه هو الغالب عليه السابق على هذا النداء إلى ذاته، فكذلك الغفلة هي السابقة للذات الغالبة عليها والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن الكشف والنظر فيه وسبب العيب الحاصل منه.

فقال رضي الله عنه: الكشف والحظ وغيرهما مما هو في معناهما، سبب الجميع انقطاع القلب عن الله عز وجل، وخراب الباطن من سلطانه تعالى، وذلك أن العبد إذا أحضر ربه في قلبه وعلم أنه تعالى هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مدبر غيره ولا شريك له في ملكه جل وعلا وأنه تعالى لطيف بعباده، يعطيهم أكثر مما يتمنون، ويرحمهم فوق ما يظنون، فعند ذلك يرضى العبد بربه وكيلاً ويتخذه في جميع أموره دليلاً وينحاش إليه بالكلية، وينقطع إليه بالطوية، ويضع مقاليده وجميع أزمته في يديه، ولا يعول في جميع أموره إلا عليه، وعند ذلك يشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الخيرات التي يفعلها به سيده ومالكه، هذا شأن من قلبه معمور بالله عز وجل.

وأما من خلا قلبه من ربه سبحانه، واستولت الغفلة عليه، وصار لا يشاهد إلا ذاته ولا يرى الأفعال صادرة إلا عن نفسه، فهذا هو الذي يتعاطى ما سبق ويريد أن يطلع على

الغيب ليستكثر من الخير في نظره المكسوف ورأيه المكشوف، وعند ذلك يكله ربه تعالى إلى نفسه، ويجعل تدميره في تدبيره ويبتليه بالرزايا والبلايا وخيبة الرجاء وفوات المقصود، كما هو المشاهد في أرباب هذا الفن نسأل الله السلامة بمنه وفضله.

وذلك قليل في حق من أعرض عن سيده ولم يرض بما خرج له في القسمة.

قال وقد وقع لبعض رهبان النصارى ما يستغرب، وذلك أنه كان كبيرهم ومقدمهم على الكنيسة؛ فكان إذا أراد الخروج من الكنيسة لا يعرض عن الصليب ويعطيه بالظهر حتى يخرج من الكنيسة، إلى أن كان في بعض الأحيان، فسافر ولده في وقت هيجان البحر وكثرة زلازله فدخله من الخوف على ولده ما لا يكيف، فصار يترقب أخباره ويستشرف إليها حتى جاءه الخبر بقدومه سالماً فغلبه الفرح حتى ترك العادة في خروجه من الكنيسة، فاستدبر الصليب وخرج، فلما سلم على ولده تذكر ما فعل مع الصليب، فرجع من فوره، وقال للرهبان أضربوني ألف سوط، فقالوا: لم؟ فقال لأني استدبرت الصليب في هذا اليوم، فاستعظموا ذلك الاستدبار فجعلوا يضربونه حتى أكملوا العدة، ولا غابت عليه محنة، فكان الناس عند ذلك يظنون أنه لأجل البلاء الذي حصل له من الضرب تتبدل نيته في الصليب ويرجع عن دينه فلم يشعروا به حتى أخذ الشفرة وقطع رجليه من الكعبين وقال: هذا جزاء من يعرض عن سيده.

قال رضي الله عنه: فإذا كان هذا يصدر من قوم على الضلال والباطل، فكيف ينبغي أن يكون حال من هو على الحق ويعبد الحق سبحانه، قال ولكنه تبارك وتعالى لما سبق منه في سابق علمه وإرادته أنه خلق أقواماً وجعلهم أهل رحمته، وخلق آخرين وجعلهم أهل نقمته، جعل حركاتهم وسعيهم على وفق السابقة.

فأما أهل الرحمة فعلق قلوبهم به وصرف همتهم إليه سبحانه، فصارت حركاتهم وسكناتهم تابعة لذلك، فصلاتهم له وصيامهم له وقيامهم له وقعودهم له، وسهرهم له ومحبتهم له، ولم يزل تعالى يحركهم فيما يحبه إلى أن وصلوا إليه وظفروا برحمته فحصلوا على ما سبق لهم من قسمة الرحمة.

وأما أهل نقمته. فعلق قلوبهم بغيره وصرف هممهم إلى ما هو أو هي من خيط العنكبوت كالأمور المتقدمة فصارت حركاتهم وسكناتهم تابعة لذلك فقيامهم لغيره تعالى لئلا يتعلقوا به سبحانه، وقعودهم كذلك وسهرهم كذلك وجميع مسعاهم لغيره تعالى حتى ينفذ الوعيد السابق ويظفروا بما سبق لهم من قسمة العذاب.

وحكى لنا عن بعض الصالحين، أنه قال: جلست إلى جنب رجلين طعنا في السن، وبلغا نحو السبعين سنة من الصبح إلى الزوال، وهما يتحدثان في أمور الدنيا ولم يجر على لسانهما ذكر الله تعالى ولا النبي ﷺ، قال: ثم قمت فجددت الوضوء، ثم جلست إلى

جنب صبيين صاماً أو قربا من الصوم، فجعلا يتحدثان في وحدانية الله تعالى وماله من الصفات، فسمعت منهما ما لا يطاق فتعجبت من حالهما ومن حال الشيخين الكبيرين.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

وحكى رضي الله تعالى عنه لنا في تأييد أنه تعالى إذا علق قلب عبد بغيره تعالى، فإنه يملى له من حيث لا يحتسب ويمده بما هو فتنة له حتى يظهر عليه أخبار بغيب أو نحوه، حكاية تمتلىء القلوب منها رعباً.

وهي أن ولياً سلبه الله وانقطع نور الحق من قلبه فكان قبل السلب تظهر عليه كرامات الأولياء، وكان بعد السلب تظهر على يده من أمور الطب ما يتعجب منه فتنة له، وليظن بعد السلب أنه على شيء فتسامع الناس به من كل مكان، ووفدوا عليه بالأموال الثقيلة، وكان جموعاً لها فبقي على ذلك مدة قريبة من ثلاثة عشر عاماً وجمع سبعين ألف دينار ومات ولم يترك وارثاً وورثه بيت المال وكان عاقبة أمره خسراً نسأل الله السلامة والعافية والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن شعور الولي بالجنابة إذا كانت على أحد ولم يغتسل منها.

فقال رضي الله عنه: الجنابة عند الأولياء شتى ويجب الغسل من أمر واحد وأسبابه عند الأولياء متعددة، وعند العلماء له سبب واحد، فالأولياء يجب عندهم الغسل في جميع تلك الأسباب، وعند العلماء لا يجب الغسل إلا من سبب واحد، فسألته عن ذلك الأمر الذي له سبب واحد عند العلماء وتعددت أسبابه عند الأولياء، فقال: هو انقطاع الذات عن الله تعالى في نظرها بأن تمد عيونها كلها عند تعالى وتمتلىء عروقها فرحاً بغيره تعالى وسروراً، ويستوعب الفكر في ذلك الغير وسائر أجزائها؛ وجواهرها بشرط أن يكون ذلك الغير قاطعاً عنه تبارك وتعالى في تلك الحالة، فإذا وقعت الذات في هذا الانقطاع الكلي نفرت الملائكة والحفظة منها واستعظموا انقطاع العبد عن ربه تعالى، فعند الصوفية كل سبب قاطع أوجب للذات هذا الانقطاع يجب الغسل منه، وعند العلماء لا يجب الغسل إلا من الجماع، أو ما في معناه قال: وسر الغسل هو تطهير الذات من ذلك الانقطاع بتنزيله أي الانقطاع منزلة النجاسة الحسية، وإذا أخذ العبد في الاغتسال أخذت الملائكة في الرجوع فسبب شعور الولي بالجنابة رؤيته للملائكة نافرة من الذات المنقطعة فيعلم بأن النفور سببه هو الانقطاع الحاصل من الجنابة.

فقلت: فالمراقب لله تعالى حالة الوقاع يقتضي هذا الكلام أنه لا يجب عليه غسل.

فقال رضي الله عنه: هذا بالنسبة لغيره نادر والنادر لا حكم له والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: يقدر الولي على أن يكلم أحداً في أذنه ولا يقوم عنه

حتى يكون هو، والولي في المعارف على حد سواء من غير فرق بينهما، يعني أن الولي الكامل يقدر على توصيل العبد إلى رحمة الله تعالى في هذه اللحظة.

قال رضي الله عنه: لكن الشأن كله في العلك الذي يلصق به هذا السر، فإنه إذا لم يكن في الذات علك رجع السر إلى أصله مثل من يلبس للهواء قميصاً وسراويل وعمامة؛ فإنها لا تثبت فيه، فأردت أن أسأله عن ذلك فلم يمكن في ذلك الوقت، فافترقنا عند قرب العشاء فنمت فرأيته في المنام فسألته عنه، فقال لي: هو موت النفس فلما التقيت معه في اليقظة أخبرته بجواب المنام فقال رضي الله عنه الجواب حق.

فقلت: ما معنى موت النفس، فقال: مرة هو أن تكون أفعال العبد كلها خالصة لله، فإذا كانت الأعمال لغير الله فذلك علامة حياة النفس، وعلامة أخرى إذا كان العبد يجد من نفسه وسواساً فهو آية على حياة النفس، وبقدر كثرة حياتها يكثر الوسواس فمن لا وسواس له فلا نفس له، ومن له وسواس فله نفس حية، ومن له نفس حية لا تكون أعماله لله تعالى، بل لنفسه يسعى ولها يدبر، فقلت: وما الترياق الذي إذا نزل عليها ماتت وذابت كما يذوب الملح في الماء، فاذكره لنا حتى نضعه عليها ونستريح منها، فقال: لا شيء إلا إذا نزل عليها الجبل الكبير.

فقلت وما الجبل الكبير؟ قال معرفة الله تعالى ومشاهدته، فإذا كان قلب العبد معموراً بها وعلم أنه من ربه تعالى بمرأى ومسمع وأنه لا يتحرك في شيء إلا إذا كان هو المحرك له تعالى وأنه هو المنعم عليه تعالى بما شاء من النعم وأن مصيره في الدار الأخرى إلى ربه فيدخله أي دار شاء، فإذا فكر في هذا علم قطعاً أنه لا يقدر على نفع لنفسه ولا لغيره في هذه الدار ولا في الدار الآخرة إلا إذا أعطاه ربه، فعند ذلك لا يتشوف إلى غيره فتموت نفسه، وفقنا الله لأسباب موتها بمنه وكرمه والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن اللعبة المعروفة بالضامة، وقد مررنا على قوم يلعبون بها فسألته عن حكم اللعب بها.

فقال رضي الله عنه: هو حرام، فقلت: ولم؟ فقال: جميع المحرمات إنما حرمت لسبب واحد، وهو ما فيها من الانقطاع عن الله تعالى، فكل قاطع للعبد عن الله تعالى ولا غرض فيه للشارع فإن الله يحرمه، قال: وهذه اللعبة لا منفعة فيها إلا الشغل عن الله تعالى، فإن أربابها تراهم حين تعاطيها منقطعين إليها بالقلب والقالب حتى تنسد جميع عيون ذواتهم عن الحق سبحانه في تلك الساعة، فقلت: وكذا تعلم الرمي وجري الخيل وغير ذلك من آلات الحرب فيها انقطاع عن الله تعالى وقت الشغل بها، فقال: ليست هذه بمنزلة اللعبة السابقة، فإنه لا غرض فيها للشارع، ولا تعود على العبد بمنفعة في ذاته بخلاف الرمي وجري الخيل وغيرهما من آلات الحرب، فإن تعلمها من إعداد القوة المأمور بها في قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾

فكل ما هو مقصود للشارع أو يصح أن يكون مقصوداً ليس بقاطع عن الله تعالى.

قال رضي الله عنه: ولذا اختلفوا في الشطرنج فمنهم من أباحه نظراً إلى ما فيه من تعلم كيفية الحرب وغير ذلك مما فيه ويصح أن يكون مقصوداً للشارع، ومنهم من منعه نظراً إلى أن مقصود الشارع في تعلم كيفية الحرب وغيرها لا يتوقف على تلك الطريق بالخصوص بل يحصل بطريق آخر أوضح منها وأسهل فلهذا كان الشطرنج أخف من الضامة والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه: يحكي عن بعض الصالحين، أن سبب رسوخ التوبة في ذات العبد ومد أغصانها فيها وتمكن عروقها منها وبلوغها الغاية فيها، هو محبة المؤمنين جميعاً من غير فرق، كما يبغض الكافرين جميعاً من غير فرق، قال: فإذا كانت هذه المحبة في العبد نزلت عليه التوبة من الله، ولو كرهها وأراد دفعها فإنها تنزل لا محالة.

وسبب ذلك أن العبد لا يفرق في محبته للمؤمنين حتى يحب بعضاً دون بعض، إلا لدسيسة بغض في قلبه نشأت عن حسد أو كبر، أو نحو ذلك، فتكون طويته خبيثة، والتوبة النصوح لا تنزل إلا بأرض طيبة وطوية طاهرة، فإذا أحب جميع المؤمنين فقد ارتفعت الدسائس كلها عن قلبه فتنزل التوبة عليه حينئذ.

ومرة قال: مثل هذا لا يحتاج إلى توبة وهذه المحبة العامة تكفيه في محو جميع الذنوب فإنها تذهب من القلب جميع الدسائس الموجبة للذنوب، قال: ومن أعظم تلك الدسائس الحسد وهو لا يبقى قطعاً مع هذه المحبة، وإنما قلنا إن الحسد هو أعظم الدسائس لأن جميع المعاصي والدسائس إنما تتفرع عنه وهو السبب في جميعها، فإنك لا تبغض أحداً لكونه أكثر منك مالاً وولداً ونحو ذلك إلا الحسد منك له، وكذا لا تتكبر عليه إذا كنت أكثر منه مالاً وولداً وأعز نفراً إلا لكونك تريد أن تطرده عن بلوغ منزلتك بذلك الكبر الذي تتكبر به عليه، وما ذاك إلا لكونك لا تحب تلك المنزلة له وذلك هو الحسد بنفسه وهكذا القول في رد جميع المعاصي إلى الحسد.

قلت: وقد سبق شؤم الحسد وأنه أحد أبواب الظلام وأحلنا هناك على هذا الكلام فالله تعالى يقينا شر أنفسنا وشر كل ذي شر.

ثم قلت للشيخ رضي الله عنه: فإذا أحب هذا الرجل جميع المؤمنين من غير فرق فأين الحب في الله والبغض في الله اللذان هما شعبة من شعب الإيمان، فإن العاصي يستحق أن يبغض في الله فإذا أحببناه في الله خالفنا مقتضى عصيانه.

فقال رضي الله عنه: الذي يجب أن يتوجه البغض إليه العاصي هو أفعاله لا ذاته

المؤمنة وقلبه الطاهر وإيمانه الدائم فالأمور التي توجب محبته لازمة والذنوب التي توجب بغضه عارضة طارئة، فتكون محبته هي الساكنة في قلوبنا وبغضه يتوجه نحو الأمور العارضة، حتى أنا نمثل ذنوبه بين أعيننا وفي أفكارنا بمنزلة أحجار مربوطة بثيابه خارجة عن ذاته فنحب ذاته ونبغض الأحجار المربوطة بثيابه، وهذا القدر هو الذي أمر به الشارع في بغض العاصي من غير زيادة عليه، وأكثر الناس لا يفرقون بين بغض الأفعال الخارجة عن الذات وبين بغض الذات فيريدون أن يبغضوا الأفعال فلا يعلمون كيف يبغضونها فيقعون في بغض الذات، وبغض الذات إنما أمرنا به في حق الكافر فنبغض ذواتهم، وكل ما يصدر عنها.

وأما المؤمن العاصي فإنا لم نؤمر ببغضه بغضاً يطفىء محبة ذاته ومحبة إيمانه بالله تعالى ومحبة إيمانه برسوله ﷺ، ومحبة إيمانه بجميع الرسل، ومحبة إيمانه بجميع الأنبياء عليهم السلام، ومحبة إيمانه بسائر الكتب السماوية، ومحبة إيمانه باليوم الآخر وكل ما فيه من حشر ونشر وجنة ونار وصراط وميزان، ومحبة إيمانه بجميع الملائكة عليهم الصلاة والسلام، ومحبة إيمانه بالقدر خيره وشره، وهكذا نحبه على كل وصف ممدوح فيه، فإذا تقدمت محبتنا فيه على هذه الخصال الحميدة لم يمكن أن يدخل بغضه في قلوبنا أبداً، وإنما نبغض أفعاله وندعوا له بخير، ولا سيما إن نظرنا إليه بعين الحقيقة وأكثر الناس إذا أرادوا أن يبغضوا العاصي توجهوا إليه أولاً قبل كل شيء بالبغض وغفلوا عن الخصال التي توجب محبته، فلا يستحضرونها في عقولهم فيسكن بغضه في قلوبهم ويسري ذلك البغض إلى ذاته، فتكون هي المبغوضة في نظرهم، وذلك لا يحل ولا يجوز، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الذي يتميز عن الناس في مركبه وملبسه وداره ومأكله قبيح، فقلت: وما سبب قبحه؟ فقال: إنه يشغل قلوب الناس بالالتفات إليه، فيقطعهم عن الله تعالى فيكون تميزه عنهم سبباً في قطعهم فقلت: فالمحجوبون الذين يلتفتون إليه مقطوعون فلا يضرهم التفاتهم إليه، فقال: يزيدهم قطيعة على قطيعة قال وأيضاً فإن الروح تنفر من الذات المشتغلة بهذا التمييز لأن بذلك التمييز يحصل للروح ذلة ومسكنة، فتكره فعل الذات وتفر عنها فلا تسددها ولا ترشدها إلى ما يليق بها مع خالقها، فيكون ذلك سبب هلاكها.

قلت فللتمييز حينئذ آفتان آفة في نفسه وآفة في غيره، ثم قال بعض الحاضرين وكان جواداًسخياً كريماً، يا سيدي: أرأيت حب الصدقة إذا أوقع صاحبها في هذا التمييز أيضره ذلك أم لا؟ فقال رضي الله عنه: نعم وينبغي له إخفاء الصدقة ما أمكنه.

قال رضي الله عنه: وأعرف رجلاً تصدق فيما بين المغرب والعشاء بخمسة وعشرين مثقالاً على فقراء لا يحصون ولم يعرفه واحد منهم.

فقال السائل: يا سيدي فإن أخفاها ولكن بقيت نفسه تتشوف إليها وتفرح بها، فقال رضي الله عنه: إن كان تشوفه إليها على وجه الفرح بها ورؤيتها عظيمة في عينه فجعلت نفسه تعجب بها فهذا لا يمنع الفعل والإخراج، لأن الشخص المتصدق قد يصادف من نفسه غفلة عن هذا النظر فتخرج الصدقة سالمة فيتقبلها الله تعالى.

قال رضي الله عنه: وإنما طول الله أعمارنا حتى صرنا نعيش الستين والسبعين عاماً لهذه الفائدة، وهي أنه لعلنا ندرك في العمر الطويل ساعة من ساعات القبول، وذلك لاستيلاء النفس والشهوة علينا حتى لا يكاد يصفو لنا فعل ولا يخلص لنا عمل، قال فمثل هذه العلة لا تمنع من الفعل.

وأما إن كان تشوف النفس إليها على وجه الرياء بها وإنما فعلها صاحبها لأجل الناس فهذه علة تمنع من الفعل وتصيره معصية وإن كانت صورته صورة طاعة فيما يرى الناس.

قلت: أشار رضي الله عنه بهذا التفضيل إلى ما ذكره الأئمة رضي الله عنهم من أن خوف العجب لا يمنع العمل وإنما يمنعه الرياء، فرضي الله عن هذا الشيخ ما أوسع دائرة علمه وإني لأتعجب من ذلك كثيراً، ومما يزيدني تعجباً على تعجب كونه عامياً أمياً وتصدر منه هذه العلوم التي لا تطاق ولا تحصى ولا يحتاج عند إيرادها إلى تفكر أصلاً، فسبحان من أمده بهذه العلوم اللدنية، والمعارف الربانية.

ثم أعاد عليه السائل السؤال، فقال: يا سيدي أخبرنا كيف يكون عملنا من صدقة وغيرها خالصاً لوجه الله تعالى.

فقال رضي الله عنه: كل ما عملته بقصد الأجور والحسنات فهو عمل لغير الله تعالى، ولا بد أن يعرض فيه الوسواس، فتقول في نفسك إذا تصدقت بالقصد السابق لعل المتصدق عليه ليس أهلاً للصدقة، وإن كان أهلاً فلعل هناك من هو أولى وأحق بها منه وأقرب إلى الله تعالى في قبولها، وقد فاتني إلى أن تختم وسواسك بقولك، وهل قبلها الله مني أم لا؟ وكل عمل دخله وسواس فلا نصيب فيه لله تعالى إذ الوسواس من الشيطان، والشيطان لا يقدر على القرب من العمل الذي هو لله سبحانه وتعالى.

فقال السائل: يا سيدي وإذا تصدقت لا بقصد الأجور والحسنات ولكن بقصد القرب من الله تعالى فهل يضر ذلك أم لا؟

فقال رضي الله عنه: نعم يضر وقصد القرب علة من العلل والعمل لأجله إنما صدر لغرض من الأغراض.

قال: وإنما معنى العمل لله خالصاً عند أهله هو أن يعلموا ما ربهم عليه من أوصاف الجلال والكمال والكبرياء والعظمة وماله عليهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى فيرونه

أهلاً لأن يخضع له ومستحقاً لأن يخشع منه، ولا يخطر ببالهم حظ من حظوظ نفوسهم قط فضلاً عن أن يكون عملهم لأجله، بل يرون أنهم لو عبدوا ربهم أبداً وأطاعوه سرمداً بأشق عبادة تصوروا ثقل تكليف يفرض مع تطاول الأعمار واستمراره عليه، ما دامت الأعصار، ما قاموا بشيء من الحق الواجب للرب سبحانه على المربوب، وإنما يتصور من العبد أن يعمل لحظوظ نفسه أن لو فرغ من القيام بحقوق ربه، وإذا لم يستطع أبداً أن يوفي بواحد منها فكيف يطمع أن يوفي بها كلها، أم كيف يطمع أن يتفرغ للعمل لحظوظ نفسه.

قال رضي الله عنه: وإذا دخل أهل الجنة الجنة وازدادوا معرفة في خالقهم سبحانه ندموا كلهم على ما قصروا في جنب الله.

قال رضي الله عنه: وإذا تأملت ما قلناه علمت أن العمل للأجور قاطع عن الله تعالى وعن القيام بحقوقه، ولهذا كان لا يزيد صاحبه إلا بعداً من الله عز وجل قال: وإذا عبدت الله تعالى لكونه أهلا لذلك لم يمكن أن يدخل عبادتك وسواس أبداً.

فقلت: يا سيدي فإذا كان المتصدق يرى حين إخراج الصدقة أن المال لله لا له، وذاته هي لله لا له، وذات المسكين المتصدق عليه به فهو يرى أن الكل لله فيخرج صدقته على هذه النية ولا يرى لنفسه شيئاً أصلاً، فكيف تكون صدقة من هذه صفته؟.

فقال رضي الله عنه: من أحسن ما يكون وقد سبق ما قلنا لكم في حكمة تأخير بعثة الرسول ﷺ إلى أن بلغ أربعين سنة.

قلت: ولعلنا نذكره فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

ثم حكى لنا حكاية وقعت له مع رجل بهلول وحاصله أنه قال رضي الله عنه: كنت أعرف رجلاً بهلولاً وهو من الصالحين وليس عنده في فصل البرد الكسوة التي تقيه من البرد، فكان يهمني أمره وتدخلني الرحمة والرقة عليه كثيراً، قال: وربما تصدق عليه بعض الناس بكسوة تقيه من البرد فيجيء من لا يخاف من الله عز وجل فيزيلها عنه ويذهب بها، قال: فجئته بكسوة تقيه من البرد، وكان يبيت في بعض الأرحية متى يطحن فيها فجئت ذلك المكان فوجدته فيه فكلمته فأجابني فقلت: أتيتك بكسوة لتلبسها، فقال لا أقبلها ولا ألبسها وكنت تصدقت بها عليه بنية أن يرزقني الله حاجة كذا ولم يعلم بذلك أحد إلا الله سبحانه، فلما سمعت منه الإبابة أعدت عليه القول وكررته مراراً، فعند ذلك قال إني لا ألبس الكسوة التي أخرجت لحاجة كذا وذكر الحاجة بعينها، وإنما ألبس ما هو لله خالصا، فذهبت وتركتها بقربه ووصيت أهل الرحى عليها وأن يلبسوها له، فبقيت هناك أياماً وما لبسها قط، فإذا كان هذا مخلوقاً وأبى من قبول ما هو لغير الله فكيف بالخالق سبحانه، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: كان بعض العباد المفتوح عليهم في العبادة مريضاً بعلة

الاستسقاء، فلما أحس بالموت وقد بقي على عقله لأن غالب من يمرض بعلة الاستسقاء يبقى على عقله، فلما شاهد ألم الموت وعلم أنه ما مر عليه في عمره مثله أبداً أكسبه ذلك خوفاً من الله تعالى وامتلأ قلبه رعباً من لقائه عز وجل، فوقع في فكره ما سلف من العبادة الكثيرة ففرح بها وسخن قلبه بها وجعلها في مقابلة ذلك الخوف، فأكسبه ذلك أمنا وهناء في قلبه، فلما علم الله منه أنه اعتمد على عبادته سلبه الله عز وجل، فمات مسلوباً والعياذ بالله قال: وكم في جهنم من عابد مثله أدخلهم الله جهنم لاعتمادهم على عملهم.

قال رضي الله عنه: ولا شك أنه لا يعتمد على العبادة إلا من فعلها بقصد الأجر وحظ النفس ولو كانت لله خالصاً لنفعتهم في هذا اليوم العظيم.

قال رضي الله عنه: وعبادة العارفين بالله تعالى إنما هي لأجل وجوده الكريم وذاته الرفيعة فيفعلونها إجلالاً وتعظيماً ومهابة وتوقيراً، ويعلمون أنهم لو عبدوا طول عمرهم ونطحوا الصخور بجباههم دائماً سرمداً ما وفوا بشيء من حقوق الربوبية، فكيف يطلبون لأنفسهم أجوراً لأنه لا يطلب الأجر إلا من رأى أنه قام بالحق وأدى الواجب عليه، وهم رضي الله عنهم يرون أنفسهم مقصرين ما قاموا لله بشيء مع أنهم يشاهدون الفعل الصادر منهم، إنما هو منه تعالى لا منهم، فكيف يطلبون الأجر على ما فعله غيرهم.

فقلت: فأي شيء سلب هذا العابد؟ أما المعرفة فإنها ليست عنده فإنه لو كان عنده منها شيء ما اعتمد على عمله فالمسلوب إذا إما الإيمان وإما الحسنات.

فقال رضي الله عنه: المسلوب عنه هو الحسنات التي فعلها، فإن نظره إليها واعتماده عليها أزال عنه جميع الرحمات المترتبة عليها ورجعت تلك الحسنات بأسرها معاصي وذنوباً يعاقب عليها في جهنم.

فقلت: أفلم يكف إحباطها بالنظر إليها في صوبته حتى رجعت ذنوباً.

فقال رضي الله عنه: النظر إليها هو الذي صيرها ذنوباً، فإنك إذا رأيت حربة قصدتك وتراها داخلة في جنبك لا محالة، فإذا أردت أن تتقيها بدرقة فإنك لا تتقي بها حتى تقطع وتجزم بأن الدرقة أقوى من ضرب الحربة حتى أنها تردها وترد غيرها، ولو كنت تعلم أن الدرقة لا ترد الحربة فإنك لا تتقي بها وإنما تستجير بصاحب الحربة وتدخل في حماه وتطلب رضاه لعله يرحمك حتى يرد حربته عنك.

قال: فكذلك هذا العابد فإنه ما جعل عبادته في مقابلة ذلك الخوف وسكن قلبه ودخله الأمن والهناء حتى كان يرى أنها أقوى مما لله عليه من الحق الواجب وأقطع منه وأمضى حتى ترده وترد غيره وهذا غاية الضلال.

قال رضي الله عنه: وأيضاً فإن العبادات بأسرها والطاعات كلها والشرائع بجملتها إنما

نصبها الله تعالى لعباده لتقام كلمة التوحيد وتحصل المعرفة في قلوب الخلق بربهم، فإذا حصلت هذه المعرفة حصل المقصود، وإذا لم تحصل فلا عبرة بالوسيلة عند فوات المقصود.

قال: والمعاصي إنما حرمت لأن فيها قطعاً للعبد عن الله عز وجل، فإذا كانت الطاعات تقطع العبد كانت معاصي بلا إشكال، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن في أرباب المخزن وأهل الظلم من هو مؤمن متعلق القلب بربه سبحانه فيهم من هو منقطع عن الله عز وجل، وعلامة ذلك الانقباض والانبساط، فمن كان منهم منقبضاً متغيراً يعلم أنه مخالف لأمر ربه مطيع لغيره متكدر البال متغير الحال، فذلك هو الأول فهو من الناجين في الآخرة بعد الحساب والعقاب والملام والعتاب إلا أن يعفو الله سبحانه، ومن كان منهم حالة ظلمه منبسطاً فرحاً مسروراً لا حزن عليه ولا خوف فذلك هو الثاني، فهو يستحلي المعصية وظلم العباد كما يستحلي الجعل من النجاسات وأكل القاذورات، قلت: وقد سبق أنه من أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

ذكر هذا الكلام لرجل استشاره في خلطة المخزن وأن لم يخالطهم خاف على نفسه فدله على الخير وأوصاه بالمساكين، وذكر له الكلام المتقدم وزاده زيادة، فقال: إن المؤمن كطير نزل على أرض نجسة فينقبض ويضم جناحيه وعلى أرض طاهرة فينبسط ويفتح جناحية ويسعى في الطلب وقال له: إن أهل الانقطاع والعياذ بالله إذا غصبوا دراهم وجعلوها في جيوبهم وكان على تلك الدراهم اسم من أسماء الله تعالى، فإذا جاء من هو متعلق بربه تعالى واحتال على تلك الدراهم بالطلب أو غيره حتى أخذها من ذلك المنقطع فقد أنقذ ملائكة كراماً على الله عز وجل، وذلك أن على كل حرف من أسمائه تعالى ملكاً وعلى كل اسم من أسمائه تعالى ملكاً فيه قوة سبعين ملكاً؛ فلما دامت الدراهم التي فيها الأسماء عند ذلك المنقطع فإن كل ملك من أولئك الملائكة يكون بمنزلة طائر قد أخذ وكتف وأخرج رأسه من تحت جناحه فإذا جاء المتعلق بالله فأخذه بحيلة من الحيل، فإن الملك يحصل له فرح وسرور ويزول ما به من الضيق لكراهتهم عليهم الصلاة والسلام لأهل الانقطاع والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما أخذ العبد الضعيف وكان تدميره في تدبيره حيث عزل ذاته عن الله تعالى وجعل ينظر في أمرها بالتدبير والقيام عليها ويبذل مجهوده في تحصيل مطالبها، وهو في ذلك كله غافل عن الله تعالى فوكله الله تعالى إلى نفسه، وجعله يشعر بالأغيار كما انقطع إلى الأغيار، فتراه يتألم بالبرد والحر وتضره الجراحات وغير ذلك من أنواع الأذيات، ولو أنه لم يعزل نفسه عن ربه عز وجل وجعل زمامها بيد خالقه وقطع النظر عن غيره ومحا من قلبه جميع الأغيار فإنه لا يحس حينئذ بألم من الآلام ولو كان يمشي على حسك الحديد والسفافيد، قال: ولأجل الغفلة عن الله سبحانه عظم الحمل على

العبد وجاءته التكاليف وأرسلت إليه الرسل بالشرائع ليردوه عن الغفلة إلى الله سبحانه، ولولا الغفلة عن الله تعالى لكان البشر مثل الملائكة ولم يحتاجوا إلى تحمل هذه التكاليف الشاقة، ولولا الغفلة عن الله تعالى لم تكن جهنم أصلاً ولولا الغفلة عن الله تعالى لشاهد العبد أفعاله مخلوقة لربه سبحانه، فلم تكن له نفس يشاهدها فضلاً عن أن ينسب إليها شيئاً، وإذا كان بهذه المثابة فإنه يكون فانياً دائماً فكيف يكلف مثل هذا، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: أحمق الناس من يشد في الذي يمشي يعني الذي يفني وهو الدنيا، وما يتعلق بها، وأعقل الناس من يشد في الذي يبقى وهو الحق سبحانه، فإن الفاني إذا قبض في الفاني لم ينفع أحدهما الآخر وإذا قبض الفاني في الباقي صار الفاني باقياً.

قال رضي الله عنه: والناس يقولون لا دواء للموت وهو له دواء ودواؤه ما ذكرناه لا دواء له غير ما ذكرناه، ثم أقسم بالله وأكد قسمه وكرره مراراً، وقال: إن العبد إذا شد في الله سبحانه شداً عجيباً ظاهراً وباطناً فإنه لا يفنى ولا يموت الموتة التي يعرفها الناس.

قال رضي الله عنه: وغالب أهل الديوان إذا ماتوا فإنهم يغسلون أنفسهم، فترى ميتاً على النعش ومغسلاً وهما شيء واحد، والله تعالى أعلم.

ولنختم هذا الباب بحكاية عجيبة سمعتها منه رضي الله عنه، وذلك أني كنت أتكلم معه ذات يوم فذكرت له تعظيم الناس للعباد المنقطعين في الكهوف وجزائر البحر ومدحتهم كثيراً وقلت إنهم انقطعوا لعبادة الحق سبحانه وتجردوا من جميع الأغيار،

قال رضي الله عنه: أحكي لكم حكاية فاسمعوها، والله حسبي وسائلي إن زدت فيها شيئاً، فقلت: معاذ الله أن يقع هذا في أوهامنا أو يهجس في خواطرنا.

قال رضي الله عنه: كنت ذات يوم في المصلى بباب الفتوح مع سيدي منصور يعني القطب، فبدا لنا أن نذهب إلى جزيرة في البحر الكبير الذي يضرب في مدينة سلا قال فذهبنا إليها فإذا هي جزيرة فيها قدر ميل وفيها عينان من الماء العذب ووجدنا فيها رجلاً يعبد الله تعالى وسنه نحو الأربعين سنة، وفيها بيوت منحوتة من الحجر وفي وسط البيوت بويتات صغار كهيئة البيوت الصغار التي في داخل الحمام قال: ولا أدري من نحتها، لأن الموضع بعيد من العمران جداً ولا يبلغه أحد وقد تبلغه السفن أحياناً، وفيها من الأشجار نوع يشبه ثمرة ثمر اللوز إلا أنه يخالفه ونوع آخر يشبه شجر التغزاز المعروف عندنا، إلا أنه أقصر منه، وله ورق عريض أخضر دائماً فنظرت إلى الرجل وإذا قوته ذلك الثمر الذي يخرج من النوع الشبيه باللوز، وذلك الورق الأخضر الذي في النوع الآخر الشبيه بالتغزاز فهذا قوته دائماً ونظرنا إلى لباسه فإذا هو قد عمد إلى قضبان ذلك النور الشبيه بالتغزاز وهي قضبان رقاق فضفر بعضها مع بعض حتى جعل منها مثل الحزامة، فاحتزم بها وستر عورته

والباقي بلا ستر، فكلمناه وقلنا له كم لك في هذا الموضع؟ فقال لي: فيه نحو الأربعين سنة، فقلنا له سنك كله قدر الأربعين فمتى جئته؟ قال: جئته مع أبي ولي نحو، من خمس سنين وأنا صبي صغير فبقيت مع أبي نحو الخمس والعشرين سنة حتى مات، فدفنته هناك، فقلنا له: أرنا قبره لنزوره: فأرانا قبره فدعونا له، ثم جعلنا نتكلم معه فوجدنا لسانه ثقيلاً جداً لقلة مخالطته للناس وهو صغير، ووجدناه يتكلم بالعربية لأنه من القوم المجاورين لتونس وهم يتكلمون بالعربية، فسألناه عن الإيمان، فوجدناه يعرف الله إلا أنه يعتقد الجهة، فنهيناه عن ذلك، وبينا له الصواب، ووجدناه يعرف رسول الله ﷺ وأنه سيد الأولين والآخرين، ويعرف أبا بكر رضي الله عنه، ويعرف فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، وسألناه عن ابنها سيدنا الحسن فلم نجده يعرفه، وسألناه عن شهر رمضان فما وجدناه يعرفه، وذكر أنه يصوم ثلاثين يوماً ولكنها مفرقة في السنة، فبينا له وجوب صوم رمضان وعينا له موضعه من السنة، وسألناه عما يحفظ من القرآن فلم نجده يحفظ منه سوى.

﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ـ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ـ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾.

هكذا يحفظ هذا القدر مصحفاً، فقلنا وما عبادتك؟ فقال: الركوع والسجود لله عز وجل، فقلنا له: هل تنام؟ قال أنام عند سقوط الشمس للغروب إلى أن يظلم الحال وما عدا ذلك كله ركوع وسجود، فقلت له: هل لك أن تخرج إلى بلاد الإسلام وتعاشر أهله فإنك على دينهم وتؤمن بنبيهم ﷺ؟ فقال نعم أنا مسلم من جملة المسلمين، ولكني لا أخرج عن موضعي هذا حتى أموت، قال وكنا إذا كلمناه وقربنا منه عند الخطاب يفر منا لعدم إلفه بالناس، قال: وهو لا يطيق أن يأكل من طعامنا ولا تطيقه ذاته لطول إلفها بغيره، قال: ونظرنا فإذا نحن من ثمن مد من الريالات عنده وفيه بعض المثاقيل من الذهب، فقلنا له: من أين لك هذا؟ فقال: أرباب السفن يأتون في بعض الأحيان إلى هذه الجزيرة فيرونني فيعطونني شيئاً من الريالات والدنانير بقصد الزيارة والتبرك ويطلبون مني معروفاً فأدعو لهم وينصرفون، فقلنا له: أعطنا هذه الدنانير والريالات فإنه لا حاجة لك بها لأنك لا تنوي أن تبني بها داراً ولا أن تتزوج بها ولا أن تكتسي بها فما لك بها من حاجة فنأخذها نحن فلنا بها حاجة، فأبى وقال: دراهمي لا أعطيها لكم، قال: وبقينا معه ساعة طويلة بقصد أن نعلمه شرائع الإسلام، ثم ودعناه وانصرفنا، فلما رآنا نمشي على ظهر الماء بأرجلنا ولا يصيبنا من الماء شيء ولم يحصل لنا غرق جعل يستعيذ بالله منا وظن أننا من الشياطين.

قال رضي الله عنه: وهو إلى الآن في جزيرته في قيد الحياة، وذلك في الثاني من ذي الحجة مكمل تسعة وعشرين ومائة وألف.

قلت: وفي هذه الحكاية مواعظ.

الموعظة الأولى: معرفة النعمة الحاصلة لنا في مخالطة المؤمنين، فإن ذلك يوصلنا إلى معرفة شرائع الإسلام وأحوال النبي ﷺ وسيرته وسيرة أصحابه رضي الله عنهم، وكيف كان زمانه ﷺ وزمان أصحابه رضي الله عنهم؟ إلى غير ذلك من الأمور التي يزيد بها الإيمان، فإن هذا الرجل لما فاتته مخالطة أهل الإسلام فاتته معرفة هذه الأحوال، حتى قلت لشيخنا رضي الله عنه، لقد أضر به أبوه الذي قدم به إلى هذه الجزيرة وقطعه عن أهل الإسلام، ولو تركه معهم لكان خيراً له وأسعد به فقال لي صدقت فهاهنا تعرف قيمة المؤمنين ولو كانوا عصاة فإن معرفتهم بالدين وشرائع الإسلام لا يعدلها شيء، فالحمد لله على مخالطة أهل الإسلام ومزاحمتهم في الأسواق ونحوها ولا سيما المزاحمة في مواطن الخير، ولهذا يقول الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: إن النظر في وجوه المؤمنين يزيد في الإيمان.

الموعظة الثانية: معرفة النعمة التي أنعم الله بها علينا في الأكل والشرب والكسوة والنوم والراحة والنكاح والتناسل وغير ذلك من النعم التي حرمها هذا المتعبد، فإنه كما حرم معرفة هذه النعمة حرم هذه النعم أيضاً، ولو خالط أهل الإسلام لتنعم بهذه النعم وشكر الله عليها وكان شكره عليها موفياً وقائماً بعبادته في تلك الجزيرة طول عمره.

الموعظة الثالثة: ما يغتر به كثير من الناس في أمر المنقطعين في الفلوات والخلوات واعتقادهم الكمال فيهم، وأن المقام الذي يبلغونه لا يبلغه الأولياء العارفون المنغمسون في الناس.

وقد سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: إني أنظر أحياناً إلى أنوار الإيمان الخارجة من الذوات حتى تتصل بالبرزخ وهي أنوار مختلفة بالرقة والغلظ، والرقة تدل على ضعف الإيمان، والغلظ على قوته، ثم ننظر إلى العباد الذين في الكهوف والفلوات فنرى الرقة غالبة على أنوارهم إلا من قل منهم، وننظر إلى العامة فنرى أنوارهم أحسن من أولئك المنقطعين لاعتماد العوام على فضل الله سبحانه واعتماد العباد غالباً على عبادتهم.

قال رضي الله عنه: والعابد لا ينجو من عبادته إلا إذا كان يراها من ربه باطناً ويدوم ذلك على فكره فإن غاب ذلك عن فكره وجعل يراها منه فهو إلى العطب أقرب منه إلى السلامة.

ولما سمعت من شيخنا رضي الله عنه هذه الحكاية حصل لي رقة وخشوع بمعرفة النعم التي أنعم الله بها علينا، ونحن عنها غافلون.

ثم قلت للشيخ رضي الله عنه: ولم لم تأخذوا بيد هذا الرجل وتخرجوه من الجزيرة إلى مدينة من مدن الإسلام ليرتاح ويرحمه الله تعالى؟.

فقال رضي الله: ذلك مقامه الذي أقامه الله فيه فسبحان من له هذا الملك.

قال رضي الله عنه: ومن نظر إلى العجائب التي على وجه الأرض كفته ولم يحتج في توحيد ربه إلى شيء آخر، فإنه يرى على وجه الأرض خلائق مجتمعين يعني جملة من على وجه الأرض فيهم العاقل وغيره والمنعم والمحروم، وهذا يقتل هذا، وهذا يرحم هذا، وهذا يجول بخواطره في أمور الدنيا، وهذا في أمور التجارة، وهذا في أمور جيرانه، وهذا في أمور العلم، وهذا في أمور الآخرة.

قال رضي الله عنه: وأخبرني شيخي سيدي عمر بن محمد الهواري أنه كان جالساً يوم الخميس بباب المحروق وجعل ينظر إلى بواطن الخارجين من الباب فخرج رجل فنظر إلى باطنه، فإذا هو ليس فيه إلا التفكر في فلانة حبيبته كيف يظفر بها وكيف يكون أمره في ذلك، واستولى عليه هذا التفكر حتى أذهله عن غيره، ثم خرج آخر فنظر إليه فإذا هو قلبه على مثل صفة الأول، إلا أنه متعلق بصبي، ثم خرج ثالث فنظر إليه فإذا قلبه متعلق بالدنيا وقد استولى عليه الفكر فيها حتى صار لا يشعر بغيرها، ثم خرج رابع فنظر إليه فإذا باطنه متعلق بمحبة شرب الخمر والتلهف عليه لا يجول في فكره غير ذلك، ثم خرج خامس فنظر إليه فإذا فكره يجول في الآخرة وأمورها وغلب ذلك عليه حتى ظهر عليه، ثم خرج سادس فإذا قلبه معمور بمحبة العلم وقراءته لا يجول خاطره في غير ذلك، ثم خرج سابع فنظر إليه فإذا فكره لا يجول إلا في محبة ركوب الخيل واستولى عليه ذلك حتى أنساه غيره ثم خرج ثامن فإذا فكره لا يجول إلا في محبة الحرث وكيف يسعى فيه لا يتفكر في غيره، ثم خرج تاسع فإذا فكره معمور بمحبة سيد الوجود ﷺ واستولى ذلك عليه حتى صار فكره لا يجول إلا في أحوال النبي ﷺ، كيف كان قبل البعثة وكيف كان بعدها؟ ثم كيف كان بعد نزول الوحي عليه ويجول في سكناه بمكة وسكناه بالمدينة ﷺ ثم خرج عاشر فنظر إليه فإذا قلبه معمور بمحبة الله عز وجل رب العالمين وخالق الكل أجمعين، فيجيل الفكر في عظمته وجلاله وتنزهه وتقدسه وماله من على الصفات سبحانه. قال الشيخ سيدي عمر رضي الله عنه: ثم نظرت إلى الأمر الباطن الحاكم فيهم الناشىء عن إرادته تعالى فيهم فوجدته في بواطنهم كالحبل الذي يقودهم إلى مراد الحق سبحانه فيهم وهم عنه غافلون، يحسبون الفعل منهم والاختيار موكولاً إليهم، قال: فحصلت لي عبرة كبيرة وعلمت أنه ﴿لا إله إلا هو﴾ وأنه تعالى لا شريك له في ملكه، وأنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وأن الخلق في غفلة كبيرة وحجاب عظيم.

قلت: فمثل هذا هو تفكر العارفين رضي الله عنهم.

وقد سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: قد يمر رجلان بموضع من المواضع فلا يمشيان فيه إلا قليلاً حتى يغفر لأحدهما.

فقلت: ولم؟ فقال: لمعرفته كيف يتفكر في مخلوقات الله وصاحبه الذي يماشيه ساه لاه.

فهذا وفقك الله ما ظهر لنا أن نكتبه من كلام الشيخ رضي الله عنه هذا الباب، وهو باب دخول الظلام على العباد وأفعالهم ودخول الأنوار عليهم، فإذا انضم هذا إلى ما سبق في تعبير الرؤيا من درجات الظلام العشرة التي هي درجة سهو المكروه، ودرجة سهو الحرام، ودرجة عمد المكروه، ودرجة عمد الحرام، ودرجة الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة، ودرجة الجهل المركب فيها، ودرجة الجهل البسيط في العقيدة الثقيلة، ودرجة الجهل المركب فيها، ودرجة الجهل البسيط في الجناب العلي ﷺ، ودرجة الجهل المركب فيه، وعلم الواقف على كلامنا ما ذكرناه في ذلك الباب وفي هذا الباب حصل على معرفة كبيرة نفع الله بها الوارد والصادر ببركة الشيخ رضي الله عنه آمين، والحمد لله رب العالمين.

الباب الرابع
في ذكر ديوان الصالحين
رضي الله عنهم أجمعين

سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنث فيه النبي ﷺ قبل البعثة.

قال رضي الله عنه: فيجلس الغوث خارج الغار ومكة خلف كتفه الأيمن، والمدينة أمام ركبته اليسرى، وأربعة أقطاب عن يمينه: وهم مالكية على مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وثلاثة أقطاب عن يساره، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة، والوكيل أمامه، ويسمٰي قاضي الديوان، وهو في هذا الوقت مالكي أيضاً من بني خالد القاطنين بناحية البصرة، واسمه سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي، ومع الوكيل يتكلم الغوث ولذلك سمي وكيلاً لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان.

قال: والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته والصفوف الستة من وراء الوكيل، وتكون دائرتها من القطب الرابع إلى الذي على اليسار من الأقطاب الثلاثة، فالأقطاب السبعة هم أطراف الدائرة، وهذا هو الصف الأول، وخلفه الثاني على صفته وعلى دائرته وهكذا الثالث إلى أن يكون السادس آخرها.

قال: ويحضره النساء وعددهن قليل وصفوفهن ثلاثة، وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار فوق دائرة الصف الأول في فسحة هناك بين الغوث والأقطاب الثلاث.

قال رضي الله عنه: ويحضره بعض الكمل من الأموات ويكونون في الصفوف مع الأحياء، ويتميزون بثلاثة أمور:

أحدها أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته، فمرة يحلق شعره، ومرة يجدد ثوبه وهكذا، وأما الموتى فلا تتبدل حالتهم، فإذا رأيت في الديوان رجلاً على زي لا يتبدل فاعلم أنه من الموتى كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر فاعلم أنه على تلك الحالة مات؛ وإن رأيت الشعر على رأسه على حالة لا يزيد ولا ينقص ولا يحلق فاعلم أيضاً أنه ميت، وأنه مات على تلك الحالة.

ثانيها: أنه لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء، لأنهم لا تصرف لهم فيها وقد

انتقلوا إلى عالم آخر في غاية المباينة لعالم الأحياء، وإنما تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات.

قال رضي الله عنه: ومن آداب زائر القبور إذا أراد أن يدعو لصاحب قبر ويتوسل إلى الله تعالى بولي من أوليائه في إجابة دعوته أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت فإنه أنجح لمقصوده وأقرب لإجابة دعوته.

ثالثها: أن ذات الميت لا ظل لها فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلاً، وسره أنه يحضر بذات روحه لا بذاته الفانية الترابية وذات الروح خفيفة لا ثقيلة وشفافة لا كثيفة.

قال لي رضي الله عنه: وكم مرة أذهب إلى الديوان أو إلى مجمع من مجامع الأولياء وقد طلعت الشمس فإذا رأوني من بعيد استقبلوني؛ فأراهم بعيني رأسي متميزين هذا بظله وهذا لا ظل له.

قال رضي الله عنه: والأموات الحاضرون في الديوان، ينزلون إليه من البرزخ يطيرون طيراً بطيران الروح، فإذا قربوا من موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم إلى أن يصلوا إلى الديوان تأدباً مع الأحياء وخوفاً منهم، قال وكذا رجال الغيب إذا زار بعضهم بعضاً فإنه يجيء يسير بروحه، فإذا قرب من موضعه تأدب ومشى مشي ذاته الثقيلة بأدباً وخوفاً قال وتحضره الملائكة وهم من وراء الصفوف ويحضره أيضاً الجن الكمل وهم الروحانيون وهم من وراء الجميع وهم لا يبلغون صفاً كاملاً.

قال رضي الله عنه: وفائدة حضور الملائكة والجن أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها، فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواتهم الوصول إليها.

قال: وفي بعض الأحيان يحضره النبي ﷺ، فإذا حضر عليه الصلاة والسلام جلس في موضع الغوث وجلس الغوث في موضع الوكيل وتأخر الوكيل للصف وإذا جاء النبي ﷺ جاءت معه الأنوار التي لا تطاق، وإنما هي أنوار محرقة مفزعة قاتلة لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة حتى إنا لو فرضنا أربعين رجلاً بلغوا في الشجاعة مبلغاً لا مزيد عليه ثم فجؤوا بهذه الأنوار فإنهم يصعقون لحينهم، إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها. ومع ذلك فالقليل منهم هو الذي يضبط الأمور التي صدرت في ساعة حضوره ﷺ.

قال: وكلامه ﷺ مع الغوث، قال: وكذلك الغوث إذا غاب النبي ﷺ تكون له أنوار خارقة حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه بل يجلسون منه على بعد فالأمر الذي ينزل من عند الله تعالى لا تطيقه ذات إلا ذات النبي ﷺ، وإذا خرج من عنده ﷺ فلا تطيقه

ذات إلا ذات الغوث، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة، ومن الأقطاب السبعة يتفرق على أهل الديوان.

وأما ساعة الديوان فقد سبق الكلام عليها وأنها هي الساعة التي ولد فيها النبي ﷺ وأنها هي ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخير التي وردت بها الأحاديث كحديث:

«يَنزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا حِينَ يَبْقَى ثلث اللَّيلِ الْأَخِيرِ فَيَقُولُ مَنْ يدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ» الحديث.

قلت: ومن أراد أن يظفر بهذه الساعة فليقرأ عند إرادة النوم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوسِ﴾ إلى آخر السورة.

ويطلب من الله تعالى أن يوقظه في الساعة المذكورة فإنه يفيق فيها، ذكره الشيخ عبد الرحمٰن الثعالبي رضي الله عنه، وقد جربناه ما لا يحصى وجربه غيرنا حتى أنه وقع لجماعة غير ما مرة أن يقرءوا الآية المذكورة ويطلبون من الله تعالى الإفاقة في الساعة المذكورة كل واحد منهم يفعل ذلك في خاصة نفسه من غير أن يعلم به صاحبه وإذا أفاقوا أفاقوا جميعاً في وقت واحد.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الديوان أولاً كان معموراً بالملائكة، ولما بعث الله النبي ﷺ جعل الديوان يعمر بأولياء هذه الأمة، فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة، حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح الله عليه وصار من أهل الديوان فإنه يجيء إلى موضع مخصوص في الصف الأول أو غيره فيجلس فيه ويصعد الملك الذي كان فيه، فإذا ظهر ولي آخر جاء إلى موضع ويصعد الملك الذي في ذلك الموضع، وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ولله الحمد، كلما ظهر ولي صعد ملك.

وأما الملائكة الذين هم باقون فيه ويكونون خلف الصفوف الستة كما سبق، فهم ملائكة ذات النبي ﷺ الذين كانوا حفاظاً لها في الدنيا، ولما كان نور ذاته ﷺ مفرقاً في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف.

قال رضي الله عنه: وإذا حضر النبي ﷺ في الديوان، وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق بادرت الملائكة الذين مع أهل الديوان ودخلوا في نوره ﷺ، فما دام النبي ﷺ في الديوان لا يظهر منهم ملك فإذا خرج النبي ﷺ من الديوان رجع الملائكة إلى مراكزهم، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن في كل مدينة من المدن عدداً كثيراً من الملائكة مثل السبعين ملكاً أو أقل أو أكثر يكونون موجودين عوناً لأهل التصرف من الأولياء فيما لا تطيقه ذات الولي.

قال رضي الله عنه: وهؤلاء الملائكة الذين يكونون في المدن يكونون على هيئة بني آدم فمنهم من يلقاك في صورة خواجة ومنهم من يلقاك في صورة فقير، ومنهم من يلقاك في صورة طفل صغير، وهم منغمسون في الناس ولكن الناس لا يشعرون.

وحكى لنا رضي الله عنه في هذا الباب حكايات فيها من الأسرار ما لا يكيف ولا يطاق، وسبب ذكره رضي الله عنه لهذا الكلام أنه سمعني أقول لبعض من حضر أنهم ذكروا أن من أخذ سفراً من سيدي البخاري وذهب به إلى ضريح ولي وفتحه وتوسل برجال سنده وبذلك الولي إلى الله تعالى فإن حاجته تقضي، ولا سيما إن كان هو السفر الأخير ثم استفهمته رضي الله عنه عن صحة ما ذكر.

فقال رضي الله عنه: إن في كل مدينة عدداً من الملائكة فإذا رأوا العبد يطلب من الله شيئاً، فإن رأوا القدر سبق به سددوه وكانوا معه، فيحضره التوفيق ويزول الشيطان من الطريق، وإن رأوا خلاف ذلك تركوه فحضره الشيطان، وحينئذ فإذا رأوا من أخذ سفراً من سيدي البخاري ذاهباً به إلى ضريح ورأوا حاجته مقضية سددوه وألقوا في قلبه الإلحاح والتلهف على طلبته وذهبوا معه إلى الضريح وهو حامل لجرم السفر وهم حاملون لأسراره، فإذا دعا أمنوا على دعائه فتقضى حاجته، وإن رأوا الحاجة غير مقضية أخذوا أسرار الكتاب وذهب هو بالجرم فقط، ويعرض له الشيطان في الطريق بالوسوسة وتشتيت الفكر حتى لا تبقى له حلاوة في الدعاء.

فقلت له: فما السر الزائد على جرم الكتاب الذي يأخذونه.

فقال رضي الله عنه: فما السر الذي امتاز به جرم العسل على جرم القطران، قلت الحلاوة، قال: وهي معنى زائد على جرمه، قلت: نعم، فقال: كذلك كل كتاب فيه سر زائد عليه وكما أن العسل إذا زالت حلاوته لا ينفع في بابه كذلك الكتاب إذا أخذ سره.

قال رضي الله عنه: وكم من ورقة وكاغد مكتوب فيه أسماؤه تعالى يوجد في الأرض ساقطاً ويطؤه الناس بأرجلهم، ولولا أن الملائكة يأخذون أسرار تلك الأسماء لهلك جل الناس والحمد لله على فضله ومنته، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: هل يحضر الديوان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وغيرهما من الرسل على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

فقال رضي الله عنه: يحضرونه في ليلة واحدة في العام. قلت: فما هي، قال ليلة القدر، فيحضره في تلك الليلة الأنبياء والمرسلون ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين وغيرهم ويحضره سيد الوجود ﷺ، ويحضره معه أزواجه الطاهرات وأكابر صحابته الأكرمين رضي الله عنهم أجمعين.

وسألته رضي الله عنه: عن الخلاف الذي بين المحدثين في تفضيل مولاتنا خديجة على مولاتنا عائشة والعكس.

فقال رضي الله عنه: رأيناهما مع النبي ﷺ في الديوان ليلة القدر، فرأينا نور عائشة يزيد على نور خديجة رضي الله عنهما.

ثم ذكر لنا رضي الله عنه سبب ليلة القدر فقال: إن العالم قبل خلق النور في جرم الشمس كان مظلماً، والملائكة عامرون له أرضاً وسماء وفي الكهوف والسهول والجبال والأودية، فلما خلق الله تعالى النور في الشمس وأضاء العالم بها ضجت ملائكة السماء وملائكة الأرض وخافوا من خراب العالم، ومن أمر عظيم ينزل بهم فنزل ملائكة السماء إلى الأرض وجعلوا هم وملائكة الأرض يفرون من الضوء إلى الظل: أي من ضوء النهار إلى ظل الليل فراراً من الضوء الذي لم يعرفوه إلى الظل الي يعرفونه حائفين متضرعين مجتمعين على الابتهال إلى الله تعالى والتضرع له والخوف منه، يطلبون منه الرضا ويلجأون إليه في أن لا يسخط عليهم، ولم يكن في ظنهم إلا أنه تعالى أراد أن يطوي هذا العالم فاجتمعوا على التضرع والابتهال على الصفة السابقة مقدرين في كل لحظة وقوع ما خافوه، فإذا زاد إليهم الضوء فروا عنه إلى الظل ولم يزالوا على تلك الحالة الضوء ينسخ الظل وهم يفرون إلى أن طافوا الأرض كلها، ورجعوا إلى الموضع الذي بدءوا منه، فلما لم يروا شيئاً وقع حصل لهم الأمن ورجعوا إلى مراكزهم في الأرض والسماء، ثم صاروا يجتمعون ليلة من كل عام، فهذا هو سبب ليلة القدر.

قلت: فهذا يقتضي أن ليلة القدر كانت قبل خلق آدم عليه السلام، وفي الحديث ما يقتضي أنها خاصة بهذه الأمة.

فقال رضي الله عنه: الذي اختص بهذه الأمة الشريفة أجرها وخيرها والتوفيق لمعرفتها ببركة نبينا ﷺ، وأما الأمم السابقون فإنهم لم يوفقوا لها كساعة الجمعة فإنها كانت يوم خلق الله تعالى آدم عليه السلام ولم توفق لها أمة من الأمم غير هذه الأمة الشريفة، فإنها عرضت على اليهود فاختاروا السبت، وعلى النصارى فاختاروا الأحد، وفقنا الله تعالى لها بمنه وجوده، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن سبب ساعة الجمعة.

فقال رضي الله عنه: سببها أنه تعالى لما فرغ من خلق الأشياء وكان ذلك في آخر ساعة من يوم الجمعة، اجتمعت الخلائق كلها على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى في أن يتم النعمة على ذواتهم، ويعطيهم ما يكون سبباً في بقائها وصلاحها ومع رضاه تعالى عليهم وعدم سخطه.

قال رضي الله عنه: وينبغي للشخص إذا فتح عليه في ساعة الجمعة ووفق لها أن

يدعو بنحو هذا الدعاء ويسأل الله تعالى خير الدنيا وخير الآخرة فإن ذلك هو الذي صدر من باطن المخلوقات يومئذ ولم يكن دعاؤهم مجرداً للآخرة فإذا وفق الشخص للساعة المذكورة ووافق الدعاء المذكور نجح مرغوبه.

قال رضي الله عنه: وهذه الساعة القليلة جداً إنما هي قدر الركوع مع طمأنينته وذلك قدر ما يرجع كل عضو من المتحرك إلى موضعه ويسكن فيه وتسكن عروقه وجوارحه من الحركة الناشئة عن التحرك السابق.

قال رضي الله عنه: وهذه الساعة تنتقل ولكن في يوم الجمعة خاصة، فمرة تكون قبل الزوال تنتقل في ساعته، ومرة تكون عند الزوال وبعده تنتقل في ساعاته إلى غروب الشمس، فسمعته رضي الله عنه يقول: تبقى قبل الزوال ستة أشهر، وبعد الزوال ستة أشهر، وسمعته مرة أخرى يقول: إنها في زمنه ﷺ كانت في الوقت الذي كان يخطب فيه النبي ﷺ، وذلك عند الزوال، وفي زمن سيدنا عثمان رضي الله عنه انتقلت فصارت بعد الزوال وصار وقت الخطبة وقت اجتماع الناس للصلاة فارغاً منها مع أن الخطبة والاجتماع إنما شرعه النبي ﷺ لإدراك الساعة المذكورة.

قال رضي الله عنه: ولكن لما كان قيام النبي ﷺ ووقوفه خطيباً متضرعاً خاشعاً لله تعالى لا يعادله شيء، حصل للوقت الذي قام فيه النبي ﷺ شرف عظيم ونور كثير، فصار ذلك الوقت بمثابة ساعة الجمعة أو أفضل، فمن فاتته ساعة الجمعة وأدرك ساعة وقوفه ﷺ لم يضع له شيء، ولهذا لم يأمر النبي ﷺ بنقل الخطبة إلى ساعة الجمعة، كلما انتقلت لأن ساعته ﷺ لا تنتقل، فكانت أولى بالاعتبار من ساعة الجمعة التي تنتقل لما في ذلك أعني عدم نقل الخطبة من الرفق بالأمة المشرفة، وأيضاً فإن أمر ساعة الجمعة غيب وسر لا يطلع عليها إلا الخواص، وساعته ﷺ ظاهرة ومضبوطة بالزوال. فلا تخفى على أحد، فكانت أولى بالاعتبار، وعلى هذا فمن لم يصل الجمعة عند الزوال وكانت عادته أن يؤخرها فقد فرطوا في ساعة النبي ﷺ يقيناً وهم على شك في إدراك ساعة الجمعة، فقد ضيعوا اليقين بالشك، وذلك تفريط عظيم، نسأل الله التوفيق لما نهجه ﷺ.

فقلت: ونحن في المغرب إذا خطبنا في الزوال وأردنا مصادفة ساعته ﷺ فإنا لا ندركها، لأن زوالنا يتأخر عن زوال المدينة بكثير، فينبغي لنا أن نتحرى ساعته عليه الصلاة والسلام قبل الزوال، وذلك يفضي إلى صلاة الجمعة قبل الزوال وهذا لا يجوز وكيف الحيلة؟

فقال رضي الله عنه: سر ساعته ﷺ سار في سائر الزوالات مطلقاً، فلا يعتبر زوال دون زوال كما لا يعتبر غروب دون غروب، وطلوع دون طلوع، بل المعتبر طلوع كل قطر وغروب كل مكان، فإنا نصلي الصبح على فجرنا لا على فجر المدينة المنورة، ونفطر على

غروبنا لا على غروبها، وهكذا سائر الأحكام المضافة إلى الأوقات، ومن جملة ذلك الزوال.

ثم طلبت من الشيخ رضي الله عنه ورغبت إليه في أن يبين لنا كيفية انتقالها ووجه تدريجها وكيف كانت في آخر ساعة من الجمعة، ثم جعلت تنتقل قليلاً قليلاً بالقهقرى حتى بلغت إلى الزوال، ثم زادت إلى أن كانت قبله صاعدة إلى أول النهار، ثم كيف ترجع عودها على بدئها، إلى أن ترجع إلى آخر النهار مع أن سرها السابق يقتضي أن لا تنتقل، وكذلك سر ليلة القدر يقتضي أن لا تنتقل كما لم تنتقل ساعة ثلث الليل الأخير وهي ساعة ولادته ﷺ، ، ثم ساعة الجمعة في غاية الصغر فكيف تستوعب في ستة أشهر من غروب الشمس إلى الزوال وتستوعب في ستة أخرى من الزوال إلى طلوع الشمس، اللهم إلا إذا كانت تكبر.

فقال رضي الله عنه: شرح ما سألت عنه منهي عنه، قلت: ولنذكر الأحاديث الشاهدة لكلام الشيخ رضي الله عنه الدالة على أنه وارد.

أما قوله: إن ساعة الجمعة وفقت لها هذه الأمة دون غيرها من الأمم فدليله ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَيْنَ أُمَمٍ أُوتُوا الكِتَابَ قَبحلَنَا وَأُوتِينَاهُ مِن بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فَهَدَانَا الله لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَهٰذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانَا الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْجُمْعَةِ، فَالْيَوْمُ لَنَا وَغَداً لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى».

وأما قوله: وأنها تنتقل وأنها قليلة جداً فدليله ما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«خَيْرُ يوم طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمْعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ مَاتَ وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمْعَةِ شَفَقاً مِنَ السَّاعَةِ إِلاَّ الجِنُّ والإِنْسُ وفيه سَاعَةٌ لا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ الله شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» وقال مسلم في صحيحه: **«فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»**. وقال في شأن الساعة: **«وَهِيَ سَاعَةٌ خَفِيفَةٌ»**. وقال: **«لاَ يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي»**.

وقال مسلم بن الحجاج في وقتها من حديث أبي موسى: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«فِيمَا بَيْنَ أَن يَجْلِسَ الإِمَامُ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الصَّلاَةُ».

قال عبد الحق ولم يسنده غير مخرمة بن بكير عن أبيه عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري، وقد رواه جماعة عن أبي بردة عن أبي موسى: أي جعلوه من قول أبي موسى لا

من قول النبي، فهو موقوف لا مرفوع، قال عبد الحق وغيره: ومخرمة لم يسمع من أبيه إنما كان يحدث من كتب أبيه، وقال أبو داود عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال:

«يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثِنْتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لا يُوجَدُ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ الله تَعَالَى شَيْئاً إِلاّ آتَاهُ إِيَّاهُ، فَالْتَمِسُوا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ».

قال عبد الحق: في إسناده الجلاح مولى عبد العزيز بن مروان، وقد ذكره أبو عمر ابن عبد البر من حديث عبد السلام بن حفص ويقال له ابن معقب عن العلاء بن عبد الرحمٰن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يُتَحَرَّى فِيهَا الدُّعَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنَ الْجُمُعَةِ».

قال: وعبد السلام ثقة مدني وكذا قال فيه ابن معين، أو لعله حكاه عنه أبو عمر، انظر عبد الحق في الأحكام الكبرى، وانظر ابن حجر في الفتح فإنه حكي واحداً وأربعين قولاً وذكر دلائلها وردودها وأطال في ذلك، ونسب الأقوال كلها وذكر الأحاديث الدالة عليها، وبين ما هو صحيح منها وما هو ضعيف أو موقوف أو غيره.

ولما وقفت على تلك الأقوال كلها وحفظتها كلها وعلمت دلائلها تكلمت مع الشيخ رضي الله عنه في الساعة المذكورة فسمعت منه أسراراً كتبت بعضها وهو ما سبق، نفع الله به آمين.

ولنرجع إلى ما سمعت منه في أمر الديوان فنقول:

سمعته رضي الله عنه يقول: إن لغة أهل الديوان رضي الله عنهم هي السريانية لاختصارها وجمعها المعاني الكثيرة، ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة والسريانية هي لغتهم ولا يتكلمون بالعربية إلا إذا حضر النبي ﷺ أدباً معه.

وسمعته رضي الله عنه يقول: ليس كل من يحضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ بل منهم من يقدر على النظر فيه، ومنهم من يتوجه إليه ببصيرته ولا يعرف ما فيه، ومنهم من لا يتوجه إليه لعلمه بأنه ليس من أهل النظر إليه، قال رضي الله عنه كالهلال، فإن رؤية الناس إليه مختلفة.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إذا اجتمع الأولياء في الديوان رضي الله عنهم أمد بعضهم بعضاً، فترى الأنوار تخرج وتدخل وتنفذ فيما بينهم كالنشاب ولا يتفرقون إلا على زيادة عظيمة.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الصغير من الأولياء يحضره بذاته، وأما الكبير فلا تحجير عليه، يشير رضي الله عنه إلى أن الصغير إذا حضره غاب عن محله وداره، فلا يوجد في بلدته أصلاً، لأنه يذهب إليه بذاته وأما الكبير فإنه يدبر على رأسه فيحضره ولا

يغيب عن داره لأن الكبير يقدر على التطور على ما شاء من الصور، ولكمال روحه تدبر له إن شاء ثلثمائة وستة وستون ذاتاً بل سمعت الشيخ رضي الله عنه مرة وأنا معه خارج باب الحبشة أحد أبواب فاس حرسها الله يقول: إيش هو الديوان والأولياء الذين يقيمونه كلهم في صدري.

وسمعته مرة يقول: إنما يقام الديوان في صدري.

وسمعته رضي الله عنه يقول مرة أخرى: السموات والأرضون بالنسبة إلى كالموزونة في فلاة من الأرض، يصدر هذا الكلام منه رضي الله عنه وما أشبهه إذا شهدنا منه زيادة بل هو في زيادة دائماً رضي الله عنه.

وقد كنت معه ذات يوم خارج باب الفتوح فجعل يذكر لي أكابر الصالحين مع كونه أمياً فقلت: فمن أين تعرفهم؟ فقال رضي الله عنه: أهل الفتح الكبير مسكن أرواحهم قبة البرزخ، فمن رأيناه فيها علمنا أنه من الأكابر ثم جرى بيننا ذكر الشيخ سيدي إبراهيم الدسوقي، فقال: هو من الأكابر، فجعلت أذكر مناقبه والغرائب التي نقلت من كراماته، فقال رضي الله عنه: لو عاش سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه من زمنه إلى زماننا ما أدرك من المقامات ولا ترقى مثل ما ترقى أخوك عبد العزيز يعني نفسه من أمس إلى اليوم، والله ما قاله أخوك افتخاراً؛ وإنما قاله تعريفاً وتحدثاً معكم بالنعمة.

وكنت داخلاً معه ذات يوم من باب الحبشة فنظر إلي وقال: علي في هذه الساعة ثلاث كسوات لو أخذت واحدة منها ووضعت على مدينة فاس لذاب جميع من فيها ورجع سورها وبنيانها ودورها وجميع من فيها عدماً محضاً.

وكنت داخلاً معه ذات يوم من باب الفتوح، فسألته عن أسمائه تعالى وعددها، وأن من العلماء من قال إنها أربعة آلاف.

فقال رضي الله عنه: إني في لحظة قدر تغميضة العين وفتحها أشاهد من أسمائه تعالى ما ينوف على مائة ألف والترقي هكذا على الدوام في كل لحظة.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فإن هذا بحر لا قرار له ونحن على ساحل التمني نغترف من بحور الشيخ رضي الله عنه على قدر الإمكان فنقول:

سمعته رضي الله عنه يقول: قد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره فيحصل بين أولياء الله تعالى من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضاً، فإن كان غالبهم اختار أمراً وخالف الأقل في ذلك فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق فيموتون جميعاً، وقد اختلفوا ذات يوم في أمر فقالت طائفة منهم قليلة، إن لم يكن ذلك الأمر فلنمت، فقالت الطائفة الكثيرة فموتوا إن شئتم، فماتت الطائفة القليلة.

قال رضي الله عنه: فإن تكافأ الفريقان حصل التصرف فيهما معاً.

فقلت: فإنهم أهل بصيرة وكشف، فلم يحصل بينهم النزاع وهم يشاهدون مراد الله تعالى ببصيرتهم.

فقال رضي الله عنه: إذا كان الأقل هو المخالف فإن الله يحجبهم عن المراد حتى ينفذ ما قضاه فيهم، وإذا تكافأ الفريقان فإن مراد الحق سبحانه يخفي على الجميع لأن قلوب الأولياء الأصفياء مظاهر الأقدار، وقد اختلفت وتكافأت.

فقلت: فما سبب غيبة الغوث رضي الله عنه عن الديوان.

فقال رضي الله عنه: سببه أحد أمرين، إما غيبته في مشاهدة الحق سبحانه اليوم على أخيه، حتى تفنى العوالم في نظره فلهذا لا يحضر في الديوان؛ وأما كونه في بداية توليته كما إذا كان ذلك بقرب موت الغوث الذي قبله فإنه قد لا يحضر في بداية الأمر حتى تتأنس ذاته شيئاً فشيئاً.

قال رضي الله عنه: وقد يحضر سيد الوجود ﷺ في غيبة الغوث، فيحصل لأهل الديوان من الخوف والجزع من حيث أنهم يجهلون العاقبة في حضوره ﷺ ما يخرجهم عن حواسهم، حتى إنه لو طال ذلك أياماً كثيرة لانهدمت العوالم.

قال رضي الله عنه: وإذا حضر سيد الوجود ﷺ مع غيبة الغوث فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء تارة كلهم وتارة بعضهم رضي الله عنهم أجمعين.

قال: وتجلس مولاتنا فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان في جهة اليسار كما سبق، وتكون مولاتنا فاطمة أمامهن رضي الله عنها وعنهن.

قال رضي الله عنه: وسمعتها رضي الله عنها تصلي على أبيها ﷺ ليلة من الليالي وهي تقول: اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون، اللهم صل على من هو إمام الأنبياء والمرسلين، اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين، وكانت تصلي عليه ﷺ لكن لا بهذا اللفظ وإنما أنا استخرجت معناه، والله أعلم.

فقلت: فإذا حضر الغوث فهل يقدر أحد على مخالفته؟

فقال رضي الله عنه: لا يقدر أحد أن يحرك شفته السفلى بالمخالفة فضلاً عن النطق بها، فإنه لو فعل ذلك لخاف على نفسه من سلب الإيمان فضلاً عن شيء آخر، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن أهل الديوان إذا اجتمعوا فيه اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم رضي الله عنهم يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم

المستقبل والليلة التي تليه، قال رضي الله عنه: ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية وحتى في الحجب السبعين وحتى في عالم الرقا بالراء وتشديد القاف، وهو ما فوق الحجب السبعين، فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف، رضي الله عنهم أجمعين.

وإذا كان هذا في عالم الرقا الذي هو فوق الحجب السبعين التي هي فوق العرش فما ظنك بغيره من العوالم.

قلت: ولقد قبض أصحاب المخزن ولداً لبعض أصحابي وكان المخزن يطلبه وهو متخوف منهم، فلما قبضوه أيقن أبوه بالهلاك فجاءني، فذهبت للشيخ رضي الله عنه فرغبته وكلمته فيه، فقال رضي الله عنه: إن كنت تظن أن القط يأكل الفأر بغير إذن فلان يعني نفسه فما ظنك بشيء؟ فلا تخف على الولد، وقل لأبيه يطيب خاطره فكان الأمر كذلك فإنه لما بلغ إلى المخزن أطلقه بلا سبب.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا أردت قضاء حاجة لك أو لغيرك فاذكرها لي ولا تزد أي ولا تحرص في قضائها وتهتم بها، فإن ذلك هو سبب عدم قضائها فكان الأمر كذلك فكنا إذا عرضت حاجة وذكرناها له وسكتنا جاء فيها الفرج سريعاً، وإذا وقع لنا بها اهتمام وعناية انغلق بابها، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه، هل يكون الديوان في موضع آخر غير غار حراء.

فقال رضي الله عنه: نعم يكون في موضع آخر مرة في العام لا غير، وهذا الموضع يقال له زاوية أسا بفتح الهمزة والسين بعدها ألف خارج أرض سوس بينها وبين أرض غرب السودان فيحضره أولياء السودان، ومنهم من لا يحضر الديوان إلا في تلك الليلة ويأذن الله تعالى ويسوق أهل آفاق تلك الأراضي ويجتمعون بالموضع المذكور قبل تلك الليلة بيوم أو بيومين وبعدها كذلك، ويجتمع في ذلك السوق من التبر ما لا يحصى.

فقلت: وهل ثم جمع آخر في غير هذين الموضعين؟ فقال: نعم يجتمعون ولكن لا يجتمع نحو العشرة منهم في موضع قط إلا في الموضعين السابقين لأن الأرض لا تطيقهم لأنه تعالى أراد تفرقهم في الأرض وفي الخلق، والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن المجاذيب، هل لهم دخل في الديوان؟ أو هل يتصرفون مثل ما يتصرف غير المجاذيب.

فقال رضي الله عنه: لا دخل لهم في الديوان، ولا بأيديهم تصرف، وإذا بلغ إليهم التصرف هلك الناس.

فقلت: ومتى يبلغ إليهم؟ فقال رضي الله: وقت خروج الدجال لعنه الله فيقع التصرف بأيديهم ويكون كبير الديوان منهم وليس معه عقل تمييز فيقع الخلل في التصرف ويكون ذلك سبباً في خروج الدجال.

قلت: وقد سمعت من الشيخ رضي الله عنه حكاية تضمنت كلاماً على المجاذيب وعلى كثير من أحكامهم وفيها فوائد أخر فلنكتبها برمتها.

وسمعته رضي الله عنه يقول: كان سيدي حماد المجذوب رضي الله عنه وهو من أهل المغرب يطلب بسوق مصر ويسعى فيما يأكل، وكان الوقت وقت غلاء، فبينما هو قاصد لحانوت رجل ليطلبه ويسأله شيئاً مما يتقوت به، إذ حانت منه نظرة باطنية فرأى ذهباً كثيرا في زير وهو مدفون بإزاء حانوت الرجل المقصود، قال: وكان الرجل المقصود من العارفين، فنظر إلى سيدي حماد قاصداً له فأراد أن يختبره، فلما سأله سيدي حماد قال له الرجل الله يفتح عليكم، فأعاد سيدي حماد السؤال، فأعاد الرجل كلامه، ثم قال: إن كان هذا سيدي حماداً فإني أختبره، فقال لسيدي حماد، أنت تطلب والذي تحت رجلك يكفيك؟ يشير الرجل إلى الذهب المدفون، لأن سيدي حماداً وقف على موضعه لما بلغ قرب الباب، فقال سيدي حماد، الذي تحت رجلي ذهب، وأنا إنما أطلب نصف فضة أتقوت به، فعلم الرجل بحاله وأعطاه عشرة أنصاف فضة وانصرف.

فقلت: وما سبب معرفة الرجل به قبل أن يراه حتى أراد أن يختبره.

فقال رضي الله عنه: علمه به أولاً قبل أن يراه بمثابة رجل نائم مناماً قريباً من اليقظة ورأى في منامه رجلاً على صفة كذا ثم استيقظ وإذا هو بالرجل واقف بين يديه فإنه ينظر هل هو الذي رأى في منامه أم لا؟ حتى يرتفع الشك، ويعلم أن ما رآه في اليقظة هو ما رآه في المنام الذي هو شبه اليقظة.

فقلت: وما باله قال له أولاً الله يفتح عليكم فلما علم بولايته أعطاه ما سأل وزاده، فإن العطية إن كانت لله عز وجل فلا ينظر فيها إلى الآخذ ولياً كان أم لا، فإن ربهما تعالى واحد وإن كانت العطية لغير الله فإنها لا تناسب حالة العارفين رضي الله عنهم، فحيث منعه أولاً كان من حقه أن يمنعه ثانياً، إن كان المنع لله كما أنه حيث أعطاه ثانياً كان من حقه أن يعطيه أولاً، إن كانت العطية لله عز وجل.

فقال رضي الله عنه: إن المؤمن له حق واحد وهو حق الإيمان، والولي له حقان: حق الإيمان وحق المعرفة بالله عز وجل، وهو حيث قال له أولاً الله يفتح عليكم، قاله على أنه أي السائل من جملة المؤمنين، فمنعه، لأن حق الإيمان لم يستوجب نصيباً من ماله في تلك الساعة، فلما جربه وعلم أنه من العارفين تأكد أمره وتزايد حقه فاستوجب نصيباً من ماله بسبب المعرفة التي اشتركا فيها، فإن وصف المعرفة بالله تعالى كعقد الأخوة بين

المتواخيين في الله عز وجل، فالمنع أولاً لله عز وجل والعطية ثانياً لله عز وجل، فهو كمثل رجل سأله سائل من وراء باب فقال له الله يفتح عليكم، ثم فتح الباب وإذا السائل أخ للمسؤول فمن الواجب عليه أن لا ينزله منزلة الأجنبي حتى يمنعه بعد أن علم بأخوته كما منعه قبل أن يعلم بها فإن هذا ينافي الأخوة وما تقتضيه من صلة الرحم.

فقلت: وما هو النصيب الذي تقتضيه المعرفة في مال المسؤول.

فقال رضي الله عنه: هو ما يوجبه عقد الأخوة في الله تعالى، فإن لم يكن لك سوى أخ في الله فله نصف مالك، وإن كان لك تسعة فلكل واحد عشر مالك.

فقلت: فما باله أعطاه عشرة أنصاف ولم يعطه نصف ماله.

فقال رضي الله عنه: لم ينحصر السائل العارف في ذلك السائل، فلعل عارفاً آخر يقصده بعد ذهاب الأول، ثم ثالثاً ورابعاً وهلم جرا، والمرء سفينة نفسه في تفرقة النصيب الواجب عليه لإخوانه في الله عز وجل.

فقلت: وأي شيء كان سيدي حماد؟

فقال رضي الله عنه: كان من المجاذيب والرجل المقصود اسمه سيدي إبراهيم كان من السالكين وكلاهما من العارفين رضي الله عنهما.

فقلت: وما الفرق بين المجذوب والسالك مع اشتراكهما في المعرفة بالله عز وجل.

فقال رضي الله عنه: المجذوب هو الذي يتأثر ظاهره بما يرى، ويسره ما يشاهده فيجعل يحاكيه بظاهره ويتبعه بحركاته وسكناته، والشخص إذا رحمه الله تعالى وفتح بصيرته لا يزال يشاهد من عجائب الملأ الأعلى ما لا يكيف ولا يطاق، فإن كان مجذوباً فإنه يتبع بظاهره ما يراه ببصيرته وما يراه ببصيرته لا ينحصر، فلذا لا ينضبط له حال فإذا رأيت من المجاذيب من يتمايل طرباً فإنه غائب في مشاهدة الحور العين، فإن ذلك هو هيئة حركاتهن فظاهره مشتغل بمحاكاة ما يشاهد من أمرهن.

وأما السالك فهو الذي لا يتأثر ظاهره بما يرى ولا يحاكي شيئاً من الحركات التي يشاهدها بل هو بحر زاخر ساكن لا يظهر عليه شيء، وهو أكمل من المجذوب وأجره يزيد على أجر المجذوب بالثلث، وذلك أن السالك على قدم النبي ﷺ، فإنه ﷺ لم يكن ظاهره يتأثر بشيء، ولذا ترى السالكين بعقولهم والمجاذيب لا عقول لهم في الغالب، لأن ظاهرهم إذا اشتغل بمحاكاة ظاهر غيرهم ضاع ظاهرهم الذي كان لهم في أصل الخلقة قبل الفتح فضاعت عقولهم تبعاً لذلك.

قال رضي الله عنه: وكان بعض السالكين من العارفين رضي الله عنهم يحضر الديوان وكان من الأكابر وكان له ولد من صلبه فكان يعلم أنه وارثه ولكن لا يدري هل يخرج

مجذوباً أو سالكاً، فحمله مرة على عنقه ومشى به حتى دخل به على أهل الديوان في محل الديوان، فقالوا ما هذا يا فلان؟ وأنت تعلم أنه لا يحل لمن لا يكون من أهل الخطوة أن يمشى به بالخطوة؟ فقال لهم: نسألكم العفو والصفح والمجاوزة، ثم تقدم إلى الغوث رضي الله عنه، فقال له يا سيدي: قدمت إليك هذا المجمع الشريف وحرمته حرمة النبي ﷺ ومجلسه ذلك إلا ما أعلمتني بشأن ولدي هل يصير مجذوباً أو سالكاً؟ فقال له الغوث: هذا أمر لا يعلم فإن نور الإيمان الذي في السالك هو بعينه الذي في المجذوب، والمعرفة التي في هذا هي التي في هذا، والتفاوت الذي بينهما في الحسنات والدرجات غيب عنا، ولا يعلم إلا في الآخرة فبأي حيلة يعلم أن ولدك هذا مجذوب أو سالك، هذا ما لا يكون فقال، للغوث رضي الله عنه: يا سيدي ما جعلك الله غوثاً إلا وأنت تعلم هذا وأكثر، ثم سأله بجاه النبي ﷺ إلا ما بين له الحالة التي سيصير إليها الصبي من سلوك أو جذب، فقال الغوث رضي الله عنه: إئتوني بعود فأتوه به فقال: هل من سكين فأتوه بها، فقال للصبي تقدم فجعل يتقدم حتى أجلسه بين يديه، ثم جعل ينجر العود بالسكين والصبي ينظر، فجعل الغوث رضي الله عنه ينجر ويحزز في العود وهو يعض مرة على لسانه ومرة على شفتيه، ويرمق الصبي في أثناء ذلك، وإذا الصبي يعض على لسانه إذا عض الغوث رضي الله عنه على لسانه، ويعض على شفتيه إذا عض الغوث رضي الله عنه على شفتيه، فقال له خذ ولدك فإنه سيخرج مجذوباً، فقال يا سيدي: بم عرفت ذلك؟ فقال: إنه يتأثر ظاهره بما يرى ويشاهد.

قال رضي الله عنه: والسالكون يتجنبون المجاذيب في أمور: منها أن السالك لا يأكل مع المجذوب، لأن المجذوب لا يبالي بما يخرج على لسانه من سب أو غيره فيجب على السالك أن يتقي ذلك منه، ومنها أنه لا يسافر معه لهذه العلة، ومنها أنه لا يلبس ثوبه لأنه لا يتوقى النجاسة، ومنها أنه لا يحل للسالك أن يتزوج مجذوبة وكذا العكس.

وأما الشيخ فإنه قد يتخرج المجذوب على السالك كما في حكاية الصبي فإنه مجذوب وأبوه سالك، وقد يتخرج السالك على المجذوب كما وقع لسيدي يوسف الفاسي فإنه سالك وشيخه سيدي عبد الرحمٰن المجذوب مجذوب.

فقلت: فكيف يكون هذا والمجذوب مشغول عن نفسه فكيف بغيره حتى يشتغل بتربيته.

فقال رضي الله عنه: إن الجذب يختلف بالقوة والضعف فمنهم من يقل جذبه ومنهم من يكثر بحيث لا يفيق والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الأولياء يفعلون أموراً عظيمة سخرهم الحق سبحانه فيها حتى يتعجب المتعجب من تلك الأفعال، وإذا نظرت بعين الحقيقة وجدت الفاعل لها هو الحق سبحانه، وهم محمولون كغيرهم من المخلوقات من غير فرق.

فقلت: فالأولياء رضي الله عنهم يشاهدون أفعال الحق سبحانه، وإذا كانوا مشاهدين لأفعاله تعالى فكيف يشاهدون الفعل من أنفسهم أم كيف ينسبون ذلك لذواتهم.

فقال رضي الله عنه: إن الأولياء وغيرهم ممن أكرمه الله تعالى إنما يشاهدون أفعاله تعالى في غيرهم، ولا يطيق أحد من مخلوقات الله تعالى أن يشاهد أفعاله تعالى في ذات نفسه، ولو شاهد الأفعال الربانية في ذاته لذابت ذاته وسالت، وإنما يطيق المخلوق أن يشاهد أفعال الحق سبحانه بالوسائط وفي غير ذاته إما مباشرة في ذاته فلا يطيق ولا يطيق المخلوق أن يشاهد الفاعل في ذاته، ولذا خلق تعالى الوسائط وجعل الملائكة ظروفاً تظهر فيها أفعاله لئلا تذوب المخلوقات، وإنما أطاقت الملائكة لأن ذواتها أنوار صافية وليست بأجرام ترابية.

واعلم أن للملائكة خصوصية في توسطهم في الفعل ليست لغيرهم، حتى إنك إذا نظرتت بعد الفتح وجدتهم لا يخلو منهم مكان من أمكنة المخلوقات، فتراهم في الحجب وتحتها، وفي العرش وتحته، وفي الجنة وفي النار وفي السماء وفي الأرض وفي الكهوف والجبال والأودية وسائر البحار.

قال رضي الله عنه: ولأجل هذا النفع الحاصل بهم في التوسط بين الخلق والحق سبحانه وجب الإيمان بهم دون غيرهم من الموجودات العظام كالحجب ونحوها والله أعلم.

وكنت أتكلم معه رضي الله عنه ذات يوم. فذكرت له سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وما سخر الله له من الجن والإنس والشياطين والريح وذكرت ما أعطى الله تعالى لأبيه سيدنا داود عليه السلام من صناعة الحديد وإلانته حتى يكون في يده مثل قطع العجين، وما أعطى الله لسيدنا عيسى عليه السلام من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه ونحو ذلك من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفهم مني كأني أقول له وسيد الوجود ﷺ فوق الجميع، ولم لم يظهر على يده مثل ذلك وأنه وإن ظهر على يده شيء من المعجزات فمن فن آخر.

فقال رضي الله عنه: كل ما أعطيه سليمان في ملكه عليه السلام، وما سخر لداود، وأكرم به عيسى عليه السلام أعطاه الله تعالى وزيادة لأهل التصرف من أمة النبي ﷺ، فإن الله سخر لهم الجن والإنس والشياطين والريح والملائكة بل وجميع ما في العوالم بأسرها ومكنهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ولكنه أمر غيبي مستور لا يظهر إلى الخلق لئلا ينقطعوا إليهم فينسون ربهم عز وجل، وإنما حصل ذلك لأهل التصرف ببركة النبي ﷺ، فكل ذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام، ثم ذكر أسراراً لا تطيقها العقول والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه ذات يوم فقلت: إن أهل التصرف رضي الله عنهم لهم القدرة على إهلاك الكفرة إينما كانوا فما بالهم تركوهم مع كفرهم وعبادتهم غير الله عز وجل ومن كان بهذه الصفة فهلاكه واجب.

فقال رضي الله عنه: وقد حول وجهه إلى خلف ثم رده بقدر الولي في هذه اللحظة على إهلاك هذا البر كله، ومع ذلك فإذا حضر بين معركة من المسلمين والكفار يحرم عليه أن يتصرف في الكفرة بشيء من ذلك السر، وإنما يقاتلهم بما جرت به عادة القتال من ضرب بسيف وطعن برمح ونحو ذلك اقتداء بالنبي ﷺ.

قال رضي الله عنه: ولقد التقت سفينة للمسلمين وكان فيها وليان من أولياء الله عز وجل مع سفينة للكفار، فلما حمى بينهم القتال، قام أحد الوليين وكان صغيراً فتصرف في السفينة بذلك السر، فانطلقت النار في سفينة الكفرة وهم يرون ولم يصدر منه سبب عادى يستر به تصرفه، وإنما احترقت السفينة بلا سبب، فلما فعل ذلك الولي ما فعل سلبه الولي الآخر الذي كان معه وكان أكبر منه عقوبة على ما فعل.

قال رضي الله عنه: وإنما لم يجز التصرف في الكفرة دمرهم الله بذلك السر لأن صاحبه في تلك الحالة خارج في الحقيقة عن عالم البشر والتحق بعالم آخر، وكما لا يجوز لعالم الملائكة مثلاً أن يتصرفوا فيهم بما تطيقه قوتهم، كذلك لا يجوز لصاحب السر أن يتصرف فيهم بقوته بل تجري لهم على يديه الأمور التي بها بقاؤهم ودوام عيشتهم كما أن عليهم حفظة من الملائكة يدبرون أمورهم منذ نشؤوا إلى أن ينقرضوا.

وبالجملة فالكفرة دمرهم الله من عالم البشر فلا يستعمل معهم في قتالهم وهلاكهم إلا ما هو عادة في عالم البشر لا غير والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: نظر بعض بنات النصارى لعنهم الله ذات يوم للقمر، فقالت لأبيها وهي صغيرة يا أبت من خلق هذا فأشار أبوها إلى صليب في الأرض فقال هذا فأخذته البنت إلى قدر قامتها وتركته في الهواء فسقط إلى الأرض، فقالت: يا أبت إذا لم يمسك نفسه في هذا القدر القريب فمن أمسكه؟ حتى خلق القمر في علوه وارتفاعه فسبها أبوها.

فقلت: وهل البنت مسلمة فقال لا فقلت: وهل أسلمت بعد ذلك فقال لا، فقلت: فأني لها بهذا الاعتراض الحق والنور الواضح الساطع؟ فقال: كان بعض أهل الحق حاضراً فنظر إليها فتكلمت والله أعلم.

قلت: والمراد بالبعض الحاضر هو الشيخ رضي الله عنه والنظرة التي نظر إليها نظرة باطنية لكنه محجوب عن أبصارهم رضي الله عنه والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن الولي إذا تصور في صورة غير صورته، وقتل في تلك الصورة من المتألم حينئذ روحه أم الجسم الأصلي أم المتصور فيه.

فقال رضي الله عنه: الذي يجب في العقيدة هو تماثل الألمين في الدارين والناس لا معرفة لهم بهذا، لظنهم أن المقصود بالألف هو الذات وليس كذلك إنما المقصود هو الروح، ثم ذكر سراً من أسرار الله تعالى بين به ذلك، ووجه الشاهد من هذا الباب وذلك أن الولي إذا سخره الله لموضع لا تطيقه ذاته الترابية لعائق من حر شديد أو برد شديد أو نحو ذلك فإن روحه تخرج من ذاته وتدخل من بعض الأجرام المطيقة لذلك العائق وتفعل ذلك الأمر، قال وإذا تألم في الذات المنتقل إليه أحس بالألم مثل إحساسه به إذا كانت روحه في ذاته من غير فرق.

فقلت: وما هذه الأجرام التي يقع فيها الدخول والانتقال، فقال: مثل الجمل والثور ونحوهما مما يطيق ذلك العائق.

فقلت: فأرواحهم في ذواتهم فكيف تدخلها روح الولي مع ذلك، فقال أرواحهم وإن كانت في ذواتهم إلا أنها ليست كأرواح بني آدم، فإن أرواح البهائم كعقولهم وعقولهم كأرواحهم فلذا أرواحهم لا تحكم على ذواتهم كحكم أرواح بني آدم على ذواتهم، فلذا كان الولي يتصور في ذات البهائم إذا أراد أن ينفذ قدراً يتوقف على ذلك ولا يتصور في ذات بني آدم التي فيها أرواحها.

فقلت: فإنا نرى في بعض الأحيان ثوراً مثلاً لا تشويش عليه ثم يعتريه أمر فينزعج ويتحرك نحو شخص حتى يقتله، فيمكن أن يكون الولي تصور في ذاته حتى نفذ ذلك القدر.

فقال: يمكن ذلك إذا كان ذلك الشخص المقتول كافراً لأن جند النور وجند الظلام في قتال شديد.

فقلت: فهذه البهائم مثل القط والكلب التي يتصور عليها الشياطن يمكن أن تكون من هذا المعنى.

فقال رضي الله عنه: نعم الشياطين من الظلام والباطل والأولياء رضي الله عنهم من الحق والنور والظلام جندان، فالهائم المذكورة تارة يتصور عليها هذا الجند وتارة يتصور عليها الجند الآخر لتنفيذ قدر.

فقلت فأي قدر يتوقف على تصور الولي على صورة الحنش.

فقال: إذا أمره الله أن يقتل زبداً بالسم فإن روحه تدخل في الصورة المذكورة حتى ينفذ القدر.

فقلت: فلا سم في روح الولي، فقال رضي الله عنه: وأي شيء هو السم همة الولي وعزيمته تنفعل لها الأشياء، فإذا هم بشيء كان، فسألته عن روح الولي إذا خرجت من ذاته فعلى أي حالة تبقى ذاته، فقال رضي الله عنه: تبقى بلا روح فإن كان من صغار الأولياء بقيت ذاته على صورة المبهوت المخلوع لا يتكلم بشيء، وإذا تكلم لا يفهم ما يقول ولا يعرفه، وإن كان من الكبار بقيت ذاته على حالة ما إذا كانت فيها روحها تتكلم وتضحك. كأنها على حالتها الأولى.

فقلت: فإذا بقيت بلا روح ماتت فكيف ساغ من الأول أن يبقى على هيئة المخلوع؟ ومن الثاني أن يبقى على حالته وقد خرجت روحهما.

فقال رضي الله عنه: إذا خرجت الروح بقيت آثارها في الذات من حرارة ونحوها، فما دامت الآثار فيها بقيت الذات حية ولا تنتفي الآثار عنها إلا بعد أربع وعشرين ساعة، قال فمن رجعت روحه لذاته قبل ذلك بقي على حياته، ومن مرت على روحه المدة المذكورة وهي مفارقة لذاته لم يمكنها الرجوع لذاته أبداً وصار في عداد الأموات، وكم من ولي تقبض روحه على هذه الحالة ولله عناية عظيمة بمن قبضت روحه على هذه الحالة.

فسألته عما سمعت من بعض الأولياء تغيب روحه عن ذاته ثلاثة أيام ثم ترجع، فإن هذا يخالف ما سبق.

فقال رضي الله عنه: هذا الذي سمعتموه حق وتبقى غائبة سبعة عشر يوماً وأكثر، ولكن لا بد لها من تشوف نحو ذاتها، ويتشوفها تحصل حياة الذات، ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً، فقال: كمن جاء إلى موضع مخوف فوجد وادياً فأزال ثيابه وجعل يسبح في الماء فإنه في الماء وهو يخاف على ثيابه، فتراه يسبح مرة ويرفع رأسه مرة أخرى نحو ثيابه خوف السرقة عليها، فكذلك الروح إذا خرجت من الذات فإنها تنتبه إليها كانتباه السابح إلى ثيابه، لكن انتباه السابح بالرؤية فقط والروح لخفتها انتباهها بالدخول، فبانتباهها للذات يقع لها الدخول فيها، ثم تخرج لقضاء الأمر الذي كلفت به ثم تنتبه للذات فتدخل فيها، وهكذا إلى أن تقضي ذلك الأمر في ثلاثة أيام أو أكثر فلا منافاة بينه وبين ما سبق، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الولي صاحب التصرف يمد يديه إلى جيب من شاء فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر، قلت: لأن اليد الذي يأخذ بها الولي باطنية لا ظاهرية.

ثم حكى لنا حكاية وقعت لبعض الأولياء نفعنا الله بهم مع جار له: وذلك أن ذلك الجار كانت له امرأة قد أودع عندها رجل خمسة مثاقيل، ثم ذهب في الحركة إلى ناحية فجيج، وقال إن عشت أخذتها وإن مت فاعطها لأولادي، فغاب المودع ثم حضرت المنية المرأة فأوصت زوجها جار الولي، وقالت: إن جاء ربها فأعطها له، فأنعم لها بذلك فلما

دفنها غدر في الأمانة وأكلها، ثم جاء ربها فأنكره، ثم جعل يجمع ويكتسب حتى جمع خمسة مثاقيل مثل العدة السابقة، ففرح بها وخرج من داره وترك الولي عند باب داره، وكانا يسكنان برأس الجنان من محروسة فاس أمنها الله تعالى حتى جاء إلى الشماعين فاشترى شمعة بقصد أن يأتي بها إلى ضريح سيدي عبد القادر الفاسي نفعنا الله به، فلما كان عند الفرن الذي بسبع لويات مد الولي يده من رأس الجنان إلى جيب الرجل وهو عند الفرن المذكورة فأخذ منه الخمسة مثاقيل عقوبة على غدره بالأمانة والرجل لا شعور له بشيء حتى بلغ إلى الضريح المذكور، فأنزل عليه الشمعة وطلع لرأس الجنان فلما وقع بصره على الولي ألهمه الله أن يراجع ما في جيبه، فأدخل يده فلم يجد شيئاً فغضب، وجعل يتكلم مع الولي وهو لا يظن فيه ولاية ويقول: والله ما بقي ولي لله لا حي ولا ميت، والولي يضحك حتى كاد يسقط إلى الأرض من كثرة الضحك، ثم استفهمه الولي وقال يا عم عبد الرحمٰن أيّ شيء أصابك؟ فقال له: لقد خرجت وفي جيبي خمسة مثاقيل، وقلت أشترى شمعة لسيدي عبد القادر الفاسي فرحاً بالدراهم فكان من بركته عليّ أن أخذها السفارون فازداد ضحك الولي، والله أعلم.

قلت: والولي المذكور الذي أخذ الدراهم من الجيب هو الشيخ رضي الله عنه، وقد وقع له يوماً بحضرة جماعة من أصحابنا ما يقرب من هذه الحكاية مع الفقيه سيدي محمد بن علي المجاوي رحمه الله تعالى بفتح الميم وتشديد الجيم نسبة إلى مجاورة القبيلة المعروفة بناحية نازي، وذلك أنه قدم من وطنه بقصد زيارة الشيخ رضي الله عنه، فخرج الشيخ إليه وإلى جماعة من الأصحاب وجلس معهم عند باب داره مستنداً إلى جدارها، وسيدي محمد بن علي مستنداً إلى جدار الدار التي تقابلها وبينهما الطريق السابلة، فقال الشيخ رضي الله عنه للفقيه المذكور وكان يحبه كثيراً: هل عندكم دراهم؟ فقال: يا سيدي ما عندي شيء فعاد الشيخ لقوله والفقيه لقوله ثلاث مرات، فقال له الشيخ: انظر، وكان في جيب الفقيه ثمان عشرة موزونة مصرورة في خرقة فلم يمكنه إلا الإقرار، فقال: يا سيدي ثمان عشرة موزونة فقال الشيخ هاتها فأدخل يده في جيبه ففتش عليها فلم يجد شيئاً فبقي مبهوتاً، فضحك الشيخ رضي الله عنه وأخرجها له من تحته في خرقتها وقال له مسكين يا سيدي محمد بن علي من يقدر على هذا كيف يسعك أن تدس عليه وتخبىء منه؟

قلت: وقد ظهرت لنا كرامة أخرى في هذا الفقيه من الشيخ رضي الله عنه، وذلك أن الفقيه المذكور كان شحيحاً على الدنيا محباً لها كثيراً وكان عنده منها ما شاء الله، وكان لا يولد له فلما التقى مع الشيخ رضي الله عنه وألقى الله في قلبه محبته لم يزل رضي الله عنه يأمره بإخراج دنياه لله عز وجل، وجعلت نفس الفقيه تسمح بذلك وتجود وكان يتعجب منها، فإنه لم يكن يعهد منها ذلك ثم شدد الشيخ رضي الله عنه عليه في إخراج ماله في وجوه الخير حتى كنا نرحمه ويقول القاصد منا إن الشيخ رضي الله عنه ثقل عليه كثيراً،

والفقيه المذكور يفرح بذلك غاية الفرح، ونحن لا نعرف العاقبة والشيخ رضي الله عنه كان يعرفها، وذلك لأن الفقيه كان قد قرب أجله ودنت وفاته فكان الشيخ رضي الله عنه يبني له القصور في الجنة، ويقدم له ماله بين يديه ونحن لا ندري، فلما كاد مال الفقيه المذكور يفنى ولم يبق إلا مقدار ما ترثه زوجته وتأخذه في صداقها، توفي الفقيه المذكور رحمه الله وهكذا فعل الشيخ رضي الله عنه مع صاحبه الجليل سيدي علي بن عبد الله الصباغي المتقدم في أول الكتاب، فإنه رضي الله عنه منذ عرفه ألح عليه في إخراج دنياه لله عز وجل فلما فنيت دنياه توفي على أثرها وانقلب إلى ما عند الله عز وجل.

فانظر وفقك الله النفع الحاصل من معرفة أمثال الشيخ رضي الله عنه والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: الفرق بين أخذ الولي صاحب التصرف متاع الناس وبين أخذ السارق واللص له الحجاب وعدمه، فالولي مشاهد لربه عز وجل مأمور من قبله بالأخذ، قال الله تعالى:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

قال رضي الله عنه: ولقد دخل سيدي منصور القطب رضي الله عنه إلى مولانا إدريس نفعنا الله به، فوجد سيدي أبا يعزي بن أبي زيان البكاري يزور، فأخذ بلغته وخرج، فقلت للشيخ رضي الله عنه في ذلك فقال: الفرق بين أخذ الولي والسارق الحجاب وعدمه؟ فسيدي منصور لكونه قطباً مشاهداً البلغة له ورآها في اللوح المحفوظ من قسمته وسمع الأمر من الحق سبحانه بأخذها يحل له الأخذ كيف أمكنه والسارق محجوب غافل عن ربه.

ثم حكى حكاية سيدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه في الثور الذي قبضه أصحابه فأمرهم سيدي عبد الرحمٰن بذبحه وأكله وامتنع سيدي يوسف الفاسي وارثه من أكله، حتى جاء ربه فأخبرهم أنه صدقة لسيدي عبد الرحمٰن وأصحابه.

قلت: وهي حكاية مشهورة وكذلك سيدي أبو يعزي السابق لو أمكنه أن يعطي بلغة من لحمه لسيدي منصور لفعل أعاذنا الله من سوء الانتقاد على الكمل من العباد فهذا ما أردنا نذكره في هذا الباب نفع الله به آمين.

الباب الخامس

في ذكر التشايخ والإرادة
وبعض ما سمعنا منه في هذا الباب رضي الله عنه

سأله رضي الله عنه بعض الفقهاء عما قيل إن التربية انقطعت، ، فهل هذا صحيح أم لا؟

ونص السؤال سيدنا الإمام: من فتح الله عليه من فتوحات أوليائه الكرام وتفضل عليه بالانتساب لبيت النبوة على الموصوف بها أفضل الصلاة وأزكى السلام، علمنا علمك الله من علومه اللدنية، ما يزيح الإشكال عن قلوب الرجال، ويسرح عقولها من العقال إلى نيل العلوم الروحانية ببيان العبارة وضرب الأمثال، فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، فمنها سيدي ما نقل عن الشيخ زروق رضي الله عنه انقطعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال، فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان، هل ذلك خاص بزمانه أو هي منقطعة إلى نزول سيدنا عيسى عليه السلام؟ فإن قلتم انقطع فما سبب قطعه؟ وإن قلتم هو باق فمن الشيخ الذي تعطى له روح المريد يتصرف فيها بالخلوة وكيف يشاء؟ عينه لنا في أي إقليم وبلاد ممن نجح على يده أحد من العباد اهـ. وهذا الفقيه الذي سبقت الإشارة إليه في تفسير ق وفي شرح حديث الكتابين اللذين فيهما أسماء الجنة والنار.

فأجاب رضي الله عنه: بأن المقصود من التربية هو تصفية الذات وتطهيرها من رعوناتها، حتى تطيق حمل السر، وليس ذلك إلا بإزالة الظلام منها وقطع علائق الباطل عن وجهتها، ثم قطع الباطل عنها تارة يكون بصفائها في أصل خلقتها بأن يطهرها الله بلا واسطة، وهذه حالة القرون الثلاثة الفاضلة الذين هم خير القرون، فقد كان الناس في تلك القرون متعلقين بالحق باحثين عليه إذا ناموا ناموا عليه وإذا استيقظوا استيقظوا عليه، وإذا تحركوا تحركوا فيه حتى أن من فتح الله بصيرته ونظر إلى بواطنهم وجد عقولهم إلا النادر متعلقة بالله وبرسوله باحثة عن الوصول إلى مرضاتهما، فلهذا كثر فيهم الخير وسطع في ذواتهم نور الحق، وظهر فيهم من العلم وبلوغ درجة الاجتهاد ما لا يكيف ولا يطاق، فكانت التربية في هذه القرون غير محتاج إليها، وإنما يلقي الشيخ مريده وصاحب سره ووارث نوره فيكلمه في أذنه فيقع الفتح للمريد بمجرد ذلك لطهارة الذوات وصفاء العقول، وتشوفها *إلى نهج الرشاد*، وتارة يكون بتسبب من الشيخ فيه أعني قطع الظلام من الذوات،

وذلك فيما بعد بعد القرون الفاضلة حيث فسدت النيات وكسدت الطويات وصارت العقول متعلقة بالدنيا باحثة عن الوصول إلى نيل الشهوات، واستيفاء اللذات، فصار الشيخ صاحب البصيرة يلقي مريده ووارثه فيعرفه وينظر إليه فيجد عقله متعلقاً بالباطل ونيل الشهوات، ويجد ذاته تتبع العقل في ذلك فتلهو مع اللاهين وتسهو مع الساهين وتميل مع المبطلين، وتتحرك الجوارح في ذلك حركة غير محمودة، من حيث أن العقل الذي هو مالكها مربوط بالباطل لا بالحق، فإذا وجده على هذه الحالة أمره بالخلوة وبالذكر وبتقليل الأكل فبالحلوة ينقطع عن المبطلين الذين هم في عداد الموتى، وبالذكر يزول كلام الباطل واللهو واللغو الذي كان في لسانه وبتقليل الأكل يقل البخار الذي في الدم فتقل الشهوة فيرجع العقل إلى التعلق بالله وبرسوله، فإذا بلغ المريد إلى هذه الطهارة والصفاء أطاقت ذاته حمل السر، فهذا هو غرض الشيوخ من التربية وإدخال الخلوة، ثم بقي الأمر على هذا مدة إلى أن اختلط الحق بالباطل والنور بالظلام فصار أهل الباطل يربون من يأتيهم بإدخال الخلوة وتلقين الأسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق، وقد يضيفون إلى ذلك عزائم واستخدامات تفضي بهذا إلى مكر من الله تعالى واستدراجات، وكثر هذا الأمر في الأعصار التي أدركها الشيخ زروق رضي الله عنه وأدركها شيوخه فظهر، لهم من النصيحة لله ولرسوله أن يشيروا على الناس بالرجوع عن هذه التربية التي كثر فيها المبطلون، وأن يقفوا بالناس في ساحة الأمن التي لا خوف فيها ولا حزن وهي اتباع السنة والكتاب اللذين لا يضل من اهتدى بهما، فكلامهم رضي الله عنهم خرج مخرج النصيحة والاحتياط، ولم يريدوا رضي الله عنهم الانقطاع رأساً لتربية الحقيقية وحاشاهم من ذلك فإن نور النبي ﷺ باق وخيره شامل وبركته عامة إلى يوم القيامة.

وأما قولكم فمن الشيخ الخ.

فجوابكم: إن الشيخ الذي يلقي إليه بالقياد هو العارف بأحوال النبي ﷺ الذي سقيت ذاته من نوره ﷺ، حتى صار على قدم النبي ﷺ، وأمده الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان، فهذا هو الذي يلقي إليه بالقياد وتنبغي محبته وتنفع خلطته فإنه يجمع العبد مع ربه، ويقطع عنه الوساوس في معرفته ويرقيه في محبة النبي ﷺ.

وأما قولكم فعينوه لنا في أي إقليم أو بلد؟ فجوابه: إن الموصوف المذكور متعدد والحمد لله في البلاد والعباد، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة واطلبه تجده.

فَ ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

وسأله الفقيه المذكور أيضاً عن الشيخ الذي يدعي رؤية النبي ﷺ بما نصه:

ومنها: أن الأسئلة سيدي: من ادعى أنه يرى النبي ﷺ يقظة، قال العارفون بالله لا تقبل دعواه إلا ببينة، وهو أن يقطع ثلاثة آلاف مقام إلا مقاماً، ويكلف المدعي بعدها ببيانها

فالمطلوب من سيادتكم أدامها الله أن تعدوها لنا ولو برمز واختصار أو ما تيسر منها من غير استكثار.

فأجاب رضي الله عنه: بأن في باطن كل ذات ثلثمائة وستة وستين عرقاً كل عرق حامل للخاصية التي خلق لها والعارف ذو البصيرة يشاهد تلك العروق مضيئة شاعلة في معاني خواصها، فللكذب عرق مشعول بخاصيته، وللحسد عرق يضيء به، وللرياء عرق يضيء به، وللغدر عرق يضيء به، وللعجب عرق يضيء به وللكبر عرق يضيء به وهكذا حتى تأتي على سائر العروق، حتى أن العارف إذا نظر إلى الذوات رأى كل ذات بمنزلة فنار علقت فيه ثلثمائة وست وستون شمعة، كل شمعة على لون لا يشابه لون غيرها، ثم هذه الخواص في كل واحدة منها تفاصيل وأقسام، فخاصية الشهوة مثلاً لها أقسام بحسب ما تضاف إليه، فإن أضيفت إلى الفروج كانت قسماً، وإن أضيفت إلى الجاه كانت قسماً وإلى المال كانت قسماً، وإلى طول الأمل كانت قسماً، وهكذا خاصية الكذب فمن حيث أن صاحبها لا يقول الحق تعد قسماً، ومن حيث أن صاحبها يظن في غيره أنه لا يقول الحق ويشك في كلامه ولا يصدقه تعد قسماً، ولا يفتح على العبد حتى يقطع هذه المقامات بأسرها، فإذا أراد الله بعبده خيراً وأهله للفتح فإنه يقطعها عنه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإذا قطع عنه مثلاً خاصية الكذب حصل على مقام الصدق، ثم على مقام التصديق، وإذا قطع عنه خاصية الشهوة في المال حصل على مقام الزهد، أو شهوة المعاصي حصل على مقام التوبة؛ أو شهوة طول الأمر حصل على مقام التجافي، عن دار الغرور، وهكذا، ثم إذا فتح عليه وجعل السر في ذاته تدرج في مقامات المشاهدة للعوالم، فأول ما يشاهد الأجرام الترابية، ثم الأجرام العلوية، ثم الأجرام النورانية، ثم يشاهد سريان أفعاله تعالى في خليقته، وله في مشاهدة الأجرام الترابية التدريج، فأول ما يشاهد الأرض التي هو فيها، ثم يشاهد البحور التي هو فيها، ثم يشاهد ما بين الأرض التي هو فيها. والأرض الثانية بأن يخرق نظره التخوم إلى الثانية، ثم يشاهد الأرض الثانية، ثم تخومها إلى الثالثة، وهكذا إلى السابعة، ثم يشاهد الجو الذي بينه، وبين السماء الأولى، ثم السماء الأولى، وهكذا على نحو الترتيب السابق في الأرض، ثم يشاهد البرزخ والأرواح التي فيه ثم الملائكة والحفظة وأمور الآخرة.

وعلى العبد في كل مشاهدة من هذه المشاهدات حق من حقوق الربوبية وأدب من آداب العبودية، ويعرض له في ذلك قواطع وتعتريه عوائق ويشاهد أموراً هائلة قتالة، فلولا توفيق الله تعالى وفضله على العبد الضعيف ورحمته به لكان أقل درجاتها يرجع بسببها من جملة الحمقى، ثم قطعه لمقامات المشاهدة وأهوالها أصعب عليه من قطعه مقامات خواص النفوس، لأن قطعه لمقامات الخواص باطني لا يشعر به إلا بعد الفتح، وقطعه لمقامات المشاهدة ظاهري يعاينه ويراه لأنه أمر يخوضه بعد الفتح، فإذا صفا نظره وتم نور بصيرته

ورحمه الله الرحمة التي لا شقاء بعدها، رزقه الله سبحانه رؤية سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فيراه عياناً ويشاهده يقظة ويمده الله تعالى بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فحينئذ يحصل على مقام الهناء والسرور، فهنيئاً له السعادة.

فإذا اعتبرت العدد السابق في الخواص والأقسام الداخلة فيها مع المقامات التي توجد من المشاهدات السابقة وجدت ذلك ينوف على العدد المذكور، ثم إن النبي ﷺ لا تخفى شمائله المطهرة على أمته، فقد دونت العلماء رضي الله عنهم ما خصه الله تبارك وتعالى في ظاهر ذاته وفي باطنه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فمن ادعى رؤيته يقظة فليسأل عن شيء من أحواله الزكية ويسمع جوابه، فإنه لا يخفى من يجيب عن عيان ولا يلتبس بغيره أبداً، والسلام.

فإن قنعتم بهذا فبها ونعمت.

وإن أردتم كلاماً آخر فاعلم أن العبد إذا فتح الله تعالى عليه أمده بنور من أنوار الحق يدخل على ذاته من جميع الجهات ويخرقها حتى يخرق اللحم والعظم ويعاني من برودته ومشقة دخوله على الذات ما يقارب سكرات الموت، ثم إن ذلك النور من شأنه أن يمد بأسرار المخلوقات التي أراد الله أن يفتح على ذلك العبد في مشاهدتها فيدخل النور على ذاته متلوناً بألوان المخلوقات المذكورة فإذا أراد الله تعالى أن يفتح عليه مثلاً في مشاهدة المخلوقات التي على ظهر هذه الأرض فإن ذلك النور يأتيه مرة ويخرقه بالأسرار التي تكونت بها ذوات بني آدم، ويأتيه مرة بالأسرار التي تكونت بها البهائم ويأتيه مرة بالأسرار التي تكونت بها الجمادات من فواكه وثمار ونحوها، بحيث أنه لا يفتح عليه في مشاهدة شيء منها حتى يسقى أولاً بأسرارها، ومع ذلك فإنه يعاني في كل كرة ما يعانيه في أول مرة ومن جملة المخلوقات سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ. فإذا وعد الله عبداً بالفتح عليه في مشاهدة ذاته الشريفة فإنه لا يشاهده حتى يسقي بالأسرار التي في ذاته الشريفة، فلنفرض الذات قبل الفتح بمابثة شيء مظلم والذات الشريفة بمنزلة نور ذي شعب متنوعة تنتهي إلى مائه ألف أو أكثر، فإذا أراد الله رحمة تلك الذات المظلمة فإن ذلك النور الذي يمدها ويسقيها يأتيها مرة ويخرقها بتلك الشعب واحدة بعد واحدة ولنفرضها مثلاً شعبة الصبر فيزول بها سواد ضده من الجزع والقلق، ويأتيه مرة بشعبة أخرى، ولنفرضها شعبة الرحمة فيزول بها سواد ضده الذي هو عدم الرحمة ويأتيه مرة بشعبة أخرى: ولنفرضها شعبة الحلم فيزول بها سواد ضده وهكذا حتى تأتي على جميع الشعب التي في الذات المطهرة المنورة وتزول عن الذات المظلمة جميع الأوصاف السوداوية، وعند ذلك يتمكن العبد من المشاهدة في الذات الشريفة، لأنه متى بقي عليه شيء من السواد كان ذلك سواداً في ذاته ولا يطيق مشاهدة الذات الشريفة حتى يخرج السواد بأسره من ذاته، ولسنا نريد أنه إذا سقى

بالأسرار التي في الذات الشريفة أنه تكون فيه على الكمال التي هي عليه في الذات الشريفة، بل نريد أنه يسقى بها على ما تطيقه ذاته واصل خلقته ولسنا نريد أيضاً أنه إذا سقي بشيء من تلك الشعب أنه ينقص من الذات الشريفة ويبقى محله خالياً منه، فإن الأنوار لا تزول عن محلها بالأخذ منها، فظهر لك بهذا أن العبد لا يشاهد النبي ﷺ حتى تمحى جميع أوصافه بورود تلك الأسرار الشريفة والأنوار اللطيفة، وفي ذلك قطع لمقامات لا تعد ولا تحصى.

فَـإِنَّ فَـضْـلَ رَسُـولِ اللهِ لَـيْـسَ لَـهُ حَـدٌّ فَـيُـعْـرِبُ عَـنْـهُ نَـاطِـقٌ بِـفَـمِ

وكأن من حصرها في ألفين أو أكثر أخبر عن حالته وما وقع له من الفتح وبقي عليه ما بقي وما سبق من نفي المشاهدة عن الذي لا يسقي بجميعها، فإنما نعني به نفي المشاهدة على الكمال، فإن من بقيت عليه شعب وحصلت له مشاهدة حصلت له لا على الكمال، والله أعلم.

وسأله الفقيه المذكور عن المريد الذي يزيد إذا حضر الشيخ وينقص إذا غاب بما نصه:

ومنها: أي من الأسئلة سيدي إذا صحب المريد شيخاً كاملاً عارفاً بربه وادعى أنه يربيه بهمته ثم إذا غابت بشرية الشيخ بموت أو سفر يجد المريد ضعفاً من نفسه في الحال والعلم والعمل فما معنى تربيته له بالحال والهمة وانتفاعه به مع ضعف انتفاعه به إذا بعد عنه؟

فأجاب رضي الله عنه: بأن همة الشيخ الكامل هي نور إيمانه بالله عز وجل، وبه يربي المريد ويرقيه من حالة إلى حالة، فإن كانت محبة المريد للشيخ من نور إيمانه أمده الشيخ حضر أو غاب، بل ولو مات ومرت عليه آلاف من السنين، ومن هنا كان أولياء كل قرن يستمدون من نور إيمان النبي ﷺ ويربيهم ويرقيهم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، لأن محبتهم فيه محبة صافية خالصة من نور إيمانهم، وإن كانت محبة المريد في الشيخ من ذات المريد لا من إيمانه انتفع به ما دام حاضراً، فإذا غابت الذات عن الذات وقع الانقطاع.

وعلامة محبة الذات أن تكون محبته في الشيخ لتحصيل نفع أو لدفع ضر دنيوي أو أخروي.

وعلامة محبة الإيمان أن تكون خالصة لوجه الله لا لغرض من الأغراض، فالمريد إذا وجد النقص من نفسه عند غيبة الشيخ فالتقصير منه لا من الشيخ، والله أعلم.

وسأله الفقيه المذكور أيضاً عن طريقة الشكر وطريق المجاهدة أيهما أولى؟ بما نصه:

ومنها سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، ما الفرق بين طريقة الولي العارف الشاذلي

واتباعه؟ وطريقة الغزالي رضي الله تعالى عنه واتباعه حتى أن الأولى مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا كلفة والأخرى مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرها، فهل هما سيدي متوافقان على الرياضة؟ وإنما يأمر الشاذلي بالشكر بعد القرب للوصول أو عنده أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وحين البداية، وهل الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد أو لا يمكن أن ينتفع بإحداهما إلا بالإعراض عن الأخرى؟ جواباً شافياً.

فأجاب رضي الله عنه: بأن طريقة الشكر هي الأصلية وهي التي كانت عليها قلوب الأنبياء والأصفياء من الصحابة وغيرهم، وهي عبادته تعالى على إخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ مع الاعتراف بالعجز والتقصير، وعدم توفية الربوبية حقها وسكون ذلك في القلب على ممر الساعات والأزمان، فلما علم تبارك وتعالى الصدق في ذلك أثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح في معرفته ونيل أسرار الإيمان به عز وجل، فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو مطلوبهم ومرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والسهر ودوام الخلوة حتى حصلوا على ما حصلوا، فالهجرة في طريقة الشكر كانت من أول الأمر إلى الله وإلى رسوله لا إلى الفتح، ونيل الكشوفات، والهجرة في طريقة الرياضة كانت للفتح ونيل المراتب والسير في الأولى سير القلوب وللثانية سير الأبدان والفتح في الأولى هجومي لم يحصل من العبد تشوف إليه فبينما العبد في مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب إذ جاءه الفتح المبين والطريقتان على صواب، لكن طريقة الشكر أصوب وأخلص، والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنها في الأولى رياضة القلوب بتعلقها بالحق سبحانه وتعالى وإلزامها العكوف على بابه واللجا إلى الله في الحركات والسكنات والتباعد عن الغفلة المتخللة بين أوقات الحضور، وبالجملة فالرياضة فيها تعليق القلب بالله عز وجل، والدوام على ذلك، وإن كان الظاهر غير متلبس بكبير عبادة، ولذا كان صاحبها يصوم ويفطر ويقوم وينام ويقارب النساء ويأتي بسائر وظائف الشرع التي تضاد رياضة الأبدان.

وقال مرة أخرى بعد قوله: والهجرة في طريقة الرياضة كانت للفتح ونيل المراتب ثم بعد الفتح منهم من يبقى على نيته الأولى فينقطع قلبه مع الأمور التي يشاهدها في العوالم ويفرح بما يرى من الكشف والمشي على الماء وطي الخطوة، ويرى أن ذلك هو الغاية وهذا من الذين خلت قلوبهم من الله عز وجل في بداية الأمر ونهايته، فهو من:

﴿الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.

ومنهم من تتبدل نيته بعد الفتح ويرحمه الله تعالى ويأخذ بيده فيتعلق قلبه بالحق سبحانه وتعالى، ويعرض عن غيره، وهذه الحالة التي حصلت لهذا بعد الفتح هي كانت البداية في طريق الشكر، فيا بعد ما بين الطريقين وتباين ما بين المطلبين.

وبالجملة فالسير في الأولى سير القلوب وفي الثانية سير الأبدان، والنية في الأولى خالصة وفي الثانية مشوبة، والفتح في الأولى هجومي لا تشوف من العبد إليه فكان ربانياً، وفي الثانية نيل بحيلة وسبب فانقسم إلى الوجهين السابقين، والفتح في الأولى لا يناله إلا المؤمن العارف الحبيب القريب بخلاف الفتح في الثانية فإنك قد سمعت أن للرهبان وأحبار اليهود رياضيات توصلوا بها إلى شيء من الاستدراجات.

قال رضي الله عنه: ونحن في هذا الكلام نتكلم على الرياضة مطلقاً كانت من المحق أو من المبطل، ولسنا نتكلم على رياضة أبي حامد الغزالي رضي الله عنه بالخصوص، فإنه إمام حق وولي صدق.

وقولكم: وهل يمكن سلوكهما لرجل واحد؟

جوابه: أنه يمكن، إذ لا تنافي بينهما فيمكن من الشخص أن يعلق قلبه بالله عز وجل في سائر حركاته وسكناته، ويقيم ظاهره في المجاهدات والرياضيات، والله تعالى أعلم.

وسأله الفقيه المذكور أيضاً بما نصه: ومنها سيدي، هل يمكن للإنسان أن يعرف قابليته للإرادة وعدمها؟ أي القابلية الخاصة أو لا يعرفه بذلك إلا غيره من شيخ صالح أو أخ ناصح.

فأجاب رضي الله عنه: بأن القابلية يعرفها الشخص من نفسه، بأن ينظر إلى الغالب على فكره فهو الذي خلقت الذات له، ولا بد للذات أن تتبع ما الفكر فيه سواء أقيمت فيه من أول الأمر أولاً، فمن غلب على فكره محبة الله والميل إلى جنابه واستحضار عظيم سطوته والخوف من جلاله وكبريائه، فذلك علامة إرادة الخير سواء كانت ذاته مقامه في المخالفات أو في الموافقات، فإنها وإن أقيمت في المخالفات فسيرجع الله سبحانه بها إلى الخير والفلاح والرشد والنجاح، ثم القابلية المذكورة كالرجلة والشجاعة تختلف بالقوة والضعف وتعلم مراتبها المختلفة.

فمن نظر إلى جماعة من الصبيان وهم يلعبون علم من رجلته قوية ومن رجلته ضعيفة ومن رجلته متوسطة، فكذلك أهل القابلية يتفاوتون في حضور المعنى السابق، فمنهم من هو في الدرجة العالية بأن يكون هو الغالب عليه في سائر أوقاته، ومنهم من يأتيه في أقل أوقاته، ومنهم المتوسط.

وسر ذلك أن الفكر والخواطر التي في الباطن نور من أنوار العقل يمد بها العقل الذات على وفق القدر، وما سبق في القسمة فإن أريد بالذات الخير ألقى العقل عليها الفكر فيه وفي أسبابه حتى تدركه، وإن أريد بالذات الشر ألقى العقل عليها الفكر فيه وفي أسبابه حتى تبلغ إليه وتناله، ثم الخير يتبع مراتب الفكر الثلاثة السابقة والشر يتبع أيضاً مراتب الفكر فيه، ثم القابلية لا تختص بما سبق بل كل ما سبق في القدر أن الذات تدركه وتصل إليه، فإن أمر القابلية يظهر فيه.

فمن نظر إلى جماعة من الصبيان وسبق الواحد منهم أن يكون كاتباً والآخر أن يكون حجاماً والآخر أن يكون شرطياً مثلاً، فإن الأول يعرف كيف يشدالقلم للكتابة ويحصل له ذلك بأدنى تنبيه، ولا يعرف كيف يشد الموسى للتخفيف، ولا كيف يعلق السكين ولو نبه عسى أن ينبه. والثاني يعرف كيف يشد الموسى، ولا يعرف كيف يشد القلم ولا السكين. والثالث يعرف كيف يعلق السكين ولا يعرف كيف يشد القلم ولا الموسى.

وَ «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

وكذا من غلب على فكره التجر في البز ونحوه وأراد أبوه أن يقيمه في الفلاحة، فإنه لا يجيء منه خير، ولو أقامه أبوه في التجارة جاء منه ما يحب وما يريد، فخرج من هذا أن قابلية كل شيء مبنية على الفكر فيه وكل واحد يعلم ما يجول فيه فكره، والله الموفق.

قلت: وقد سمعت من الشيخ رضي الله عنه أن امرأة من المتقدمين كان لها ابنان وبنت ولما أرادت أن تموت قالت لهم إن ابني فلاناً يخرج من الصالحين والآخر يخرج من الظالمين والبنت سيكون لها مال كثير ودنيا عريضة، فقيل لها أتعلمين الغيب؟ فقالت: ما أعلم الغيب؛ ولكني نظرت إلى الأول فرأيته شديد الخوف من الله تعالى لا يظلم أحداً من الصبيان وربه تعالى حاضر في قلبه دائماً، فعلمت أنه سيصير إلى خير، ونظرت إلى الثاني فرأيته على العكس فعلمت أن مآله إلى شر، ونظرت إلى البنت وكانت صغيرة فوجدتها تصنع من الحرف العالية خلاخل وقلائد ودماليج وما يلبسه النساء ويتزين به هذا شغلها دائماً علمت أنها ستصير إلى دنيا كثيرة.

قلت: وأخبرني بعض الناس أنه كان يتيم وأدخلته أمه في صنعة الحرير، وكان يتعاناها وتنقل عليها كثيراً حتى مر ذات يوم بقوم وهم يتعانون صنعة الجبس وتخريمه وتزويقه، قال فنظرت إليهم فذهب عقلي معهم فعطلت ذلك اليوم صنعة الحرير وخدمت معهم فأسرعت جوارحي في الخدمة ونشط قلبي وكأني كنت في السجن وخرجت منه وحصل لي تيسر عظيم في فهم صنعة الجبس، وما عدت إلى صنعة الحرير أبداً.

قلت: وهو اليوم رئيس القوم الذين يتعاطون صنعة الجبس.

«وكُلٌّ مُيَسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

وأخبرني بعض الناس أنه كان له حمار ضعيف، وكان يسكن بإزاء قوم في البادية وكان لهم يتيم صغير لا شغل له إلا الركوب على حماري، ولكن يركبه على صفة من يركب الخيل فيجعل في رجله مهمازاً من شوك، وللحمار لجاماً من سعف الدوم ويجعل في يده حربة من العيدان، ويظل يحرك في الحمار، وكلما طردناه عاد إليه إن غفلنا عنه، فلما كبر الطفل وبلغ رجع مع القواد الذين يسيرون الخيل للسلطان نصره الله.

وَ «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

ونذكر هنا حكاية معلم الصبيان الذي اختبرهم بأن أعطاهم طيوراً وأمر كل واحد بذبح طائره في الموضع الذي لا يراه أحد، فجاءوا وقد ذبحوا طيورهم إلا واحداً منهم يقال إنه هو أبو العباس السبتي رضي الله عنه، فإنه رجع إلى الشيخ بطائره فقال في كل موضع أريد فيه ذبحه أجد الله معي، فعلم الشيخ رضي الله عنه أنه سيصير إلى مقام المعرفة وأوصى عليه ولم يزل يلاحظه، والله تعالى أعلم.

وسمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: إن الرجل إذا كان فيه عرق الولاية وأقامه الله مع أهل المخالفة وبقي معهم مدة فإنه إذا مر به ولي من الأولياء وهو مع أولئك القوم فإن عرق الولاية الذي فيه يحيا بإذن الله ويقع لصاحبه انشراح وفرح وانطلاق صدر هذا بمجرد مرور الولي عليهم، وإن كان صاحب العرق لا يعرفه ولا تكلم معه الولي ولا جرى بينهما حديث أما إذا جرت بينهما معاشرة وحصلت بينهما معرفة فلا تسأل عن حياة العرق الذي فيه وزيادة الخير فيه في كل لحظة، وإذا كان في الرجل عرق الشر الذي فيه كالسرقة مثلاً وأقامه الله مع أهل الولاية والعرفان وصار يخدمهم ويخالطهم مدة، فإذا مر بأولئك الجماعة سارق مثلاً فإن الرجل الذي فيه عرق السرقة يحيا وينشرح صدره للشر الذي فيه، وتقوم قيامه بمجرد مرور السارق عليه من غير معرفة منه ولا مخالطة له، أما إذا حصلت المعرفة بينهما فإن شره يتم والعياذ بالله.

وَ «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

فقلت: وهذا باب واسع وطريق نافع يعرفه من مارس تعليم الناس العلم أو نحوه، فإنه إذا عرض عليه هذا الكلام في القابلية وجده كأنه نسخة منقولة مما جرى عليه في زمان التعليم ومعاناته، ولقد أقامني الله تعالى وله الفضل والمنة في مقام التعليم فبقيت فيه نحواً من سبع وعشرين سنة، وحين سمعت كلام الشيخ رضي الله عنه في القابلية والخواطر التي تبتني عليها الذوات عرضته على ما جرى لخلق كثير تعلموا منا فوجدته ضابطاً جامعاً مانعاً وطرحت عني بسببه أحمالاً كثيرة كنت أتحملها في تعليمهم أبالغ لهم في النصح والبيان مع إقامة الدليل والبرهان، وأحب لهم الخير كثيراً وأتمناه لهم حتى يسكن ذلك في ذاتي ويصير ذلك كله أكلي وشربي معهم، ثم بعد ذلك لا يجيء منهم شيء وكل ما بنيته معهم في مدة سنين ينهدم بمجرد مخالطهم لمن هو من أهل البطالة، بل ينهدم بمجرد غفلتي عنهم وعدم تنبيههم كالدابة التي تمشي ما دامت تضرب وإذا قطع عنها الضرب وقفت وجرى لخلق كثير غيرهم عكس هذا، وذلك أنهم بمجرد مخالطتهم لنا ومعاشرتهم إيانا يسكن في قلوبهم ما يسمعونه منا، ثم لا يزالون في زيادة في كل مجلس جلسوه معنا مع كوني لا أبالغ معهم المبالغة التي كنت أفعلها مع القسم الأول، فلم أزل أتفكر في ذلك وأطلب السبب فيه حتى سمعت كلام الشيخ رضي الله عنه في القابلية وذكرت له ما جرى له مع القسم الأول، فقال

رضي الله عنه: اطرح عنك الحمل فإنك تضرب في حديد بارد والناس ميسرون لما خلقوا له، والبدايات تدل على النهايات، فانظر إلى البدايات، ونزل الناس منازلهم، هذا معنى كلامه رضي الله عنه، فمن ذلك اليوم استرحت وحصل لي علم عظيم والحمد لله بأحوال الناس في القابلية في كل شيء، والحمد لله.

فإن كنت كيساً فطناً حاذقاً لبيباً فاجعل هذا الكلام نصب عينيك فإنك تطرح به عن نفسك أحمالاً كثيرة في معاشرة أصناف الناس على اختلاف طبائعهم، والله سبحانه الموفق.

وسأله الفقيه المذكور سؤالاً يناسب هذا الباب في الجملة ونصه: ومنها سيدي ما معنى قول إبليس اللعين لولي الله سهل بن عبد الله التستري في آية قول الله تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

حتى قال له التقييد صفتك لا صفة الحق مع كون الآية مقيدة والكلام على وفق العلم وأي حيلة للعبد حتى يقيد كلام الحق سبحانه، مع أن الآية مقيدة بدون تقييده، مع أن الشيخ العارف مربي العارفين محيي الدين الحاتمي، قال: واللعين أستاذ سهل في هذه ومعلمه أجيبوا مأجورين وعليكم أزكى تحية وأطيب سلام.

قلت: صفة المناظرة بين إبليس لعنه الله وبين سهل رضي الله عنه هي أن قال إبليس، إن الله تعالى يقول:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وأنا شيء، فقال له سهل: فإن الله يقول:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية.

وأنت لست منهم فالعموم الذي في كل شيء مقيد، فقال له إبليس لعنه الله. التقييد صفتك لا صفته سبحانه، فوقف سهل ولم يرد جواباً، حتى قال الحاتمي: إن سهلاً شيخ إبليس في هذه الفائدة، وهي أن التقييد صفته لا صفة الحق سبحانه وتعالى، ذكر الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى الحكاية وسكت عنها فتخيل السائل من سكوته صحتها فاستشكل ذلك بأن التقييد من الله تعالى لا من سهل، فرفع سؤاله إليه الشيخ رضي الله عنه.

فأجاب رضي الله عنه: بأن التقييد في الآية من الله تعالى لا من الخلق، وتمسك إبليس لعنه الله بالشبهة التي أوردها بتمسك باطل، والصواب مع سهل رضي الله عنه، لا مع إبليس لعنه الله. ووجه مدح ذلك الكلام الذي جرى على لسانه لعنه الله أن الحاتمي وسهلاً فهما منه ما لم يفهمه إبليس لعنه الله ولا جرى على خاطره، فحرك من سهل التستري الساكن وأيقظ منه النائم والكامن، ورجع إلى مشاهدة ما يعرفه من الحق سبحانه وتعالى، فإن الصوفية رضي الله عنهم بعد الفتح ومعرفة الحق على ما هو عليه إذا نظروا

إلى الحالة التي كانوا عليها قبل الفتح يجدون أنفسهم مقيدين للحق سبحانه وتعالى، فيما لا يحصى من التقييدات جاهلين به لا يعرفونه حق معرفته، فلما قال اللعين التقييد من صفتك لا من صفته حصل بسبب هذا القول التفات من سهل إلى الحالتين، فحصل له ما حصل، وإن كان اللعين لم يرد المعنى الذي التفت إليه سهل ولا جرى على خاطره، وهذا فن من سماع الصوفية رضي الله عنهم.

فقد جاء بعض الأشياخ إلى دار مريد له فدق عليه الباب ولم يكن في الدار غير المريد، فقال المريد من يدق الباب ما هنا غيري؟ فسمع الشيخ قوله ما هنا غيري، فصعق وخر مغشياً عليه، ولم يشعر المريد بشيء من ذلك، فمن قال إن المريد أستاذ شيخه في هذا الباب فلا ضيق عليه.

وطلبت بنت من أبيها حاجة يأتي بها من السوق فخرج الأب ليأتي بها، فقالت الأم لها: لم كلفت أباك؟ فقالت البنت لها: وهل عندي غيره، فسمع قولها صر في فخر مغشياً عليه، وبهذا يعلم بطلان كلام إبليس لعنه الله، وصحة لمحات الصوفية وإشاراتهم رضي الله عنهم، والله تعالى أعلم.

وسأله الفقيه المذكور سؤالاً يبعد من هذا الباب ونصه: ومنها سيدي، ما نقل عن بعض العارفين أن في المخالفة مائة رحمة تعود على المؤمن، ما هي هذه المائة رحمة التي أصلها من غضب الله تعالى وعدله، وما سر انقلابها إلى رحمته وفضله؟

فأجاب رضي الله عنه: بأن المراد بهذه المعصية معصية المؤمن العارف بجلال ربه وعظمته، فإن صاحب هذه المعرفة لا تصدر منه هذه المعصية إلا بحكم غلبة القدر، ولسنا نعني بالعارف خصوص المفتوح عليه، بل نعني به من خلص إيمانه وصفاً إيقانه فإنه والحالة هذه لا يزايله الخوف من ربه تبارك وتعالى في حالة الطاعة، فكيف بحالة المعصية، لأن سبب سكون الخوف في ذاته معرفته بعظيم سطوته سبحانه وتعالى، فإذا فرضنا دوام هذه المعرفة وانتفاء أضدادها من الغفلة ونحوها، فإن الخوف يدوم ويسكن في الذات ولا يفارقه ولو في حالة الطاعة، فإنه يخاف أن يكون أتى بالطاعة على وجه يبعده من الله تعالى، فترى فرائصه ترعد من هذا الاحتمال رعدة لا يقر له معها قرار، ويعتريه هذا الخوف قبل الفعل وحين الفعل وبعد الفعل، ولا يزال متشوفاً لما ينزل عليه من ربه خائفاً من هيبة الربوبية وسطوتها، فإذا كان هذا حاله مع الطاعة فكيف يكون حاله مع المعصية.

ولقد عصى بعض المؤمنين ربه عز وجل وعاش بعد تلك المعصية، أربعاً وعشرين سنة، ولم تمر عليه ساعة في هذه المدة الطويلة إلا والدموع تسيل من عينيه خوفاً من تلك المعصية، وعصمه الله تبارك وتعالى ببركة هذا الخوف الناشيء عن تلك المعصية في هذه المدة الطويلة من مواقعة الذنوب وأثابه فضلاً منه تعالى بمراقبة علام الغيوب في هذه المدة الطويلة، وحصل هذا العبد بسبب هذه المعصية على ما لا يحصى من صنوف الرحمات.

وبالجملة فالمدار على الخوف الساكن في الذات دائماً وسببه دوام المعرفة بسطوة الربوبية وحصلت هذه المعرفة للذات من الروح والروح من الملأ الأعلى الذين هم أعلم الخلق بربهم عز وجل، فإذا كانت الذات طاهرة فإن الروح تمدها بشيء من معارفها فيربح العبد في سائر أحواله وفي طاعته ومعصيته، وإذا كانت الذات غير طاهرة فإن الروح تحجب عنها معارفها فتنقطع الذات مع الشهوات وتميل مع اللذات، ويكون هذا هو الساكن فيها والحالة المحمودة تكون عندها بمنزلة المنام، والغالب هو الساكن، والحكم للغالب، فتصير أعماله لتحصيل شهواته، فيطيع لغرض نفع ذاته لا لما تقتضيه العبودية من القيام بحق الربوبية ويعصي لاستيفاء لذاته ولا يبالي؛ فظهر أنه ليس المدار على الطاعة والمعصية بل المدار على الخوف وضده وفي الحقيقة المدار على المعرفة والجهل والعدد المذكور أعني مائة رحمة ليس مراداً لخصوصه، بل المراد ما أشرنا إليه والله تعالى أعلم.

وبقي للفقيه المذكور سؤالان فلنوردهما هنا ثم نتفرغ للمقصود.

قال الفقيه المذكور ومنها سيدي قول العارفين ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه، فكيف يرى القديم في الحادث تعالى الله عن الحلول والاتحاد، وقولهم لا هو عينه ولا هو غيره، وفيه رفع للمتناقضين وهو محال.

فأجاب رضي الله عنه: بأن معنى القول الأول ما رأيت شيئاً إلا رأيت فعل الله فيه فهم رضي الله عنهم لقوة عرفانهم يشاهدون أفعاله في المكونات والمخلوقات، وما من مخلوق إلا وأفعاله تعالى فيه لا محالة ولا حلول ولا اتحاد، وثم أسرار أخر لا تفشى ولا تذكر.

وبالجملة فتحقيق الجواب لا يسطر في كتاب.

وأما الكلام الثاني فغير ظاهر، فإن القديم مباين للحادث والمباين للشيء لا يكون عينه قطعاً، وهو مغاير له بلا شك، ولا ارتياب فالغينية مرتفعة والغيرية ثابتة والله الموفق.

ومنها سيدي هل استحضار صورة النبي ﷺ في ذهن المؤمن وتشخصه إياها هو من عالم الروح أو من عالم المثال؟ أو من عالم الخيال؟ وهل الصورة الذهنية وما اشتملت عليه من تعقل المحادثة والمكالمة محفوظ صاحبها من الشيطان مثل الرؤيا المنامية عملاً بقوله ﷺ:

«مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيطَانُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَمَثَّلَ بي».

أو كما قال عليه الصلاة والسلام. **«أو هي ليست مثلها؟»**.

أجيبوا مأجورين وعليكم أزكى تحية وسلام.

فأجاب رضي الله عنه: بأن ذلك الاستحضار من روح الشخص وعقله، فمن توجه

بفكره إليه ﷺ وقعت صورته في ذهنه، فإن كان ممن يعلم صورته الكريمة لكونه صحابياً أو من العلماء الذين عنوا بالبحث عنها ثم حصلوها فإنها تقع في فكره على نحو ما هي عليه في الخارج، وإن كان من غير هذين فإنه يستحضره في صورة آدمي في غاية الكمال في خلقه وخلقه، فقد توافق الصورة التي في فكره ما في الخارج وقد تخالفه والحاضر في الفكر هو صورة ذاته ﷺ لا صورة روحه عليه الصلاة والسلام، فإن الذي شاهده الصحابة رضي الله عنهم وأخبر عنه العلماء هو الذات لا الروح الشريفة، ولا يجول الفكر إلا فيما يعلمه الشخص ويعرفه.

فقولكم هل هو من عالم الروح إن أردتم به الاستحضار فهو من عالم الروح أي من روح المتفكر، وإن أردتم به الحاضر أي فهل الحاضر في أفكارنا روحه ﷺ، فقد سبق أنه ليس إياها.

وأما المحادثة والمكالمة إذا حصلت لهذا المتفكر فإن كانت ذاته طاهرة وتحبها روحه ولم تحجب عنها أسرارها وكانت معها كالخليل مع خليله فالمحادثة معصومة وهي حق؛ وإن كانت الذات على العكس فالأمر على العكس والله الموفق انتهت أجوبته رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

وقد ذكرت له رضي الله عنه ذات يوم أن بعض الصالحين كان يذكر مع جماعة من أصاحبه، ثم إن بعضهم تبدل لونه وتغير حاله وبدل جلسته، فقيل له لم فعلت هذا؟ فقال:

﴿واعَلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾.

يريد أن النبي ﷺ حضرهم في تلك الساعة، وأنه شاهد ذلك.

فقلت للشيخ رضي الله عنه. هل هذه المشاهدة التي وقعت لهذا الرجل مشاهدة فتح أو مشاهدة فكر.

فقال: مشاهدة فكر لا مشاهدة فتح، ومشاهدة الفكر وإن كانت دون مشاهدة الفتح إلا أنها لا تقع إلا لأهل الإيمان الخالص والمحبة الصافية والنية الصادقة.

وبالجملة فهي لا تقع إلا لمن كمل تعلقه بالنبي ﷺ، وكم من واحد تقع له هذه المشاهدة فيظنها مشاهدة فتح وإنما هي مشاهدة فكر وهذا القسم الذي تقع له هذه المشاهدة وهو غير مفتوح عليه إذا قيس مع عامة المؤمنين كانوا بالنسبة إليه كالعدم ويكون إيمانهم بالنسبة إلى إيمانه كلا شيء والله تعالى أعلم.

قلت: ومما يؤيد المشاهدة الفكرية وأنها تقع لغير المفتوح عليه، كونها تقع لمن كملت محبته في شخص، وإن كان غير النبي ﷺ.

ولقد أخبرني بعض الجزارين أنه مات له ولد كان يحبه كثيراً وأنه لم يزل شخصه في

فكره حتى أن عقله وجوارحه كلها معه فكان هذا دأبه ليلاً ونهاراً، إلى أن خرج ذات يوم إلى باب الفتوح أحد أبواب فاس حرسها الله لشراء الغنم على عادة الجزارين، فجال فكره في أمر ولده الميت، فبينما هو يجول فكره إذ رآه عياناً وهو قادم إليه حتى وقف إلى جنبه، قال فكلمته، وقلت له يا ولدي خذ هذه الشاة لشاة اشتراها حتى أشتري أخرى وقد حصلت لي غيبة قليلة عن حسي، فلما سمعني من كان قريباً أتكلم مع الولد، قالوا مع من تتكلم أنت؟ فلما كلموني رجعت إلى حسي وغاب الولد عن بصري، فلا يدري ما حصل في باطني من الوجد عليه إلا الله تبارك وتعالى.

قلت وسمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: ينبغي أن تكون هذه المحبة بين المريد والشيخ فإنها نافعة جداً.

وسمعته يقول: إن أهل هذه المحبة يضرون وينفعون كما يقع ذلك من أهل التصرف ويقول: أن نار المحبة إذا شعلت لا يردها شيء.

وسمعته رضي الله عنه يقول كان لبعض الأشياخ مريد وكان المريد يحب الشيخ كثيراً حتى صار الشيخ لا يغيب عن حس المريد وفكره فكان الشيخ إذا فعل فعلاً في داره حاكاه المريد وهو في داره، فإذا قال الشيخ في داره منادياً لابنته يا فاطمة، قال المريد في داره يا فاطمة، وإذا قال الشيخ: افعلوا كذا قال المريد في داره: افعلوا كذا، وإذا جعل الشيخ يلوي عمامته على رأسه، أخذ المريد شيئاً وجعل يلويه على رأسه، هذا دأبه في أحواله بحال الشيخ دائماً وبهذه المحبة البالغة إلى هذا القدر تقع الوراثة.

وسمعته رضي الله عنه يقول كان بعض الناس يعشق بنتاً جميلة الصورة، فبلغ من محبته فيها أنه إذا هتف شخص باسمها وناداها يا فاطمة يقول العاشق نعم من غير شعور منه.

قال رضي الله عنه: حدثوا عني بهذا الأمر أنا رأيته بعيني، إذا نودي باسمها قال نعم، وهو لا يشعر فإذا كانت هذه المحبة في الأمور الهزلية فكيف ينبغي أن يكون أهل الجد.

وقد سمعته رضي الله عنه يقول: كان سيدي منصور رحمه الله تعالى يقول: ومن الحجة على من يدعي محبة الله تعالى ما وقع لبعض أولاد النصارى، فإنه عشق بنتاً لبعض أكابرهم فلما اجتمع بها ونام معها في فراش واحد وذهب فكره في بحار محبتها نظرت إلى وجهه فرأت فيه زبيبة فأرادت قطعها، وكانت عندها سكين وهي مسمومة ولم تشعر بسمها، فقطعت تلك الزبيبة وسرى السم في ذاته فخرجت روحه وهو غائب في محبتها فهذا كافر بلغ في محبته الشيطانية إلى أن خرجت روحه وهو لا يشعر، فكيف ينبغي أن تكون حال المؤمنين مع ربهم عز وجل.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن المحب لا ينتفع بمحبة الكبير له ولو كان الكبير نبياً، حتى يكون الصغير هو الذي يحب الكبير، فحينئذ ينتفع بمحبته إلا الله تعالى، فإنه تعالى إذا أحب عبداً نفعته محبته، ولو كان العبد في غاية الإعراض.

وقال رضي الله عنه: إن الصغير إذا أحب الكبير جذب ما في الكبير ولا عكس وكانت بين يديه أجاصة، فقال إن هذه إذا أمدها الله تعالى بمحبة تفاحة حامضة مثلاً وتمكنت فيها المحبة غاية فإنها تسف ما فيها، حتى إنا إذا شققناها وجدنا حموضة التفاحة فيها، ولا نجد في التفاحة شيئاً من طعم الإجاصة إلا الله تعالى فإنه إذا أحبه العبد لا يجذب شيئاً من أسراره تعالى ما لم يحبه الله. وسر الفرق هو أن الله تعالى لا يحب عبداً حتى يعرفه به، وبالمعرفة يطلع على أسراره تعالى، فيقع له الجذب إلى الله تعالى بخلاف محبة العبد من غير معرفة له بربه عز وجل، فإنها لا تقتضي شيئاً.

فقلت: فإنهم يقولون إن الشيخ يكون مع مريده في ذات المريد ويسكن معه فيها.

فقال رضي الله عنه: ذلك صحيح وهو من المريد لأنه إذا قويت محبته جذب الشيخ حتى يكون على الحالة المذكورة فتصير ذات المريد مسكناً للشيخ وكل واحد يزين مسكنه يشير إلى تأثير الشيخ في ذات المريد إذا سكنها.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن المريد إذا أحب الشيخ المحبة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته، ويكون بمنزلة الحبلى التي تحمل بولدها، فإن حملها تارة يتم صلاحه فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه وتارة يسقط ولا يجيء منه شيء، وتارة يحصل له رقاد ثم يفيق والإفاقة تختلف فقد يفيق بعد شهر، وقد يفيق بعد عام وقد يفيق لأكثر من ذلك، فهكذا حالة المريد إذا جمل لشيخه فتارة تكون محبته خالصة تامة دائمة فلا يزال أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح الله عليه، وتارة تكون محبته منقطعة بعد أن كانت صادقة وانقطاعها بسبب عروض مانع نسأل الله السلامة منه، فتتبدل نيته في الشيخ وتنقطع أسرار الشيخ عن ذاته بعد أن كانت ساطعة عليها وتارة تقف محبته في سيرها لمدة قريبة أو متوسطة أو طويلة فتقف أسرار ذات الشيخ عن ذاته، فإذا رجعت المحبة رجعت الأسرار فليختبر المريد نفسه من أي قسم هو من هذه الأقسام الثلاثة، وليسأل الله تعالى العفو والعافية والتوفيق والهداية إنه سميع قريب.

قلت: وهذه الأقسام موجودة في المريدين فليتحفظ المريد على هذا الكلام فإنه نفيس في بابه والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لا ينتفع المريد بمحبة شيخه إذا أحبه لسره أو ولايته أولعلمه أو كرمه أو لنحو ذلك من العلل، حتى تكون محبته متعلقة بذات الشيخ متوجهة *إليه*، *لا لعلة ولا لغرض*، مثل المحبة التي تكون بين الصبيان، فإن بعضهم يحب بعضاً من

غير أغراض باعثة على المحبة، بل مجرد الألفة لا غير فهذه المحبة ينبغي أن تكون بين المريد والشيخ، حتى لا تزهق محبة المريد إلى الأغراض والعلل، فإنها متى زهقت إلى ذلك دخلها الشيطان وأكثر فيها من الوساوس فربما تنقطع وربما تقف كما سبق في القسمين الأخيرين، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: لم كانت المحبة للعلم والولاية والسر ونحو ذلك لا تنفع.

فقال رضي الله عنه: لأن الأسرار والمعارف ونحوها كلها من الله تعالى، وكل واحد يحب الله تعالى فإلى الآن ما أحب شيخه، وإنما تتحقق محبته للشيخ إذا أحبه لخصوص ذاته لا لما قام بها من الأسرار، فقلت: وكذا ذات الشيخ هي من الله تعالى وكل شيء منه فلم نفعت محبة البعض دون البعض، فقال صدقت: وغرضنا بمحبة الذات الكناية عن كون المحبة خالصة لله تعالى لأن الذات بمجردها لا يتصور منها نفع ولا غيره، فإذا توجهت المحبة نحوها، كان ذلك علامة على الخلوص من الشوائب.

فقلت: إن الناس لا بد لهم من أغراض واردات، فمن حرث بقصد القصيل الحاصل له منه فيجب الحرث للقصيل لا لذاته.

فقال رضي الله عنه نعم. ولكنه إذا نوى للقصيل وقصده في أول الأمر ثم شغل فكره بغيره بحيث أنه لا يبقى له على بال فهذا يحصل له القصيل الكثير وتجيئه الإصابة العظيمة، وأما إن شغل فكره بهذا القصيل ليله ونهاره وجعل يفكر ويقدر كيف يكون وما يفعل به إذا كان فهذا لا يحصل له قصيل بل يركبه الوسواس قبل أن يحصل له القصيل فلا يزال يقول في نفسه هل أدرك هذا القصيل ولعل الآفة الفلانية تأتي عليه أو يغير عليه بنو فلان، ونحو هذا من الوسواس بخلاف الأول فإنه مستريح الفكر في أمر القصيل وفي أمر الوسواس، فهكذا حال من أحب الشيخ لذاته ومن أحبه لعلة.

وكنت أتكلم معه ذات يوم ونحن في جزء ابن عامر بمحروسة فاس منها الله تعالى، فقال لي: إن سيدي منصوراً في رأس الدرب، أتحب أن تلتقي معه وتعرفه؟ فقلت يا سيدي نعم حباً وكرامة: وكيف لا أحب أن ألتقي مع القطب، فقال لي رضي الله عنه: أما أنا فلو قدرنا أن أباك وأمك ولداً من يماثلك في شكلك وصفتك وعلمك وجميع ما عليه ذاتك باطناً وظاهراً عدد مائة، ما نظرت إلى واحد منهم، أنت حظي وقسمتي، وهم عندي كسائر الناس فاستيقظت من غفلتي وانتبهت من نومتي، وعلمت أني ما جئت بشيء فإن المحبة لا تقبل الشركة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن طالب السر من المريد هو ذاته الترابية، ومعطي السر من الشيخ هو ذاته الترابية، فإذا كانت الذات الترابية من المريد تحب الذات الترابية من الشيخ محبة مقصورة عليها أمدتها بأسرارها ومعارفها، وإذا كانت ذات المريد تحب أسرار

ذات الشيخ وذهقت المحبة إليها وإلى معارفها منعتها الذات الترابية من مطلوبها، ثم لا تقدر لها الروح ولا غيرها على شيء فليجهد المريد جهده في محبة ذات شيخه معرضاً عن النفع مطلقاً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن المحبة هل لها من أمارة وعلامة؟

قال رضي الله عنه: لها أمارتان: الأمارة الأولى أن تكون راحة المريد في ذات شيخه فلا يتفكر إلا فيها ولا يجري إلا لها ولايهيم إلا بها، ولا يفرح إلا بها، ولا يحزن إلا عليها، حتى تكون حركاته وسكناته سراً وعلانية حضوراً وغيبة في مصالح ذات الشيخ وما يليق بها، ولا يبالي بذاته ولا بمصالحها.

الأمارة الثانية: الأدب والتعظيم لجانب شيخه حتى لو قدر أن شيخه في بئر وهو في صومعة لرأى بعين رأسه أنه هو الذي في البئر، وأن شيخه هو الذي في الصومعة، لكثرة استيلاء تعظيم الشيخ على قلبه بل هو على عقله.

وقال رضي الله عنه: إن الناس يظنون أن الجميل للشيخ على المريد والجميل في الحقيقة للمريد على الشيخ، لأنه سبق أن محبة الكبير لا تنفع ومحبة المريد هي الجاذبة، فلولا طهارة ذات المريد وصفاء عقله وقبول نفسه للخير ومحبته الجاذبة، ما قدر الشيخ على شيء، ولو كانت محبة الشيخ هي النافعة لكان كل من تلمذ له يصل ويبلغ ما بلغت الرجال.

وسمعته رضي الله عنه يقول: علامة كون المريد يحب الشيخ المحبة الصادقة النافعة أن تقدر زوال الأسرار والخيرات التي في ذات الشيخ حتى تكون ذات الشيخ مجردة في ذلك كله وتكون كذوات سائر العوام، فإن بقيت المحبة على حالها فهي محبة صادقة، وإن تزحزحت المحبة وزالت بزوال الأسرار فهي محبة كاذبة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: علامة المحبة الصافية سقوط الميزان من المريد على الشيخ حتى تكون أفعال الشيخ وأقواله وجميع أحواله كلها موفقة مسددة في نظر المريد، فما فهم له وجهاً فذاك وما لم يفهم له سراً وكله إلى الله تعالى، مع جزمه بأن الشيخ على صواب، ومتى جوّز أن الشيخ على غير صواب فيما ظهر له خلاف الصواب فيه فقد سقط على أم رأسه ودخل في زمرة الكاذبين.

قال رضي الله عنه: والشيخ لا يطلب من مريده خدمة ظاهرية ولا دنيا ينفقها عليه ولا شيئاً من الأعمال البدنية، وإنما يطلب منه هذا الحرف لا غير، وهو أن يعتقد في الشيخ الكمال والتوفيق والمعرفة والبصيرة والقرب من الله عز وجل ويدوم على هذا الاعتقاد اليوم على أخيه، والشهر على أخيه، والسنة على أختها، فإن وجد هذا الاعتقاد انتفع المريد به ثم بكل ما يخدم به الشيخ بعد ذلك، وإن لم يوجد هذا الاعتقاد أو وجد ولم يدم فإن عرضت فيه الوساوس فالمريد على غير شيء.

وكنت ذات يوم معه بقرب باب الحديد، أحد أبواب فاس حرسها الله تعالى، ومعنا بعض الناس وكان يخدم الشيخ كثيراً ويتسخر له في كل ما يعن ويعرض، حتى أنه لا يبلغه في ذلك أحد من أصحابه رضي الله عنه، فقال له الشيخ رضي الله عنه: أتحبني يا فلان لله عز وجل؟ فقال: نعم يا سيدي محبة خالصة لوجه الله الكريم لا رياء فيها ولا سمعة، فغيرني ذلك حين سمعته، فقال له الشيخ: أفرأيت إن سمعت أني سلبت وزالت الأسرار التي في ذاتي أتبقى على محبتك؟ قال نعم، فقال الشيخ فإن قالوا لك إني رجعت طراحاً أو زبالاً أو نحو ذلك أتبقى على محبتك؟ قال: نعم يا سيدي، قال الشيخ: فإن قالوا لك إني رجعت عاصياً أرتكب المخالفات ولا أبالي أتبقى على محبتك؟ قال نعم: قال الشيخ وإن مرت علي وأنا على ذلك سنة ثم سنة ثم سنة إلى أن عد عشرين سنة، قال: نعم ولا يدخلني شك ولا ارتياب، فقلت للرجل ويحك، إن هذا أمر لا تطيقه.

فقال له الشيخ إني سأختبرك، فقلت للرجل، ويحك هذا أول الخوف عليك وكيف يطيق الأعمى أن يختبره البصير، فاطلب من الشيخ العفو والعافية واعترف له بالعجز والتقصير وأنا معك في ذلك، ثم تضرعنا إليه جميعاً في الإقالة والعفو فسبق ما سبق، إلى أن اختبره بأمر فيه صلاحه فلم يظهر له وجهه فلم يطقه فتبدلت نيته في الشيخ رضي الله عنه، قلت: وسر الله لا يطيقه إلا من كان فخاره صحيحاً بأن يكون صحيح الجزم نافذ العزم ماضي الاعتقاد لا يصغي لأحد من العباد قد صلى على من عدا شيخه صلاته على الجنازة، ولنثبت في هذا الباب حكايات ليعتبر بها من أراد صلاح نفسه بعد تقديم كلام سمعته من الشيخ رضي الله عنه وهو كالمقدمة للحكايات.

سمعته رضي الله عنه يقول: كنت قبل أن يفتح علي أشاهد صورة هائلة سوداء طويلة جداً على صورة جمل وقع لي هذا مرة واحدة، فلما فتح عليّ وشاهدت من عوالم ربي ما قدر لي فتشت عن عالم الصورة الهائلة وطلبت جنسها في أي موضع هو فما رأيت له خبراً، فسألت سيدي محمد بن عبد الكريم رضي الله عنه عن ذلك، فأخبرني أنه لا وجود لجنس تلك الصورة أصلاً، فقلت له: وأي شيء شاهدت، فقال: ذلك من فعل الروح أعني روح ذاتك، فقلت له وكيف ذلك. فقال: إن الذات إذا جعلت الشيء بين عينيها وجزمت به ساعفتها الروح في إيجاد الصورة التي جزمت بها وجعلت تخاف منها فتساعفها الروح في إيجادها ولو كان فيها ضرر الذات، قال وجزم الذات لا يقوم له شيء لا في جانب الخير ولا في جانب الشر.

قال سيدي محمد بن عبد الكريم: وكنت قبل الفتح مررت بموضع فعرض لي بحر في الطريق لا يقطع إلا بالسفن وهو من البحار التي على وجه الأرض فحصل لي في الذات جزم عظيم بأني أمشي عليه ولا أغرق ولا يصيبني شيء، قال: فوضعت رجلي على ظهر الماء والجزم يتزايد فلم أزل أمشي فوقه حتى قطعته للساحل الآخر، فلما رجعت مرة أخرى

وزال الجزم من ذاتي وجعلت أشك في المشي عليه فأدليت رجلي لأختبر فغرقت في الماء فأخرجتها، وعلمت أني لا أطيق مشياً عليه.

قال الشيخ رضي الله عنه: وما دامت الذات جازمة بالشيء فإن الشيطان لا يقربها وإنما يقربها إذا ذهب الجزم عنها وهو يعلم بذهابه لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فإذا رآه ذهب أقبل عليها بالوساوس حتى يفوتها الخير.

قال رضي الله عنه: فالجزم مثل سور المدينة الحصين فمتى كان للمدينة سور فلا يطمع فيها العدو، ومتى حصل في السور خلل وظهرت فيه أبواب وفرج بادر العدو للدخول فعيب الشيطان ووسوسته تابع لعيب سور الذات الذي هو الجزم، فليبادر كل عاقل لصلاح سور ذاته حتى لا يقربه شيطان ولا يستفزه إنسان. ومن هذا المعنى سمعته رضي الله عنه مرة يقول: إذا وعد الصادق أحداً بشيء من أمور الآخرة أو الدنيا فإن كانت في وقت سماعه للوعد ساكناً مطمئناً جازماً بصدق الوعد فهو علامة على أنه يدرك ذلك الشيء لا محالة، وإن كان في وقت سماعه للوعد مضطرباً مرتاباً في صدق الوعد فهو علامة على أنه لا يدرك ذلك الشيء، فالجزم علامة أهل الصدق والتحقيق نسأل الله بمنه وفضله أن يرزقنا حلاوته وأسراره.

وأما الحكايات: فمنها ما سمعت من الشيخ رضي الله عنه يقول: كان بعض من أراد الله رحمته في الماضين يحب الصالحين، فألقى الله في قلبه أن خرج من ماله فباعه وجمع ثمنه فذهب به لبعض من شهر عنه الصلاح، وكانت تقصده الوفود من النواحي فذهب إليه هذا المرحوم بحملة ماله حتى بلغ بلده فسأل عن داره فدل عليها فدق الباب فخرج الخادم فقال ما اسمك؟ فقال عبد العلي، وكان الشيخ المشهور بالولاية من العصاة المسرفين على نفوسهم، وكان له نديم يتعاطى معه الشراب وغيره اسمه عبد العلي، فوافق اسمه اسم هذا المرحوم فذهبت الجارية فقال للشيخ: اسم هذا الذي دق الباب عبد العلي فقال وظن أنه نديمه: ائذني له فدخل على الشيخ فوجد الشراب بين يديه وامرأة فاجرة معه ورزقه الله تعالى الغفلة عن ذلك كله فتقدم إليه، فقال يا سيدي. سمعت بك من بلادي وجئتك قاصداً لتدلني على الله عز وجل، وهذا ما لي أتيتك به لله تعالى، فقال له الشيخ يتقبل الله منكم، ثم أمر الجارية أن تدفع له رغيفاً فأخذه وأعطاه الفأس وأمره بالخدمة في بستان للشيخ عينه له، فذهب ذلك المرحوم من ساعته ونفسه مطمئنة وقلبه مسرور بقبول الشيخ له، فذهب فرحاً للخدمة وقد لقي نصباً من سفره للشيخ وما استراح حتى بلغ البستان وجعل يخدم بفرح وسرور ونشاط نفس فكان من قدر الله عز وجل وحسن جميله بذلك المرحوم، أن صادف مجيئه للشيخ الكذاب المسرف وفاة رجل من أكابر العارفين، وكان من أهل الديوان فحضر وفاته الغوث والأقطاب السبعة، فقالوا له يا سيدي فلان، كم مرة ونحن نقول لك اهبط إلى مدينة من مدن الإسلام؟ فعسى أن تلقي من يرثك في سرك ولم

تساعدنا، فالآن حانت وفاتك فيضيع سرك وتبقى بلا وارث، فقال لهم يا سادتي قد ساق الله إليّ من يرثني وأنا في موضعي، فقالوا له ومن هو؟ فقال عبد العلي الذي وفد على فلان المبطل، فانظروا إلى حسن سريرته مع الله عز وجل وإلى تمام صدقه ورسوخ خاطره ونفوذ عزمه وصلابة جزمه، فإنه رأى ما رأى ولم يتزلزل له خاطر ولا تحرك له وسواس، فهل سمعتم بمثل هذا الصفاء الذي في ذاته أفتوافقون على إرثه؟ فقالوا نعم، فخرجت روح الولي واتصل سيدي عبد العلي بالسر وأثابه الله عز وجل على حسن نيته، فوقع له الفتح وعلم من أين جاءته الرحمة، وأن الشيخ الذي وفد عليه مسرف كذاب، وأن الله تعالى رحمه بسبب نيته لا غير، والله الموفق.

ومنها ما سمعته من الشيخ رضي الله عنه قال: كان لبعض المشايخ مريد صادق فأراد أن يمتحن صدقه يوماً، فقال له يا فلان أتحبني؟ قال نعم، يا سيدي، فقال له من تحب أكثر أنا أو أبوك؟ فقال أنت يا سيدي فقال: أفرأيت إن أمرتك أن تأتيني برأس أبيك أتطيعني؟ فقال يا سيدي فكيف لا أطيعك ولكن الساعة ترى، فذهب من حينه وكان ذلك بعد أن رقد الناس فتسور جدار دارهم وعلا فوق السطح ثم دخل على أبيه وأمه في منزلهما، فوجد أباه يقضي حاجته من أمه فلم يمهله حتى يفرغ من حاجته، ولكن برك عليه وهو فوق أمه فقطع رأسه وأتى به للشيخ وطرحه بين يديه، فقال له ويحك أتيتني برأس أبيك، فقال يا سيدي نعم، أما هو هذا؟ فقال له ويحك، إنما كنت مازحاً، فقال له المريد أما أنا فكل كلامك عندي لا هزل فيه، فقال له الشيخ رضي الله عنه: انظر هل هو رأس أبيك فنظر المريد فإذا هو ليس برأس أبيه، فقال له الشيخ رأس من هو؟ فقال له رأس فلان العلج، قال وكان أهل مدينتهم يتخذون العلوج كثيراً بمنزلة العيد السودانيين، قال وكان أبوه غاب تلك الليلة فخانته زوجته في الفراش، ووعدت علجاً كافراً ومكنته من نفسها وكوشف الشيخ رضي الله عنه بذلك، فأرسل المريد ليقتله على الصفة السابقة ليمتحن صدقه، فعلم أنه جبل من الجبال فكان وارث سره والمسنولي بعده على فتحه، والله الموفق.

ومنها أني سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: جاء بعض المريدين لشيخ عارف فقال له يا سيدي القبول لله عز وجل فقال نعم ثم أمره بالمقام عنده والعكوف على خدمته وأعطاه مساحة في رأسها كورة حديد زائدة لا نفع فيها إلاتثقيل المساحة، وكان المريد هو وارث الشيخ بشرط أن لا ينتبه لكورة الحديد المذكورة فإن انتبه وقال ما فائدتها ولأي شيء تصلح ولا معنى لها إلا التثقيل فإنه لا يرث منه شيئاً.

قال رضي الله عنه: فبقي في خدمته سبع سنين، وهو يخدم بالفاس ولا تحرك له عرق وسواس ولا هزته عواصف رياح الشيطان، وصارت الكورة المذكورة بمنزلة العدم الذي لا يرى ولا يسمع فهذه حالة الصادقين الموفقين رضي الله عنه ولله تعالى الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: كان لبعض العارفين بالله عز وجل مريد صادق وكان

هو وارث سره، فأشهده الله تعالى من شيخه أموراً كثيرة منكرة ومع ذلك فلم يتحرك له وسواس، فلما مات شيخه وفتح الله عليه شاهد تلك الأمور وعلم أن الصواب مع الشيخ فيها، وليس فيها ما ينكر شرعاً، إلا أنها اشتبهت عليه. فمن ذلك أن امرأة كانت من جيران الشيخ وكانت تذكر بالسوء وكان المريد يعرف شخصها، وكان للشيخ امرأة على صورتها وكان المريد لايعرفها، وكان للشيخ موضع يخلو به بين باب الدار وبين البيوت، وكان المريد لا يبلغ إليه وإنما يقف بالباب، فاتفق أن دخلت المرأة المشهورة بالسوء على المريد وهو بالباب فجازت الدار، واتفق أن خرجت امرأة الشيخ الشبيهة بها، فدخلت على الشيخ الخلوة، وكان الشيخ أرسل إليها ليقضي حاجته منها، فدخلت وقام إليها الشيخ ومرت الشبيهة بها نحو البيوت، فرمى المريد ببصره إلى الخلوة فرأى المرأة مع الشيخ وهو يقضي حاجته منها، فما شك أنها المشهورة بالسوء، وربط الله على قلبه فلم يستفزه الشيطان ثم خرجت المرأة وحانت الصلاة فخرج الشيخ للصلاة وتيمم وكان به مرض منعه من الاغتسال، فما شك المريد أن الشيخ تيمم عن غير ضرر، وربط الله على قلب المريد وكان بالشيخ مرض منعه من هضم الطعام فصنعوا له ماء الفلنيص عصروه وأتوا له بمائه ليشربه، فدخل المريد فوجده يشربه، فما شك أنه ماء خمر، وربط الله على قلبه فلم يتحرك عليه وسواس فلما فتح الله عليه علم أن المرأة التي وطئها الشيخ امرأته لا المرأة المشهورة بالسوء، وعلم أن التيمم الذي فعله الشيخ لضرر كان بجسده، وعلم أن الماء الذي شربه الشيخ ماء فلنيص لا ماء خمر، والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: كان لبعض المريدين أخ في الله عز وجل، فمات ذلك الأخ وبقي المريد فجعل إذا فتح الله عليه بشيء يقسمه بين أولاده وبين أولاد الأخ في الله، وكان لهذا المريد أرض مع إخوانه فبيعت عليهم من جانب المخزن ظلماً، فلما أخذوا ثمنها كان نصيب المريد منها أربعين مثقالاً سكة زماننا، فقال له إخوانه ما تفعل بدراهمك؟ فقال أقسمها بيني وبين أولاد أخي في الله فاستحمقوه، وقالوا ما رأينا مثلك في نقصان العقل تسبب بدراهمك واشتر بها كذا واصنع بها كذا واترك عليك هذه الحماقة التي أنت مشتغل بها، فأرادت نفسه أن تميل إلى قولهم فقال لها يا نفسي ما تقولي لله عز وجل إذا وقفت بين يديه غداً حيث يقول لي رزقتك أربعين مثقالاً، فاستأثرت بها وضيعت حق الأخوة فاليوم أضيعك كما ضيعتها، فوفقه الله فقسم الدراهم بينه وبين أولاد أخيه في الله، فلما خرج من عندهم فتح الله عليه وأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجعله من العارفين لصدق نيته ولصداقة عزمه ونفوذ جزمه، والله الموفق.

وسمعت من غير الشيخ رضي الله عنه: أن بعض الأكابر كان له عدة أصحاب وكان لا يتخيل النجابة إلا من واحد منهم، فأراد أن يختبرهم يوماً فاختبرهم ففروا بجملتهم سوى ذلك الواحد، وذلك أنه تركهم حتى اجتمعوا على باب خلوته، فأظهر لهم صورة امرأة

جاءته فدخلت الخلوة، فقام الشيخ ودخل معها فأيقنوا أن الشيخ اشتغل معها بالفاحشة، فتفرقوا كلهم وخسرت نيتهم إلا ذلك الواحد، فإنه ذهب وأتى بالماء وجعل يسخنه بقصد أن يغتسل به الشيخ، فخرج عليه الشيخ، فقال ما هذا الذي تفعل؟ فقال: رأيت المرأة قد دخلت، فقلت لعلك تحتاج إلى غسل، فسخنت لك الماء، فقال له الشيخ وتتبعني بعد أن رأيتني على المعصية، فقال: ولم لا أتبعك والمعصية لا تستحيل عليك وإنما تستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم أخالطك على أنك نبي لا تعصي، وإنما خالطتك على أنك بشر، وأنك أعرف مني بالطريق ومعرفتك بالطريق باقية فيك؛ والوصف الذي عرفتك عليه لم يزل فلا تتبدل لي نية ولا يتحرك لي خاطر، فقال له الشيخ يا ولدي تلك الدنيا تصورت بصورة امرأة وأنا فعلت ذلك عمداً لينقطع عني أولئك القوم فادخل يا ولدي وفقك الله معي الخلوة فهل ترى امرأة فيها؟ فدخل فلم يجد امرأة فازداد محبة على محبة، والله الموفق.

ورأيت في كتاب محيي الدين تلميذ تاج الدين الداكر المصري رحمهما الله تعالى: أن رجلاً جاء إلى بعض الأكابر فقال له: يا سيدي أريد منكم أن تعطوني السر الذي خصكم الله به، فقال الشيخ إنك لا تطيق ذلك، فقال المريد أطيقه وأقدر عليه، فامتحنه الشيخ بأمر سقط منه على أم رأسه، نسأل الله السلامة.

وذلك أنه كان عند الشيخ مريد شاب حدث أبوه من الأكابر، فلما قال ذلك المريد أنا أطيق السر قال له الشيخ إني سأعطيك إن شاء الله السر، فأمره بالمقام عنده، ثم إن الشيخ أمر الشاب الحدث بالاختفاء في مكان بحيث لا يظهر لأحد ثم أدخل الشيخ خلوته كبشاً فذبحه وجعل على ثيابه شيئاً من الدم فخرج على المريد السابق والسكين في يده والدم يسيل على يده، وهو في صورة الغضبان، فقال المريد ما عندكم يا سيدي؟ فقال إن الشاب الفلاني أغضبني فما ملكت نفسي أن ذبحته، فها هو في ذلك المكان مذبوح يشير إلى الخلوة التي ذبح فيها الكبش، فإن أردت السر يا ولدي فاكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد، وإن سألني عنه أبوه فإني أقول له مرض ولدك ومات فإنه يصدقني ويحصل في المسألة لطف فعساك يا ولدي تساعدني على هذا الأمر وتسترني فيه، فإن فعلت فأنا أعطيك السر إن شاء الله تعالى، فقال المريد وقد تمعر وجهه وظهر غيظه حيث ظن أن الشيخ في قبضته، سأفعل بكلام يظهر منه الكذب، ففارق الشيخ وذهب سريعاً إلى والد الشاب وأعلمه بالقصة، وقال له إن الشيخ الكذاب الذي كنتم تعتقدون فيه الخير قتل ولدكم في هذه الساعة، وجعل يرغبني أن أستره ويطلب مني أن أكتمه عنكم، وإن شككتم في الأمر فاذهبوا معي الساعة فإنكم تجدون ولدكم يتشحط في دمه، فقال له الناس ويحك. فإن سيدي فلاناً لا يفعل هذا ولعل الأمر شبه عليك، فقال لهم اذهبوا معي حتى يظهر صدقي أو كذبي ففشا قوله في الناس وسمع به أرباب الدولة، فأقبلوا إلى الشيخ سراعاً والمريد

أمامهم حتى وقفوا على خلوة الشيخ فقرعوا الباب فخرج الشيخ وقال لهم مالكم وأي شيء أقدمكم؟ فقالوا له ألا تسمع ما يقول هذا يشيرون إلى المريد، فقال له الشيخ وأي شيء كان؟ فقال له المريد الذي كنت ترغبني فيه وتطلب مني كتمانه هو الذي كان، فقال الشيخ ما وقع بيني وبينك شيء وما كلمتك قط، فقال المريد الكذب لا ينجيك، قد قتلت ولد الناس، فترامى الناس على الشيخ، من كل ناحية قتلت ولد الناس، فالآن نقتلك يا عدو الله تغش الناس بعبادتك وتخدعهم بخلوتك.

فقال الشيخ: سلوه من أين علم بأني قتلته؟ فقال المريد ألم تخرج عليّ وأثر الدم على يديك وثوبك، فقال الشيخ نعم، وقد ذبحت شاة، فقال المريد فلندخل إلى الخلوة إن كنت صادقاً فدخلوا فوجدوا شاة مذبوحة، فقال المريد إنما أخفيت القتيل وأظهرت هذه الشاة في موضعه لئلا تقتل به، فقال الشيخ أرأيت إن خرج الشاب ولا بأس عليه أتعلم أنك من الكاذبين الذين لا يفلحون؟ فقال المريد فأخرجه إن كنت صادقاً، فأرسل الشيخ إلى الفتى فخرج ولا علم عنده بما وقع، فلما رآه الناس تضرعوا إلى الشيخ وجعلوا يسبون المريد الكاذب وعند ذلك قال له الشيخ ألست تزعم يا كذاب أنك تطيق السر وتقدر عليه، فما بالك لم تقدر على كتم هذا الأمر الذي لم يكن منه شيء، وإنما صنعنا معك هذا لدعواك أنك تطيق السر، فاذهب فقد أعطيناك السر الذي يليق بأمثالك، فكان ذلك المريد من يومه ذلك موعظة للمعتبرين ونكالاً للمدعين الكاذبين نسأل الله بمنه التوفيق.

ووقع لرجل آخر حكاية عجيبة: وذلك أنه كان شيخ ركب الحجيج وكان من بلاد العرب، وكان يعتني كثيراً بلقاء الصالحين ويحبهم ويفتش على الذي يربح على يديه فكان هذا دأبه إذا طلع إلى المشرق وإذا رجع فالتقى بمصر مع بعض الصالحين فأعطاه أمانة، وقال له الرجل الذي يطلبها منك هو صاحبك، فما زال يطوف على الصالحين الذين يرفعهم واحداً واحداً حتى قدم لبلده ودخل داره وبقي ما شاء الله، فلقيه ذات يوم جاره فقال له أين الأمانة التي أعطاك فلان بمصر فعلم أن جاره هو صاحب الوقت؛ فسقط على رجله يقبلها، ويقول يا سيدي كيف تخفون أنفسكم عليّ وما تركت صالحاً يشار إليه بالمشرق والمغرب إلا أتيته، وأنتم جيراني وأقرب الناس إلي، ثم طلب منه السر الذي خصه الله به فقال له الشيخ هذا أمر لا تطيقه، فقال بل أطيقه يا سيدي فقال الشيخ: فإن كنت تطيقه فاعمل بشرط، فقال وما شرطك يا سيدي؟ فقال الشيخ شرط لا كبير ضرر عليك فيه، هو أن تحلق لحيتك الطويلة هذه فقال له يا سيدي كيف يسوغ لي ذلك وبها أهاب وأعظم في طريق المشرق فقال الشيخ: فإن أردت السر فافعل ما أقول لك، فقال له يا سيدي هذا أمر لا أطيقه، فقال له الشيخ وما بقي لك على ذنب حيث لم تقبل شرطي ففارقه، فلما مات الشيخ وفاته ما فاته ندم وقال لو كان عقلي اليوم عندي في زمان الشيخ لفعلت ما قال وزدت عليه.

وسمعت من بعض الثقات ممن كان يرى النبي ﷺ في اليقظة، وكان يشم رائحة مدينة النبي ﷺ من مدينة فاس. قال كنت مع بعض الأولياء ليلة الجمعة في جامع الأندلس بمحروسة فاس أمنها الله فلما صليت الجمعة وخرجت من الجامع فإذا برجل يقبل يد ذلك الولي ويقول يا سيدي إني أحبك لله عز وجل، فقال له الولي وقد نظر فيه نظرة منكرة ألم تعلم أن الله يعلم السر وأخفي، يعني فهلا اكتفيت بعلم الله وحسن جزائه، فذهب الولي وجعل الذي ادعى المحبة يبكي مما سمعه من الولي، فتقدمت إليه وقلت يا هذا إنك قد ادعيت أمراً عظيماً ولا بد للشيخ أن يختبرك فكن رجلاً وإلا فهو الفراق بينك وبين الشيخ قال: وكان جاراً للشيخ في بعض بساتينه وكانت شجرة تين للشيخ في الحدود فكان ذلك المدعي يجنيها كل عام والشيخ يصبر ويعفو ويصفح ويحسن جواره، فلما ادعى المحبة أسقط عنه كلفة التحمل وقال له إن الشجرة شجرتي لا شيء لك فيها، فأنكره المدعي وقال هي لي، فقام الشيخ معه على ساق الجد في النزاع والخصام حتى سمعت ذلك المدعي يسب الشيخ رضي الله عنه، وسمعت هذا الرجل يقول: ذهبنا إلى الحج فلما زرت قبر النبي ﷺ أخذتني حالة، وقلت. يا رسول الله ما ظننت أني أصل إلى مدينتكم ثم أرجع إلى فاس، فسمعت صوتاً من قبل القبر الشريف وهو يقول: إن كنت مخزوناً في هذا القبر فمن جاء منكم فليبق هٰهنا وإن كنت مع أمتي حيثما كانت فارجعوا إلى بلادكم، قال فرجعت إلى بلادي والله تعالى الموفق.

وسمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: كان بعض الشيوخ المجاذيب يظهر مخالفة ليفر عنه الناس، حتى أنه أراق على ثوبه ذات يوم خمراً، فجعل الناس يشمون منه رائحة الخمر ويفرون منه ولم يبق معه إلا وارث سره، فقال: فعلت هذا عمداً ليفر عني هؤلاء النمل، يشير إلى كثرة الناس الذين كانوا يتبعونه فإنه لا حاجة لي فيهم، والحاجة إنما هي بك وحدك والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: جاء رجل إلى بعض الأولياء وجعل يتأمله ويصعد فيه النظر حتى تأمله من رأسه إلى رجليه، فقال له الولي: ما مرادك، قال يا سيدي هذه غنيمتي أردت أن تنظر ذاتي ذاتك لتشفع فيها غداً بين يدي الله، قال الشيخ رضي الله عنه: فربح ذلك الرجل ربحاً كبيراً.

وكان رضي الله عنه إذا ذكر هذه الحكاية يقول الناس باقون في هذه الأمة والحمد لله والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: جاء بعض الصادقين إلى من يعتقد فيه الخير، فقال له إني أحبك في الله عز وجل، فقال له الشيخ وكان ذلك عند صلاة الصبح، فإن أردت أن تربح فلا ترجع إلى دارك أبداً واذهب إلى بلاد المشرق، قال فامتثل ولم يخالف فربح دنيا وأخرى والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الذين ألفوا في كرامات الأولياء رضي الله عنهم وإن نفعوا الناس من حيث التعريف بالأولياء فقد أضروا بهم كثيراً من حيث إنهم اقتصروا على ذكر الكرامات ولم يذكروا شيئاً من الأمور الفانية التي تقع من الأولياء الذين لهم تلك الكرامات، حتى أن الواقف على كلامهم إذا رأى كرامة على كرامة وتصرفاً على تصرف وكشفاً على كشف، توهم أن الولي لا يعجز في أمر يطلب فيه ولا يصدر منه شيء من المخالفات ولو ظاهراً فيقع في جهل عظيم، لأنه يظن أن الولي موصوف بوصف من أوصاف الربوبية، وهو أنه يفعل ما يشاء ولا يلحقه عجز وبوصف من أوصاف النبوة وهو العصمة والأمر الأول من خصائص الربوبية، ولم يعطه الله تعالى لرسله الكرام، فكيف بالأولياء، قال الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٍ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِم أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وقال: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاء﴾ وقال ﷺ: **«سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ اثْنَيْنِ فَأَعْطَانِيهِمَا وَسَأَلْتُهُ اثْنَيْنِ فَمَنَعَنِيهِمَا قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ فَقُلْتُ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ فَقَالَ قَدْ فَعَلْتُ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فَقُلْتُ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ فَقَالَ قَدْ فَعَلْتُ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعاً﴾ فَقُلْتُ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ فَقَالَ قَدْ سَبَقَ الْقَضَاءُ ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فَقُلْتُ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ فَقَالَ سَبَقَ الْقَضَاءُ»**.

وقال تعالى في سؤال نوح نجاة ابنه من الغرق:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً﴾.

والناس اليوم إذا رأوا ولياً دعا فلم يستجب له أو رأوا ولده على غير طريق أو امرأته لا تتقي الله، قالوا ليس بولي، إذ لو كان ولياً لاستجاب الله دعاءه، ولو كان ولياً لأصلح أهل داره، ويظنون أن الولي يصلح غيره وهو لا يقدر على إصلاح نفسه، قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلٰكِنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وأما الأمر الثاني وهو العصمة فهو من خصائص النبوة والولاية لا تزاحم النبوة.

قال رضي الله عنه: والخير الذي يظهر على يد الولي إنما هو من بركته ﷺ، إذ الإيمان الذي هو السبب في ذلك الخير إنما وصل إليه بواسطة النبي ﷺ.

أما ذات الولي، فإنها كسائر الذوات بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم

جبلوا على العصمة وفطروا على معرفة الله تعالى وتقواه، حيث أنهم لا يحتاجون إلى شرع يتبعونه ولا إلى معلم يستفيدون منه والحق الساكن في ذواتهم وهو حرف النبوة الذي طبعوا عليه يسلك بهم النهج القويم والطريق المستقيم.

قال رضي الله عنه: ولو أن الناس الذين ألفوا في الكرامات قصدوا إلى شرح حال الولي الذي وقع التأليف فيه فيذكرون ما وقع له بعد الفتح من الأمور الباقية الصالحة والأمور الفانية، لعلم الناس الأولياء على الحقيقة، فيعلمون أن الولي يدعو تارة فيستجاب له، وتارة لا يستجاب له، ويريد الأمر فتارة يقضى، وتارة لا يقضى، كما وقع للأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ويزيد الولي بأنه تارة تظهر الطاعة على جوارحه، وتارة تظهر المخالفة عليها كسائر الناس، وإنما امتاز الولي عنهم بأمر واحد، وهو ما خصه الله تعالى من المعارف ومنحه من الفتوحات، ومع ذلك فالمخالفة إن ظهرت عليه فإنما هي بحسب ما يظهر لنا لا في الحقيقة، لأن المشاهدة التي هو فيها تأبى المخالفة وتمنع من المعصية منعاً لا ينتهي إلى حد العصمة، حتى تزاحم الولاية النبوة، فإن المنع من المعصية ذاتي في الأنبياء، عرضي في الأولياء، فيمكن زواله في الأولياء ولا يمكن زواله في الأنبياء. وسره ما سبق وهو أن خير الأنبياء من ذواتهم، وخير الأولياء من غير ذواتهم، فعصمة الأنبياء ذاتية وعصمة الأولياء عرضية، فإن العارف الكامل إذا وقعت منه مخالفة فهي صورية لا حقيقية قصد بها امتحان من شاهدها واختاره، ولذلك أسرار، فنطلب من الله تعالى أن يوفقنا للإيمان بأوليائه، كما وفقنا للإيمان بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

قال رضي الله عنه: ومن علم سيرة النبي ﷺ في أكله وشربه ونومه ويقظته وجميع أحواله في بيته، وعلم سيرته في حروبه وغزواته، وكيف يدال له مرة ويدال عليه أخرى، وكيف يطلب منه أناس قوماً من أصحابه ثم يذهبون ويغدرون بهم، كما في غزوة الرجيع وغزوة بئر معونة وعلم ما وقع في قصة الحديبية وغيرها، ولكل ذلك أسرار ربانية أطلع الله تعالى عليها نبينا ﷺ، هانت عليه معرفة الأولياء ولا يستكثر ما يراه على ظاهرهم من الأمور الفانية والأوصاف البشرية، فعلى العاقل الذي يحب الخير ويحب أهله، أن يكثر من مطالعة سيرته ﷺ فإنه يهديه ذلك إلى معرفة الأولياء العارفين؛ ولا يشكل عليه شيء من أمورهم وهذا القدر هو الذي يمكن أن يبينه القلم والعاقل اللبيب تكفيه الإشارة، والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الرجل قد يسمع بالولي في بلاد بعيدة فيصوره في نفسه على صورة تطابق الكرامات التي تنقل عنه فإذا وجده على غير تلك الصورة التي سبقت في ذهنه وقع له شك في كونه هو ذلك الولي.

ثم ذكر رضي الله عنه أن رجلاً من الجزائر سمع بولي في فاس، ونقلت إليه عنه كرامات كثيرة فصوره في نفسه في صورة شيخ كبير له هيبة عظيمة، فارتحل إليه لينال من أسراره، فلما وصل مدينة فاس سأل عن دار ذلك الولي فدل عليها وكان يظن أن لذلك

الولي بوابين يقفون على باب داره، فدق الباب فخرج الولي فقال القاصد يا سيدي أريد منكم أن تشاوروا على سيدي الشيخ وظن أن الخارج إليه بواب، فقال له الولي: الذي قصدته من بلادك وسرت إليه مسيرة شهر أو أكثر هو أنا لا غير، فقال يا سيدي أنا رجل غريب، وجئت إلى الشيخ بشوق عظيم فدلني عليه يرحمك الله، وذلك أنه نظر إلى الولي فلم يجد عليه شارة ولا صورة عظيمة، فقال له الولي يا مسكين أنا هو الذي تريد، فقال القاصد أنا أقول لكم إني غريب وطلبت منكم أن تدلوني على الشيخ وأنتم تسخرون بي، فقال له الولي: الله بيننا إن سخرت بكم، فقال له القاصد الله حسبك وانصرف حيث وجده على غير الصورة التي صورها في فكره.

قلت: وكم واحد سقط من هذا السبب، فإنه إذا طالع الكتب المؤلفة في كرامات الأولياء صور الولي على نحو ما سمع في تلك الكتب إذا عرض تلك الصورة على أولياء زمانه شك فيهم أجمعين لما يشاهد فيهم من الأوصاف التي لا تكتب في الكتب، ولو أنه شاهد الأولياء الذين دونت كراماتهم قبل تدوينها لوجد فيهم من الأوصاف ما أنكره على أهل زمانه، وقد يبلغ الجهل بأقوام إلى إنكار الولاية عن كل موجود من أهل زمانهم لما استحكم في عقولهم من حصر الولاية وتحقيقها بالضوابط، فإذا نزل تلك الضوابط على موجود من أهل زمانه وجدها لا تطابقه فينفي الولاية عنه ويصير حاصله أنه يؤمن بولي كلي لا وجود له في الخارج، ولم يدر أن الولاية هي مجرد اصطفاء من الله تعالى لعبده ولا يقدر على ضبطها مخلوق من المخلوقات.

وقد وقع لبعض الفقهاء من أهل العصر معنا حكاية في هذا المعنى، وذلك أنه أتاني بعض كتب القوم وهو يذكر فيه شروط الولاية وضوابطها وكيف ينبغي أن يكون الولي الذي يشيخ، فقال لي: أردت منكم أن تسمعوا مني ما ذكره في هذا الكتاب في الولاية وشروط الولي، وقد فهمت إشارته وأنه أراد الإنكار على بعض من يشار إليه بالولاية فأراد أن يقرأ على ما في ذلك الكتاب فإذا سلمته ألزمني بما في باطنه من الإنكار والاعتراض على أولياء الله عز وجل، فقلت له لا تقرأ علي ما في الكتاب حتى تجيبني على سؤال، فإذا أجبتني عنه فاقرأ ما شئت، أخبرني هل مؤلف هذا الكتاب أحاط بخزائن الله وعطائه وملكه العظيم، أو هو كما قال الخضر لموسى عليهما السلام: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور بنقرته من البحر.

فإن قلتم أحاط بملك الله وخزائنه فقولوه حتى أسمعه منكم، فقال الفقيه: معاذ الله أن نقول ذلك، وإن قلتم هو كما قال الخضر لموسى عليهما السلام، فالسكوت خير له، فإن مثاله كنملة لها غوير صغير تأوي إليه وتسكن فيه، فخرجت منه فوجدت حبة قمح ففرحت بها وأدخلتها إلى مسكنها، وحملها الفرح على أن جعلت تصيح وتنادي يا جميع النمل لا مأوى إلا عندي ولا خير إلا ما أنا فيه، فقلت له إنها تتعب حلقها وتوجع رأسها

بلا فائدة، فإن من علمه من علم الله كنقرة العصفور من البحر كيف يصح منه أن يقطع على المولى الكريم، ويقول إنه لا يرحم هذا ولا يفتح على هذا، وليس هذا من الأولياء وضوابط الولاية لاتصدق على هذا ولا تطابقه، وإذا كان الله تعالى يرحم العبد وهو على الكفر فيعطيه الإيمان ثم يفتح عليه من ساعته فأي قاعدة تبقى للولاية حينئذ، وإذا قيل لك عن السلطان الحادث العاجز المولى على الناس أنه أغنى عبده الفلاني ومنع الحر الفلاني، وخلع على اليهودي الفلاني كذا وكذا، فإنك لا تستبعده لأنك تعتقد أنه لا منازع له في ملكه، وإذا كنت تعتقد هذا في الملك الحادث فكيف تمنع الملك القديم سبحانه من ذلك بضوابطك وقواعدك، وإنك تعتقد أنه:

﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ وأنه ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

فقال الفقيه هذا الذي قلتم صواب والله إنه لحق وطوى كتابه وقال: إن قلنا إن هؤلاء المؤلفين أحاطوا بعلم الله فبئس ما قلنا؛ وإن قلنا إنهم لم يحيطوا بالنزر منه فلا ينبغي لنا أن نحجر على الله بقواعدهم، فلو سكتوا لكان خيراً لهم، والمهدي من هداه الله، وكم من مهدي هدى قبل أن تكون هذه القواعد والضوابط والله الموفق.

ووقعت لي مناظرة أخرى مع بعض الفقراء المنتسبين إلى خدمة الصالحين رضي الله عنهم، وذلك أني كنت أنا وهو نختلف إلى بعض الأولياء كثيراً، فلما مات ذلك الولي، جعلت أختلف إلى ولي آخر وبقي هو في زاوية الأول، فلقيني ذات يوم، فقال أردت نصيحتك يا فلان، فقلت: حباً وكرامة، وعلى الرأس والعين، وقد فهمت مراده، فقال: إنك كنت أولاً مع سيدي فلان وكانت ولايته لا يشك فيها اثنان، وقد ذهبت اليوم إلى غيره فأنت بمثابة من ترك الجواهر واليواقيت واستبدلها بالأحجار، فقلت: أنت تتكلم عن بصيرة أو عن غير بصيرة فإن كان كلامك عن بصيرة فاذكرها لنا حتى نذكر لك ما عندنا، وإن كان كلامك عن غير بصيرة فاذكر دليله، فقال لي: ظاهر مثل الشمس فقلت له: فإن قال لك قائل إن كلامك هذا يبعدك من الله ويقربك من الشيطان فقلت له فما دليلك؟ فقال لك ظاهر مثل الشمس فبم تجيبه، فسكت ولم يدر ما يقول ثم قلت له إني فكرت في دليلك وجلت بخاطري في برهانك فلم أجد لك دليلاً إلا أمراً واحداً، فقال لي وما هو؟ فقلت: إنك تزعم أنك شريك لله في ملكه بحيث لا يعطي شيئاً ولا يفتح على شيء إلا بإذنك، والفتح على الرجل الذي تنكر عليه لم يقع بإذنك ولا يقدر الله تعالى على إعطائه إلا بإذنك، فمن هذا الطريق تهيأ لك الإنكار على عباد الله الصالحين، ولو كنت تعتقد أن الله لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في عطائه لسلمت لعباد الله ما أعطاهم ربهم عز وجل من الخيرات، فقال الفقير: أنا تائب إلى الله تعالى أنا تائب إلى الله تعالى، أنا تائب إلى الله تعالى، الحق ما تقول، والله ما نحن إلا فضوليون وما كنا ننكر إلا بالباطل والله الموفق.

واعلم وفقك الله أن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب، ولا يتقيد بمذهب

من المذاهب، ولو تعطلت المذاهب بأسرها لقدر على إحياء الشريعة وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين، ولا يخرج عن مشاهدة الحق جل جلاله لحظة، وحينئذ فهو العارف بمراد النبي ﷺ وبمراد الحق جل جلاله في أحكامه التكليفية وغيرها، وإذا كان كذلك فهو حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، لأنه أقرب إلى الحق من غير المفتوح عليه، وحينئذ فكيف يسوغ الإنكار على من هذه صفته ويقال إنه خالف مذهب فلان في كذا إذا سمعت هذا فمن أراد أن ينكر على الولي المفتوح عليه لا يخلو إما أن يكون جاهلاً بالشريعة كما هو الواقع غالباً من أهل الإنكار، وهذا لا يليق به الإنكار، والأعمى لا ينكر على البصير أبداً فاشتغال هذا بزوال جهله أولى به، وإما أن يكون عالماً بمذهب من مذاهبها جاهلاً بغيره، وهذا لا يصح منه إنكار إلا إن كان يعتقد أن الحق مقصور على مذهبه ولا يتجاوزه لغيره، وهذا الاعتقاد لم يصر إليه أحد من المصوبة ولا من المخطئة.

أما المصوبة فإنهم يعتقدون الحق في كل مذهب فهي كلها عندهم على صواب، وحكم الله عندهم يتعدد بحسب ظن المجتهد، فمن ظن الحرمة في نازلة فهي حكم الله في حقه، ومن ظن الحلية فيها بعينها فهي حكم الله في حقه.

وأما المخطئة فحكم الله عندهم واحد لا يتعدد ومصيبه واحد ولكنهم لا يحضرونه في مذهب بعينه، بل يكون الحق في نازلة هو ما ذهب إليه إمام، وفي نازلة أخرى ما ذهب إليه غيره، فاشتغال هذا المنكر بزوال هذا الاعتقاد الفاسد أولى به، وأما أن يكون عالماً بالمذاهب الأربعة وهذا لا يتأتى منه الإنكار أيضاً إلا إذا كان يعتقد نفي الحق عن غيرها من مذاهب العلماء، كمذهب الثوري والأوزاعي، وعطاء وابن جريج وعكرمة ومجاهد ومعمر وعبد الرزاق والبخاري ومسلم وابن جرير وابن خزيمة، وابن المنذر وطاوس والنخعي، وقتادة وغيرهم من التابعين وأتباعهم إلى مذاهب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وهذا اعتقاد فاسد فاشتغاله بدوائه أولى من اشتغاله بالإنكار على أولياء الله المفتوح عليهم وإذا وصلت إلى هنا علمت أنه لا يسوغ الإنكار على الحقيقة إلا ممن أحاط بالشريعة ولا يحيط بها إلا النبي ﷺ والكمل من ورثته كالأغواث في كل زمان رضي الله عنهم.

أما غيرهم فسكوتهم خير لهم لو كانوا يعلمون وكلامنا في الإنكار على أهل الحق من أهل الفتح.

وأما أهل الظلام والضلال فلا تخفى أحوالهم على من مارسهم.

وقد استأذن بعض الناس شيخه في الإنكار على الأولياء أهل الحق من أهل الفتح وقال له يا سيدي: لا أنكر عليهم إلا بميزان الشريعة، فمن وجدته مستقيماً سلمت له، ومن وجدته مائلاً أنكرت عليه، فقال له شيخه: أخاف أن لا تكون عندك الصنوج كلها التي يوزن بها، وإذا كان عندك بعض الصنوج دون بعض فلا يصح ميزانك، يشير إلى ما سبق من كونه ينكر وهو جاهل.

وقد حضرت لبعض الناس وكانت له فطانة وحذاقة، فسمع سائلاً يسأل ولياً مفتوحاً عليه عن السورة التي بعد أم القرآن إذا نسيها المصلي وترتب السجود القبلي عليه ثم نسيه فلم يفعله حتى سلم وطال الحال هل تبطل الصلاة بترك السجود القبلي بناء على أن في السورة ثلاث سنن أولاً بناء على أنه ليس فيها ثلاث سنن؟ وقد ذهب إلى الأول الشيخ الحطاب وغيره، وإلى الثاني شراح الرسالة وطلب السائل من هذا الولي المفتوح عليه أن يعين له الحق عند الله تعالى، فأجابه الولي سريعاً الحق عند الله تعالى، هو أن السورة لا يوجب نسيانها سجود أصلاً، ومن سجد لها بطلت صلاته، وكان الولي المفتوح عليه عامياً أمياً، وكان السائل يعرفه ويعرف ارتقاء درجته في الفتح، فلما سمع جوابه علم أنه الحق الذي لا ريب فيه، وأما الذي له حذاقة وفطانة فدخله شك وارتياب، فقال للسائل بعد أن قاما عن الولي، إن هذا الرجل يعني الولي جاهل لا يعرف شيئاً انظر كيف جهل حكم الله في هذه المسألة الظاهرة، وقال: إن تارك السورة لا سجود عليه وقد عدها ابن رشد في السنن المؤكدة كما عدّ فيها الجهر والسر، فأجابه السائل بأن الولي المفتوح عليه لا يتقيد بمذهب بل يدور مع الحق أينما دار، فقال: الذي له حذاقة وكان من طلبة العلم، نحن لا نتجاوز أقوال إمامنا مالك، فأجابه السائل بأن هذا الذي قاله الولي المفتوحة عليه قد رواه أشهب عن مالك كما نقله في التوضيح، فروى عن الإمام أن السورة مستحبة وليست بسنة، ثم هو مذهب الشافعي رضي الله عنه فعنده أن السورة من الهيئات التحسينية وليست من السنن، ومن سجد لها بطلت صلاته، ثم سؤالنا للولي إنما كان عن تعيين الحق من غير تقييد ولم يكن عن خصوص المشهور من مذهب مالك، وقد عين ما سألناه عنه ووافق ذلك رواية عن مالك وهي مذهب الشافعي رضي الله عنهما، فأي تبعة بقيت على الولي في جوابه؟ فلما قال السائل هذا القول وسمعه الذي له حذاقة انقطع ولم يدر ما يقول.

قلت: وهذه طريقة المنكرين وعادتهم لا تجد معهم إلا التقصير التام.

وقد وقع لبعض أكابر الفقهاء من أشياخنا رضي الله عنهم كلام معي في هذا المعنى، فقال لي يوماً: يا فلان إني أردت نصيحتك لمحبتي فيك وتمام مودتي إليك، فقلت يا سيدي حباً وكرامة وعلى الرأس والعين.

فقال لي رضي الله عنه: إن الناس على طرف وأنت وحدك على طرف في رجل علمت كشفه وولايته الناس فيه على الانتقاد، وأنت على الاعتقاد، ومن المحال أن تكون وحدك على الحق، وذكر كلاماً من هذا المعنى هذه زبدته.

فقلت: يا سيدي من تمام نصيحتك لي أن تجيبني عما أذكره لك، فإن أجبتني عنه تمت النصيحة، وكان أجرك على الله.

فقال لي رضي الله عنه: اذكر ما شئت.

فقلت: يا سيدي ألقيتم الرجل وسمعتم كلامه وتباحثتم معه في أمر من الأمور حتى ظهر لكم ما عليه الناس فيه؟ فقال لي: ما لقيته قط ولا رأيته أصلاً.

فقلت له: وقد طرحت الحياءة والحشمة لما بيني وبينه من الألفة والمودة، يا سيدي ما ظهر لي فيكم إلا أنكم عكستم الصواب وطلبتم اليقين في باب الظن الذي لا يمكن فيه اليقين، واكتفيتم في باب اليقين بالظن بل بالشك بل بالإفك والأباطيل.

فقال لي رضي الله عنه: فسر لي مرادك بهذا الكلام.

فقلت له: إنكم إذا أخذتم في تدريس الفقه ونقل لكم كلام عن المدونة أو تبصرة اللخمي أو بيان ابن رشد أو جواهر ابن شاس ونحوها من دواوين الفقه وأمكنكم مراجعة هذه الأصول، فإنكم لا تثقون بنقل الواسطة حتى تنظروها بأنفسكم، ولو كانت الواسطة مثل ابن مرزوق والحطاب والتوضيح ونحوهم فهذا باب الظن وكأنكم تطلبون فيه اليقين حتى لم تكتفوا فيه بنقل العدول الثقات الأثبات حتى باشرتم الأمر بأنفسكم، ولا يمكنكم اليقين فيه أبداً، وإنما عرضتم ظناً أقوى بظن أضعف منه، فإنه نقل الواسطة السابقة أقرب إلى الصواب من جهة قرب زمانها إلى مؤلفي الكتب الستة، فإنهم أقرب إليهم منا بلا ريب، ومن جهة أن النسخ التي عند الواسطة من هذه الأصول مروية بطريق من طرق الروايات، وأما نحن فلا رواية عندنا فيها، ولا نسخ صحيحة منها، فمن الجائز أن تكون نسختكم منها زادت أو نقصت فبأي يقين ترد نقل الخطاب عنها مع وجود هذين الأمرين فيه وفقدهما فيك، أو أما أنكم اكتفيتم بالظن في باب اليقين الذي يمكن فيه، فإن هذا الرجل الذي بلغك عنه ما بلغك موجود حي حاضر معك في المدينة ليس بينك وبينه مسافة ومعرفته سعادة لا شقاء بعدها، إن وفق الله لمحبته وإلقاء القياد إليه، وقد أمكنك الوصول إليه حتى تعتقد فتسعد وتربح أو تنتقد فترجع ويحصل لك اليقين بأحد الأمرين، وتزول ظلمة الشك من قلبك، ثم إنك قنعت في هذا الأمر الرابح والخير الراجح الذي نفعه محقق وصاحبه موفق بنقل الفسقة والكذبة، وكان من عادتك أنك لا تقنع في باب الظن والنفع القليل بنقل الثقات الأثبات حتى تباشر الأمر بنفسك، فهلا جريت على ذلك في هذا الباب الذي هو باب اليقين والنفع الذي هو سعادة محضة أليس هذا منكم رضي الله عنكم عكسا لصواب؟

فقال رضي الله عنه: قطعتني بالحجة والله لا يمكنني الجواب عن هذا أبداً، واشهد علي بأني تائب إلى الله عز وجل، ثم قلت للشيخ المذكور: إن كان ولا بد لكم من التقليد فقلدني لأمرين: أحدهما أنك تعلم بصيرتي في الأشياء، ثانيهما أنك تعلم أني خالطت الرجل المذكور سنين كثيرة حتى علمت منه ما لم يعلمه غيري، وأما هؤلاء الكذبة الفسقة فأكثرهم لم يلقه مثلكم وإنما اعتمادهم على التسامح الذي لا أصل له وسببه الحرمان والخذلان، نسأل الله التوفيق بمنه وفضله وكرمه.

فقال رضي الله عنه: ما بقي مما تقول شيء آخر.

ثم لقيني فقيه آخر من أشياخ الفقيه المتقدم فقال لي: ذكر لي عنكم فلان حجة قاطعة لكل منازع، ثم التفت إلى الفقيه المذكور، فقال ألم تخبرني أن فلانا قال لك كيت وكيت؟ فقال: نعم ثم قالا معا بهذا الكلام قطعت ظهرنا قلت: وهذان الفقيهان هما رأس الطبقة من أهل العصر بحيث أنهما لا يجاريهما أحد في وقتهما، وأما من دونهما من أهل الإنكار فأكثرهم يعتمدون على التسامع الذي لا أصل له كما سبق وأكيسهم الذي يعتمد في إنكاره على قوله كنا نعرف سيدي فلانا، ولم يكن هكذا يعني أن الرجل المنكر عليه لم يكن كسيدي فلان، ولم يدر أن الزهر ألوان والنخل:

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقد دخلت مع الشيخ رضي الله عنه إلى بستان في فصل الربيع فنظر إلى اختلاف أزهاره وأنواره ساعة، ثم رفع رأسه إليّ وقال: من أراد أن يعرف اختلاف الأولياء وتباينهم في المقامات والأحوال مع كونهم على هدى وصواب وحلاوتهم في قلوب الناس فلينظر إلى اختلاف هذه الأنوار والأزهار مع حلاوتها في القلوب، فإن كان قوله إن سيدي فلاناً الذي عرفناه لم يكن هكذا حصر الرحمة الله في الولي الذي عرفه فقد حجر واسعاً، ولما قال الأعرابي الذي بال في المسجد اللهم ارحمنا وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً قال له النبي ﷺ:

«لَقَدْ حَجَّرْت وَاسِعاً».

وإن كان قوله ذلك ظناً منه أن كل مرحوم لا يكون إلا مثل الولي الذي عرفه فقد سبق أنهم رضي الله عنهم على أصناف شتى، وأيضاً فهو مشترك الإلزام، فإن هذا الاعتراض لازم في الولي الذي عرفه فإنه لم يكن مثل الولي الذي كان قبله، فإن اعترض على الثالث بأنه ليس مثل الثاني اعترض على الثاني بأنه ليس مثل الأول الذي كان قبله.

وإنما أطلت الكلام في هذا الباب وذكرت هذه المناظرات التي وقعت لنا مع الفقهاء رضي الله عنهم، حرصاً على وصول الخير إلى طائفة الفقهاء وطلبة العلم ومحبة فيهم ونصيحة لهم، فإنهم ابتلوا بالإنكار على السادات الأبرار الأخيار الأطهار في سائر القرون والأعصار، وفي جميع البوادي والقرى والأمصار وإنكارهم لا يخرج عن هذا الذي ذكرناه في هذا الباب، فمن كان منهم منصفاً وتأمل ما سطرناه فيه رجع وظهر له الحق ولاح له وجه الصواب، وكثيراً ما كنت أتعرض لمناظرة الفقهاء في هذا الباب ظناً مني أنهم يعتمدون في إنكارهم على أمور صحيحة، فلما اختبرتهم وجدت الأمر على ما وصفت لك، والله الهادي إلى الصواب لا رب غيره ولا خير إلا خيره:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لا ينبغي أن ينظر إلى ظاهر الولي ويوزن عليه فيخسر الوازن دنيا وأخرى، فإن في باطن الولي العجائب والغرائب، وما مثاله إلا كخيسة صوف في وسطها خيسة حرير لا تظهر إلا في الآخرة، وغير الولي بالعكس خنشة حرير في وسطها خنشة صوف والعياذ بالله، ولنثبت أسباباً كثيرة في ظهور المخالفات على ظاهر الولي سمعناها من الشيخ رضي الله عنه مفرقة فنجمعها هنا فنقول:

سمعته رضي الله عنه يقول: كان لبعض الأولياء الصديقين مريد صادق، فكان يحبه كثيراً، وأطلعه الله على أسرار ولايته حتى أفرط في محبته وكاد يتجاوز بشيخه إلى مقام النبوة، فأظهر الله على الشيخ صورة معصية الزنا رحمة بالمريد المذكور، فلما رآه رجع عن ذلك الإفراط في الاعتقاد، ونزل شيخه منزلته ففتح الله حينئذ على المريد.

قال رضي الله عنه: ولو دام على اعتقاده الأول لكان من جملة الكافرين المارقين، نسأل الله السلامة.

قال رضي الله عنه: وهذا أحد الأسرار في الأمور التي كانت تظهر على النبي ﷺ من نحو قوله في قضية تأبير النخل:

«**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَتْ**».

ثم تركوا التأبير فجاءت الثمر شيصاً: أي غير صالحة، ومن نحو قوله ﷺ:

«**رَأَيْتَ فِي مَنَامِي أَنَّا نَدْخُلُ المَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ**».

ثم خرج عليه الصلاة والسلام مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم، فصدهم المشركون ولم يدخلوا إلا في عام آخر ونحو ذلك، ففعل الله سبحانه وتعالى هذه الأمور مع نبيه الكريم لئلا يعتقد الصحابة فيه الألوهية، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

ونحو ذلك، فإن المقصود من ذلك كله هو الجمع على الله سبحانه، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الولي الكامل يتلوّن على قلوب القاصدين ونياتهم فمن صفت نيته رآه في عين الكمال وظهر له منه الخوارق وما يسره، ومن خبثت نيته كان على الضد من ذلك، وفي الحقيقة ما ظهر لكل واحد إلا ما في باطنه من حسن وقبح، والولي بمنزلة المرآة التي تنجلي فيها الصور الحسنة والصور القبيحة، فمن ظهر له من ولي كمال ودلالة على الله فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن ظهر له غير ذلك فليرجع على نفسه.

قال رضي الله عنه: وإذا أراد الله شقاوة قوم وعدم انتفاعهم بالولي، سخرهم الحق فيما هم فيه من قبح ومخالفة، فيظنون أنه على شاكلتهم، وليس كذلك حتى أنه يتصور في طور الولاية أن يقعد الولي مع قوم يشربون الخمر وهو يشرب معهم، فيظنون أنه شارب الخمر، وإنما تصورت روحه في صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت وفي الحقيقة لا شيء وإنما هو ظل ذاته تحرك فيما تحركوا فيه مثل الصورة التي تظهر في المرآة، فإنك إذا أخذت في الكلام تكلمت وإذا أخذت في الأكل أكلت، وإذا أخذت في الشرب شربت، وإذا أخذت في الضحك ضحكت، وإذا أخذت في الحركة تحركت وتحاكيك في كل ما يصدر منك، وفي الحقيقة لم يصدر منها أكل ولا غيره لأنها ظل ذاتك وليست الحقيقة فإذا أراد الله شقاوة قوم ظهر الولي معهم بظل ذاته وجعل يرتكب ما يرتكبون والله الموفق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الولي إنما يعتبر من القاصدين إليه باطنهم، وأما ظاهرهم فلا عبرة به عنده. والقاصدون على أربعة أقسام: قسم يستوي ظاهره وباطنه في الاعتقاد وهذا أسعدهم. وقسم يستوي ظاهره وباطنه في الانتقاد وهذا أبعدهم. وقسم ظاهره معتقد وباطنه منتقد وهذا أضر الأقسام على الولي كالمنافق بالنسبة إلى النبي ﷺ؛ لأنه إذا نظر إلى ظاهره ويريد نفعه منعه الباطن، وإذا أراد البعد منه حيث ينظر إلى باطنه أطمعه ظاهره.

قال رضي الله عنه: والولي يسمع كلام الباطن كما يسمع كلام الظاهر، فيكون هذا القسم عنده بمثابة من جلس إليه رجلان أحدهما في جوف الآخر، فيقول الرجل الظاهر أنت سيدي وأنا عند أمرك ونهيك وعلى طاعتك وتسييرك، ويقول الذي في الجوف أنت لست بولي والناس أخطأوا فيما يظنون فيك، وأنا على شك في أمرك وفيما يقول الناس فيك ونحو هذا، فالجاهل الذي لا يعرف الباطن يستوي في نظره هذا القسم والقسم الأول، فإذا رأى القسم الأول ربح وحصل له الخير الكثير من الولي، قال في نفسه ولم لم يربح القسم الثالث؟ مع أنه يتأدب ويخدم بنفسه ويقف عند الأمر والنهي كالأول فيقول في نفسه لعل الخلل والنقصان من الولي فيكون هذا باباً واسعاً للكلام في الأشياخ ودخول الوسوسة فيهم. وأما القسم الرابع وهو ما يكون باطنه معتقداً وظاهره منتقداً، فلا يتصور إلا مع الحسد، نسأل الله السلامة والعافية بمنه وكرمه آمين.

وسألته رضي الله عنه يوماً فقلت له: هذه العلوم التي تبرز منكم وتتكلمون بها هل تحتاجون فيها إلى قصد واستعمال أم لا؟

فقال رضي الله عنه: إن الولي الكامل غائب في مشاهدة الحق سبحانه وتعالى لا يحجب عنه طرفة عين، وظاهره مع الخلق فيستعمل الحق سبحانه ظاهره مع القاصدين بحسب ما سبق لهم في القسمة، فمن قسم له منه رحمة أطلق عليه ذلك الظاهر وأنطقه بالعلوم وأظهر له ما لا يكيف من الخيرات، ومن أراد به سوءاً ولم يقسم له على يده شيئاً أمسكه عنه وحجبه عن النطق بالمعارف.

قال رضي الله عنه: وما مثلت الولي مع القاصدين إلا كحجر بني إسرائيل، فإذا كان بين يدي أولياء الله تعالى انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وإذا كان بين أعدائه تعالى لا تخرج منه ولا قطرة واحدة.

قلت: وقد شاهدت هذا المعنى في الشيخ رضي الله عنه مراراً، فإذا حضر بين يديه بعض من لا يعتقده لا تخرج منه ولا فائدة واحدة ولا يقدر على التكلم بشيء من العلوم اللدنية والمعارف الربانية حتى يقوم ذلك الشخص ويوصينا ويقول: إذا حضر مثل هذا الرجل فلا تسألوني عن شيء حتى يقوم، وكنا قبل الوصية جاهلين بهذا الأمر، فنسأل الشيخ ونريد أن نستخرج منه النفائس والأسرار الربانية كي يسمعها الرجل الحاضر فيتوب، فإذا سألناه رضي الله عنه حينئذ وجدناه كأنه رجل آخر لا نعرفه ولا يعرفنا، وكأن العلوم التي تبدو منه لم تكن له على بال أبداً حتى ذكر لنا السبب ففهمنا السر، والحمد لله رب العالمين.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الولي الكبير فيما يظهر للناس يعصي وهو ليس بعاص، وإنما روحه حجبت ذاته فظهرت في صورتها، فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية لأنها إذا أكلت حراماً مثلاً فإنها بمجرد جعلها في فيها فإنها ترميه إلى حيث شاءت وسبب هذه المعصية الظاهرية شقاوة الحاضرين والعياذ بالله تعالى، فإذا رأيت الولي الكبير ظهرت عليه كرامة فاشهد للحاضرين بأن الله تعالى أراد بهم الخير أو معصية فاشهد بشقاوتهم، وكما أن أرواحهم هي التي تتولى كراماتهم كذلك هي التي تتولى معاصيهم الظاهرة، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الولي قد يغلب عليه الشهود فيخاف على ذاته الترابية من التلاشي فيستعمل أموراً ترده إلى حسه، وإن كان فيها ما يعاب عليه من باب: إذا التقى ضرران ارتكب أخفهما، فإذا رآه شخص ارتكب ذلك الأمر ولا يعلم الوجه الذي ارتكبه لأجله، ربما بادر إلى الإنكار عليه فيحرم بركته، وقد تقرر في الشرع أي في الشريعة المطهرة أن العضو إذا أصابته الأكلة وخيف على الذات منها فإنه يباح قطعه لتسلم الذات مع أن العضو معصوم ولكنه من باب إذا التقى ضرران ارتكب أخفهما، وكذلك الشخص إذا خاف على نفسه الهلاك من شدة الجوع فإنه يباح له أكل الميتة حتى يشبع ويتزود منها وغير ذلك من الفروع الداخلة تحت هذه القاعدة، وهذه الأمور التي ترد ذات الولي إلى حسها هي المعتادة لها قبل الفتح وكل ذات وما اعتادت فافهم بالإشارة ففي التفصيل والتصريح وحشة، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن غير الولي إذا انكشفت عورته نفرت منه الملائكة الكلام، لأن الحياء يغلب عليهم، والمراد بالعورة العورة الحسية وهي ظاهرة، والعورة المعنوية التي تكون بذكر المجون وألفاظ السفه.

وأما الولي فإنها لا تنفر منه إذا وقع له ذلك، لأنه إنما يفعله لغرض صحيح فيترك ستر عورته لما هو أولى منه، لأن أقوى المصلحتين يجب ارتكابه ويؤجر على ستر عورته وإن لم يفعله لأنه ما منعه من فعله إلا ما هو أقوى منه، ولولا ذلك الأقوى لفعله فكأنه فعلهما جميعاً فيؤجر عليهما معاً.

فقلت: وما هذا الأقوى الذي ترك لأجله ستر عورته أو تكلم لأجله بشيء من ألفاظ المجون.

فقال رضي الله عنه: كل ما يردّ الذات إلى عالمها الحسي ويرد عليها عقلها، فإذا كان كشف العورة يوجب ذلك لشخص ارتكبه، وإذا كان التكلم بالمجون وألفاظ السفه يوجب ذلك لشخص آخر ارتكبه أيضاً، وإذا كان غيره من الأمور الفانية يوجبه لشخص ثالث ارتكبه وهلم جرا.

فقلت: ولم تحتاج الذات إلى ما يردها إلى عالمها الحسي وهل تغيب عنه.

فقال رضي الله عنه: نعم تغيب عنه ثم ضرب مثلاً لتحقيق الغيبة فقال: كرجل له ستمائة قنطار وقد كبر وعمي وانقطع منه التدبير بالكلية ومع ذلك فله أولاد لا يحصون وكلهم صغار لا يقدرون على شيء، ثم أرسلها بقصد التجر مع أناس ركبوا البحر في زمن هوله وكثرة عطبه وقلة السلامة منه، ولم يترك لنفسه ولا لأولاده فلساً واحداً فلا تسأل عن عقل هذا الرجل كيف يكون؟ فإنه يذهب مع أهل السفينة وينقطع عن الذات بالكلية، وحينئذ فتحصل له آفتان: الأولى منهما انسداد أفواه العروق التي يكون غذاء الجسم منها بسبب احتراقها بالحرارة التي هاجت حين اشتغال الفكر بأمر السفينة.

قلت: وقد شاهدت رجلاً من حملة القرآن العزيز ومن أهل العلم دوخل في عقله، نسأل الله السلامة من طلب التدبير والكيمياء والكنوز وسكن ذلك في عقله واشتغل به فكره اليوم على اليوم، فجعل لونه يصفر وقل جلوسه مع الناس وصار لا يأكل من الطعام إلا ما قل، ثم لم يزل أمره في زيادة إلى أن مات سريعاً، نسأل الله السلامة.

وسر ذلك ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه من انسداد أفواه عروق غذاء الجسم فيتضرر الجسم بذلك وتزول نضارته ونعومته ويحصل فيه اصفرار وذبول إلى أن يتلاشى ويهلك. والآفة الثانية أن العقل إذا ذهب مع أهل السفينة وانقطع عن الذات وطالت غيبته عنها فإن الروح تخرج منها ولا ترجع إليها، لأنها إنما دخلت في أول الأمر عند النفخ كرهاً لا طوعاً، فمتى وجدت سبيلاً إلى الخروج وخرجت فإنها لا ترجع إليها أبداً، فإن وعد الله تلك الذات بانصرام أجلها كان ذلك ابتداء مرضها وظهور عللها حتى يأتي أمر الله، وإن وعدها سبحانه بالبقاء مدة كانت الروح خارجة عنها بالعقل الذي هو سرها وتقوم بتدبيرها مع انفصالها وانقطاعها عنها، وكان ذلك سبب ابتداء الحمق، ولو وجد هذا الرجل سبباً

يرده إلى أمره الأول وإخراج أهل السفينة من عقله لبقي سالماً من هاتين الآفتين، قال: فكذلك أولياء الله تعالى يحصل لهم الغيبات، فإذا رأيتهم يستعملون شيئاً من المجون والضحك ونحوهما مما يرد عليهم عقولهم ويحفظ عليهم بقاء ذواتهم فلا تبادر بالإنكار عليهم، فإنهم لا يستعملونه إلا لهذا الغرض الصحيح فينتفع الخلق بهم مدة بقاء ذواتهم.

قلت: وكم مرة ونحن مع الشيخ رضي الله عنه يقول: اهدروا علينا فإنه يطلع لكم بذلك خير كثير، حتى قال لي مرة: ما مثلت صاحب المشاهدة إلا بنسر طائر في الهواء وعلا في طيرانه، والفرض أن الجو مملوء بالرياح وفي يد رجل خيط رقيق موصول بذات النسر ومربوط فيها، فإذا رآه علا في الطيران وأرادت الرياح أن تجلبه بحيث لا يرجع أبداً جعل الرجل يقبض الخيط شيئاً فشيئاً وهو يخاف أن ينقطع والنسر ينزل شيئاً فشيئاً إلى أن يرجع إلى يد صاحبه، فكذلك هذه الأمور الفانية التي تعتادها الذات الترابية هي التي تردها إلى عالمها الحسي.

قلت: ولو أردنا أن نذكر شيئاً من تلك الأمور الواقعة للعارفين رضي الله عنهم لخرجنا عن المقام، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الغرض من الولي هو الدلالة على الله تعالى والجمع عليه والتزهيد فيما سواه، فإذا جعل القاصد إليه يطلب منه هذا الأمر فإنه يربح معه، وإذا جعل يطلب منه قضاء الحوائج والأوطار ولا يسأله عن ربه، ولا كيف يعرفه مقته الولي وأبغضه، وهو السالم إن نجا من مصيبة تنزل به وذلك لأمور: منها أن محبته للولي ليست لوجه الله تعالى، وإنما هي على حرف، والمحبة على حرف خسران مبين لا ينزل عليها نور الحق أبداً، ومنها أن الولي يراه في تعلقه بغير الله تعالى في عين القطيعة وهو يريد أن ينقذه منها والعبد يريد منه أن يزيده منها، فإن الولي يراه ترك التمرة وأخذ الجمرة، فالتمرة معرفة الله تعالى والعكوف بين يديه، والجمرة هي القطيعة عنه والقبض في غيره والميل إلى الدنيا والركون إلى زخارفها. ومنها أن الولي إذا ساعده في قضاء بعض الأوطار وقابله ببعض الكشوفات ربما يظن العبد أن هذا هو الذي ينبغي أن تقع المعرفة عليه وفيه يرغب الناس وليس وراءه مطلب وكل ذلك ضلال وموجب لمقت الولي له.

قلت: ومن مقته له ومكره به أن يظهر على ذاته بعض المخالفات أو يخبره بشيء لا يكون أنه يكون ليطرده بذلك عنه، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن سماع أهل العرفان ينبني على مشاهدتهم الحق سبحانه وتكون الأمور التي يسمعونها بمثابة السفينة التي يخرقون بها بحار المشاهدة، فيعتمدون على تلك الأمور ويتوصلون بها إلى ما لا يكيف من المشاهدة، وذلك أن المشاهد سبحانه حي قديم لا مثل له ولا نظير، فليس لهذه الذات ما تعتمد عليه إلا ما

يمكن في العبارة الحادثة مما اعتادته الذات ونشأت عليه، قال: وإذا اتسعت مشاهدتهم وصاروا من الكبار قرب عشقهم من عشق أهل الهزل فيما يظهر للناس وذلك للسرور والفرح والطرب الحاصل لهم عند مشاهدتهم فعل الحق سبحانه وتعالى في مخلوقاته، فإذا شاهدوا ذلك حصل للروح ما لا يكيف من السرور حتى لقد حصل لبعضهم رضي الله عنه، أنه رأى قطاً يحك حنكه بيده، فجعل الولي يبكي ودموعه تسيل وهو يسجد بين يدي القط حتى اخضلت دموعه ما بين يديه، فقلت له ما سره؟ فقال رضي الله عنه: إن الروح شاهدت الحق سبحانه وتعالى يفعل تلك الحركة، فجعلت تسجد له وتتواضع وتبكي بين يديه سبحانه وتعالى، والذات تساعفها فجعلت الذات تفعل مثل ما تفعله الروح وتحاكيها في ذلك، فالناس يظهر لهم أن سجوده للقط، والولي في وقت بكائه وسجوده لم يشاهد إلا الحق سبحانه فهو له يبكي وله يتضرع ويخضع.

قال رضي الله عنه: وهذا يحصل لهم دائماً إلا أن الذات إذا غابت عن عقلها ساعفت الروح، وإذا لم تغب عن عقلها منعها العقل من ذلك حفظاً للظاهر، فترى الولي إذا رأى الغصن في الأشجار يتمايل يحصل له ما سبق ولذا يقولون: إن ضربني سيدي بالأحجار فهي عندي أعز من الأثمار، لما يحصل له من النعيم والسرور عند مشاهدة الفعل منه عز وجل، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الله تعالى إذا فتح على عبد وكان على حالة أي حالة كانت بقي عليها ولو كانت الحالة مذمومة طبعاً كجرارة وغيرها من الحرف المذمومة فيبقي على حالته ولاينتقل عنها، لأنه يرى الانتقال عنه تصنعاً للناس والتصنع للناس أعظم عند المفتوح عليه من شراب الخمر ونحوه من المعاصي.

قال رضي الله عنه: وأعرف رجلاً بالرملة من أرض الشام فتح الله عليه وهو بحالة يتضاحك الناس عليه فيها كحالة الرجل المشهورة بمدينة فاس بمعيزو فبقي على حالته بعد الفتح ولم ينتقل عنها.

قلت: وكانت حالة معيزو المتقدم أن الصبيان وغيرهم من ضعفة العقول يتبعونه طول نهاره يضحكون عليه.

قال رضي الله عنه: أعرف رجلاً آخر فتح الله عليه وكان قبل ذلك طبالاً فبقي على حالته بعد الفتح ولم ينتقل عنها.

قلت: وقد سمعت منه رضي الله عنه في هذا الباب أسراراً كثيرة عظيمة لا ينبغي إيداعها في الكتب، والله أعلم.

الباب السادس
في ذكرشيخ التربية

وما يتبع ذلك من الإشارة إلى الشيوخ الذين ورثهم الشيخ رضي الله عنه. وفائدة تلقين الذكر وبعض ما قيل في الأسماء الحسنى والحضرة وما يتصل بذلك.

فنقول: قد تكلم صاحب الرائية على شيخ التربية وشرح الشيخ رضي الله عنه شيئاً من كلامه فأحببت أن أثبت ذلك هنا لأن الكتاب موضوع لجمع كلام الشيخ رضي الله عنه قال صاحب الرائية:

وَلِلشَّيْخِ آيَاتٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... فَمَا هُوَ إِلاّ فِي لَيَالِي الْهَوَى يَسْرِي

قال الشيخ رضي الله عنه: ولشيخ التربية علامات ظاهرة، وهي أن يكون سالم الصدر على الناس، ليس له في هذه الأمة عدو، وأن يكون كريماً إذا طلبته أعطاك، وأن يحب من أساء إليه، وأن يغفل عن خطايا المريدين، ومن لم تكن له هذه العلامات فليس بشيخ ثم قال صاحب الرائية:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ ... ولا باطن فاضرب به لُجَجَ البحر

قال الشيخ رضي الله عنه: مراده بعلم الظاهر علم الفقه والتوحيد أي القدر الواجب منهما على المكلف، ومراده بعلم الباطن معرفة الله تعالى ثم قال:

وَإِنْ كَانَ إِلاّ أَنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ ... لِوَصْفَيْهِمَا جَمْعاً عَلَى أَكْمَلِ الأَمْرِ
فَأَقْرَبُ أَحْوَالِ الْعَلِيلِ إِلَى الرَّدَى ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ الطَّبِيبُ عَلَى خُبْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: أي وإن وجد الشيخ إلا أنه وجد غيرجامع لوصف العلم الظاهر والباطن جمعاً كاملاً، فأقرب أحوال المريد معه إلى الهلاك، وقوله إذا لم يكن منه الطبيب على خبر، يريد أن هذا الشيخ الذي ليس بجامع لقصور علمه لا يعلم ما يضر المريد، فأقرب أحوال المريد معه إلى الهلاك. قال سيدي منصور: إذا كانت صحبتك مع شيخ كامل فاحرص أن تفني عن مرادك في مراده واطلب أن لا تعيش بعده، فسلامتك مع غيره غريبة ووصلك أغرب وأعجب من كل شيء ثم قال:

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاّ الْوُجُودُ أَقَامَهُ ... وَأَظْهَرَهُ مَنْشُورُ أَلْوِيَةِ النَّصْرِ
فَأَقْبَلَ أَرْبَابُ الإِرَادَةِ نَحْوَهُ ... بِصِدْقٍ يَحُلُّ الْعُسْرَ فِي جَلْمَدِ الصَّخْرِ
وَآيَتُهُ أَنْ لاَ يَمِيلَ إِلَى هَوًى ... فَدُنْيَاهُ فِي طَيٍّ وَأُخْرَاهُ فِي نَشْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: ومن لم يكن من الشيوخ أثبته شيخه من المشيخة بالإذن له فيها لكونه مات عنه قبل أن يكمله ولكن أثبته فيها الناس وأظهروه فيها منشورة أعلام النصر بحيث نصر الله به أعلام المريدين على نفوسهم وهواهم وشياطينهم، فأقل بسبب ذلك النصر أرباب الإرادة وأهل الهمة الذين يرغبون في القرب إلى الله عز وجل بصدق يخرق الصخور فهذا شيخ مقبول أيضاً، يريد لأنه يحتمل أن يكون تكمل على يد رجال الغيب، أو أنه يأخذ على يد سيدي أحمد الخضر، وقوله وآيته أي علامته الظاهرة الدالة على استحقاقه رتبة المشيخة أن لا يميل إلى هوى في تربيته بما يبدو من مشاهد حاله وتكون دنياه عنده في استتار وآخرته في انتشار؛ فقوله فدنياه في طي كناية عن الزهد فيها والإعراض عنها، كما أن قوله وأخراه في نشر، كناية عن الرغبة فيها والإقبال عليها ثم قال:

وَإِنْ كَـانَ ذَا جَـمْـعٍ لِأَكْـلِ طَـعَـامِـهِ ... مُرِيدٌ فَلاَ تَصْحَبْهُ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: معنى كلامه إن كان شيخ التربية يجمع الناس لأكل طعامه فلا تتبعه ولا تصحبه يا مريد أبداً. يريد والله أعلم إذا كان يجمع الناس لأكل طعامه ولا أثر له فيهم بفتح فإن هذا يصير الاجتماع عليه لأجل طعامه، لا لأجل الله عز وجل، أما إذا كان يجمع الناس عليه ليجمعهم على الله وله مع ذلك طعام فلا بأس بصحبة هذا واتباعه ثم قال:

وَلاَتَسْأَلَنْ عَنْهُ سِوَى ذِي بَصِيرَةٍ ... خَلِيٍّ مِنَ الْأَهْوَاءِ لَيْسَ بِمُغْتَرٍّ

قال الشيخ رضي الله عنه: المعنى لا تسأل عن شيخ التربية إلا من جمع ثلاثة شروط: أن يكون ذا بصيرة، وأن يكون خالياً من الأهواء، وأن لا يكون مضطراً؛ فكونه ذا بصيرة احترازاً من السالك المحض الذي ليست له معاملة القلوب، فإنه إذا سئل عن شيخ التربية يحيل على سالك آخر هو أكثر منه اجتهاداً وأدوم على الأوراد وأحفظ للوظائف لأنه يرى أن هذا المقام هو غاية الطريق، وأن التفاوت بين أهله إنما هو بالقوة والضعف والسالك المحض ليس أهلاً للمشيخة ولا يبلغها، وكونه خالياً من الأهواء احترازاً من صاحب التعصب، ولو كان ذا بصيرة فإن المتعصب للشخص إذا سئل عن شيخ التربية ربما حال عليه لأجل التعصب وكونه مغتراً احترازاً ممن لا يعرف اصطلاح القوم في وصف شيخ التربية، فإذا سئل عن الشيخ المربي ربما يحيل على المجذوب المحض لما يرى معه من قوة المعرفة والاستهلاك في الحقيقة والمجذوب المحض ليس أهلاً للمشيخة ولا يبلغها، ثم قال:

فَمَنْ صَدِئَتْ مَرْآةُ نَاظِرِ فَهْمِهِ ... أَرَتْهُ بِوَجْهِ الشَّمْسِ مَنْ كَلَفِ الْبَدْرِ
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِ الْعَرُوضَ فَرُبَّمَا ... يَرَى الْقَبْضَ فِي التَّطْوِيلِ مِنْ أَقْبَحِ الكَسْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: المعنى فمن صدئت عينه يرى السواد الذي في وسط القمر على وجه الشمس التي لا سواد فيها أصلاً لانعكاس الحقائق في حقه، ومراده أن من لم

يكن ذا بصيرة فإنه يرى العيب في الشيخ الكامل فينفر عنه ويرى الكمال في السائل فيدل عليه وقوله ومن لم يكن يدري العروض أي ومن لم يكن يعرف ميزان الشعر، ربما يعتقد أن سقوط الخامس من عروض بحر الطويل هو من أقبح العيوب فيه، كذلك من لم يكن يعرف اصطلاح الصوفية في أوصاف الشيخ المربي ربما رأى الكامل فظنه مبتدئاً فنفر عنه؛ ما دل على المجذوب وهو لا يستحق.

قلت: حاصل ما ذكره صاحب الرائية في هذه الأبيات أن الشيخ إذا كان خالياً من علم الظاهر والباطن أو كان متصفاً بهما لا على الكمال فإنه لا خير في صحبته، وأن من كان متصفاً بهما على الكمال وكانت فيه الآيات السابقة فإنه يشيخ، وهذا إذا أقامه شيخه في التربية وأذن له فيها حال حياته، وأما إن مات قبل ذلك ولم يكمل في زمان شيخه فهذا إن ظهرت عليه أمارات الفتح وعلامات الخير وأعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ووقع للمريدين الفتح على يديه فهذا أيضاً يشيخ، وأما إن لم يكن فيه إلا مجرد جمع الناس على طعامه فهذا لا خير في معرفته وأنه لا ينبغي للشخص أن يسأل عن شيخ التربية، إلا إذا جمع الأوصاف الثلاثة السابقة فإن غيره ربما عكس الصواب.

ثم أشار صاحب الرائية إلى الآداب التي تجب على المريد في صحبة شيخ التربية فقال:

وَلاَ تَـقْـدُمَـنْ قَـبْـلَ اعْـتِـقَـادِكَ أَنَّـهُ مُرَبٌّ وَلاَ أَوْلَى بِهَا مِنْهُ فِي الْعَصْرِ
فَـإِنَّ رَقِـيـبَ الْإِلْـتِـفَـاتِ لِـغَـيْـرِهِ يَقُولُ لِمَخْبُوبِ السِّرَايَةِ لاَ تَسْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: أي ولا تقدمن على شيخ بقصد الدخول في صحبته حتى تعتقد أنه من أهل التربية، وأنه لا أحق منه بها في زمنه؛ وإنما وجب عليه ذلك لأن الشيخ الذي يرى من مريده الالتفات إلى شيخ غيره يقطع عنه المادة، المريد الذي يدخل في صحبة شيخ وهو يرى أن في الوجود شيخاً منه شيخه أو أكمل منه يبقى متشوفاً إلى ذلك أكمل في اعتقاده، فيراه شيخه متشوفاً إليه فيقطع عنه المادة فلا يكون منتفعاً بالأول ولا بالثاني. قال الشيخ رضي الله عنه: وقد رأينا مثل هذا في زماننا كثيراً، والله يكون لنا ولياً ونصيراً وقال صاحب الرائية قبل هذا:

وَمِنْ بَعْدِهِ الشَّيْخُ الَّذِي هُوَ قُدْوَةٌ يُلَقَّى مُرَادَ الْحَقِّ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: ومن بعد مقام التربية أي من بعد تحصيله طلب الشيخ الذي هو مربّ فإنه مقدم على النفس في طريق الأحوال وفائدته أنه يرى العبد مطلب الحق منه في ظاهره وفي باطنه.

قال الشيخ رضي الله عنه: ولا بد من شيخ يعرفك ويدلك على معرفة الشيخ، وكيف تلقاه وتجلس معه، وإن لم يكن هذا فاعلم أنك مكسور لا طبيب لك، ولو فعلت ما فعلت والسلام، ثم قال:

فَقُمْ وَاجْتَنِبْ مَا ذَمَّهُ الْعِلْمُ وَاجْتَلِبْ   لِمَا خَصَّهُ بِالْمَدْحِ فَهُوَ جَنَى الدُّرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: أي إذا وجدت وأعطاك المولى الشيخ الذي يربيك فقم على خدمته واعرف حق صحبته واتخذه وسيلة إلى الله عسى أن تدرك معرفة الله عز وجل، لكن يجب عليك مع ذلك أن تترك ما عابه الشرع من الأفعال الذميمة، وأن تكسب ما مدحه منها فذلك هو جني الدر، والدر في الأصل اللؤلؤ العظيم، وهو كناية عن التقوى والجني القطع هذا أصله والمراد هنا الأخذ فكأنه قال إن اجتنبت المذموم شرعاً واجتلبت الممدوح شرعاً، فقد أخذت التقوى ووصلت إليه، نسأل الله أن يمن علينا بها فإنه التي تنبني عليها أحوالك ومقاماتها ثم قال:

وَإِنْ تَسْمُ نَحْوَ الْفَقْرِ نَفْسُكَ فَاطَّرِحْ   هَـوَاهَـا وَجَـانِبْـهُ مُـجَـانَـبَـةَ الـشَّـرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: وإن ترفع همتك إلى طريق الفقر وهي طريق التصوف، فاطرح هوى نفسك فيما تختاره لنفسها من وجوه التعبدات وأنواع القربات دون أن يأمرها به الشيخ وباعد هواها في ذلك مباعدتك للشر. يريد أن فلاح المريد فيما يختاره له الشيخ لا فيما يختاره هو لنفسه، وإن كان يختار هو لنفسه هلك.

قلت: وكم مريد سقط من هذا الباب لأن المريد قبل الفتح عليه إذا اختارت له نفسه الإكثار من النوافل والصيام والقيام فربما كان ذلك لشهوة السمعة والرياء فيصير عمله لغير الله عز وجل، فإذا رحمه الله بالشيخ المربي وجمعه به فإنه يرى ذلك علة فيه فيريد نقله عنها، فإن ساعفه المريد وسبقت له العناية من الله تعالى دله على ما يليق به وانتقل به إلى حالة مرضية عند الله تعالى، وإن لم يساعفه المريد وقال جئناه ليزيدنا وجعل ينقصنا وخسرت نيته في شيخه المربي، فهذا قد استحوذ عليه الشيطان واستحكمت فيه علة الرياء والخسران نسأل الله السلامة والعافية بمنه وكرمه أجمعين.

ونذكر هٰهنا قصة النفر من الصحابة رضوان الله عليهم الذين جاءوا إلى دار النبي ﷺ، فسألوا أزواجه عن عبادته ﷺ وقيامه وصيامه، فذكرن لهم عبادته ﷺ، فاستقلوها ثم قالوا: لسنا كالنبي ﷺ، فإنه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الآخر. أما أنا فأقوم الليل كله ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا أقارب النساء ثم ذهبوا وجاء النبي ﷺ على أثرهم فأخبرته عائشة رضي الله عنها بما رأت منهم، وبما قالوا، فدعاهم النبي ﷺ وقال لهم:

«أَمَا أَنَا فَأَخشاكُمْ لله وأَتقَاكُمْ لَهُ وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ، وَإِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَقُومُ وَأَنَامُ وَأُقَارِبُ النِّسَاءَ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي» وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الآية.

واختلفت الرواة في تعيين أولئك النفر، فمنهم من عد فيهم عثمان بن مظعون

وعبد الله بن مسعود وأبا هريرة، ومنهم من عد فيهم سعد بن أبي وقاص، ومنهم من عد فيهم علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومنهم من عد فيهم أبا بكر الصديق رضي الله عنهم.

فانظر وفقك الله كيف ردهم عليه الصلاة والسلام عن هوى نفوسهم في الإكثار من النوافل، إلى ما أحبه لهم وأختاره من التوسط في الأمور، وذلك أعظم شاهد لما يفعله الشيوخ مع المريدين الموفقين وأما غيرهم فلا كلام عليه.

وقد رأيت بعضهم جاء إلى شيخ رضي الله عنه وأراد أن يتخذه وسيلة وكان على غاية الإكثار من العبادة، حتى أنه يقرأ في كل ليلة ختمة من القرآن ويقرأ دلائل الخيرات في النهار عدة مرات، ويصوم الدهر ولا تلقاه إلا أصفر اللون، كأنه من أهل القبور، فلم يزل الشيخ رضي الله عنه ينقله من درجة إلى درجة، ومن حالة إلى حالة، حتى رده إلى مقام التوسط، ثم قال له الشيخ رضي الله عنه ذات يوم: كم من تعب أراحك الله منه يا فلان؟ فقال: جزاك الله عنا خيراً يا سيدي، فإنما كانت أعمالنا رياء فلغير الله كنا نعبد وأراحنا الله من ذلك ببركتك.

وقال لي الشيخ رضي الله عنه يوماً: إن هذه النوافل إذا لم يفعلها الشخص فإنه لا يحاسب عليها في الآخرة وإن فعلها بنية أن يراه الناس ويمدحوه عليها فإنه يعاتب عليها في الآخرة وتخلى دار أبيه عليها قلت لأن الرياء معصية.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن المحبوب لا يخلو من الرياء والسمعة إلا إذا كان يرى في كل لحظة أن أفعاله مخلوقة له تعالى لا يغيب عنه ذلك في حالة الفعل ومهما غاب عنه ولو طرفة عين وقع في الرياء والسمعة والعجب ثم قال صاحب الرائية:

وَضَعْهَا بِحِجْرِ الشَّيْخِ طِفْلاً فَمَا لَهَا ... خُرُوجٌ بَلاَ فَطْم عَن الْحِجْرِ وَالحَجْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: أي ضع نفسك في حجر شيخك بربك تربية الطفل في حجر أمه، فليس لنفسك قبل فطام التربية خروج عن حجر الشيخ، وتحجيره، فالحجر الأول هو الحجر المعروف، والذي هو مقدم القميص، والحجر الثاني معناه المنع أي منع الشيخ للمريد عما يريده، ومن هذا الثاني الحجر عند الفقهاء الذي هو بمعنى التحجير فالحجر الأول كناية عن نظر الشيخ وتصرفه، والثاني كناية عن منعه للمريد ما لا يليق به والله تعالى أعلم، ثم قال:

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سَلْبَ الإِرَادَةِ وَصْفُهُ ... فَلاَ يَطْمَعَنْ فِي شَمِّ رَائِحَةِ الْفَقْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: ومن لم يكن من المريدين وصفه مع شيخه المربي له سلب الإرادة، فلا يطمعن أن يشم رائحة الفقر، نسأل الله الحفظ ثم قال:

وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ الْعَزِيزُ وُجُودَهُ ... وَلٰكِنَّهُ فِي الْعَزْمِ خَالٍ مِنَ الْعُسْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: وهذا أي كون شم رائحة الفقر مرتبطاً بسلب الإرادة، وإن كان قليلاً لا يكاد يوجد، ولكنه من حيث العزم عليه خال من التعذر والامتناع، يريد بل هو من حيث العزم عليه ممكن والعزم هو التصميم على الفعل من غير احتمال.

ثم ذكر صاحب الرائية ما سبق من قوله وللشيخ آيات الأبيات السابقة إلى قوله:

فَـإِنَّ رَقِيـبَ الإلْـتِـفَـاتِ لِـغَـيْـرِهِ يَقُولُ لِمَحْبُوبِ السِّرَايَةِ لاتَسْرِي

ثم ذكر بعده قوله:

وَلاَ تَـعْـتَـرِضْ يَـوْمـاً عَـلَـيْـهِ فَـإِنَّـهُ كَفِيلٌ بِتَشْتِيتِ الْمُرِيدِ عَلَى هَجْرِ

قال الشيخ رضي الله عنه: ولا تعترض على شيخك أبداً فإن الاعتراض على الشيخ ضامن لتشتيت المريد المعترض عليه عن ربه وعن دينه مع تركه له وإعراضه عنه، وطرده إياه عن صحبته، واليوم في البيت بمعنى الساعة، والوقت الذي هو فيه والإعتراض مقابلة القول بالرد.

واعلم وفقك الله أن هذه التفاسير لهذه الأبيات وجدتها مكتوبة على نسخة من الرائية بخط الشيخ رضي الله عنه، ولم أسمعها منه ولكنها مكتوبة بخط يده الكريمة بلا شك ولا ريب فلذا نسبتها إليه رضي الله عنه، مع أن علم الشيخ رضي الله عنه أكثر بل فوق ذلك كله، وودت أني أقرأ هذه القصيدة عليه رضي الله عنه فإنا نسمع منه الأسرار الربانية والأنوار العرفانية في شرحها على عادته رضي الله عنه.

وبقيت أبيات أخر متعلقة بهذا الغرض لم يشرحها الشيخ رضي الله عنه فعزمت على كتبها من غير شرح ثم بدا لي أن أكتبها وأشرحها بما تيسر من غير تطويل ولا إكثار قال صاحب الرائية:

وَمَنْ يَعْتَرِضْ وَالْعِلْمُ عَنْهُ بِمعْزِلٍ يَرَى النَّقْصَ فِي عَيْنِ الْكَمالِ وَلاَ يَدْرِي

أي ومن يعترض على الشيخ أو على غيره من أهل الطريقة وهو جاهل فإنه يرى الكمال نقصاناًويقلب الأمور وهو لا يدري، وأصل هذا البيت لصاحب العوارف حيث قال: وينبغي للمريد كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى فإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره، فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فللشيخ في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة اهـ. والرائية مختصرة من العوارف فهي أي العوارف أصل للرائية.

وقال أبو الحسن الشتري رضي الله عنه: ولا يعترض على المشايخ فيما يصنعون فإنهم لا يتصرفون إلا عن إذن وبصيرة، وليس هم ممن يدخلون تحت جنس العالم الأول أعني عالم الحجاب الذين لم يتشوفوا إلى عالم الملكوت، ولم تفتن عقولهم إلا بالظواهر خاصة بل هم معهم كائنون بائنون الحركات والسكنات والأجسام والأقوال واللسان

والحروف المنطوق بها كل ذلك متجانس مع العامة، وهم محجوبون عنهم من وجه آخر فلا يعرف ما هم به ولا عليه إلا من كان منهم اهـ. والله أعلم. ثم قال:

وَمَنْ لَمْ يُوَافِقْ شَيْخَهُ فِي اعْتِقَادِهِ   يَظَلُّ مِنَ الإِنْكَارِ فِي لَهَبِ الجَمْرِ

المعنى أن الشيخ مصيب في فعله، فيعتقد أن الصواب في ذلك الفعل، فالمريد إن اعتقد الصواب مثل اعتقاد شيخه ربح ونجح، وإن خالف شيخه في اعتقاده اعتقد أن شيخه على خطأ في ذلك الفعل فإنه لا محالة يصير أمره إلى فراق شيخه، وعن فراق الشيخ كنى بلهب الجمر أي فإنه يظل من الإنكار في فراق الشيخ الذي هو كلهب الجمر.

قال محيي الدين بن العربي رضي الله عنه: ومن شرط المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شريعة من ربه وبينة منه، ولا يزن أحواله بميزانه، فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن، والحقيقة فيجب التسليم، وكم من رجل كاس خمر بيده ورفعه إلى فيه وقلبه الله في فيه عسلاً والناظر يراه شرب خمراً وهو ما شرب إلا عسلاً ومثل هذا كثير وقد رأينا من يجسد روحانيته على صورة ويقيمها في فعل من الأفعال ويراها الحاضرون على ذلك الفعل، فيقولون رأينا فلاناً يفعل كذا وهو عن ذلك الفعل بمعزل وهذه كانت أحوال أبي عبد الله المصلي المعروف بقضيب البان وقد عاينا هذا مراراً في أشخاص اهـ.

قلت: وقد سبق في الباب الذي قبل هذا من كلام الشيخ رضي الله عنه ما هو أبهر وأكثر من هذا فراجعه والله أعلم ثم قال:

فَذُو الْعَقْلِ لاَ يَرْضَى سِوَاهُ وَإِنْ نَأَى   عَنِ الْحَقِّ نَأْى اللَّيْلِ عَنْ وَاضِحِ الْفَجْرِ

المعنى أن من له عقل سليم وطبع مستقيم لا يرضى سوى شيخه، ويدور معه حيثما دار، وإن بعد الشيخ في ظاهر الأمر عن الحق بعداً بيناً كبعد الليل من الفجر، ويقول إن للشيخ في ذلك وجهاً مستقيماً عسى أن يطلعني عليه.

سمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: إن المريد إذا عثر على شيء من هذه الأمور التي تصدر من الأشياخ وتخالف الظاهر وحسن ظنه بشيخه فإن الله تعالى يوقفه على أسرارها إذا فتح عليه.

قلت: وقد سبق في كلامه رضي الله عنه حكايات كثيرة عن المريدين الصادقين فراجعه في الباب الذي قبل هذا والله أعلم ثم قال:

وَلاَ تَعْرِفَنْ فِي حَضْرَةِ الشَّيْخِ غَيْرَهُ   وَلاَ تَمْلأَنْ عَيْناً مِنَ النَّظَرِ الشَّزْرِ

النظر الشزر هو النظر يميناً وشمالاً أو هو نظر الغضبان بمؤخر العين، أو نظر فيه إغضاء فيه أقوال والمناسب للأول أن يكون ذلك النظر لغير الشيخ، فكأنه يقول: ولا تعرفن في حضرة الشيخ وهي محل جلوسه غيره ولا تنظر في حضرته إلى ذلك الغير يميناً أو

شمالاً فكأنه نهى عن معرفة ذلك الغير وعن الالتفات إليه وأما المعنى الثاني والثالث للنظر الشزر، فالمنظور إليه فيها هو شيخه المربي، فكأنه يقول، ولا تعرف في حضرة الشيخ غيره ولا تنظر إلى شيخك نظر غضب أو لا تنظر إليه نظراً فيه إغضاء كأنه يتجاوز ويغضي عن بعض ما فعله، لكن هذان المعنيان لا يناسبان السياق، فإن الكلام مع مريد صادق يدور مع شيخه حيثما دار، فقيل له: إذا وصلت إلى هذا المقام فلا تعرف غير شيخك، وحينئذ فلا يناسب أن يقال له ولا تغضب على شيخك وإنما المناسب أن يقال له ولا تلتفت إلى غير شيخك، لأن معنى هذا الأدب الجمع على الشيخ والاستغراق فيه والانحياش إليه والغيبة في سره ليثمر له ذلك مع الشيخ أمثاله مع الحق سبحانه لأن كل أدب يستعمله المريد مع الشيخ فإنه يثمر له مثله مع الله عز وجل.

واعلم أن هذا الأدب لا يتأتى من المريد ما لم يكن له من الشيخ جاذب باطني، فإن محبة الشيخ للمريد إذا اتصلت أشعتها بالمريد تحوشه إلى الشيخ وتحوطه من كل قاطع، فإذا دامت دام الاتصال، وإن انقطعت وقع الانفصال حتى قال بعض الأشياخ لمريد له كان يلازمه كثيراً ويصلي معه الصلوات الخمس ولا يغيب عنه في وقت من الأوقات، وظن أن ذلك من محبته في الشيخ لا من محبة الشيخ فيه، فقال له الشيخ: أتحبني يا فلان فقال: يا سيدي ومن محبتي إليك وقع هذا الاتصال، فقال له الشيخ: ستعلم، فمن ذلك الوقت ما قدر على أن يصل إلى الشيخ حتى مرت عليه سنة كاملة ولم يقدر على مشاهدة شيخه فضلاً عن ملازمته حتى عفا عنه الشيخ وسامحه.

وقال بعض الأشياخ يوماً لأصحابه: أتحبونني، فقالوا نعم، يا سيدي ما عندنا أعز منك، فقال لهم، وهل أحبكم أنا فقالوا: لا ندري. فقال: ما جئتم بشيء إنما سبقت محبتي لكم، فلما أشرقت أنوارها فيكم أنتجت محبتكم لي.

وأما أصحاب الشيخ رضي الله عنه فمنذ عرفوه بردت قلوبهم من معرفة غيره وزيارته وبعضهم يحس بالمنع من ذلك.

حكى إلى بعضهم أنه جاء لزيارة الشيخ ووافقه بعض الناس في الطريق وطلبوا منه أن يذهب معهم لزيارته ضريح الولي الصالح سيدي قاسم أبي عسرية المشهور، فاستحييت وذهبت معهم والقلب بارد من زيارته، فلما وصلت إلى مشهده أصابني وجع في بطني، فبت ليلتي في ذلك المشهد والوجع يتزايد حتى شغلني عن الزيارة، ولما خرجت حين أصبح النهار من ذلك المشهد زال الوجع وصار كأنه لا شيء، قال: وقع لي ذلك مرة أخرى فعلمت أن ذلك من الشيخ رضي الله عنه.

قلت: وعادة الشيخ رضي الله عنه مع أصحابه أن يخبرهم بكل ما وقع لهم في الطريق إذا قصدوا زيارته، حتى أنه يخبرهم بالكلام الذي يدور بينهم ويخبر بما في بواطنهم

ووقع لبعض أصحابه رضي الله عنه ما هو أقوى من هذا وذلك أنه أحس بأنه يمنع من زيارة الصالحين قبل أن يعرف الشيخ بمدة تقرب من سبع سنين،فحصل له قنط وظن أن ذلك شقاوة وقساوة حتى جاء إلى بعض من يظن فيه الخير، وقال له يا سيدي إن زيارة الصالحين تثقل علي، فقال له أنت هو الذي تثقل عليهم، فزاده قنطاً على قنطه، ثم قصد رجلاً آخر يظن فيه الخير فشكا إليه ذلك،فقال له إن الولي قد يكون في حضرة الحق سبحانه فلا تكون روحه بأفنية القبور، وقد لا يكون في الحضرة فتكون روحه بأفنية القبور، فلعلك إذا جئت إلى ضريحه تجده في الحضرة فلا تكون روحه في قبره، حتى يحصل لك أنس به وتحصل لك وحشة ويثقل عليك الحال، فخفف عليه الأمر بهذا الكلام إلا أنه قال: إن كنت كلما جئت ولياً أزوره لا أجد روحه بفناء قبره فهذا عرق من الشقاوة في إلى الآن لم يزل، فلما جمعه الله تبارك وتعالى مع الشيخ رضي الله عنه، لم يكن عنده أهم من أن يسأله عن هذا الأمر.

فقال: يا سيدي إن زيارة الصالحين تثقل علي كثيراً وقد شكوت إلى سيدي فلان فقال لي كيت وكيت وإلى سيدي فلان فقال لي كيت وكيت، فما تقولون أنتم رضي الله عنكم.

فقال له الشيخ رضي الله عنه: وقد نظر إلى مشموم من الورد معلق في حانوت فقال: إن صاحب هذا المشموم، إن أعطاه لكل أحد يقلبه ويمسه بيده فإنه يفسد ويحصل فيه ذبول ويبس فالصواب في حقه والأليق به أن يمنعه من كل أحد قال: فعلمت أني ممنوع من زيارة غير الشيخ رضي الله عنه قبل أن أعرفه بسنين.

ووقعت حكاية أخرى وهي أن رجلاً من أصحابه رضي الله عنه كان يعتقد الخير في بعض السادات، وكان يحبه كثيراً، ويزوره غالباً وله في صحبته ما يقرب من سبع سنين حتى خامرت محبته شعره وبشره وعظمه ولحمه حتى ملأت ذاته من قرنه إلى إبهامه، وكان يجزم بعد وفاة ذلك الشيخ لا يعرف غيره أبداً لأنه كان يعتقد أنه لا نظير له، قال فجمعني الله مع الشيخ رضي الله عنه، وبقيت معه ساعة فما قمت من عنده، حتى زالت تلك المحبة المتعلقة بذلك الميت بأسرها وذهبت من سائر جسده بشراشرها ولم يقدر من تلك الساعة على زيارة الشيخ في قبره أبداً فسأل الشيخ رضي الله عنه فقال يا سيدي: رأيت عجباً كنت أحب سيدي فلاناً محبة لا تكيف ولا توصف، وكنت أجزم بأن غيره لا يحل محله أبداً، فلما جالستك ساعة زال ذلك كله، والفرض أن ذلك الشيخ لم نتعرض له في تلك الساعة ولا جرى له ذكر ولا تكلمنا في الأسباب التي تمحو محبته.

فقال رضي الله عنه: ذلك الشيخ صادق وولي من أولياء الله تعالى وأنت في محبتك له صادق ولكن المحبة التي بينكما ليس لها أصل تنزل عليه ثم ضرب له مثلاً فقال كطفل صغير له أب، ففرق الله بينه وبين أبيه فالتقطه رجل آخر وجعل يربيه فكبر الولد ولا يرى غير الرجل الذي كان يربيه، فصار يقول له أبي، ويحن له كما يحن الولد إلى أبيه، حتى

بقي عنده نحواً من سبع سنين ثم جاء أبوه الذي هو ابنه من صلبه، فوجد الولد جالساً بفناء دار الرجل الذي يربيه فوقف أمامه ساعة ثم مر عنه، فإن عروق ذلك الولد تذهب كلها مع أبيه الذي هو من صلبه ولا يبقى شيء منها مع الرجل المربي له،فلا يحل أحد في قلبه محل أبيه من صلبه، وإن كان قبل ذلك يظن أن الرجل المربي هو أبوه، قال فمحا والله بهذا المثال ما بقي في قلبي من رشوحات تلك المحبة وقطعها من جدرها وهكذا حال الأكابر رضي الله عنهم، حتى قالوا إن المريدين بمثابة أكواب الحمام فهي لمن غلب، فالشيخ الذي يغضب على مريده حيث يتركه ويذهب لغيره عاجز أو عقيم، فمن عجزه أو عقمه ذهب مريده لغيره.

وكم مرة يذهب الشيخ رضي الله عنه إلى زيارة بعض الصالحين فيخرج معه جماعة من أصحابه، وفقهم الله فيقولون له أنت مقصودنا وأنت الذي نزوره وذهابنا لسيدي فلان مساعفة لك ومؤانسة لذاتك فأنت مقصودنا سواء ذهبت لسيدي فلان تزوره أو إلى غيره، فإذا وصل الشيخ رضي الله عنه إلى ضريح الولي الذي قصده يذهب وحده أو يستصحب واحداً من أصحابه ليرافقه وبقية أصحابه قانعون بالشيخ رضي الله عنه مكتفون به معتقدون أنه لا يبلغه أحد من أهل زمانه رضي الله عنه ولا من الأموات قبله، وإنما يقدمون عليه ساداتنا الصحابة لا غير فهم لا يعرفون غير الشيخ رضي الله عنه حضر الشيخ أو غاب في حياته وبعد مماته.

ولما مات الشيخ رضي الله عنه كنت أتكلف الذهاب إلى زيارته في قبره كثيراً فوقف علي في المنام وقال لي إن ذاتي ليست بمحجوبة في القبر بل هي في العالم كله عامرة له ومالئة وفي أي موضع تطلبني تجدني، حتى أنك لو قمت إلى سارية في المسجد وتوسلت بي إلى الله عز وجل فإني أكون معك حينئذ، ثم أشار إلى العالم كله، فقال: وأنا فيه بأجمعه فحيثما طلبتني وجدتني، وإياك أن تظن أني أنا ربك عز وجل فإن ربك عز وجل غير محصور في العالم وأنا محصور فيه، هذا ما سمعته منه رضي الله عنه في المنام.

وكذا سمعته رضي الله عنه يقول في حياته: إن العالم كله قد يكون أحياناً في وسط جوفي.

وسمعته رضي الله عنه أحياناً يقول: ما السموات السبع والأرضون السبع في نظر العبد المؤمن إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فواجب أيضاً أن تختلف حضرة الشيخ في قوله:

وَلاَ تَعْرِفَنْ فِي حَضْرَةِ الشَّيْخِ غَيْرَهُ

بحسب مقامات الأشياخ رضي الله عنهم: فحضرة شيخنا رضي الله عنه هي العالم بأسر، والله أعلم ثم قال:

وَلاتَنطِقَنْ يَوْماً لَدَيْهِ فَإِنْ دَعَا إِلَيْهِ فلاَ تَعْدِلْ عَلَى الْكَلِمِ النَّزْر

يقول والله أعلم: لا تنطق في وقت من الأوقات عند شيخك، فإن سألك عن شيء فلا تعدل عن الجواب الذي تدعو إليه الحاجة إلى الإكثار والتطويل، فإن ذلك يزيل هيبة الشيخ، وهذا والله أعلم ما لم يطلب منه الشيخ الإكثار من الكلام، فإن طلب منه ذلك وكان للشيخ فيه غرض فإنه ينبغي له حينئذ الإسهاب والتطويل مراعياً خاطر الشيخ، فإذا رآه شبع من الكلام فإنه يجب عليه الرجوع إلى أدبه، وقد سبق ما كان يقوله لنا الشيخ رضي الله عنه حين يغيب في المشاهدة، أهدروا علي كثيراً فإن الله يأجركم على ذلك، يعني لأنه يرجع بذلك إلى حسه، وأصل هذا الكلام الذي في البيت لصاحب العوارف، قال فيها بعد أن ذكر تأويلات في قوله تعالى:

﴿لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدِي الله وَرَسُولِهِ﴾.

وقيل نزلت في أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فإذا سأل الرسول ﷺ عن شيء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى، فنهوا عن ذلك.

وهكذا دأب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيئاًبحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمره الشيخ في ذلك، ووجد من الشيخ فسحة، وشأن المريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقاً يساق إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله تعالى وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جناية المريد وينبغي أن يكون تطلعه إلى معهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ، بل يبادئه الشيخ بما يريد، لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق وهو عند حضور الصديقين يرفع قلبه إلى الله تعالى، ويستمطر ويستسقي لهم فيكون لسانه وقلبه في القول والنطق مأخوذين إلى فهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح عليه، ثم قال: ويكون الشيخ فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى على لسانه مستمعاً كأحد المستمعين.

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يكلم الأصحاب بما يلقى إليه ويقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين، وقال: إذا كان القائل يعلم ما يقول فكيف يكون مستمعاً فرجع إلى منزله فرأى في ليلته في المنام كأن قائلاً يقول له: أليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدر ويرجع بالصدف في مخلاته والدر قد حصل معه، ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل، ففهم في المنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن آداب المريد مع الشيخ السكون والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه المصلحة قولاً وفعلاً انتهى والله أعلم ثم قال:

وَلاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِهِ ... وَلا تَجْهَرُوا جَهْرَ الَّذِي هُوَ فِي قَفْرِ

يقول والله أعلم: لا ترفعوا أيها المريدون أصواتكم فوق صوت الشيخ، فإن ذلك يخل بالأدب، ولا تجهروا له بالقول كجهر سكان القفار والبوادي الذين معهم جفاء وجلافة، ولكن عظموه وفخموه وقولوا يا سيدي. ويا أستاذي، ويا ولي الله، ونحو ذلك، وأصل هذا الكلام الآية الشريفة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾.

قال السهروردي في العوارف رضي الله عنه: ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ قوله:

﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي﴾.

كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت، وكان إذا تكلم جهر بصوته، وربما كان يكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله الآية تأديباً له ولغيره، ثم قال: بعد أن ذكر رواية في سبب نزولها، وأنها نزلت في منازعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بحضرته، قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم، وقيل: لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي ﷺ إلا كأخفى السر، فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع شيخه، فلا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك والكلام إلا إذا باسطه الشيخ فرفع الصوت إلقاء لجلباب الوفاء والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان، وقد ينال باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع أن يشبع النظر إلى الشيخ.

ثم قال ابن عطاء في قوله:

﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾.

زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى فوقه في ذلك.

وقال سهل لا تخاطبوه إلا مستفهمين، وقال أبو بكر بن ظاهر لا تبدؤوه بالخطاب ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة:

﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

أي لا تغلظوا له في الخطاب، ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد، كما ينادي بعضكم لبعض، ولكن فخموه وعظموه وقولوا يا نبي الله يا رسول الله ﷺ.

ومن هذا القبيل يكون الخطاب من المريد للشيخ، وإذا سكن الوقار في القلب ظهر

على اللسان كيفية الخطاب، ولما كلفت النفس بمحبة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة هي تحت وقتها صاغها كلف النفوس وهواها وإذا امتلأ القلب حرمة ووقاراً تعلم اللسان العبارة، ثم قال بعد أن ذكر ما فعل ثابت بن قيس رضي الله عنه، لما نزلت الآية من تقييده نفسه وما شهد له به رسول الله ﷺ حينئذ من عيشه سعيداً وموته شهيداً ودخوله الجنة، وما آل إليه أمره من نزول قوله تعالى فيه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ ﷺ الآية والشهادة والوصية بعد الموت وإجازة أبي بكر رضي الله عنه لها قال: فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله ﷺ فليعتبر المريد الصادق، وليعلم أن الشيخ تذكرة من الله تعالى ورسوله، وأن الذي يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول الله ﷺ لاعتمده مع رسول الله ﷺ، فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال تعالى:

﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾.

أي أخلص قلوبهم واختبرها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه فكان اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لما تهذب القلب، فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ.

قال أبو عثمان: الأدب مع الأكابر وفي مجلس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلي. والخير في الدنيا والعقبى ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾.

ثم قال بعد كلام في قوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ الآية.

وفي هذا تأديب للمريد في الدخول على الشيخ والإقدام عليه وترك الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الله الشيخ من موضع خلوته ثم قال:

وَلاَ تَرْفَعَنْ بِالضَّحْكِ صَوْتَكَ عِنْدَهُ ... فَـلاَ قُـبْـحَ إِلاَّ دُونَ ذٰلِـكَ فَـاسْـتَـقْـرِ

قال عياض: الضحك حالة تغير يوجبها سرور ويغلب، فتنبسط له عروق القلب فيجري فيها الدم فيفيض إلى سائر عروق الجسد فتثور لذلك حرارة ينبسط لها الوجه، ويضيق منها الفم وينفخ وهو التبسم فإذا زاد السرور وتمادى ولم يضبط الإنسان نفسه قهقه اهـ، أي لا ترفعن بالضحك صوتك عند الشيخ فلا قبح من الأمور التي سبق ذمها، والنهي عنها إلا دون رفع الصوت بالضحك بحضرة الشيخ أي فهو فوقها كلها في القبح، وقوله فاستقر هكذا بالقاف من الاستقراء في بعض النسخ أي استقر الأمور المذمومة، فإنك تجد

هذا الأمر فوقها في القبح، وفي بعضها بالعين المهملة هكذا فاستعر من الاستعراء وهو طلب التعري من هذا الأمر الذميم أي فتخلص من هذا الأمر وتخل عنه، وفي العوارف وتصعب معرفة الاعتدال في الضحك والضحك من خصائص الإنسان وتميز عن جنس الحيوان ولا يكون الضحك إلا من سابقة تعجب والتعجب يستدعي الفكر والفكر شرف الإنسان وخاصيته ومعرفة الاعتدال فيه شأن من ترسخ قدمه في العلم، ولهذا قيل: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب، وقيل: كثرة الضحك من الرعونة.

وروي عن عيسى أنه قال: إن الله يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء من غير أرب، ثم قال: وجعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة من الذنب وحكم ببطلان الوضوء بها، وقال تقيم الإثم مقام خروج الخارج اهـ. ثم قال:

وَلاَ تَـقْـعُـدَنْ قُـدَّامَـهُ مُـتَـرَبِّـعـاً   وَلاَ بَـادِيـاً رِجْـلاً فَـبَادِرْ إِلَـى الـسَّـتْـرِ

معناه ظاهر، وقال: أبو طالب المكي رضي الله عنه: وكان من هدى العلماء في قعودهم أن يجتمع أحدهم في جلسته وينصب ركبتيه، ومنهم من يقعد على قدميه، ويضع مرفقيه على ركبتيه، كذلك كان من شمائل كل من تكلم في هذا العلم خاصة من عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ومن زمان الحسن البصري وهو أول من تكلم في هذا العلم، وفتق الألسنة به إلى وقت أبي القاسم الجنيد قبل أن تظهر الكراسي.

وكذلك روينا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقعد القرفصاء، ويختبىء بيديه وفي خبر آخر كان يقعد على قدميه ويجعل يديه على ركبتيه، ثم قال: وإنما كان يجلس متربعاً النحويون وأهل اللغة وأبناء الدنيا من العلماء المفتين، وهي جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع في الجلسة اهـ.

فللمريد أسوة حسنة في النبي ﷺ ومن بعده من العلماء الزاهدين أهل المعرفة واليقين، ثم قال:

وَلاَ بَـاسِـطـاً سَـجَّـادَةً بِـحُـضُـورِهِ   فَلاَ قَصْدَ إِلاَّ السَّعْيُ لِلْخَادِمِ الْبَرِّ

وَسَجَّـادَةُ الـصُّـوفِـيِّ بَـيْـتُ سُـكُـونِـهِ   وَلاَ وَكْـرَ إِلاَّ أَنْ يَـطِـيـرَ عَـنِ الْـوَكْـرِ

يقول والله أعلم: ولا تكن أيها المريد باسطاً سجادة تجلس عليها بحضور شيخك، فإن ذلك ينافي مقصودك فإن مقصودك خدمة الشيخ والقيام بأموره وبذل النفس في حوائجه ومهماته، واشتغالك بالجلوس على السجادة يقتضي طلب الراحة ويوهم التساوي مع الشيخ في الدرجة، ومحل سجادة الصوفي بيت سكناه لا مجلس شيخه، بل ينبغي له في مجلس شيخه التواضع والتصاغر والاشتغال بالخدمة، وقوله: ولا وكر إلا أن يطير عن الوكر، الوكر: هو عش الطائر الذي يأوي إليه، وأطلقه هنا على مجلس الشيخ الذي يأوي إليه المريدون.

والمعنى: وكما أنه لا سجادة لك مع حضور الشيخ فلا وكر لك معه، أي لا مجلس لك معه يجتمع عليك الناس فيه، وتنصرف إليك فيه الوجوه، فإن في ذلك سوء أدب مع الشيخ وقطيعة وعقوقاً، اللهم إلا أن تكون تربيتك كملت ووصل لك الفطام وأذن لك الشيخ بالتربية والاستقلال وصرت إماماً مربياً فلا بأس بالمجلس حينئذ، لكن بعد الانفصال عن الشيخ وفراقه لمحل آخر وعنه كنى بقوله: إلا أن يطير عن الوكر، أي إلا أن يكمل أمره ويطير عن شيخه ويستقل بنفسه كالفرخ الذي كملت تربيته وقدر على الطيران، فإنه يستقل بأمره ولا يحتاج إلى أبيه، وقوله: فلا قصد إلى السعي للخادم البر، أي لا غرض للخادم البر الصادق في الإرادة إلى السعي في حوائج الشيخ ومهماته.

قال في العوارف: ومن آدابهم الظاهرة أن المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة، فإن المريد من شأنه التبتل بالخدمة وفي السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز؛ ثم قال في موضع آخر بعد كلام، والخدمة شأن من دخل الرباط مبتدئاً ولم يذق طعم المعاملة ولم ينتبه لنفائس الأحوال فيؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمته ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله تعالى إليه، فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة إلى أن قال: والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح وهي طريق من طرق المواجد تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة ثم قال:

وَمَا دُمْتَ لَمْ تُفْطَمْ فَلاَ فَرَجِيَّةٌ ... عَلَيْكَ وَلاَ تُلْفَى عَلَيْهَا بِمُسْتَحْرِ

يقول والله أعلم: وما دمت أيها المريد لم تفطم عن رضاع التربية، ولم تبلغ إلى درجة الاستقلال فلا ينبغي لك لباس ما هو من زي الشيوخ كالفرجية، وهي لباس معروف عندهم والمستحري هو الذي له جرأة على الشيء.

قال أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسن السلمي رضي الله عنه: ويكره لبس الفرجية أيضاً إلا للمشايخ فإنها بمنزلة الطيلسان والسجادة، فالطيلسان للمشايخ والبرانس، للمريدين اهـ.

وهذا الحكم جار في كل زي للشيوخ لأن العلة واحدة وهو يختلف باختلاف الأعراف ثم قال:

وَلاَ تَرَيَنْ فِي الأَرْضِ دُونَكَ مُؤْمِناً ... وَلا كافِراً حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ

يقول والله أعلم: ولا ترين أيها المريد في الأرض مؤمناً أو كافراً أدنى منك منزلة، وأخفض منك عند الله مرتبة، بل اعكس الأمر، وقل إنك دون كل أحد واستمر على ذلك إلى أن تموت.

قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه، فهو متكبر قيل، فمتى يكون متواضعاً قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً وتواضع مع كل أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه.

قال في العوارف: وقد سئل يوسف بن أسباط ما غاية التواضع؟ فقال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيته خيراً منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام. وقد بعث له بعض أبناء الدنيا طعاماً على رؤوس الأسارى من الأفرنج، وهم في قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ، قال للخادم أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفاً واحداً، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم، وقعد بينهم كالواحد منهم، فأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والإنكسار في نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

وقال الشيخ أبو الحسن علي بن عتيق بن مؤمن القرطي رحمه الله رأيت الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن مقيد وكان من الفقهاء العلماء يوماً وهو يمشي في يوم شات كثير المطر والطين فاستقبله كلب يمشي على الطريق الذي كان يمشي عليها، قال: فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقاً ووقف ينتظره ليجوز، وحينئذ يمشي هو، فلما قرب منه الكلب رأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشي فوقه، قال: فلما جازه الكلب وصلت إليه فوجدته عليه كآبة فقلت: يا سيدي رأيتك الآن صنعت شيئاً استغربته كيف رميت نفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي، فقال لي بعد أن عملت له طريقاً تحتي تفكرت وقلت: ترفعت عن الكلب وجعلت نفسي أرفع منه بل هو والله أرفع مني، وأولى بالكرامة لأني عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لا ذنب له، فنزلت له عن موضعي وتركته يمشي عليه، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عني، لأني رفعت نفسي على من هو خير مني.

قال ذو النون رضي الله عنه: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى عظمة الله تعالى وسلطانه ذهب عنه سلطان نفسه، لأن النفوس كلها صغيرة عند هيبته فإذا حصل العبد على هذا المعنى من التواضع تواضع للخلق لا محالة، لرؤية نسبتهم إلى الحق تعالى، ولذلك قال في العوارف: ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق اهـ. والله أعلم ثم قال:

فَـإِنَّ خِـتَـامَ الْأَمْـرِ عَـنْـكَ مُـغَـيَّـبٌ وَمَنْ لَيْسَ ذَا خُسْرٍ يَخَافُ مِنَ الْمَكْرِ

يعني أن الخاتمة مجهولة، وجهلها يقتضي ما سبق، وهو أنه لا يرى أحداً دونه، فإن كان الشخص ذا خسر فلا إشكال في خوفه وإن كان ذا عمل صالح فإنه لا يأمن مكر الله.

قال ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه: ومن آدابهم مع الله تعالى وقليل فاعله أن

يعتقد الإنسان أن لله نظرات في كل زمان إلى قلوب عباده يمنحهم فيها من معارفه ولطائفه ما شاء، فإذا فارق شخصاً ساعة واحدة وأعرض عنه نفساً واحداً وهو جالس معه ثم عاد إليه، فإنه يتهيأ للقائه بالخدمة والتعظيم، لعل نظرة من نظراته حصلت له أغنته، فإن كان الأمر كذلك يعني بأن حصلت له نظرة من تلك النظرات فقد وفي معه الأدب، وإن لم يكن الأمر كذلك، يعني بأن لم يحصل له شيء من تلك النظرات فقد تأدب مع الله تعالى، حيث عامله بما تقتضيه المرتبة الإلٰهية، وهذا مقام عزيز قل أن ترى له ذائقاً.

وكذلك أيضاً إذا شاهدوا عاصياً في حال عصيانه، ثم زال عن تلك المعصية فإنهم لا يعتقدون فيه الإصرار ويقولون: لعله تاب في سره ولعله ممن لا تضره المعصية لإعتناء الباري به في عاقبة أمره.

ومن نظر نفسه خيراً من أحد من غير أن يعرف مرتبته ومرتبة ذلك الآخر بالغاية لا بالوقت فهو جاهل بالله عز وجل مخدوع لا خير فيه ولو أعطى من المعارف ما أعطى اهـ.

وقال أبو طالب المكي رضي الله عنه: ومن خوف العارفين علمهم بأن الله عز وجل يخوف عباده بمن شاء من عباده، الأعلين يجعلهم نكالاً للأدنين، يخوف العموم من خلقه بالتنكيل بعض الخصوص من عباده، حكمة له وحكماً منه، فعند الخائفين في علمهم أن الله تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين نكالاً خوف بهم المؤمنين ونكل بطائفة من الشهداء خوف بهم الصالحين، وأخرج جماعة من الصديقين خوف بهم الشهداء والله أعلم بما وراء ذلك، فصار من أهل كل مقام عبرة لمن دونهم وموعظة لمن فوقهم وتخويف وتهديد لأصحابهم، وهذا داخل في وصف من أوصافه وهو ترك المبالاة بما ظهر من العلوم والأعمال فلم يسكن عند ذلك أحد من أهل المقامات في مقام ولا نظر أحد من أهل الأحوال إلى حال ولا أمن من مكر الله عز وجل عالم به في كل الأحوال اهـ.

وقال أبو حامد رضي الله عنه: إن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حد المعقولات والمألوفات، ولا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس وحسبان، فضلاً عن التحقيق والاستيقان وهذا الذي قطع قلوب العارفين إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك، ثم قال بعد كلام طويل: قال بعض العارفين: لو حال بيني وبين من عرفته خمسين سنة بالتوحيد اسطوانة فمات لما قطعت له بالتوحيد لأني لا أدري ما ظهر له من التقليب، وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام على باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من باب الحجرة إلى باب الدار، وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذا قال الله تعالى:

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

قال وكان سهل يقول المريد يخاف من المعاصي؛ والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر، وكان أبو يزيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكان في وسطي زنار أخاف أن يذهب بي إلى البيعة أو لبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار فهذا دأبي كل يوم خمس مرات.

ووقعت حكاية غريبة من هذا المعنى سمعتها من الشيخ رضي الله عنه: وسمعته عنه رضي الله عنه يقول: لقيت بمكة شرفها الله أبا الحسن على الصدغاء الهندي، فوجدته على حالة غريبة، وذلك أنه إذا أراد أن يخطو خطوة يرفع رجله وترتعد في الهواء ثم يردها فترتعد، ثم يعيدها إلى ناحية الخطوة فترتعد، ولا يكمل الخطوة حتى يقول: من رآه ما به إلا الجنون، ثم هكذا في كل خطوة وكذا إذا رفع طعاماً إلى فيه يقع له مثل ذلك فيمد يده إلى ناحية فمه فترتعد، ثم يردها إلى ناحية فمه فترتعد، ولا يجعل اللقمة في فيه حتى يرحمه كل من يراه، وكذا يقع له مثل ذلك إذا أراد أن يضطجع، وبلغ به الحال إلى أن وقع له ذلك في كل حركة اختيارية منسوبة إليه، حتى وقع له ذلك في تغميض الجفن وفتحه، فلما رأيت منه ذلك أكربني وأحزنني غاية حتى رحمته.

فقلت له: يا أبا الحسن ما هذه الحالة التي أنت عليها وقد جعلك الله من أوليائه وخواص أصفيائه ومن كبار العارفين به، ومن أهل الديوان، وذاتك سليمة صحيحة لا علة فيها.

فقال ما ذكرت هذا الذي حل بي لأحد سواكم وسأذكره لكم وهو أن الله تعالى وله الحمد أطلعني على مشاهدة فعله في مخلوقاته، فأنا أرى فعله سارياً في الخليقة عياناً لا يغيب عليّ منه بشيء، ثم أطلعني الله تبارك وتعالى وله الحمد بمحض فضله على أسرار فعله وقضائه وقدره في خليقته، فأنا أشاهد تلك الأفعال وأعلم لم كانت وأعلم أسرار القدر فيها بحيث لا يخفى عليّ شيء من تلك الأسرار، ثم نظرت إلى فعله فيّ فوجدته قد حجبني عن مشاهدته ومشاهدة أسراره فوقع في ظني أنه ما حجبني عن مشاهدته إلا لشر أراده بي، بأن يكون سخطه تعالى مقروناً بفعل من أفعالي فحجبني عن الجميع، حتى لا أعلم الذي يكون هلاكي به فأجتنبه، فلذا صرت خائفاً من كل فعل اختياري منسوب لي وأجوّز في كل فعل من أفعالي الاختيارية أن يكون هو سبب هلاكي، فما من فعل من أفعالي إلا وأنا أخاف منه، فلذلك صرت أتضرع إلى الله تعالى بظاهري وباطني وأستحضر الخوف من الفعل الذي أريد أن أقدم عليه، وأسأله تعالى أن لا يكون ذلك الفعل سبباً لهلاكي، والحركة الأولى في مد رجلي فعل فأرتعد منها وأخاف فأردها وأرتعد خوفاً من الرد وهكذا في كل فعل.

قال الشيخ رضي الله عنه: فما زلت أذكره بالله عز وجل وأذكر له سعة رحمته وقوله في الحديث القدسي.

«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ، فَإِنْ ظَنَّ بي خَيْراً أَعْطَيْتُهُ خَيراً» الحديث.

وهو يسمع لكلامي حتى ظننت أنه سيرجع عن حالته تلك، ثم عاوده ظنه وبقي على حالته وكل من رآه يرحمه ويدعو له بتعجيل الراحة بهذه أو بهذه.

قال رضي الله عنه: وتمنيت أن يراه أهل الحجاب ويعلمون بسر حاله وشدة خوفه من الله عز وجل وعظيم مراقبته له سبحانه في كل حركة وسكون حتى يعلموا ما هم عليه من الانهماك في الشهوات والقطيعة عن الله عز وجل.

قال رضي الله عنه: وإنما أخفى سبحانه فعله فيه عن مشاهدته لرحمة أرادها به، فإنه لو أطلعه على ذلك وصار يشاهد الفعل فيه لذابت ذاته، ولما أراد تعالى بقاءه واستمراره إلى أجل معين أخفى عليه فعله فيه، ومشاهدة فعل الرب سبحانه بالعبد كما ثبتت له ثبتت لغيره من الأولياء، بل وكذا سائر الأنبياء والحادث كيفما كان لا يطيق مشاهدة فعل الرب فيه، وإلا لذاب وإنما الذي يطيقه الحادث مشاهدة فعل الرب في غيره، والله أعلم ثم قال:

وَلاَ تَـنْـظُـرَنْ يَـوْمًـا إِلَـى الـخَـلْـقِ إِنَّـهُ يُخَلِّي طَلِيقَ الصَّفْوِ فِي كَدَرِ الأَسْرِ

لما نهى المريد عن التكبر على الخلق والازدراء بهم، حذره من الإفراط في الجانب الآخر كي يجعلهم قبلة ويرائيهم في أفعاله وينظر إليهم في أحواله وأقواله، فقال: ولا تنظرن يوما أي لحظة من الزمان ووقتا من الأوقات إلى الخلق، فتراعيهم في أحوالك وأفعالك وأقوالك وشؤونك كلها من عبادات وعادات، فإن النظر إليهم في ذلك والتقييد بهم يخلي الطليق الصافي من العلل والآفات في كدر أسر العلل والآفات، لأنك حيث نظرت إلى الخلق في أفعالك وأقوالك يدخل عليك الرياء والتصنع لهم والتزين لهم، وتحسين مواضع نظرهم منك ولذا قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: من لم يقنع في أقواله وأفعاله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة.

وقال بشر الحافي رضي الله عنه: ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا افتضح.

وقال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

وقال بعضهم: ولا تطمع في المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس.

قال في العوارف: وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر، وهذا الكلام هو أصل هذا البيت.

وكنت مع الشيخ رضي الله عنه ذات عنه يوم بباب الحديد، فنظر إلي وقال: لا يطمع أحد في معرفة الله وهو لا يعرف الرسول ﷺ، ولا يطمع أحد في معرفة الرسول ﷺ وهو لا يعرف شيخه، ولا يطمع أحد في معرفة شيخه وهو لم يصل على الناس صلاته على الجنازة، فإذا خرج الناس من نظره وصار لا يبالي بهم في أقواله وأفعاله وشؤونه كلها جاءته الرحمة من حيث لا يحتسب، ويعجب الشيخ رضي الله عنه من لا يبالي بنظر الناس إليه.

ويحكي لنا في هذا الباب أسراراً نفيسة وفقنا الله لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه آمين والله أعلم ثم قال:

وَإِنْ نَظَمَ الْحَقُّ الْكَرَامَاتِ أَسْطُراً   فَلاَ تُبْدِيَنْ حَرْفاً لِغَيْرِكَ مِنْ سَطرِ
سِوَى الشَّيْخِ لاَ تَكْتُمْهُ سِرّا فَإِنَّهُ   بِسَاحَةِ كَشْفِ السِّرِ يَجْرِي عَلَى بَحْرِ

سبق أن المريد إذا صلى على الناس صلاته على الجنازة وخرجوا من نظره فإن الرحمة تأتيه من حيث لا يحتسب، ولذلك قال: وإن نظم الحق الكرامات أي وإن رحمك الله سبحانه حيث انحصر نظرك فيه، وظهر لك كرامات كثيرة، فالأدب أن تكتمها ولا تذكرها لأحد سوى الشيخ فلا تكتمه شيئاً منها، فإنه طبيبك العارف بعللك التي تقطع عنك الطريق، ومن كان بهذه الصفة فهو جدير بأن تكشف له الأسرار وترفع دونه الأستار، وقوله: فإنه بساحة كشف السر يجري على بحر، أي فإن الشيخ لمعرفته بعللك بمثابة من يجري على بحر في ساحة كشف السر، والساحة هي المحل هنا. والمعنى فإن الشيخ يجري على بحر في محل كشف السر.

قال في العوارف: ومن الأدب أن لا يكتم عن الشيخ شيء من حاله ومواهب موارد فضل الحق عنده، وما يظهر له من كرامة أو إجابة ويكشف للشيخ من حاله ويعلم الله تعالى منه وما يستحي من كشفه يذكره إيماء وتعريضاً، فإن المريد متى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تصريحاً وتعريضاً يصير على باطنه عقدة في الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول.

ثم قال في آداب الشيخ: ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون ويمنحون من أنواع المنح، فسر المريد لا يتجاوز ربه وشيخه، ثم يحضر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات، ويعرفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله تعالى اهـ الغرض منه.

قلت: وكنت أتكلم ذات يوم مع الشيخ رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾.

فذكر لي في ذلك كلاماً نفيساً فتأولت فيه تأويلا، فجعل يحضر لي في الصلاة ففرحت به وذكرته للشيخ رضي الله عنه فسعفني في أول الحال، ثم بعده بأيام قال لي: اترك ذلك عنك فلم أفهم سره، ولم يزل رضي الله عنه يزجرني عن ذلك حتى تبين لي بعد ذلك أنه لو طال علي لجرني إلى أمور قبيحة فحمدت الله تعالى، وعلمت أنه من بركته رضي الله عنه.

وشكوت له ذات يوم رضي الله عنه شيئاً من الأمور التي تعرض لنا.

فقال لي رضي الله عنه: إنه لا يقع لك ولا يعرض لك بعد هذا أبداً فكان الأمر كذلك وكأنما ضرب بيني وبينه بسور.

وشكوت له رضي الله عنه ذات يوم أمر انزل بي فيه ضرر في الدين والدنيا لا تؤمن غائلته.

فقال لي رضي الله عنه: أما في الدنيا فلا تخش منه أبداً، ولا يقع لك منه شر أصلاً. وأما في الآخرة فأنا أتكفل لك على الله تعالى أنك لا تسأل عن هذا الأمر، ولا تحاسب عليه فكان الأمر في الدنيا كما قال رضي الله عنه ونرجو من الله سبحانه أن يكون الأمر في الآخرة كما قال رضي الله عنه.

وكان رضي الله عنه يقول لنا: لا تكتموا عني شيئاً من الأمور التي تنزل بكم في الدين والدنيا واخبروني حتى بالمعاصي التي تقع لكم، وإن لم تخبروني أخبرتكم فإنه لا خير في صحبة يستر معها شيء من أحوال المتصاحبين.

وكان رضي الله عنه يقول: أما أنا فلا أكتم عنكم شيئا من أموري ثم يشرح لنا رضي الله عنه حاله حتى بلغ إلى وقته ذلك ويذكر لنا جميع ما وقع له من العاديات وغيرها، ويقول لنا رضي الله عنه: إن لم أخبركم ولم أطلعكم على أحوالي فإن الله يعاقبني ويحاسبني لأنكم تظنون بي الخير، فاصبروا حتى أذكر لكم الأمور الباطنية التي لم تطلعوا عليها، فمن شاء منكم بعد ذلك أن يبقى معي فليبق وحينئذ يحل لي أكل طعامه وقبول هديته، ومن شاء أن يذهب فليذهب فان سكوتي عن ذكر تلك الأمور غش لكم، وما كان رضي الله عنه لأصحابه إلا رحمة محضة يشفع لهم في زلاتهم ويتكفل لهم بنوائبهم، ويتحمل لهم كل ما يخشون عاقبته، ويهتم لأمورهم أكثر ما يهتم لأموره.

وقال لي رضي الله عنه ذات يوم: الرجل الذي لا يشاطر صاحبه في سيئاته ما هو بصاحب له، وقال: إن لم تكن الصحبة إلا على الحسنات فما هي بصحبة.

وبالجملة فما كان رضي الله عنه لأصحابه إلا رحمة مرسلة من الله عز وجل، فعلى مثله يبكي الباكون.

ولو رمنا تفصيل أعيان الجزئيات الواقعة لنا معه ولغيرنا في هذا الباب لطال الكلام فظهر بهذا قوله في العوارف: وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة، والله أعلم.

ثم قال:

وَفِي الْكَشْفِ إنْ كُوشِفْتَ رَاجِعْهُ إنَّهُ لِتَوْضِيحِ مَا كُوشِفْتَ مبْتَسِمُ الثَّغْرِ

أي راجع أيها المريد شيخك في الكشف إن كوشفت بشيء: إنه أي الشيخ مبتسم الثغر لإيضاح الكشف، أي أنه مسرور وراض بسؤالك له عن الكشف فيوضح لك سره.

قال السهروردي رضي الله عنه: وقد تتجرد للذاكر الحقائق من غير مثال فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه، ويكون ذلك تارة بالرؤية، وتارة بالسماع، وقد يسمع من باطنه، وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه كالهواتف يعلم بذلك أمرا يريده الله له أو لغيره، فيكون ذلك إخبارا من الله تعالى له ليزداد يقينه، وفوق هذا كله من كوشف بصرف اليقين بخلاف ما قبله من الكشف، فإنه قد يقع للبراهمة والفلاسفة والدهريين والرهبانيين وغيرهم ممن سلك طريق الخذلان والردى، يكون ذلك في حقهم مكراً واستدراجاً ليستحسنوا حالهم ويستقروا في مقام الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد منهم من العمى والضلال والردى والوبال، حتى لا يغتر السالك بشيء من ذلك ويعلم أنه لو مشى على الهواء والماء لا ينفعه ذلك حتى يؤدي حق التقوى والزهد، اهـ الغرض منه مختصراً وملفقاً، فلذا احتيج إلى الشيخ في الكشف حيث كانت غائلته لا تؤمن ثم قال:

وَلاَ تَـنْـفَـرِدْ عَـنْـهُ بِـوَاقِـعَـةٍ جَـرَتْ ... فَفِي غَشاً عَيْنَاكَ وَالسَّمْعُ فِي وَقرِ

الغشا: ضعف في البصر. والوقر: ثقل في الأذن، وقيل ذهاب السمع كله.

وأما الواقعة فالذي يؤخذ من كلام صاحب العوارف أنها ظهور الحقائق في صورة مثال، كما أن الكشف ظهور الحقائق لا في صورة مثال ذلك الظفر بالعدو، فإن النائم قد يرى في منامه أنه يظفر بعدوه فإذا ظفر به بعد ذلك كانت رؤياه لا تحتاج إلى تعبير، وقد يرى النائم في منامه الظفر به في صورة مثال. كما إذا رأى أنه قتل حية فاستيقظ فظفر بعدوه فحينئذ حقيقة الظفر ظهرت في صورة مثال فتحتاج رؤياه إلى تعبير، وفي القسم الأول ظهرت له تلك الحقيقة بلا صورة، فما يكاشف به الشخص في حال يقظته إن كان في غير صورة مثال فهو كشف وإن كان في صورة مثال فهو واقعة وإنما احتيج فيها للشيخ زيادة على ما سبق في الكشف لأن تلك الصورة قد تكون لها حقيقة فتكون واقعة وقد تكون مثالاً فارغاً خالياً من الفائدة ليس وراءه معنى ولا حاصل نظير أضغاث الأحلام التي تقع في المنام فلا تكون واقعة، لأن شرط صحة الواقعة الإخلاص في الذكر أولاً ثم الاستغراق في الذكر ثانياً وعلامة ذلك الزهد في الدنيا وملازمة التقوى: فالمعنى حينئذ ولا تنفرد عن الشيخ بواقعة جرت لك فانك ضعيف السمع والبصر والشيخ هو الناقد النافذ، قال في العوارف:

ومن آداب المريد مع الشيخ أن لا يستقل بواقعة وكشف دون مراجعة الشيخ فإن الشيخ علمه واسع وبابه المفتوح إلى الله تعالى أكبر، فإن كانت الواقعة صحيحة أمضاها الشيخ وإن كان فيها شبهة أزالها الشيخ ثم أطال في ذلك.

وقال أيضاً: ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا رضي الله عنه أنه قال ذات يوم لأصحابه: نحن محتاجون إلى شيء من العلوم فارجعوا إلى خلواتكم وما يفتح الله عليكم ائتوني به ففعلوا، ثم جاءه من بينهم شخص يعرف بإسماعيل البطائحي ومعه كاغد

عليه ثلاثون دائرة وقال هذا الذي فتح لي في واقعتي فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة وإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدي الشيخ ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحاً فنزل كل صحيح على دائرة وقال هذا فتوح الشيخ إسماعيل أو كلام هذا معناه.

وقال أيضا وقد تنكشف الحقائق في لبسة الخيال أو في صورة مثال كما تنكشف الحقائق للنائم في لبسة الخيال كمن رأى في المقام أنه قتل حية فيقول المعبر تظفر بالعدو ثم أطال في ذلك وبين فيه الفرق بين الواقعة والكشف وبين الواقعة الصحيحة والتي هي خيال محض، وأتى في ذلك بنحو الورقة من القالب الكبير وقد لخصت زبدته في شرح هذا البيت والذي قبله، والله أعلم ثم قال:

وَفِرَّ إِلَيْهِ فِي الْمُهِمَّاتِ كُلِّهَا　　　فَإِنَّكَ تَلْقَى النَّصْرَ فِي ذٰلِكَ الْفَرِّ

معناه ظاهر. قال في العوارف: وليعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله إلى جناب كرمه منه يدخل ومنه يخرج وإليه يرجع وينزل بالشيخ حوائجه، ومهماته الدينية والدنيوية، ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ما ينزل المريد به ويرجع في ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه، وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة في النوم واليقظة، فلا يتصرف الشيخ في المريد بهواه فهو أمانة الله عنده، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾.

فإرسال الرسول يختص بالأنبياء والوحي كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ اهـ.

وقال أيضا: ومن الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه، فكما أن للدعاء أوقاتاً وآداباً وشروطاً لأنه مخاطبة لله تعالى، فللقول مع الشيخ أيضاً آداب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب اهـ.

وقد سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: الشيخ للمريد في درجة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله ﷺ، فإيمانه متعلق به وكذا سائر أموره الدينية والدنيوية وأرباب البصائر يشاهدون ذلك عيانا، وكنت أخرج معه رضي الله عنه كثيرا وأنا لا أعرف درجته، فكان يقول لي مثلك مثل من يظل يمشي على عالي أسوار المدينة وشرافاتها مع ضيق المحل الذي تجعل فيه رجلك وبعد محل السقوط، فلم أفهم معنى هذا الكلام إلا بعد حين، فكان بعد ذلك إذا جرى هذا الكلام على خاطري يحصل لي منه روع عظيم وخوف شديد.

وقلت له ذات يوم إني أخاف من الله تعالى من أمور فعلتها، فقال لي ما هي؟ فذكرت له ما حصل.

فقال لي رضي الله عنه لا تخف من هذه الأشياء، ولكن أكبر الكبائر في حقك أن تمر عليك ساعة ولا أكون في خاطرك فهذه هي المعصية التي تضرك في دينك ودنياك.

وقلت له مرة: يا سيدي إني بعيد من الخير.

فقال رضي الله عنه: اطرح عنك هذا وانظر إلى منزلتك عندي فعليها تحمل، وكنا معه رضي الله عنه على حالة قلّ أن يسمع بمثلها، لا ينزل أمر مهم أو غير مهم إلا ذكرناه له فيتحمله عنا عيانا ويريح خاطرنا منه بمجرد ذكره له.

وكان رضي الله عنه يمازحنا ويضاحكنا ويزيل الحياء عنا، ويفاتحنا بالأمور قبل أن نسأله عنها ويقول لنا: لا تجعلوني في مقام الشيخ، إنما أنا لكم بمنزلة الأخ، ومقام الشيخ لا تطيقون القيام بآدابه، فأنا أسامحكم وأجعلكم في حل من ذلك، واجعلوني بمنزلة الأخ تدوم الصحبة بيننا وبينكم، فالله يجازيه عنا أفضل الجزاء بمنه وكرمه.

ولو رمنا أن نشرح هذه النبذة التي أشرنا إليها من حال الشيخ رضي الله عنه لطال الحال، والله أعلم.

ثم قال:

وَلاتَكُ مِمَّنْ يَحْسُنُ الْفِعْلُ عِنْدَهُ فَيَفْسُدُ إلاَّ أَنْ يَفِرَّ إِلَى الْكَسْرِ

في هذا البيت تحذير من العجب الذي يضر بالعمل: أي ولا تكن من الذين تحسن عندهم أعمالهم وتعجبهم فإنها تفسد بذلك، لأن العجب مفسد للأعمال، وقوله أن يفر بالياء من أسفل في بعض النسخ وفي بعضها بالتاء من فوق، والمعنى ظاهر عليهما: أي لكن إذا فررت من ذلك العجب والاستحسان إلى الرجوع إلى اللهتعالى فإن فعلك لا يفسد لأنك إذا رجعت إلى الله تعالى تجده هو المتصرف فيك والمجري ذلك عليك، وإنك وعاء من جملة الأوعية لا فرق بينك وبين غيرك، وترى نفسك فيما صدر منك من الاستحسان كمن يفتخر بفعل غيره فتستبدل العجب بالحياء من الله تعالى والخوف من مقته والشكر له على جزيل نعمته والعجب دليل على عدم قبول العمل، حتى قال بعض العارفين: من علامة قبول العمل نسيانك إياه، وانقطاع نظرك عنه بالكلية، بدلالة قوله تعالى:

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

قال: فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل أنه لا يبقى عندك منه شيء، فإنه إذا بقي في نظرك منه شيء لم يرتفع إليه.

وقال زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما: كل شيء من أفعالك إذا

اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لم يقبل منك لأن المقبول مرفوع مغيب عنك، وما انقطعت عنه رؤيتك فذلك دليل القبول اهـ.

ثم قال:

وَمَنْ حَلَّ مَنْ صِدْقِ الإِنَابَةِ مَنْزِلاً يَرَى الْعَيْبَ فِي أَفْعَالِهِ وَهْوَ مُسْتَبْرِي

أي ومن حل ونزل من صدق الإنابة إلى الله والرجوع إليه الرجوع الكلي منزلاً يرى العيب في أفعاله التي تقرب إلى مولاه بها، وهو مستبريء أي وهو بريء والسين والتاء زائدتان، وإنما كان بريئا من ذلك العيب الذي رآه لكونه قد أتى بها على ما ينبغي شريعة وحقيقة في ظاهره وفي باطنه، لكنه يتهم نفسه ولا يأمن أن يكون قد خفى عليه شيء من دسائسها.

وقد قال أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري رضي الله عنه: من علامة من تولاه اللّه في أحواله أن يشاهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره والنقصان في صدقه والفتور في مشاهدته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقرا إلى الله عز وجل في قصده وسيره.

وقال أبو عمر إسماعيل بن نجيد رضي الله عنه: لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها دعاوى، فالنفس مجهولة على ضِد الخير لولا فضل الله علينا ورحمته، قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ وقال عز من قائل: ﴿وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسي إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

وقال بعض السادات رضي الله عنه: ما هناك إلا فضله، ولا نعيش إلا في ستره، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم، فلذا تبرأ الأكابر من أعمالهم الصحيحة فضلاً عن غيرها، حتى قال أبو يزيد: لو صفت لي تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشيء.

وقال أبو سليمان الداراني: ما استحسنت من نفسي عملا فاحتسبته.

قلت: هذا ما يتعلق بشرح الأبيات التي ذكرها صاحب الرائية في الشيخ المربي وآدابه وآداب المريد معه وهي من أنفس ما يسمع، وينبغي للمريد أن يحفظ هذه القصيدة فإنها قصيدة منورة. فإن لم يمكنه حفظها كلها فليحفظ الأبيات المتعلقة بالشيخ المربي.

وصاحب الرائية هو الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف القرشي التيمي البكري الصديقي سلواي الأصل، ولد بسلا سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ونشأ بمراكش واستوطن الفيوم من مصر حرسها الله، وبها توفي في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وستمائة، ولقبه هناك تاج الدين، وكنيته أبو العباس.

كان رضي الله عنه وافر الحظ من علم البيان نحواً وأدباً شاعراً محسناً محققاً لعلم الكلام، بارعاً في أصول الفقه متقدماً في التصوف، وإليه انقطع وعليه عول، وفيه صنف ونظم في مقاصده، وتدريج سلوكه قصيدته هذه التي سماها أنوار السرائر وسرائر الأنوار، وأخذها الناس عنه واشتهرت في الأقطار، لإجادة نظمها وضبطها.

قال صاحب المد العينين: إن هذه القصيدة حجة عند أهل الطريقة، ولم يزل المشايخ رضي الله عنهم يحضون عليها ويوصون تلامذتهم بالعمل بها، ثم نقل عن الشيخ أبي عبد الله محمد الهزميري رضي الله عنه أنه كان كثيراً ما يحض عليها أصحابه، وجميع تلامذته شديد العناية بها، ويلتزم الخير للمداوم عليها، قال وكان هو يديم الكلام عليها ويشرح بعض مقاماتها. وأخذ الناظم رضي الله عنه عن جماعة بمراكش ثم جال في طلب العلم. وأخذ بفاس عن الإمام الأصولي العابد الزاهد أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم المعروف بابن الكتاني العبدلاوي، والشيخ الإمام العلامة النحوي أبي ذر مصعب ابن الإمام النحوي أبي عبد الله محمد بن مسعود بن أبي ركب الخشني الإشبيلي ثم الفاسي من ذرية أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه الصحابي المشهور، والشيخ أبي العباس ابن ابي القاسم بن القفال. ووصل إلى الأندلس فأخذ عن بعض أهلها، ثم شرق وحج. وأخذ ببغداد عن الإمام العالم أبي محمد عبد الرزاق بن قطب الصديقين وحجة الله للعارفين محيي الملة والدين أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بالجيلاني، والشيخ المحدث التاريخي أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمران القطيعي، والشيخ أبي محمد قميص بن فيروز بن عبد الله الحنبلي. وأخذ علم الكلام عن الإمام الشيخ الكبير تقي الدين أبي العز مظفر بن عبد الله بن علي بن الحسين الأزدي الشافعي، المعروف بالمقترح. وأخذ أصول الفقه بالاسكندرية عن الشيخ الإمام علم الأعلام شمس الدين أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حسن بن عطية الإبياري المالكي. وأخذ التصوف ذوقاً وإشرافاً ببغداد عن شيخ شيوخ وقته وقدوة أهل عصره، ترجمان الطريقة وسلطان أهل الحقيقة شهاب الدين أبي حفص، ويكنى أيضا بأبي عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله القرشي التيمي البكري الصديقي، ثم الشافعي المعروف بالسهروردي صاحب عوارف المعارف التي هي أصل هذه القصيدة، والله أعلم.

وأخذ الطب عن أبي بيان وروى عنه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم القيسي السلاوي نزيل تونس لقيه بالفيوم من مصر والله أعلم.

فصل

وإذا فرغنا من شيخ التربية وآدابه وآداب المريد معه فلنرجع إلى الكلام على الأشياخ الذين ورثهم الشيخ رضي الله عنه فنقول:

سمعته رضي الله عنه يقول: ورثت عشرة من الأولياء، وهم سيدي عمر بن محمد

الهواري المقيم على ضريح سيدي علي بن حرزهم نفعنا الله به، وسيدي عبد الله البرناوي وكان من الأقطاب، وقد سبق في أول الكتاب كيفية التقائه بالشيخ رضي الله عنه.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن سيدي عبد الله البرناوي سقي بأنوار نيف وسبعين من أسماء الله الحسنى، وسيدي يحيى صاحب الجريد وكان من الأقطاب أيضاً، وكان شديد الاتباع في ظاهره وفي باطنه لشريعة النبي ﷺ، وكان يتولى التصرف في جميع من يزور الصالحين الموتى فهو ينظر في حوائجهم ويقضي ما قضاه الله منها، قال لي رضي الله عنه هذا لما تكلمت معه في شأن بعض السادات الموتى ممن كثر زيارة الناس له وظهر النفع عليه وشفاء المرضى عند ضريحه.

فقال لي رضي الله عنه: إن قلوب أمة محمد ﷺ لها شأن عظيم عند الله ولو أنها اجتمعت على موضع لم يدفن فيه أحد وظنت فيه ولياً وجعلت ترغب إلى الله تعالى في ذلك الموضع فإن الله تعالى يسرع لها بالإجابة، وسيدي يحيى اليوم يعني يوم الحكاية هو الذي يتولى التصرف في ذلك، وقد يقع هذا أيضاً في الأولياء الأحياء فقد يكون الرجل مشهوراً بالولاية عند الناس ونقضي بالتوسل به إلى الله الحوائج ولا نصيب له في الولاية، إنما قضيت حاجة المتوسل به على يد أهل التصرف، وهم رضي الله عنهم الذين أقاموا ذلك الرجل في صورة الولي ليجتمع عليه أهل الظلام مثله وهم الذين يتصرفون تبعاً للقدر فهو عندهم بمنزلة الصورة التي يجعلها صاحب الزرع في فدانه ليطرد بها العصافير فهي تظن الصورة رجلاً فتهرب منه وذلك في الحقيقة من فعل صاحب الفدان لا من فعل الصورة فكذلك أهل التصرف رضي الله عنهم يقيمون ذلك الرجل ويجمعون عليه أهل الظلام مثله والمتصرف فيهم خفي عنهم ولم يظهر لهم لأنه حق وهم لا يطيقون الحق.

وسمعته رضي الله عنه يقول: جاء رجل إلى طريق مخوف بعد المغرب وقد جلس له رجلان أحدهما في أول الشعبة والآخر في وسطها، فلما أراد أن يدخل الشعبة وكان مشيخاً على بعض من لا شيء عنده فقال يا سيدي فلان قدمت عليك جاه سيدنا محمد ﷺ إلا ما فككتني من هذه الشعبة وعدتك عليّ، قال رضي الله عنه فسمعه بعض أهل التصرف وقد استعظم اسم النبي الشريف ﷺ وجاهه الذي قدمه على شيخه، فلم يكن له بد أن يقضي تلك الحاجة فذهب بنفسه مع ذلك الرجل وآنسه في قلبه وقطع معه تلك الشعبة وهو لا يراه، وطبع الله على الرجلين اللصين فلم يفعلا شيئا فلم يشك ذلك المريد أن شيخه هو الذي قضى حاجته فلما وصل إليه دفع له أربعة مثاقيل وعدة، و الله أعلم.

وسيدي منصور بن أحمد من أهل جبل حبيب وكان أيضاً قطباً يتصرف في أمر البحر، وقال لي الشيخ رضي الله عنه. أما ترى اللحم إذا قطعته ترتعد منه بعض اللحمات أحياناً فقلت نعم، فقال رضي الله عنه: كذلك كانت ذات سيدي منصور رضي الله عنه حين فتح الله عليه ترتعد جواهرها كلها إجلالاً لله تعالى ومهابة وبقيت على ذلك مدة.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إني رأيت سيدنا إبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه الصلاة والسلام يطلب الدعاء الصالح من سيدي منصور رضي الله عنه.

وكم من فائدة علمية عرفانية حكاها لنا الشيخ رضي الله عنه عن هذين القطبين الجليلين سيدي يحيى وسيدي منصور، ولكنا مفرطون فلا نسمع منه في أول معرفتي له إلا خرجت أنا وسيدي يحيى وسيدي منصور وفعلت أنا وسيدي يحيى وسيدي منصور، وقال سيدي يحيى كذا وكذا، وقال سيدي منصور كذا وكذا، فكنا نزهد فيما نسمع حتى ظهر لنا التفريط في أمرنا وعند ذلك وفقنا الله له والحمد لله وله الشكر على تقييد ما سمعته بعد ذلك وضاع ما كان قبل ذلك، فإني ما اشتغلت بالتقييد إلا بعد وفاة هذين السيدين الجليلين رضي الله عنهما، وسيدي محمد السراج من أهل أنجرا من الفحص وكان قطباً أيضاً وسبق كيفية اجتماع الشيخ رضي الله عنه معه وكانت حكاية الشيخ رضي الله عنه قليلة ما أعلمه حكى عنه إلا ثلاث حكايات، قد كتبت التي وقعت له معه في العين التي بدار ابن عمر وقد سبقت، وسيدي أحمد بن عبد الله المصري وكان غوثاً، وسبقت الحكايات التي أوصى بها الشيخ رضي الله عنه في أول الكتاب وسيدي علي بن عيسى المغربي وكان قطباً أيضاً، وكان مسكنه بجبل الدروز من أرض الشام.

وحكى لنا الشيخ رضي الله عنه حكاية طويلة في سبب انتقاله من أرض المغرب إلى أرض الشام، طال عهدي بها وسيدي محمد بن علي الكيموني، وسيدي محمد المغربي وسيدي عبد الله الجراز بجيم معقودة وكان مسكنه بالدير دير مراكش، وزاد في آخر سنة تسع وعشرين وراثة رجل آخر من أكابر الأولياء كما سمعت ذلك منه رضي الله عنه.

واسم الرجل سيدي إبراهيم لملز بفتح اللام وبعدها ميم مسكنة بعدها لام مفتوحة وبعد اللام زاي ساكنة ذكر لي رضي الله عنه اسم هذا الولي، وقال لي اعقل عليه ثم بعد مدة سألني عنه فوجدني قد نسيته فذكره لي مرة أخرى ثم أوصاني عليه ثم بعد مدة أخرى سألني عنه فوجدني أيضاً قد نسيته فذكره لي مرة أخرى وزجرني فقيدت اسمه وعلقت عليه والحمد لله.

قال: وهذا الرجل من أهل الجزائر بجيم معقودة ثم بعد ذلك هبنا أن نسأله عمن ورثه بعد ذلك.

ثم قلت للشيخ رضي الله عنه: وهل يفترق ما ورثه منه.

فقال رضي الله عنه: ورثت من التسعة معرفة الله تعالى وورثت من الأول معرفة الله، ثم ضرب مثالاً بفارس على فرس، وقد اشتاق رجل إلى نعته فلقيه بعض الناس وجعل ينعت له الفرس وصفة قوائمه وكيفية لونه وحالة جريه وأن رقبته طولها كذا وكذا وذكر له جميع حلية الفرس وكيف إجراء الفارس له ولم يذكر من صفة الفارس شيئاً، والفرض أن

نعته للفرس وجريه ليس مجرد خبر بل يحصل معه عيان، ومشاهدة للفرس وجريه ببركة الناعت ثم جاء من ذكر له الفارس ونعته له وذكر له حليته وصفته، وأزال عنه الحجاب حتى شاهده عياناً.

وضرب لي مثلاً آخر مرة أخرى فقال: إن الذي حصل لي من سيدي عمر مثل أن يقول رجل لرجل سر مع هذه الطريق فانك تجد فيها الماء ولم يذكر له أين الماء منها فذهب وهو لا يدري أين الماء حتى جاء من عين له موضع الماء وأوقفه عليه.

وقال لي مرة أخرى: مثل ما حصل لي من سيدي عمر كرجل صاد لرجل صيداً وطرحه بين يديه وذهب وتركه فلم يدر ما يفعل به حتى جاء رجل آخر بنار وحطب وأوقد له النار وأتاه بسكين، وقال له خذ السكين، واقطع بها ما شئت من اللحم وطيب وكل.

فقلت له: وهل كان سيدي عمر من القسم الثاني المفتوح عليهم؟

فقال نعم؟ ولكن فتحه ضعيف، فقلت: وهل يحضر الديوان، فقال نعم، وليس كل من يحضر الديوان يعرف ما فيه وما دخل وما خرج وما زاد وما نقص.

فقلت: كأنه بمثابة مجالس العلم فليس كل من يحضرها يعرف ما فيها.

فقلت: وكيف كان التقاؤك مع سيدي عمر.

فقال: شيخت غير واحد ممن لا سر معه، ثم إن الله تعالى جذب قلبي إلى سيدي عمر وكان يجمعنا سيدي علي بن حرزهم كان هو قيمة ونحن نأخذ صدقته فرمقته فأعجبتني حالته، فجعلت أطلب له الورد وهو يتغافل عني، وأنا أزداد شوقاً وتشوقاً حتى بت معه ليلة بضريح سيدي علي بن حرزهم، فوقعت الحكاية السابقة في تلقين الورد واجتماعه بسيدنا الخضر عليه السلام.

وسئل وأنا حاضر رضي الله عنه عن فائدة الورد الذي يعطيه الأشياخ.

فقال رضي الله عنه للسائل: تسألني عن الصادقين أم عن الكاذبين؟ فقال عن الصادقين فقال رضي الله عنه: فائدته أن الله تعالى حفظ على هذه الأمة دينها بهذه الشريعة المطهرة التي إذا فعلت في الظاهر حفظت الإيمان في الباطن، وأن الشيخ الصادق معمور الباطن بالمشاهدة مع الحق سبحانه وتعالى حتى إن المريد إذا قال لا إله إلا الله قبل أن يلقى الشيخ الكامل يقولها بلسانه وقلبه غافل والشيخ يقولها بالباطن لعظيم مشاهدته، فإذا لقن المريد سرت حالته في المريد فلا يزال يترقى إلى أن يبلغ مقام الشيخ إن قدر الله له ذلك.

ثم ضرب مثلا بالحكاية الشهيرة التي وقعت لملك له ولد عزيز عليه ثم نزل به ضرّ عظيم فجمع الأطباء لدواء ولده وتوعدهم بوعيد شديد إن لم يبرأ ولده، فاتفق الأطباء على أن دواءه في عدم أكل اللحم فذكروا ذلك للولد فأبى عليهم، وقال لا أترك اللحم ولو

خرجت روحي في هذه الساعة، فحار الأطباء ودهشوا في أمره ونزل بهم ما لا يطيقونه حيث امتنع الولد من اتباع سبب الشفاء ولحوا عليه المرة بعد المرة فلم يزده ذلك إلا نفورا، فذهب رجل منهم واغتسل وتضرع إلى الله تعالى ونوى أن لا يأكل اللحم ما دام المريض لا يأكله، ثم جاء إلى المريض فقال له لا تأكل اللحم فامتثل أمره، وسمع قوله وبرىء لحينه فتعجب بقية الأطباء من ذلك فأخبرهم بما فعل.

فقال رضي الله عنه: وأيضاً فإن أهل العرفان من أولياء الله تعالى إذا نظروا إلى ذوات المحجوبين فرأوا ذاتاً طاهرة قابلة لحمل سرهم مطيقة له فإنهم لا يزالون معها بالتربية بتلقين الذكر وغيره ويكون هذا المطيق للسر هو مقصود الشيخ لا غير فإذا جاء إلى الشيخ غيره ممن ليس بمطيق وطلب منه التلقين فإنه لا يمتنع لأنه لا يقطع على أحد فلذا تجد الشيوخ يلقنون كل أحد مطيقاً كان أم لا مع فائدة أخرى تظهر في الآخرة، وذلك أنه ﷺ يكون بيده يوم القيامة لواء الحمد وهو نور الإيمان وجميع الخلائق خلفه من أمته ومن غير أمته مع سائر الأنبياء، وتكون كل أمة تحت لواء نبيها ولواء نبيها يستمد من لواء النبي ﷺ وهم مع أممهم على أحد كتفيه، وأمته المطهرة على الكتف الآخر، وفيها الأولياء بعدد الأنبياء، ولهم ألوية مثل ما للأنبياء، ولهم من الأتباع مثل ما للأنبياء، ويستمدون من النبي ﷺ ويستمد أتباعهم منهم كحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالمريد إذا لم يكن مطبقاً فإنه ينتفع في الآخرة بشيخه الذي لقنه.

قال رضي الله عنه: ولا ينتفع منه بمجرد التلقين فقط، ومطلق تلفظه بالذكر بل حتى يتعلم منه كيفية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وينتفع منه بعض النفع في الباطن.

وسمعت من غير الشيخ رضي الله عنه حكايات تقرب من قصة الأطباء، وهي: أن عبداً مملوكاً لرجل استشفع ببعض أهل الخير ليكلم سيده لعله يعتقه فلم يجبه لذلك حتى مر عليه أزيد من عام ثم ذهب معه إلى سيده فكلمه في عتقه فأجابه إلى ذلك وأعتقه ففرح العبد بالحرية واستبشر بها، وقال للشفيع تأخرت بشفاعتك هذه المدة ولو كلمته في أول ما رغبتك لأعتقني وكان أجر هذه المدة في ميزانك فما الذي حملك على التأخير حتى مضت هذه المدة؟ فقال الشفيع أنا لا أكلم أحداً في أمر إلا إذا عملت به، ولما رغبتني أن أكلم سيدك لم يكن عندي عبد أعتقه فلم أزل أتكسب في تلك المدة حتى جمعت قيمة رقيق ثم اشتريته وأعتقته. وبعد ذلك كلمت سيدك فقبل رغبتي، ولو أني كلمت سيدك قبل أن أعتق ما ظننته يفعل ما نريد، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في اسم الله العظيم الأعظم: إنه كمال المائة وليس من التسعة والتسعين، وإن كثيراً من معانيه في الأسماء التسعة والتسعين وأنه هو ذكر الذات لا ذكر اللسان، فتسمعه يخرج من الذات كطنين النحاس الصفر وهو ينقل على الذات ولا تطيق الذات ذكره إلا مرة أو مرتين في اليوم.

فقلت: ولم؟ فقال رضي الله عنه: لأنه لا يكون إلا مع المشاهدة التامة وذلك ثقيل على هذه الذات، وإذا ذكرته الذات فقد العالم كله هيبة وجلالاً ومخافة.

قال رضي الله عنه: وكان في السيد عيسى ابن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام قوة على ذكره وكان يذكره في اليوم أربع عشرة مرة، و الله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في أسماء الله الحسنى: إن معانيها حصلت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من مشاهدات، فمن شاهد معنى وضع له اسماً، فالمعاني ظهرت لهم على قدر مشاهدتهم في الله عز وجل، والأسماء خرجت منهم بحسب ذلك.

قال رضي الله عنه: فجميع الأسماء حصلت بوضع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسيدنا إدريس عليه السلام أول من وضع عليماً وقوياً وعظيماً ومناناً، وهكذا كل نبي وضع شيئاً منها ولكنهم وضعوها بلغتهم، ومزية القرآن أنه جمعها كلها وأتى بها مع ذلك بلغة العرب لا بألسنة الأنبياء المتقدمين.

قال رضي الله عنه: وأول من وضع اسم الجلالة أبونا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما نفخ فيه الروح نهض مستوفزا، فقام على رجل واتكأ على ركبة الرجل الأخرى، فحصلت له في تلك الحالة مع ربه مشاهدة عظيمة، فأنطق الله لسانه بلفظ يؤدي الأسرار التي شاهدها من الذات العلية، فقال الله تعالى: وقد خرج في علمه سبحانه وتعالى إنه يتسمى بهذه الأسماء الحسنى فلذا أجراها على لسان أنبيائه وأصفيائه.

قال رضي الله عنه: ولو وضع سيد الوجود ﷺ للمعاني التي حصلت له من مشاهدته التي تطاق أسماء لذاب كل من سمعها ولكنه سبحانه وتعالى لطيف بعباده، والله أعلم.

قلت: وإياك أن تظن أن هذا الكلام فيه مخالفة للعقيدة، وهي أن الأسماء الحسنى قديمة فإن المراد بقدمها قدم معانيها لا ألفاظها الحادثة، لأن كل لفظ عرض وكل عرض فهو حادث لا سيما إذا كان سيالا مثل الألفاظ والأصوات وذلك واضح، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن في اسم الجلالة ثلاثة أسرار.

الأول: أن مخلوقاته تعالى لا حد لها، وأنها مختلفة فتنقسم إلى إنس وجن وحيوان وغير ذلك من الأنواع التي لا يعلمها أكثر الخلق، ومع هذه الكثرة فهو تعالى واحد في ملكه لا مدبر معه ولا وزير له، فهو وحده تعالى يتصرف فيها بجملتها، ولا يفوته منها شيء ولا يخرج عن قدرته تعالى منها واحد فهو قاهر للكل محيط به كما قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾.

الثاني: أنه يتصرف فيها كيف شاء فيغني هذا ويفقر هذا ويعز هذا ويذل هذا، ويجعل هذا أبيض وهذا أسود، ويجيب سؤال هذا ويمنع هذا، ويفرق بينهما في الأزمنة والأمكنة.

وبالجملة فهو كل يوم شأن، ولا يشغله شأن عن شأن والاختيار له، لا للمخلوقات فهو يفعل ما يشاء، لا ما تشاء، سبحانه لا إله إلا هو.

الثالث: أنه تعالى مقدس منزه لا يكيف ولا يشبه بشيء من المخلوقات، ومع ذلك فله السطوة والقهر حتى أنه لولا الحجاب الذي حجب به المخلوقات لرجعوا هباء منثورا، ولتهافتوا وصاروا دكاً رميماً عند تجليه تعالى لهم، بل لا يبقى لهم أثر حتى يقول القائل ما كان في هذا العالم شيء من المخلوقات أصلا، إلا أنه تعالى برحمته وعظيم حكمته لما سبق في قضائه أن يوصل أهل كل دار إليها إذا أراد أن يخلق مخلوقا أي مخلوق كان لا يخلقه حتى يخلق حجابه قبله.

وقال رضي الله عنه: وهذه الأسرار يعلمها أرباب البصيرة من مجرد النطق باسم الجلالة من غير احتياج إلى مشاهدة شيء من المخلوقات.

فقلت: ومن أين ذلك؟ فضرب رضي الله عنه لنا مثلاً فهمنا من معناه أنه إنما كان ذلك من حيث إنه اسم جامع لجميع الأسماء والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: الله تعالى مقدس منزه لا يشبه بشيء من المخلوقات وكل ما يصوره الفكر فالله تعالى بخلاف ذلك

قال رضي الله عنه: لأن كل ما يصوره الفكر فهو موجود في مخلوقات ربنا سبحانه وتعالى لأن الفكر لا يصور إلا ما هو مخلوق فكل ما في الفكر له مثل والله لا مثل له.

فقلت: فإن الفكر يتصور إنساناً مقلوباً يمشي على رأسه.

فقال رضي الله عنه: والله لقد شاهدته يمشي كما تصوره الفكر ويده ساتراً بها فرجه فهي بمنزلة الحجاب له ولا يزيلها إلا إذا أراد قضاء حاجته من حدث أو جماع.

قال رضي الله عنه: ولقد جلست ذات يوم مع سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي، فقال لي: تعال حتى نصور في أفكارنا أغرب صورة، ثم ننظر في مخلوقات الله أهي موجودة أم لا؟ فقلت: صور ما شئت، فقال: نصور مخلوقاً يمشي على أربع وهو على صورة جمل وظهره كله أفواه كأفواه العكروشة التي في جنبها، وعلى ظهره صومعة على لون مخالف للونه صاعدة إلى فوق، وفي رأسها شرافات من شرافة، منها يبول ويتغوط، ومن شرافة أخرى يشرب وبين الشرافات صورة إنسان برأسه ووجهه وجميع جوارحه، فما فرغ من تصويره حتى رأينا هذا المخلوق وله عدد كثير وإذا بالذكر منه ينزو على الأنثى فتحمل منه، وفي عام آخر ينزو عليه الأنثى بأن ينقلب الحال فيرجع الذكر أنثى والأنثى ذكر، قلت: وهذا من أغرب ما يسمع والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه: يتكلم في المشاهدة ويعظم أمرها ويشير إلى عجز أكثر الخلق عنها، ويذكر الأسباب في عجزهم إلى أن حكى لنا عن نفسه حكاية.

فقال رضي الله عنه: لقيت بعض أوليائه تعالى في آخر سنة سبع وعشرين فقلت: أدع الله تعالى لي أن يرزقني مشاهدته، فقال لي: دع عنك هذا ولا تطلبها منه تعالى حتى يكون هو الذي يعطيها لك من غير سؤال، فإنه إن أعطاها لك من غير سؤال أعانك عليها وأعطاك القوة عليها قبل أن تنزل هي بك وإذا جعلت تسألها منه سبحانه وتعالى وتكثر منه، فإنه لا يخيب سؤالك، ولكن تخاف أن يكلك إلى نفسك فتعجز عنها، قال: فقلت اطلبها لي فإني أطيقها.

فقال لي: انظر إلى عالم الأنس فنظرت إليه، فقال: اجمعه كله بين عينيك، حتى يكون في مثل دور الخاتم، فقلت: جمعته فقال: انظر إلى عالم الجن وافعل به كذلك، فقلت: فعلت فقال: انظر إلى عالم الملائكة ملائكة الأرض والسموات والعرش وافعل بهم كذلك، فقلت: فعلت، قال وجعل يعدد العوالم كلها عالماً عالماً حتى عد أنواعاً كثيرة وذكر عالم الجنة وجميع ما فيه، وعالم النيران وجميع ما فيه ويأمرني أن أجمع ذلك بين عيني وأنا أجمعه، وأقول فعلت.

ثم قال: انظر إلى هذا الذي بين عينيك مجموعاً وانظر إليه بنظرة واحدة، واجتهد هل تقدر على استحضار الجميع في تلك النظرة الواحدة ففعلت، فلم أقدر فقال لي أنت لم تطق أن تشاهد هذه المخلوقات وعجزت عن استحضارها في نظرك فكيف مشاهدة الخالق سبحانه وتعالى؟ فعلمت الحق وبكيت بدموع القلب على حرصي على شيء لا أطيقه.

قال رضي الله عنه: واستحضار هذه المخلوقات في نظر واحد لا يطيقه بشر ولا يقدر عليه إنسان.

قال رضي الله عنه: وكذا من يرى النبي ﷺ من أولياء الله تعالى في اليقظة، فإنه يراه حتى يرى هذه العوالم كلها ولكن لا ينظر واحد.

وقال لي رضي الله عنه مرة في أول ما لقيته وتكلمت معه في الروح. أنه لا يحيط بها عاقل ولا يعرف حقيقتها إلا إذا كوشف بالعوالم كلها قبل أن يعرفها، ومتى بقي عليه بعضها ولم يكاشف به ثم كوشف بالروح فإنه يفتتن.

قال رضي الله عنه: ولو جلست مع أنجب عالم وجعل يسألني عن الروح وأنا أجيبه عن سؤالاته فإنه تمر عليه أربع سنين ولا تنقطع اعتراضاته فيها لكثرة إشكالاتها وخفاء أمرها والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يضرب مثلا في كون العبد لا يطيق معرفة ربه سبحانه وتعالى على ما هو عليه في كبريائه وعظمته فيقول: إن الآنية من الفخار لو أمدها الله تعالى بالادراك وسألها سائل عن صانعها المعلم الذي صنعها كيف هو، وكيف طوله وكيف لونه وكيف عقله وكيف إدراكه وكيف سمعه وكيف بصره وكم حياته في هذه الدار وما هي الآلات التي

صنعها بها إلى غير ذلك، من أوصاف المعلم صانعها الظاهرة والباطنة، فإنها لا تطيق معرفة ذلك ولا تطيق ذاتها حمل تلك المعارف ولا يطيق مصنوع أبدا معرفة صفات صانعه على ما هو عليه.

قال رضي الله عنه: فإذا كان هذا العجز في حادث مع حادث. فما بالك بالصانع القديم سبحانه وتعالى، فلا يطيق مخلوق أي مخلوق كان معرفته بالحقيقة، لا في هذه الدار ولا في تلك الدار أبد الآبدين ودهر الداهرين والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الذكر فيه ثقل على الذات أكثر من العبادة، قال والمراد بالذات الذات الخبيثة فإنها مسقية بماء الظلام والذكر يسقيها بالنور وهي لا تقبله بالظلام الذي فيها، فهو يريد أن يقلبها عن طبعها ويخرجها عن حقيقتها كمن يريد أن يجعل في المرأة طبع الرجل، ويجعل في الرجل طبع المرأة، وكمن يريد أن يجعل طعم القمح وحلاوته ومذاقه في غيره من الحبوب، فلا تسأل عن تدبيره وحيرته، قال بخلاف العبادة فإنها شغل لظاهر الذات فهي بمنزلة الخدمة بالفاس فالثقل فيها إنما هو من جهة تعب الذات وكللها والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن في أسمائه تعالى اسماً إذا سقى العبد بنوره بكى دائما فقلت: وما هو؟ فقال القريب فقلت كأنه إنما بكى لأن رجوعه من غفلته إلى ربه بمنزلة من رجع من سفره إلى أعز خلق الله عنده كأمه مثلا فتراه يبكي إذا رآها.

فقال رضي الله عنه: بكاؤه مع أمه محض فرح وسرور ومع ربه عز وجل فيه ذلك، وشيء آخر وهو الحياء العارض له من تذكره مخالفة أوامر ربه زمان غفلته.

قال رضي الله عنه: ومن أسمائه تعالى اسم إذا سقى العبد بنوره ضحك دائما أبدا وكان بمنزلة من جاءه جماعة، ولنفرضهم ستين رجلاً مثلاً فأزالوا ثيابه وجعلوا يدغدغونه ويغمزونه بأصابعهم في مواضع ضحكه وهو بين أيديهم لا يقدر على الخلاص منهم.

فقلت: وما هو هذا الإسم؟ فقال المتعالي ثم أدركتني هيبة منعتني من تمام السؤال الذي في خاطري إذا كان مرادي أن أسأله عن أنوار الأسماء الحسنى كلها.

قال رضي الله عنه: ولا زمان أصعب على الولي من زمان سقيه بأنوار الأسماء لاضطراب ذاته بين مقتضياتها فكل اسم يقتضي منه خلاف ما يقتضيه الآخر.

قال رضي الله عنه: ومنهم من يسقى بواحد فيدوم حكمه عليه من ضحك دائماً وبكاء دائماً أو غير ذلك، ومنهم من يسقي باثنين، ومنهم من يسقي بأكثر من ذلك.

فقلت: وبكم سقيتم أنتم؟ فقال رضي الله عنه وهو الصادق فيما يقول: سقيت بسبعة وتسعين اسماً بالمائة كلها إلا ثلاثة.

فقلت: إنما هي تسعة وتسعون فقال رضي الله عنه: والمكمل للمائة لم يعد فيها لأن الناس لا يطيقونه وهو اسم الله العظيم الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى.

وقد سبق كلامه رضي الله عنه في هذا الاسم وهو دال على معرفته به غاية فإنا رأينا من الأولياء الصادقين رضي الله عنهم ونفعنا بهم وسمعت كلامهم في هذا الإسم الأعظم فما سمعت فيه مثل كلامه رضي الله عنه ولا كتبت فيه كل ما سمعته في شأنه.

قال رضي الله عنه: ولا يسقى بهذا العدد يعني العدد الذي سقى هو به إلا واحد من الأولياء.

قلت: وهو الغوث ثم هذا الذي قاله في أول الأمر.

وسمعت منه في آخر أمره رضي الله عنه: أنه سقي بالعدد كله أعني المائة، وأن السقي بها ينقسم إلى قسمين أحدهما في مقام الروح فمن الأولياء من يسقي بواحد، ومنهم من يسقي بأكثر ولا يكمل المائة كلها إلا الغوث السقي الثاني في مقام السر.

قال رضي الله عنه: ولا يستكمل المائة فيه مخلوق من المخلوقات إلا سيد الوجود ﷺ.

قلت: وفي طي هذا الكلام أسرار وأنوار يعرفها أربابها رزقنا الله رضاهم والله أعلم.

سمعته رضي الله عنه يتكلم على أسمائه تعالى وعلى الذين يذكرونها في أورادهم.

فقال رضي الله عنه: إن أخذوها عن شيخ عارف لم تضرهم وإن أخذوها عن غير عارف ضرتهم.

فقلت وما السبب في ذلك، فقال رضي الله عنه: الأسماء الحسنى لها أنوار من أنوار الحق سبحانه وتعالى، فإذا أردت أن تذكر الاسم فإن كان مع الإسم نوره وأنت تذكره لم يضرك، وإن لم يكن مع الاسم نوره الذي يحجب العبد من الشيطان حضر الشيطان وتسبب في ضرر العبد، والشيخ إذا كان عارفا وهو في حضرة الحق دائماً وأراد أن يعطي اسماً من أسماء الله الحسنى لمريده أعطاه ذلك الإسم مع النور الذي يحجبه فيذكره المريد ولا يضره، ثم هو أي النفع به على النية التي أعطاها الشيخ ذلك الإسم بها فإن أعطاه بنية إدراك الدنيا أدركها أو بنية إدراك الآخرة أدركها، أو بنية معرفة الله تعالى أدركها.

وأما إن كان الشيخ الذي يلقن الاسم محجوباً فإنه يعطي مريده مجرد الاسم من غير نور حاجب فيهلك المريد نسأل الله السلامة.

فقلت: فالقرآن العزيز فيه الأسماء الحسنى وحملته يتلونه ويتلون الأسماء الحسنى التي فيه دائما ولا تضرهم، فما السبب في ذلك؟ مع أنهم لا يأخذونها عن شيخ عارف.

فقال رضي الله عنه سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ أرسله الله بالقرآن لكل من بلغه القرآن من زمانه ﷺ إلى يوم القيامة، فكل تال للقرآن فشيخه فيه هو النبي ﷺ، فهذا سبب حجب حملة القرآن نفعنا الله بهم، ثم هو ﷺ لم يعط لأمته الشريفة القرآن إلا بقدر ما يطيقونه ويعرفونه من الأمور الظاهرة التي يفهمونها، ولم يعطهم القرآن بجميع أسراره وأنواره وأنوار الأسماء التي فيه، ولو كان أعطاهم ذلك بأنواره لما عصى أحد من أمته الشريفة ولكانوا كلهم أقطاباً ولما تضرر أحد بالأسماء قط.

قال رضي الله عنه: وفي سورة (يسٓ) اسمان: في أولهما وهما (العزيز الرحيم) واسمان في وسطها وهما (العزيز العليم) وفي (صٓ) اسمان وهما (العزيز الوهاب) وهذه الأسماء صالحة لخير الدنيا وخير الآخرة.

قال رضي الله عنه: وفي سورة الملك قوله تعالى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وهو نافع لمن نزل به فقر أو ضر أو جهل أو بلاء أو معصية، فإذا أكثر من تلاوة الآية فإن الله تعالى بمنه وفضله وكرمه يعافيه مما نزل به، والله أعلم.

قلت: وقد شاهدت بعض أصحابنا ممن نزل به الحب المعروف عند العامة بالبيش من الأدواء المعضلة فجاء إلى الشيخ رضي الله عنه وهو في قيد حياته فشكا له ذلك وخاف منه خوفاً شديداً، فأمره رضي الله عنه بتلاوة الآية الشريفة فرفعه الله عنه من حيث لا يحتسب، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في سبب الحضرة: إن الحضرة لم تكن في القرن الأول يعني قرن الصحابة، ولا في القرن الثاني، يعني قرن التابعين ولا في القرن الثالث، يعني قرن تابع التابعين وهذه القرون الثلاثة، هي خير القرون كما شهد به الحديث الشريف.

وسبب ذكره لهذا الكلام أن سائلا سأله عن الحضرة، قال رضي الله عنه: فكرهت أن أجيبه بصريح الحق وأنا عامي فلا يقبله مني.

فقلت: هذه المسألة يسأل عنها علماؤنا رضي الله عنهم، هل فعلها النبي ﷺ أو لم يفعلها قط، فإن قالوا لم يفعلها قط، سألناهم هل فعلها أبو بكر رضي الله عنه أو لم يفعلها قط، فإن قالوا لم يفعلها قط، سألناهم هل فعلها عمر رضي الله عنه أو لم يفعلها قط، فإن قالوا لم يفعلها قط، سألناهم هل فعلها عثمان رضي الله عنه أو لم يفعلها قط، فإن قالوا لم يفعلها قط، فإن قالوا لم يفعلها قط، سألناهم هل فعلها علي رضي الله عنه أو لم يفعلها قط، سألناهم هل فعلها أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين أو لم يفعلها أحد منهم قط، فإن قالوا لم تثبت عن واحد منهم، سألناهم هل فعلها التابعون أو لم يفعلها أحد منهم

قط، فإن قالوا لم تثبت عن واحد منهم سألناهم هل فعلها من أتباع التابعين أحد أو لم يفعلها قط، فإن قالوا لم تثبت عن واحد منهم علمنا أن ما لم يفعله هؤلاء القرون الثلاثة لا خير فيه.

قال رضي الله عنه: وإنما ظهرت الحضرة في القرن الرابع. وسببها أن أربعة أو خمسة من أولياء الله تعالى ومن المفتوح عليهم كان لهم أتباع وأصحاب وكانوا رضي الله عنهم في بعض الأحيان ربما شاهدوا عباد الله من الملائكة وغيرهم يذكرون الله تعالى، قال: والملائكة عليهم الصلاة والسلام منهم من يذكر الله بلسانه وبذاته كلها، فترى ذاته تتحرك يمينا وشمالا، وتتحرك أماماً وخلفاً، فكان الولي من هؤلاء الخمسة إذا شاهد ملكاً على هذه الحالة تعجبه حالته فتتأثر ذاته بالحالة التي يشاهدها من الملك، ثم تتكيف ذاته بحركة الملك فتتحرك ذاته كما تتحرك ذات الملك، وتحكي ذاته ذات الملك وهو لا شعور له بما يصدر منه لغيبته في مشاهدة الحق سبحانه، ولا شك في ضعف من هذه حالته وعدم قوته، فإذا رآه أتباعه وتتحرك بتلك الحركة تبعوه، فهو يتحرك لحركة الملك وهم يتحركون لحركته ويتزيون بزيه الظاهر، ثم هلك الأشياخ الخمسة أهل الباطن والصدق رضي الله عنهم، فاشتغل أهل الزي الظاهر بالحضرة وزادوا في حركتها وجعلوا لها آلة وتكلفوا لها وتوارثتها الأجيال جيلا بعد جيل فقد علمت أن سببها ضعف من الأشياخ المذكورين أوجب لهم عدم ضبط ظواهرهم وأهل القرون الثلاثة رضي الله عنهم لم تكن في أزمنتهم ولا سمعت عن أحد منهم والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في نظر البصيرة: إن فيه ثلثمائة ألف جزء وستة وستين ألف جزء جزء واحد منها في نظر العين والباقي من الأجزاء في ذات العارف الوارث الكامل، فينظر بذاته كما ينظر أحدنا بعينه ولكن نظره بمجموع الأجزاء كلها، قال وهذا لا يكون إلا لرجل واحد يعني به الغوث الذي تحته الأقطاب السبعة، فقال بعض الحاضرين وكنا بداره بمدينة تطاون وكان لا يعرف مقام الشيخ رضي الله عنه: إن سيدي عبد الوهاب الشعراني ذكر أنه اجتمع في الملكوت: سيدي عبد القادر الجيلاني وسيدي أحمد بن حسين الرفاعي، وسيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنهم أجمعين، ووقعت لهم حكاية في ذلك العالم، فذكرها سيدي إبراهيم لبعض أصحابه فقالوا يا سيدي من يشهد لك، وكان بمصر مع أصحابه والشيخان الآخران بالعراق، فقال سيدي إبراهيم ها هما يشهدان بذلك يشير إلى الشيخين، فحضرا في الحين وشهدا له، فقال الرجل: فهؤلاء ثلاثة وكلهم كمل.

فقال الشيخ رضي الله عنه: تلك الحكاية يفعلها أضعف ما في الأولياء ولقد رأيت وليا بلغ مقاماً عظيماً وهو أنه يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة والوحوش والحشرات والسموات ونجومها والأرضين وما فيها وكرة العالم بأسرها تستمد منه ويسمع أصواتها وكلامها في لحظة واحدة، ويمد كل واحد بما يحتاجه ويعطيه ما يصلحه من غير أن يشغله

هذا عن هذا، بل أعلى العالم وأسفله بمنزلة من هو في حيز واحد عنده ثم يرحم هذا الولي فينظر فيرى مدده من غيره وهو النبي ﷺ، ويرى مدد النبي ﷺ من الحق سبحانه فيرى الكل منه تعالى.

قال: وسمعت هذا الولي يقول: إذا نظرت إلى كون المدد من غيري أجد نفسي كالضفدع والخلق كلهم أقوى مني وأقدر قلت: وهذه صفة شيخنا رضي الله عنه غوث الزمان والأقطاب السبعة تحته.

وقال لي رضي الله عنه مرة: إني أرى السموات السبع والأرضين السبع والعرش داخلة في وسط ذاتي، وكذا ما فوق العرش من السبعين حجاباً وفي كل حجاب سبعون ألف عالم، وبين كل حجاب وحجاب سبعون ألف عام، وكل ذلك معمور بالملائكة الكرام وكذا ما فوق الحجب السبعين من عالم الرقا بتشديد الراء وتشديد القاف بعدها فكل هؤلاء المخلوقات لا يقع في فكرهم شيء فضلاً عن جوارحهم إلا بإذن رجل رحمه الله تعالى.

قلت: ولهذا الكلام شرح يعرفه أربابه رزقنا الله رضاهم، وجعلنا من زمرتهم وحزبهم آمين آمين آمين يا رب العالمين.

وأما قوله رضي الله عنه: إن أصغر الأولياء يفعل تلك الحكاية فقد صدق رضي الله عنه في ذلك، فقد شاهدت من أخذ في بداية الفتح وأوائل الكشف يفعل مثل ذلك مع كونه إلى الآن ما صح له إيمان الصوفية رضي الله عنهم أجمعين.

وسألته رضي الله عنه، فقلت: وموروثه ﷺ له مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ذات فما باله لم يرثها الغوث كلها؟.

فقال رضي الله عنه: لا يطيق أحد ما يطيقه النبي ﷺ، ومعنى الوراثة في الغوث، أنه ليس ثم ذات شربت من ذات النبي ﷺ مثل ذات الغوث رضي الله عنه والله أعلم.

الباب السابع
في تفسيره رضي الله عنه
لبعض ما أشكل علينا من كلام الأشياخ رضي الله عنهم

فمن ذلك أنه شرح لنا رضي الله عنه بعض الألفاظ من صلاة القطب الكامل الوارث الواصل مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه.

فسمعته رضي الله عنه يقول: في شرح قوله (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار) حاكياً عن سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي رضي الله عنه، أن الله تعالى لما أراد إخراج بركات الأرض وأسرارها مثل ما فيها من العيون والآبار والأنهار والأشجار والثمار والأزهار، أرسل سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك، ثلاث سبعينات من الألوف فنزلوا يطوفون في الأرض، فالسبعون الأولى يذكرون اسم النبي ﷺ، ومرادنا بالاسم الاسم العالي على ما يأتي في شرح (وتنزلت علوم آدم) والسبعون الثانية يذكرون قربه ﷺ من ربه عز وجل ومنزلته ﷺ منه، والسبعون الثالثة تصلي عليه ﷺ ونوره ﷺ مع الطوائف الثلاث، فتكونت الكائنات ببركة ذكر اسمه ﷺ وحضوره بينها مشاهدتها قربه ﷺ من ربه عز وجل، قال: وذكروه على الأرض فاستقرت، وعلى السموات فاستقلت، وعلى مفاصل ذات ابن آدم فلانت بإذن الله تعالى، وعلى مواضع عينيه ففتحت بالأنوار التي فيها، فهذا معنى قوله: منه انشقت الأسرار.

فقلت: فهذا معنى قول دلائل الخيرات وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم وعلى النهار فاستنار وعلى السموات فاستقلت وعلى الارض فاستقرت وعلى الجبال فرست وعلى البحار فجرت وعلى العيون فنبعت وعلى السحاب فأمطرت.

فقال رضي الله عنه: نعم ذلك الاسم هو اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ فببركته تكونت الكائنات، والله أعلم.

قلت: وقد سبق كلام سيدي أحمد بن عبد الله الغوث رضي الله عنه، وقوله لمريده يا ولدي لولا نور سيدنا محمد ﷺ ما ظهر سر من أسرار الأرض، فلولا هو ما تفجرت عين من العيون، ولا جرى نهر من الأنهار، وإن نوره ﷺ يا ولدي يفوح في شهر مارس ثلاث مرات على سائر الحبوب، فيقع لها الإثمار ببركته ﷺ، ولولا نوره ﷺ ما أثمرت، ويا ولدي إن أقل الناس إيمانا من يرى إيمانه على ذاته مثل الجبل وأعظم منه، فأحرى غيره، وإن الذات تكلّ أحيانا عن حمل الإيمان فتريد أن ترميه فيفوح نور النبي ﷺ عليها فيكون معينا *لها* على حمل الإيمان فتستحيله وتستطيبه فراجعه في أول الكتاب والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول في شرح: من منه انشقت الأسرار أنه لولا هو ﷺ ما ظهر تفاوت الناس في الجنة والنار، ولكانوا كلهم على مرتبة واحدة فيهما، وذلك أنه تعالى لما خلق نوره ﷺ، وسبق في سابق علمه تفاوت الناس في قبوله والميل عنه، ظهر ذلك عليهم حيث خلق ذلك النور، فعلم هناك أن منهم من يبلغ من الخشوع درجة كذا، ومن المعرفة درجة كذا، ومن الخوف درجة كذا وأن لون كذا من نوع كذا وفلانا شرب منه نوعا آخر قبل ظهورهم وهم في عدم العدم.

قال رضي الله عنه: فتفاوت المراتب وتباينها هو معنى انشقاق الأسرار منه ﷺ، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول في شرح من منه انشقت الأسرار: إن أسرار الأنبياء والأولياء وغيرهم كلها مأخوذة من سر سيدنا محمد ﷺ فإن له سرين: أحدهما في المشاهدة وهو موهوب، والآخر يحصل من هذا السر وهو مكسوب فلنفرض المشاهدة بمثابة ثوب ما بقي صاحب حرفة من الحرف إلا وصنع فيه شيئاً من صنعته، ولنفرض صاحب المشاهدة كشارب لذلك الثوب بأسره، فإذا شرب الخيط الذي صنعه الحرار مثلاً أمده الله تعالى بمعرفة صناعة الحرير، وكل ما تحتاج إليه في أمورها وشؤونها كلها، وإذا شرب الخيط الذي صنعه النساج مثلاً أمده الله تعالى بصناعة النسج، ومعرفة جميع ما تتوقف عليه، وهكذا حتى تأتي على سائر الصنائع والحرف التي نعرفها والتي لا نعرفها، فهكذا مشاهدته ﷺ نفرضها مشتملة على جميع المعارف التي سبقت بها إرادته تعالى.

قلت: ووجه الشبه بينها وبين الثوب السابق تباين الأمور، ففي الثوب السابق تباينت فيه الصنائع والحرف، وفي المشاهدة الشريفة تباينت فيه الأسماء الحسنى وظهرت فيها أسرارها وأنوارها.

ووجه آخر أن الصنائع المتباينة اجتمعت كلها في الثوب السابق، وكذا أنوار الأسماء الحسنى كلها اجتمعت في مشاهدته ﷺ.

ووجه آخر أن تلك الصنائع المتباينة بمعرفتها يقع التصرف في موضوعاتها وكذا الأسماء الحسنى بالسقي بأنوارها يقع التصرف في هذا العالم، فوجه الشبه حينئذ مركب من مجموع هذه الأشياء الثلاثة، وهي تباين الأمور في شيء مع استيفائها وكون التصرف يضاف إليها والله أعلم.

ثم قال رضي الله عنه: فتكون ذاته ﷺ مشتملة على جميع ما يلزم في تلك المشاهدة وممدودة بسائر أسرارها من رحمة الخلق ومحبتهم والعفو عنهم والصفح والحلم والدعاء لهم بخير لعل الله تعالى يقويهم على الإيمان بالله عز وجل.

قال رضي الله عنه: وبهذا كان ﷺ يدعو لأبي بكر الصديق رضي الله عنه والناس اليوم لا يعرفون قيمة هذا الدعاء.

قلت: يعني لما فرضنا المشاهدة مشتملة على سائر الأسماء الحسنى، وفرضنا صاحبها ﷺ كالشارب السابق للثوب السابق، لزم قطعا أن تكون ذاته ﷺ مسقية بجميع أنوار الأسماء الحسنى وممدودة بأسرارها، فيكون في ذاته ﷺ نور الصبر ونور الرحمة ونور الحلم ونور العفو ونور المغفرة ونور العلم ونور القدرة ونور السمع ونور البصر، ونور الكلام، وهذا حتى تأتي على جميع الأسماء الحسنى، فتكون أنوارها في الذات الشريفة على الكمال.

ثم قال الشيخ رضي الله عنه: فنلتفت إلى غيره من الملائكة والأنبياء والأولياء، فنجدهم قد تفرق فيهم بعض ما في الذات الشريفة مع كون السقي وصل إليهم من الذات الشريفة، فالأسرار الموجودة في ذواتهم انشقت منه ﷺ، حتى إني سمعته رضي الله عنه يقول: لولا الدم الذي في الذات واللحم والعروق المانع من معرفة حقائق الأمور، لم يتكلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منذ وجدوا إلى أن ظهر نبينا ﷺ إلا بأمر نبينا ﷺ، فلا تكون إشارتهم إلا إليه، ولا تكون دلالتهم إلا عليه، حتى أنهم يصرحون لكل من تبعهم بأنهم إنما ربحوا منه، وأن مددهم جميعا إنما هو منه ﷺ، وأنهم في الحقيقة نائبون عنه لا مستقلون، وأنهم بمنزلة أولاده ﷺ، وهو ﷺ بمنزلة الأب لهم، حتى يكون الخلق كلهم فيه سواء، ودعوة الجميع إليه ﷺ واحدة، فإن هذا هو الكائن في نفس الأمر والأمم الماضية بمجرد موتهم وانفصالهم عن هذه الدار يعلمونه يقينا وفي الآخرة يظهر لهم عيانا، وعند دخول الجنة يقع الفصل بينهم وبين الجنة حيث تنكمش عنهم وتنقبض وتقول لهم لا أعرفكم لستم من نور محمد ﷺ فيقع الفصل بأنهم وإن سبقوا عليه، فهم ممتدون من أنبيائهم وأنبياؤهم عليهم السلام ممتدون من النبي ﷺ، فإذن الجميع ممتد منه ﷺ.

قال رضي الله عنه: لولا الدم وما سبق في الإرادة الأزلية لكان هذا الواقع في دار الدنيا.

فقلت: ولم منع هذا الدم من معرفة الحق؟.

فقال رضي الله عنه: لأنه يجذب الذات إلى أصلها الترابي ويميل بها إلى الأمور الفانية فتتشوف للبناء والغرس ولجمع الأموال وغير ذلك، يميل بها إلى ذلك في كل لحظة وهو عين الغفلة والحجاب عنه تعالى، ولولا ذلك الدم لم تلتفت الذات إلى شيء من هذه الأمور الفانية أصلا.

قلت: ولا يخفي أن حجابيته تختلف فهي كثيفة في حق العوام ضعيفة في حق الخواص وتقرب من الانتفاء في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنتفية رأسا في حق سيد الأولين والآخرين ﷺ وقد سبق ما يدل على ذلك في الكتاب والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله: وانفلقت الأنوار، إن أول ما خلق الله تعالى

نور سيدنا محمد ﷺ ثم خلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها، ثم خلق اللوح، ثم قبل كماله وانعقاده خلق العرش والأرواح والجنة والبرزخ.

أما العرش فإنه خلقه الله تعالى من نوره، وخلق ذلك النور من النور المكرم وهو أي النور المكرم نور نبينا ومولانا محمد ﷺ، وخلقه أي العرش ياقوته عظيمة لا يقاس قدرها وعظمها، وخلق في وسط هذه الياقوتة جوهرة فصار مجموع الياقوتة والجوهرة كبيضة بياضها هو الياقوتة وصفارها هو الجوهرة، ثم إن الله تعالى أمد تلك الجوهرة وسقاها بنوره ﷺ، فجعل يخرق الياقوتة ويسقي الجوهرة، فسقاها مرة ثم مرة ثم مرة إلى أن انتهى إلى سبع مرات فسالت الجوهرة بإذن الله تعالى فرجعت ماء ونزلت إلى أسفل الياقوتة التي هي العرش.

ثم إن النور المكرم الذي خرق العرش إلى الجوهرة التي سالت ماء لم يرجع فخلق الله منه ملائكة ثمانية وهم حملة العرش، فخلقهم من صفائه وخلق من ثقله الريح وله قوة وجهد عظيم، فأمرها تعالى أن تنزل تحت الماء فسكنت تحته فحملته ثم جعلت تخدم وجعل البرد يقوى في الماء، فأراد الماء أن يرجع إلى أصله ويجمد فلم تدعه الرياح بل جعلت تكسر شقوقه التي تجمد وجعلت تل الشقوق تتعفن ويدخلها الثقل والنتونة وشقوق تزيد على شقوق، ثم جعلت تكبر وتتسع وذهبت إلى جهات سبع وأماكن سبع فخلق الله منه الأرضين السبع ودخل الماء بينها وبين البحور وجعل الضباب يتصاعد من الماء لقوة جهد الريح ثم جعل يتراكم فخلق الله منه السموات السبع.

ثم جعلت الريح تخدم خدمة عظيمة على عادتها أولاً وآخراً فجعلت النار تزيد في الهواء من قوة حرق الريح للماء والهواء، وكلما زندت نار أخذتها الملائكة وذهبت بها إلى محل جهنم اليوم فذلك أصل جهنم، فالشقوق التي تكونت منها الأرضون تركوها على حالها، والضباب التي تكونت منه السموات تركوه على حاله أيضا، والنار التي زندت في الهواء أخذوها ونقلوها إلى محل آخر لأنهم لو تركوها لأكلت الشقوق التي منها الأرضون السبع والضباب الذي منه السموات السبع بل وتأكل الماء وتشربه بالكلية لقوة جهد الريح.

ثم إن الله تعالى خلق ملائكة الأرضين من نوره ﷺ، وأمرهم أن يعبدوه عليها، وخلق ملائكة السموات من نوره ﷺ، وأمرهم أن يعبدوه عليها.

وأما الأرواح والجنة إلا مواضع منها، فإنها أيضاً خلقت من نور وخلق ذلك النور من نوره ﷺ.

وأما البرزخ فنصفه الأعلى من نوره ﷺ، فخرج من هذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السموات والأرضين كلها خلقت من نوره ﷺ بلا واسطة وأن العرش والماء والجنة والأرواح خلقت من نور خلق من نوره ﷺ.

ثم بعد هذا فلهذه المخلوقات أيضاً سقى من نوره ﷺ.

أما القلم فإنه سقى سبع مرات سقياً عظيماً وهو أعظم المخلوقات بحيث أنه لو كشف نوره لجرم الأرض لتدكدكت وصارت رميما وكذا الماء فإنه سقى سبع مرات، ولكن ليس كسقي القلم

وأما الحجب السبعون فإنها في سقي دائم.

وأما العرش فإنه سقي مرتين مرة في بدء خلقه ومرة عند تمام خلقه لتستمسك ذاته، وكذا الجنة فإنها سقيت مرتين: مرة في بدء خلقها ومرة بعد تمام خلقها لتستمسك ذاتها.

وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا سائر المؤمنين من الأمم الماضية ومن هذه الأمة فإنهم سقوا ثمان مرات:

الأولى: في عالم اللأواح حين خلق الله نور الأرواح جملة فسقاه.

الثانية: حين جعل يصور منه الأرواح فعند تصوير كل روح سقاها بنوره ﷺ.

الثالثة: يوم ﴿ألست بربكم﴾ فإن كل من أجاب الله تعالى من أرواح المؤمنين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سقى من نوره ﷺ لكن منهم من سقي كثيراً ومنهم من سقي قليلا فمن هنا وقع التفاوت بين المؤمنين حتى كان منهم أولياء وغيرهم.

وأما أرواح الكفار فإنها كرهت شرب ذلك النور وامتنعت منه فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والارتقاءات السرمدية ندمت وطلبت سقيا فسقيت من الظلام والعياذ بالله.

الرابعة عند تصويره في بطن أمه وتركيب مفاصله وشق بصره، فإن ذاته تسقى من النور الكريم لتلين مفاصله وتنفتح أسماعها وأبصارها، ولولا ذلك ما لانت مفاصلها. .

الخامسة: عند خروجه من بطن أمه فإنه يسقى من النور الكريم ليلهم الأكل من فمه ولولا ذلك ما أكل من فمه أبدا.

السادسة: عند التقامه ثدي أمه في أول رضعه فإنه يسقي من النور الكريم أيضاً.

السابعة: عند نفخ الروح فيه، فإنه لولا سقي الذات بالنور الكريم ما دخلت فيها الروح أبدا، ومع ذلك فلا تدخل فيها إلا بكلفة عظيمة وتعب يحصل للملائكة معها ولولا أمر الله تعالى لها ومعرفتها به ما قدر ملك على إدخالها في الذات.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: مثل الملائكة الذين يريدون أن يدخلوا الروح في الذات كعبيد صغار لملك يرسلها إلى الباشا العظيم إلى السجن، فإذا نظرنا إلى *الغلمان الصغار وإلى الباشا العظيم* وجدناهم لا يقدرون على معالجة الباشا في أمر من

الأمور، وإذا نظرنا إلى الملك الذي أرسلهم وأنه الحاكم في الباشا وغيره حكمنا بأنه يجب أن يذل لهم الباشا وغيره، وإذا أرادوا إدخالها في الذات حصل لها كرب عظيم وانزعاجات كثيرة وتجعل ترغرغ بصوت عظيم فلا يعلم ما نزل بها إلا الله تعالى، والله أعلم.

الثامنة: عند تصويره عند البعث فإنه يسقى من النور الكريم لتستمسك ذاته.

قال رضي الله عنه: فهذا السقي في هذه المرات الثمان اشترك فيه الأنبياء والمؤمنون من سائر الأمم ومن هذه الأمة، ولكن الفرق حاصل، فإن ما سقي به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قدر لا يطيقه غيرهم، فلذلك حازوا درجة النبوة والرسالة.

وأما غيرهم فكل سقي بقدر طاقته.

وأما الفرق بين سقي هذه الأمة الشريفة وبين سقي غيرها من سائر الأمم، فهو أن هذه الأمة الشريفة سقيت من النور الكريم، بعد أن دخل في الذات الطاهرة وهي ذاته ﷺ، فحصل له من الكمال ما لا يكيف ولا يطاق لأن النور الكريم أخذ سر روحه الطاهرة وسر ذاته الطاهرة ﷺ، بخلاف سائر الأمم فإن النور في سقيها إنما أخذ سر الروح فقط، فلهذا كان المؤمنون من هذه الأمة الشريفة كملا وعدولا وسطا وكانت هذه الأمة.

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ولله الحمد والشكر.

قال رضي الله عنه: وكذا سائر المخلوقات سقيت من النور الكريم، ولولا النور الكريم الذي فيها ما انتفع أحد منها بشيء.

قال رضي الله عنه: ولما نزل سيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى الأرض كانت الأشجار تتساقط ثمارها في أول ظهورها، فلما أراد الله تعالى إثمارها سقاها من نوره الكريم ﷺ فمن ذلك اليوم جعلت تثمر، ولقد كانت قبل ذلك كلها ذكارا تنفتح ثم تتساقط، ولولا نوره ﷺ الذي في ذوات الكافرين فإنها سقيت به عند تصويرها في البطون عند نفخ الروح وعند الخروج وعند الرضاع لخرجت إليهم جهنم وأكلتهم أكلا، ولا تخرج إليهم في الآخرة وتأكلهم حتى ينزع منهم ذلك النور الذي صلحت به ذواتهم والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: لما خلق الله تعالى النور المكرم وخلق بعده القلم والعرش واللوح والبرزخ والجنة، وخلق الملائكة الذين هم سكان العرش والجنة والحجب، قال العرش يا رب لم خلقتني؟ فقال الله تعالى لأجعلك حجابا تحجب أحبابي من أنوار الحجب التي فوقك، فإنهم لا يطيقونها لأني أخلقهم من تراب، ولم يكن في ذلك الوقت أعداء ولا دارهم التي هي جهنم، فظن الملائكة أن أحبابه الذين يخلقهم الله تعالى من تراب يخلقهم في الجنة ويسكنهم فيها ويحجبهم بالعرش.

ثم خلق الله تعالى نور الأرواح جملة فسقاه من النور المكرم، ثم ميزه الله تعالى قطعاً قطعاً فصوّر من كل قطعة روحاً من الأرواح، وسقاهم عند التصوير من النور المكرم أيضا، ثم بقيت الأرواح على ذلك مدة، فمنهم من استحلى ذلك الشراب، ومنهم من لم يستحله، فلما أراد الله تعالى أن يميز أحبابه من أعدائه وأن يخلق لأعدائه دارهم التي هي جهنم جمع الأرواح وقال لهم: ﴿ألست بربكم﴾ فمن استحلى ذلك النور وكانت منه إليه رقة وحنو عليه أجاب محبة ورضا، ومن لم يستحله أجاب كرها وخوفا فظهر الظلام الذي هو أصل جهنم فجعل الظلام يزيد في كل لحظة، وجعل النور أيضا يزيد في كل لحظة، فعند ذلك علموا قدر النور المكرم حيث رأوا من لم يستحله استوجب الغضب وخلقت جهنم من أجلهم والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول مرة أخرى: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن سقوا من نوره لم يشربوه بتمامه بل كل واحد يشرب منه وما يناسبه وكتب له، فإن النور المكرم ذو ألوان كثيرة وأحوال عديدة وأقسام كثيرة فكل واحد شرب لونا خاصا ونوعا خاصا.

قال رضي الله عنه: فسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام شرب من النور المكرم، فحصل له مقام الغربة، وهو مقام بحمل صاحبه على السياحة وعدم القرار في موضع واحد.

وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام شرب من النور المكرم فحصل له مقام الرحمة والتواضع مع المشاهدة الكاملة، فتراه إذا تكلم مع أحد يخاطبه بلين ويكلمه بتواضع عظيم فيظن المتكلم أنه يتواضع له، وهو إنما يتواضع لله عز وجل لقوة مشاهدته.

وسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام شرب من النور المكرم فحصل له مقام مشاهدة الحق سبحانه في نعمه وخيراته وعطاياه التي لا يقدر قدرها وهكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنما ظهر الخير لأهله ببركته ﷺ، وأهل الخير هم الملائكة والأنبياء والأولياء وعامة المؤمنين.

فقلت: وكيف يفرق بينهم؟.

فقال رضي الله عنه: الملائكة ذواتهم من النور وأرواحهم من النور والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذواتهم من تراب وأرواحهم من نور، وبين الروح والذات نور آخر، هو شراب ذواتهم وكذا الأولياء، غير أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام زادوا عليهم بدرجة النبوة التي لا تكيف ولا تطاق.

وأما عوام المؤمنين فلهم ذوات ترابية وأرواح نورانية، ولذواتهم شبه عرق من ذلك *النور الذي للأولياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.*

فقلت: وما نسبة هذه الأنوار من نور نبينا محمد ﷺ، وكيف استمدادها منه؟ فضرب رضي الله عنه مثلا عاميا على عادته نفعنا الله به وقال: كمن جوع جماعة من القطط مدة حتى اشتاقوا للأكل اشتياقاً كثيراً ثم طرح خبزة بينهم فجعلوا يأكلون منها أكلا حثيثا والخبزة لا ينقص منها قلامة ظفر، فكذا نوره ﷺ تستمد منه العوالم ولا ينقص شيء والحق سبحانه وتعالى يمده بالزيادة دائماً، ولا تظهر فيه الزيادة بأن يتسع فراغها بل الزيادة باطنه فيه لا تظهر أبدا كما أن النقص لا يظهر، فهذا النور المكرم تستمد منه الملائكة والأنبياء والأولياء والمؤمنين والمدد مختلف كما سبق، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: أنوار الشمس والقمر والنجوم مستمدة من نور البرزخ ونور البرزخ مستمد من النور المكرم ومن نور الأرواح التي فيه، ونور الأرواح مستمد من نوره صلى عليه وسلم.

قال رضي الله عنه: وإنما ظهرت الأنوار فيها عند قرب خلق آدم وبعد خلق الأرض وجبالها، فكانت الملائكة والأرواح يعبدون الله تعالى فلم يفجأهم إلا والأنوار ظهرت في الشمس والقمر والنجوم، ففر الملائكة الذين في الأرض من نور الشمس إلى ظل الليل فجعلت الشمس تنسخه وهم يذهبون معه إلى أن عادوا إلى المكان الذي بدءوا منه، وحصل لهم هول عظيم، وظنوا أن ذلك حدث لأمر عظيم، فاجتمع ملائكة كل أرض في أرضهم وفعلوا ما سبق. وأما ملائكة السموات والأرواح التي في البرزخ فإنهم لما رأوا ملائكة الأرض فعلوا ما فعلوا نزلوا معهم إلى الأرض، فأما أرواح بني آدم فوقفوا مع ملائكة الأرض الأولى واجتمع الجميع من ملائكة الأرض والسموات والأرواح على تلك الليلة، فلما رجعت الشمس إلى موضعها الأول ولم يحدث شيء أمنوا فرجعوا إلى مراكزهم ثم صاروا يفعلون ذلك كل عام فهذا سبب ليلة القدر والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله (وفيه ارتقت الحقائق): إن المراد بالحقائق أسرار الحق تعالى التي فرقها في خلقه وهي ثلثمائة وستة وستون سرا، ظهرت في الحيوانات على ما أراد الحق سبحانه، وظهرت في الجمادات كذلك، وهكذا سائر المخلوقات.

قال رضي الله عنه: ففي النبات مثلا سر منها وهو النفع فهذا النفع حقيقة من حقائق الحق سبحانه أي المتعلقة به، لأن كل حق فهو متعلق به سبحانه كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، ثم هذا النفع ارتقى في النبي ﷺ وبلغ مقاماً لم يكن لغيره. ألا ترى النفع السابق في استمداد المكونات كلها من نوره ﷺ ولم يثبت هذا لمخلوق.

قال رضي الله عنه: وفي الأرض مثلا سر الحمل لما فيها وهو حقيقة من حقائق الحق سبحانه، وقد ارتقى في النبي ﷺ إلى حد لا يطاق، حتى أنه لو جعل ما فيه من الأسرار والمعارف على المخلوقات لتهافتوا ولم يطيقوا ذلك، وفي أهل المشاهدة مثلا سر من

الأسرار، وهو أنهم لا يغفلون عنه تعالى طرفة عين، وهذا المعنى ارتقى فيه النبي ﷺ إلى حد لا يطاق، كما سبق في مشاهدته الشريفة، وفي الصديقين سر من أسرار الحق سبحانه وهو الصدق، وقد ارتقى في النبي ﷺ إلى حد لا يطاق، وفي أهل الكشف سر من أسرار الحق سبحانه وهو معرفة الحق على ما هو عليه وقد ارتقى في النبي ﷺ إلى حد لا يبلغ كنهه.

وبالجملة فارتقاء الحقائق على قدر السقى من أنوار الحق سبحانه.

ولما كان النبي ﷺ هو الأصل في الأنوار ومنه تفرقت لزم أن الحقائق ارتقت فيه على قدر نوره ونوره لا يطيقه أحد، فارتقاء الحقائق الذي فيه لا يطيقه أحد والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله وتنزلت علوم آدم: إن المراد بعلوم آدم ما حصل له من الأسماء التي علمها المشار إليها بقوله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمُ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

والمراد بالأسماء الأسماء العالية لا الأسماء النازلة، فإن كل مخلوق له اسم عال واسم نازل، فالاسم النازل هو الذي يشعر بالمسمى في الجملة، والاسم العالي هو الذي يشعر بأصل المسمى ومن أي شيء هو؟ وبفائدة المسمى، ولأي شيء يصلح الفاس من سائر ما يستعمل فيه؟ وكيفية صنعة الحداد له فيعلم من مجرد سماع لفظه هذه العلوم والمعارف المتعلقة بالفاس، وهكذا كل مخلوق والمراد بقوله تعالى: ﴿الأسماء كلها﴾ الأسماء التي يطيقها آدم ويحتاج إليها سائر البشر أولهم بها تعلق، وهي من كل مخلوق تحت العرش إلى ما تحت الأرض، فيدخل في ذلك الجنة والنار والسموات السبع وما فيهن، وما بينهن وما بين السماء والأرض وما في الأرض من البراري والقفار والأودية والبحار والأشجار، فكل مخلوق في ذلك ناطق أو جامد إلا وآدم يعرف من اسمه تلك الأمور الثلاثة أصله وفائدته؟ وكيفية ترتيبه ووضع شكله فيعلم من اسم الجنة من أين خلقت، ولأي شيء خلقت وترتيب مراتبها، وجميع ما فيها من الحور وعدد من يسكنها بعد البعث ويعلم من لفظ النار مثل ذلك، ويعلم من لفظ السماء مثل ذلك ولأي شيء كانت الأولى في محلها والثانية وهكذا في كل سماء، ويعلم من لفظ الملائكة من أي شيء خلقوا ولأي شيء خلقوا وكيفية خلقهم، وترتيب مراتبهم وبأي شيء استحق هذا الملك هذا المقام واستحق غيره مقاما آخر وهكذا في كل ملك في العرش إلى ما تحت الأرض، فهذه علوم آدم وأولاده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء الكمل رضي الله عنهم أجمعين.

وإنما خص آدم بالذكر لأنه أول من علم هذه العلوم ومن علمها من أولاده، فإنما علمها بعده وليس المراد أنه لا يعلمها إلا آدم وإنما خصصناها بما يحتاج إليه وذريته وبما

يطيقونه لئلا يلزم من عدم التخصيص الإحاطة بمعلومات الله تعالى، وإنما قال تنزلت إشارة إلى الفرق بين علم النبي ﷺ بهذه العلوم وبين علم آدم وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بها فإنهم إذا توجهوا إليها يحصل لهم شبه مقام عن مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، وإذا توجهوا نحو مشاهدة الحق سبحانه وتعالى حصل لهم شبه النوم عن هذه العلوم، ونبينا ﷺ لقوته لا يشغله هذا عن هذا فهو إذا توجه نحو الحق سبحانه وتعالى حصلت له المشاهدة التامة، وحصل له مع ذلك مشاهدة هذه العلوم وغيرها مما لا يطلق وإذا توجه نحو هذه العلوم حصلت له مع حصول هذه المشاهدة في الحق سبحانه وتعالى، فلا تحجبه مشاهدة الحق عن مشاهدة الخلق ولا مشاهدة الخلق عن مشاهدة الحق سبحانه وتعالى.

(ف) تلك العلوم إنما نزلت ورسخت فيه دون غيره ﷺ، فإن غيره تزول عنه إذا توجه نحو الحق سبحانه وتعالى ولذلك (أعجز) ﷺ (الخلائق وتضاءلت الفهوم) فيه أي اضمحلت فلم يفهموه ولم يعرفوه والفهوم جمع فهم وهو نور العقل الذي هو الإدراك **(فلم يدركه منا)** أي من بني آدم **(سابق)** وهم الأنبياء **(ولا لاحق)** وهم الأولياء الكمل، والموجب لذلك هو أن روحه عليه الصلاة والسلام لما كانت كاملة في الكمالات الباطنية فكذلك ذاته ﷺ كاملة في الكمالات الذاتية **(فرياض الملكوت)** أي فأسرار العالم العلوي، أي فأسرار القدر التي فيه وفي خلق كل مخلوق فيه ووضعه في موضعه من الملائكة وجميع ما فيه، ولم كانت السماء في محلها واللوح المحفوظ في محله (بزهر جماله مونقة) أي رحمها الله تعالى بنوره ﷺ (وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة).

اعلم أن العالم العلوي يقال له عالم الملك، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت باعتبارات مختلفة فعالم الملك باعتبار اتفاق أهله أعني ناطقهم وصامتهم وجامدهم وعاقلهم فإنهم اتفقوا على نظر واحد والتفات واحد إلى معبود واحد وهو الحق سبحانه وتعالى، فهم متفقون على معرفته ومشاهدته وسلب الاختيار عنهم بخلاف أهل الأرض من العالم السفلي، فمنهم عباد شمس وعباد قمر وعباد كواكب وعباد صليب وعباد وثن إلى غير ذلك من ضلالاتهم، فاختلف نظرهم بخلاف أهل العالم العلوي.

وبالجملة فكل عالم اتفق أهله على كلمة حق فهو عالم الملك وليس ذلك إلا العالم العلوي، وعالم الملكوت باعتبار اختلاف أنوار أهله وتباين مقاماتهم وأحوالهم وعالم الجبروت باعتبار الأنوار التي تهب عليهم كما يهب علينا ريح الهواء في عالمنا فتهب عليهم تلك الأنوار لتسقى بها ذواتهم وأرواحهم ومعارفهم وتدوم بها مقاماتهم، فهي أي الأنوار التي تهب عليهم كالحافظة لجميع ما سبق من أحوالهم فجعل لتلك الأنوار التي أشير إليها بالجبروت حياضاً.

ولما كانت تلك الأنوار إنما تستمد من نوره ﷺ قال: إن تلك الحياض تدفقت من فيض أنواره ﷺ.

قلت: وهذا الذي ذكره الشيخ رضي الله عنه في هذه العوالم الثلاثة حسن.

وذهب بعضهم: إلى أن عالم الملك هو المدرك بالحواس وعالم الملكوت هو المدرك بالعقول وعالم الجبروت هو المدرك بالمواهب.

وقال بعضهم: عالم الملك هو الظاهرالمحسوس وعالم الملكوت هو الباطن في العقول وعالم الجبروت هو المتوسط بينهما الآخذ بطرف كل منهما.

وقال بعضهم: الجبروت هو حضرة الأسماء كما أن الملكوت حضرة الصفات من حيث كونها وسائط التصرف بين الأسماء والأفعال كاللطف والقهر المتوسطين بين اللطيف والملطوف والقهار والمقهور، والله تعالى أعلم.

وقال رضي الله عنه مرة أخرى في قوله: (فرياض الملكوت).

اعلم أن الرياض هنا كمن يقول محاسن الملكوت، والملكوت هو العالم العلوي، وقصده هنا هو اللوح المحفوظ مع القلم والبرزخ وما فوق ذلك من العرش لأن اللوح المحفوظ مكتوب فيه اسمه ﷺ، وأسماء الأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين وسائر المؤمنين، وحروف اللوح المحفوظ تسطع منها الأنوار وتخرج على قدر اختلاف مقامات أصحاب الأسماء المتقدمة عند الله عز وجل، فأنوار اللوح المتعلقة بحروف الأسماء المتقدمة في غاية الاختلاف وكذلك الأنوار الخارجة من القلم مختلفة جداً كالاختلاف السابق.

وأما البرزخ فلا يطيق أحد أن يحصى ألوان الأنوار الخارجة منه، وهي أنوار أرواح الأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين وسائر المؤمنين، وكذلك أنوار العرش فإنها مختلفة السطع فيه على حسب اختلاف منازل سكان الجنة، فكل منزل فيها له نور يخصه والعرش يسطع فيه نور كل منزل فأنواره مختلفة، ولما اختلفت أنوار هذه الأشياء حسن تشبيهه لها بالرياض المحسوسة المشتملة على أزهار متعددة وأنوار متباينة، ولذلك أطلق عليها اسم الرياض فقال فرياض الملكوت، ولما كان نوره ﷺ في تلك الأشياء المتقدمة فإن اسمه مكتوب في اللوح المحفوظ وخرج نوره من أسرار القلم، ولروحه الشريفة مقام في البرزخ وله في الجنة المقام الذي لا مقام فوقه فلزم أن نوره ﷺ موجود مع تلك الأنوار المتقدمة، وحيث كان موجوداً معها حصل لها بسببه حسن وبهاء ورونق عجيب ونظام غريب وإليه أشار بقوله: بزهر جماله ﷺ (ولا شيء إلا وهو به منوط) أي معلق استمداداً واستناداً، فإن الكل مستمد منه ﷺ ومستند عليه في الحقيقة (إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط).

الواسطة هنا هو نبينا ﷺ وسماه بالواسطة لوجود الأشياء من أجله ﷺ وهو وسيلتهم *العظمى*.

والمراد بالموسوط ما عداه ﷺ.

وقوله: كما قيل إشارة إلى أن هذا أمر قد قاله غيره وأشار به إلى ما اشتهر على ألسنة الخاص والعام، وأنه لولا هو ﷺ، ماخلقت جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض ولا زمان ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا غير ذلك.

(صلاة تليق بك) أي بقدرك وعظمتك (منك) أي صادرة منك لا مني إليه: أي تنتهي إليه (اللهم إنه سرك الجامع) أي الذي حمل من أسرارك وجمع منها مالم يجمعه غيره فإن المشاهدة كلما اتسعت دائرتها اتسعت علوم صاحبها ولا أعظم من مشاهدته ﷺ وعندنا يعلم من العرش إلى الفرش ويطلع على جميع ما فيه ما فوقه أحد، وهذه العلوم كلها بالنسبة إليه ﷺ كألف من ستين حزباً التي هي القرآن العزيز والله أعلم.

واعلم وفقك الله أني لم يمكني أن أسأله رضي الله عنه كما أحب عن قوله: فلم يدركه منا سابق إلى آخر ما كتبته في شرحه رضي الله عنه لهذه المواضع من هذه الصلاة المباركة لحضور بعض من لا يعتقد الشيخ رضي الله عنه في مجلسنا فلم ينطلق لسانه رضي الله عنه كما سبق اعتذارنا غير ما مرة، ولو مشى الشيخ رضي الله عنه على ما سمعناه منه من أول الصلاة لسمعنا منه العجب العجاب والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله: (اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه) أن المراد بالنسب ما ثبت في باطنه ﷺ من المشاهدة التي عجز عنها الخلائق أجمعون والشيخ عبد السلام رضي الله عنه كان قطباً جامعاً ووارثاً كاملاً له ﷺ حتى سقي من مشاهدته الشريفة. قال رضي الله عنه: والمراد بالحسب صفاته ﷺ مثل الرحمة والعلم والحلم وغير ذلك من أخلاقه الزكية الطاهرة المرضية.

ولما كانت مشاهدته ﷺ لا يطيقها أحد طلب اللحوق بها دون التحقق بها لأنه لا يطيقه.

قال رضي الله عنه: وإياك أن تظن أن حرية نظر الشيخ ومجمع قصده ونهاية عزمه توجهت لغير ذاته الشريفة ﷺ من كشف وتصرف وولاية بل هي مقصورة على الذات الشريفة.

وسمعته رضي الله عنه مرة أخرى يقول: اللهم ألحقني بنسبه أي الجهد والقوة وحققني بحسبه: أي ما حمل عليه ﷺ وما يحمله ثم ضرب مثلاً برجل له إبل لا تحصى وتركها مدة تتناسل وهو في كل ذلك يفصل الثياب الفاخرة واللباسات الزاهرة والأحمال الباهرة، ونظر فيمن يطيق حمل جميع ما فصل فلم يجد في إبله كلها سوى واحد فجعل الجميع عليه وحمله بغير كلفة ولا مشقة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك الخ إن هذا الكلام صدر من الشيخ حين مشاهدته رحمة الله الواسعة فلما وقعت هذه المشاهدة لروحه نطقت الذات لضعفها ولم تقم بالأدب الواجب كمن يعلم حرمة النوح والندب ويرتكبه إذا نزل به ما يوجبه عالماً بالتحريم لضعف ذاته.

ومرة أخرى ضرب رضي الله عنه مثلاً برجل اطلع على ملك وحوله جماعة وهو يعطي كل واحد ما لا يحصى من القناطير، فدخل ذلك الرجل وبه من القلق والاضطراب والخوف من عدم العطاء ما أخرجه عن عادته، فجعل يقول للملك: إن لم تعطني فلست بكريم والله أعلم.

وذلك لأن هذا الكلام في الحزب الكبير محل إشكال حتى قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: ينبغي أن يسقط إليك من قوله أحسن إليك وأساء إليك، لأنه لا يحسن أحد إلى الله ولا يسيء إليه بدليل قوله تعالى:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

غير أنه لا يقدر واحد يبدل لفظ الشيخ لأنه ينظر بنور الولاية ما لا ينظر غيره.

وقال أيضاً: كثيراً ما رأينا في النسخ الصحيحة مكتوباً على هذا الفصل من كان له مع الله بسط حال وإدلال فليأتم بهذه الكلمات، ومن ليس كذلك فليتجاوزها إلى ما بعدها من قوله.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ اهـ.

وقال البرزلي: رأيت في بعض النسخ على هذا الموضع وهي التي أخذناها على شيخنا أبي الحسن الطبري عن الشيخ أبي العزائم ماضي عن الشيخ أبي الحسن: يسلم لهذا الشيخ في هذا الموضع ولا يقاس عليه انتهى والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن معنى قول ابن الفارض رضي الله عنه:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ

فقال رضي الله عنه: هذه إشارة إلى شيء في عالم الأرواح، والمراد بالحبيب نبينا ﷺ فذكره في ذلك العالم سبب في حصول المشاهدة التامة فتنتقل الروح بسبب هذه المشاهدة من حالة كانت عليها إلى حالة تحصل لها، وتتبدل في هذه الحالة عوائدها وجميع معارفها فتحصل لها قوة عظيمة على خرق الأنوار وقطع الأغيار وتنقطع عن الحالة الأولى حتى كأنها لا تعرفها أصلاً فحسن لذلك تشبيه هذه المشاهدة بالمدامة لثلاثة أمور.

الأول: أن المدامة سبب في الانتقال من حالة إلى حالة وكذلك هذه المشاهدة.

الثاني: أن المدامة سبب في الانقطاع عن الحالة الأولى، وكذلك هذه المشاهدة.

الثالث: أن المدامة سبب في الشجاعة والجراءة والإقدام لأن المدامة إذ اطلعت في رأس شاربها يستحقر في عينه كل أحد، وكذلك هذه المشاهدة سبب في إقدام صاحبها على جميع الأنوار وخرقه لها وطرحه لجميع الأغيار فهذا معنى قوله: شربنا على ذكر الحبيب مدامة، أي جرأنا بالمشاهدة في الحق سبحانه وتعالى على ذكر حبيبه ﷺ.

وقوله: سكرنا بها أي انقطعنا بها عن غيره تعالى وتعلقنا به وحده، وقوله: من قبل أن يخلق الكرم، يعني لأن ذلك في عالم الأرواح والكرم إنما خلق في عالم الأشباح.

ثم إن هذه المشاهدة التي سقيت بها الروح بسبب ذكر الحبيب ﷺ بقيت فيها إلى أن دخلت في الذات، فحصلت لها الغفلة بسبب انقطاع الذات في شهواتها، فلما جعل الشخص يذكر الحبيب ويسمع من يذكره جعلت المشاهدة التي في الروح تنزل في الذات وتحل فيها شيئاً فشيئاً إلى أن تحصل للذات الأمور الثلاثة التي حصلت للروح فتنتقل من حالة إلى حالة وتنقطع عن الحالة الأولى، فتنقطع الأغيار وتتعلق بالواحد القهار سبحانه لا إله إلا هو، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إني لم أزل أتعجب من الولي الذي يقول إنه يملأ الكون وذلك لأن للكون باباً منه يقع الدخول إليه وهو النبي ﷺ، ولا يطيق مخلوق من المخلوقات أن يحمل نوره ﷺ، ومن عجز من الباب فكيف يطيق غيره، اللهم إلا أن يكون دخل من غير باب يعني فيكون فتحه شيطانياً ظلمانياً، وهذا لا يملأ بيته فضلاً عن داره فضلاً عن شيء آخر.

قال رضي الله عنه: واعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسموات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضاً من نور النبي ﷺ، وأن مجموع نوره ﷺ لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع عليها ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت، وإذا كان هذا شأن نوره ﷺ فكيف يقول من يقول إنه يملأ الكون؟ فأين تكون ذاته إذا بلغت المدينة المشرفة وقربت من القبر الشريف؟ أم كيف تكون إذا تصاعدت نحو البرزخ وقربت من الموضع الذي فيه النور العظيم القائم بالروح الشريفة؟ أفتكون ذاته حاملة له والمخلوقات بجملتها عاجزة عنه؟ أم يتخطى ذلك الموضع فلم يملأ الكون، والفرض أن الموضع المذكور آخذ من القبر الشريف إلى قبة البرزخ تحت العرش، ولعله أراد بالكون ما بين السماء والأرض ما عدا موضع البرزخ الذي فيه النور المعظم.

فقلت: ولعله أنه يملؤه من حيث النور أي يملؤه بنوره لا بذاته كالشمس التي سطعت على السموات والأرض.

فقال رضي الله عنه وما مراده إلا أنه يملؤه بنوره ولا يريد أنه يملؤه بذاته، ولكن أين نوره من نور المصطفى ﷺ؟ فإن ذلك النور من النور المكرم بمنزلة الفتيلة في وسط النهار وقت الظهيرة، وهل يصح أن يقال إن تلك الفتيلة كسفت نور الشمس.

فقلت: ونور الشمس من النور المكرم بمنزلة الفتيلة فما باله ملأ الأكوان؟

فقال رضي الله عنه: لم يملأ الأكوان بمعنى أن النور المكرم ذهب بسببه واضمحل فكيف ونور الشمس إنما هو من نور أرواح المؤمنين الذي هو من نوره ﷺ وإنما سبب ذلك أنا حجبنا عن مشاهدة النور المكرم كما حجبنا عن مشاهدة أنوار الأولياء، فلو كشف الحجاب لكانت له أنوار من النور المكرم بمنزلة الفتائل وسط النهار ولم يظهر للشمس ولا لغيرها نور إلا كما يظهر للفتائل وسط النهار.

قال رضي الله عنه: ولقد جهدت غاية الجهد من صلاة الصبح إلى الضحىٰ وأنا أنظر هل أقدر على حمل الباب فما قدرت عليها، ووجدتها قوية عليّ، والله الموفق.

وسألته رضي الله عنه: عن حكاية الرجل الذي نزل إلى البحر ثم خرج بعد ساعة، فقال له صاحبه الذي كان ينتظره: إنك أبطأت علي حتى خفت من فوات الجمعة، فقلت له: إني جئت من مصر ولي فيها نحو كذا وكذا شهراً، وقد تزوجت وولدي فيها.

فقلت: كيف يمكن هذا والساعة التي مرت عليهما واحدة، فكيف تكون على هذا ساعة وعلى الآخر عدة شهور فإن الشمس التي في الأفق تكون بها الساعة والشهر واحدة؟ فإن كانت على الذي غطس في البحر عدة شهور فكيف تكون على أهل مصر؟ فإن كانت عدة شهور حتى تزوج فيها وولد له لزم المحال، فإن أهل مصر وأهل دجلة التي هي البحر السابق لا يمكن اختلاف مشارق الشمس ومغاربها بالنسبة إليهما اختلافاً يبلغ هذا القدر أبداً، وإن كانت على أهل مصر ساعة فكيف ساغ له أن يتزوج فيها ويولد له؟ فيها هذا من أشكل ما بلغنا من كرامات الأولياء وليس طي الزمان كطي المكان، فإن طي الزمان يلزم فيه المحذور السابق وطي المكان محض كرامة لا محذور فيه.

والحكاية المذكورة ذكرها غير واحد وربما احتج لها بعضهم بطول يوم القيامة فإن مقداره خمسون ألف سنة، وهو على المؤمن كساعة وكركعتي الفجر ولا دليل فيه، لأن طول القيامة قد قيل إنه طول شدة لا طول مدة، وأكبر ظني أنه عليه اقتصر ابن حجر في الفتح، والله أعلم.

فقال رضي الله عنه: إن الله تعالى لا يعجزه شيء، فهو يقدر على أن يجعل لصاحب الحكاية زماناً آخر وقوماً آخرين في حال كونه في البحر ويحجبه عن مشاهدة البحر وهو فيه كما حجب تعالى من شاء عن مشاهدة الملك، وهو معه دائماً، وإذا حجبه عن البحر أشهده ذلك الزمان وأولئك القوم ويمثلهم تعالى بما شاء بأهل مصر أو بغيرهم، حتى يحصل

المراد من الحكاية ثم يذهب تعالى ذلك الزمان وأولئك القوم، وإنما يفعل تعالى هذا ونحوه لشيء وقع لصاحب الحكاية، فقلتم صدقتم رضي الله عنكم كذلك، قالوا إنه كان ينكر بعض ما يقع للأولياء مع كثرة خدمته لهم.

قال رضي الله عنه: وقد رأيت أنا ما هو أغرب من هذه وهو أني رأيت شخصاً عند الضحى وهو لم يتزوج بعد، فلما كان عند الظهر رجعت إلى الموضع وجدت الشخص قد مات، ووجدت ابنه قد قام مقامه في صنعته والابن قد بلغ فأبوه لم يتزوج عند الضحى ثم تزوج بعدها وولد له وبلغ ولده قبل الظهر.

فقلت: هؤلاء من الجن أم من الإنس؟

فقال رضي الله عنه: ليسوا من الجن ولا من الإنس ولله عوالم لا تحصى.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾.

قال رضي الله عنه: وقد وقع لي عام أحد عشر بعد موت أمي ما يستغرب. وذلك أن أبي تزوج امرأة أخرى واستجور أمة له فجاءت الأمة فضربتني فقلت: أيّ هم أقاسيه هم الأمة أم هم المرأة؟ فتنكدت وتغيرت ثم جرت في سنة فرأيت جميع ما يقع لي إلى انصرام أجلي، فرأيت من ألتقي معه من الأشياخ ورأيت المرأة التي أتزوجها ومضى المدة إلى ولادة ولدي عمر وذبحت له وسبعت، ثم رأيت جميع ما يقع لي بعد ولادة عمر إلى ولادة ولدي إدريس وذبحت له وسبعت، ثم جميع ما يقع لي بعده إلى ولادة ابنتي فاطمة ورأيت الفتح الذي وقع لي بعد ولادتها وجميع ما أدركته لا يغيب عني شيء منه ومن جميع ما وقع ويقع لي في عمري وهذا كله في سويعة ولست بنائم حتى تكون رؤيا منام.

قلت: وهذه رؤيا حصلت بالروح.

كما سمعته رضي الله عنه يقول مرة أخرى: إن الجنين إذا سقط من بطن أمه يراه العارف الكامل في تلك الحالة التي يبلغ إليها عمره وينتهي إليها أجله ويرى فيه جميع ما يدركه من خير أو شر، حتى إن من شاهده مشاهدة العارف ونسخ جميع ما شاهده وطرح النسخة عنده وجعل يقابلها مع ما يظهر في الذات ويشاهد ما فيها كل ساعة ولحظة وجدهما لا يختلفان أبداً في شيء من الأشياء، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: فيما يقرب من خلق أولئك القوم في نظر ذلك الرجل إن بعض العارفين مر بموضع فتمنى أن تكون فيه مدينة يعبد فيها الله عز وجل، فأمر الله الملائكة فنزلوا في صورة بني آدم، وقال للمدينة كوني فكانت، فمر العارف بالموضع مرة أخرى فوجد المدينة وأهلها يعبدون الله تعالى، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، فبقيت المدينة وأهلها يعبدون الله فيها إلى أن مات ذلك العارف فرجع كل شيء إلى أصله،

فالملائكة إلى مراكزهم والمدينة رجعت إلى العدم المحض حتى أن من مر عليها بعد وفاة ذلك العارف بساعة يقول: ما كانت هنا عمارة قط.

وبهذا سمعته يجيب عن كلام حكى له عن الحاتمي رضي الله عنه لم أتحققه الآن لأن غيري حكاه له.

فمسعته والله تعالى أعلم يقول: إن الحاتمي قال في بعض مشاهداته إنه رأى الجنة في كذا يعني في غير موضعها، فأجابه رضي الله عنه وأنا أسمع: فإن العارف لا أشرف عنده في الأمكنة ولا في الأزمنة من المكان الذي تحصل له فيه تلك المشاهدة فيثيبه تعالى على تلك المشاهدة بأن يخلق تعالى جنة في جهة ذلك العارف، فيظن أنه رأى الجنة في غير موضعها، وإنما هو شيء آخر خلق له إثابة، فكاد الذي حكى له كلام ابن العربي يطير فرحاً حين سمع هذا الجواب والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: في تحقيق خلق أولئك القوم في نظر ذلك الرجل، فقال لي انظر إلى هذا الهواء الذي بيني وبينك، فقلت له قد نظرت، فأشار إلى محل أصبع منه، وقال لي إن الله تعالى يأمر هذا المقدار أن يتسع حتى يكون مثل هذا الهواء الذي بيني وبينك، ثم يجعل تعالى فيه ألواناً عديدة أصفر وأحمر وأخضر وأسود ويحجب الهواء الأول عن هذا الهواء الثاني وعن جميع ما فيه، ثم يأخذ جزءاً من الهواء الأول ويحجبه عن الهواء الأول ويدخله في هذا الهواء الثاني ويريه العجائب والألوان التي فيه ثم يرد ذلك الجزء إلى الهواء الأول ويذهب الهواء الثاني بجميع ما فيه.

قال رضي الله عنه: أو ليس ربنا عز وجل بقادر على هذا أو أكثر منه؟

فقلت: بلى إنه على كل شيء قدير، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن كلام صاحب الأحياء في كتاب التفكر حيث قال: إن سيدنا جبريل أعلم من سيد الأولين والآخرين ﷺ.

فقال لي رضي الله عنه: لو عاش سيدنا جبريل مائة ألف عام إلى مائة ألف عام إلى ما لا نهاية له ما أدرك ربعاً من معرفة النبي ﷺ ولا من علمه بربه تعالى، وكيف يمكن أن يكون سيدنا جبريل أعلم وهو إنما خلق من نور النبي ﷺ؟ فهو وجميع الملائكة بعض نوره ﷺ، وجميعهم وجميع المخلوقات يستمدون المعرفة منه ﷺ، وقد كان الحبيب ﷺ مع حبيبه عز وجل حيث لا جبريل ولا غيره، واستمد ﷺ من ربه تعالى إذ ذاك ما يليق بعطية الكريم وجلاله وعظمته مع حبيبه ﷺ، ثم بعد ذلك بمدة مديدة جعل تعالى يخلق من نور الكريم جبريل وغيره من الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

قال رضي الله عنه: وجبريل وجميع الملائكة وجميع الأولياء أرباب الفتح وحتى

الجن يعرفون أن سيدنا جبريل عليه السلام حصلت له مقامات في المعرفة وغيرها ببركة صحبته للنبي ﷺ، بحيث لو عاش سيدنا جبريل عليه السلام طول عمره ولم يصحب سيد الوجود ﷺ وسعى في تحصيلها وبذل المجهود والطاقة ما حصل له مقام واحد منها؛ فالنفع الذي حصل له من النبي ﷺ لا يعرفه إلا هو ومن فتح الله عليه.

قال رضي الله عنه: وسيدنا جبريل إنما خلق لخدمة النبي ﷺ، وليكون من جملة حفظة ذاته الشريفة ﷺ وونيسه له إذ هو ﷺ سر الله من هذا الوجود، وجميع الموجودات تستمد منه، فيحتاج إلى مشاهدتها وذاته الشريفة خلقت من تراب كذوات بني آدم فهي لا تألف إلا ما يشاكلها، فإذا شاهد ما لا يشاكله آنسه جبريل.

ثم ذكر لنا رضي الله عنه: أن صور الملائكة تفجع هذه الذوات وتدهشها لكونها على صورة لا تعرف مع كثرة الأيدي والأرجل والرؤوس والوجوه، وكونها على سعة عظيمة بحيث تملأ ما بين الخافقين.

قال رضي الله عنه: ولا يعلم ذلك إلا من فتح عليه، فكان سيدنا جبريل ونيسه للذات الترابية الشريفة في أمثال هذه الأمور.

وأما روحه الشريفة ﷺ فإنها لاتهاب شيئاً من هذه الصور ولا من غيرها لأنها عارفة بالجميع.

فقلت: ولم كانت الروح الشريفة لا تكفي في الونيسة؟

فقال رضي الله عنه: لأن الذات لا تشاهدها منفصلة عنها والوحدانية لله تعالى وحده لا يطيق الدوام عليها إلا ذاته تعالى ومن عداه شفع يحب الشفع ويميل إليه.

قال رضي الله عنه: وسيدنا جبريل إنما كان ونيسه فيما تطيقه ذاته ويعرفه مما هو تحت سدرة المنتهى، أما ما هو فوق ذلك من الحجب السبعين والملائكة الذين فيها فإنه لم يكن ونيسه في ذلك لأنه أي سيدنا جبريل عليه السلام لا يطيق مشاهدة ما فوق سدرة المنتهى لقوة الأنوار، ولهذا ذهب ﷺ في قطع تلك الحجب وحده ولم يذهب معه جبريل عليه السلام وطلب منه الذهاب معه. فقال لا أطيقه وإنما تطيقه أنت الذي قواك الله عليه، وتكلمت معه في أمر الوحي وكيفية تلقي النبي ﷺ وهل يتلقاه بواسطة جبريل كما هو ظاهر كثير من الآي أو لا؟ فأتى فيه بكلام لا تطيقه العقول فلا ينبغي كتبه، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن سبب تكبير العيد سبعاً في الركعة الأولى، وستاً في الركعة الثانية، وذكرت له بعض ما قاله الفقهاء في ذلك.

فقال رضي الله عنه مسرعاً: سببه أن التكبيرة الأولى يشاهد فيها العبد المكبر ولا سيما سيد الوجود ﷺ المكونات التي في الأرض الأولى، والتي في السماء الأولى، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى.

والتكبيرة الثانية: يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثانية، والتي في السماء الثانية، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى.

والتكبيرة الثالثة: يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثالثة والتي في السماء الثالثة، ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى.

والتكبيرة الرابعة: يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الرابعة والتي في السماء الرابعة، ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى.

والتكبيرة الخامسة: يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الخامسة والتي في السماء الخامسة، ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى.

والتكبير السادسة: يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السادسة والتي في السماء السادسة، ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى.

والتكبيرة السابعة: يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السابعة والتي في السماء السابعة، ويشاهد فيها المكون سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى هذا في الركعة الأولى.

وأما الركعة الثانية: فإن التكبيرة الأولى منها يشاهد فيها ما خلق في اليوم الأول وهو يوم الأحد، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى.

والتكبيرة الثانية: يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثاني وهو يوم الأثنين، ويشاهد المكون سبحانه.

والتكبيرة الثالثة: يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء، ويشاهد المكون سبحانه.

والتكبيرة الرابعة: يشاهد فيها ما خلق في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى.

والتكبيرة الخامسة: يشاهد فيها ما خلق في اليوم الخامس وهو يوم الخميس، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى.

والتكبيرة السادسة: يشاهد فيها ما خلق في اليوم السادس وهو يوم الجمعة، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى.

فقلت: وهذه المخلوقات في هذه الأيام الستة هي التي في السموات السبع وفي الأرضين السبع.

فقال رضي الله عنه: يشاهد عند رؤيته إلى الأيام أصول المخلوقات التي كانت في

بدء الخلق، وأما عند نظره إلى السموات والأرضين فيشاهد المخلوقات الموجودات على ظهرهما.

فقلت: فتكبير العيد سبعاً وستاً شرع في حق كل مكلف وأين كل مكلف من هذه المشاهدة.

فقال رضي الله عنه: من فتح الله عليه فلا كلام فيه ومن لم يفتح عليه فينبغي له أن يستعمل هذه المشاهدة ويستحضرها ولو على سبيل الإجمال والله تعالى جواد كريم، فإن استحضر العبد ما ذكرت في هذا العيد وفي الذي بعده وهكذا. وفرح بربه ودام على ذلك فإن الله تعالى لا يخيبه ولا تخرج روحه من جسده حتى يريه تعالى هذه المشاهدات تفصيلاً، لأن الله على كل شيء قدير، والعبد والانقطاع إنما حصل من ناحية العبد لا من ناحية الرب سبحانه وتعالى.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فقلت: فسر التكبير ثلاثاً أثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع.

فقال رضي الله عنه: التكبيرة الأولى يستحضر فيها، ويشاهد تصوير الذات نطفة ثم علقة ثم مضغة.

والتكبير الثانية: يستحضر فيها، ويشاهد تمام التصوير وكماله وحسن خلقه ونفخ الروح فيه وصيرورته خلقاً آخر.

﴿فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

والتكبيرة الثالثة: يستحضر فيها، ويشاهد فساد الصورة ورجوعها تراباً حين تكون في القبر، فإن هذه الأمور الثلاثة من عجائب قدرته تبارك وتعالى ومن غرائب ما أبدعه في مصنوعاته سبحانه وتعالى لا إله إلا هو، وهذا التكبير لا يختص عند الصوفية بما ذكره الفقهاء بل يستعملونه دبر كل صلاة ولكن قبل السلام منها.

قال رضي الله عنه: والمفتوح عليه يشاهد هذه الأحوال عياناً ويراها جهاراً فيشاهد من باهر قدرته تعالى ما لا يكيف وكم من عجائب لله تعالى في مخلوقاته، فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ومحو ما نزل به ما لا يكيف، فغير المفتوح عليه يدفعه بالرؤية والعيان.

قال رضي الله عنه: وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل من تلك العجائب، ما إذا شاهده العبد علم بوحدانية الله تعالى من غير دليل تكفيه مشاهدة ذلك الأمر، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود الجنة ولا يحتاج إلى

إقامة الدليل على وجودها، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود جهنم ولا يحتاج إلى دليل، إلى غير ذلك من عجائب مخلوقات ربنا سبحانه وتعالى، والله أعلم.

وسأله رضي الله عنه عن قول أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: خضنا بحوراً وقفت الأنبياء بسواحلها.

فقال رضي الله عنه: النبوة خطرها جسيم، وقدرها عظيم، وصاحبها كريم، ذو مقام رفيع وجناب منيع لا يبلغ أحد مقداره؛ ولا يشق سائر غباره، فهيهات أن يصل الولي إلى رجالها وشتان مابينه وبين رجالها؛ ولكنه قد علم أن سيد الوجود ﷺ هو سيد الأنبياء وإمام المرسلين، وخيرة خلق الله أجمعين، وقد يعير ﷺ بعض أثوابه لبعض الكاملين من أمته الشريفة، فإذا لبسه حصل له ما قاله أبو يزيد البسطامي، وذلك في الحقيقة منسوب إلى النبي ﷺ، فهو الخائض لتلك البحور والمقدم على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال رضي الله عنه: وقد غلط بعض الأولياء من أهل الفتح فظن أن الولي العارف الكبير قد يبلغ مقام النبي في المعرفة، وإن كان في الدرجة لا يصله.

قال رضي الله عنه: وهذا الذي ظنوه غلط مخالف لما في نفس الأمر، والصواب أن الولي ولو بلغ في المعرفة ما بلغ لا يصل إلى ما ذكروه ولا يقرب منه أصلاً والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عما نسب لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه من قوله: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فقال رضي الله عنه: القدرة الإلهية لا تحصر والرب سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء.

قلت: وهذا الكلام في غاية الإتقان والعرفان، وقد استخرت الله تعالى غير مرة في أن أكتب شيئاً في هذه المسألة محبة في الخير ونصيحة للغير، فإنها عقيدة ومع ذلك فإنها من الضروريات ولكنه لما كثر فيها القيل والقال، واختلفت فيها أجوبة الرجال كادت تلتحق بسبب ذلك بأدق النظريات.

فأقول مستعيناً بالله ومعتصماً بحوله وقوته قال الله تعالى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ

شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذٰلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لهم في مرضه:

«ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ» فقال عمر: حسبنا كتاب الله.

وقال ابن عباس: ءن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم كتاباً.

وفي الحديث الصحيح أيضاً أنه ﷺ خرج ليريهم ليلة القدر فتلاحى رجلان فرفعت وهذان الحديثان في صحيح البخاري، وقال الحافظ السيوطي في الباهر في حكم النبي ﷺ بالباطن والظاهر.

الحديث الرابع قال أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا موسى بن عبيدة حدثنا هود بن عطاء الله اليماني عن أنس قال:

«كَانَ فِينَا شَابٌّ ذُو عِبَادَةٍ وَزُهْدٍ وَاجْتِهَادٍ فَسَمَّيْنَاهُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَلَمْ يَعْرِفْهُ وَوَصَفْنَاهُ بِصِفَتِهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذٰلِكَ إِذْ أَقْبَلَ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله هُوَ هٰذَا، فَقَالَ إِنِّي لأَرَى عَلَى وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، فَجَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: أَجَعَلْتَ فِي نَفْسِكَ أَنْ لَيسَ فِي الْقَوْمِ خَيْرٌ مِنْكَ؟ فَقَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ، ثُمَّ وَلَّى فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا، فَدَخَلَ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ كَيْفَ أَقْتُلُ رَجُلاً وَهُوَ يُصَلِّي وَقَدْ نَهَانَا النَّبِي ﷺ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَزَادَ: لأَرْجِعَنَّ فَقَدْ رَجَعَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَهْ يَا عُمَرُ؟ فَذَكَرَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا، فَقَالَ أَنْتَ تَقْتُلُهُ إِنْ وَجَدْتَهُ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَهُ قَدْ خَرَجَ، فَقَالَ أَمَا وَالله لَوْ قَتَلْتَهُ لَكَانَ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، وَلَمَا اخْتَلَفَ فِي أُمَّتِي اثْنَانِ».

أخرجه أبو يعلى في مسنده من طريق عن موسى به وموسى وشيخه فيهما لين ولكن للحديث طرق تقتضي ثبوته.

طريق ثان: عن أنس قال أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو خيثمة حدثنا عمر بن يوسف حدثنا عكرمة هو ابن عمار عن يزيد الرقاشي حدثنا أنس قال:

«كَانَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ يَغزُو مَعَنَا، فَإذَا رَجَعَ وَحطَّ عَنْ رَاحِلَتِهِ عَمَدَ إِلَى المَسْجِدِ فَجَعَلَ يُصَلِّي فِيهِ فَيُطِيلُ الصَّلاةَ حَتَّى جَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ يَوْماً وَرَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ في أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا نَبِيَّ الله هٰذَا ذٰلِكَ الرَّجُلُ، فَإمَّا أُرسِلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا جَاءَ هُوَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ مُقْبِلاً قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ لَسَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى المَجْلِسِ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: أَقُلْتَ حِينَ وَقَفْتَ عَلَى المَجْلِسِ في نَفْسِكَ لَيْسَ في القَوْمِ خَيرٌ مِنِّي؟ قَالَ نَعَمْ، ثمَّ انصَرَفَ فَأَتَى نَاحِيَةً مِنَ المَسْجِدِ فَخَطَّ خَطًّا بِرِجْلِهِ ثُمَّ صَفَّ كَعْبَيْهِ ثمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هٰذَا يَقْتُلُهُ؟ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ أَقَتَلْتَ الرَّجُلَ؟ قَالَ وَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَهِبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هٰذَا يَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ أَنَا، فَأَخَذَ السَّيفَ فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي فَرَجَعَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعُمَرَ: أَقَتَلْتَ الرجُلَ؟ فَقَالَ يَا نَبِيَّ الله وَجَدْتُهُ قَائِماً يُصَلِّي فَهِبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هٰذَا الرَّجُلِ فَيَقْتُلُهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْتَ لَهُ إِنْ أَدْرَكْتَهُ، فَذَهَبَ عَلِيٌّ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ هٰذَا أَوَّلُ فِرَقٍ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي، لَوْ قَتَلْتَهُ مَا اخْتَلَفَ فِي أُمَّتِي اثْنَانِ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ فِرْقَةً وَاحِدَةً، قُلْنَا يَا نَبِيَّ الله مَنْ تِلْكَ الفِرْقَةُ؟ قَالَ الجَمَاعَةُ».

طريق ثالث: عن الرقاشي عن أنس، قال البيهقي في دلائل النبوة فأخبرنا عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، قالا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا بشر بن بكر عن الأوزاعي قال حدثني الرقاشي عن أنس بن مالك قال:

«ذَكَرُوا رَجُلاً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرُوا قُوَّتَهُ فِي الْجِهَادِ وَاجْتِهَادَهُ في الْعِبَادَةِ، فَإِذَا هُمْ بِالرَّجُلِ مُقْبِلٌ، قَالُوا هٰذَا الَّذِي كُنَّا نَذْكُرُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَرَى فِي وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ أَقْبَلَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَلْ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِأَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ خَيرٌ مِنكَ؟ قَالَ نَعَمْ، ثُمَّ ذَهَبَ فَاخْتَطَّ مَسْجِداً وَصَفَّ قَدَمَيْهِ يُصَلِّي، قَال رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ يَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا، فَانطَلَقَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي، فَقَالَ يَا رَسُولَ الله وَجَدْتُهُ قَائِماً يُصَلِّي فَهِبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ أَنَا، فَقَامَ فَصَنَعَ كَمَا صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا، فَقَالَ أَنْتَ لَهُ إِنْ أَدْرَكْتَهُ، فَذَهَبَ فَوَجَدَهُ قَدِ انصَرَفَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ هٰذَا أَوَّلُ فِرَقٍ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي، لَوْ قَتَلْتَهُ مَا اخْتَلَفَ اثْنَانِ بَعْدَهُ مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ فِرْقَة وَاحِدَةً».

قال أبو يزيد الرقاشي هي الجماعة.

طريق رابع عن أنس قال أبو يعلى في مسنده حدثنا محمد بن بكار حدثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك، قال:

«ذُكِرَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَهُ نِكَايَةٌ فِي الْعَدُوِّ وَاجْتِهَادٌ فِي الْعِبَادَةِ، قَالَ لاَ أَعْرِفُهُ، فَقَالُوا بَلَى نَعْتُهُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ لاَ أَعْرِفُهُ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذٰلِكَ إِذْ طَلَعَ الرَّجُلُ، فَقَالُوا هُوَ هٰذَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ مَا كُنْتُ أَعْرِفُ هٰذَا هُوَ أَوَّلُ فَرْقٍ رَأَيْتُهُ فِي أُمَّتِي، إِنَّ فِيهِ لَسَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَمَّا دَنَا الرَّجُلُ سَلَّمَ فَرَدُّوا عَلَيْهِ السَّلاَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ حَدَّثْتَ نَفْسَكَ حِينَ طَلَعْتَ عَلَيْنَا أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكَ؟ قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: قُمْ فَاقْتُلْهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ لِلصَّلاَةِ حُرْمَةً وَحَقًّا وَلَوْ أَنِّي اسْتَأْمَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَجَاءَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ لاَ، رَأَيْتُهُ قَائِماً يُصَلِّي وَرَأَيْتُ لِلصَّلاَةِ حُرْمَةً وَحَقًّا، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقْتُلَهُ قَتَلْتُهُ، قَالَ لَسْتَ بِصَاحِبِهِ، اذْهَبْ يَا عُمَرُ فَاقْتُلْهُ، فَدَخَلَ عُمَرُ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَهُ سَاجِداً فَانْتَظَرَهُ طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لِلسُّجُودِ حُرْمَةً، فَلَوْ أَنِّي اسْتَأْمَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَدِ اسْتَأْمَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ لاَ رَأَيْتُهُ سَجِداً، وَرَأَيْتُ لِلسُّجُودِ حَقًّا وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقْتُلَهُ قَتَلْتُهُ، قَالَ لَسْتَ بِصَاحِبِهِ، قُمْ يَا عَلِيُّ فَأَنْتَ صَاحِبُهُ إِنْ وَجَدْتَهُ فَقَامَ عَلِيٌّ فَدَخَلَ فَوَجَدَهُ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ لاَ، قَالَ لَوْ قَتَلْتَهُ مَا اخْتَلَفَ رَجُلاَنِ مِنْ أُمَّتِي حَتَّى الدَّجَّالُ».

طريق خامس: لهذا الحديث من رواية جابر بن عبد الله. قال أبو بكر بن أبي شيبة وأحمد بن منيع معاً في مسنديهما حدثنا يزيد بن هارون حدثني العوام بن حوشب حدثني طلحة بن نافع أبو سفيان عن جابر قال:

«مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا فِيهِ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ يَقْتُلُهُ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا، فَانْطَلَقَ فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي، فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَقْتُلْهُ لَمَّا رَآهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ يَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: أَنَا؛ فَذَهَبَ فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي فَرَجَعَ وَلَمْ يَقْتُلْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ يَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا، فَقَالَ أَنْتَ وَلاَ أَرَاكَ تُدْرِكُهُ، فَانْطَلَقَ فَوَجَدَهُ قَدْ ذَهَبَ».

أخرجه أبو يعلى حدثنا أبوه خيثمة، حدثنا يزيد بن هارون بهذا، وهذا الإسناد صحيح على شرط مسلم، فإن يزيد بن هارون والعوام بن حوشب من رجال الصحيحين وأبو سفيان طلحة بن نافع من رجال مسلم، فلو لم يكن لهذا الحديث إلا هذا الإسناد وحده لكان كافياً في ثبوته وصحته.

طريق سادس لهذا الحديث من رواية أبي بكر الصحابي، قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا روح، حدثنا عثمان الشحام، حدثنا مسلم بن أبي بكرة عن أبيه:

«أَنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بِرَجلٍ سَاجِدٍ وَهُوَ مُنطَلِقٌ إِلَى الصَّلاةِ، فَقَضَى الصَّلاةَ فَرَجَعَ إِلَيهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ مَنْ يَقتُلُ هٰذَا؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَحَسَرَ عَنْ يَدَيْهِ فَاخْتَرَطَ سَيفَهُ وَهَزَّهُ، ثمَّ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ الله، كَيفَ أَقْتُلُ رَجُلاً سَاجِداً يَشهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إلاّ الله وَأَنَّ مُحَمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ ثمَّ قَالَ مَنْ يَقتُلُ هٰذَا؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ أَنَا، فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ وَاخْتَرَطَ سَيفَهُ وَهَزَّهُ حَتَّى ارْتَعَدَتْ يَدُهُ، ثمَّ قَالَ يَا نَبِيَّ الله كَيفَ أَقْتُلُ رَجُلاً سَاجِداً يَشهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله، وَأَن مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَتَلْتُمُوهُ لَكَانَ أَوَّلَ فِتْنَةٍ وَآخِرَهَا».

قال الحافظ السيوطي رضي الله عنه: وهذا الإسناد صحيح على شرط مسلم فإن روحاً من رجال الصحيحين وعثمان الشحام وابن أبي بكرة كلاهما من رجال مسلم.

انتهى ما أردنا نقله من كلام الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى.

وإذا تأملت هذا الذي أوردناه من الآيات والأحاديث علمت منه الحق الواضح والطريق الرابح، وقد اعتنيت بسؤال العامة عن هذه المسألة الذين قلوبهم خالية عن الشبهات وما يمنع من وصول الحق إليهم فأقول لهم: هل يقدر ربنا جل جلاله على إيجاد مثل هذا العالم؟ فيقولون ومن يتوقف في هذا وربنا على كل شيء قدير وقدرته نافذة لا يعجزها شيء من الأشياء.

وقلت مرة لبعضهم: هل يقدر ربنا على إيجاد أفضل من هذا العالم.

فقال لي: ألا تسمع إلى قوله تعالى:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ولم يقيد الجديد بكونه دوننا فجاز أن يكون أفضل منا أو مساوياً لنا فأعجبني والله فهمه غاية.

وقلت لبعض الفقهاء: ما قولك في قول أبي حامد: ليس في الإمكان أبدع مما كان؟

فقال لي: قد تكلم عليه الشيخ الشعراني وغيره. فقلت له إنما أسألك عما عندك فيه، فقال لي: وأي شيء عندي فيه؟ فقلت: ويحك إنها عقيدة أرأيت لو قال لك قائل هل يقدر ربنا جل جلاله على إيجاد أفضل من هذا الخلق، فقال أقول له: إن مقدورات الله لا تتناهى فيقدر على إيجاد أفضل من هذا الخلق بألف درجة وأفضل من هذا الأفضل، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

فقلت: وقوله ليس في الإمكان أبدع مما كان ينافي ذلك فتفطن عند ذلك لمعنى العبارة المنسوبة لأبي حامد رضي الله عنه.

وهكذا وقع لي مع كثير من الفقهاء فإذا سألتهم عن عبارة أبي حامد استشعروا جلالة الإمام حجة الإسلام فتوقفوا فإذا بدلت العبارة وعبرت بما سبق في سؤالنا للعامة جزموا بعموم القدرة وعدم نهاية المقدورات والله أعلم.

فصل

وقد ظهر لي أن أثبت كلام أبي حامد رضي الله عنه في هذه المسألة، ثم أذكر ما للناس فيه لتتم الفائدة فأقول:

قال أبو حامد رضي الله عنه في الإحياء مشيراً إلى ما يثمر التوكل ما نصه: وهو أن يصدق تصديقاً يقيناً لا ضعف فيه، ولا ريب أن الله تعالى لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما لا تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم زاد مثل قدرهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف، وخفايا العواقب حتى أطلعوا بذلك على الخير والشر والنفع والضر وأمرهم أن يدبروا الملك والملكوت، بما أعطوا من العلم والحكمة لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليهم أن يزاد فيما دبر الله به الخلق في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو ضر عمن بلي به ولا أن تزاد صحة أو غنى أو كمال أو نفع عمن أنعم به عليه بل كل ما خلقه الله من السموات والأرض إن أمعنوا فيه البصر وطولوا فيه النظر لما رأوا فيه من تفاوت ولا فطور وكل ما قسمه الله بين عباده من رزق وأجل وسرور وفرح وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي وليس في الإمكان أصلاً أتم منه ولا أحسن ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ولو لم يكن قادراً لكان عاجزاً والعجز يناقض الإلٰهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقص في الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى شخص غيره. إذ لولا الليل ما عرف النهار، ولولا المرض لم تتنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم تسليطهم عليها بالذبح ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخم النعم على أهل الجنة بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وما لم يخلق الناقص لم يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنسان، فإن الكمال والنقص ظهرا بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص، وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه، وهذا الآن بحر زاخر عظيم عميق واسع الأطراف مضطرب

الأمواج غرق فيه طوائف من الناظرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل أن الخير والشر مقضى به، وقد صار ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة، فلا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، بل كل صغير وكبير مستطر، وحصوله بقدر منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، انتهى كلامه في الإحياء بنقل السيد السمهودي رحمه الله تعالى في تأليفه في هذه المسألة الذي سماه إيضاح البيان لمن أراد الحجة من ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وكذا نقله برهان الدين البقاعي في تأليف له في هذه المسألة سماه [دلالة البرهان على أن ليس في الإمكان أبدع مما كان] قال السمهودي رحمه الله.

وكذا وقع لأبي حامد مثل هذه العبارة في جواهر القرآن وفي الأجوبة المسكتة وهي أجوبة عن اعتراضات وردت على كتاب الإحياء في زمن مؤلفه.

قلت: وكذا وقع له مثل هذه العبارة في كتابه الذي سماه مقاصد الفلاسفة.

وقد اختلف العلماء رضي الله عنهم في هذه المسألة المنسوبة إلى أبي حامد على ثلاثة طوائف، فطائفة أنكرتها وردتها، وطائفة أولتها، وطائفة كذبت النسبة إلى أبي حامد ونزهت مقامه عن هذه المسألة.

الطائفة الأولى الرادة على أبي حامد رحمه الله وهم المحققون من أهل عصره فمن بعدهم إلى هلم جراً.

قال الإمام أبو بكر بن العربي فيما نقله أبو عبد الله القرطبي في شرح أسماء الله الحسنى قال: قال شيخنا أبو حامد الغزالي قولاً عظيماً انتقده عليه أهل العراق وهو بشهادة الله موضع انتقاد قال ليس في القدرة أبدع من هذا العالم في الإتقان والحكمة، ولو كان في القدرة أبدع منه وادخره لكان ذلك منافياً للجود وأخذ ابن العربي في الرد عليه إلى أن قال ونحن وإن كنا قطرة في بحره، فإنا لا نرد عليه إلا بقوله، ثم قال فسبحان من أكمل لشيخنا هذا فواضل الخلائق ثم صرف به عن هذه الواضحة في الطرائق، وممن سلك هذا المسلك أبو العباس ناصر الدين بن المنير الإسكندري المالكي وصنف في ذلك رسالة سماها الضياء المتلالي في تعقب الإحياء للغزالي، وقال المسألة المذكورة لا تتمشى إلا على قواعد الفلاسفة والمعتزلة لي. وفي مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السمهودي رسالته السابقة منتصراً لأبي حامد رحمه الله ومعترضاً على ابن المنير، وسيأتي ما في ذلك إن شاء الله تعالى.

وقال كمال الدين بن أبي شريف في شرح المسايرة، بعد أن ذكر أن في مقدورات الله

تعالى ما هو أبدع من هذا العالم ما نصه، ثم إن ما في بعض كتب الإحياء ككتاب التوكل مما يدل على خلاف ذلك والله أعلم صدر عن ذهول ابتنائه على طريق الفلاسفة، وقد أنكره الأئمة في عصر حجة الإسلام وبعده ونقل إنكاره عن الأئمة الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام انتهى.

وقال بدر الدين الزركشي: قال الغزالي ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولو كان ممكناً ولم يفعله لكان بخلاً يناقض الجود أو عجزاً يناقض القدرة قال: وهذا من الكلمات العقم التي لا ينبغي إطلاق مثلها في حق الصانع، ولعله إنما أراد تعظيم صنعة الصانع.

قلت: وذلك لأن الإلٰه الحق ثبت له الاختيار المطلق واستحال في حقه الظلم والبخل والعجز فقوله في دليله السابق: إذ لو كان أبدع من هذا العالم وادخره مع القدرة عليه لكان بخلاً وظلماً مخالف لذلك، وقد تعرض أبو حامد بنفسه في كتابه المسمى بالاقتصاد الذي ألفه في الاعتقاد لبيان استحالة هذه الحقائق في حقه تعالى، فعلى هذا فإذا كان هناك أبدع من هذا العالم ولم يفعله فذلك لكمال اختياره وتعاليه في عظمته وسلطانه لا لما قاله هنا من أن ذلك بخل وعجز وظلم تعالى الله عنه ذلك علواً كبيراً.

ورحم الله ابن العربي في قوله السابق: ونحن وإن كنا قطرة في بحره فإنا لا نرد قوله إلا بقوله، وإذا أردت أن ترد قوله بقوله فانظر كتاب الاقتصاد المتقدم، وانظر كتاب القسطاس المستقيم له أيضاً، إلى مواضع كثيرة في الإحياء صرح فيها بالحق الذي يجب للرب سبحانه ولعلنا نشير إلى شيء من ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

الطائفة الثانية: وهم المنتصرون لأبي حامد رضي الله تعالى عنه والمؤولون لكلامه على وجه صحيح في ظنهم، فأول هذه الطائفة أبو حامد نفسه فإنه سئل في زمانه عن هذه المسألة وهذا كلامه رحمه الله قال في الأجوبة المسكتة حاكياً للسؤال ما معنى ليس في الإمكان أبدع مما كان، من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيباً ولا أكمل صنعاً، ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلاً يناقض الجود الإلٰهي، وإن لم يكن قادراً عليه كان ذلك عجزاً ينافي الإلٰهية، وكيف يقضي عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختياراً ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم، ويقال ادخار خلق العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرناه وما الفرق بينهما.

ثم قال في الجواب إن ذلك أي تأخير خلق العالم قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار من حيث إنه الفاعل المختار أن يفعل وأن لا يفعل فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة إلى آخر كلامه الذي لا يفيد في الجواب شيئاً.

قلت: وإذا ثبت له الاختيار قبل الفعل ويثبت له تعالى حين الفعل وبعد الفعل سبحانه لا إلٰه إلا هو، فإن كان الاختيار هو السبب في تأخير وجود العالم فيجب أن يكون هو السبب في تأخير وجود الأبدع والإعراض عنه وحينئذ فقوله وإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة، يقتضي أن الاختيار مسلوب عند الفعل، وأنه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، يجب عليه فعل ما تقتضيه الحكمة، وحينئذ فيقال لأبي حامد رحمه الله تعالى فإذا كان الأبدع عدم تأخير وجود العالم فلم عدل عنه؟ فيقول لا محالة، إنما عدل عنه ليثبت له الاختيار فيقال له: وكذا يقال بعد الفعل إنما لم يجب فعل الأبدع ليثبت له تعالى الاختيار، فإن قال عند الفعل ينسلب عنه وقبله يثبت له لزمه نفي وصف الاختيار الثابت له تعالى أزلاً، وما ثبت قدمه استحال عدمه فهذه حجة واضحة ظاهرة على حجة الإسلام رضي الله عنه.

وقال الشيخ الشعراني رحمه الله في الأجوبة المرضية عن سادتنا الفقهاء والصوفية ومما أنكروه على الإمام الغزال قوله ليس في الإمكان أبدع مما كان، قال المنكرون هذا يفهم منه العجز في الجناب الإلٰهي والجواب كما قاله الشيخ محيي الدين بن العربي في الفتوحات أن كلام الغزالي في غاية التحقيق فلا ينبغي الإنكار عليه لأنه ما ثم إلا مرتبتان مرتبة قدم ومرتبة حدوث، فالمرتبة الأولى للحق تعالى وحده بإجماع أهل الملل، والمرتبة الثانية للخلق، فلو خلق الله تعالى ما خلق فلا يخرج عن مرتبة الحدوث فلا يقال هل يقدر الحق سبحانه على أن يخلق قديماً يساويه في القدم لأنه سؤال مهمل في غاية المحال انتهى.

قلت: وليس هذا من الجواب في شيء ولا نسبة بينه وبين مسألتنا بوجه ولا بحال، وإنما يصح أن يكون جواباً لو كان مدعي الغزالي رحمه الله أن ليس في الإمكان أبدع من القديم، ومدعي المنكرين عليه أن في الإمكان ما هو أبدع من القديم، فيكون الجواب أن الحادث لا يبلغ القديم أبداً. أما حيث كانت دعواه في مراتب الحدوث، وأن ما وجد من الحوادث لا يمكن أن يوجد حادث أبدع منه، ودعوى المنكرين أنه يمكن أن يوجد ما هو أبدع منه وإلا لزم تناهي المقدورات وذلك يستلزم القصور في القدرة المفضي للعجز فأنى يلاقيها ذلك الجواب، والله تعالى أعلم.

ثم قال الشعراني ناقلاً لجواب آخر: وأجاب الشيخ عبد الكريم الجيلي بأن كل واقع في الوجود قد سبق به العلم القديم فلا يصح أن يرقى عن رتبته في العلم القديم ولا أن ينزل عنها: فصح قول الإمام، ليس في الإمكان أبدع مما كان انتهى.

قلت: وهذا أيضاً ليس بجواب، لأنا لا نسلم أن كل واقع في الوجود لا يرقى عن مرتبته في العلم ولا ينزل عنها وذلك لا يستلزم أنه لا يمكن وجود أبدع منه، وإنما يصح أن يكون جواباً لو كان كلام الغزالي هكذا: ليس في الإمكان أن يرقى الحادث عن مرتبته في العلم أو ينزل، والله تعالى أعلم.

ثم قال الشعراني ناقلاً لجواب آخر: وأجاب الشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي في الطريق رحمه الله بأن معنى كلام الغزالي ليس في الإمكان أبدع حكمة من هذا العالم يحكم بها عقلنا، بخلاف ما استأثر الحق تعالى بعلمه وإدراكه وأبدعيته خاصة به تعالى، فإن ذلك أكمل وأبدع حسناً من هذا العالم الذي أظهره لنا إذ لو كان هذا العالم يدخله نقص لتعدي ذلك إلى خالقه، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد أجمع أهل الملل كلها على أنه لا يصدر عن الكامل إلا كامل، قال الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ﴾.

ومعلوم أن الامتنان والامتداح لا يكون إلا فيما هو كامل الأوصاف، وكيف يمتن الحق تعالى ويمتدح عند خلقه بمفضول انتهى.

قلت: وهذا إن سلم من التصحيف فليس بجواب أيضاً. أما أولاً فإنه متدافع إذ أوله يقتضي نفي إمكان الأبدع بحسب عقولنا فقط وأنه ثابت بحسب علمه تعالى وآخره يقتضي نفي إمكانه مطلقاً، إذ لو ثبت إمكان الأبدع لكان هذا الموجود ناقصاً بالنسبة إليه فيسرى النقص من الخلق إلى خالقه تعالى وحينئذ فنختار ما اقتضاه أول الجواب، ونمنع ما اقتضاه آخره ولا نسلم لزوم النقص له سبحانه إذ لا يلزم من ثبوت النقص في المفعول ثبوته في الفاعل كما لا يخفى، وإلا فالحادث كله ناقص لاحتياجه وافتقاره إلى خالقه، فلو كان نقص الفعل يسري إلى الفاعل لزم امتناع وجود الأبدع أيضاً لنقصه بالحدوث.

وأما ثانياً فالإجماع الذي عول عليه لا يعتمد عليه في هذا الباب لأن المسألة راجعة إلى القدرة التي هي إحدى مصححات الفعل التي لا يمكن إثباتها بالإجماع كما لا يخفى.

وأما ثالثاً فالإجماع الذي هو حجة ومعتصم هو إجماع هذهالأمة الشريفة الكريمة بالخصوص ولا عبرة بإجماع غيرها من الأمم، وهذه الأمة الشريفة قد أثبتت لربها الاختيار وأن يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد سبحانه لا إله إلا هو.

والله يعلم أني لم أقصد الاعتراض على ساداتنا العلماء رضي الله عنهم أجمعين، وإنما غرضنا إبانة الحق وإظهاره لا غير، والله تعالى أعلم.

وأجاب الإمام أبو البقاء محمد البكري الشافعي بقوله: والجواب عن ذلك أن إيجاد عالم أبدع من هذا العالم مستحيل لأنه لم يرد به الكتاب ولا السنة المبينة عن الله تعالى، ولو كان جائزاً لورد به الكتاب قال تعالى:

﴿مَا فَرَّطْنَا في الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ولم ترد به السنة، ولو كان فيها لذكره العلماء ونقلوه إلينا، فعلم أن ذلك مستحيل ولا نقص في القدرة.

قلت: وفيه نظر من وجوه: أحدها أن الكتاب والسنة قد وردا بذلك وقد سبق ذلك في صدر الكلام فراجعه. ثانيها أن الكتاب والسنة إنما يستدل بهما في الأمور النقلية التي لا دخل للعقل فيها.

وأما أحكام العقل الصرفة التي قيل إنها نفس العقل التي هي العلم بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فهي من الأمور الضرورية التي لا يحتاج فيها إلى دليل نقلي، والله تعالى أعلم.

ولا شك أن مسألتنا من جواز الجزائزات فتكون ضرورية لا يحتاج فيها إلى دليل. ثالثها أن ما ذكره معارض بكل علم بديهي كعلمنا بأن الأربعة زوج وأنها نصف الثمانية وأن الواحد نصف الاثنين، فيقال إن هذه العلوم لم يرد بها كتاب ولا سنة فتكون مستحيلة لأن كل ما ليس في الكتاب ولا في السنة مستحيل على قاعدة جوابه، والله أعلم.

وأجاب بدر الدين الزركشي رحمه الله تعالى: بأن قوله ليس في الإمكان أبدع مما كان، بالنسبة إلى إدراك العقول النيرة لا بالنسبة إلى عالم السر الخفي الكامل المطلق، الذي لا تنتهي أحكامه ولا تعد عجائبه ولا تحصى غرائبه، فمراده ليس في الإمكان بحسب ما تقتضيه العقول لا بحسب ما في غيب الله ولذا قال تعالى.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

فحكم العارف على قدر إدراكه لا على قدر أحكام ربه سبحانه فإن الرب تعالى محيط بكل شيء وليس لأحد إحاطة بنوع من أنواعه من كل وجه فإن لكل نوع أحكاماً متعددة منها ما أطلع الله عليه بعض عبيده ومنها ما هو راجع له انتهى.

قلت: وفيه نظر،فإن العقول النيرة تدرك في بداية نظرها جواز وجود ممكن أبدع ولا تحتاج في ذلك إلى فكر وروية لما سبق أن ذلك راجع إلى العلم بجواز الجائزات التي قيل إنها نفس العقل.

وقوله: فحكم العارف على قدر إدراكه. أقول: إنما ذلك فيما يدق ويخفى على غالب العقول. وأما الظاهر المبذول الضروري فلا فرق فيه بين عارف وغيره فمن وافقه وافق الصواب ومن لا فلا.

وقد سألت بعض العامة عن هذه المسألة فقال: أو ليست القدرة صالحة لكل ممكن بفرض؟ فقلت نعم.

فقال: أوليس قصرها على بعض الممكنات دون بعض قصوراً أو عجزاً؟ فقلت: نعم فقال أوليس العجز على الباري سبحانه مستحيلاً، فقلت: نعم، فقال المسألة ظاهرة فأي شيء يخفى فيها.

وسألت عامياً آخر عنها فقال: وليس صاحب الصغرى يقول وكذا يستحيل عليه تعالى العجز عن ممكن ما، وهذا الذي تقولونه ممكن فيقدر الباري تعالى عليه وإلا كان عاجزاً والله أعلم.

وأجاب الشيخ سيدي أحمد زروق رضي الله عنه في شرح قواعد العقائد للإمام حجة الإسلام أبي حامد رضي الله عنه عند قوله: فيها: ولا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها.

فقال الشيخ زروق رضي الله عنه: يعني أن كل ما برز بالقدرة وتخصص بالإرادة وأتقن بالعلم الإلهي لا يصح أن يكون ناقصاً في وجوده لكمال الأوصاف التي وجد عنها وهو أثر من آثارها إذ يلزم من وصفه بالنقص من حيث ذلك وصفها أي الأوصاف المنسوبة إليها بقصرها وتقصيرها ثم التقبيح والتحسين العقلي في محله والعادي في محله والشرعي في محله، لأن ما ذكر بحسب الحكمة وظهور النسب بالنسبة إلينا وعلى ما ذكر هنا يتخرج ما نسب إليه من قوله ليس في الإمكان أبدع مما كان يريد أن ما كان وما يكون إلى الأبد متى حصل في حيز فلا أبدع منه لأن العلم أتقنه ولا نقص في إتقانه والإرادة خصصته ولا نقص في تخصيصها والقدرة أبرزته ولا نقص في إبرازها فبروزها على أبدع الوجوه وأكملها، وعلى هذا تفهم هذه الكلمة وإن لم تفهم عليه لزمه القول بقصور القدرة وما معها من الأوصاف وذلك باطل لا يقوله أحمق فضلاً عن عاقل وبالله التوفيق اهـ.

قلت: ولا يخفى ما فيه فإنه لو كان نقص الأثر يستلزم نقص المؤثر وأوصافه لكان وجود غير الأبدع مستحيلاً ولكان وجود الأبدع واجباً وذلك يجر إلى التعليل وينفي الاختيار، فالصواب أن ذلك اللزوم ممنوع ووجود الأبدع وغيره جائز والاختيار شامل والقدرة عامة ولا نهاية لمتعلقاتها هذا إن أراد اللزوم في نفس الأمر، وإن أراد بحسب عقولنا وما تقتضيه الحكمة في نظرنا ورأينا فقد سبق ما فيه في كلام الزركشي والله أعلم.

وأجاب برهان الدين بن أبي شريف وهو أخو الإمام المتقدم في الطائفة الأولى وأصغر منه وعاش بعده زماناً طويلاً فقال ما نصه: وليس في مقالة حجة الإسلام إيجاب شيء ولا تحجير على القدرة ولا نفي لقدرته تعالى على غير هذا العالم بل هو قادر على إبراز عوالم لا نهاية لها ولكن لتعلق العلم القديم ووقوع اختياره وإرادته لإيجاده اتصف بالأبدع لكونه دالاً على ما اقتضته صفاته، وقوله ليس في الإمكان أبدع مما كان أي ليس فيما تعلقت القدرة به وسبق به العلم الإرادة من الممكنات أبدع مما وجد لما قررناه اهـ.

قلت: وفيه نظر من وجهين:

أحدهما أنه جعل سبق العلم والإرادة دليلاً على أن ما وجد هو الأبدع وهو لا يدل على ذلك وإنما يدل على أن ما وجد وجد عن علم وإرادة وهل هو أبدع أو لا يبقى ما هو أعم.

ثانيهما: أنك قد علمت أن الأبدع لا نهاية لأفراده لكونه مقدوراً والمقدور لا نهاية له وإذا كان الأبدع لا نهاية له فعلى تقدير أن تتعلق الأوصاف القديمة بوجود فرد منه يبقى في دائرة الإمكان ما لا يتناهى من أفراده والمجيب رضي الله عنه ظن أن الأبدع جزئي شخصي لا تعدد فيه، فإذا فرض تعلق العلم والمشيئة بوجوده استحال غيره وإلا كان العلم جهلاً وحيث كان الأبدع كلياً لا نهاية لأفراده لم يلزم من وجود فرد منها انتفاء غيره عن دائرة الإمكان والله أعلم.

وأجاب الشيخ أبو المواهب التونسي رحمه الله بما نصه: قوله ليس في الإمكان أبدع مما كان، قلنا إمكان الحكمة الإلٰهية لا إمكان القدرة الربانية وهذا هو اللائق بكلام حجة الإسلام انتهى.

قلت: لانسلم أنه لا يمكن ذلك في الحكمة الإلٰهية، فإنها إذا كانت متعلقات القدرة لا نهاية لها كانت الحكمة الإلٰهية لا نهاية لها لأنها تابعة لمتعلقات العلم ومتعلقات العلم لا نهاية لها، فلزم قطعاً أن الحكمة الإلٰهية لا نهاية لها، ومن الذي يجترىء على حكمة الله تعالى ويقول إنها محصورة ومقصورة.

وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان للحكمة وعلى أي شيء تطلق من كلام أبي حامد رضي الله عنه نفسه والله أعلم.

وأجاب شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي رضي الله عنه بقوله: لا يحل لأحد أن ينسب لأبي حامد القول بأن الله تعالى عاجز عن إيجاد ما هو أبدع من هذا العالم فإن هذا الفهم منشؤه توهم أن المراد بالإمكان في عبارته بمعنى القدرة أي ليس في القدرة أبدع مما كان، وليس كذلك بل هو بمعناه المشهور المقابل للامتناع، والإيجاب لكن بحذف مضاف أو نجعله بمعنى الممكن من باب إطلاق الصدر على اسم الفاعل، فمفاد عبارة حجة الإسلام أنه ليس في جانب الإمكان أو ليس في الممكن أبدع مما تعلقت به القدرة وهو حق إذ الوجود خير من العدم، ومفاد عبارة المعتزلة ما صرحوا به من أنه تعالى لا يقدر على إيجاد أبدع مما فعله بكل أحد، وهو باطل عند حجة الإسلام كسائر أهل السنة لبنائه على وجوب الأصلح عليه تعالى وهو أصل باطل، إلى أن قال: فعلم أن حجة الإسلام لم يرد بالإمكان في كلامه القدرة لأنه لو أرادها لرجع كلامه حينئذ إلى كلام المعتزلة، إلى أن قال: وبذلك علم أن اللفظ المذكور لا يحتاج إلى حمل وأنه لا ينبغي أن يقال دس عليه أو أنه زلة منه أو غير ذلك من الكلمات التي لا تليق بمقامه، بل هو كلام حق يجب اعتقاده على الوجه الذي قررته فليعتمد ذلك في هذا المقام فإنه من مزال الأقدام انتهى.

قلت: ولا يخفي ما فيه وما عول عليه في دفع المحال عن حجة الإسلام بحمل الإمكان على مقابل الوجوب والامتناع لا يدفعه، فإن المحذور بحاله لأن المعنى حينئذ

ليس في جانب الإمكان أو في الممكن أبدع مما كان فيلزم أن يكون الأبدع المفروض في جانب الامتناع أو في الممتنع وكونه في جانب الامتناع باطل لأنه ممكن. والممكن لا يكون ممتنعاً وأيضاً فإذا كان في جانب الامتناع لم تتعلق به القدرة فيساوي قول من قال لا يقدر على إيجاد الأبدع المفروض، لأن الأبدع إذا كان في جانب الامتناع فليس في القدرة إيجاده فالمحال لازم على حمل الإسكان على معنى القدرة أو على معناه المشهور المقابل للإيجاب والإمتناع وهو ظاهر والله أعلم.

وقوله: فمفاد عبارة حجة الإسلام أنه ليس في جانب الإمكان أبدع مما تعلقت به القدرة، وهو حق إذ الوجود خير من العدم لا يدل على المدعي المذكور لأنه ليس المدعي أن العدم أبدع من الوجود حتى يكون نفيه الذي هو كلام حجة الإسلام حقاً، وإنما المدعي أن الأبدع المفروض في جانب الإمكان وهو حق فيكون نفيه الذي هو كلام حجة الإسلام غير حق والله أعلم.

وقوله: ومفاد عبارة المعتزلة ما صرحوا به من أنه تعالى لا يقدر على إيجاد الأبدع أقول هو لازم لكلام حجة الإسلام رضي الله عنه على ما أولته عليه أيها المجيب رضي الله عنك فإن الأبدع إذا لم يكن في جانب الإمكان، ولزم أنه في جانب الامتناع لزم قطعاً أن القدرة لا تتعلق بالممتنع فجاء المحذور اللازم والله أعلم.

وقوله: وبذلك علم الخ أقول: إياك أن تغتر بهذا الكلام فإن غاية ما فيه أن الإمكان لا يحمل على القدرة بل على معناه المشهور، وقد علمت أن المحذور لازم عليهما.

وقوله: بل هو كلام حق يجب اعتقاده على الوجه الذي قررته. أقول: حاش لله أن يعتقد أحد أن الأبدع لو كان مع القدرة عليه ولم يفعله تعالى لكان بخلاً، فإن هذا عين رعاية الصلاح والأصلح الذي هو عين مذهب المعتزلة، وإنما الذي يجب اعتقاده أنه تعالى فاعل بالاختيار:

﴿لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يُفعَلُ ـ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُخْتَارُ ـ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ـ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلماً﴾.

والله أعلم.

وأجاب الحافظ جلال الدين السيوطي رضي الله عنه ونفعنا به آمين وهو من المنتصرين لحجة الإسلام فقال في كتابه الذي ألفه في هذه المسألة وسماه بتشييد الأركان لمسألة ليس في الإمكان أبدع مما كان، ما معناه توقف الناس في ذلك وقالوا إنه لا يناسب أصول أهل السنة وإنما يناسب أصول المعتزلة إذ كيف يكون مناقضاً للعدل عند أهل السنة مع أن فعل الأصلح عندهم من باب الفضل والمعتزلة يوجبونه عليه تعالى بناء على الحسن

والقبح العقليين قال: ولا شك أن الأمر كما قالوا من الأشكال وقد توقفت فيه أياماً حتى منّ الله علي بفهمه بعدالتضرع إليه وإظهار الذل والافتقار، فألهمني إليه وله الحمد وذلك أن حجة الإسلام رضي الله عنه إنما أراد تقرير الدليل على مذهب الفريقين معاً، لتتم له دعواه عدم الإمكان على المذهبين معاً، فكأنه قال هو محال إجماعاً من الفريقين أما على مذهب أهل السنة فلأن ادخاره مناف للفضل وهو الذي عبر عنه بالجود الإلٰهي، وأما على مذهب المعتزلة فلأن ادخاره عندهم ظلم ينافي العدل، فأتى بجملة كل فريق وليس مراده بالجملتين التقرير على مذهب واحد انتهى.

قلت: ولو عبر حجة الإسلام كذلك لقرب الحال ولكنه قال لو ادخره مع القدرة عليه لكان بخلاً ينافي الجود وأهل السنة رضي الله عنهم ينزهون ربهم عن وصفه بالبخل فقد بان أن العبارة الأولى لا تأتي على مذهب أهل السنة رضي الله عنهم.

قال شرف الدين بن التلمساني في شرح اللمع بعد ذكره مذهب البغداديين من المعتزلة في وجوب رعاية الأصلح وهؤلاء أخذوا مذاهبهم من الفلاسفة وهو أن الله تعالى جواد وأن الواقع في الوجود هو أقصى الإمكان ولو لم يقع لم يكن جواداً اهـ.

وقال ابن الهمام في المسايرة: إن المعتزلة يقولون إن ترك مراعاة الأصلح بخل يجب تنزيه الباري عنه فيجب أن لا يمكن أن يقع غير الأصلح فكما أن الشق الثاني مفرع على أصول المعتزلة كذلك الشق الأول والله تعالى أعلم.

وأجاب الشريف الأشهر المحدث الأكبر مولانا السيد السمهودي رضي الله عنه ونفعنا به في رسالته السابقة: وقد أطال في هذه الرسالة وكتب فيها ثلاثاً وثلاثين ورقة بخط مضموم وهو من المنتصرين لحجة الإسلام رضي الله عنه، وقد اعتنى في رسالته بنقض رسالة ناصر الدين بن المنير رحمه الله تعالى التي سبقت الإشارة إليها وقد تصفحت رسالة السيد السمهودي غاية وأعطيتها ما تستحقه من الأنصاف والتأمل والتمهل فوجدتها دائرة على ثلاثة أمور.

أحدها: المصادرة عن المطلوب.

ثانيها: ما وقع له من الغلط في القبح والحسن العقليين وهو أشد ما في رسالته شبهة.

ثالثها: عدم فهمه لكثير من كلام ابن المنير على الوجه الذي ينبغي فلنعتبر بإبانة هذه الأمور الثلاثة وإيضاح ما فيها حتى يهون على الواقف على الرسالة بعد ذلك أمرها ولا يكبر عليه ما فيها من الكلام، فنقول:

أما الأمر الأول قال السيد السمهودي رضي الله عنه: اعلم أن حجة الإسلام

رضي الله عنه لم يرد قطعاً من الوجوب في قوله على الترتيب الواجب الوجوب الذاتي المنافي للاختيار كما زعمت الفلاسفة الضلال ولا الوجوب على الله تعالى بالعقل كما يحكي عن المعتزلة المتشبثة بأذيال الفلاسفة في المقال، بل أراد أن ذلك هو الترتيب المتعين الذي لا بد من حصوله كما يعضده قوله في آخر كلامه السابق عن الإحياء، وقد صار ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فسبقها هو الموجب لحصوله إلى أن قال فالأحسن الأكمل واجب الحصول بسبب سبق القضاء والقدر والمشيئة النافذة به وإفضاء الحكمة له فالوجوب بهذا المعنى وجوب بالاختيار لأنه نشأ عن سبق العلم الذي لا يمكن تخلفه والمشيئة التي لا بد من إنفاذها، فاستحال خلافه لكمال نفوذ المشيئة به والقدرة التابعة لها والحكمة البالغة المقتضية لوضع الأشياء في محالها انتهى.

قلت قوله: بل أراد أن ذلك هو الترتيب المتعين الذي لا بد من حصوله إن أراد عقلاً فهو مذهب المعتزلة الذي نفاه وإن أراد أنه لا بد من حصوله لسبقية المشيئة به والعلم فهو مسلم ولكنه مصادرة عن المطلوب فإنه لم يأت بدليل على أن هذا الذي وجب لتعلق العلم به والمشيئة هو الأبدع الأكمل الذي لم يبق في الإمكان غيره وبالجملة فإن جعل الدليل على وجوب وجود الأبدع الأكمل رعاية الصلاح كان هو قول المعتزلة لا غير، وإن جعله ما سبق من العلم والمشيئة كان مصادرة عن المطلوب كما لا يخفى والله تعالى أعلم.

وقوله: فسبقها هو الموجب لحصوله إن كان على وصف أنه الأبدع فهو مصادرة وإن كان على وصف ما وجد عليه مع احتمال أن يكون ثم أبدع منه ولم يوجد فهو مسلم ولا يفيدكم شيئاً والله تعالى أعلم.

ثم ما عول عليه في وجوب وجود الأكمل من أن الحكمة تقتضي ذلك لأنها تقتضي وضع الأشياء في محالها ينبغي أن يقال عليه ما يريدون بالحكمة فإن أبا حامد رضي الله عنه قال في مقاصد الفلاسفة، إن الأول سبحانه حكيم لأن الحكمة تطلق على شيئين أحدهما العلم وهو تصور الأشياء بتحقق الماهية والحد والتصديق فيها باليقين المحض المحقق والثاني على الفعل بأن يكون مرتباً محكماً جامعاً لكل ما يحتاج إليه من زينة وكمال ثم بين علمه تعالى إلى أن قال:

وأما أفعاله ففي غاية الأحكام إذ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وأنعم عليه بكل ما هو ضروري له وبكل ما هو محتاج إليه وإن لم يكن في غاية الضرورة وبكل ما هو زينة وتكميل وإن لم يكن في محال الحاجة كتقويس الحاجبين وتقعير الأخمصين ونبات اللحية الساترة لتشيخ البشرة في الكبر إلى غير ذلك من اللطائف الخارجة عن الحصر في الحيوان والنبات وجميع أجزاء العالم انتهى.

وحينئذ فإن أردتم بالحكمة تعلق العلم بالأشياء الذي هو الوجه الأول فلا يخفى أنها

لا تقتضي عقلاً وجوب وجود الأبدع ضرورة أن العلم يتعلق بكل شيء وإن أردتم بها المعنى الثاني فلا يفيدكم أيضاً، لأنها عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي حتى تكون سبباً في كونه لا ينجز إلا الأبدع الأكمل على أن يكون الفعل محكماً متقناً لا يقتضي حصر الأبدع فيه وانتفاء سائر أفراده عن دائرة الإمكان.

وبالجملة فالحكمة لا تدل على ما ذكروه لأنها إما عبارة عن تعلق العلم وإما عبارة عن تعلق القدرة، وكل منهما لا يقتضي إيجاب وجود الأبدع وإنما يقتضيه اقتضاء فاسداً أحد أمرين إما التعليل ونفي الإختيار كما يقوله الفلاسفة الملعونون، وإما لئلا يلزم البخل والظلم كما يقوله المعتزلة والله تعالى أعلم.

ووراء هذا كله أن الأبدع الأكمل كلي لا نهاية لإفراده كما سبق فالحكمة وإن اقتضت وجود فرد من أفراده فما الدليل على الحصر واستحالة باقي الإفراد وكأنه رضي الله عنه توهم أن الأبدع الأكمل شخص جزئي، فإذا اقتضت الحكمة إيجاده استحال غيره لسبقية العلم والحكمة بإيجاده وهذا باطل، لأنه لو كان الأبدع شخصياً جزئياً لا تعدد فيه لزم تناهي المقدورات ضرورة فإنا إذا جزمنا بأنه ليس وراء هذا العالم الموجود ممكن أبدع منه وأنه لم يبق في دائرة الإمكان إلا ما هو أنقص منه لزمنا قطعاً أن الرب سبحانه تناهت مقدوراته الأبدعية الأكملية في هذا العالم الموجود ولزمنا قطعاً انتفاء التعلق الصلوحي للقدرة على إيجاد ما هو أبدع من هذا العالم، وهو المطلوب، وهذا القدر كاف فيما يتعلق بالأمر الأول والكيس إذا فتح له باب الكلام علم كيف يدخل وكيف يخرج والله تعالى أعلم.

أما الأمر الثاني قال السيد السمهودي رضي الله عنه: إن حكم العقل بالحسن والقبح بما يدركه من صفات الكمال النقص كحسن العلم والعدل وقبح الجهل متفق عليه بيننا وبين المعتزلة كما سنوضحه إن شاء الله تعالى يشير إلى ما ذكره بعد ذلك في قوله الفصل الثاني، قد توهم المعترضون أن حجة الإسلام بنى استدلاله لمدعاه على ما ذهب إليه المعتزلة في قاعدة الحسن والقبح العقليين وهو خارج عن قواعد أهل السنة والجماعة وهذا التوهم مردود من وجهين.

أحدهما: ما أسلفناه من استقلال العقل اتفاقاً بإدراك ما يرجع إلى صفة الكمال كحسن العلم والعدل وإلى صفة النقص كقبح الجهل والظلم وإدراك ثبوت الألوهية لله عز وجل وإدراك تنزيهه عن النقائص وانتفاء ما أدى إليها ولهذا اتفقوا على استحالة عدم وقوع ما سبق به علمه تعالى أنه سيقع وسلم الجميع وجوبه مستدلين بتنزيهه تعالى عن الجهل اللازم على عدم وقوعه وهو غير خاف على من مارس كتب الأصل، وما وقع فيها من تحرير محل النزاع وأن محله إنما هو في استقلال العقل بإدراك الحسن والقبح في حكم الله تعالى فقالت به المعتزلة وأباه الأشعرية ثم بنى على ذلك أن وجود غير الأبدع نقص وبين أولاً كونه نقصاً بأن وجوده خلاف ما تقتضيه الحكمة نقص في نظر العقل.

رضي الله عنه لم يرد قطعاً من الوجوب في قوله على الترتيب الواجب الوجوب الذاتي المنافي للاختيار كما زعمت الفلاسفة الضلال ولا الوجوب على الله تعالى بالعقل كما يحكي عن المعتزلة المتشبثة بأذيال الفلاسفة في المقال، بل أراد أن ذلك هو الترتيب المتعين الذي لا بد من حصوله كما يعضده قوله في آخر كلامه السابق عن الإحياء، وقد صار ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فسبقها هو الموجب لحصوله إلى أن قال فالأحسن الأكمل واجب الحصول بسبب سبق القضاء والقدر والمشيئة النافذة به وإفضاء الحكمة له فالوجوب بهذا المعنى وجوب بالاختيار لأنه نشأ عن سبق العلم الذي لا يمكن تخلفه والمشيئة التي لا بد من إنفاذها، فاستحال خلافه لكمال نفوذ المشيئة به والقدرة التابعة لها والحكمة البالغة المقتضية لوضع الأشياء في محالها انتهى.

قلت قوله: بل أراد أن ذلك هو الترتيب المتعين الذي لا بد من حصوله إن أراد عقلاً فهو مذهب المعتزلة الذي نفاه وإن أراد أنه لا بد من حصوله لسبقية المشيئة به والعلم فهو مسلم ولكنه مصادرة عن المطلوب فإنه لم يأت بدليل على أن هذا الذي وجب لتعلق العلم به والمشيئة هو الأبدع الأكمل الذي لم يبق في الإمكان غيره وبالجملة فإن جعل الدليل على وجوب وجود الأبدع الأكمل رعاية الصلاح كان هو قول المعتزلة لا غير، وإن جعله ما سبق من العلم والمشيئة كان مصادرة عن المطلوب كما لا يخفى والله تعالى أعلم.

وقوله: فسبقها هو الموجب لحصوله إن كان على وصف أنه الأبدع فهو مصادرة وإن كان على وصف ما وجد عليه مع احتمال أن يكون ثم أبدع منه ولم يوجد فهو مسلم ولا يفيدكم شيئاً والله تعالى أعلم.

ثم ما عول عليه في وجوب وجود الأكمل من أن الحكمة تقتضي ذلك لأنها تقتضي وضع الأشياء في محالها ينبغي أن يقال عليه ما يريدون بالحكمة فإن أبا حامد رضي الله عنه قال في مقاصد الفلاسفة، إن الأول سبحانه حكيم لأن الحكمة تطلق على شيئين أحدهما العلم وهو تصور الأشياء بتحقق الماهية والحد والتصديق فيها باليقين المحض المحقق والثاني على الفعل بأن يكون مرتباً محكماً جامعاً لكل ما يحتاج إليه من زينة وكمال ثم بين علمه تعالى إلى أن قال:

وأما أفعاله ففي غاية الأحكام إذ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وأنعم عليه بكل ما هو ضروري له وبكل ما هو محتاج إليه وإن لم يكن في غاية الضرورة وبكل ما هو زينة وتكميل وإن لم يكن في محال الحاجة كتقويس الحاجبين وتقعير الأخمصين ونبات اللحية الساترة لتشيخ البشرة في الكبر إلى غير ذلك من اللطائف الخارجة عن الحصر في الحيوان والنبات وجميع أجزاء العالم انتهى.

وحينئذ فإن أردتم بالحكمة تعلق العلم بالأشياء الذي هو الوجه الأول فلا يخفى أنها

هذا الكلام فحول الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني نقله عنه في البرهان وكإمام الحرمين في البرهان، وكأبي الحسن الإبياري شارح البرهان وغيرهم.

وإذا سمعت هذا علمت أن الحسن والقبح المتفق عليه بيننا وبين المعتزلة إنما هما العاديان الجاريان في محاورات الناس ومخاطباتهم، وأن المعتزلة راموا قياسه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً في أفعاله وأحكامه على خلقه في عوائدهم، وهو قياس فاسد كما بينه الغزالي رضي الله عنه، وحينئذ فالحسن والقبح بمعنى ملايمة الطبع ومنافرته وبمعنى صفة الكمال والنقص المتفق عليهما يجب ردهما إلى العادة والعرف لا إلى الحق سبحانه في أحكامه وأفعاله كما غلط فيه السيد السمهودي رضي الله عنه، وحينئذ فقوله إن ما قاله حجة الإسلام راجع إلى حسن متفق عليه غير صحيح بل هو راجع إلى حسن المعتزلة الذين يقيسون الغائب على الشاهد وقوله وهو غير خاف على من مارس كتب الأصول الخ. أقول قد خفي عليك أيها السيد الجليل رضي الله عنك ونفعنا بك فإن الأصوليين أشاروا إلى أن الحسن والقبح يجريان في أحكام البشر.

واختلفوا في أحكام الله تعالى، فقاس المعتزلة أحكامه تعالى على أحكام البشر، وخالفهم أهل السنة رضي الله عنهم وقالوا لا يقاس الغائب على الشاهد، هذا الذي وقع من قدماء الأصوليين حتى اشتهر أن القبح والحسن مختلف فيهما بيننا وبين المعتزلة، فجاء المتأخرون فبينوا محل الخلاف وصرحوا بأن المقيس عليه وهو ما يجري في أحكام البشر فوافقهم عليه وقسموه إلى ملائم للطبع ومنافر له وإلى ما هو صفة كمال ونقص.

وأما المقيس وهو ما يجري في أحكامه عز وجل فلا نوافقهم عليه وقياس الغائب على الشاهد لا يصح لأمور: منها أن القياس لا يفيد شيئاً في العقليات، لأن مفاده الظن والقطع هو المفيد في العقليات. ومنها أنه الحسن والقبح في أحكامنا يتبعان الأغراض وهي مستحيلة في حقه تعالى، فبطل القياس لوجود الفارق وانتفاء الجامع. ومنها أنه يحسن في حقه تعالى ما لا يحسن في حق خلقه كالمثال السابق عن الغزالي في المستصفى فإذا لا يقبح في حقه تعالى شيء لأنه متصرف في ملكه فيفعل فيه ما يشاء قال تعالى:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم الأمثلة التي ذكرها في أول كلامه للحسن المتفق عليه كلها مدخولة.

أما العدل والظلم والجهل، فقد سبق في كلام الغزالي رضي الله عنه أن ذلك إنما يقوله المعتزلة وقد رد عليهم بأبلغ رد، هذا إن رد الحسن والقبح في الأمثلة إلى الله عز وجل، وإن رد ذلك إلينا فهو مسلم ولا يفيده شيء في أحكام الله تعالى التي يروم إثباتها في هذه المسألة.

وأما إثبات الألوهية له تعالى وتنزيهه عن النقائص وإحالة أن يقع في الخارج خلاف

العلم فليست من هذا الباب في شيء، وإنما هذه مسائل كلامية فما استقل فيه بإدراكه فالعقل هو الحاكم بها كالمثال الأول والثالث، وما لا يستقل العقل فيه واحتاج فيه إلى الاعتضاد بالسمع فالسمع فيه هو الحاكم كالمثال الثاني، فإن الدليل العقلي فيه ضعيف كما عرف في علم الكلام والمعتمد فيه هو السمع كما بينوه في إثبات السمع والبصر والكلام، وانظر الصغرى وشروحها، ولو كان كل ما يدركه العقل من قبيل الحسن المتفق عليه لزم أن تكون جميع مسائل علم الكلام التي يدركها العقل من قبيل الحسن المتفق عليه ولا قائل بذلك، والله أعلم.

ثم ما بني على كلامه من أن وجود غير الأبدع نقص مردود والتوجيهان المذكوران سابقاً باطلان.

أما قوله إن غير الأبدع ناقص في نظر العقل لأنه خلاف ما تقتضيه الحكمة فمردود بأنه لا تقبيح في أفعاله تعالى ولا في أحكامه وحكمته تعالى لا نهاية لها وما يعلمه الحادث منها كلا شيء وحينئذ فلا يسعه أن يقول هذا على خلاف ما تقتضيه الحكمة فإن هذا الحكم منه يقتضي أنه أحاط بحكمة الله تعالى وهو محال.

وأما قوله: إن وجود الأبدع سبق به العلم والمشيئة فهو عين المصادرة عن المطلوب وقد سبق بيانها.

ومن عجيب ما ذكره في هذا الفصل قوله: والحنفية وهم أتباع أبي منصور الماتريدي أحد مشايخ أهل السنة من جملة المصرحين بهذا المعنى، الذي حققناه في بيان مراد حجة الإسلام حيث قالوا: وعندنا لا يجوز من الله تعالى العفو عن الكافر وتخليده في الجنة، ولا يجوز أن يخلد المؤمنون في النار، لأن الحكمة لا تقتضي التفرقة بين المسيء والمحسن وما يكون على خلاف قضية الحكمة يكون سفهاً وأنه يستحيل من الله تعالى.

قال السيد السمهودي رحمه الله تعالى: وهذا عين ما يقوله حجة الإسلام فلم ينفرد من بين أهل السنة بذلك الاستدلال ولا بالقول بتعيين الإيجاد على وفق الحكمة إلى ما سبق من التحسين والتقبيح المتفق عليهما ولدقة هذا المعنى وذهول أكابر الأشاعرة عن تحرير محل النزاع في التحسين والتقبيح العقليين لكثرة ما يشعرون به نفوسهم من أنه لا حكم للعقل توقف المنتصرون لحجة الإسلام، في قوله في الإحياء وظلماً يناقض العدل بل وربما توقف بعضهم في قوله وبخلاً يناقض الجود ولم أر في كلام أحدهم التعويل على ما فتح الله به علي من توجيهه اهـ.

قلت: أما ما ظهر له من تحرير محل النزاع فقد سبق أنه غلط، ومنشؤه والله تعالى أعلم أنه سمع أن الحسن والقبح بمعنى صفة الكمال والنقص عقلي متفق عليه، فظن العموم في أحكام البشر وفي أحكام الرب سبحانه وغفل عن أن ذلك في أحكام البشر خاصة.

وأما ما نقله عن الحنفية وتخريجه كلام أبي حامد عليه فلا يصح لوجهين: أحدهما تصريح أبي حامد بخلاف ذلك.

قال رضي الله عنه في الاقتصاد في الاعتقاد في الدعوى الخامسة من المطلب الثالث: تدعي أن الله تعالى إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب بل إن شاء أثابهم وإن شاء عذبهم وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم، ولا يبالي لو غفر لجميع الكفار وعذب جميع المؤمنين ولا يستحيل ذلك في نفسه، ولا يناقض صفة من صفات الألوهية وهذا لأن التكليف تصرف منه في عبيده ومماليكه.

وأما الثواب ففعل آخر على سبيل الابتداء. فإن قيل التكليف مع القدرة على الثواب وترك الثواب قبيح. قلنا إن عنيتم بالقبيح أنه مخالف غرض المكلف فقد تعالى المكلف وتقدس عن الأغراض. وإن عنيتم أنه مخالف غرض المكلف يعني بفتح اللام فهو مسلم ولكن ما هو قبيح عند المكلف لم يمتنع عليه تعالى فعله، إذا كان القبيح والحسن عنده وفي حقه بمثابة واحدة، على أنا إن تنزلنا على فاسد قولهم فلا تسلم أن من يستخدم عبيده يجب عليه في العادة ثواب، لأن الثواب يكون عوضاً عن العمل فتبطل فائدة الرق، وحق العبد أن يخدم مولاه لأنه عبد، وإن كان لأجل عوض فليس ذلك خدمة.

ومن العجائب قولهم: إنه يجب الشكر على العباد لأنهم عباد قضاء لحق نعمته ثم يجب عليه تعالى الثواب على الشكر وهو محال، لأن المستحق إذا وفي لم يلزم به عوض، وأفحش من هذا قولهم: إن كل من كفر يجب عليه تعالى أن يعاقبه أبداً ويخلده في النار وهذا جهل بالكرم والمروءة والعقل والعادة والشرع وجميع الأمور، فإنا نقول: العادة قاضية والعقول مشيرة إلى أن التجاوز والصفح أحسن من العقوبة والانتقام وثناء الناس على العافي أكثر من ثنائهم على المنتقم، واستحسانهم للعفو أشد، فكيف يستقبح الإنعام والعفو ويستحسن طول الانتقام، ثم إن هذا في حق من آذته الجناية ونقصت من قدره المعصية والله تعالى يستوي في حقه الطاعة والعصيان والكفر والإيمان، فهما في حق الهيبة والجلال سيان، ثم كيف يستحسن إن بنينا على قولهم تأبيد العقاب خالداً مخلداً في مقابلة العصيان بكلمة واحدة في لحظة، ومن انتهى عقله في الاستحسان إلى هذا الحد كانت دار المرضى لائقة به من مجامع العلماء. على أنا نقول لو سلك سالك ضد هذا الطريق بعينه لكان أقوم قيلاً وأجرى على قانون الاستحسان والاستقباح الذي تقضي به الأوهام والخيالات كما سبق، وهو أن نقول: الإنسان يقبح منه أن يعاقب على جناية سبقت وعسر تداركها إلا بوجهين:

أحدهما: أن يكون في العقوبة زجر ورعاية مصلحة في المستقبل فيحسن ذلك خيفة من فوات غرض في المستقبل، فإن لم يكن فيه مصلحة أصلاً فالعقوبة على ما سبق قبيح، وإنما يحسن الأذى لفائدة ولا فائدة وما مضى فلا تدارك له فهو في غاية القبح.

الوجه الثاني: أن نقول إذا تأذى المجني عليه وانتقم واشتد غيظه فذلك الغيظ مؤلم وشفاء الغيظ مريح من الألم والألم بالجاني أليق، فهذا أيضاً له وجه، وإن كان دليلاً على نقصان عقل المجني عليه وغلبة الغيظ عليه، فأما إيجاب العقاب حيث لا تتعلق به مصلحة لأحد في علم الله ولا فيه دفع أذى عن المجني عليه ففي غاية القبح، فهذا أقوم من قول من يقول إن ترك العقاب في غاية القبح والكل باطل واتباع لموجب الأوهام التي وقعت بتوهم الأغراض والله تعالى متقدس عنها، ولكنا أردنا مقابلة الفاسد بالفاسد ليتبين بذلك فساد خيالهم هذا كلام أبي حامد رضي الله عنه نقلته بطوله لحسنه ومزيد تحقيقه فاعجب غاية ممن يحمل كلامه على نقيضه، والله أعلم.

الوجه الثاني أن قول الحنفية: وعندنا لا يجوز العفو الخ يقال عليه إذا استحال العفو المذكور استحالته إما ذاتية وإما عرضية، أي وجبت بالغير، فإن قالوا إنها ذاتية لزمهم أن القدرة لا تتعلق به لاستحالته ولا بضده لوجوبه، وهي لا تتعلق لا بواجب ولا بمستحيل، وذلك تعليل يؤدي إلى التعطيل، وإن كانت استحالته عرضية وجبت بالغير يسألون عن هذا الغير، فإن قالوا هو ما سبق في العلم، فيقال لهم: هو لا ينافي الجواز في العفو المذكور نظراً لذاته، وإن قالوا هو ما اقتضته الحكمة فيقال لهم:

أولاً: الحكمة راجعة إلى العلم والقدرة ولا نهاية لمتعلقهما فلا نهاية للحكمة فهل أحطتم بحكمة الله تعالى التي لا نهاية لها ومحال أن يحيطوا بها، وإن قالوا كما قال الخضر لموسى عليهما السلام: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور بنقرته من البحر، فيقال لهم: فالسكوت خير لكم لو كنتم تعلمون.

وثانياً: هل انتهى بالرب سبحانه اقتضاء الحكمة إلى القسر والقهر أو لم ينته إلى ذلك، فإن قالوا بالانتهاء لزم العجز في حق الإله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإن قالوا لم ينته وله تعالى أن يفعل خلاف ذلك أبطلوا قولهم ورجعوا إلى الحق الصريح، والمذهب الصحيح.

ثم اشتغل السيد السمهودي رحمه الله بنقص مذهب الحنفية في التقبيح ووسع فيه الدائرة قاصداً بذلك إدخال أبي حامد في زمرتهم، لأنهم أهل سنة وجماعة، وكيف يصح أن يوافقهم أبو حامد وهو يهدم قولهم ويجعل عاليه سافله ولا يخلو حال من يقبح بعقله في أفعال الله تعالى من أحد أمور ثلاثة، إما أن يدعي الإحاطة بعلم الله تعالى وأسراره في خليقته وأنى له بذلك وقد قال تعالى:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾.

وإما أن يلتزم مقالة الخضر لموسى عليهما السلام، وفي ذلك اعتراف بسوء مذهبه وبطلان جرأته في تقبيحه، وإما أن يلتزم قياس الحق سبحانه في أفعاله على عباده في محاوراتهم ومخاطباتهم وهو قياس فاسد كما سبق، فالقول بالتقبيح في أفعال الله تعالى فاسد على كل احتمال وباطل على كل حال، حتى قال أبو حامد رحمه الله تعالى في الاقتصاد. فاستبان أن

مآخذهم يعني الذي يقبحون في أفعال الله تعالى أوهام رسخت فيهم من العادات تعارضها أوهام أمثالها ولا محيص عنها، يعني كما سبق له في إحالتهم تعذيب المطيع وعكسه.

وقال أيضاً: وهذا مع وضوحه للعقل فلا ينبغي أن يغفل عنه لأن إقدام الخلق وإحجامهم في أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم تابع لمثل هذه الأوهام فأما اتباع العقل الصرف فلا يقوي عليه إلا أولياء الله تعالى الذين أراهم الحق حقاً وقواهم على اتباعه وإن أردت أن تجرب هذا في الاعتقادات فأورد على فهم المعتزلي العامي مسألة معقولة جليلة فإنه يسارع إلى قبولها فلو قلت إنه مذهب الأشعري نفر وامتنع عن القبول وانقلب مكذباً بعد ما كان مصدقاً مهما كان سيء الظن بالأشعري إذا كان قبح ذلك في نفسه منذ الصبا.

وكذلك تقرر أمراً معقولاً عند العامي الأشعري ثم تقول له إن هذا قول المعتزلي فينتفي عن قبوله ويعدل إلى التكذيب بهذا التصديق. ولست أقول هذا طبع العوام في أصل التقليد بل هو طبع أكثر من رأيته من المتسمين باسم العلم، فإنهم لم يفارقوا العوام في أصل التقليد بل أضافوا إلى التقليد في المذهب التقليد في أصل الدليل في نظرهم لا يطلبون الحق بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه حقاً بالسماع والتقليد، فإن صادفوا في نظرهم ما يؤيد اعتقادهم قالوا: قد ظفرنا بالدليل، وإن ظهر لهم ما يضعف نظرهم ومذهبهم قالوا: قد عرضت لنا شبهة فيضيعون الاعتقاد المتغلب بالتقليد أصلاً وينبذون بالشبهة كل من يخالفهم وبالدليل كل من يوافقهم هذا كلام أبي حامد رضي الله عنه.

وقول الحنفية: إن خلاف ما تقتضيه الحكمة سفه، قال أبو حامد رضي الله عنه في الاقتصاد هو خطأ، فإن السفه فعل ما يتضرر الفاعل به وفعل ما لا ينفع فيه للفاعل ولا ضرر وكل ذلك إنما يصح فيمن يلحقه الضرر وفيمن تكون أفعاله للأغراض، والرب تعالى يتنزه عن ذلك.

قال رضي الله عنه: وكذا قولهم ما لا فائدة فيه عبث والعبث على الله تعالى محال.

قال أبو حامد: وهذا تلبيس لأن العبث عبارة عن فعل لا فائدة فيه ممن يتعرض للفوائد، فمن لا يتعرض لها فتسميته عابثاً محال محض لا حقيقة له يضاهي قول القائل الجدار غافل أي خال عن العلم والجهل وهو باطل، لأن الغافل يطلق على القابل للعلم والجهل إذا خلا عنهما؛ فإطلاقه على الذي لا يقبل ذلك مجاز لا أصل له فكذلك إطلاق العبث على الله تبارك وتعالى، وإطلاق العبث على أفعاله اهـ. كلامه رضي الله عنه وفيه إقناع وبلاغ وبهذا تعلم ما في قول السيد السمهودي ولدقة هذا المعنى وذهول أكابر الأشاعرة عن تحرير محل النزاع توقف المنتصرون لأبي حامد في قوله ظلماً يناقض العدل وبخلا يناقض الجود، فإنه قد تبين أنه لا دقة لذلك المعنى بل هو باطل وأنه لا ذهول عن تحرير محل النزاع.

وأما توقف المنتصرين لأبي حامد في الظلم والبخل، فما كان من حقهم أن يتوقفوا بل كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى رده وإنكاره فإنه مردود ببداية العقول ولا يصح أن يتمشى إلا على أصول الفلاسفة والاعتزال، وأبو حامد رضي الله عنه منزه عن ذلك، وقد أبدى وأعاد وأفاد وأجاد في رد محالهم وزخرف باطلهم، حتى عظمت في الإسلام منته وظهرت على العلماء نعمته، حتى قال ابن العربي رحمه الله في العواصم بعد أن ذكر الفلاسفة ومذاهبهم المخالفة للإسلام، وقد جاء الله بطائفة عاصمة تجردت لهم وانتدبت بتسخير الله وتأييده للرد عليهم، إلا أنهم لم يكلموهم بلغتهم ولا ردوا عليهم بطريقتهم، وإنما ردوا عليهم وعلى إخوانهم من المبتدعة بما ذكر الله في كتابه وعلمه لنا على لسان رسوله فلما لم يفهموا تلك الأغراض بما استولى على عقولهم من صدأ الباطل، وطفقوا يستهزئون من تلك العبارات ويطعنون في تلك الدلالات، وينسبون قائلها إلى الجهالات ويضحكون مع أقرانهم في الخلوات، فانتدب للرد عليهم بلغتهم ومكافحتهم بسلاحهم والنقض عليهم بأدلتهم أبو حامد الغزالي رحمه الله فأجاد فيما أفاد، وأبدع في ذلك كما أراه الله وأراد وبلغ من فضيحتهم المراد، فأفسد قولهم من قولهم وذبحهم بمداهم فكان من جيد ما أتاه ومن أحسن ما رواه، ورآه وأفرد عليهم فيما يختصون به دون مشاركة أهل البدع كتاباً سماه تهافت الفلاسفة ظهرت فيه منته ووضحت في درج المعارف مرتبته، وأبدع في استخراج الأدلة من القرآن على رسم الترتيب في الوزن الذي شرطوه على قوانين خمسة بديعة في كتاب سماه القسطاس ما شاء، وأخذ في معيار العلم عليهم طريق المنطق فزينه بالأمثلة الفقهية والكلامية، حتى محا فيه رسم الفلاسفة ولم يترك لهم مثالاً ولا ممثلاً وأخرجه خالصاً من دسائسهم، وقد كان تعرض سخيف من بادية بلدنا يعرف بابن حزم حين طالع شيئاً من كلام الكندي، إلى أن صنف في المنطق فجاء بما يشبه عقله ويشاكل قدره.

وقد كان أبو حامد رحمه الله تاجاً في هامة الليالي؛ وعقداً في لبة المعالي، انتهى الغرض من كلام ابن العربي رحمه الله.

وأما رده على المعتزلة وإبانته عن سيء اعتقادهم، فقد أبدع فيه في كتاب الاقتصاد بل تعرض فيه بالخصوص لإحالة الظلم منه عز وجل حيث قال فإن قيل فيؤدي أي إيلام البريء إلى أن يكون ظلماً وقد قال تعالى إنه:

﴿لَيۡسَ بِظَلَّامٍ لِلۡعَبِيدِ﴾.

قلنا الظلم منفي بطريق السلب المحض كما تسلب الغفلة عن الجدار والعبث عن الريح، فإن الظلم إنما يتصور ممن يمكن أن يصادف فعله ملك غيره ولا يتصور ذلك في حق الله تعالى أو يمكن أن يكون عليه أمر فيخالف فعله أمر غيره فلا يتصور من الإنسان أن يكون ظالماً في ملك نفسه بكل ما يفعله إلا إذا خالف أمر الشرع فيكون ظالماً بهذا المعنى، فمن لا يتصور منه أن يتصرف في ملك غيره ولا يتصور منه أن يكون تحت أمر غيره كان

الظلم مسلوباً عنه فلتفهم هذه الدقيقة فإنها مزلة القدم، فإن فسر الظلم بمعنى سوى ذلك فهو غير مفهوم فلا يتكلم عليه بنفي ولا بإثبات هذا كلامه رضي الله عنه، وبهذا ونحوه تطيح رسالة السيد السمهودي رحمه الله ويظهر لك فساد ما ذكره في الظلم والبخل المشار إليهما في العبارة السابقة، وقد تركت التعرض لذلك لعلمي بركاكته وخشية طول الكلام والله أعلم.

وأما الأمر الثالث: وهو كون السيد السمهودي رضي الله عنه لم يفهم مقاصد ابن المنير رحمه الله، فإن لا أتعرض له لطول الكلام فيه، إلا أني أقول فيه قولاً مختصراً وهو أن غالب ما ذكره ابن المنير صحيح حق لا شك فيه، وردوداته على عبارة الإحياء مستقيمة لا إعوجاج فيها وأجوبة السيد السمهودي عنها غير تامة إلا حرفاً واحداً، فإني أخالف فيه ابن المنير وهو تنقيصه من مقام أبي حامد وغضه من مرتبته فإني لا أوافق على ذلك، فإن أبا حامد إمام الدنيا والدين، وعالم الإسلام والمسلمين، والعبارة المنسوبة إليه في الإحياء مدسوسة عليه، ومكذوبة فإن كلامه رضي الله عنه في كتبه يردها من كل وجه وسترى ما في ذلك إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الطائفة الثالثة: وهم الذاهبون إلى عدم نسبة المسألة إلى أبي حامد رضي الله عنه وتكذيبها، ومستندهم في ذلك أنهم عرضوها على كلام أبي حامد في كتبه فوجدوها مع كلامه على طرفي النقيض، والعاقل لا يعتقد النقيضين فضلاً عن أبي حامد رضي الله عنه، فلذلك حكمنا ببطلان نسبة تلك المسألة إليه رضي الله عنه، ووقع لأبي حامد ما يخالفها في غير ماعبارة من كلامه وأثبت شيء منها فنقول:

العبارة الأولى: ما سبق في المستصفى حيث قال: وقولهم إنه تركهم لينزجروا بأنفسهم فيستحقوا الثواب هوس، لأنه علم أنهم لا ينزجرون فليمنعهم قهراً فكم من ممنوع من الفواحش لعجز أوعته، وذلك أحسن من تمكينهم مع العلم، بأنهم لا ينزجرون انتهى ووجه الشاهد في قوله: وذلك أحسن أي المنع قهراً أو لعجز أوعته أحسن من التمكين فالتمكين هو الذي كان والمنع قهراً، ونحوه هو الذي لم يكن وقد صرح بأنه أحسن مما كان وأبدع ففي الإمكان أحسن مما كان، وإنما ألف المستصفى في آخر عمره بعد رجوعه من السياحة والتبتيل والإحياء ألفه قبل ذلك كما أشار إليه في خطبة المستصفى، وكان تاريخ انقطاعه عن العلم والتدريس وهروبه بنفسه سنة ثمانية وثمانين وأربعمائة في ذي القعدة من السنة المذكورة، وتاريخ رجوعه إلى العلم والتدريس في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربع مائة وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة، وقد بسط رضي الله عنه أسباب العزلة وأسباب الرجوع إلى العلم وأطال في ذلك وفي أمور تتعلق به في كتابه المنقذ من الضلال فليراجعه فيه من أراده، والله تعالى أعلم.

العبارة الثانية: قال رضي الله عنه في الاقتصاد: وأما هذا الخلق الموجود فالعقلاء

كلهم قد تمنوا العدم، فقال بعضهم يا ليتني كنت نسياً منسياً، وقال آخر يا ليتني لم أك شيئاً وقال آخر يا ليتني كنت تبنة رفعت من الأرض، وهذا قول الأنبياء والأولياء، وهم العقلاء، فبعضهم يتمنى عدم الخلق، وبعضهم يتمنى عدم التكليف بأن يكون جماداً، وليت شعري كيف يستجيز العاقل أن يقول للخلق في التكليف فائدة، وإنما الفائدة في نفي الكلفة والتكليف في نفسه إلزام الكلفة وهو ألم، وإن نظر إلى الثواب وهو الفائدة كان قادراً على إيصاله إليهم بغير تكليف.

فإن قيل: الثواب إذا كان باستحقاق كان ألذ وأرفع من أن يكون بالامتنان والابتداء.

والجواب: أن الاستعاذة بالله من عقل من ينتهي إلى التكبر على الله والترفع من احتمال منته وتقدير اللذة في الخروج من نعمته أولى من الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم. وليت شعري كيف يعد من العقلاء من يخطر بباله مثل هذه الوساوس، فمن يستثقل المقام أبد الأبد في الجنة من غير تقدم تعب بتكليف أخس من أن يخاطب ويناظر إلى أن قال: فنعوذ بالله من عدم العقل بالكلية فإن هذا الكلام من ذلك النمط فينبغي أن يسترزق الله عقلاً لصاحبه ولا يشتغل بمناظرته اهـ، إلى عبارات كثيرة تقدمت من كلام الاقتصاد وإلى عبارات أخر منه بقيت لم أثبتها مخافة السآمة، والله تعالى أعلم.

العبارة الثالثة: قال في الإحياء في كتاب قواعد العقائد: خلق الله سبحانه الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قدرته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، ولا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

ثم قال: وإنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف، لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك كان منه عدلاً، ولم يكن منه قبحاً ولا ظلماً، إذ لا يجب عليه فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب عليه لأحد حق.

وقال: فإن قيل مهما قدر على إصلاح العباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة.

فأجاب عنه، إلى أن قال: فلا يتصور منه تعالى قبح كما لا يتصور منه تعالى ظلم، إذ لا يتصور منه تعالى التصرف في ملك الغير، إلى أن قال: ثم إن الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء والقادر على إحكام فعلها على وفق إرادته، وهذا من أين يؤخذ منه رعاية الأصلح، وإنما الحكيم منا يراعي الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد بذلك في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثواباً أو يدفع عن نفسه ضرراً أو عقاباً، وكل ذلك على الله تعالى محال إلى عبارات كثيرة وقعت في الإحياء، فلتراجع فيه.

وقد تكفل بجمعها برهان الدين البقاعي رحمه الله تعالى في رسالته المتقدمة، وأنت

إذا تأملتها أيقنت أنها تناقض ما نسب إليه في المسألة المتكلم فيها فإنه قضى فيها بأن ادخار الأبدع مع القدرة عليه ظلم وبخل، وقضى هنا بأن صب العذاب والآلام والأوصاب على الخلائق عدل لا ظلم فيه والتناقض بينهما ظاهر لا يخفى، فإن ادخار الأبدع إذا كان ظلماً يناقض العدل كان صب العذاب والآلام والأوصاب ظلماً يناقض العدل بالأولى والأخرى، وقد حكم عليه هنا بأنه عدل لا ظلم فيه، ويلزمه أن يكون ادخار الأبدع كذلك بالأولى والأخرى فيكون عدلاً لا ظلم فيه، وقد صرح في المسألة بأنه ظلم يناقض العدل فيهافت الكلامان وهذا بمكان في الوضوح لا يخفى، ولعلك تقف على رسالة السيد السمهودي رحمه الله المتقدمة، فتجده فيها يشير إلى الجمع بين المسألة وبعض ما تقدم عن الإحياء بجمع ركيك إلى الغاية وساقط إلى النهاية فليحذره الواقف عليه، فإنه لولا خشية السآمة لبينت سقوطه هنا لكن الحق لا يخفى على الفطن، والله أعلم.

فإن قلت: كيف تكون المسألة مكذوبة عليه وقد وقعت في عدة من كتبه ولا سيما في الأجوبة المسكتة المتقدمة، فإن ذلك يقتضي أنه وقف رضي الله عنه على أشكالها واشتغل بالجواب عنها، ولو كانت مكذوبة عليه كما ظننتم لبادر إلى إنكارها وتبرأ من قبحها وعوارها.

قلت: لا مانع من أن يقع الكذب عليه مرتين مرة في نسبة المسألة إليها ومرة في نسبة الجواب عنها.

وقد قال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب الانتصار ما معناه: إن وجود مسألة كتاب أو في ألف كتاب منسوبة إلى إمام لا يدل على أنه قالها حتى تنقل عنه نقلاً متواتراً، يستوي فيه الطرفان والواسطة وذلك مفقود في مسألتنا قطعاً، فلذلك قطعنا بأنه لم يقلها حيث وجدناها، مخالفة لعقيدة أهل السنة، ولكلام الغزالي في سائر كتبه والله أعلم.

والحاصل أن ما نسب إليه في المسألة إن كان دليله الظلم المناقض للعدل فقد نفاه أبو حامد في كلامه السابق، وإن كان دليله البخل فقد نفاه أبو حامد في كلام الاقتصاد المتقدم، وإن كان دليله أنه يخالف الحكمة فقد أبطله أبو حامد في الإحياء والاقتصاد وغيرهما، وإن كان دليله الاستحسان العقلي ومراعاة الصلاح والأصلح فقد أبطله أبو حامد في الاقتصاد والإحياء والقسطاس، وإن كان دليله الاستحسان المتفق عليه الذي عول عليه السمهودي رحمه الله فقد أبطلناه فيما سبق، وإن كان دليله ما سبق في العلم والمشيئة كما عول عليه السمهودي أيضاً رحمه الله فقد بينا فيما سبق أنه مصادرة، وإن كان دليله أن الناقص لا يصدر عن الكامل فقد بينا بطلانه فيما سبق والله أعلم.

وإنما طولت في هذه المسألة وتعرضت فيها لنقض الأجوبة السابقة لأني رأيت أكثر الخلق جاهلين بها معتمدين في تصحيحها على صدورها من أبي حامد رضي الله عنه.

قال أبو حامد رضي الله عنه في كتابه المنقذ من الضلال: وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق، والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله، فالعاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله محقاً أو مبطلاً إلى أن قال: وهذا الطبع هو الغالب على أكثر الخلق فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن اعتقادهم فيه قبلوه وإن كان باطلاً، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه، وإن كان حقاً وأبداً يعرفون الحق بالرجال وذلك غاية الضلال هذا كلامه رضي الله عنه.

وقد حماني الله تبارك وتعالى من أبي حامد رحمه الله بشيخنا رضي الله عنه، وذلك أني لما عزمت على رد هذه المسألة وإبطالها والإبانة عن سوء محالها، وقف على الشيخ رضي الله عنه فملأ قلبي بتعظيم أبي حامد رضي الله عنه وأجله في عيني وعظمه في نظري، حتى امتلأ باطني بذلك، حتى صارت ردوداتي تتوجه إلى المسألة ولم ينل أبا حامد منها شيء، بل لم يجر على لساني والحمد لله إلا تعظيمه واحترامه، فكان هذا عندي من أعظم بركات الشيخ رضي الله عنه.

ومن أكبر اعتنائه بنا حتى بعد الممات فرأيته رضي الله عنه، وقد علمت أنه ميت وأنا بين النائم واليقظان، فما زال يكلمني وأنا أكلمه وطال الأمر بيننا حتى خرجنا إلى أبي حامد الغزالي رحمه الله، فقال رضي الله عنه، إنه قطب وأمرني بتعظيمه جداً وقال لي رضي الله عنه: إن عليه لباساً ما رأيته أو ما دخل به علي إلا احتقرت نفسي، وأنه من الأولياء الكبار.

ثم قال لي رضي الله عنه: اسمع لما أقوله لك اليوم وشبك أصابعه الكريمة في أصابعي وقال هذا عهد النبي أو شباك النبي ﷺ إلا وهو ولي كبير، فتكلمت معه في شأنه فزادني شباكاً آخر، على أنه ولي كبير.

ثم قال رضي الله عنه: إن أبا حامد يكون معي أو قال لا يفارقني وأنه يسألني كثيراً عن العلوم التي يحتاج إليها يعني في الآخرة، هذا بعض ما في تلك الرؤيا المنامية، فأصبحت والحمد لله وقد دخلتني محبة عظيمة في أبي حامد رحمه الله فلم ينله شيء من حروشة عبارتنا ورزقنا الله حسن الأدب معه، وذلك ببركة الشيخ رضي الله عنه، ولله الحمد التام والشكر العام، نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل هذه الحروف التي كتبتها في هذه المسألة خالصة لوجهه الكريم وموجبة لرضوانه العميم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله.

﴿الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَ كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثامن

في ذكر ما سمعنا منه رضي الله عنه

في خلق أبينا آدم وتدريج أمره على نبينا وعليه الصلاة والسلام

وبيان أن خليقة بني آدم هي أفضل الخلائق وأن شكل صورتهم هو أفضل الأشكال

فسمعته رضي الله عنه يقول: إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام جمع تربته في عشرة أيام، وتركها في الماء عشرين يوماً، وصوره في أربعين يوماً، وتركه عشرين يوماً بعد التصوير، حتى انتقل من الطينية إلى الجسمية فمجموع ذلك ثلاثة أشهر، وهي رجب وشعبان ورمضان، ثم رفعه الله إلى الجنة ونفخ فيه من روحه وهو في الجنة وخلقت منه حواء وهو في الجنة فكان خلقها في الجنة، ولما تم لها شهران في الجنة ركبت فيهما الشهوة فواقعها آدم، فحملت ووضعت حملها بعد النزول إلى الأرض لثلاثة أشهر من حملها، ثم حملت في الأرض بعد ذلك فوضعت حملها لتسعة أشهر فاستمر ذلك إلى اليوم.

فقلت: وما التربة التي خلق منها آدم؟

فقال رضي الله عنه: تربة جميع المعادن معدن الذهب ومعدن الفضة ومعدن النحاس وسائر المعادن، فأخذت تربته من كل معدن وجمع ذلك في محل وخلق منه آدم.

فقلت: ومن الذي جمع ذلك؟

فقال رضي الله عنه: الملائكة ومن شاء الله وأكثرهم حملاً سيدنا جبريل عليه السلام لأن الله وعده أن مخلوقاً من التراب لا أعز عند الله منه يكون جبريل عشيراً له ومرافقاً معه، وينال منه بركة عظيمة، وهو سيد الوجود ﷺ، فكان جبريل يجمع التراب وهو يظن أنه لذلك المخلوق الذي وعد به.

فقلت: وما مقدار ذلك التراب؟

فقال رضي الله عنه: مقدار ما يعمر من الأرض مقدار ميل أو أقل منه يعني أنهم جمعوا تراباً كثيراً مقدار مساحة ما سبق.

فقلت: فلم احتاجوا في جمعه إلى عشرة أيام والله تعالى قادر على جمعه في لحظة.

فقال رضي الله عنه: والله تعالى قادر على خلق السموات والأرضين في لحظة، فلم جعل خلقهن في ستة أيام، وقادر على خلق آدم من غير تراب فلم جعله من تراب، ولكنه

تعالى يخلق بعض الأشياء ويرتب خالقها في أيام ويجريه شيئاً فشيئاً، لأنه يحصل من ذلك توحيد عظيم للملأ الأعلى لأن في تنقل ذلك الحادث من طور إلى طور ومن حالة إلى حالة وظهور أمره شيئاً فشيئاً ما لا يكيف من جمع همم الملأ الأعلى، إلى الإلتفاتات إليه بالتعجب في أمر الله في ذلك الحادث والتفكر في شأنه وكيف يخلقه، وماذا يكون منه وإلى أي شيء يصير فهم يرتقبون الحالة التي يخرج عليها، فإذا حصلت حصل لهم من التوحيد ما لايكيف ولا يحصى، وفي زمن الإرتقاب يحصل لهم من العلم بالله تعالى والإطلاع على باهر قدرته وسريانها في المقدورات شيء عظيم فلا يفوتهم شيء من أسرارها في ذلك المخلوق فيحصل لهم فيه التفهيم التام، فالتدريج لهذه الحكمة ولحكمة أخرى وهي أنه بهذا التدريج، وانتظار خروج الحادث والتشوق إليه توجد مخلوقات أخر، مثل هذا الحادث أو أعظم فالله تعالى في كل شيء أسرار وحكم.

فقلت: وما هذا الماء الذي جعلت فيه تربته وتركت فيه عشرين يوماً.

فقال رضي الله عنه: ماء خاص فيه نفع لذات آدم وذريته، وإنما كان فيه ذلك النفع لأنه ماء الأرض التي ينسب إليها على الحقيقة فيشاكل الذات المذكورة ويناسبها.

فقلت: وهل هو من أصل الأرض أم كيف الحال فيه؟

فقال رضي الله عنه: ليس هو من أصل الأرض ولكن حصل له مرور على غالب أجزاء الأرض وذلك أن المياه المارة على الأرض منها ما يمر على بعضها فلا يأخذ إلا سر ذلك البعض ومنها ما يمر على غالب أجزائها أو كلها، فيأخذ سرها وهذا الماء عين من العيون الخارجة من الأرض الجائية من أرض الشام، فهناك جمعت تربته عليه الصلاة والسلام في غور من الأرض مساحته ما قلناه فيما سبق وبلت تربته بهذا الماء، لأنه يستمد من المياه التي في أطراف الأرض فتراه ماشياً في تخوم الأرض خارقاً لأجزائها حتى ينتهي إلى تلك العين، ويأتي إليها من جميع النواحي والعين باقية إلى الآن، وفيها من الموافقة للذات ما لا يوجد في غيرها من المياه التي على ظهر الأرض قال فبقي ذلك التراب في الماء المدة السابقة يعني عشرين يوماً، وعند ذلك ابتدأ التصوير في آدم عليه الصلاة والسلام وهو في جوف ذلك الطين فبقي التصوير يدخله شيئاً فشيئاً إلى أن كمل ذلك في أربعين يوماً، وهو في جوف الطين لا يرى منه شيء، وبعد ذلك أراد الله تعالى نقله من الطينة إلى جسم بني آدم فظهر في أصابعه شبه القرحة حتى ملأتها ثم انفجرت وجمدت مادتها على الأصبع فرجع أبيض مثل الجمار ثم سرى ذلك فيه عضواً عضواً وجزءاً جزءاً إلى أن صار كله مثل الجمار في الصفاء والرطوبة أو مثل عجين ناصع أخذ دقيقه من خالص القمح، فصور من ذلك صورة آدم، ثم دخلته الدموية شيئاً فشيئاً وانفلق عنه الطين وحصل فيه يبس فصارت الريح تهب عليه واليبس يظهر في أجزائه، فتكونت العظام بإذن الله، فلما تكاملت خلقته في عشرين يوماً وأراد الله نفخ الروح فيه نقله إلى الجنة ورفعه إليها.

فقلت: أية جنة هي؟

فقال رضي الله عنه: الجنة الأولى فلما حل فيها دخلت فيه الروح فدخل فيه العقل والعلم وحصلت له المعرفة بالله عز وجل فأراد أن يقوم فارتعد فسقط ثم أراد أن يقوم فحصل له مثل ذلك أيضاً مثل ما يحصل للصبيان من السقوط إذا أرادوا القيام ثم إن الله تعالى أمده بالمشاهدة التي سبق ذكرها في الأسماء وهو واقف على رجل معتمد بركبته الأخرى على الأرض، فلما حصلت تلك المشاهدة قال الله الله لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، فأمده الله تعالى بالقوة فاستقل قائماً وجعل يمشي في الجنة ويروح حيث شاء، ثم ألقى الله عليه وجعاً في ضلعه فحصل فيه مثل الدمل العظيم حتى خرج منه قدر رأس إنسان، فبقي فيه إلى أن انفجر عن مثل القليب بالتصغير فسقط القليب إلى الأرض فنظر إليه آدم، فإذا هو مصور بصورته فتركه وجعلت روائح الجنة ونفحاتها تمر على ذلك القليب، فنفعه ذلك في سرعة الكبر، فجعل آدم يتعاهده فيجده يسرع في الكبر إسراعاً عظيماً فجعل يأنس إليه ويجلس معه فألقى الله العقل في ذلك القليب فجعل يتحدث مع آدم، فلما مر عليما شهران في الجنة ألقى الله تعالى الشهوة فيهما، فوقع آدم على حواء التي كانت ذلك القليب السابق فحملت فوضعت حملها في المدة السابقة.

قال رضي الله عنه: إنما رفع الله آدم إلى الجنة لتسقى ذاته من أنوارها حتى لا تنسى ذريته العهد الذي أخذه عليهم يوم ألست بربكم، وتعظيماً لسيدنا محمد ﷺ يعلم هذا أرباب البصائر.

فقلت: فالشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها ما هي؟

فقال رضي الله عنه: هي شجرة التين من غير شك قال وإنما نهاه عن الأكل منها لأن تلك الشجرة وأنواعاً غيرها من الأشجار التي في الجنة تسهل بطن كل من أكل منها فنهاه الله تعالى عن الأكل منها لئلا يسهل بطنه فلا يكون من أهل الجنة.

فقلت: فأطعمه الجنة وثمارها والنعم التي فيها وإن كانت متجسدة فإنها أنوار لا ثقل لها كما جاءت به الأحاديث الكثيرة، وما لا ثقل له فلا يسهل به بطن.

فقال رضي الله عنه: صحيح ما قلتم. ولكن ذوات أهل الجنة إذا دخلوها يوم القيامة أساسها صحيح، ولها من القوة ما لا يخفي فليست هي كذات آدم حين دخل الجنة فإذا نزلت النعم في ذوات أهل الجنة أطاقتها للقوة التي فيها ولأن الذوات حينئذ أنوار مثل النعم فرجعت الأنوار إلى أصلها بخلاف ذات آدم حين دخل الجنة، فإنها ترابية ضعيفة فلذا لم تطق الأكل من تلك الشجرة.

فقلت: هذا يقتضي أن ذات آدم في ذلك الوقت لا تطيق الأكل من تلك الشجرة ولا من غيرها.

فقال رضي الله عنه: الأشجار التي في الجنة والنعم التي فيها على قسمين.

قسم: وهو الغالب الكثير إنما هو أنوار لا تشاكل شيئاً من نعم دار الدنيا، فهي أنوار لا ثقل لها أصلاً، وهذا القسم تطيقه ذات آدم وهو الذي أمره الله أن يأكل منه.

وقسم: وهو القليل نعم تشاكل النعم التي في دار الدنيا في النوع والصفة ولها ثقل وهذا النوع لا تطيقه ذات آدم حين كان في الجنة، فنهاه الله تعالى عن الأكل منه لئلا يخرج من الجنة.

قال: إنما انقسم نعيم أهل الجنة إلى هذين القسمين، لأن الله تعالى علم في سابق علمه أن لأهل الجنة حالتين.

الحالة الأولى: وهي الحالة الغالبة عليهم، أن لا تخطر الدنيا الفانية في عقولهم ولا تخطر على بالهم فتغيب هي وأمورها وجميع ما فيها من النعم عن عقولهم، وفي هذه الحالة يكرمهم الله تعالى بالقسم الأول، فيأكلون منه ويشربون ويتنعمون.

والحالة الثانية: وهي النادرة أن تخطر الدنيا الفانية في عقولهم ويستحضرون الأحوال التي كانوا عليها فيتمنونها فيجدونها حاضرة وهي القسم الثاني، والحالة الأولى، أكمل من جهة الفكر، فإنهم فيها بمنزلة من هو مع ربه سبحانه فلا يشعر بغيره وأكمل من جهة النعم لأنها هي النعم التي كانت لهم بحسب الأصالة وبحسب ما اقتضاه حال أهل الجنة وأكمل من جهة الدوام لأنها هي الغالبة عليهم، والحالة الثانية، دونها في جميع ذلك.

وأما من جهة الفكرة فإنهم بمنزلة الغائبين عن المشاهدة فشعروا بأنفسهم ومن شعورهم بأنفسهم خرجوا إلى التفكر في أمور الدنيا حتى تمنوا نعيمها.

قال رضي الله عنه: فلما علم الله أن لأهل الجنة التفاتاً إلى دار الدنيا في بعض الأحوال خلق في الجنة نعما على طبع الجنة لا ثقل لها أصلا وخلق فيها لأجل ذلك الالتفات نعماً على غير طبع الجنة لها ثقل وشبه بنعم أهل الدنيا ولكنهم لما كانت ذواتهم في الجنة أنواراً قوية لم يظهر فيها ثقل وذات آدم لما ضعفت عن ذواتهم حين دخل الجنة ظهر الثقل الذي فيها في ذاته فإذا الثقل الذي في القسم الثاني لا يظهر إلا في الذات الضعيفة وليست إلا ذات آدم يومئذ.

قال رضي الله عنه: وكان عقل آدم عليه السلام قبل أن يأكل من الشجرة متعلقاً بربه غافلاً عن مصالح نفسه، ولما أكل منها انعكس الأمر، فتعلق عقله بمصالح ذاته وسر ذلك هو أنه قبل أن يأكل من الشجرة كان أكله تنعما وتفكها لا يجوع معه ولا يظمأ، فكفى شأن الجوع وتدبير المعاش فكان العقل متعلقاً بربه، فلما أكل من الشجرة وحصل له الإسهال والجوع بعده التفت العقل إلى الذات، وقال إذا فرغت البطن فأي شيء تعمر به، فجعل يفكر في تدبير معاشها فذلك أنزله الله تعالى إلى دار الكد والشقاء.

ولما علم الله سبحانه منه ذلك، وأنه سينزل إلى الأرض رتب له سبحانه أسباب المعاش، ونصب له سبلها قبل أن يهبط من الجنة، وذلك أنه لما صوره من التربة السابقة وقد سبق أنها كثيرة صور له من تلك التربة كل حيوان يحتاج إليه في أمر معاشه، وكان أصل خلقتها من التربة المذكورة فإن الله تعالى لما رفع آدم ظهرت الحيوانات كلها في ذلك الطين على صورة الدود وخلق من كل نوع عشرة خمسة من الذكور وخمسة من الإناث.

قال رضي الله عنه: فالسبع والنمر والفهد حتى عد خمسة كلها نوع واحد.

ثم أرسل الله بعد رفعه مطراً عظيماً ما سمع بمثله فجاءت السيول من كل مكان وجاءت معها بالأوحال الكثيرة، فزادت على ذلك الطين فحصل نفع عظيم ومدد قوى منها. الحيوانات بمنزلة من اتسع عيشه، وجاءه الخصب وكثرت عليه الخيرات، فلما نزل آدم بعد تسعة أشهر وجد الحيوانات تمشي على وجه الأرض وهي تكبر شيئاً فشيئاً فأنس بها وأعلمه الله أنها سبب معاشه ومعاش ذريته إلى يوم القيامة.

قال: وأنبت الله في الموضع الذي كان فيه رأس آدم من الطين النخيل والأعناب والتين والزيتون، فلما نزل آدم بعد تسعة أشهر وفرغ بطنه طلب ما يأكل فجعل الله الطعم في تلك الأشجار والنخيل، فكان أول رزق رزقه الله من أسباب المعاش وحملت تلك الأشجار في هذه المدة القريبة بإذن الله.

فقلت: فحديث:

«أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ طِينِ آدَمَ».

صحيح أم لا؟

فقال رضي الله عنه: ليس هو من كلام النبي ﷺ.

قلت: وكذا قال الحفاظ للحديث مثل ابن حجر والزركشي والسيوطي وغيرهم.

فقلت: وهل خلق الله له من الأشجار غير الأربعة السابقة.

فقال رضي الله عنه: كل شجرة مذكورة في القرآن باسمه كالنخيل والأعناب والتين والزيتون والرمان وكل ما ذكر في القرآن باسمه فقد خلقه الله من تلك التربة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنه ليس في مخلوقات لله كلها أحسن خلقة من بني آدم، فذواتهم هي أحسن ذوات المخلوقات وأفضلها وأرفعها وأقومها، والعاقل إذا تأمل في التفاصيل التي في ذات الآدمي والتركيب الذي بين أجزائها والترتيب الذي بين مفاصلها وعروقها والمحاسن التي اشتمل صنع الله عليها في ظاهرها وباطنها حار وعلم عظمة خالقها ومصورها سبحانه.

فقلت: فبم فضلت على ذات الملك؟

فقال رضي الله عنه: لأنه اجتمع فيه مخلوقات لم تجتمع في ذات الملك، وكل ما في ذات الملك هو في ذات الآدمي وزيادة، فإن ذات الملك من نور وركب في ذلك النور عقل هذا ما في ذات الملك لا غير، وذات الآدمي فيها ذلك النور وفيها العقل وفيها الروح وفيها ألوان من تراب ونار وريح وماء، في كل واحد منها سر من الأسرار، قدره الله عز وجل، فاجتماعها في ذات واحدة تقوي الأسرار في تلك الذات.

وبالجملة فذات الآدمي فيها عدة مخلوقات، وذات غيره ليست كذلك، فكانت ذات الآدمي أقوى الذوات، ولهذا كانت تطيق من الأسرار ما لا تطيقه ذات الملك ولهذا صور نبينا ومولانا محمد ﷺ عليها فإنه ﷺ أقوى المخلوقات في تحمل الأسرار الربانية، فلو كانت هناك ذات أقوى من ذات الآدمي لصور سيد الوجود ﷺ عليها.

قلت: وما ذكره رضي الله عنه من كون ذات الآدمي أقوى الذوات وأحسنها، أشار إليه الإمام القشيري في التحبير في شرح أسماء الله الحسنى فانظره، فإن كلام شيخنا رضي الله عنه أبسط منه، وإنما كتب منه بعض البعض والكثير بقي في لسانه رضي الله عنه.

ثم قال رضي الله عنه: ومع كون ذات الآدمي أحسن الذوات فقد جرى في سابق علمه جل وعلا أن جعل طائفة منها إلى الجنة وطائفة إلى النار وذلك بسبب حجب بصائرهم عنه تعالى فإنه أولاً جعل في تلك الذات الروح وسرها الذي هو العقل ومعرفة الله تعالى ونور الإيمان به مع المشاهدة ورفع الحجاب جل وعلا بينه وبينها، فحصلت لها المعرفة بخالقها على الوجه الأكمل، فلما أراد الله تعالى إنفاذ الوعيد وضع الحجاب على تلك الذات فزالت المشاهدة التي كانت لها، ووقعت لها القطيعة، ويا ليتها حيث وقعت لها القطيعة لم تتعلق بشيء، فإن ذلك خير لها مما وقعت فيه، وذلك أنها نظرت إلى خيط نور العقل الذي بقي فيها فتعلقت به وجعلته عمدتها وسندها في كل شيء فزادها ذلك قطيعة، لأنها نظرت إليه على أنه منها وناشيء منها وراجع في جميع الأمور إليها فزادها استقلالاً بنفسها وانقطاعاً عن الله عز وجل، ولو نظرت إليه على أنه من الله عز وجل وأنه تعالى هو محركه في كل لحظة لكان في ذلك رجوعها إلى الله سبحانه وحصلت المشاهدة التي زالت.

وبالجملة فحاصل أمرها أنها انقطعت عن قديم وتعلقت في نظرها بحادث ولو لم تتعلق بشيء كان خيرا لها.

قال رضي الله عنه: فلما تعلقت بعقلها في تدبيرها واستندت إليه في أمر معاشها ومعاشرتها للخلق، وعلم الله تعالى أنها لا بد أن تنحرف عن الطريق أرسل إليها الرسل

ليردوها إلى طريق معرفته تعالى فظهر فيما جرى في سابق الأزل فأجابت طائفة وكذبت طائفة، وكان في إجابة الأولى بعض الرجوع عن اتباع العقل وفي تكذيب الثانية غاية التعلق بالعقل وتمام اتباعه.

فقلت: وما هو الحجاب الذي وضع حتى زالت المشاهدة؟ أهو الدم الذي هو سبب في الغفلة أم غيره.

فقال رضي الله عنه: غيره وهو ظلام من ظلام جهنم كسيت به الذات فحجبها عن الحق ومعرفته.

فقلت: فما النسبة بينه وبين الدم.

فقال رضي الله عنه: لا نسبة بينهما إلا أن الدم يزيد في البعد عن الله تعالى فهو يزيد في الحجاب، ثم ضرب مثلا لكون الدم مبعداً برجل له ولد صغير عزيز عليه مثل عينيه في المحبة والمعزة ثم أصابه الضر المعروف بحب البيش حتى كساه في وجهه وجميع ذاته فإن والده يحن عليه ويهتم له ويكبر عليه ما أصاب ولده ولا يفر منه، بل يغلب حب ولده حتى لا يستقبح ذلك المرض فتراه يقبل ولده ويشمه مع ذلك المرض، وإنما فعل ذلك لأجل الإتصال الذي بينه وبين الولد فلو فرضنا الولد بعيدا منه أجنبياً عنه لا نسبة بينه وبينه في شيء من الأشياء، نفر منه إلى الغاية وهرب منه إلى النهاية وتحاماه بالكلية قال فذلك مثل الدم في المؤمن والكافر.

ثم قال رضي الله عنه في الطائفة التي أجابت الرسل أنها انقسمت إلى فرقتين، فرقة أجابوا ووقفوا مع الإيمان بالغيب من غير فتح عليهم وهم عامة المؤمنين، وفرقة أجابوا وترقوا إلى الفتح، فمنهم من استمر مفتوحاً عليه، ومنهم من وقف به الفتح والذين استمر بهم الفتح في زيادة دائماً، والذين وقف بهم الفتح في نقصان دائم، ثم ضرب مثلاً لوقوف الفتح ونقصانه واستمراره ودوامه.

فقال رضي الله عنه: إنه بمنزلة رجلين فقيرين خرجا يطلبان غنيا فلما رفعا إليه أيديهما وطلب منه كل واحد درهماً فأخذوا واحد منهما درهماً واستغنى به والآخر لما أخذه استزاده فزاده موزونة فاستزاده فزاده عشر موزونات، فاستزاده فزاده ديناراً ذهباً، فإذا فرضنا هذا الغني كريماً وخزائنه لا تنفد ولا تغيض ثم فرضنا هذا السائل مستزيداً دائما فإن العطية لا تقف به أبداً، وهكذا حال أولياء الله تعالى الذين استمر بهم الفتح فإنهم في زيادة دائماً في كل لحظة أبد الآبدين ودهر الداهرين، حتى في حال نزول الموت بهم فإنهم رضي الله عنهم لا يحسون به لأن عقولهم وأرواحهم وذواتهم منقطعة عن غيره تعالى ومن جملة الغير الموت فهم لا يشعرون به أصلاً.

قلت وهذا قريب من الكلام السابق لأن من قبض في الباقي سبحانه لا يموت الموتة المعروفة وأن ذلك هو دواء الموت فراجعه فيما سبق والله أعلم.

الباب التاسع

في الفرق بين الفتح النوراني والظلماني
وما يتبع ذلك من تقسيم النوراني إلى فتح أهل الكمال

وإلى فتح من هو دونه وما ينجر إليه الحديث من الفرق بين المجذوب والأحمق مع استوائهما في ذهاب العقل عنهما وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالمفتوح عليهم.

اعلم وفقني الله وإياك أنه قد سبق في أثناء هذا الكتاب المبارك أمور كثيرة من أمور الفتح متفرقة في أبوابه لمناسبة لها مع تلك الأبواب، فلم تمكن إعادتها في هذا الباب خيفة التكرار مع كثرتها جداً فلتراجع في محالها لا سيما ما كتبناه في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

مما يشاهد المفتوح عليه من الأمور الباطلة الفانية الظلمانية والأمور الثابتة الباقية النورانية، وما في ذلك من التفاصيل فليراجع ولا بد وكذلك أيضا ما كتبناه في مسئلة من ادعى رؤية النبي ﷺ يقظة فإنه نفيس جداً فراجعه في أول الباب الخامس في السؤال الثاني منه، وكذا ما كتبناه في مسئلة:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

فإنه متعلق بفتح أهل الكمال والغرض الآن ذكر ما لم يتقدم له ذكر مما يتعلق بهذا الباب فنقول:

سألته رضي الله عنه: عما يذكره سقراط وبقراط وأفلاطون وجالينوس وغيرهم من الحكماء وفلاسفة الكفر في العالم العلوي، مثل كلامهم في النجوم وسيرها وموضع أفلاكها وقولهم إن القمر في الفلك الأول، وعطارد في الثاني، والزهرة في الثالث، والشمس في الرابع، والمريخ في الخامس، والمشتري في السادس، وزحل في السابع، إلى غير ذلك، مما يحكمون به في القرانات، وأمور تعديل الفلك من أين لهم ذلك، مع أنه غيب محض إذ ليس مما يدرك بالحواس ولا بأدلة النظر وهم يستندون في ذلك إلى وحي من الله تعالى لبعض أنبيائه، وما يحكى في ذلك عن سيدنا إدريس على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لا يفي بتفاصيل ما ذكروه مع أن النسبة إلى سيدنا إدريس بعدت مسافتها والتواتر في طريقها منتف بالضرورة وخبر الآحاد فيها لا يجدي شيئاً إذ هذا المخبر إن كان من الفلاسفة فهم

أهل كفر وخبر الواحد لا يقبل إلا من العدل، وإن كان من غيرهم فهذا الغير لا يعلم كفره من إيمانه.

فقال رضي الله عنه: إن الله تعالى خلق الحق والنور وخلق لهما أهلاً وخلق الظلام والباطل وخلق لهما أهلاً، فأهل الظلام يفتح لهم في الظلام ومعرفته وجميع ما يتعلق به، وأهل الحق يفتح لهم في الحق ومعرفته وجميع ما يتعلق به، والحق هو الإيمان بالله تعالى والإقرار بربوبيته، والتصديق بأنه يخلق ما يشاء ويختار، مع الإيمان بالأنبياء والملائكة وجميع ما يتعلق برضاه سبحانه، والظلام هو الكفر وكل قاطع عن الله سبحانه ومنه الدنيا والأمور الفانية، والحوادث التي تكون فيها، وكفاك دليلاً على ذلك لعن النبي ﷺ لها، حيث يقول:

«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلاّ ذِكْرُ الله وَما وَالاَهُ».

وأن الحق نور من أنوار الله سبحانه وتعالى تسقى به ذوات أهل الحق، فتتشعشع أنوار المعارف في ذواتهم، وأن الباطل ظلام تسقى به ذوات أهل الباطل فتسود عقولهم وتعمى أبصارهم عن الحق، وتصم آذانهم عن سماعه، بل لا يقع في عقولهم ولا يخطر ببالهم، وإنما الحق عندهم بمنزلة شيء في طي العدم لم يسمع به قط فغفلتهم عن الحق كغفلة ذوي العقول عن مثل هذا الذي هو في طي العدم على الصفة السابقة، ولذلك يفتح على أهل الباطل في مشاهدة هذا العالم سمائه وأرضه ولا يشاهدون فيه إلا الأمور الفانية المتعلقة بالأجرام الحادثة وهيآتها، مثل ما يذكرونه في أحكام النجوم مثل النجم الفلاني موضعه في الفلك كذا وأنه إذا قارنه نجم كذا كان كذا وكذا، ومثل نسبة لغة العرب إلى برج العقرب ولغة العجم إلى المريخ وغير ذلك.

وأما قبر النبي ﷺ والنور المستمد منه إلى قبة البرزخ، وذوات الأولياء العارفين بالله تعالى وأرواح المؤمنين الكائنة بأفنية القبور والحفظة الكرام الكاتبين، والملائكة الذين يتعاقبون فيها وغير ذلك من أسرار الحق الموصلة إلى الله تعالى التي وضعها في أرضه، فلا يفتح لهم في معرفتها ولا تقع في عقولهم أبداً لأن الله تعالى سقاهم بالظلام وقطعهم عن معرفته بالكلية حتى أن المبطل المذكور لو نظر إلى لوح مكتوب فيه كلام الله عز وجل الذي هو نور وشفاء لما في الصدور لشاهد ببصيرته المكسوفة المقطوعة، جرم اللوح دون حروف القرآن العزيز المكتوبة، وكذلك لا يشاهد أهل الظلام شيئاً من أسرار الحق سبحانه التي وضعها في سمائه، ولا يشاهدون شيئا من الملائكة، ولا يسمعون تسبيحهم ولا يشاهدون الجنة ولا القلم ولا اللوح ولا أنوار الحروف الخارجة من القلم، وكذلك لا يعرفون الحق سبحانه الذي هو خالقهم.

وبالجملة فقد حجبهم الحق سبحانه عن نفسه وعن كل ما يوصل إليه وفتح عليهم في

غير ذلك مما يضرهم ولا ينفعهم، فأخبار الفلاسفة لعنهم الله عن العالم العلوي من هذا الوادي وكل ما حكموا به في ذلك فهو خطأ حيث نسبوا ذلك للنجوم وإنما الفاعل لذلك هو الله تعالى الذي هو خالق النجوم، ولذا قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَذٰلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا، فَذٰلِكَ كافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

فالفلاسفة لعنهم الله حجبهم الحق سبحانه عن معرفته وعلق عقولهم بالكواكب ليشغلهم بها، حتى ينفذ فيهم الوعيد السابق مع أن الربط الذي يذكرونه في أحكام النجوم وإن كان من فعله تبارك وتعالى، فقد كان منه البعض وأخطأوا في الكثير منه.

وأما أهل الحق: فلهم فتح في أول الأمر وفي ثاني الأمر.

أما الفتح في أول الأمر: فجميع ما سبق فتحه لأهل الظلام في هذا العالم سمائه وأرضه فيشاهد صاحب هذا الفتح الأرضين السبع وما فيهن والسموات السبع وما فيهن، ويشاهد أفعال العباد في دورهم وقصورهم لا يرى ذلك ببصره، وإنما يراه ببصيرته التي لا يحجبها ستر ولا يردها جدار، وكذا يشاهد الأمور المستقبلة مثل ما يقع في شهر كذا وسنة كذا وهؤلاء وأهل الظلام في هذا الفتح على حد سواء ولذا يقال، الكشف أضعف درجات الولاية، أي لأنه يوجد عند أهل الحق، ويوجد عند أهل الباطل وصاحبه لا يأمن على نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام، حتى يقطع مقامه ويتجاوزه.

وأما الفتح في ثاني الأمر: فهو أن يفتح عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى ويتكلم معهم ويناجيهم على بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسه، وكذا يشاهد أرواح المؤمنين فوق القبور والكرام الكاتبين والملائكة، والبرزخ وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي ﷺ، وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ، فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي ﷺ في اليقظة حصل له الأمان من تلاعب الشيطان لاجتماعه مع رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ.

ثم اجتماعه مع الذات الشريفة سبب إلى معرفته بالحق سبحانه ومشاهدة ذاته الأزلية لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة يتعلق بالحق سبحانه ويترقى في معرفته شيئاً فشيئاً إلى أن تقع له المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة فهذا الفتح الثاني، هو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل وأما الفتح الأول: فإنه كما يقع لهم يقع لأهل الظلام فيقع لهم الفتح في مشاهدة الأمور الفانية ويتمكنون من التصرف فيها، فنرى المبطل يمشي على البحر ويطير في الهواء ويرزق من الغيب وهو من الكافرين بالله عز وجل، وذلك أن الله تعالى خلق النور وخلق منه

الملائكة وجعلهم أعوانا لأهل النور بالتوفيق والتسديد وخرق العوائد، وكذلك خلق الظلام وخلق منه الشياطين وجعلهم أعوانا لأهل الباطل بالاستدراج والمزيد في الخسران والتمكن من الخوارق.

قال رضي الله عنه: وعلى هذا تخرج حكاية اليهودي الذي كان مع إبراهيم الخواص رضي الله عنه في سفينة، فتعارفا وترافقا في العشرة، فقال له اليهودي: إن كنت صادقا في دينك فهذا البحر فامش عليه فأنا ماش عليه، فقام اليهودي يمشي فوق الماء، فقال إبراهيم الخواص: واذلاه إن غلبني اليهودي ثم رمى بنفسه فوق البحر، فأعانه الله عز وجل ومشى كما مشى اليهودي، ثم إنهما خرجا من البحر، فقال اليهودي لابراهيم الخواص إني أريد منك الصحبة في السفر، فقال إبراهيم لك ذلك فقال اليهودي بشرط أن لا تدخل المساجد لأني لا أحبها ولا ندخل الكنائس لأنك لا تحبها، ولا ندخل مدينة لئلا يقول الناس اصطحب مسلم ويهودي ولكن نجول الفيافي والقفار ولا نتخذ زاداً، فقال ابراهيم لك ذلك، فخرجا إلى الفلوات ثم بقيا ثلاثة أيام لم يذوقا شيئاً فبينما هما جالسان إذ أقبل كلب يمشي إلى اليهودي وفي فمه ثلاثة أرغفة فطرحها بين يديه وانصرف قال إبراهيم: فلم يعرض على أن آكل معه فبقيت جائعاً ثم إنه أتاني شاب من أحسن الناس شباباً وأطيبهم رائحة وأحسنهم وجهاً وأحلاهم منظراً وفي يده طعام ما رؤى مثله فطرحه بين يدي وانصرف فعرضت على اليهودي أن يأكل معي فأبى فأكلت، ثم قال اليهودي: يا إبراهيم إن ديننا ودينكم على الحق، وكل منهما يوصل وله ثمرة إلا أن دينكم أرق وألطف وأبهى وأحسن فهل لك أن أدخل فيه، قال: فأسلم وكان من جملة أصحابنا المتحققين بالتصوف.

هكذا ذكر الحكاية أبو نعيم، في الحلية في ترجمة إبراهيم الخواص.

فسألت شيخنا رضي الله عنه عن ذلك فقال: خلا دار أبيهم إنما الشياطين تلعب بهم فظنوا أن لعبادتهم على دينهم ثمرة ثم ذكر الكلام السابق وكيف حال أهل الحق وكيف حال أهل الباطل ولا مطلب للمرء وراءه والله أعلم.

وقال رضي الله عنه: إن أصل علوم الفلسفة وما حكموا به في العالم العلوي ونحو ذلك هو أن رجلا كان في زمن سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فآمن به وجعل يسمع منه أموراً تتعلق بالفتح في ملكوت السموات والأرض، ثم لم يزل ذلك دأبه إلى أن وقع له هو أيضاً الفتح فوقف مع ما شاهد من العالم وانقطع عن الحق سبحانه وخسر الدنيا والآخرة، وجعل يفرح بما يشاهد في العالم العلوي ويذكر مواضع النجوم ويربط بها الأحكام ورجع عن دين إبراهيم فتلقى ذلك منه من أراد الله خذلانه إلى أن بلغ إلى الفلاسفة الملعونين.

قال رضي الله عنه: واشتد غضب الله على ذلك الرجل لأنه دل على غير الله وكل من دل على غير الله فهو من القاطعين عن الله تعالى.

قال رضي الله عنه: إن فائدة الرسالة والنبوة خصلة واحدة، وهي الدلالة على الله عز وجل، والجمع عليه حتى أنا لو فرضنا فرضاً مستحيلا في ذات أمرت برسالة ونبوة، ثم جعلت تدل على غيره تعالى أو جعلت تجمع الناس على نفسها وتقطعهم عن الحق سبحانه، فإنها تنقلب إلى الوصف السابق في ذلك الرجل، وهذا الفرص المستحيل ذكرناه على سبيل المبالغة للتنفير من الدلالة على غيره تعالى.

ثم قال رضي الله عنه: وكنا نمشي على قنطرة باب الحديد أحد أبواب فاس حرسها الله بمنه ما فائدة هذه القنطرة؟

قلت: المشي عليها حتى يخلص من المهواة التي تحتها فيبلغ المشي عليها إلى مقصوده من الأرض قال رضي الله عنه: ولو ارتفعت منها هذه الفائدة كانت ضرراً محضاً على الناس.

قلت نعم قال رضي الله عنه: فكذلك الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون وسائر عباد الله الصالحين فائدتهم الدلالة على الله والجمع عليه ولو ارتفعت منهم هذه الفائدة كانوا على الصفة السابقة في القنطرة والله أعلم.

وقال رضي الله عنه: إن الكاملين من أهل الحق إذا سئلوا عن مسئلة من الحوادث التي ستقع لم يتكلموا فيها إلا بالنزر من القول، لأنه أول أمر شاهدوه وقد شاهدوا الحق بعده فعلموا بطلانه، فهم يكرهونه ويكرهون الكلام فيه، ولأن الدنيا والحوادث الواقعة فيها مبغوضة عند الله تعالى، وهم يبغضون ما يبغضه الحق سبحانه، وأيضاً فلا يتكلمون فيها إلا بالنزول عن درجتهم كمن ينزل من الثريا إلى الثرى، فإن درجة تلك الحوادث هي درجة فتح أهل الظلام، وأيضاً فإنهم رضي الله عنهم لا يشاهدون إلا بأنوار الحق سبحانه ونور الحق يرتفع فيه الزمان وترتيبه ولا مضى فيه ولا حال ولا مستقبل فأكثر ما يعلم الولي بنور الحق أن الحادث الفاني واقع لا محالة، وأما أنه يقع يوم كذا فلا يحصل لهم إلا بالنزول إلى اعتبار الزمان وترتيبه وهو من الظلام عندهم بالنسبة إلى نور الحق، ومثل من يفعل ذلك كمثل الشمس إذا نزلت من سمائها إلى الأرض وأخذتت مرآة بين عينيها وجعلت تنظر بها.

فقلت: فإن الحق سبحانه يعلم ما سيقع وترتيبه ويعلم ما في الماضي وما في الحال وما في المستقبل، والولي ينظر بنوره فينبغي أن يعلم ما سبق من غير نزول إلى درجة الظلام.

فقال رضي الله عنه: يعلم الله ذلك لأنه تعالى أحاط بكل شيء علماً، والرب تعالى قوي والعبد ضعيف، وعلم العبد قاصر.

وبالجملة فالعبد لا يقاس بربه تبارك وتعالى، وقد قال سيدنا الخضر لسيدنا موسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقصه هذا العصفور بنقرته من البحر.

قال رضي الله عنه: وقد يتكلم الولي بشيء من الحوادث المستقبلة فيخبر بها نازلا عن درجته، وليس ذلك بمعصية، ولكنه قصور همة وانحطاط عن الذروة العلية، وسوء أدب إن قصد إليها مع النبي ﷺ لأن حالته عليه الصلاة والسلام لم تكن كذلك، على أن كثرة الأولياء الكاملين رضي الله عنهم إنما يتكلمون فيها غلبة بحكم القدر وتصريف الحق إياهم سبحانه على ما يزيد، إذ هم رضي الله عنهم مظاهر الحق.

قلت: وأكثر ضرر الخلق في معرفة الأولياء ومخالطتهم من هذا الباب، أما في المعرفة فإنهم لا يفرقون بين فتح أهل الظلام وفتح أهل الحق فيحسبون أن كل ما زاد على علومهم من الكشوفات وخرج عن طوقهم من الخوارق كمال وحق، وولاية من الله تعالى لمن ظهر ذلك على يديه، ففريق من الناس يعتقدون ولاية من يكاشف ويعتقدون أنه الغاية، وفريق آخر يعتقدون ولاية من استقام في الظاهر ودام على الصيام والقيام، وإن كان باطنه خالياً من الحق متعلقاً بغيره، وأما في المخالطة فإن العبد بعد أن يوفقه الله تعالى للإجتماع مع ولي كامل قد يكون غرضه من ذلك الولي عكس المطلوب من الولي، فإن المطلوب منه أن يعرف العبد بربه ويحذره من القواطع التي من أعظمها حب الدنيا والميل إلى زخارفها، فإذا جعل العبد يطلب منه قضاء الحوائج والأوطار اليوم على اليوم والسنة على السنة، ولا يسأله عن ربه ولا كيف يعرفه مقته الولي وأبغضه، فهو السالم إن نجا من مصيبة، تنزل به وذلك لأمور.

أحدها: أن محبته للولي ليست لله عز وجل، وإنما هي على حرف والمحبة على حرف خسران مبين، تكون معها الوساويس وتحضرها الشياطين ولا ينزل عليها نور الحق أبداً.

ثانيها: أن الولي يراه في تعلقه بالدنيا في عين القطيعة وهو يريد أن ينقذه منها والعبد يطلب أن يزيده منها.

ثالثها: أن الولي إذا ساعفه في قضاء بعض الأوطار وقابله ببعض الكشوفات وقع للعبد المسكين غلط فيظن أن هذا هو الذي ينبغي أن يقصد من الولي وكل ذلك ضلال ووبال.

وقد سمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: إنما مثل الولي كمثل رجل عمله صنعة الفخار فيه يحرك يده وتعمل جوارحه، ومع ذلك فعنده الخزائن التي يحتاج إليها الناس من طعام وغيره، والخزائن وإن كانت عنده فقلبه معرض عنها، لا تقع عنده ببال ولا تساوي عنده شيئا، ولا يحب الكلام إلا في عمل الفخار وصنعته، ويكره غاية من يتكلم معه في غيره ويبغضه حتى يخاف ذلك المتكلم أن يناله ضرر من الرجل المذكور، فإذا جاءه رجلان وقد علما حالته وبغضه للكلام في غير عمل الفخار وأرادا منه شيئاً من تلك الخزائن

فالموفق منهما والكيس هو الذي يتكلم معه في عمل الفخار ويسأله عن صنعته وكيف يعمل، ولا يزال هذا دأبه حتى يناله من الرجل محبة عظيمة ومودة كبيرة فإذا سأله بعد ذلك شيئاً من تلك الخزائن مكنه منه ولا يقع له ضرر وغير الموفق منهما هو الذي يأتي لذلك الرجل ويطلب منه أولاً شيئاً من تلك الخزائن ويتكلم معه فيها فإنه إن سلم من ضرب الرجل له بفخارة على رأسه، كان هو السعيد وكان ربحه هو سلامته لا غير فهذا مثل الولي لا صنعة له ولا حرفة له إلا معرفة الحق، وما يوصل إليه ولا يحب كلاماً إلا فيه ولا جمعاً إلا عليه ولا وصولاً إلا منه ولا قرباً إلا إليه، فمن عرفه على هذا ربح منه الدنيا والآخرة ومن عرفه على غير هذا كان على العكس.

وسألته رضي الله عنه: لم كانت هذه الحوادث من الباطل وهي أمور ثابتة تشاهد بالعيان وتدرك بالحواس والباطل هو الذي لا أصل له.

فقال رضي الله عنه: وقد أشار إلى حائط، أليس أنا نشاهد هذا وهو يفني ويزول ولا نشاهد ربه الذي هو خالقه، وماسكه بقدرته، وهو الحي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو الخالق لنا والمتصرف فينا بما يشاء، فمشاهدة مثل هذا الحائط الذي لا ينفع ولا يضر مع عدم مشاهدة الحق سبحانه مشاهدة باطلة والبطلان فيها نسبي، أي ما شهدناه كالعدم بالنسبة إلى ما لم نشاهده، وقد سبق أن مشاهدة اللوح دون الحروف المكتوبة فيه مشاهدة باطلة، فمن رحمه الله تعالى فتح عليه في مشاهدة ذاته العلية وصفاته السنية وأفعاله الزكية فتعلق بربه فحيى حياة لا يشقى بعدها ولا يموت، لأن الفاني إذا تعلق بالباقي بقي ببقائه في كلام سبقت الإشارة إليه والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الفتح الأول وإن اشترك فيه أهل الظلام وأهل الحق لكن المقصود به مختلف فإن القصد به لأهل الظلام طردهم عن بابه تعالى وصدهم عن سبيله، لأنه تعالى أبغضهم وقطعهم عنه وعلق قلوبهم بغيره، وأمدهم بهذه الخوارق إملاء واستدراجاً ليحسبوا أنهم على شيء، وأما القصد به إلى أهل الحق فليزدادوا فيه محبة وليرقيهم من درجة إلى درجة، وذلك أنه تعالى فتح لهم الباب وأزال عنهم الحجاب وعلق قلوبهم به فأمدهم بتلك الخوارق لتقوي بصيرتهم وتتأكد معرفتهم كما قال تعالى:

﴿فأَمَّا الَّذِينَ آمنُو فَزَادَتْهُمْ إيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الصغير قد يكون أقوى من الكبير في مشاهدة هذه الحوادث، وذلك لأن الكبير غائب عنها فيما هو أقوى منها، وهو مشاهدة الحق سبحانه بخلاف الصغير، فإنه يقصد إليها لأنها محل مشاهدته، وإن كانت له مشاهدة للحق سبحانه فهي لا تكون مثل مشاهدة الكبير.

وبالجملة فالكبير يقوى في مشاهدة الحق سبحانه ويضعف في مشاهدة الحق والصغير بالعكس يقوي في مشاهدة الخلق ويضعف في مشاهدة الحق سبحانه، وعلى هذا يخرج ما وقع بين سيدنا الخضر وبين سيدنا موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام مما قصه الله تعالى في كتابه العزيز من أمر السفينة والغلام والجدار، فإن علم ذلك إنما غاب عن سيدنا موسى عليه السلام لأنه في مشاهدة ما هو أقوى منه وهو الحق سبحانه، فعدم علم موسى عليه السلام بذلك هو غاية الكمال.

قال: ومثاله مع الخضر في ذلك كمثل عبدين للملك أما أحدهما فضمه الملك إلى نفسه وجعله جليساً له لا شغل له إلا الوقوف بين يدي الملك والنظر في وجهه إذا خرج الملك خرج معه، وإذا دخل دخل معه، وإذا أكل أكل معه، وإذا شرب شرب معه، وإذا تحدث تحدث معه، والعبد الآخر مكنه الملك من التصرف في رعيته فيخرج للرعية وينفذ فيهم أمر الملك ويتحدث معهم في أمورهم وما يصلح أحوالهم وربما غاب عن الملك الغيبة الطويلة لتنفيذ بعض الأمور فلا يشك أن العبد الأول أقرب إلى الملك وأعرف بأسرار ذاته من الثاني مع أنه إذا سئل عن شيء من أمور الرعية وما يدخل فيها وما يخرج ولا سيما إن بعدت الرعية من مدينة الملك فإنه لا يعرفه معرفة الثاني به، وهكذا كانت حال موسى مع الله تعالى، فإنه مثل العبد الأول، وسيدنا الخضر مثل العبد الثاني، فإن سيدنا موسى أكبر منه قدراً بلا نزاع لأنه رسول الله وكليمه وصفيه.

فقلت وهل سيدنا الخضر نبي كما ذهب إليه بعض العلماء حتى قال الحافظ بن حجر في شرح البخاري ينبغي اعتقاد نبوته لئلا يكون غير النبي أعلم من النبي.

فقال رضي الله عنه: ليس بنبي وإنما هو عبد أكرمه الله بمعرفته وأمده بالتصرف في رعيته، وأعطاه من تمام التصرف وكمال المعرفة ما يعطى للغوث من هذه الأمة المحمدية، وأدرك ذلك الخضر بلا شيخ ولا سلوك بل أمده الله تعالى بذلك ابتداء فهذه درجته، وهي لا تبلغ مبلغ النبوة ولا الرسالة، وليس في علم الخضر بما سبق في تلك الأمور دون موسى ما يوجب أن يكون غير النبي أعلم من النبي، لما سبق أن موسى عليه السلام شغل عن ذلك بمشاهدة الحق التي لا عوض لها ولا مثيل، فلا يحتاج حينئذ إلى اعتقاد نبوته.

فقلت: والذين قالوا بنبوته استدلوا بقوله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

فقال رضي الله عنه: وكل غوث وقطب، وغيرهما من أصحاب التصرف لا يفعلون شيئاً، ولا يتصرفون في حادث إلى بأمر الله، وليس ذلك بنبوة ولا رسالة ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

ثم بين ذلك بكلام نفيس تركت كتبه لأنه من الأسرار المكنونة التي لا تكتب فرضي الله عن شيخنا ما أعرفه بالله.

قلت: وهذا الجواب الذي ذكره شيخنا رضي الله عنه في عدم علم سيدنا موسى بتلك الأمور وبيان سر ذلك من الأسرار والأنوار التي يغتبط بمعرفتها، وعلى هذا يتخرج حكايات تقع لبعض الكاملين مع مريديهم، فإن الكامل قد يستفيد من مريده شيئاً مما يقع في العالم كقول بعض الأكابر في مريد له منذ مات فلان غابت عنا أخبار السماء حتى خلفه مريد آخر، فجعل يخبر بمثل ما يخبر به الأول، فقال ذلك الولي الكامل قد رجع إلينا ما فقدناه وتركت تسمية ذلك الكامل ومريديه لعدم تعلق الغرض بذلك والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لكل شيء علامة، وعلامة إدراك العبد مشاهدة النبي ﷺ في اليقظة أن يشتغل الفكر بهذا النبي الشريف اشتغالا دائماً بحيث لا يغيب عن الفكر، ولا تصرفه عنه الصوارف، ولا الشواغل، فتراه يأكل وفكره مع النبي ﷺ، ويشرب وهو كذلك ويخاصم وهو كذلك، وينام وهو كذلك.

فقلت: وهل يكون هذا بحيلة وكسب من العبد.

فقال رضي الله عنه: لا إذ لو كان بحيلة وكسب من العبد لوقعت له الغفلة عنه إذا جاء صارف أو عرض شاغل ولكنه أمر من الله تعالى يحمل العبد عليه، ويستعمله فيه ولا يحسن العبد عن نفسه اختياراً فيه، حتى لو كلف العبد دفعه ما استطاع، ولهذا كانت لا تدفعه الشواغل والصوارف فباطن العبد مع النبي ﷺ وظاهره مع الناس يتكلم معهم بلا قصد ويأكل بلا قصد ويأتي لجميع ما يشاهده في ظاهره بلا قصد لأن العبرة بالقلب وهو مع غيرهم فإذا دام العبد على هذا مدة رزقه الله تعالى مشاهدة نبيه الكريم ورسوله العظيم في اليقظة، ومدة الفكر تختلف فمنهم من تكون له شهراً ومنهم من تكون له أقل ومنهم من تكون له أكثر.

قال رضي الله عنه: ومشاهدة النبي ﷺ أمرها جسيم وخطبها عظيم، فلولا أن الله تعالى يقوي العبد ما أطاقها، لو فرضنا رجلاً قوياً عظيماً اجتمع فيه قوة أربعين رجلاً، كل واحد منهم يأخذ بأذن الأسد من الشجاعة والبسالة، ثم فرضنا النبي ﷺ خرج من مكان على هذا الرجل، لانفلقت كبده وذابت ذاته وخرجت روحه وذلك من عظمة سطوته ﷺ، ومع هذه السطوة العظيمة ففي تلك المشاهدة الشريفة من اللذة ما لا يكيف ولا يحصى، حتى أنها عند أهلها أفضل من دخول الجنة وذلك لأن من دخل الجنة لا يرزق جميع ما فيها من النعم بل كل واحد له نعيم خاص بخلاف مشاهدة النبي ﷺ، فإنه إذا حصلت له المشاهدة المذكورة سقيت ذاته بجميع نعيم أهل الجنة فيجد لذة كل لون وحلاوة كل نوع كما يجد أهل الجنة في الجنة، وذلك قليل في حق من خلقت الجنة من نوره ﷺ، وشرف وكرم ومجد وعظم وعلى آله وصحبه.

قال رضي الله عنه: وفي كل مشاهدة يحصل هذا السقي فمن دامت له دام له هذا السقي.

قلت: وكنت أنظر في شمائل الإمام الترمذي رحمه الله وفي شروحها، فإذا اختلفوا في شيء من لونه ﷺ أو طول ذاته أو طول شعره أو مشيته أو غير ذلك من أحواله ﷺ، ذهبت إلى شيخنا رضي الله عنه فأسأله عن الواقع من ذلك، فيجيبني جواب المعاين المشاهد، وقد كتبنا بعض ذلك في آخر الباب الأول والله أعلم.

ومن عجيب أمره رضي الله عنه: أني سألته عن هذه الأمور وهو رضي الله عنه مشتغل بتنقية الأشجار وإزالة ما لا يصلح بقاؤه فيها في صورة المعرض عن سؤالي الذي يرد باله إلى غيره فما أكمل السؤال عن شيء مما سبق حتى يجيب سريعاً من غير تأمل في كلامي تحقيقاً لما سبق في قوله، إن العبرة بالباطن وكل ما يفعله ظاهراً فهو بلا قصد فتنقية الأشجار ونحوها كانت عنه رضي الله عنه من غير قصد وباطنه كان مع الجناب العلي ولهذا كان لا يتفكر في أمر الجواب والله أعلم.

قال رضي الله عنه: وعلامة إدراك العبد لمشاهدة ربه عز وجل أن يقع في فكره بعد مشاهدة النبي ﷺ التعلق بربه، بحيث يغيب فكره في ذلك مثل الغيبة السابقة في النبي ﷺ، ثم لا يزال كذلك إلى أن يقع له الفتح في مشاهدة الحق سبحانه فيقع على ثمرة الفؤاد ونتيجة الفكر، وإذا كانت ذاته تسقى بجميع أنواع نعيم أهل الجنة عند مشاهدته النبي ﷺ، فما ظنك بما يحصل له عند مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، الذي هو خالق النبي ﷺ وخالق الجنة وكل شيء.

قال رضي الله عنه: ثم بعد الفتح في مشاهدة الحق سبحانه انقسم الناس إلى قسمين فقسم غابوا في مشاهدة الحق سبحانه عما سواه، وقسم وهم أكمل غابت أرواحهم في مشاهدة الحق سبحانه وبقيت ذواتهم في مشاهدة النبي ﷺ فلا مشاهدة أرواحهم تغلب مشاهدة ذواتهم، ولا مشاهدة ذواتهم تغلب مشاهدة أرواحهم.

قال رضي الله عنه: وإنما كان هذا القسم أكمل لأن مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل من مشاهدة القسم الأول، وإنما كانت مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل لأنهم لم ينقطعوا عن مشاهدة النبي ﷺ التي هي سبب في الارتقاء في مشاهدة الحق سبحانه فمن زاد في مشاهدته عليه الصلاة والسلام زيد له في مشاهدة الحق سبحانه، ومن نقص منها نقص له قال. ولو كان الاختيار للعبد وكان عمره تسعين سنة مثلا لاختار في جميع هذه المدة أن لا يشاهد إلا النبي ﷺ، وقبل موته بيوم يفتح له في مشاهدة الحق سبحانه فإنه يحصل له في هذا اليوم من الفتح في مشاهدة الحق سبحانه لأجل رسوخ قدمه في مشاهدة النبي ﷺ أكثر مما يحصل لمن فتح له في المشاهدتين معاً في تلك المدة من أولها إلى آخرها.

ثم جعل رضي الله عنه مرآة بين عينيه وجعل ينظر في الحروف فقال أليس أن الذي يظهر في الحروف وصفائها في النظر يتبع صفاء المرآة وحسن مائها.

فقلت: نعم.

فقال رضي الله عنه: فمشاهدة النبي ﷺ بمنزلة المرآة ومشاهدة الحق سبحانه بمنزلة الحروف، فعلى قدر الصفاء في المشاهدة النبوية يحصل الصفاء ويزول الغمام في المشاهدة للذات الأزلية، سمعت هذا الكلام منه رضي الله عنه.

وقد سأله بعض فقهاء الأشراف أيمكن أن يترك الولي الصلاة؟

فقال رضي الله عنه: لا يمكن أن يترك الولي الصلاة وكيف يمكنه ذلك وهو دائماً يكوى بمشهابين فذاته تكوى بمشهاب مشاهدة النبي ﷺ وروحه تكوى بمشهاب مشاهدة الحق سبحانه، وكل من المشاهدتين يأمره بالصلاة وغيرها من أسرار الشريعة.

وقال رضي الله عنه مرة أخرى: كيف يترك الولي الصلاة والخير الذي حصل له في المشاهدتين إنما حصل له بعد سقي ذاته بأسرار ذات النبي ﷺ، وكيف تسقى ذات بأسرار الذات الشريفة ولا تفعل ما تفعله الذات الشريفة هذا لا يكون.

ثم سمعت منه رضي الله عنه في مشاهدة الحق سبحانه والنظر بنور الله تعالى وارتفاع الزمان في ذلك النظر وأنه لا ماضي ولا حال ولا مستقبل وكيف مشاهدة الذات العلية وصفاته السنية وكيف تسقى الذات بأنوار الأسماء وانقسام مراتب الولاية على عدد الأسماء وفي فتح الروح إلى أسرار أخر ما لا يحيط به العبارة ولا تفيد فيه الإشارة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إذا أراد الله تعالى رحمة عبده ونقله من حالة الحجب إلى حالة الفتح حصل للأولياء رضي الله عنهم خوف عليه، لأنهم لا يدرون هل يموت بالفتح لكونه لا يطيقه أو لا يموت، وإذا لم يمت فهل يسلب عقله أو يبقى عليه عقله ومعنى سلب العقل أن يذهب العقل مع الأمور العظام التي يشاهدها وينقطع عن الذات بالكلية بحيث لا يرجع لها ومعنى عدم سلبه أن يذهب شيء من نوره مع ما شاهد ويبقى شيء منه مع الذات يحفظ عليها أكلها وشربها وكيف تلبس ثوبها وكيف تنظر في مصالحها.

قال رضي الله عنه: ولا يعلم أحد كيف يصير أمر هذا الذي أراد الله رحمته إلا شيخه.

قلت: ولم يقع لذي الفتح الخروج عن مركزه حتى يموت أو يزول عقله.

فقال رضي الله عنه: إذا فتح على العبد شاهد ما لا يطيق من عالم الملائكة والجن والشياطين ورأى من الصور الفظيعة وسمع من الأصوات الهائلة ما تنفلق به كبده.

قال رضي الله عنه: وكم رجل يكون في حانوته يبيع فيها فيفتح الله عليه فيرى ما لا يطيق فيموت من حينه، فيظن الناس أنه مات فجأة من غير سبب، وهو إنما مات من الفتح.

وذكر لنا رضي الله عنه مرة أنه بينما هو يمشي في سوق العطارين بفاس فنظر إلى رجل في حانوته يبيع الحناء، ففتح الله عليه فصعق لحينه ومات، فظن الناس أنه مات فجأة وهو مات على الولاية.

فقلت: وأي فرق بين من ذهب عقله لأجل الفتح، وبين من ذهب عقله لغير ذلك؟.

فقال رضي الله عنه: أما الذي ذهب عقله لأجل الفتح، فإنه في الحقيقة لم يذهب له عقل، وإنما هو غائب في مشاهدة الحق سبحانه، فهو سارح في بحورها دائماً، إلا أن الله تعالى قطع عقله عن ذاته لحكمة أرادها.

وأما الذي ذهب عقله لغير ذلك فسببه، أن الله تعالى إذا أراد هلاك أحد وزوال عقله، نسأل الله السلامة، قطع روحه عن مشاهدة ذاته العلية ساعة أو ساعتين، وجعلها تشاهد أفعال الذات التي هي فيها، فلا تكمل الروح ساعة في مشاهدة تلك الأفعال القبيحة الصادرة من العبد المذنب حتى يحصل لها قبض فيزول العقل بسبب ذلك، نسأل الله السلامة، فإذا دام ذلك القبض على الروح دام زوال العقل وإن لم يدم القبض وحصل للروح بسط وجمال ورجعت إلى مشاهدة الذات العلية كما كانت قبل القطع رجع العقل لصاحبه.

فقلت: فإن العقل قد يزول للصغير الذي لم يبلغ، فكيف تكون أفعاله قبيحة أم كيف يكون مذنباً؟

فقال رضي الله عنه: أحوال العبد كلها ذنوب عند الروح لأن مشاهدتها وما تعرفه من الحق سبحانه تقتضي أن يكون العبد ساجداً لله دائماً ولا يرفع رأسه أبداً ولا عندها في ذلك صغير ولا كبير.

قال رضي الله عنه: والمفتوح عليه إذا جلس إليه شخصان زال عقلهما وأحدهما ولي والآخر غير ولي وجعلا يتكلمان فإنه يميز الولي منهما لكلامه لأنه وإن كان لا يدري ما يقول، إلا أنه قد تبدو منه أسرار من أسرار الحق سبحانه يعرفها أربابها عند سماعها بخلاف غير الولي منهما، فإنه لا يسمع منه شيء من ذلك أبداً ويميز الولي منهما أيضاً بأمر آخر، وهو أن يرى روحه منبسطة أبداً ذات فرح وسرور، ويرى روح الآخر فيه على هيئة الرجل المنقبض المنكمش رأسه الذي يتفكر في أمر نزل به وأغمه وأهمه.

قال رضي الله عنه: والذين زال عقلهم بغير الفتح في حكم البهائم، إلا أن الله تعالى يرحمهم بدخول جنته، لأن الصورة الآدمية التي هم عليها تشفع فيهم فكأنهم بهائم صوروا بصورة بني آدم فرحمهم الله تعالى بسبب الصورة الكريمة التي صور عليها أنبياءه ورسله وأصفياءه عليهم الصلاة والسلام حتى لا يكونوا تراباً مثل البهائم.

قال رضي الله عنه: والذين زال عقلهم بالفتح هم من الأولياء الكرام إلا أنه لا يكون

لهم تصرف مع الأولياء، ولا يكون منهم غوث ولا قطب حتى يريد الله تعالى خروج الدجال فيجعل التصرف في يد هذه الطائفة، ويكون للغوث منهم فيفسد الحال ويختل النظام وفي مدة تصرفهم يخرج الدجال فإذا انقطع أمره انقطعت دولتهم ثم لا تعود لهم أبداً والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: سألني الشيخ سيدي عبد الله البرناوي. أتعلم شيئاً في الدنيا هو أحسن من دخول الجنة وشيئاً في الدنيا هو أقبح من دخول جهنم؟

فقلت: أعرف ما سألت عنه أما الذي هو أفضل وأعز من دخول الجنة، فهو رؤية سيد الوجود ﷺ في اليقظة، فيراه الولي اليوم كما رآه الصحابة رضي الله عنهم فهي أفضل من الجنة وأما الذي هو أقبح من جهنم فهو السلب بعد الفتح.

قال رضي الله عنه: فما شعرت بالشيخ سيدي عبد الله حتى أكب على رجلي، وجعل يقبلها تقبيلاً كثيراً.

فقلت له: ما السبب في هذا التقبيل؟

فقال: لقد سألت عنها نحواً من ثمانين شيخاً فما أجاب فيها واحد نحو جوابك.

فقلت: فإن سيدي عبد الله كان يعرف الجواب وإنما أراد امتحان فطنة من يسأله بهذا السؤال.

فقال نعم كان يعرفه وإنما أراد الاختبار كما ذكرت.

قلت: وإنما كانت رؤية سيد الوجود ﷺ أفضل من الجنة لما سبق بيانه.

ثم قلت للشيخ رضي الله عنه ولم كان السلب أقبح من جهنم؟

فقال رضي الله عنه: ذلك بالنسبة لذي الفتح الدائم بمعنى أنه يرى السلب المزيل لفتحه الذي هو عليه أقبح من جهنم لا بالنسبة للمسلوب بعد السلب والعياذ بالله، فإن قلبه بعد السلب يرجع كالحجر لا يبصر ولا يعقل شيئاً مما سبق حتى كأنه لم يشاهد شيئاً أصلاً وتجد ذاته الخبيثة راحة وخفة من ثقل الفتح عليها.

قال رضي الله عنه: وذو الإمارة في الدنيا إذا سلبها أحسن حالاً من هذا المسلوب والعياذ بالله فإن ذا الإمارة يجري على فكره جميع ما مر عليه من النعم فهو يتلذذ ولو بالتذكر فيها بخلاف المسلوب فقد انطمس قلبه وانكسفت شمس بصيرته والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن سيدي محمد البنا وكان من أهل طرابلس بقي يطلب من يدله على الله عز وجل أربعة عشر عاماً، وما ترك موضعاً إلا أتاه، فدخل مصر والشام والعراق وقسطنطينية، وبلاد الهند، وما سمع بولي إلا أتاه فيأتي من هو مشهور في الناس

بالولاية مذكور بها فلا يجد عنده شيئاً، وذلك أنه سمع الحق من أبيه وكان من العارفين، ولما لم يقع له فتح على يده جعل يطلب عارفاً يدله على الله عز وجل فجعل يطلب على بصيرة ولا يكترث بشيوع ولا شهرة فذكر أنه لقي رجلاً بالعراق وقد اجتمع عليه من الخلائق ما لا يحصى عدده، وكانت له زاوية للوارد والصادر يطعم فيها كل يوم ما يقرب من مائتي مد من الطعام من كثرة الواردين واتخذ في زاويته خلوة للعبادة والركوع والسجود بحيث إنه لا يخرج منها إلا في الثلاثة الأيام الأخيرة من الشهر، وأما في السبعة والعشرين يوماً فليس إلا للركوع والسجود وفي الخلوة طاقة يمد له منها النقيب الطعام الذي يأكله، وجعلوا في الخلوة موضعاً للخلاء والطهارة وأقاموا له أمر الخلوة في كل ما يحتاجه حتى لا يحوجه إلى الخروج، فيلزم خلوته المدة المذكورة فإذا تمت خرج في الأيام الثلاثة المذكورة فيتكلم مع الواردين في حوائجهم الأسبق فالأسبق، حتى يفرغ منهم جميعاً، فإذا تمت الثلاثة الأيام واستهل الشهر رجع لخلوته، فأقام فيها سبعة وعشرين يوماً هذه عادته في دهره.

فلما سمعت به رحلت إليه وصبرت حتى خرج وتكلم مع من سبقني، فلما بلغتني النوبة قال لي ما حاجتك؟

قلت: يا سيدي أسألك عن مسألتين إحداهما تتعلق بالنبي ﷺ، والأخرى برب العزة سبحانه فقال هاتهما، فقلت قال الله تعالى.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فأثبتت الآية الذنب المتقدم، والذنب المتأخر، وصرحت بأن المغفرة تعمهما معاً وتشملهما جميعاً، مع أن النبي ﷺ معصوم قبل النبوة وبعدها فلا ذنب له أصلاً، فكيف يفهم هذا مع الآية الشريفة.

فقال: إن الذنوب منها ما هو ثقيل ومنها ما هو خفيف، فالثقيل كالزنا وشرب الخمر ونحوهما لا يصدر من النبي ﷺ، والخفيف مثل الميل إلى بعض نسائه وتفضيل بعضهم على بعض في القسمة ونحو ذلك من الذنوب الخفيفة، فهي التي تصدر منه وهي المتقدمة والمتأخرة المغفورة في الآية.

قال: فعلمت أنه جاهل بمقام النبي ﷺ، والعارف لا يكون جاهلاً بشرف النبي ﷺ ولا بعصمته من الصغائر والكبائر، وذلك لأن الذنوب لا تصدر إلا من المحجوبين أهل الغفلة والظلام، ولا تصدر من العارفين أهل القرب والمشاهدة، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكيف بسيد الوجود عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ثم قال: وأما المسألة الثانية فقلت: فإن الله تعالى يقول:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾.

فما معنى هذه المعية؟

فقال المراد بهم المؤمنون والله تعالى في قلوب المؤمنين يبتهلون إليه ويذكرونه دائماً ويعبدونه، فعلمت أنه جاهل بربه عز وجل وأنه من المبطلين.

قال: وذهبت لرجل في ناحية الهند وقد ذكر لي من عبادته وزهده ما يتجاوز الحد فبلغت إليه فوجدته كما وصفوا في العبادة والزهد، حتى أنه بلغ من أمره أن هناك طعاماً يشبه البلوط عندنا فيأكل واحدة منه بين الليل والنهار فيطوي ليله ونهاره ويتقوت بقدر بلوطة لا زائدة، فسألته عن الله عز وجل، فوجدته في غاية الجهل به، فعلمت أنه يبنى على غير أساس.

قال: وكنت ذات يوم في ساحل بعض البحور وذلك البحر مجاور لمدينة من المدن وقد جاءت السفن بالسلع، فخرج المعاشون ليحملوا السلع على ظهورهم إلى المدينة ويأخذوا الأجرة، فجعلت أنظر إليهم فوجدتهم يحملون من السلع ما هو خارج عن المعتاد مثل الفلاحين بمصر وزرزاية بفاس، فجعلت اتعجب من ذلك إذ أقبل إلى واحد منهم وكان من العارفين بالله عز وجل لم أشعر به،فقال مكاشفاً لما في ضميري لا تتعجب من هذا ولكن تعجب من قدرة الله التي ستظهر في، فذهب بحمله فلم ينشب أن رجع ثم استلقى ومد يديه ورجليه وخرجت روحه رضي الله عنه، فأشار إلى أن القوي في الحقيقة هو الله تعالى الذي هو مالك القوي والقدرة يعطيها سبحانه لمن شاء وينزعها ممن شاء فمن قدرته يحق التعجب ولعظيم سطوته يجب الاستعظام:

﴿فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

فقال ولقيت جماعة من العارفين وكل منهم يدلني على الرجوع لبلادي وأن حاجتي فيها، فرجعت لبلادي.

قال شيخنا رضي الله عنه: فلقي ببلاده من دله على أن حاجته بفاس فأعمل الرحلة وجاء مع الركب فلقي من فتح الله على يده وأقام بمدينة فاس ستة أشهر وصار من العارفين وأهل الديوان رضي الله عنهم.

فقلت للشيخ رضي الله عنه، قد فتح عليه في حياتكم رضي الله عنكم والولي لا يفتح عليه في حياة أبيه. لأن الفتح لا ينزل إلا على سر الذات، فإذا انتقل سر الذات إلى الولد وقع له الفتح، وما دام الشيخ حياً فإن سر ذاته لا ينتقل لأحد، فلا يقع الفتح، وإذا وقع فإنه لا يثبت بل يزول سريعاً وهذا الرجل فتح عليه في حياتكم رضي الله عنكم، ودام فتحه.

فقال رضي الله عنه: ماهو ولدي وإنما هو متاع الناس للناس.

فقلت ومن الناس الذين كان المتاع لهم قبله؟

فقال رضي الله عنه: رجل بناحية مراكش كان من العارفين بالله عز وجل، فمات فبقي سره عندي، فلما جاء هذا الرجل ألبسته قميصاً كان علي وأعطيته ذلك السر.

فقلت: فإن السر المذكور لا يثبت لهذا الرجل إلا بعد انتقال سر ذات الأول إليه وهو لم يره فكيف دام فتحه.

فقالر رضي الله عنه: يمكن الله تعالى من أودع عنده السر من أسرار الذات الأولى فيعطيها للثاني، ثم يمكنه من السر والفتح ومع ذلك فلا ينسب إليه بالولادة إنما ينسب إليه بالولادة من أخذ أسرار ذاته من بعده.

فقلت: والرجل الموروث بناحية مراكش ووارثه من أهل طرابلس وهل انقطع الخير من أهل المغرب حتى يتخطاهم هذا الرجل إلى السر ويأخذه.

فقال رضي الله عنه لا ترث ذات ذاتاً إلا إذا كانت مشاكلة لها في العقل والطبع والدم وقد كان سيدي فلان يقول: لو كانت بالقرب لكانت لولدي، ولو كانت بالقوة لكانت للسلطان، ولو كانت بالخدمة لكانت لفلان خديمي ولكنها بموافقة العقل للعقل والطبع للطبع والدم للدم، وهي أمور لا تدرك بالكسب ولا بالعمل وهذا الرجل كان مشاكلاً لموروثه في هذه الأمور والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إذا سمعت العارف بالله يكثر أن يقول فلان هو وارثي هو صاحب سري فعليكم به بعدي، فالغالب أنه لا يكون كذلك لأن هذه الأسرار ربانية لا تجيء إلا من الوجه الذي لا يظنه الناس، لأن الأشياخ أدركوها والناس لا يظنونهم أهلاً لها، فكذلك تخرج منهم.

ثم حكي حكاية النفر الثمانية الذين كانوا يخدمون شيخاً لهم دارياً بالله عز وجل واستمر على الخدمة سبعة وعجز الثامن، فصار لا يقدر على شيء أينما يوجهه لا يأت بنافعة، وأدمن على الخدمة ثلاثة ومضوا على ذلك وزادوا على الأربعة بأن أهدى كل واحد منهم ابنته للشيخ، وكانت بنت أحدهم بارعة في الجمال فائقة الحسن والكمال فصار الشيخ يباشره ويكلمه ويقدمه على الجميع في الكلام وفي كل شيء فلم يشك الناس أنه وارثه، فلما قربت وفاة الشيخ وحضر أصحابه وكل من انتسب إليه نادى على العاجز السابق، فقال له أنت صاحب السر وفاضت نفس الشيخ، وفارق الدنيا.

قال رحمه الله: ونظره إلى المرموق في أعين الناس بعين الاحتقار أكثر من رحمته ونظره إلى المرموق في أعين الناس بعين الجلال فلذا أهل الاحتقار أحق بالأسرار والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: كان عند ولي من أولياء الله تعالى مريدان أحدهما من عامة الناس والآخر شريف وكلاهما غير مفتوح عليه، فقال الولي للمريد العامي اذهب إلى الشريف وقل له يبيع لك السر والفتح فذهب إليه ذلك العامي فقال له، بع لي الفتح والسر بمائة دينار فقال: لا، فقال العامي أزيدك مائة دينار أخرى، فقال الشريف لا، فقال العامي أزيدك الخادم التي لي فقال الشريف لا فقال العامي أزيدك ابنتي فأزوجكها فقال الشريف لا، فقال العامي أزيدك داري فقال الشريف الآن قبلت، فقال العامي وأنا قبلت وكلاهما محجوب، لا يرى شيئاً من أسرار الفتح، وإنما فعل العامي ذلك بمجرد تصديقه كلام الشيخ فقال العامي للشريف نأتي لك بالشهود، فقال الشريف نعم فأتى العامي بالشهود فقص عليهم ما أعطاه للشريف وقال اشهدوا علي به، وقال الشريف وأنا فاشهدوا علي بأني أعطيته الفتح والسر، فراحت البنت للشريف وملك الدار والخادم وأخذ المائتي دينار، وبات بخير ليلة في عقله ما مرت عليه ليلة في دهر أطيب من تلك الليلة.

وأما العامي فبات يقطع الليل بدفع الوساوس التي تخيب له ظنه في أمر الشيخ، فما مرت عليه ليلة في دهره أظلم منها، فلما انفجر الفجر جاء الفتح والسر إلى الشريف حتى شاهده فرأى فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلما تم نظره في ذلك وأمعن فيه غاية سلب والعياذ بالله فذهب الفتح إلى ذلك العامي فرجع ولياً من أولياء الله عز وجل.

وأما الشريف البائع فإنه ما انتفع بشيء مما أخذه وذلك لأنه لما وقع له السلب زال عقله فلم يبق في لسانه إلا قوله أين أنت خذ الدار خذ الخادم خذ الدنانير خذ ابنتك وأزيدك أمي، يخاطب ذلك العامي كأنه يقول له أين أنت أرد عليك جميع ما أعطيتني وأزيدك عليه أمي، وطال عمره بعد هذه القصة نحواً من ستين سنة وهو في ذلك مسلوب العقل، نسأل الله السلامة.

فقيل يا سيدي: إنه ذهب لا دنيا ولا أخرى.

فقال رضي الله عنه: ومن لك بهذا فاته السر وشيء آخر لا نقوله.

وسمعته رضي الله عنه يقول: أعرف رجلاً مسلوب العقل لا شغل له إلا أنه يرمي الحجارة إلى الهواء ويلقى لها رأسه حتى تدمغه وأعرفه على هذه الحالة مدة طويلة ولا أعرف لأي علة يفعل ذلك، حتى عرفت السبب في ذلك وذلك أن هذا الرجل كان يخدم السباط البالي وكانت حانوته في عقبة الرصيف، فلقيه ولي من أولياء الله تعالى، فقال يا ولدي: إني أريد منك أن تشتري لنا قلنسوة جديدة، فخذ هذه الدراهم واشتر لي بها ما قلت لك وهو لا يعرفه، فأخذ ذلك الرجل الدراهم والولي ينتظره فاشترى الرجل قلنسوة وجاء بها إلى ذلك الولي فسولت له نفسه في الطريق، وقالت له هذا الرجل الذي أعطاك

الدراهم لتشتري بها قلنسوة أحمق كيف أمنك وهو لا يعرفك فالبسها ولا تذهب إليه، قال: فلبسها وأزال قلنسوة بالية كانت على رأسه فباعها بنحو الموزونتين، وذهب إلى حانوته للخدمة فلما علم الولي أنه خان وغدر تركه إلى الغد فجاءه إلى حانوته واستغفله فقلع القلنسوة من رأس ذلك الخائن، وقال له انظر إلى ما فاتك من الله عز وجل وفر من بين يديه فنظر إليه ذلك الخائن فوقع له الفتح فرأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بشر فلما رد بصره إلى حانوته وقع له السلب والعياذ بالله، فعلم أن الآفة جاءته من رأسه فجعل يفعل ذلك الفعل برأسه وقد زال عقله وبقي كذلك على هذا الفعل إلى الآن يعني أنه في قيد الحياة.

وقد أراه الشيخ رضي الله عنه مرة فقال هذا هو صاحب الحكاية فرأيت الصفة التي قال الشيخ رضي الله عنه والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن السر الذي يشير إليه القوم فقال ضارباً مثلاً الذهب يكون عند الملك ولا يعطيه لكل أحد وإنما يعطيه لأهل الخصوصية من رعيته، قال فكذلك السر لا يعطيه الله تعالى إلا للمصطفين من خلقه.

فقلت: وهل هو الفتح.

فقال رضي الله عنه: الفتح زائد عليه يقوى معه السر، فإن المفتوح عليه يفتح عليه في بصره، فيرى به السموات والأرضين وفي سمعه فيسمع به الطير إذا خفق بجناحه في جو السماء، والنملة إذا حركت رجلها من مسيرة عام، ويفتح له في شمه فيشم رائحة التراب وكل تراب له رائحة، ورائحة الماء ورائحة الذوات ورائحة الأرواح، ورائحة الذوات الحية ورائحة الذوات الميتة وروائح الأشياء كلها، ويفتح له في ذوقه فيذوق من غير ملاقاة طعوم الأشياء المتقدمة، وكذا يفتح له في لمسه ويفتح له في سمعه أيضاً، فلا تختلط عليه الأصوات ولا يشغله سمع عن سمع، حتى أنه يفهم ويسمع ما يقول في آن واحد آلاف من الناس، فإذا كان السر المتقدم مع الفتح اجتمع قوتان وجهدان، وإذا كان السر وحده مع الحجاب فهو سر، ولكن صاحبه لا يقوي قوة المفتوح عليه.

فقلت وأي شيء يحصل في الذات إذا حصل السر فيها من غير فتح.

فقال رضي الله عنه: يحصل فيها شبه أوصاف الحق سبحانه فترى الذات مطبوعة على الحق لا تعلم إلا الحق ولا تتكلم إلي بالحق مع الاتصاف بعلي الصفات ومكارم الأخلاق من عفو وحلم وتجاوز وحياء وكرم، وغير ذلك من الأخلاق الزكية والخلال المرضية فإذا زاد الفتح على هذا السر حصل ما سبق من القوتين، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الفتح إذا أنزل على الذات قبل نور القوة حصل في الذات خلل وضعف يفضي إلى ما سبق من موت أو زوال عقل، وإذا نزل على الذات نور القوة أولاً ثم نزل بعده نور الفتح لم تتضرر الذات بالفتح.

فقلت: وما هذه القوة؟

فقال رضي الله عنه وقد نظر إلى عشبة ضعيفة: لو أمد الله هذه العشبة الضعيفة لقوة التي نتكلم عليها لأطاقت حمل ذلك الجبل، يشير إلى جبل كان أمامنا، فالموفق يطلب من الله تعالى أن ينزل عليه نور القوة قبل نزول نور الفتح عليه، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إني دخلت على سيدي منصور في بداية أمري وكان غزلياً أي يتعاطى صنعة نسج الكتان فوجدته يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: أي شيء نصلح له إني أشاهد الآن فعل الله تعالى في حالة النسج فكنت أظن أني أصنع شيئاً فإذا غيري هو الذي يصنعه.

فقلت رضي الله عنه: ولم أدر ما أقول له ولو كان اليوم لعرفت ما أقول له.

فقلت: وأي شيء كنت تقول له؟

فقال رضي الله عنه: أقول له أطلب الله في الزيادة، فإنك الآن في مشاهدة الحوادث لأن أفعاله تعالى من جملة مخلوقاته الحادثة.

فقلت: وهل ترقى سيدي منصور عن هذه الحالة؟

فقال رضي الله عنه: عليها مات رحمه الله، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لو علم الناس أوصاف سيدي عمر يعني شيخه لما زاروا غيره من الأحياء كسيدي فلان وسيدي فلان، فإنه كانت فيه أربعة أوصاف لا تكاد توجد في غيره.

الأول: أنه لا يتكلم في أحد، ولا تراه قط يذكر أحداً بسوء لا في سر ولا في علانية.

الثاني: العزلة فإنه منقطع طول عمره في سيدي علي بن حرزهم، فهو على قراءة دلائل الخيرات أو تسبيحه دائماً بحيث لا يفتر ولا يذهب لداره إلا بقرب المغرب، وإذا كثر الزوار خرج عن الروضة إلى السدرة المحررة التي بإزاء باب الروضة فينقطع عن الخلق ويقبل على شأنه.

الثالث: ترك الفضول ولا ينسب لنفسه قليلاً أو كثيراً حتى إن كل من يزور سيدي علي بن حرزهم ـ ولا سيما من يبيت كل ليلة جمعة فيه ـ فإنهم لا يظنون فيه شيئاً من السر أصلاً، وإذا جاءوا لزيارة سيدي علي وكان حاضراً وطلبوا الفاتحة فإنما يطلبونها من سيدي علي ويوافقهم هو على ذلك ولا يطلبون قط منه فاتحة ولا غيرها.

الرابع: الزهد في الدنيا فإني رأيته منذ خالطته يطلع لسيدي علي عند الصبح ولا يأتي

معه بشيء حتى بطرف خبز، وإذا جاء للسيد علي شيء أكل منه ما تيسر وإلا ظل يومه طاوياً، وكنت أراه إذا وجد طرفاً من خبز يأخذ شيئاً من زيت السيد ويجعل عليه شيئاً من الملح ويجوز به، فإن لم يجد زيتاً حله في الماء وأكله، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن في الأولياء خصلة لو علمها الناس وعلموا ما فيها من الراحة لدفعوا كل ما عندهم، وهي أن الولي ما لم تنزل به النازلة لا يهتم لها ولا يتكدر حاله من أجلها، ولو ظن أو تيقن أنها تنزل به عن قريب لساعة أو أقل فإنها في نظره بمنزلة العدم لا شعور له بها أصلاً، فتراه يشاهد ماينزل به في المستقبل وهو يأكل ويشرب ويضحك ويأتي امرأته بمنزلة الجاهل الذي لا بصيرة له أصلاً ولا علم عنده بما سيكون رأساً، وذلك أنهم رضي الله عنهم يعلمون أن تصرفه تعالى لا يحيط به أحد فينفذ تعالى في تصرفه ما لا يظنونه كائناً، ويقطع تعالى من تصرفه ما يرونه واقعاً، فهم يشاهدون تصرفه المطلق الذي لا تقييد فيه بوجه من الوجوه، وفي هذه الخصلة راحة لا تكيف.

وإذا كان هذا حال الولي المفتوح عليه المشاهد للأمور ووقوعها فكيف ينبغي أن يكون حال المحجوب؟

فمن الواجب عليه أن يسلك بنفسه مسلك الولي، فيطرح الهموم من قلبه ويستريح من هم التدبير وسوء التقدير مع عدم الفائدة في تدبيره، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه عن الولي الذي تكون له ثلثمائة وستة وستون ذاتاً.

فقال رضي الله عنه: هو الوارث الكامل، يعني الغوث فقط.

فقلت: وموروثه ﷺ له مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ذات فما بال الغوث لم يرثها كلها؟

فقال رضي الله عنه: لا يطيق أحد ما يطيق النبي ﷺ.

قال رضي الله عنه: ومعنى الوراثة في الغوث أنه لا ذات شربت من ذات النبي ﷺ أكثر من ذاته، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن أهل الفتح الكبير يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، وحسناتهم مقبولة، وسيئاتهم كلها ترجع حسنات إذا فعلوها قبل الفتح. وأما بعد الفتح فإنها لا تصدر منهم معصية، لأنها لا تصدر إلا من المحجوبين وهم رضي الله عنهم في مشاهدة الحق دائماً ولأجل أن مشاهدة الحق تمنع من المعصية كأن الملائكة.

﴿لاَ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن صلاة العارفين رضي الله عنهم كيف هي؟

فقال رضي الله عنه: إذا قال الله أكبر، وصلى بهذه الذات الظاهرة صلت معه ذات الروح في ذاته تركع بركوعه وتسجد بسجوده.

قال رضي الله عنه: فجعلت أنظر إليها وإلى الذات الظاهرة أيهما أقرب إلى الأرض فأردت أن أحقق أيهما أقرب إلى الأرض فنهاني الحافظ عن ذلك وصلاة الروح مقبولة على كل حال.

فقلت: لأنها لا ترى فلا يدخلها رياء.

فقال رضي الله عنه: لا، بل لكونها حقاً من الحق إلى الحق وصلاة الظاهر إنما شرعت لعجز أكثر الخلق عن صلاة الروح، والعارفون رضي الله عنهم وإن كانوا يصلون بأرواحهم فإنهم يصلون بذواتهم أيضاً لجري العادة بذلك وحفظاً لظاهر الشريعة ثم ضرب مثلاً بمن يخدم صنعة الدرازة ليجعلها وسيلة إلى تعلم صنعة الحرارة ثم فتح الله عليه في صنعة الحرير بلا شيخ ولا تعلم أصلاً، فبقي مغموراً في جملة الدرازين وتفرض لهم زياً وعوائد وأموراً يعرفون بها وتجري على ظواهرهم، فترك هذا الرجل المفتوح عليه في صنعة الحرير زيهم فسألوه عن ذلك، فقال لأني رجعت حراراً وسبق في علم الله أن فتح عليه فيه وزاد عليهم بمعرفة لا تظهر إلا يوم القيامة، فمن اللائق بهذا الرجل أن يتبع عادة الدرازين ويتعاطى زيهم ويبقى على حالته الأولى، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن فلان من أهل القرن العاشر.

فقال رضي الله عنه: إنه فتح عليه ووقف به الحال فرجع ساحراً من جملة السحرة.

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال رضي الله عنه: أول ما يفتح على العبد يرى معاصي العباد وأسبابها. وكيف يقعون فيها والضبابة الظلمانية التي تستمد منها ذوات أهل الظلام والعياذ بالله، ونحو هذه الأمور، فإذا أراد الله بصاحب هذا الفتح شراً ركن عقله إليها وأدام الفكر فيها، فإن وقف به الفكر فيها ساعة واحدة وانقطع والعياذ بالله فلا يبقى في نظره سوى ما سبق ذكره في الفتح، وذلك الذي سبق هو مخيم الشياطين ومحل فتنتهم لبني آدم فيصير مشهده ومشهد الشياطين واحد، فيصيرون معه يداً بيد فيسخر على يده السحر ويرجع من جملة السحرة، وإذا أراد الله بصاحب الفتح خيراً فتح عليه ما يشغل فكره عما سبق، وهكذا لا يزال يرقيه في كل لحظة إلى ما لا نهاية، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: شأن الفتح عجيب وأمره كله غريب، وكم من عبد الله محبوب عند الله يمنعه الله سبحانه وتعالى من الفتح رحمة به، وذلك أن في الفتح أموراً إذا شاهدها المفتوح عليه قبل أن تطيب ذاته وتصل ففي ساعته يرجع والعياذ بالله بها نصرانياً،

وفيه أمور إذا شاهدها يرجع بها والعياذ بالله يهودياً، وكم من رجل لا يفتح عليه إلا عند خروج روحه، وكم من رجل يموت غير مفتوح عليه، ويبعثه الله على حالة هي أكمل وأكبر من حالة المفتوح عليه.

وقال مرة لبعض أحبابه: هذا هو الحمل الكبير الذي خزنوه في هذا التابوت، يشير إلى المعنى السابق.

وسمعته رضي الله عنه يقول لهذا الحبيب: إن لك حسنات عظيمة جسيمة إذا رأيتها غبطتك فيها.

ومرة قال له: هل لك أن تقسم معي حسناتك، فإني لا أزال أتعجب منها ومن عظمها.

وكان رضي الله عنه يقول، إنه يزال عن المفتوح عليه حين الفتح شيء شبه السلخ الأسود وهو الظلام المحيط بالذات كلها، فإذا زال ذلك السلخ صب على الذات نور الفتح وهو كبكبة عظيمة يأتي بها من شاء الله من الملائكة، وقوم آخرون يشتغلون بزوال السلخ، والملائكة حاملة للسر وبنفس زوال السلخ تضع الملائكة النور في الذات وفي وقت زوال السلخ تدهش الخلائق على المفتوح عليه، لجهلهم بعاقبة أمره من موت أو زوال عقل أو سلامة، فلا يزالون يتضرعون إلى الله تعالى في أن يرزقه القوة والتأييد والتوفيق لحمل ما طوّقه.

وكان رضي الله عنه يقول: إن نور الفتح يكون في ذات الشيخ فإذا قدر عليه وارثه في آخر حياته أخذه بعد انفصال الشيخ عن هذه الدار، وإن لم يقدر عليه بقي أمانة عند سيدنا جبريل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، إلى أن تطيقه ذات المريد فيزال عنه السلخ ويأخذ السر.

وكان رضي الله عنه يقول: إن سيدنا جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام يخالل المفتوح عليه قبل الفتح ثلاثة أيام يؤنسه محبة في النبي ﷺ ويسدده للطريق إلى غير ذلك من الأسرار التي ذكرها رضي الله عنه في شأن الفتح. وإياك أن تظن أن في ذكر سيدنا جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام هنا إيحاشاً كما يقوله تظن أن في ذكر سيدنا جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام هنا إيحاشاً كما يقوله ساداتنا الفقهاء رضي الله عنهم، ويشددون النكير على من يزعم أنه يشاهد الملائكة، فقد ردّ ذلك عليهم طائفة أخرى من الفقهاء رضي الله عنهم، بأنه لا محال فيه ولا مزاحمة فيه للجانب العلي الشريف البهي، وأيدوه بحكاية الصحابة الكبير الجليل الشهير سيدي عمران بن حصين الخزاعي رضي الله عنه، وقوله إنه كان يشاهد الملائكة ويسلمون عليه فلما اكتوى انقطعوا عنه. ومما عده الشيخ الشعراني رحمه الله في كتابه المنن منة عظيمة أن جمعه الله مع من يشاهد جبريل

ويكلمه ولو سكت من لا يعرف عن الكلام فيما لا يحسنه لخرج إلى الناس علم عظيم وخير كثير.

وليت شعري ما يقول من يمنع ذلك في الأخبار الصحيحة المتفق عليها التي أخرجها البخاري وغيره المصرحة بوقوع ذلك لغير هذه الأمة، فكيف يمنع ذلك في حق هذه الأمة الشريفة.

وانظر أخبار بني إسرائيل في صحيح البخاري وغيره، والله تعالى أعلم.

ثم آن لنا أن نذكر بعض الأمور الباقية النورانية التي يشاهدها صاحب الفتح الكبير مثل البرزخ والجنة والنار والصراط والحوض والأرواح والملائكة والحفظة والأولياء وغير ذلك فنقول:

الباب العاشر
في البرزخ وصفته وكيفية حلول الأرواح فيه

سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول في البرزخ: إنه على صورة محل ضيق من أسفله ثم ما دام يطلع يتسع، فلما بلغ منتهاه جعلت قبة على رأسه مثل قبة الفنار فينبغي أن يمثل بالمهراس الكبير من العود فإن أسفله ضيق، ثم جعل يتسع شيئاً فشيئاً إلى أعلاه، فإذا جعلت قبة فنار على رأسه كان مثل البرزخ في الشكل، أما في القدر والعظم فإن البرزخ أصله في السماء الدنيا ولم يخرج منها إلا ما يلينا ثم جعل يتصاعد عالياً حتى خرق السماء الثانية ثم تصاعد حتى خرق الثالثة، ثم تصاعد حتى خرق الرابعة ثم تصاعد حتى خرق الخامسة ثم تصاعد حتى خرق السادسة، ثم تصاعد حتى خرق السابعة، ثم تصاعد إلى ما لا يحصى وقد جعلت قبته عليه هذا طوله.

قال رضي الله عنه وهو البيت المعمور.

فقلت: والبيت المعمور إنما هو في السماء السابعة، والبرزخ مبدؤه من الأولى إلى ما فوق السابعة إلى ما لا يحصى فهو في كل سماء.

فقال رضي الله عنه: إنما اقتصروا على ذكرما فوق السابعة، لأن فيه القبة المذكورة وهي أشرف ما فيه، إذ ليس فيها إلا روح سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ومن أكرمه الله بكرامته كأزواجه الطاهرات وبناته وذريته الذين كانوا في زمانه وكل من عمل بالحق بعده من ذريته إلى يوم القيامة، وفيها أيضاً أرواح الخلفاء الأربعة، وفيها أيضاً أرواح الشهداء الذين ماتوا بين يدي النبي ﷺ في زمانه، وبذلوا نفوسهم ليحيا ﷺ، ويبقى لهم قوة وجهد لا يوجد في غيرهم إثابة لهم على حسن صنيعهم رضي الله عنهم.

وفي القبة أيضاً أرواح ورثته ﷺ الكاملين من أولياء الله تعالى: كالغوث والأقطاب رضي الله عنهم أجمعين، فأشرف ما في البرزخ القبة المقصورة ولذا اقتصر عليها من اقتصر.

ثم رأيت الحافظ بن حجر رحمه الله ذكر في شرح البخاري أن في كل سماء بيتاً معموراً فانظره في شرح حديث الإسراء من كتاب الصلاة، فقد نقل ذلك عن بعضهم ولا يوجد ذلك في جميع نسخه بل في بعضها دون بعض وحينئذ فلا إشكال أصلاً.

وأما عرض البرزخ فحسبك أن الشمس في السماء الرابعة لا تدور إلا به على هيئة

الطائف به فتقطعه في عام وكله ثقب كما سيأتي في صفة الجنة إن شاء الله تعالى، وفي هذه الثقب الأرواح.

فأما روح سيد الوجود ﷺ ومن أكرمه الله بكرامته ممن سبق ذكره فهي في القبة.

قال رضي الله عنه: وهذه القبة انقسمت إلى سبعة أقسام بعدد أقسام الجنة كل قسم منها يشبه جنة من الجنان السبع.

قال رضي الله عنه: وروحه ﷺ وإن كان محلها في القبة فهي لا تدوم فيها، لأن تلك القبة وغيرها من المخلوقات لا تطيق حمل تلك الروح الشريفة لكثرة الأسرار التي فيها، وإنما يطيق حمل تلك الروح الشريفة ذاته الطاهرة الزكية الزاهرة ﷺ فلذا كانت روحه ﷺ في البرزخ غير مقيمة في محل معين لأنه لايطيقها شيء والأرواح التي في البرزخ من السماء الرابعة فصاعداً لها أنوار خارقة ومن الثالثة فسافلاً غالبهم محجوب لا نور لأرواحهم وهذه الثقب التي في البرزخ كانت قبل خلق آدم معمورة بالأرواح وكان لتلك الأرواح أنوار ولكنها دون الأنوار التي لها بعد مفارقة الأشباح.

قال رضي الله عنه: فلما هبطت روح آدم عليه السلام إلى ذاته بقي موضعها خالياً وهكذا كلما هبطت روح بقيت ثقبتها خالية منها، فإذا رجعت الروح بعد الموت إلى البرزخ لا ترجع إلى الموضع الذي كانت فيه، بل تستحق موضعاً آخر غيره.

قلت: كأنه يقول بل تستحق منزلاً أعلى إن كانت مؤمنة وأسفل إن كانت كافرة.

قال رضي الله عنه: والثقب الخالية تعمر بمخلوقات من مخلوقات الله تعالى وكانت الأرواح قبل ألست بربكم غير عارفة بالعواقب جاهلة بمراد الله تعالى فيها، فلما أراد الله تعالى أن يظهره لها ما سبق في قضائه وأزله أمر إسرافيل أن ينفخ في الصور، فنفخ فاجتمعت الأرواح وحصل لها من الهول والفزع مثل ما يحصل في صعقة البعث والقيام أو أكثر، فلما اجتمعت أسمعها الباري جل وعلا خطابه الذي لا يكيف، وقال:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

فأما أهل السعادة فإنهم استجابوا لربهم مع الفرح والسرور وهناك ظهر تفاوتهم في الاستجابة واختلاف مراتبهم في المشاهدة وتبين الشيخ من المريد، وعلم أن فلاناً متصل بفلان وفلان منقطع عنه وظهر أيضاً تفاوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واختلاف أممهم.

وأما أهل الشقاء والعياذ بالله فإنهم سمعوا الخطاب وتكدروا وتغيروا وأجابوا كارهين ثم نفروا نفرة النحل إذا دخن عليه فحصلت لها ذلة وانكشفت أنواره وظهر المؤمن من الكافر في ذلك الوقت، وعند ذلك عين لكل روح الموضع الذي لها في البرزخ، وأما قبل ذلك فكانت الأرواح في البرزخ من أراد محلاً أقام فيه ثم ينتقل عنه إن شاء إلى غيره.

قال رضي الله عنه: ومن نظر الآن إلى البرزخ علم الأرواح التي خرجت من الأشباح بقوة أنوارها أو بكثرة ظلامها وعلم الأرواح التي لم تخرج إلى الدنيا بقلة ذلك.

قال رضي الله عنه: وعند فراغ الأرواح التي لم تخرج إلى الدنيا واستكمالها الخروج إليها حتى لا تبقى روح إلا وخرجت حتى تقوم القيامة.

قلت: فيلزم أن يعلم أرباب هذا الكشف بالساعة ومتى تقوم وقد قال تعالى:

﴿إِن الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيثُ﴾ الآية.

وقال النبي ﷺ:

«في خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاّ الله تَعَالَى».

فقال رضي الله عنه: إنما قال ذلك النبي ﷺ لأمر ظهر له في الوقت وإلا فهو ﷺ لا يخفى عليه شيء من الخمس المذكورة في الآية الشريفة، وكيف يخفي عليه ذلك والأقطاب السبعة من أمته الشريفة يعلمونها، وهم دون الغوث، فكيف بالغوث، فكيف بسيد الأولين والآخرين الذي هو سبب كل شيء ومنه كل شيء؟

ثم قال رضي الله عنه: وكان البرزخ قبل أن ترجع إليه الأرواح من الأشباح قليل الأنوار، وكان قبل خلق آدم وفي أيامه قليل الأنوار، فلما صعدت إليه روح آدم وأرواح الأنبياء من ذريته عليهم الصلاة والسلام وأرواح الأولياء منهم كثرت أنواره على سبيل التدريج، لأن الأرواح إنما صعدت بالتدريج.

فقلت: فأين أرواح الكفار في البرزخ بعد خروجها من الأشباح.

فقال رضي الله عنه: في أسفل البرزخ. وإذا نظرت إلى مقرهم فيه وجدته أسود مظلماً مثل الفحم، والذي سوده حال ساكنيه من الكفرة وذلك أن الآخرة بعكس الدنيا، فالشخص إذا لبس في الدنيا ثياباً بيضاء فاخرة زاهرة تبقى على حالتها إلى أن يدخلها الوسخ من أمر عارض، وأما في الآخرة فوسخ الثياب من الذوات، فلو فرض أن الكافر لبس ما عسى أن يفرض من الثياب الحسان الشديدة البياض، فإنها مقدار لحظة ترجع تلك الثياب أسود من الفحم.

قال رضي الله عنه: بل الهواء المحيط بنا انعكس حاله في الدارين، ففي الدنيا إذا كان مضيئاً أضاء على الأجرام التي فيه من ذوات المؤمنين والكفار.

وأما في الآخرة فإن الذوات غالبة عليه وحاكمة فيه، فذوات المؤمنين تضيء عليه ويكتسي من أنوار المؤمنين ما يبهر العقول.

وأما ذوات الكفار: فإنها تسخنه وتسوده حتى يصير كالفحم الذي لا أسود منه.

وبالجملة فالآخرة تظهر فيها أحكام الأمور الباطنة لأنها هي الحق والآخرة دار حق.

وبنحو هذا المعنى أجابني رضي الله عنه عن العرق في الآخرة الذي يلجم بعضاً ويبلغ إلى أوساط قوم وإلى ركب آخرين مع استواء الأرض التي هم فيها، وإذا وقف ثلاثة في ماء أرض مستوية في الدنيا فإنه لا يمكن فيه هذا الاختلاف.

فقال رضي الله عنه: لأنهم لما تفاوتوا في الباطن في أمر الدنيا ظهر حكمه في الآخرة لأنها دار حق.

ثم قال رضي الله عنه: وفي البرزخ الذي فيه الكفرة عراجين خارجة منه على صفة العمود المستطيل، ثم امتدت تلك العراجين إلى ناحية جهنم، فنغدو على أهل تلك العراجين من عذابها ونكالها ورائحتها المنتنة ما يجعلهم بمنزلة من هو في جهنم بذاته، والذين يسكنون تلك العراجين هم المنافقون ومن غضب الله عليهم من الكفار.

وفي البرزخ الذي فيه أرواح السعداء عراجين أيضاً خارجة منه مستمدة إلى ناحية الجنة فيغدو على أهلها من نعيم الجنة وخيرها ورائحتها الطيبة ما يجعلهم بمنزلة من هو في الجنة بذاته، والذين يسكنونها هم الشهداء ومن رحمه الله تعالى، وهذه العراجين المذكورة في برزخ الفريقين هي من البرزخ ولكنها على هيئة الزائد عليه الخارج منه الذاهب إلى ناحية أخرى غير ناحية البرزخ.

فقلت: فأسفل البرزخ في السماء الدنيا، فإذا كانت أرواح الكفار فيه فلا تكون فيه إلا إذا فتحت لها أبواب السماء، وقد قال الله تعالى:

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

وأيضاً فإن العلماء ذكروا أن البرزخ للمؤمنين من القبر إلى أعلى عليين، وللكافرين من القبر إلى سجين وهو أسفل سافلين.

فقال رضي الله عنه مرة: إن روح الكافر إذا كانت في السماء الدنيا أسفل البرزخ وقد حجبت بأن خيطت عينها وأذنها وقلبها وجميع مشاعرها على سبيل ضرب المثل فهي بمثابة من لم تفتح له أبواب السماء.

ومرة أخرى قال: إن أرواح الكافرين في البرزخ على قسمين:

قسم محجوب لغلبة الظلام وسوء الحال حتى لا ترى الروح ولا تشاهد قليلاً ولا كثيراً، وهو حجاب غضب والعياذ بالله.

وقسم غير محجوب بل يشاهد ولكن لا يشاهد إلا ما أعد له من العذاب، وكل من القسمين في سخط الله فهو بمثابة من لم تفتح له أبواب السماء.

قلت: ويؤيده اختلاف العلماء في قوله:

﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

فقيل لأدعيتهم بمعنى أنها لا تقبل وقيل لأرواحهم بمعنى أنها لا تفتح لها كما تفتح لأرواح المؤمنين. وانظر البيضاوي واختلافهم أيضاً في حديث الأسودة التي على يسار آدم وهو في السماء، وقوله في الحديث **«إنها أرواح الكفار من بنيه»** فحمله بعضهم على ظاهره وأوله آخرون:

ومرة أخرى قال: إنا إذا قلنا في البرزخ ابتداؤه من السماء الدنيا على الصفة السابقة فلسنا نعني أنه لا يكون إلا من ناحية رؤوسنا، بل ويكون من تحت أرجلنا لأن السماء محيطة بالأرض وكل سماء محيطة بما في جوفها، والعرش محيط بالجميع، والرزخ مخلوق عظيم وعرض أصله الذي هو أضيقه قدر الأرض سبع مرات، فهو إذا قلنا إنه فوق رؤوسنا فإن طائفة منه تكون تحت أرجلنا، فمن قال من العلماء إن أرواحهم تكون في أسفل سافلين فيعني به الجهة من أسفل البرزخ التي تسامت جهة أسفلنا.

قلت: فكأنه رضي الله عنه يقول: البرزخ خرق السموات السبع إلى أعلى عليين، وخرق الأرضين السبع إلى أسفل سافلين، فأسفله في سجين تحت الأرض السابعة وأعلاه في عليين فوق السماء السابعة وقد صرح رضي الله عنه بذلك غير ما مرة، وهذا هو الذي يوافق أن الجنة فوق السموات وجهنم تحت الأرضين، فأسفله إلى ناحية جهنم، وفيه أرواح الكفار والأشقياء والفجار وأعلاه إلى ناحية الجنة، وفيه أرواح المؤمنين والسعداء والأخيار، وهذا لا ينافي الاختلاف السابق في فتح أبواب السماء فإنه لا يلزم من كون البرزخ على هذه الصفة أن لا تفتح أبواب السماء لأرواح الكفار.

وقال رضي الله عنه مرة أخرى: إن من الكفار من إذا مات حبست روحه عن الصعود إلى البرزخ، وسلطت عليها الشياطين والأباليس الذين كانوا يوسوسون للذات التي كانت فيها في دار الدنيا، فإذا خرجت الروح منها تلقاها أولئك الشياطين فجعلوا يلعبون بها والعياذ بالله لعب الصبيان بالكرة فيرميها شيطان لشيطان ويضربون بها الصخور ويعذبونها بما لا يطاق من عذاب الله حتى تفنى الذات التي في القبر، وترجع تراباً، وعند ذلك تصعد تلك الروح إلى مقرها في أسفل البرزخ، فمن حمل عدم فتح السماء لأرواحهم على هذا المعنى ونحوه فهو صحيح.

قلت: ولا تنافي بين ما قاله في هذه المرات بل هو كلام واحد وقول متفق فيضم بعضه إلى بعض، وإنما فرقته بحسب ما سمعته.

فإن قلت: غالب هذا الكلام في هذه المرات يقتضي أن أسفل البرزخ في السماء الدنيا، وقد صرح لك بأن أسفله في أسفل سافلين، وهذا ينافي ما قبله بلا شك، فإن هذا يقتضي أن أسفله تحت الأرض السابعة وما قبله يقتضي أنه في السماء الدنيا.

قلت: إذا حمل ما قبله على الأسفل بالنسبة إلى السعداء وحمل هذا على الأسفل بالنسبة للأشقياء لم يقع بينهما اختلاف كما لايخفى.

فإن قلت: هذا صحيح ولكن ما سبق يقتضي أن أرواح الكفار في ذلك الأسفل الذي في السماء الدنيا، وهذا يقتضي أنها لا تكون في ذلك الأسفل بل في الأسفل التحتاني فيتنافى الكلامان.

قلت: إن أرواح الكفار مختلفة كما سبق، فمنها ما يكون في هذا الأسفل، ومنها ما يكون في تلك العراجين، ومنها ما يكون في وسط بين الأسفلين، ومنها ما يكون في الأرض الثالثة.

وقد قال لي رضي الله عنه: إنه رأى في الأرض الثالثة أقواماً في بيوت ضيقة ونار محرقة وأبيار غامقة وعذاب دائم، لا يتكلم الواحد منهم كلمة واحدة حتى تهوي به هاويته فهو في صعود ونزول.

قال رضي الله عنه: وبينما أنا أنظر فيهم إذ لاح لي رجل منهم أعرفه باسمه وبذاته في دار الدنيا، فناديته باسمه وقلت ويحك! ما أنزلك هذا المنزل؟ فأراد أن يكلمني فهوت به هاويته، وأكبر ظني أني قلت للشيخ رضي الله عنه هذا موضع من مواضع البرزخ، لأن البرزخ خارق للأرضين السبع إلى أسفل سافلين، فقال صدقت هكذا قال لي، والله أعلم.

وما دخل لي شك في جميع ما كتبته في هذا الكتاب إلا هذه الكلمة فنبهت عليها لتعلم مرتبتها، والله أعلم.

وهذا الرجل الذي رآه الشيخ رضي الله عنه في هذه الأرض كان في دار الدنيا من جملة المؤمنين.

ثم قال رضي الله عنه: ومن عجيب إرادة ربنا سبحانه وتعالى أن حجب بلا حجاب أرواح الكفار عن الانتفاع بأرواح المؤمنين، قال فتلك الأنوار لها إشراق وإضاءة لا يبلغها شيء من هذه النيرات بل نور هذه النيرات إنما هو من تلك الأنوار على ما سيأتي، ومع ذلك فإن روح الكفار بالنسبة إلى ذلك النور لا تنتفع به ولا تستضيء منه بقليل ولا بكثير، بل هي في ظلامها وسوادها الذي لا يكيف فهي بالنسبة إلى تلك الأنوار في الحجب عنها بمثابة من جعلها في حق من هندي وقفل عليها بالرصاص والفرض أنه لا حق ولا رصاص إلا إرادته سبحانه وتعالى بمنع سريان النفع إلى الروح الكافرة.

قال رضي الله عنه: وأما أرواح المؤمنين، فإنه ينتفع بعضها من بعض ويسقي بعضها بعضاً ويشفع بعضها في بعض حتى أنك تشاهد في بعض الأرواح آثار ذنوب مما اكتسبته الذات وترى تلك الآثار ظاهرة على الروح ثم إن تلك الآثار تزول بسبب روح عزيزة عند الله تعالى قريبة من الروح ذات الآثار.

قال رضي الله عنه: وبين البرزخ والأماكن التي فيه وبين الجنة خيوط من نور لا تحدث فيه إلا بعد صعود الأرواح من الأشباح وذلك النور هو نور الإيمان، فتراه خارجاً من روح زيد مثلاً في البرزخ خارقاً إلى الجنة فتستمد ذات ذلك الولي من الجنة بسبب ذلك النور وكذلك بين برزخ أرواح الكفار وبين جهنم خيوط وظلام، ولا تحدث فيه إلا بعد صعود الأرواح من الأشباح وذلك الظلام هو الكفر، أعاذنا الله منه فتراه خارجاً إلى جهنم فتستمد أرواح الكفار من سموم جهنم وعذابها.

قال رضي الله عنه: وكذلك بين البرزخ وبين ذوات المؤمنين في الدنيا خيوط هي نور إيمانهم، فيرى صاحب البصيرة خيط الإيمان أبيض صافياً مثل شعاع الشمس النافذ من منفذ ضيق، إذا ضربت الشمس في باب مثلاً فإنك ترى فيه سلوكاً وخيوطاً من شعاعها خارقة إلى ما رواء الباب، كذلك يشاهد صاحب البصيرة في المؤمنين الأحياء خيطاً خارجاً من كل أحد مستمداً من رأسه، ولا يظهر له حتى يتجاوز مقدار شبر فوق الرأس فيراه حينئذ ذاهباً في امتداد إلى مقر تلك الروح التي في ذلك المؤمن في البرزخ، وهو يختلف بحسب القسمة الأزلية، فمنهم من يرى فيه على هيئة الخيط كما سبق، ومنهم من يشاهد فيه أغلظ من ذلك على هيئة غلظ القصبة، ومنهم من يشاهد فيه أغلظ من ذلك على هيئة النخلة وهم الأكابر من الأولياء رضي الله عنهم، وكذلك يشاهد مثل هذه الخيوط بين ذوات الكفار وبين مقرهم في البرزخ، إلا أن خيوط الكفار لونها أزرق يضرب إلي سواد مثل نار الكبريت وكل من شوهد فيه ذلك فهو علامة شقاوته والعياذ بالله وهو مختلف أيضاً كما سبق؛ فمنهم من يرى فيه رقيقاً، ومنهم من يرى فيه غليظاً مثل النخلة على حسب تفاوتهم في الكفر نسأل الله السلامة.

قال رضي الله عنه: وكم مرة أنتبه إلى ملاحي اليهود فأرى الخيوط خارجة من رؤوسهم ثم تجتمع في الأفق صاعدة مثل الضبابة السوداء، وأرى فيهم خيوطاً قليلة بيضاء صافية مشرقة، فاعلم بذلك أن أصحاب تلك الخيوط سينتقلون إلى دين النبي أي نبينا محمد ﷺ، وأنتبه إلى مدينة من مدن الإسلام فأرى الخيوط خارجة من رؤوسهم صافية مشرقة صاعدة إلى البرزخ، وقد يشاهد فيهم بعض الخيوط التي فيها زرقة وهي قليلة وهي علامة شقاوة من شوهدت فيه كما سبق.

قلت: وهم المشار إليهم في الحديث.

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا».

والمؤمنون المشاهدون في زمرة اليهود هم المشار إليهم أيضاً بقوله ﷺ:

«وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ شِبْرٌ ثُمَّ يَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

وقال رضي الله عنه مرة: من أراد أن ينظر إلى السابقة وإلى قوله تعالى في الحديث.

«هٰؤُلاَءِ إِلَى الْجَنَّة وَلاَ أُبَالِي، وَهٰؤُلاَءِ إِلَى النَّارِ وَلاَ أُبَالِي».

فلينظر إلى الصبيان، يعني إن كان من أرباب هذا الكشف فإنه يرى فيهم من خيطه مشرق ومن خيطه أزرق، وهم غير مكلفين بعد ولكن السابقة سابقة.

ومررنا مرة على صبيين صغيرين لهما نحو الأربعة أعوام وهما يلعبان، فقال لي: انظر أي شيء عمل هذا وأي شيء عمل هذا؟ يعني أن أحدهما خيطه مشرق والآخر أزرق.

وقال لي رضي الله عنه مرة أخرى وقد مررنا على جماعة من الصبيان وهم يلعبون: من نظر إلى صبيان هذا الزمان علم حسنه عن الزمان الذي يأتي في المستقبل فإن غالب أنوار صبيان هذا الزمان في غاية الحسن والملاحة، وقد مررنا مرة على موضع فخرج منه صبي فنظر إليه فقال له ما اسمك؟ فقال المقداد.

فقال رضي الله عنه: هذا يخرج منه ولي كبير عزيز عند الله عز وجل.

ونظر مرة إلى صبي آخر فقال لي انظر إلى نور الولاية انظر إلى حلاوتها على وجهه انظر إلى الولاية في ذاته فإنها لا تخفى على أحد. ثم قال لي رضي الله عنه: أوصيك به خيراً.

قلت: وقد كبر ذلك الصبي ورجع اليوم رجلاً والحمد لله، وقد حج وهو يرى مرائي عظاماً مع حسن حالته واستقامة أمره وسطوع الملاحة على وجهه.

قال رضي الله عنه: وبنفس سقوط الذات من البطن إلى الأرض يعلم صاحب هذا الكشف ما تصير إليه بمنزلة البحيرة، فإنها قبل أن تنبت لا يدري هل يكون منها شيء أم لا؟ فإذا نبتت وخرجت إلى العيان علم منها ورقة البطيخ من ورقة غيره، وبمنزلة النوارة التي هي صفراء لا ترجع خضراء والتي هي حمراء لا ترجع صفراء.

ثم قلت له رضي الله عنه: لم كان المنافقون أسوأ الكفرة في الدرك الأسفل من النار مع أن لهم صلاة وصياماً وحجاً وجهاداً وإن لم يكن شيء من ذلك فقد كفوا أذيتهم عن أهل الإسلام؟

فقال رضي الله عنه: سبحان الله يا فلان، الكفر وخبثه وعظمه يمتد من السابقة لا من الأعمال، فكم مرة ننظر إلى البرزخ فنرى فيه عموداً ظلمانياً أزرق خبيثاً ممتداً هابطاً منه ذاهباً إلى مدينة من مدن الكفرة لعنهم الله، فأقول في نفسي هذا لا يحل إلا في سلطانهم ولا ينزل إلا في طاغيتهم قال فأتبعه نظري فنراه نزل في شويخ ضعيف جالس في حانوت يتمعش فأوحد الله تعالى وأحمده وأشكره على نعمه.

وقال لي مرة أخرى: الخيط الأزرق وإن كان يدل على الشقاء لكنه قد يتبدل بإذن الله إذا جعل صـ[١] . . . . . الخيط يخالط أهل السعادة ويداخلهم ويباطنهم، فإنه لا يزال خيطه يصفى شيئاً فشيئاً حتى يصير مثل أهل السعادة والحمد لله.

ومرة قال لي: إن الخيط الأزرق وإن كان أزرق ولا إشراق فيه فإنا شاهدناه ينقلب وإن كان مع الزرقة إشراق فإنا لم نشاهده ينقلب.

وقال لي مرة أخرى: من حكمة بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم يجمعون الناس على كلمتهم حتى يصيروا أهل ملة واحدة فيتناصحون ويتناصرون، وفيهم أهل سعادة وفيهم من خيطه أزرق، فإن طالت صحبته لأهل السعادة انقلب سعيداً ببركة الاجتماع مع أهل العادة فبالبعثة حصل الاجتماع وبالاجتماع حصل الانقلاب فهذا من فوائد البعثة.

قلت: وبه يفسر سر الأمر النبوي بلزوم الجماعة وعدم الخروج عنها قيد شبر، وأن من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية.

وكنت ذات يوم معه رضي الله عنه في سوق من الأسواق ويده الكريمة في يدي ونحن نتماشى وأنا غائب في سؤاله في هذه العلوم الكشفية فلقينا رجلاً ينسبه الناس إلى الصلاح وهو قد نصب نفسه لذلك فخاطبنا بكلمة أدرج فيها نصيحة ومقصودة شيء آخر ظهر من قرائن أحواله فسكتنا عنه.

فقال لي الشيخ رضي الله عنه بعد ذلك: إن خيطه أزرق والعياذ بالله، وأقسم لي على ذلك غير ما مرة ولا أدري هل يتبدل خيطه أو لا يتبدل؟.

قال رضي الله عنه: فإذا ماتت الذات انقلبت الروح إلى البرزخ وانقطع سرها عن الذات إذا أخذت الذات في التغير والفناء، وقد يبقى سرها متصلاً بالقبر في بعض الأولياء، فيبقى عمود نور إيمانه قائماً بالقبر ممتداً إلى الروح التي في البرزخ كقيامه بالذات قبل.

قال رضي الله عنه: وكم مرة أنظر إلى مقابر فاس وأجبنتها ومواضع منها فأرى الأنوار خارجة من الأرض ذاهبة إلى البرزخ على هيئة القصب النابت من الأرض الممتد إلى البرزخ فأعلم أن أصحاب تلك الأنوار أولياء أخيار، وكم مرة يقول لي هٰهنا ولي كبير في موضع من المواضع هٰهنا نوره خارج إلى البرزخ وكذلك هو في قبر نبينا ومولانا محمد ﷺ فعمود نور إيمانه ﷺ ممتد من القبر الشريف إلى قبة البرزخ التي فيها روحه الطاهرة، وتأتي الملائكة زمراً زمراً وتطوف بذلك النور الشريف الممتد وتتمسح به وتتطارح عليه تطارح النحلة على يعسوبها، فكل ملك عجز عن سر أو عن تحمل أمر أو حصل له كلل أو وقوف

---

(١) موضع النقط بياض في الأصل.

في مقام فإنه يجيء إلى النور الشريف يطوف به، فإذا طاف به اكتسب قوة كاملة وجهداً عظيماً من نوره ﷺ فيرجع إلى موضعه وقد قوي أمره، ولا يفرغ من طوافه حتى تجيء جماعة أخرى من الملائكة كل واحد منهم يبادر الطواف.

وقال لي مرة: لما أراد الله أن يفتح عليّ وأن يجمعني برحمته نظرت وأنا بفاس إلى القبر الشريف ثم نظرت إلى النور الشريف فجعل يدنو مني وأنا أنظر إليه فلما قرب مني خرج منه رجل وإذا هو النبي ﷺ، فقال لي سيدي عبد الله البرناوي: لقد جمعك الله يا سيدي عبد العزيز مع رحمته وهو سيد الوجود ﷺ فلست أخاف عليك تلاعب الشياطين.

وقال رضي الله عنه: إن شأن البرزخ عجيب وإنه يكتسي بأنوار إيمان المؤمنين ما يبهر العقول حتى إن نور الشمس إنما هو من نور تلك الأرواح المؤمنة.

وأما نور النجوم والقمر فإنما هو من نور الشمس، وذلك لأن أسفل البرزخ أسود مظلم كما سبق، فلا يحصل منه تنوير لما يقابله من النيرات وهو الحائل المانع من تنويرها بالنور الذي تنورت منه الشمس، لأنها لو تنورت منه لتنور أصل البرزخ منه، فتنتفع أرواح الكفار من أرواح المؤمنين والله تعالى لم يرد ذلك، وإنما تنورت تلك النيرات من الشمس، لأن الشمس خارجة عن البرزخ وتلك النيرات تسامتها فيحصل لها تنور والقمر في السماء الدنيا في هذا الوجه الذي يليها.

فقلت: فالمنجمون يزعمون أن النجوم الثابتة في تلك الثوابت، وهو الفلك الثامن.

فقال رضي الله عنه: من أين لهم هذا.

فقلت: زعموا من اختلاف سيرها مع سير السبعة السيارة.

فقال رضي الله عنه: ليس كما ظنوا النجوم كلها في السماء الدنيا، ثم تكلم على كيفية كل سماء وما فيها وسكانها وما يليق بنا كتبه.

ولا تظن أيها الواقف على هذا الكتاب أني كتبت كل ما سمعت من الشيخ رضي الله عنه، بل إنما كتبت منه بعض البعض فهذا ما سمعت منه في أمر البرزخ والله ينفعنا به آمين.

الباب الحادي عشر

في الجنة وترتيبها وعددها وما يتعلق بذلك

سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول في جنة الفردوس: إن جميع النعم التي يسمع بها في دار الدنيا والتي لا يسمع بها موجودة فيها.

قال رضي الله عنه: ومنها تفجر أنهار الجنة.

قلت كما في حديث البخاري وغيره قال رضي الله عنه: وكيفية جري الأنهار أنها تجري في النهر الواحد أربعة من الأشربة الماء والعسل واللبن والخمر، وتجري فيه ولا يختلط بعضها ببعض كالألوان التي في عروس المطر ترى فيه ألواناً أحمر وأصفر وأزرق وأخضر ألواناً غير مختلطة كذلك الأشربة في الجنة ترى جارية مجموعة في نهر واحد، ولا يختلط بعضها مع بعض، وهي تجري بحسب شهوة المؤمن في الجنة، فإذا اشتهى الأربعة جرت له فإذا كان من يليه يشتهي اثنين فقط جرى اثنان وانقطع عنه اثنان بإرادة الله سبحانه، فإذا كان من يليهما يشتهي واحداً انقطع عنه ثلاثة وجرى له واحد، فإذا كان آخر يشتهي أكثر من الأربعة جرى له ما يشتهي بإذن الله تعالى، فإذا نظرت في الجرية من أولها إلى آخرها رأيت جرية فيها أنواع أربعة في موضع ونوعان في موضع ونوع في موضع وخمسة في موضع من غير حاجز ولا فاصل فسبحان الملك الخلاق.

قال رضي الله عنه: وهي تجري في غير حفير.

قلت: كما في الحديث أنهاتجري في غير أخدود.

وكنت معه مرة في باب الفتوح، فقلت له إني سمعت سيدي فلاناً نفعنا الله به يقول: إن بعضهم رأى مفروط الجنة قدر ذراع.

فقال رضي الله عنه: وأنا رأيته مثل حائط يعني الحائط المعترض في قبلة مصلى باب الفتوح.

وقال لي مرة أخرى: إنه فيها مثل طول ذلك الحائط وأصغر وأكبر.

ثم قال رضي الله عنه: والناس يظنون أن جنة الفردوس هي أفضل الجنان وأعلاها ولا تبلغها جنة من الجنان، وليست كذلك بل هناك جنة أخرى هي أفضل منها وأعلى، وليس فيها من النعم شيء ولا يسكنها إلا أهل مشاهدة الله عز وجل من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ومن أوليائه رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

قال رضي الله عنه: ومشاهدة الله عز وجل عند أهلها أعز عندهم وأحلى وأعلى وأفضل من كل نعمة تصور في الخاطر وأهل هذه الجنة لا يحبون الخروج منها إلى غيرها من الجنان كما لا يحب أهل الجنة الخروج منها إلى الدنيا.

قال رضي الله عنه: وغالب من يسكن جنة الفردوس أمة نبينا ومولانا محمد ﷺ، ولا يخرج عنها منهم إلا نحو العشرين من أهل الظلم والكبائر ومن شاء الله أن لايسكنها من هذه الأمة نسأل الله عفوه وفضله.

قال رضي الله عنه: ولسيدنا محمد ﷺ محبة عظيمة في أمته فهو يحب أن يزورهم في الجنة ويصلهم كما يصل ذو الرحم رحمه، فلذلك جمع الله له بين وسط الجنة العالية، ذات المشاهدة السابقة، وبين وسط جنة الفردوس ذات النعم الفاخرة، فجعل مجموع ذلك مسكن النبي ﷺ ولم يعط هذا واحداً من الخلائق غيره، فيصل ﷺ جميع أمته، من أهل المشاهدة وغيرهم، جعلنا الله من أمته ولا عدل بنا عن سنته وطريقه.

قلت: وهذه الجنة العالية التي أشار رضي الله عنه إليها هي جنة عليين والله أعلم.

فقد أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ.

«إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيُشْرِفُ أَحَدُهُمْ عَلَى الْجَنَّةِ فَيُضِيءُ وَجْهُهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا يُضِيءُ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ».

وأخرج أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي سعيد والطبراني عن جابر بن سمرة وابن عساكر عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّماءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ».

انظر الجامع الصغير، ومن نظر أيضاً البدور السافرة في أحاديث الرؤية وهي التي ختم بها الكتاب، علم صحة ذلك واستخرج للجنة العالية أسماء أخر، وهي دار المزيد، كما في حديث حذيفة وغيره.

وأخرج أبو نعيم عن أبي يزيد البسطامي قال: إن الله خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عما ظهر لي في تسمية الجنة العالية المتقدم ذكرها، فحكيت له أنها جنة عليين.

فقال رضي الله عنه: هي غيرها.

فقلت: إن في الحديث كذا وكذا وأشرت إلى الحديث السابق عن أبي سعيد الخدري.

فقال رضي الله عنه: نعم فعلمت أنه أراد أن يساعف.

فقلت له: اذكر لنا ما عندك.

فقال رضي الله عنه: جنة عليين هي فوق جنة الفردوس، خارجة عن جهتها وليست مسامتة وهذه الجنة العالية جنة أخرى.

فقلت فهل تسمى دار المزيد.

فقال رضي الله عنه: ذلك هو اسمها وليس فيها شيء من النعم سوى مشاهدة الله سبحانه.

وسبق أن مشاهدة الله عند أهلها أعز عندهم من كل نعيم قال لأن مشاهدة الله تعالى فيها لذة جميع النعم التي في الجنة ففيها ما في الجنة وزيادة شيء آخر ولذة أهلها لذة الروح ولذة غير أهل هذه الجنة لذة ذواتهم الباقية.

قال رضي الله عنه: ومن له لذة من أحد النوعين لا يطيق الأخرى، ولا يقدر على الجمع بينهما إلا مخلوق واحد وهو سيد الأولين والآخرين نبينا ومولانا محمد ﷺ، فهو يطيق من لذة المشاهدة وأسرارها ما لا يطيقه أحد ويلتذ بذاته أيضاً في نعيم الجنة ما لا يلتذ منه أحد ولا تشغله هذه عن هذه فسبحان من قواه على ذلك وأقدره عليه.

قال رضي الله عنه: وهذه الجنة فوق جنة الفردوس، ومساهمته لها وعدد ساكنيها قليل بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

وأما جنة عليين فإن فيها من النعيم ما لا يحصى وجنة الفردوس أكثر أنواعاً منها: وجنة عليين نعيمها أرق وأدق، وكأنه يقول إنه كاد يكون معنوياً لقربها من دار المزيد التي نعيمها معنوي لا حسي، فجنة عليين أعلى وأحلى، ونعم جنة الفردوس أكثر، وفي جنة عليين يسكن جماعة من الأنبياء، منهم سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام.

فقلت: فكيف تصنع بالأحاديث الدالة على أن جنة الفردوس هي أعلى الجنان كحديث البخاري:

«**إِذَا سَأَلْتُمْ فَاسْأَلُوا اللهَ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ**».

قال بعضهم: وسط الجنة أي جيدها، وأعلاها حقيقة وقال بعضهم الوسط قد يكون أعلى كوسط الأكمة فهو وسط وأعلى، قاله الحافظ السيوطي في البدور السافرة إلى غير ذلك من الأحاديث.

فقال رضي الله عنه: لمن شاء أن يسمي هذه الجنان الثلاثة جنة واحدة فله ذلك، ويقول في المجموع إنه جنة فردوس باعتبار أن قبته ﷺ أخذت من دار المزيد ومن جنة

عليين، ومن جنة الفردوس فمن كان في جنة الفردوس كان مع النبي ﷺ، ومن كان في عليين كان معه ﷺ، ومن كان في دارالمزيد كان كذلك معه ﷺ، فمن نظر إلى مقامه ﷺ وجعل الجنان الثلاث جنة واحدة فله ذلك.

قال رضي الله عنه: والقبة المشرفة أخذت وسط الفردوس، وجعلت في طرف عليين فأخذته إلى أن بلغت دار المزيد فأخذت وسطها.

قلت: وبهذا تجتمع الأحاديث، والله أعلم.

فقلت: وبقية الجنان فيها نعم.

فقال رضي الله عنه: فيها نعم على قدر أعمال أهلها، غير أن جنة الفردوس لهذه الأمة ولمن وحد الله بالهداية من غير بعثة نبي.

قلت كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل.

فقال رضي الله عنه: فهل شهد لهما النبي ﷺ بذلك، فلم أستحضر في الوقت جواباً، ثم رأيت في شرح منظومة القبور لابن خليل السبكي التصريح بأنه ﷺ شهد لهما بأنهما يبعثان يوم القيامة أمة وحدهما.

وعبارته قال بعض العلماء: أهل الفترة على ثلاث أقسام:

الأول: من أدرك التوحيد ببصيرته، ثم من هؤلاء من لم يدخل في شريعة كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل إلى أن قال: بعد ذكر القسمين، فأما القسم الأول فقد قال ﷺ في كل من قس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل:

«أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً» اهـ.

قلت: ومراده ببعض العلماء الأبي في شرح مسلم وقد نقل كلامه الحافظ السيوطي في مسالك الحنفاء بأبسط مما نقله شارح المنظومة السابقة، ثم لقيته رضي الله عنه فعرضت عليه هذا الكلام.

فقال رضي الله عنه: أردت أن أقول معناه، فخفت أن ينقل عني أني أقول إن النبي ﷺ شهد لأهل الجاهلية بدخول الجنة، فأردت أن أختبر هل للعلماء في ذلك كلام، فالحمد لله على وجود كلامهم بالموافقة.

قال: وإنما كان هؤلاء ونحوهم من أهل جنة الفردوس لأن إيمانهم بالله وسط قومهم الكافرين، إنما كان عن عناية عظيمة من الله تعالى بهم أوجبت لهم أن يكون لهم نور عظيم به خرقوا ظلام الكفار وتوصلوا إلى توحيد الله عز وجل من غير هاد لهم من جنسهم.

قلت: فعدد الجنان كم هو؟

فقال رضي الله عنه: ثمان.

فقلت: فما أولها:

فقال رضي الله عنه: دار السلام، ثم يليها جنة النعيم، ثم يليها جنة المأوى، ثم يليها دارالخلد، ثم يليها جنة عدن، ثم يليها جنة الفردوس، ثم يليها جنة عليين، ثم يليها دار المزيد.

قلت: ولم يقع للعلماء رضي الله عنهم تحرير في عدد الجنان كما يعلم ذلك من البدور السافرة للحافظ السيوطي رحمه الله فإنه نقل عن بعضهم أن عددها أربع وعن بعضهم أنها سبع وعن بعضهم أنها جنة واحدة.

قلت: وكون عددها ثمانية يناسب كون أبوابها ثمانية كما وردت به الأحاديث الكثيرة في قوله في حديث:

«فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ».

ورد هذا في أحاديث كثيرة أنظرها في البدور السافرة.

وقال رضي الله عنه: وليس ترتيبها كما يظن الناس أنها لا تكون إلا في جهة فوق ثم بعد كونها في جهة فوق تكون جنة فوق جنة على الترتيب السابق فإنها ليست كذلك، بل هذا العدد ثابت من الجهات الست فمن جاء من جهة أسفل وجدها على هذا العدد ومن جاء من جهة اليمين وجدها على هذا العدد، وهكذا سائر الجهات وأمر الآخرة لا يشبه أمر الدنيا، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه مرة أخرى: عن الجنان وترتيبها وكيفية وضعها.

فقال رضي الله عنه: ليس على وجه الأرض ولا في مخلوقات الله ما بينه وبين الجنة شبه، إلا أن يكون البرزخ فإن له شبهاً بالجنة، والبرزخ لم يشاهده الناس فكيف يصح التمثيل به.

فقلت له بناء على أن البرزخ هو الصور سمعنا في الأحاديث، أنه مخلوق عظيم على صفة القرن، الدائرة والواحدة منه قدر ما بين السماء والأرض.

فقال رضي الله عنه: نعم، وفيه ثقب كثقب شفافة البحر، وفي تلك الثقب تكون الأرواح، ثم تلك الثقب ليست في ظاهره فقط بل له عمق عظيم، وهو كله ثقب كما في ظاهره فلنجعل من تلك الثقب بمنزلة الثقب التي في شهد النحل إلا إذا أردنا أن نقرب المثال بضم شهدة إلى مثالها حتى يكمل ذلك عدد عشرين شهدة مثلاً فلنلصق هذه بهذه وهذه بهذه حتى يصير المجموع شيئاً واحداً فيصير ظاهر ذلك المجموع وباطنه كله ثقب، ولنفرض الشهد مختوماً بغشائه حتى لا يرى ما في الثقب من العسل في الممثل له.

قال رضي الله عنه: فنشير إلى الجنة، فإذا فرضناها مثل ذلك المجموع على قدر ما ينزل التفهيم لا على ما هي عليه في نفس الأمر إذ رحمة الله الواسعة لا نهاية لها، حتى تحصى فنقول: إذا قسمنا ذلك المجموع سبعة أقسام فتكون الفرقة في القسم الأول المشار إليه بالثقبة قدر الدنيا وعشرة أمثالها. والقسم الثاني أضعاف أضعاف ذلك. والقسم الثالث يتضاعف إلى ما لا يحصى. والقسم الرابع لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ففيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والخامس مثل الثالث والسادس مثل الثاني والسابع مثل الأول.

قال رضي الله عنه: وإياك أن تظن أن أهل القسم الأول أدنى من الثاني، وهكذا، بل بعض من في الأول قد يفوق من في الثاني.

ومرة قال: إن الله يعطي المؤمن في الجنة قدر ما فوق رأسه في الدنيا إلى العرش وما تحته إلى العرش وما على يمينه إلى العرش، وما على شماله إلى العرش، وما خلفه إلى العرش، وما أمامه إلى العرش.

ثم قال رضي الله عنه: وهذا أدنى الناس منزلة في الجنة.

قال رضي الله عنه: وإياك أن تظن أن المثال السابق موف بكيفية وضع الجنة أو مقرب بل لا نسبة بينه وبينها أصلاً إنما ذكرناه استئناساً لأنه أحسن من السكوت.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن السرير الواحد يرى في الجنة على أنواع شتى منها ما هو على لون الفضة، ومنها ما هو على لون الذهب، ومنها ما هو على لون الزمرد الأخضر، ومنها ما هو على لون السندس، ومنها ما هو على لون الياقوت الأحمر، وغير ذلك من الألوان التي لا تكيف وأصل الجميع واحد غير متعدد ولا مختلف، فإذا اشتهى الذي على السرير النزهة والانتقال من موضع إلى موضع، انتقل به السرير إن شاء وإن شاء انتقل هو بنفسه فيمشي إلى أي جهة شاء من الجهات الست، بخلاف الدنيا فإنه لا يمشي إلا إلى جهة أمام وفي الجنة يمشي إلى فوق وإلى تحت، وإلى يمين وإلى شمال وإلى خلف وإلى أمام، وله أيضاً جيران في الجهات الست بخلاف غالب مساكن الدنيا فإنه لا شيء فيها في جهة فوق ولا في جهة تحت بل فوقه السماء وتحت البهموت.

قال رضي الله عنه: وجميع ما في الجنة من النعم وأنواع الفواكه والثمار لا يشبهه شيء مما في الدنيا ولو خرجت أسماء نعم الجنة وفواكهها وثمارها على قدر نورها وعلى حسب ما هي عليه في نفس الأمر لما فهم الناس شيئاً من الألفاظ الدالة عليها، لكنه تعالى بفضله ورحمته تنزل فسماها بهذه الأسامي التي يألفون في الدنيا ويعرفون في محاورتهم، فخاطبهم عن أنواع الثمار والفواكه التي في الجنة بذلك ليقع لهم الفهم في الجملة وإن كانت المعاني متباينة.

قال رضي الله عنه: وما مثلت ذلك إلا بهذه الخطابات التي تقع بيننا وبين أولادنا على قدر عقولهم وصغرهم فنسمي لهم الخبز بب واللحم شتى، وغير ذلك مما يقع في مخاطبات الصبيان.

قال رضي الله عنه: فنحن نسمع أن في الجنة عنباً فنحسبه مثل عنب الدنيا، ولو خرجت حبة عنب من جنة الفردوس، إلى الجنة التي تليها لشغلت أهلها بنورها عما في جنتهم، وهكذا لو خرجت حبة عنب من الجنة التي تليها إلى الثالثة لوقع لأهلها مثل ما وقع لأهل الثانية وهلم جرا، إلى أن تخرج حبة عنب من الجنة التي تليها إلى أهل الدنيا أعني السموات السبع والأرضين السبع فإذا خرجت خسف لأجل نورها نور الشمس والقمر والنجوم ولا يبقى إلا نورها وضوؤها والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن أبواب الجنة ثمانية بعدد الجنان كما سبق وإنما تكون هذه الأبواب قبل دخول الناس الجنة وأما بعده فلا تبقى.

فقلت: لأن المقصود من الباب الدخول والخروج فإذا انتفى الخروج لقوله تعالى:

﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

لم تبق فائدة للباب فسكت ولم يقل شيئاً فعلمت أنه لسر آخر أبى أن يذكره.

ثم قال رضي الله عنه: وبإزاء كل باب من أبواب الجنة ملك من الملائكة الثمانية الذين يحملون العرش.

فقلت ما سره:

فقال رضي الله عنه: هو أن نور نبينا ومولانا محمد ﷺ، خلق الله منه عدد هؤلاء الملائكة الثمانية، وعدد الجنان الثمانية، وبعد أن قسمه إلى ثمانية أقسام وخص كل قسم بسر من الأسرار فجعل من كل قسم من تلك الأقسام ملكاً وجنة فتناسبا في الأصل والسر، وجعل من قسم آخر ملكاً وجنة فتناسبا أصلاً وسراً؛ وهكذا إلى تمام الأقسام الثمانية فلذا كان بإزاء كل باب ملك يناسب الجنة التي تشاكله فيسقى ذلك الملك بنور تلك الجنة.

فقلت: وهل باب التوبة المفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها من جملة أبواب الجنة كما هو ظاهر بعض الأحاديث، أخرجه أبو يعلى والطبراني وابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضي الله عنه، فقال في الحديث:

«وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، سَبْعَةٌ مِنْهَا مُغْلَقَةٌ، وَبَابٌ مَفْتُوحٌ لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ شَّمْسُ مِنْهُ».

أورده في البدور السافرة.

فقال رضي الله عنه مشيراً إلى التأويل: نور إلا أن هو جنة من الجنان، بل هو سبب

كل نعيم في الجنان، بل وسبب في الجنان أنفسها فهو سبب كل خير وسعادة، وإذا كانت التوبة باباً له كانت بهذا الإعتبار باباً من أبواب الجنان، وأيضاً فداخل الجنان انتقل من حالة سفلى إلى حالة عليا وهي ما كانت عليه ذاته من الوسخ والخبث، وداخل التوبة كذلك انتقل من حالة سفلى وهي ظلام المعاصي إلى حالة عليا، وهي نور التوبة والطاعة فالتوبة باب من أبواب الجنة بهذا الاعتبار.

قال رضي الله عنه: وأما سده عند طلوع الشمس من مغربها فكناية عن رفع نور الحق من الأرض، ومن الخلائق التي فيها فذلك الرفع هو أمر الله المشار إليه في الحديث:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله»

وهم أهل الدائرة والعدد وكل من أخذ بخطه من ذلك النور فهم حملته وبهم يبقى على وجه الأرض فإذا أراد الله تعالى رفعه من الأرض لم يبق منهم أحد فيرتفع النور لأنه لا حامل له وذكر كلاماً آخر وهو سر من أسرار الله تعالى:

قلت: وما ذكره في تأويل الحديث نقل نحوه الشيخ عبد الرؤوف المناوي في شرح الجامع الصغير عن ناصر الدين البيضاوي واقتصر عليه مرتضياً له.

وإذا تأملته مع ما أشار إليه شيخنا رضي الله عنه وجدت ما أشار إليه الشيخ رضي الله عنه أصح نظراً وأظهر معنى وأوضح في التأويل والله تعالى أعلم.

وسألته رضي الله عنه: لم كانت الجنة تزيد بالصلاة على النبي ﷺ دون التسبيح وغيره من الأذكار.

فقال رضي الله عنه: لأن الجنة أصلها من نور النبي ﷺ فهي تحن إليه حنين الولد إلى أبيه، وإذا سمعت بذكره انتعشت وطارت إليه لأنها تسقى منه ﷺ، ثم ضرب مثلاً بدابة اشتاقت إلى قوتها وعلفها وشعيرها فجيء إليها بالشعير وهي أجوع ما كانت، فإذا شمت رائحته فإنها تقرب منه وإذا بعد عنها تبعته دائماً حتى تدركه، فكذا حال الملائكة الذين في أطراف الجنة وأبوابها، يشتغلون بذكر النبي ﷺ والصلاة عليه ﷺ فتحن الجنة، إلى ذلك وتذهب الجنة نحوهم وهم في جميع نواحيها فتتسع من جميع الجهات.

قال رضي الله عنه: ولولا إرادة الله ومنعه لخرجت إلى الدنيا في حياة النبي ﷺ وتذهب معه حيث ذهب، وتبيت معه حيث بات، إلا أن الله تعالى منعها من الخروج إليه ﷺ ليحصل الإيمان به ﷺ على طريق الغيب.

قال رضي الله عنه: وإذا دخل النبي ﷺ الجنة وأمته فرحت بهم الجنة واتسعت لهم وحصل لها من السرور والحبور ما لا يحصى، فإذا دخلها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم تنكمش وتنقبض، فيقولون لها في ذلك فتقول ما أنا منكم ولا أنتم مني حتى يقع الفصل بواسطة استمداد أنبيائهم من النبي ﷺ.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قولهم: إن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً من كل أحد.

فقال رضي الله عنه: لا شك أن الصلاة على النبي ﷺ أفضل الأعمال وهي ذكر الملائكة الذين هم على أطراف الجنة.

ومن بركة الصلاة على النبي ﷺ أنهم كلما ذكروها زادت الجنة في الإتساع فهم لا يفترون عن ذكرها، والجنة لا تفتر عن الإتساع فهم يجرون والجنة تجري خلقهم ولا تقف الجنة عن الإتساع، حتى ينتقل الملائكة المذكورون إلى التسبيح ولا ينتقلون إليه حتى يتجلى الحق سبحانه لأهل الجنة في الجنة، فإذا تجلى لهم وشاهده الملائكة المذكورون أخذوا في التسبيح فإذا أخذوا فيه، وقفت الجنة واستقرت المنازل بأهلها، ولو كانوا عندما خلقوا أخذوا في التسبيح لم تزد الجنة شيئاً فهذا من بركة الصلاة على النبي ﷺ، ولكن القبول لا يقطع به إلا للذات الطاهرة والقلب الطاهر لأنها إذا خرجت من الذات الطاهرة خرجت سالمة من جميع العلل مثل الرياء والعجب والعلل كثيرة جداً، ولا يكون شيء منها في الذات الطاهرة والقلب الطاهر وهذا معنى ما في الأحاديث الأخر.

«مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله دَخَلَ الجَنَّةَ».

يعني به إذا كانت ذاته طاهرة وقلبه طاهراً، فإن قائلها حينئذ يقولها لله تعالى مخلصاً.

قال رضي الله عنه: ومع ذلك إذا نظرت إلى سطوة الملك وغلبة قهره تعالى وكون قلب العبد بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف شاء ويزين له سوء عمله في الوجهة الذي قلبه إليه، حتى يظهر أنه أولى من الحال الذي كان عليه والعياذ بالله، علمت أنه لا يأمن مكره تعالى إلا من خسر دنياه وآخرته والله تعالى أعلم.

قلت: وهذا الذي ذكره الشيخ رضي الله عنه في قبول الصلاة على النبي ﷺ هو الذي لا شك فيه.

وقد سئل عن هذه المسألة الولي الصالح العام الرابح سيدي محمد بن يوسف السنوسي رضي الله عنه، وقد ذكر له السائل أنه سمع من بعض الفقهاء يقول: إن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة على كل حال، فأجابه الشيخ المذكور بأنه وقع مثل ذلك لأبي إسحاق الشاطبي شارح الشاطبية. واشتشكل ذلك الشيخ السنوسي رحمه الله بأنه لو قلع بالقبول للمصلي على النبي ﷺ لقطع له بحسن الخاتمة، كيف وهي مجهولة باتفاق.

ثم أجاب عن الإشكال بجوابين وهما في الحقيقة احتمالان عقليان لا دليل عليهما من الشرع فلا يقبلان في باب القبول الذي لا يعلم إلا من قبل الشرع.

الجواب الأول: معنى القطع، بقبولها أنه إذا قضى الله تعالى للمصلي بحسن الخاتمة

وجد حسنة الصلاة على النبي ﷺ مقبولة لا ريب فيها، بفضل الله بخلاف غيرها من الحسنات، فإنه لا وثوق بقبولها وإن مات صاحبها على الإيمان، وفيه نظر، فإن هذا التفريق توقيفي لا يعلم إلا من قبل الشرع، فكان الواجب بذل الجهد في تعيين النص على هذا التفريق من صاحب الشرع فإن وجد فذلك وإلا فالعقليات لا دخل لها في أمور الشرع.

الجواب الثاني: أن معنى القطع بقبولها أنها إذا صدرت من صاحبها على سبيل المحبة للنبي ﷺ فإنه يقطع بقبولها فينتفع بها في الآخرة، ولو في تخفيف العذاب إن قضى الله عليه به ولو على سبيل الخلود، ثم قاس ذلك على انتفاع أبي لهب بسقيه في نقرة الإبهام وتخفيف العذاب عنه يوم الاثنين بسبب عتقه الجارية التي بشرته بولادة النبي ﷺ، وعلى انتفاع أبي طالب بسبب محبته للنبي ﷺ، حتى كان أهون الناس عذاباً في الآخرة، وأنه لولا النبي ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار.

قال: وإذا حصل الانتفاع بسبب الحب الطبيعي وإن كان لغير الله فكيف بحب المؤمن لهذا السيد وصلاته عليه، يعني فيكون القياس أحروياً، وفيه نظر فإن النصوص من الكتاب والسنة تكاثرت بإحباط عمل الكافر، وأن الإيمان شرط في القبول وأبو طالب وأبو لهب خرجا من ذلك بنص، فعدل بهما عن سنن القياس فلا يقاس عليهما لأن من شرط المقيس عليه على ما تقرر في الوصول أن لا يعدل به عن سنن القياس.

وقد قال الحافظ السيوطي رحمه الله في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، عندما تكلم على حديث:

«عُرِضَتْ عَلَيَّ أعْمَالُ أُمَّتِي فَوَجَدْتُ مِنْهَا المقْبُولَ وَالمرْدُود إلاّ الصَّلاةَ عَلَيَّ».

لم أقف له على سند:

وقال صاحب [تميز الطيب من الخبيث، فيما يدور على الألسنة من الحديث]:

«كُلُّ الأَعْمَالِ فِيهَا المَقْبُولُ وَالمَرْدُودُ إلا الصَّلاةَ عَلَيَّ فَإِنّهَا مَقْبُولَةٌ غَيْرُ مَرْدُودَةٍ».

قال ابن حجر ضعيف:

وقال السيد السمهودي في كتابه الذي سماه [الغماز على اللماز] عند كلامه عليه ما نصه حديث:

«كُلُّ الأَعْمَالِ فِيهَا المَقْبُولُ وَالمَرْدُودُ إلاّ الصَّلاةَ عَلَيَّ فَإِنّهَا مَقْبُولَةٌ غَيْرُ مَرْدُودَةٍ».

قال ابن حجر ضعيف:

وقال صاحب التمييز أيضاً: حديث: **«الصلاة على النبي ﷺ لا ترد»** هو من كلام أبي سليمان الداراني وأورده في الإحياء مرفوعاً قال شيخنا هو مما لم أقف عليه وإنما هو عن أبي الدرداء من قوله:

«إِذَا سَأَلْتُمُ الله حَاجَةً فَابْدَءُوا بِالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ الله أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ، فَيَقْضِي إِحْدَاهُمَا وَيَرُدَّ الأُخْرَى» اهـ.

وشيخه المشار إليه هو أبو الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد السخاوي رحمه الله تعالى صاحب المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث الدائرة على الألسنة.

إذا فهمت هذا ونحوه علمت أنه لا دليل على القطع بقبول الصلاة على النبي ﷺ، نعم هي أرجى في القبول وأدخل في باب الظنون من غيرها، والله تعالى أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في لباس أهل الجنة، وأنها لا تفنى ولا تطرح، وفي ساعة يلبس الشخص مقدار سبعين ألفاً وإذا كان لا يطرحها فكيف الحال فإنها تثقل عليه.

والجواب أنها أنوار فتجيء أنوار وتذهب أنوار.

وقال رضي الله عنه: إن نظر الذات في لا يقف على حد أبداً، لأن نعم الله فيها لاحد لها، فإذا نظرت الذات إلى نعمة فبمجرد مشاهدتها تحصل له نعمة أخرى في مشاهدتها ثم ثالثة ورابعة، وهي تتنعم بكل نظرة لاختلاف المشاهد ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً بالمرآة الكبيرة، وكانت بين أيدينا وذلك أنا تعجبنا لما رأيناها لأنها كانت كبيرة جداً بحيث أن الشخص يقف فيرى ذاته كلها فيها فاشتد تعجبنا منها.

قال رضي الله عنه: فإذا رأينا أخرى مثلها فلا نتعجب، وإذا رأينا أخرى مخالفة لها فإنا نتعجب أيضاً، كما تعجبنا من الأولى، وفي الجنة لا يرى إلا ما يخالف.

قال رضي الله عنه: واختلف الأولياء في أنا لو رجعنا إلى النعمة الأولى هل نجدها على حالتها الأولى أم لا، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول وقد جرى في كلامه: إن بعض من يكون في الجنة قد يعرض له تحسر وتحزن فكضر بعض أهل العلم فأراد إنكار ذلك وقال إن التحسر لا يكون في الجنة.

فقلت: لا تنكر فإني قط ما سمعته رضي الله عنه يقول شيئاً إلا وجدته منصوصاً عليه بخصوصه أو عمومه. أو بذكر نظيره وأخبرته على هذه الحالة نحواً من خمسة أعوام.

ثم قلت له: وهذا الذي أنكرته منصوص عليه واستحضرت النص ونحن مسافرون والحمد لله فأردت أن أكتب ما قاله الشيخ رضي الله عنه ثم أذكر النص.

فقال لي رضي الله عنه: ولم أنكر ذلك الفقيه أن أهل الجنة كلهم إذا دخلوا الجنة سطع نور الحمد على ألسنتهم ويكون ذلك النور على قدر معرفتهم بربهم في دار الدنيا فإذا

دخلوا وحصلت لهم معرفة بربهم زائدة على ما عرفوا في دار الدنيا زيادة لا تحصى ندموا من عند آخرهم على ما قصروا في حق ربهم وخدمته وعبادته.

قال رضي الله عنه: فهذا أمر يكون في الآخرة وهو حق لا شك فيه ولا مرية.

قال رضي الله عنه: وتقع مسألة أخرى لخصوص الزناة إذا دخلوا الجنة وتجلى لهم الحق سبحانه وتعالى، فإذا علموا ما هم عليه من الخساسة والجهل بربهم وعلموا ما هو عليه من الجلالة والعظمة والكبرياء والقهر والغلبة وسعة الرحمة مع ذلك ندموا، واستحيوا حتى يغشى عليهم مدة، وعند ذلك يقول من عصمة الله من الزنا بعضهم لبعض لقد خصنا ربنا في هذا الوقت بجميع نعمه، فإذا أفاق أهل الغشية حصل لهم من القوة وكمال المعرفة شيء لا يكيف فهذا ما استدل به رضي الله عنه على وجود مطلق التحسر في الجنة.

قلت: وقد ورد النص بذلك.

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في البدور السافرة ما نصه باب تحسر أهل الجنة على ترك الذكر أخرج الطبراني والبيهقي بسند جيد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«لَيس يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إلاّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا الله فِيهَا».

وأخرج أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ.

«ما قَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَداً لَمْ يَذْكُرُوا الله فِيهِ وَلَم يُصَلّوا على النَّبيِّ ﷺ إلاّ كانَ عَلَيهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلثَّوابِ».

وأخرج البيهقي وابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها، قالت قال رسول الله ﷺ.

«مَا مِنْ سَاعَةٍ مَرَّتْ عَلَى ابْنِ آدَمَ لَمْ يذكرِ الله فِيها بِخَير إلاّ تَحَسَّرَ عَلَيْهَا يوْمَ الْقِيَامَةِ» اهـ.

ما أورده الحافظ في هذا الباب.

وقال في باب لباس أهل الجنة، أخرج الطيالسي بسند صحيح والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ في الدُّنيَا لَمْ يلْبَسْهُ في الآخِرَةِ، وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبِسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يلْبَسْهُ هُوَ».

قال في موضع آخر أخرج الشيطان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ في الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا في الآخِرَةِ».

والأحاديث في هذا كثيرة فلنقتصر على هذا القدر لأن الغرض جمع كلامه رضي الله عنه ونفعنا به.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن المؤمنين يستحضرون النعم في عقولهم ويجرونها على قلوبهم ويفرحون بالجنة وبما أعد الله تعالى لهم فيها من النعيم.

وأما الولي ففكره منقطع عن غير الله تعالى وليس المراد أن فكره يتوجه لغيره تعالى وهو يقطعه بل المراد أنه لم يخلق في عقولهم ولا يخلق أبداً الفكر في غير الله تعالى، ولذا سموا أولياء الله لإنقطاعهم عن غيره تعالى.

فهذا الكلام منه رضي الله عنه جمع على الله ودلالة عليه وترفيع لهمة العبد حتى لا يشتغل بالنعمة وينسى الذي أنعم عليه سبحانه وتعالى بل الواجب عليه هو الإشتغال بالمنعم عليه والابتهال إليه والتضرع بين يديه والخضوع إليه هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه العبد المؤمن.

وأما النعم فلا يكون تشوفه إليها إلا على طريقة التحبب إلى ربه والتودد إليه والإقرار بأنها منه سبحانه وتعالى فلا ينظر إليها إلا بهذه العين، وأما قبلها فهو مع سيده وخالقه، حتى لو فرضنا فقدان تلك النعمة أو عدم وجودها أصلاً فإن القلب يبقى على ما هو عليه من التوجه إلى سيده والاستغراق في بحار توحيده وأسرار ألوهيته، فلا يشغله وجود نعمة ولا زوالها عن المنعم سبحانه وتعالى.

ولذا سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: إذا حصل للولي مراده من الحق سبحانه وتعالى فلا يبالي أين ينزله الحق سبحانه وتعالى، ثم ضرب مثلاً بدودة متشوفة لأكل العسل بجميع عروقها وأجزائها، فإذا جعلت هذه الدودة في خابية عسل واتصلت بمطلوبها وجعلت تأكل ليلها ونهارها منه فإذا جعلت هذه الخابية التي فيها العسل والدودة في خابية أخرى أكبر منها مملوءة بالقطران فإن الدودة لا تبالي بذلك ولا يقع في قلبها غير عسلها ولا يتكدر عليها مشروبها برائحة قطران ولا يغيره، لأن ذاتها وكليتهما متشوفة إلى العسل منقطعة عن غيره فلا تتشوف للقطران فضلاً عن أن تتكدر به والله أعلم.

الباب الثاني عشر

في ذكر جهنم أعاذنا الله منها
وبعض ما سمعناه من الشيخ رضي الله عنه

سمعته رضي الله عنه يقول: إن أهل جهنم لا يرون الأشجار والأنهار التي هي قريبة منهم، بل لا يرون إلا ما هو بعيد منهم قدر الأرضين السبع وما يبينهن ليزدادوا عذاباً على عذابهم، فيرون على بعد المسافة السابقة في نار جهنم ما هو على صورة الأشجار ولها ثمار وأوراق خضر فيسرعون إليها ليدفعوا العذاب الذي بهم بأكل ثمارها والدنو منها، فيقطعون المسافة السابقة في نحو ثلاث خطوات استعجالاً فيأخذون من ثمارها وأوراقها فيجعلونه في أفواههم.

قال رضي الله عنه: وكلما دخل الفم من جهنم والجنة لا يستطيع العبد إخراجه كما يستطيعه في دار الدنيا، فإذا وقع في فمهم ورق أو ثمر كان أشد عليهم من العذاب السابق فيرجعون القهقرى فيقطعون المسافة السابقة في نحو خطوة ونصف لما بهم من الحريق، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في نار جهنم: إنها لا ترى شاغلة نيرة كنار الدنيا لأن النار التي تشتعل تستأنس بها الذات مع الطول فلا تتألم بها ولا ترجع عليها عذاباً، وإن صفة جهنم ظلام محض، وإنه لو أخرج منها قدر الثمرة وفرق جرمه في الهواء حتى يصير في تفريقه مثل الدخان فإنه لا يظهر فيه الضياء والاشتعال.

قال رضي الله عنه: ولو ملأنا الدنيا ناراً ثم قدرنا أنها ضمت وجمعت جمعاً شديداً حتى صارت في مثل الصندوق، فإنها ترجع سواداً محضاً وظلاماً خالصاً.

وسمعته رضي الله عنه يقول: في جهنم أودية، وإن المرأة من أهل جهنم تحمل ولدها على ظهرها ذاهبة لنحو الوادي مسيرة المسافة السابقة لشدة العطش النازل بها، وقد بلغت الوادي وكرعت فيه سفها هي وولدها.

قلت: كذا سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول في ولدها، ولم أسأله عن الولد هل هو من ولادة جهنم حتى يكون فيها تناسل أو هو من أولاد الدنيا، فإن كان من أولاد الدنيا فقد علمت اختلاف العلماء رضي الله عنهم في أولاد الكفار وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال:

«اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ».

لما سئل عنهم وهو الذي اختاره إمامنا مالك رضي الله عنه، فعلى هذا فمن علم منه تعالى أنه لو كبر لآمن بمحمد ﷺ فهو من أهل الجنة، وعليه يحمل حديث جابر بن سمرة في رؤياه ﷺ لأولاد الكفار في الجنة، ومن علم منه تعالى أنه لو كبر لكفر بمحمد ﷺ فهو من أهل النار، وعليه يحمل هذا الحديث وعليه تتخرج أيضاً قصة غلام الخضر حين قتله مع صغره.

وقال العلماء رضي الله عنهم: إنه مع صغره طبع على الكفر والعياذ بالله.

وقد سألت الشيخ رضي الله عنه عن هذه المسئلة.

فقال رضي الله عنه: الصحيح فيها ما دل عليه هذا الحديث، وزاد رضي الله عنه فقال وكم صبي يموت صغيراً ويبعث من حملة كتاب الله عز وجل، لأنه تعالى علم أنه لو عاش لقرأ كتاب الله فيبعث من جملة حملته، وكم من صبي يموت وهو صغير فيبعث من جملة العلماء الأولياء وغير ذلك لعلمه تعالى بأنه إذا كبر كان من تلك الطائفة.

فقلت: وقد وقعت حكاية لبعض أصحابنا وقد ناهز الاحتلام وقرأ القرآن برواية قالون أو قراءة ابن كثير فذهب لزيارة الولي الصالح سيدي أبي يعزى نفعنا الله به بنية أن يقرأ القرآن بسبع روايات، وكانت له في ذلك نية صالحة وعزم نافذ، فجعل يطلب ذلك من الشيخ المذكور ويؤكد عليه في الطلب وقال له يا سيدي جئتك مسيرة ثلاثة أيام ولا حاجة لي أن طلبها منك سوى هذه الحاجة، فلا تخيب طلبتي، فبينما هو كذلك إذ غلبته عيناه فوقف عليه الشيخ أبو يعزى رضي الله عنه برسم مكتوب على هيئة الإجازة التي يكتبها السبعيون ببلاد المغرب، وفيه خطوط العلماء والقراء بأن الزائر من جملة السبعين وأنه من حفاظهم، فقال له الشيخ أبو يعزى خذا جازتك فأنت من جملة حفاظ السبع، فلما قدم من زيارته مرض ومات رحمه الله ولم يزد في القراءة شيئاً، فسألني أبوه عن وجه الرؤيا وتأويلها فأجبته بما سبق، ففرح كثيراً وزال ما به من الغم، والله أعلم.

وانظر الحافظ ابن حجر في الفتح من كتاب الجنائز والحافظ السيوطي في البدور السافرة لتعلم ما قاله المحدثون والعلماء رضي الله عنهم في أولاد الكفار، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن مالكا خازن النار عليه السلام يراه كل من يمر بالنار مؤمن أو كافر، إلا أن المؤمن يراه ويعلم أنه مخلوق من سر إيمان المؤمن فلا يدهش منه، وأما الكافر فإنه يموت منه رعباً والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن أضعف كافر له في جهنم قدر الدنيا وعشرة أمثالها في الاتساع.

فقلت: وأين ضيقها فقال رضي الله عنه: من إحاطة العذاب بهم.

فقلت: فلو كان رجل في دار وهو يضرب فيها ليلا ونهاراً لعلم بالاتساع وترتاح نفسه له ولا يكون في قلق من يضرب ليلا ونهاراً في مكان ضيق مثل زج الرمح.

فقال رضي الله عنه لأن الهواء لا عذاب عليه فيه، وهواء جهنم نار خالصة فهو فيها معذب ظاهراً وباطناً يتخبط فيها تخبط الدجاج المذبوح وتارة يستغيث ويصرخ، فلو مر بهم مؤمن وسمع صوتهم حين يستغيثون ويصرخون لتعطلت حواسه كلها ولا يزيدهم ذلك إلا بعداً وعذاباً، لأن النار تزيد قوتها وحريقها، فهم حينئذ بمنزلة من يأخذ أعواد النار التي في الكانون وينفض عنها الجمر والرماد فإن النار يزيد اشتعالها في تلك الأعواد والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن في جهنم دوراً وقصوراً وأبواباً وأشجاراً وحيطاناً وأودية كحال مدينة من مدن الدنيا، غير أنك إذا أخذت أي جوهر أخذته من أجزائها وأجزاء دورها وقصورها وغير ذلك وجدته ناراً خالصة وعذاباً صافياً، فالدور والقصور والأشجار والأودية كلها نار خالصة لو خرج جوهر منها إلى دار الدنيا لأحرقها برمتها.

قال: وإن العبد في دار الدنيا يعمل أعمالاً فتبني له قصور في جهنم، فإذا تاب في تلك الأعمال أو عمل عملاً صالحاً تقبله الله منه زالت تلك القصور التي بنيت له في جهنم وبنيت له قصور في الجنة.

وحكى لنا رضي الله عنه: أن امرأة من المؤمنات كانت حاملة بغوث الزمان، وكان عند جيرانها عرس فذهبت إلى دارهم لتتفرج فسرقت حاجة لها قيمة لمولاة العرس، فاتهمت بها تلك المؤمنة وحبستها عن الذهاب إلى دارها وكان زوجها شريفاً لا يرضى بخروجها من باب الدار فضلاً عن ذهابها إلى دور الجيران، وكانت له نفس أبية، وخافت المرأة المؤمنة أن يعلم زوجها الشريف بخروجها فكيف بنسبتها إلى السرقة، فكيف بحبسها، فنزل بها من الخوف من زوجها ما لا يعلمه إلا الله، فحصل للحمل ضرر في بطنها فبنيت قصور ودور لتلك المرأة الكاذبة في جهنم، ثم بقيت القصور مبنية إلى أن زاد ذلك الحمل وكبر وماتت أمه وماتت أبوه، وأراد أن يتزوج فأعطته تلك المرأة ما أصدقه لزوجته فأزال الله تعالى قصورها في جهنم، وتقبل الله عز وجل منها بفضله ورحمته ما فعلته مع ذلك الولد فسبحان من له هذا الملك.

وقال رضي الله عنه: ما يحرك العبد رجله يمدها أو يردها إلا بنى له قصر في جهنم أو في الجنة ولا يختلج في باطنه عرق حالة نومه إلا بنى له قصر في جهنم أو في الجنة، وإذا كان هذا في هذه الأفعال التي لا يقصدها العبد فما ظنك بالأفعال التي يقصدها، وقد نهى عنها الشرع أو أمر بها.

فقلت: وكيف تبني القصور على الأفعال التي لا تقصد لا سيما أفعال النائم.

فقال رضي الله عنه: المعتبر في بناء القصور الحالة التي يرجع الشخص إليها عند القصد فهي السبب في بناء قصوره سواء كان له قصد أو لم يكن له فالحالة التي يرجع إليها الكافر حالة قصده هي حالة كفره وطغيانه فهي المعتبرة في بناء قصوره في جهنم على أي حالة صدرت منه أفعاله سواء صدرت على سبيل القصد أو الغفلة أو حالة النوم، والحالة التي يرجع إليها المؤمن حالة قصده هي حالة إيمانه ومحبته للنبي ﷺ فهي السبب في بناء قصوره في الجنة سواء صدرت منه أفعاله قصداً أو غفلة أو مناماً، جعلنا الله من المؤمنين ولا أخرجنا من زمرتهم آمين.

قلت: وهذه مسألة جليلة نفيسة طال نزاع العلماء فيها حيث تكلموا على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، فإنهم اختلفوا هل يجري هذا الخلاف في أفعال الكفار المباحة مثل الأكل والشرب ونحوهما. فقالت طائفة: إنه يجري وإنه لا مباح عند الكفار أصلاً لأن الإباحة خطاب شرعي من نبينا ﷺ، إذ شرائع غيره منسوخة بشرعه وهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ ويزعمون أنهم غير داخلين تحت شرعه الشريف فيلزمهم أنهم لم يدخلوا تحت الإباحة الشرعية، وإلى هذا ذهب المحققون منهم كتقي الدين السبكي وهو الذي كان يظهر لنا صوابه فتكون أفعال الكفار لعنهم الله بأسرها معاصي وذنوباً وعليه كلام الشيخ رضي الله عنه.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إنك إذا نظرت إلى جهنم أو الجنة ونظرت إلى قصور أهلها وبساتينها وجدت أعمال العباد في الدنيا مرتبطة بتلك النقم أو النعم التي في الآخرة.

ثم حكى لي رضي الله عنه في ذلك حكاية وقال: نظر بعضهم إلى قصر بعض المؤمنين الأحياء في الجنة فرأى فيه نعمه تحركت للزيادة وأرادت أن تتهيأ للانتقال من حالة إلى حالة.

قال رضي الله عنه: كحبة العنب إذا أراد أن يجري فيها الماء والحلاوة ثم نظر إلى ذلك المؤمن الذي له القصر فرآه في حانوته يبيع الثياب ثم تحرك خاطره وانزعج فقام من حينه وأغلق حانوته وذهب إلى داره، وقال لأهله هذا اليوم يوم نفقة وجيراننا لا شيء عندهم.

قال رضي الله عنه: وكان في جيرانه امرأة لها بنات وكن محاويج فأمرتهن أمهن بالاجتهاد في الغزل لعلهن أن يفرغن في أول النهار، فتبيع ما تشتري به قوتاً لهن، حتى تسد أطماعهن عن الخلق، فقال الجار لامرأته اصنعي طعاماً لنا ولجارتنا، فأخذت المرأة في تصويبه وأمرها بالعجلة فيه والاتقان له والاكثار منه، وأخذ قعبين وخرج إلى السوق وملأهما لبنا فلما أكملت المرأة الطعام قسمه نصفين وأخذ نصفاً له والنصف الآخر جعله في آنية وسقاء ثم حمله بنفسه وحمل أحد العقبين إلى جيرانه والبنات مشتغلات بالجد في

الغزل وهن جياع، فلم يرعهن إلا وصاحب الطعام يدق الباب عليهن وقال: قد علمت أنه لا داخل عليكم في هذا اليوم، وأنه يوم نفقة فهذا ما يكفيكم من الطعام فخذوه وخذوا هذا اللبن، ففرحن بذلك غاية وانصرف وأكلن وطلبن الله له في القبول فنظر ذلك الولي إلى تلك النعمة التي تحركت للزيادة فوجدها قد زادت وانتقلت إلى حالة لا تكيف ولا توصف، هذا والأمر غيب عن صاحب الطعام والرب سبحانه وتعالى يحرك عباده فيما يصيرون إليه والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه ذات يوم عن بعض أهل الظلم وقد اشتد طغيانه وعتوه وكرهه الناس وتبرءوا منه غاية.

فقلت ادع الله عليه فقال رضي الله عنه: إنه إلى الآن لم تكمل قصوره في جهنم وبقيت له قصور كثيرة ولا يموت حتى يكملها، وقد توفي الشيخ رضي الله عنه وذلك الرجل في قيد الحياة إلى الآن نسأل الله السلامة، والله أعلم.

وسألته رضي الله عنه: عن بعض أهل الظلم والطغيان وقد عزل عن مرتبته وفرح الناس بذلك غاية فكلمته في ذلك.

فقال رضي الله عنه: أوّه يا سيدي فلان إلى الآن لم يكمل نصابه فرد إلى مرتبته، ورجع إلى حالته ولم يزل في قيد الحياة إلى وقتنا هذا، وهو آخر يوم من رمضان سنة ست وثلاثين ومائة ألف، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في أرواح الحيوانات التي لا ثواب لها ولا عقاب عليها منها ما يكون في جهنم عذاباً على أهل جهنم، ومنها ما يكون في الجنة نعمة لأهلها، فأرواح الكلاب والسباع والذئاب وما يستقبح من هذه الحيوانات في جهنم، إن كانت مع الكفرة في الدنيا وإلا فلا والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: وكان اليوم يوم العيد الأكبر أنه ينزل في هذا اليوم ملائكة لقبض أرواح الضحايا فيرى على كل بلدة أو مدينة أو موضع يضحي فيه يوم العيد ملائكة كرام يحومون لا ينزلون إلى الأرض، إلا في هذا اليوم فإذا ذبحت الضحية أخذوا روحها وذهبوا إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن كانت نية صاحبها صالحة في ذبحها وأنه لم يرد بها إلا وجه الله خالصاً ولم يرد بها لا فخراً ولا كبراً ولا رياءً ولا خيلاءً أخذوا روح ضحيته وذهبوا بها إلى قصوره في الجنة فتصير من جملة نعمه التي في الجنة، وإن كانت نية صاحبها على العكس من ذلك بأن كانت نيته فاسدة وعمله لغير الله عز وجل اخذوا روح ضحيته وذهبوا بها إلى جهنم وتصير نقمة من النقم التي أعدت له في جهنم، وإذا نظرت إلى تلك الروح رأيت كبشاً بذاته وصورته المعلومة بقرونه وصوفه والكل نار حامية فشعر صوفه كله نار وقرونه نار وذاته كلها نار نسأل الله السلامة.

وقال لي رضي الله عنه: ذكر هذا الكلام للناس فإنهم في غاية الاحتياج إليه فذكرته لجماعة من الناس، وفقنا الله وإياهم وجميع المسلمين للنية الصالحة والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الجني في جهنم لا يعذب في النار الحامية لأنها طبقة فلا تضره وإنما يعذب بالزمهرير والبرد، والجن في الدنيا تخاف من البرد خوفاً شديداً فتراهم إذا كانوا في زمن الصيف وفي الهواء يتخوفون من هبوب الريح الباردة فإذا هبت فروا فرار حمر الوحش، وأما الماء فلا يدخله الجن ولا الشياطين أبدا، فإن قدر على أحد أن يدخله طفيء وذاب كما يذوب أحدنا إذا دخل النار والله أعلم.

قال رضي الله عنه: وإذا خفى عليك كيف أجسام الجن فانظر إلى نار مظلمة جداً يكثرة دخانها مثل ما يكون في الفخارين وصور فيها صورهم التي خلقوا عليها، فإذا جعلت الصورة في ذلك الدخان وألبسته إياها فذلك هو الجني والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: في عذاب قاتلي الأرواح إنه ليس كعذاب أهل النار.

فقلت: وكيف هو؟ فبينه رضي الله عنه بضرب مثل فقال: لو فرضنا ملكاً له قاعات فيها اليهود والمؤمنون وله سوران أحدهما يتعلق فيه اليهود والآخر يعلق فيه المؤمنين ثم إن عصاه واحد من المؤمنين فعلقه في سور اليهود فنعلم أنه أهانه إهانة عظيمة حيث جمعه مع اليهود في سور واحد.

فقلت بين لنا، فقال رضي الله عنه: إن في جهنم ناراً حارة وبها يعذب بنو آدم وناراً باردة وبها يعذب الشياطين كما سبق بيانه وقتلة الأرواح بهذه النار يعذبون مع الشياطين.

قال رضي الله عنه: ولا يختص هذا بالقتلة بل بعض العصاة كذلك ثم أراد أن يعينهم ويعين الحكمة في تعذيبهم بالنار الباردة فجاء من قطع الكلام، والله أعلم.

قال لي رضي الله عنه مرة: أتدري من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟

فقلت: من هو؟

فقال رضي الله عنه: عبد أعطاه الله ذاتاً كاملة وعقلاً كاملاً وصحة كاملة ومهد له في العيش وأسباب الرزق، ثم يبقى هذا الرجل اليوم واليومين وأكثر ولا يخطر بباله خالقه سبحانه وتعالى، وإذا أمكنته المعصية أقبل عليها بذاته الكاملة وعقله الكامل واستحسنها واستلذ بها من غير فكر مشوش عليه، ناحية ربه تعالى، فتجده متصلاً بالمعصية غاية الاتصال ومنقطعاً عن ربه كل الانقطاع يميل بكليته وهويته إلى المعصية ويستحليها غاية الاستحلاء فيكون جزاء هذا يوم القيامة بأن ينقطع إلى العذاب بجميع شراشره وينساق إليه بالكلية ويقع فيه مرة واحدة.

قال رضي الله عنه فالغفلة عن الخالق سبحانه وتعالى ولا سيما في حال المعصية شأنها عظيم وأمرها جسيم فينبغي للمؤمن إذا عصى أن يعلم أن له رباً قادراً عليه فيحصل له الخوف والوجل فتنكسر بذلك سورة الذاب إن لم يقع بالكلية والله أعلم.

هذا آخر ما كتبه مؤلفه الفقيه الوجيه العالم العلامة والجهبذ الفهامة سيدي الشيخ أحمد بن مبارك السلجماسي اللمطي رحمه الله تعالى مما سمعه من شيخه سيدنا ومولانا غوث الزمان سيدي عبد العزيز ابن مولانا مسعود الدباغ الإدريسي الحسني رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بعلومه آمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهرس محتويات

كتاب

الإبريز

من كلام سيدي عبد العزيز الدبّاغ

فهرس المحتويات

الفصل الأول ٨

في أولية أمره قبل ولادته ٨

الفصل الثاني ١٣

في كيفية تدريجه إلى أن وقع له الفتح رضي الله عنه وذكر العارفين الذين ورثهم في الشهادة والغيب ١٣

الحكاية الأولى ١٨

الحكاية الثانية ١٩

الحكاية الثالثة ١٩

الحكاية الرابعة ١٩

الحكاية الخامسة ٢١

الفصل الثالث ٢٢

في ذكر بعض الكرامات التي ظهرت على يد الشيخ رضي الله عنه ٢٢

الباب الأول ٥٣

في الأحاديث التي سألناه عنها ٥٣

الباب الثاني ١٧١

في بعض الآيات القرآنية التي سألناه عنها وما يتعلق بذلك من تفسير اللغة السريانية . ١٧١

الباب الثالث ٢٤٣

في ذكر الظلام الذي يدخل على ذوات العباد وأعمالهم وهم لا يشعرون ٢٤٣

الباب الرابع ٢٧٨

في ذكر ديوان الصالحين رضي الله عنهم أجمعين ٢٧٨

الباب الخامس ٢٩٨

في ذكر التشايخ والإرادة وبعض ما سمعنا منه في هذا الباب رضي الله عنه ٢٩٨

الباب السادس ٣٣٦
في ذكرشيخ التربية ٣٣٦
فصل ٣٦١
الباب السابع ٣٧٤
في تفسيره رضي الله عنه لبعض ما أشكل علينا من كلام الأشياخ رضي الله عنهم ... ٣٧٤
فصل ٣٩٩
الباب الثامن ٤٢٢
في ذكر ما سمعنا منه رضي الله عنه في خلق أبينا آدم وتدريج أمره على نبينا وعليه الصلاة والسلام وبيان أن خليقة بني آدم هي أفضل الخلائق وأن شكل صورتهم هو أفضل الأشكال ٤٢٢
الباب التاسع ٤٢٩
في الفرق بين الفتح النوراني والظلماني وما يتبع ذلك من تقسيم النوراني إلى فتح أهل الكمال ٤٢٩
الباب العاشر ٤٥٢
في البرزخ وصفته وكيفية حلول الأرواح فيه ٤٥٢
الباب الحادي عشر ٤٦٢
في الجنة وترتيبها وعددها وما يتعلق بذلك ٤٦٢
الباب الثاني عشر ٤٧٥
في ذكر جهنم أَعاذنا الله منها وبعض ما سمعناه من الشيخ رضي الله عنه ٤٧٥